

جيلبير سينويه

الفرعون الأخير

محمد علي بين ١٧٧٠ - ١٨٤٩

تقدمه: ديروش نوبلكور

ترجمة

حافظ الجمالي

الفرعون الأخير

إهـــــــداء ٢٠٠٨

وزارة الثقافة

الجمهورية العربية السورية

جيلبير سينويه

الفرعون الأخير

محمد علي بين ١٧٧٠-١٨٤٩

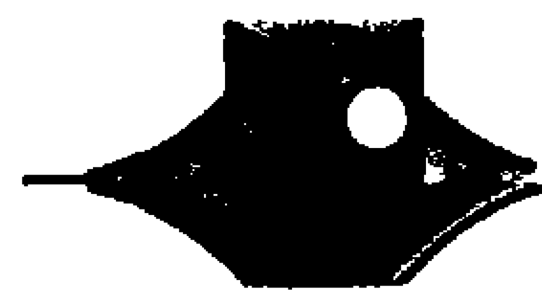
تقدمه

ديروش نوبلكور

مفتشة عامة فخرية في إدارة الآثار المصرية في متحف اللوفر

ترجمة

حافظ الجمالي



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٥

عنوان الكتاب باللغة الإفرنسية:

GILBERT SINOUE
LE DERNIER PHARAON
Mehemet Ali 1849 - 1770
Presentatio de
CHRISTIANE DESROCHES NOBLECOURT
Inspecteur General Honoraire
Departement Des Antiquites Egyptiennes
Du Musee du Louvre
PYGMALION
Gerard Watelet
Paris

الفرعون الأخير : محمد علي بين ١٧٧٠-١٨٤٩ = Le Dernier Pharaon/ جيلبير سينويه ؛ تقدمة ديروش نوبلكور ؛ ترجمة حافظ الجمالي .- دمشق : وزارة الثقافة، ٢٠٠٥ .- ٦٢٤ ص؛ ٢٤ سم .

١- ٣٢٠,٠٩٢ : محمد علي باشا س ٢- ٩٦٢,٠٣
س ي ن ف ٣- العنوان ٤- العنوان الموازي
٥- سينويه ٦- الجمالي

إني لم أكرّس كل حياتي لمصر، ولم أقم بأعمال ربما بدت مستحيلة لآخرين غيري، لكي أخلّف بعدي متعة لواحد من الباشوات.

ولن أقبل أن تصبح مصر إنجليزية، أو أن تغدو تركيا روسية.

محمد علي

مقدمة

حول آثار رمسيس ونابليون

من المناسب لدى اقتراب المئة السنة الثانية، أن نركّز على واحدة من النتائج الكثيرة واللامتوقعة، للحملة الفرنسية على مصر: ومنها وصول تاجر تبغ - تركي ألباني، وُلدَ في كافالا في مكدونيا - إلى شواطئ النيل، وأصبح ضابطًا في جيش السلطان سليم الثالث، وباشا في استامبول، أضف إلى ذلك أنّه أمّي كل الأميّة. وكان، بتعليمات من السلطان، قد أُدخل في الجيش العثماني، وأُرسْل إلى القطر المصري، على رأس ثلاث مئة من المرتزقة الألبانيين، لكي يشارك في النضال ضدّ جيش بونابرت.

وبعد كارثة أبو قير (١٨٠١)، نراه يتولى رئاسة جنده. ومنذ عام ١٨٠٣، كانت السلطة في مصر متقاسمة بين المماليك والألبانيين ذاك الذي كان قد أصبح بنباشي، يعتمد في قوته على الاستناد إلى الشعب المصري.

ترى لو لم تكن عساكر الفرنسيين، الذين كان يخشاهم الباب العالي، والقوى البريطانية، موجودين داخل مصر، أو في شواطئها، أكان يمكنه أن يستفيد من مثل هذه الأحداث، لكي يكتشف ويتبنى هذا البلد الذي أصبح باشا فيه منذ عام ١٨٠٥، ويغدو فيه فرعونها الحقيقي.

ويضاف إلى هذه الأحداث، إعجاب أساسي بالإمبراطور نابليون، وجاذبية خاصة، لحضارة فرنسا، شريكته المتميّزه، وهي جاذبية أثارها السيد Lion، أحد أبناء مرسيليا، الذي كان صفيّه في الطفولة في كافالا.

وقد جعلته هذه الاستعدادات ، يستند إلى فرنسا، في كل المجالات، تقريبًا، لكي يُحوّل أرضًا طالما استعُبدت، إلى مصر جديدة منتجة، تشعر بهويتها الوطنية. وهكذا أخذ هذا المغامر العبقري (كما وصفه لامارتين)، على عاتقه، مستقبل بلدٍ غَرَسَ فيه قواعد أسرته في عام ١٨٠٨ ، منذ أن اشتدّ ساعده، واستولى على أرضٍ اعتبرها أرضَه، ودافع عنها بقوة أسلحته، وبمهارته العجيبة، في دبلوماسيته المكيافيلية أحيانًا.

ويجسّد محمد علي، حقًا، أعجوبة مصر أو معجزتها. ومهما يكن الأفق الذي يطلّ الإنسان منه على المنطقة، فإنه يبقى أن يُريد فهمها وحبّها، كي يُتقبل من البلد ويصبح واحدًا من أبنائه. فالمصري الذي لم يكن يكره الأجنبي، في أي زمن، عرف كيف يستقبل الأجنبي، عندما كان هذا الآخر لا يريد أن يستعبده ، بل وأن يفتح له قلبه. فمنذ أقدم الزمان، كانت عناصر أجنبية تغشى مصر، فتتبناهم ،ويتبنونها، ولعلّ محمد علي كان ألمعهم ، حتى لقد وُجد بين الفرنسيين من يحذو حذوه، وكان أبرز هؤلاء، الفرنسي Seve، الذي سمّي فيما بعد باسم سليمان باشا.

ويقوم محمد علي، المدعوم بأبنائه، الذين كان إبراهيم أكثرهم تميُّزًا، فيقود المعركة من السودان، حتى جبال طوروس ويفتح سورية والحجاز، **ويضعف بأمر من السلطان من شأن الوهابيين**، ويهزمهم. كانوا هم أولّ الأصوليين، في الجزيرة العربية. بل إنّ ابنه طوسون استطاع احتلال مكة نفسها. ولّما كان مراقبًا رقابة **عنيفة**، وخاصة من انجلترا، ومن روسيا أيضًا، فإنه حقًا، لم يستطع النظر إلى الوضع المترديّ للفلاّح، إلا أنّه استطاع أن يجعله يرفع رأسه، من خلال يقظة بلده، ويخطّط له إصلاحًا زراعيًا، وجدّد ما لديه على كلّ المستويات العسكرية والعلمية على السواء. **ولم ينسَ** القضايا الزراعية، والقانونية، والصحية، والمالية، والتجارية، خدمةً لهذا البلد، الذي كان، حتى ذلك الحين، كالسجين - حتى ولو كان يعتبر نفسه رئيسه الذي لا يماري، هو المستفيد الوحيد، مما يعمله له.

ولما كان ضحية لتوسّعه المتفجّر، فإنه « لم يكتفِ بامتلاك أرض مغُرقة، تخاصم الطّامعون سنين كثيرة حولها» كما قال ذلك هو . بل إنّ الإمبراطورية التي أسّسها من الخليج العربي، حتى صحراء ليبيا، ومن السودان إلى البحر الأبيض المتوسّط، كانت تعادل عشرة أضعاف مساحة فرنسا، أو لنقل نصف أوروبا، كما يقول جيلبرت سينويه. ولكن عندما أوشك على الموت، كانت هذه الإمبراطورية، تتسلّل من بين يديه. وبالمقابل، فإنّ الأرض « المغرقة» التي كانت ترتبط به عضوياً، بعد أربعة وأربعين عاماً، من الإشراف عليها، كانت قد خرجت من الهوّة التي كانت فيها بمقدار ما كانت تجسّدُ أجمل مثال على نهضةٍ لبلده مصر، التي كان يخلّفها لورثته.

وحقّاً فلأنّ سينويه قد انفتحت عيناه على هذا البلد، ولأنّه يفهم بعمقٍ ما نسميّه بالشرق الأدنى، استطاع أن ينفذ بدقّة عظيمة إلى عقيلة بطله، وأن يُحلّلَ ردودَ فعله، ويفهم الدوافع التي تحركه. أضف إلى ذلك، أنّه كان مُسلّحاً بمعرفة دقيقة جداً، لا تشكو من أية ثغرة: وهذا ما جعله يتابع حتى الموت تلك المغامرة اللا معقولة، لرجل كافالا، الذي ذهب ورثته إلى حدّ الادّعاء بأن مصر لهم، بحكم الوراثة، تماماً كما كان الأمير فؤاد الثاني، في أيامنا هذه، يُطالب به عندما كان يتزوّج من فرنسيّة، ويصرّح بأنّها تدخل في « البيت الملكي لمحمد علي»، على نحو ما كانت تُذكّرنا به بطاقات الدعوة إلى عرسه، في ٥ / ١٠ / ١٩٧٧*.

ويقدّم لنا سينويه، بطله، كما لو أنّه في آن واحد، يملك هيبة الأسد، كما يملك الحيلة والمهارة العظيمة التي يملكها الثعلب. وكان شديد الاحترام والانتباه لزوجته الأولى أمينة خانم المثالية، وأباً حريصاً على أولاده الثلاثين. وعطوفاً عليهم. وكان سيداً حسن المجاملة، وفيّاً لكلامه(وعوده) على كونه مفعماً بظمأ إلى السيطرة، وكثير الحذر، ولكنّه متسامح (كان المسيحيون في عهده يُعاملون معاملة المسلمين)، وموهوباً في حضور الذهن، بصورة رائعة، في كلّ الظروف.

(*) أنظر في الملحق

ومع أنّه شديد التأثر، فقد استطاع أن يتحمّل آلام مذبحة المماليك، وأن يستنكر خلع ملك صديق، كما جرى للملك لويس فيليب.

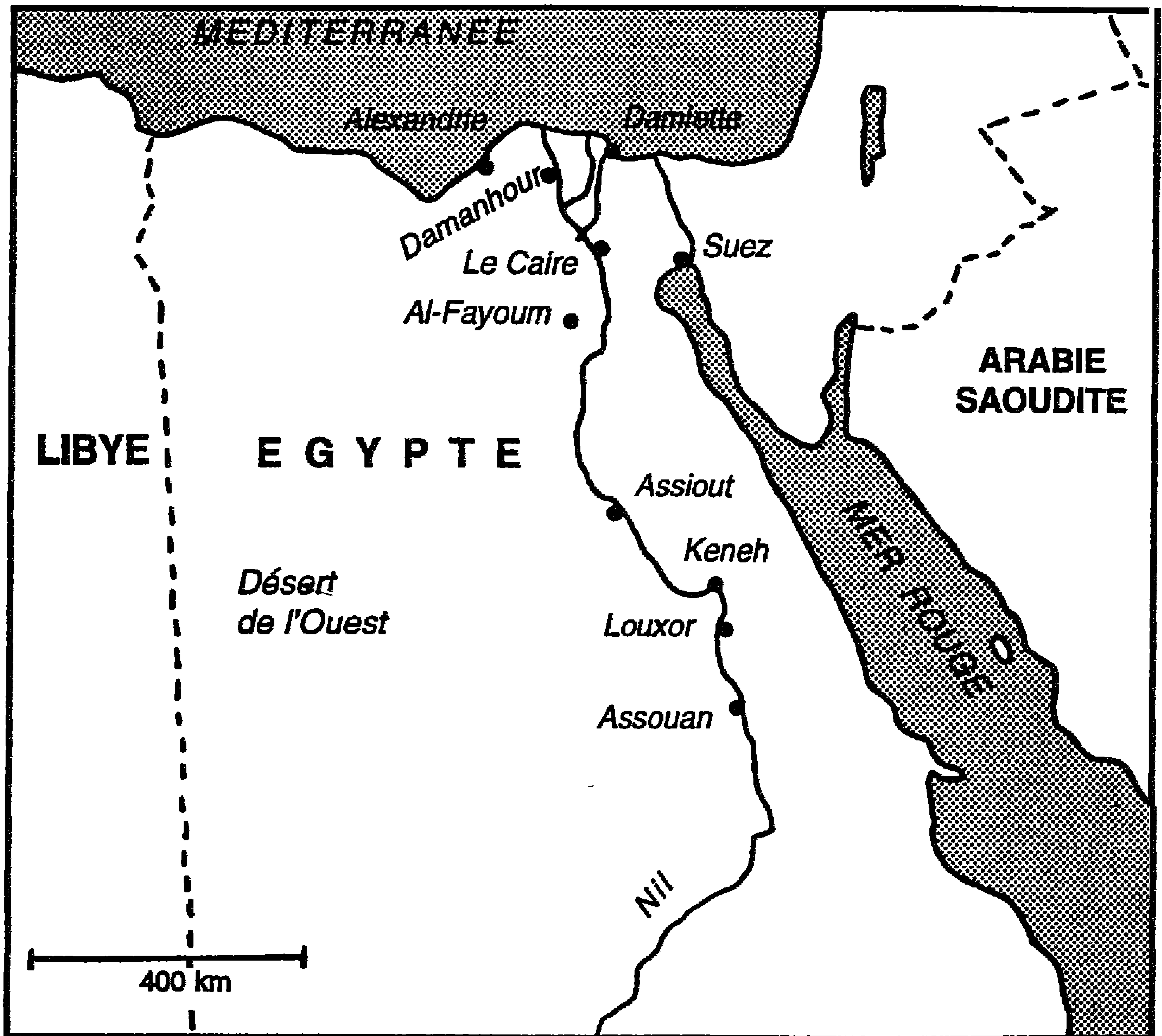
وكانت لديه صراعات كثيرة، في الخارج وفي الداخل، تملأ أوقات عمله، ولكنّها لم تقف دون حماسته الحقيقية لتغيير الأرض الزراعيّة القديمة بعالم جديد. ولم يكن لإصلاحاته، ومبتكراته، أن تتمّ، من دون أن تُلحقَ أذىً بالآثار الباقية من القرون الخالية. وكان المختصون بالآثار يشدّدون اللّوم على اختفاء جدران قديمة، كان من بينها كنيسة إيليفانتين الصغيرة Chapelle d, Elephantine التي قبرت تحت قواعد مصنع للسكر، كان إنشاؤه صناعة جديدة أدخلها هو حديثًا. . وكذلك فإنهم يشعرون بأعمق الأسى، بسبب الكارثة التي يفترض أنها أُنقذت في آخر لحظة، وهي تدمير اهرامات الجيزة الضخمة لاستخدامها لإنشاء سدّ القاهرة.

وعلى الرغم من النصائح المغشوشة، وخلال الفترة الحرجة اللاحقة «للكارثة الفظيعة»، كارثة نافارين Navarin التي كان ميترنيخ يكثر من الحديث عنها، فإن محمد علي عرف، على الأقل، كيف يُحسن استقبال شامبوليون ويحمي له حملته النوبية. وكان إعجابه الشديد بذلك الإنسان الذي عرف كيف يكتشف طريقة قراءة الخطّ الهيروغليفي، سبب تكليفه، بكتابة التاريخ الأول لمصر الفرعونية، عندما أقنعه هذا بضرورة حماية الآثار القديمة التي قد تصاب بأخطار التدمير.

وهكذا، فبالاعتماد على إحدى مسلات فرعون العظيم، رعمسيس الثاني - النموذج المجهول - حرص محمد عليّ، الذي يسير على خطا أمجاد نابليون، على الاعتراف بالجميل للبلد الذي أتاح له ابناؤه أن ينشئ مصر الحديثة. وهكذا فإن مسلة ساحة الكونكورد أستطاعت أن تحيي في باريس الذكرى المتوأمة، للفرعونين الكبيرين، رعمسيس ومحمد علي.

كريستيان ديروش نوبلكور

إلى كيفان، باشاي


MEDITERRANEE
Alexandrie
Damietta
Damanhour
Le Caire
Suez
Al-Fayoum
ARABIE
SAOUDITE
LIBYE
E G Y P T E
Assiout
MER ROUGE
Keneh
Désert
de l'Ouest
Louxor
Assouan
Nil
400 km

مصر

لقد غرس الفرنسيون في مصر هذه البذور من الحضارة، التي رعاها محمد علي : لكن أمجاد بونابرت تعاظمت ، وتسلل شعاع من نور في ظلمات الحياة الإسلامية ، وانفتحت ثغرة في البربرية

شاتوبويان Chateaubriand

مذكرات ما وراء القبر المجلد الثالث

- ١ -

مصر الممزقة إرباً إرباً

بدأ كل شيء منذ زمن طويل ، أي في القرن الثالث عشر ، في عهد آخر سلطان أيوبي ، أي الصالح ، الذي كان يحكم مصر .

ولما كان هذا الصالح معرضاً للتهديد المتزايد ، من هجمات مغولية ، يقودها أبناء جنكيز خان ، فإنه قرّر أن يزيد من استيراد العبيد ويجعل منهم جيشاً قوياً ، مسلحاً تسليحاً جيداً للدفاع عن دولته . وكان يتبع في هذا سلوكاً بدأه حاكم اخر ، قبل ثلاثة قرون : هو أحمد بن طولون .

وبهذا القرار ، الذي لا شأن له في الظاهر ، كان يمضي بصورة غير مباشرة إلى إقامة سلطنة جديدة هي سلطنة المماليك(١) .

وكانت أكثرية هؤلاء العبيد تؤخذ وهي فتية جداً ، من مناطق تقع على شواطئ بحر الخزر ، والبحر الأسود ، من ناحيته الشرقية ، وكذلك من شمال القوقاز وجنوبه . وكانوا لا يخضعون إلى تدريب عسكري كامل فقط ، بل إلى كسب ثقافة عامة تهيئهم إلى الدور الذي قد يُقَدَّر لهم أن يقوموا به ، إما في الجيش وإما في الإدارة (٢) .

وشيئاً فشيئاً تحوّل هؤلاء من عبيد إلى قوة حقيقية ، عسكرية بقدر ما هي سياسية . ففي عام ١٢٥٠ قتلوا ابن الملك الصالح وبعد عشر سنوات من النضال

ضد أنصاره، نجحوا في الاستيلاء على السلطة. وفي عام ١٢٦٠ نجح بيبرس البندقداري في الاستيلاء على السلطة، وهو أول مملوك في التاريخ يعلن عن أنه سلطان مصر.

وحدث، بعد ذلك، تطوّر جديد داخل هذه الأوليغارشية (أوحكم الأقلية)، خلاصته أن الأمير برقوق استولى على السلطة، وعيَّن للوظائف الكبرى رجالاً من جماعته أي من الشراكسة. وستحتفظ هذه الفئة المالكة التي يُطلق عليها اسم البرجية بنفس النظام السياسي الذي عرفته جماعة المماليك البحرية (٣). غير أنه كان هناك بينهما فرق هام، هو أن الشراكسة جاءوا إلى مصر بعد بلوغهم الرشد ولم يكونوا أطفالاً أتي بهم إلى مصر كسابقيهم.

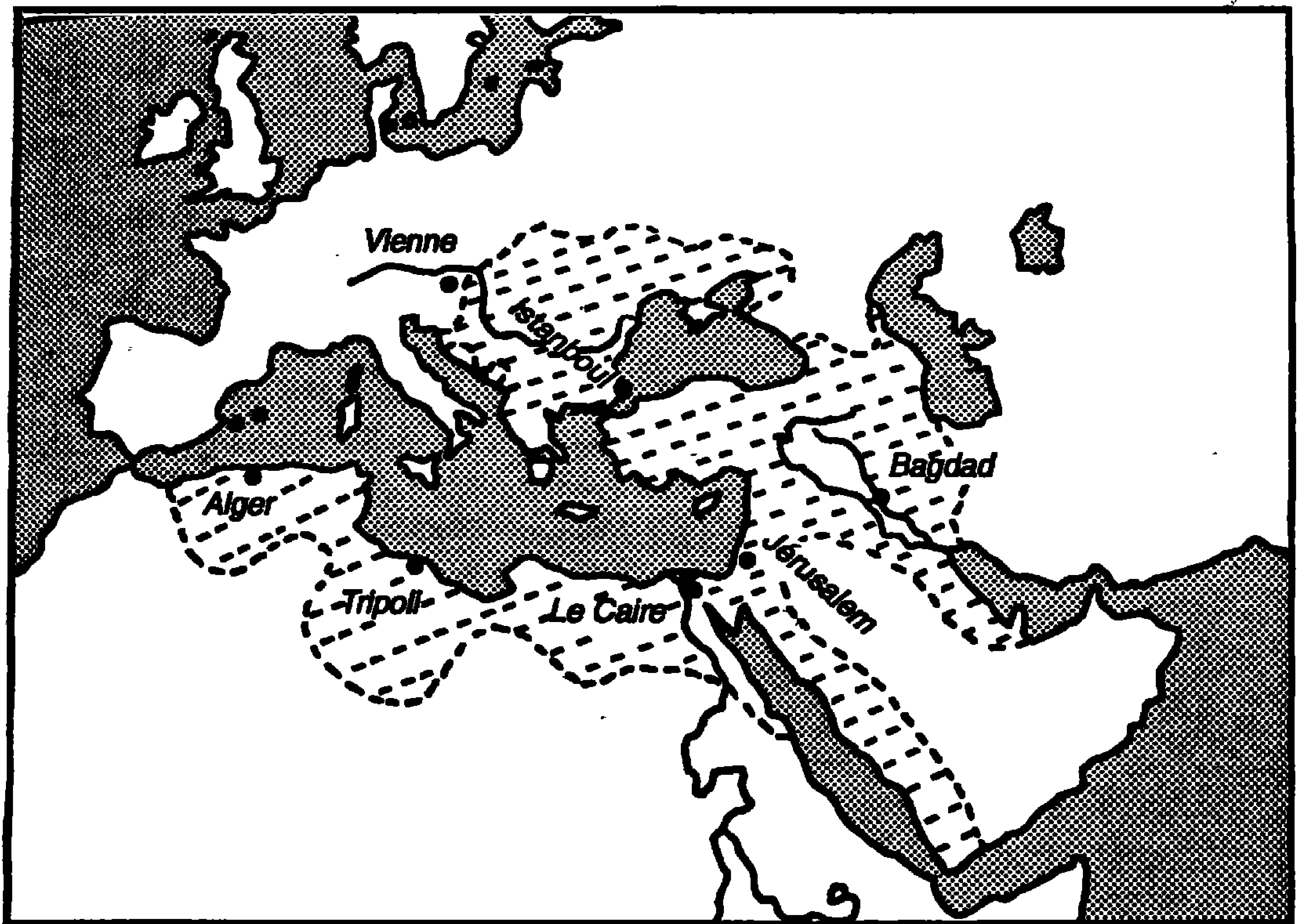
وفي عام ١٥١٧ كانت هناك إمبراطورية نشأت منذ قرنين تقريباً (حوالي العام ١٣١٧)، فجاءت تدق أبواب مصر. وهذه الدولة هي الدولة العثمانية (٤).

واستطاع سليم الأول أن يهزم المماليك ويدخل إلى القاهرة، ومنذ ذلك الحين لم تكن مصر إلا ولاية بين الولايات العثمانية الأخرى. أما بالنسبة إلى المواطن المصري العادي الذي عاش آلاف السنين على مقربة من ناعورته، فإن كل ذلك لم يكن يغير شيئًا هامًا في حياته، إذ لقد رأى مرور جيوش كثيرة كل واحدٍ منها بدوره يطأ بلاده، مثل جيوش داريوس الفارسي والكسندر الكبير اليوناني وقيصر الروماني والفصائل العسكرية العربية لعمر و بن العاص. وعلى ذلك ماذا كان يهمّه وصول مهاجم آخر إضافة إلى المهاجمين الآخرين - جاء يرُعي سوائمه وادي النهر الملكي؟.

لكن المحتلين الجدد كانوا يجابهون حروبًا أخرى في جبهات ثانية، مما لم يسمح لهم أن يَخُصّوا مصر بقوى عسكرية كافية، تقضي قضاءاً تامًا على حكم المماليك. بل إن هؤلاء ضمّوا إلى النخبة العثمانية القائدة أو الحاكمة. أضف إلى ذلك أن الحاكم الجديد سمح لهم بالاحتفاظ بنظام أسرهم (أو برعيتهم، وباستيراد أعداد محدودة من العبيد الشراكسة).

وشيئًا بعد شيء وبصورة غير محسوسة تمامًا، بدأت الإمبراطورية العثمانية تسلك سبيلها إلى التردّي: ذلك أن منصب الوالي وَضِعَ في المزايدة. ويُباع للذي يُدخلُ لخزينة الدولة المركزية مالاً أكثر. أما الانكشاريةُ الذين أرغموا على ممارسة التجارة، لضعف رواتبهم، فإنهم انقلبوا إلى أصحاب دكاكين، أو عمال فنيين مسلحين. وانزلقت مصر إلى الفوضى.

وفي ١٩ أيار عام ١٧٩٨ أبحرت من طولون حملة بحرية مؤلفة من ثلاث عشرة بارجة وسبع فرقاطات، وثماني سفن شراعية وسفن حماية وستة طراطين Tartanes (سفن ذات شراع واحد) تحمل المدافع، وأربع سفن حربية مسلحة بالمجانيق وكان يرأسها كلها «السلطان الناري» بونابرت الذي كان عمره يومئذ ٢٩ سنة.



الإمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر

« أبو نابارت » أو الحلم الشرقي

ما الذي حدث ؟ وبأي انعطاف من انعطافات التاريخ ، قَرّرت فرنسا فجأة أن تحتل مصر؟ وطمعًا بحلّ هذه العقدة نسمح لأنفسنا بجولة في الخيال كشهود غير مرئيين لحديث كان يمكن أن يدور في الإسكندرية حوالي عام ١٧٩٧ بين شخصين : أولهما شارل ماغالون charles[٦] Magallon الذي كان يحمل لقب قنصل فرنسا، والثاني هو كارلو روزيتي carlo Rosetti[٧] الذي كان في آنٍ واحد تاجراً وقنصلاً إمبراطوريًا للنمسا. وعلينا أن نوضح أن مصر التي كانت من الوجهه الرسمية تابعة لاستانبول لم تكن دولة بالمعنى الكامل. وكان لقب السفير غائبًا عنها ويقتصر فيها التمثيل الديبلوماسي على الدوائر القنصلية وكانت مهمة هذه الدوائر من حيث الجوهر - محدودة بالدفاع عن مصالح مواطنيهم المقيمين في مصر . وحبًا بالشرح نقول : إن ماثيو دوليسِّيبس De Lesseps، أبا الشخصية المشهورة فرديناند دوليسِّيس [٨]، استقر في القاهرة كمفوّض عام للعلاقات التجارية. وكان عدد التجار الفرنسيين لا يتجاوز حدود الثمانية أشخاص مقابل عدد من السكان يوازي تقريبًا ٢٥٠٠٠٠ ساكن. أما الساكنون فعلاً كمقيمين فإنهم لا يتجاوزون الخمسة عشر تاجرًا [٩]. (وكان عددهم ٣٠ قبل الثورة) ، وأما في الإسكندرية ذات العشرين ألف ساكن فإننا نجد أنهم تقريبًا ضعف عددهم في القاهرة. أما في رأي Rosetti فإن مقابل ١٥٠٠٠ ساكن لا يوجد إلا مؤسستان للتجارة الفرنسية ولكن هذا الوجود المتواضع لا يحول أولا يمكن أن يحول دون بعض صور الأذى التي يفاجأ بها الأجانب قبل حملة نابوليون. ولكن لنعد إلى الإسكندرية ولنستمع إلى حديث هذين الرجلين:

- إنه لأمر خطير جداً، (هكذا يعبرِّ روزيتي عن مخاوفه)، فهل تعلم ماذا يعني ذلك؟

ويتقبّل ميغالون الحديث دون أية مبالاة.

- إن المماليك البيكوات لن يكون لهم إلا ما يستحقونه. أما إطالة هذا العمل المخزي فإنه سيكون أكثر مما يُحتمل بالنسبة إلى جمهورية تشرِّع القوانين لأوروبا، بل إن اسمَها وحده يكفي لملء قلوب المستبدّين بالرعب.

- ومع ذلك يا شارل.. أيعادل هذا أن تقوم الحرب؟

- ولكن ألا تعي ما نتحمله منذ أكثر من عشر سنين؟ أو يكون عليَّ أن أقدّم لك قائمة بما أذلّنا[١٠]، مرة بعد مرة على يد هذا المستبدّ مراد وزميله إبراهيم؟

- إني أعرف هذا كله.

- إن نظام الامتيازات الأجنبية[١١] حدّدوا ضريبتنا بـ ٣٪ في الشهر الماضي. وعلى الرغم من تدخل يوسف القصّاب، فإن رجال الجمارك في القاهرة يزيدون علينا عدة ضرائب جديدة ليس لأسمائها البربرية من يعرفها في غير هذا البلد! وكلما احتاج، هؤلاء البيكوات إلى المال، نراهم يقرعون على أبواب التجار ويطلبون ما يعادل ١٥ أو عشرين ألف قرش على صورة قرضة. فهل عليَّ أن أقول إنه ما من قرض من القروض، دفُع منه قرش حتى هذه الساعة؟

عندئذ نجد روزيتي يَزوَرُّ ويكشر بوجهه كما لو أن صبره قد نفد.

- ويكرر الصديق القول: بلى إني أعرف ذلك.

- إني لم أنسَ أن أطالب بهذا في بلدي، فإما أن ينتزعوا منا اسم المواطنين الفرنسيين وإما أن يعيدوا إلينا حقوقنا.

- وبطبيعة الحال، فقد أبلغت هذا كله لجمعيتك التشريعية.

- وكذلك أبلغت فيرنياك مندوب الجمهورية في استامبول.

- إني أعرف عن ظهر قلب مضمون هذه الرسالة. « إن الجمهورية قوية بالدرجة الكافية لإعادة العقل إلى هؤلاء الأفراد الذين لا يجدون في ذواتهم إلا الحماقة والغطرسة من دون أية قوة حقيقية، وإني لأرجوك أيها المواطن بأن لا تهمل الوسائل اللازمة لأعطاء مصر إلى فرنسا. سيكون ذلك هدية من أجمل الهدايا التي تستطيع أن تقدّمها لبلدك. وسيجد الشعب الفرنسي في هذا الكسب ثروات عظيمة جداً. »

ويتوقف روزيتي قليلاً عن الكلام ويعود فيقول:

- وعلى كل حال يا شارل إني لأظل أعتقد أن غزو مصر من قبل القوى الفرنسية ستكون له عواقبه التي لا يمكن تقديرها، لدى البلاد الأخرى. وهذا من غير أن ندخل في حسابنا رد فعل استامبول. أتراك نسيت أن فرنسا حليفة للإمبراطورية العثمانية؟ وهل تظن أن الأتراك سيقفون مكتوفي الأيدي إذا وجدوا أن دولة ما تضم إليها بلداً من أهم ممتلكاتها؟

- لكن الباب العالي سيكون مسروراً جداً إذا نحن خلّصناه من هذه الدودة التي هي المماليك!

- وأظن أنك تتخيل أن شكرهم يعني أن يتركوا لكم كل ثروات مصر؟ اسمح لي إذن أن أشك في ذلك.

- أسيكون لهم الخيار؟

ويحاول القنصل أن يقوم بمحاولة جديدة فيقول:

- إنني أتوجه إلى عقلكم. إنه يجب إقناع حكوماتكم بعدم القيام بهذه المغامرة.

وعندئذ يتجه شارل ماغالون بصوت عادي كأنه يريد الكشف عن سرّ.

- إنني عازم على مقابلة السيد تاليران و وزيرنا للشؤون الخارجية وتقديم دراسة مفصّلة له عن الوضع هنا. وسيكون عليه أن يتدخل أو لا يتدخل لدى حكومة الديريكتوار. ولكني أعرف سلفاً، مع المغامرة بالقضاء على آمالك، أن لنا نفس النظرة إلى القضية (١٢).

- وما الذي جعلك في مثل هذه القناعة؟

- لقد علمت منذ سنة تقريباً وأمام جمهور من النخبة اجتمعت في جلسة عامة في المؤسسة الوطنية للعلوم والفنون، أن السيد تاليران أشار إلى مشروع إرسال حملة إلى مصر.

ويدمدم روزيتّي وقد فوجئ بما قيل، ليجيب:

- إذن فكل شيء قد تمّ. ولئن كان السيد تاليران مقتنعاً بصحة مثل هذه العملية وسلامتها، فإنه لن يوجدَ من يناقضه. والأكثر من ذلك هو أنه سيقنع كل الفرنسيين.

- إنك تعرف مثلي أنه لا شيء في عالم السياسة مقبول نهائياً وموافق عليه. والشيء الوحيد الذي أنا مقتنع به هو أن أنواع الإساءة التي ستُوجه إلى فرنسا تستحق ما يُعوِّض عنها.

- دعنا يا صديقي... دعنا من هذا. إن وضع التجار صعب بلا ريب. ولكن ألا تلاحظ إن في هذا، الحجة الرائعة لتحقيق غاياتكم؟ والحقيقة أنت تعرف ذلك تماماً، إن المسألة تتعلق بشيء آخر. لقد تلقيت منذ سنة تقريباً أو منذ ١٨ آب على الضبط، صورة رسالة كانت موجهةً إلى حكومة الديريكتوار وموقعة بخطّ لوائكم الصغير بونابارت. وهناك جملة بدت لي أساسية فهل تريد أن أذكرها لك؟

وتجاهل روزيتي رفض الفرنسي وبَدأ القراءة مؤكّداً على كل كلَمة :

- ليست بعيدة تلك الأيام التي سنشعر فيها أن القضاء على إنجلترا يقتضي منا الاستيلاء على مصر .

- وينهي الدبلوماسي بخشونة ، قائلاً :

- إنجلترا ، ياشارل ، أي إنجلترا والطريق إلى الهند . إن الهند أساس القوة الإنجليزية . والهند المأسورة والمستولى عليها ، ستجعل إنجلترا تركع . إن هذا هو الرهان الوحيد . ويعرف تاليران أن التحالف مع العثمانيين لا يعني من الوجهة السياسية أية قيمة ، وأن الحرب البحرية قضت على تجارة الأسلكل* Echelles . إن احتلال مصر أمر يفرض نفسه باعتباره الوسيلة الوحيدة لمهاجمة إنجلترا في الهند . وعدا ذلك فإن مشروع هذا الغزو ليس جديداً . إنه خطر في بال الكثيرين . وإنك لتذكر هذا الفيلسوف الألماني ليبنتز ، عندما مرّ بباريس . ألم يضع أمام لويس الرابع عشر مشروعاً من هذا النوع؟ أو لا يقال أيضاً إن شوازول Choiseul كان قد فكر في هذا في عهد لويس الخامس عشر (١٣) .

وسكت مركزاً عينية على ماغالون تركيزاً جدّيّا وأضاف قائلاً :

- إن هناك عاملاً آخر أيضاً حاسماً كالأول .

- أهكذا إذن؟

- إن بونابارت منذ عودته من إيطاليا يضيق ذرعاً . ولا شيء أدعى إلى الخطر من بقاء بطلٍ يدور على نفسه . إن حكومتهم (الديريكتوار) تعرف هذا ، وهي ترتجف خوفاً من أن تجد نفسها ذات يوم مقتلعة ، إنها تريده دوماً في مكان آخر ، أي في أيّ مكانٍ يريده هو ، ولكن لا في باريس . فإن لم يكن ذلك صحيحاً فلَمَ إذن

(*) تجارة الأساكل : يعني إقامة أسواق في المرافئ الإسلامية .

يُسلّمونه قيادة جيش إنجلترا؟ كما لو أن غزو الجزر البريطانية ليست بالأمر الخيالي جداً. إن لواءكم هذا ربما كان ميالاً إلى الاستبداد بالقوة، ولكنه ليس غبياً بأية حال.

وتظاهر ما غالون بأنه يريد مقاطعته في كلامه ولكن البندقي تجاهل ذلك مرة أخرى:

- إنه تظاهر بتفتيش هذا الجيش المهيأ للنزول على السواحل الانجليزية. أما في قرارة نفسه، فإن مصر هي التي يبغيها. «فكل شيء يسوء هنا، ولم يعد لي من أمجاد، ولا تُقَدِّم لي أوروبا المجال المناسب لطموحي. يجب إذن أن أمضي إلى الشرق! فكل كبريات الأمجاد إنما تأتي من هناك.» أوليست هذه هي كلماته؟ وإذن فكن لطيفاً ولنتته من ذرف الدموع على مصير أربعين كفادجلس Kavadjas (أي تاجراً) (١٤).

- ما أعظم الحقد عليه! لكن أيضاً كيف أستطيع أحياناً أن أنسى - على كونك بندقياً - أنك أيضاً قنصل للنمسا؟ إن معركة كامبو فورميو تظل بالنسبة إلى مواطنيك ذكرى مُرة جداً.

ويتوقف عن الكلام قليلاً ليقول بعد ذلك:

- ولكنك تعجبني يا روزيتي، فأنا موافق. ولكن لنلعب لعبة صريحة (لنكن صريحين)، إن هذا أيضاً هو الشيء الأساس للبريد الذي وجهته إلى وزارة البحرية. وبغض النظر عن قيمة مصر الذاتية، فإنه يمكنها فعلاً أن تستخدم كمستودع للسلاح لجيش فرنسي، متى ترك السويس، وصل إلى الهند خلال خمسة وأربعين يوماً. إن عشرة آلاف فرنسي، كافية لطرد الإنجليزمن البنغال. ثم إن وضع اليد على مصر يقدّم لفرنسا سنداً أساسياً ومزايا ومنافع من الصعب أن نتوقع كل ما يتبعها.

والحقيقة أنه كان من اللامعقول أن نتخيّل أن فرنسا، إذا ملكت مصر تستطيع ان تُركِّعَ إنجلترا. إن قناة السويس لم تكن قد شُقّت. وكان الطريق إلى الهند يمرّ من رأس الرجاء الصالح. وبالمقابل فإن الحجة التي تقوم على تقديم فرصة مناسبة

لبـونابارت لكي تجعله منسـيًا، أقـول إن هذه الحـجة كـانت قـوية في حـمل حكومـة الديريكتوار على اتخاذ قرارها هذا.

وهكذا فإن جيش الشرق رسا يوم ١ تموز ١٧٩٨ على شـواطئ الإسكندرية. ومـا هو إلا أن يمر شـهـر واحـد حتى يفـاجئ الأمـيـرال نيلسـون الأسطول الفـرنسي المسجون في خليج أبو قير ويقضي عليه.

ويبذل بونابارت عندئذ أقصى الجهد لينال إعجاب السلطان سليم الذي غضب أشد الغضب، عندما سمع خبر الاستيلاء على إحدى ولاياته، لكن السلطان سليم يظل كما هو ولا يفتن بإغراءات نابليون أبداً. وقد أعلن الحرب على فرنسا بتشجيع من إنجلترا. وإلى جانب ذلك ظلّ المماليك الذين أضعفوا أشد الإضعاف يتحرشون ليلاً ونهاراً بعناصر الجيش الفرنسي التي أحرقتها الشمس وأضعفها المرض، وأوهاها انقطاع النجـدات، وأفـسـد مـعنوياتهـا ببطء، وبصـورة ظاهرة على وجـوههـم ونفوسهم. وهكذا فقد حاول بونابرت أن يشق لنفسه طريق خروج باتجاه فلسطين ولكنه أوقف أمام جدران كنيسة القديس جان داكر Saint Jean D,Acre وأرغم على التراجع، ومنذ ذلك الحين لم يبق له من خيار آخر غير العودة إلى فرنسا لاستعادة قَدر أخفق نهائيًا في أرض الفراعنة.

وفي ٢٣ / ٨ / ١٧٩٩ مـضى إلى فـرنسـا بحـراً وترك القـيـادة للمنكود الحظ كليبر Kleber الذي ربما كـان بغنى عنهـا [١٥]، «إن الأمـر تمّ هكذا... ومن غـيـر أن أستطيع دفع الكارثة عني، ها أنا مع مـصـر كعبء على ظهري... فالراتب قد تأخر وأضـاع أهل البلد عـادة الدفع، ويسـافـر رجلنا ضـمن هذه الظروف ويحرق فـراشـه كملازم يملأ المقاهي بحامية من الضجيج والكلام على ديونه وجهالاته [١٦]! «أو أيضـًا: » يـا أصدقـاء إن هـذا الـزنّاء ترك لنا سراويلـه ملأى بالغـائط! وسنعـود إلى أوروبا ونضربه بها على فمه[١٧].

وكان كليبر خلافًا لبونابارت، غريبًا عن كل نظرة استعمارية، مقدراً أن الجيش الذي يقوده و (المفصول عن قاعدته) ليس عليه أن يحتل بلداً وراء البحار، بل عليه

أن يدافع عن حدود فرنسا التي تتهيأ دول أوروبا لمهاجمتها. ولعلّه أيضًا كان يتوقع - في هذا البلد العريق في تاريخه حيث كلُّ شيء يتألف من إشارات وخرافات - أن يكون هناك سوء طالع يترقبه هنا، وأن عليه أن يعود إلى بلده قبل أن يتجاوز حدود الانتظار. وحقًا فإن المستقبل يُعطيه الحق في مثل هذا التوقع.

وقامت تركيا بعد القطيعة مع فرنسا بتوقيع عقدين ديبلوماسيين أولهما معاهدة تحالف مع روسيا في ٢٣ / ١٢ / ١٧٩٨ ومعاهدة تحالف أخرى مع إنجلترا يوم ٥ / ١ / ١٧٩٩. وكان القيصر يضمن للباب العالي كل ممتلكاته بلا استثناء، على ما كانت عليه قبل هجوم الفرنسيين على مصر. وعلى الطرفين المتعاقدين أن يلتزما بأن يساعد كل منهما الآخر بالتبادل في البر والبحر أو على صورة مساعدة مالية.

وقد ساهم ممثل بريطانيا في استامبول، أي جون سبنسر، مساهمة كبيرة في الوصول إلى هذا التعاقد. وكان وزير خارجية بريطانيا اللورد غرانفيل قد أوصاه أن يمارس نفوذه لكي يصل إلى مثل هذه المعاهدة بين روسيا والباب العالي. والمهم في الأمر أن تُحارب تركيا فرنسا وأن يستمر هذا العداء حتى ولو استُبعدكل أمل في عودة الفرنسيين إلى البلاد المصرية أو في البقاء فيها. وكان هذا هو هدف برطانيا.

وعندما كان سبنسر يفاوض مع الديوان [١٨]، جاءه ويليام سيدني Willam sidney smith العميد البحري رديفًا، وفي يوم ٥ / ١ / ١٧٩٩ وقّع الاثنان مع رجال سليم الثالث المعتمدين معاهدة تحالف في ثلاث عشرة مادة.

« إن حسن التفاهم الذي قام دومًا بين البلاط الإنجليزي المعظّم وبين الباب العالي العثماني، وكذلك ظروف حالة الحرب التي انخرط فيها الملكان، بحكم نتائج عدوانات الفرنسيين اللئيمة والمتعددة، كل ذلك دعا الطرفين إلى الرغبة في رصّ العلاقات وتنمية الصلات بين البلدين تبعًا لصداقتهما القديمة[١٩] [...] » ويلاحظ الإنسان أن المادة رقم ١٠ خاصة، هي الأكثر فائدة للبريطانيين [...] إن الطرفين

السامين المتعاقدين سينظران في أمر العمليات الأكثر ملاءمة للقضاء على المشاريع الضارة للعدو أينما كان ، ولا سيما في مصر ، والقضاء على تجارته في بحار الشرق والبحر الأبيض المتوسط ، ولذلك فإن جلالة الإمبراطور العثماني لا يلتزم فقط بمنع تجارة العدو في كل مرافئه بلا استثناء ، بل يلتزم أيضاً باستخدام جيش من مئة ألف مقاتل وزيادة عَدَدِها عند الضرورة ، للحيلولة دون المشاريع التخريبية التي يقوم بها العدو ، فإذا استدعت الأحوال أن يزيد عدد القوات المسلحة إلى حدودها الأخيرة فإن ذلك يكون في نطاق أهداف الطرفين .

« وسيضع جلالته أيضاً قواته البحرية الموجودة قيد العمل ، بالاتفاق مع حلفائه ، في البحار المذكورة أعلاه . وبالمقابل فإن جلالة الملك البريطاني يلتزم من ناحيته ، بتحريك قواته البحرية في البحار نفسها بالصورة المتناسبة مع قوات العدو والمعدّة لإلحاق الأذى به وبالاتفاق أيضاً مع أساطيل حلفائهما للوقوف ضد مشاريعه ، والحيلولة دون أي هجوم له على دول أو ولايات الإمبراطورية العثمانية »(٢٠) .

ترى هل يمكن أن يحلم الإنسان بأكثر من ذلك؟ إن هذه المادة تثقل كاهل استامبول بكل مهام الحرب . وهكذا فإن التركي يصبح جندياً لبريطانيا في الشرق . أما بريطانيا فليس عليها إلا أن تُحرك قواتها البحرية .

أما كليبر الذي يعرف أن المعركة قد خسرت ، فإنه قرّرَ الجلاء عن مصر بصورة مشرّفة ، ووقع مع رئيس وزراء تركيا اتفاق العريش . ولكن السير سيدني سميث ، المفاوض شبه الرسمي ، وجد حكومة لندن تتنكر له ، لأنها وهي التي لا تعرف الأوضاع معرفة جيدة ، ولا تعرف ما هي قيمة جيش الشرق الفرنسي ، وجدت أن في وسعها إرغامه على الاستسلام . فقدمت إنذاراً إلى الألزاسي بضرورة الاستسلام الكامل . ولكن كليبر عندئذ يتماسك . وفي ٢٠ / ٣ / ١٨٠٠ يهزم حليف بريطانيا العثماني الوزير ناصيف هزيمة نكراء في سهل هليوبوليس .

ومن سوء حظ كليبر أنه في ١٤ حزيران هوجم من قبل حلبي تعصب وقُتل. عندئذ أسندت قيادة جيش الشرق إلى أضعف جنرالات الجيش الفرنسي الذي يدعى Menou. وأغرب من ذلك أنه كان المفضل لدى بونابرت.

غير أن الهزائم التي ألحقها كليبر بالجيوش التركية في جبل Thabor، وفي أبو قير، وهليوبوليبس، أرغمت الحكومة الإنكليزية على تغيير موقفها: فالأتراك وحدهم عاجزون عن طرد الفرنسيين من مصر. وعلى الإنكليز الآن أن يساعدوهم عسكريًا.

وأسندت إدارة العمليات الحربية إلى اللورد Keith القائد الأعلى لأسطول البحر الأبيض المتوسط، ووُضعت قيادة الجيش البرّي بيد « رالف آبيركرومبي Ralph Abercromby، وأسندت قيادة الجيش الشمالي إلى محمد خسرو، القبطان باشا[٢٠].

ولقد احتاج الأمر إلى هذا كله، وكان على القدر أن يقوم بألف لفة ودورة، لكي يأتي من مئات الأميال، شاب وصل صباح أول ديسمبر (كانون الأول) عام ١٨٠٠، وشاءت الأقدار أن يرسل إلى وادي النيل.

إنه يُسَمّى محمد علي.

- ٢ -

كان هنالك ذات مرة
مرفأ صغير في مكدونيا

كافالا ، كانون الأول عام ١٨٠٠

هاهي شمس خجولة تنطلق على جنيات بحر إيجه ، حتى تبلغ البيوت البيضاء ، القائمة قرب هذا المرفأ . وفي هذه الضاحية المجهولة من مكدونيا ، تنساح السهولة الرطبة ، سهول سيريس Serres ، المبقعة بمزروعات التبغ أو القطن ، وها هن نساء يضعن اللباس الأسود على أجسادهن ، ويسرن مجهدات لا يعرف أحد وجهتهنّ . أما الغسيل فإنه يخفق في الشرفات ، وأمامنا بعض الكهول الطيبين من ذوي القسمات اللاملساء ، ينظرون إلى الأفق ، وتغيب نظراتهم أحياناً في الأفق المطل على جزيرة ثاؤس Thaos ، حيث يقال إن القديس بولس أمضى بعض الوقت فيها ، إلا أن يكون ذلك الإسكندر الأكبر .

إن القديس بولس لم يعد موجوداً . و لقي الإسكندر الأكبر حتفه ، في أطراف إيران . ومقدونيا أي - الروملّي لدى العثمانيين [١] - أصبحت منذ عام ١٣٧١ مقاطعة تركية .

وفي صباح يوم من أيام الشتاء ، وعلى مثال شيوخ كافالا ، كان علي [٢] ، ذو اللحية الحريرية ، الشقراء المائلة إلى الحمرة ، والعينين الملونتين بلون البندق ، والمغروزتين تحت حاجبين كثيفي الشعر ، يسرّح نظره في البحر .

أما نظرته فإنها ذات حيوية غير مألوفة، وحركة تسترعي النظر، وكل أولئك الذين يصادفونه مجمعين على أن هذه الحركية في النظرة هي التي استرعت انتباههم «هناك سوّاح، من ذوي النظرة العميقة التي تحزر لدى كل شيخ، كل ما كان عليه أن يفعله، منذ أن أدرك البلوغ، وهم جميعاً يخبرونك أن من المستحيل أن لا تقرأ في نظرة محمد علي، أنه يجب، حتماً، أن يصبح ، نائب ملك في مصر، وواحداً من الفاتحين(٣).

أما قامته فمتوسطة: ١,٧٠ متراً تقريباً، متقوّسَةَ بعض الشيء. وأما سمات وجهه فمنتظمة، واليد صغيرة وناعمة. وهو قد بلغ الآن الثلاثين من العمر، ولقد وُلِدَ هنا في بويت من الخشب« غير بعيد عن القناة الرومانية التي تلقي ظلّها على الحي الإسلامي، وفيما بعد، ورغبة منه في إبراز بدايات مصيره، سنراه يؤكد لمن حوله أنه وُلِدَ عام ١٧٦٩ كما يقول مترجموه، وأكثر هؤلاء على أن هذا القول صحيح.

ولكن بارتيلمي كلوت Bartelemy clot، طبيبه الشخصي منذ عام ١٨٢٥ حتى موته، يُصغّره بخمس سنوات، ويتحدّث هذا فيقول: عندما وصلت إلى مصر، عام ١٩٢٥ كان محمد علي في عمر الخمسين وقد وهبه اللّه بنية متينة (٤). وحباً بالعجلة في التصحيح، في مذكراته، نراه يقول: « إن محمد علي، نائب الملك في مصر، ولد عام ١٧٦٩ في الكافال»(٥) «أما باسكال كوست، مهندسه من عام ١٨١٧ حتى عام ١٨٢٧، فإنه سيقول في كتاباته عن رحلاته. مايلي: إن محمد علي ولد في الكافال عام ١٧٧٣».

والحقيقة، أن التاريخ الجدير بالثقة هو ذاك الذي يلاحظ في ظهر ميدالية من البرونز ضربُت عام ١٨٤٧ لتخليد ذكرى إنشاء سدّ أقيم في الدلتا في شمالي القاهرة. ويمكن أن نقرأ فيها مايلي: « محمد علي المولود في الكافال عام ١١٤٨ هـ(٦) أي ما بين ٢٧ نيسان ١٧٧٠ و ١٥ نيسان عام ١٧٧١(٧).

« ولنشر إلى أنه كان يحدث لمحمد علي نفسه أن لا يتذكر موعد ميلاده! فمرة يكتب رسالة في ٢٣ / ٢ / ١٨٤٠ لخسرو باشا جاء فيها: « صاحب السعادة، سأكلمك بصراحة ونزاهة: اني بلغت من العمر سبعين سنة، ولم يعد لي من

طمع [8] ذاتي. ثم إنه يصرّح في ٢٤/ ١٠/ ١٨٣١ لإدوار لافيزون Edouard Lavison دور غمان [9] أي ترجمان القنصل العام لروسيا، بأنه بلغ الرابعة والستين من العمر [10].

وإذن فلم اخترنا نهائيًا تاريخ ١٧٦٩؟ أغلب الظن أنه استقر في ذهنه أنه لابد من إعلاء شأن أصوله ببعض التفاصيل اللامعة التي يمكن أن تدهش العقول: أفليس عام ١٧٦٩ سنة ميلاد نابليون بونابارت، ومن سخرية القدر أنها كانت سنة ميلاد ويللنغتون Wellington؟ وآخر القول: إنه كان في وسعه أن يستغني عن المنتصر في واترلو. إلا أن عبقرية معركة أوسترليتز تستهويه أكثر من أي شيء آخر، كأنه لايوجد شيء إلا بونابرت نابليون ونابليون بونابرت. وهكذا فإن ظل الكورسيكي سيصحبه طوال مدة حكمه، ويغشاه أكثرمن مرة متى هبط الظلام في ممرات قصوره.

وهنالك كذبة بريئة أخرى تشد إليها كذبة ثانية. فمحمد علي أنشأ لنفسه طفولة خيالية. إذ لقد أكد بين أشياء أخرى أن أباه، إبراهيم آغا [11] مات عندما كان لا يزال طفلاً، وأن عمه طوسون هو الذي ربّاه. غير أننا نقرأ على الشاهدة التي أقيمت لإبراهيم بدفع من الخديوي إسماعيل (حفيد محمد علي) الكلمات التالية: «مات في العام ١٢٠٥ من الهجرة أي في عام ١٧٩١ من التاريخ الميلادي عندما كان محمد علي يدخل الواحدة والعشرين سنة - من عمره إن هذا تخريف مستلهم أو ربما استُلهم من الرغبة في تقديم صورة للأجيال الصاعدة. وربما لأقربائه وأبنائه بصورة خاصة، صورة رجل مرغم على النضال وحده لكي يبلغ أعالي النجوم.

وربما تحدث الناس كثيراً أثناء حياته عن حلم حلمت به أمه عندما كانت تحمل به. وقد أُول هذا الحلم من قبل بعض الغجرتأويلاً جاء فيه أن ثمرة بطنها ينتظر المعالي والقوة. ولكن الطفل فهم خلال ذلك من هذا التأويل أملاً خفياً أثّر - على ما يقال - في حياة الناس العظماء - في تكوين طبع كل منهم. ونحن نعرف ذلك. فترجمات الحياة بالنسبة للمشاهير تُذَهَّبُ بقصص من كل الأنواع. ومنها ما يُصنع

لتسويد الصورة. ومنها ما يكون من أجل تلميعها. أما في حال الباشا، باشا المستقبل فإن القصص تتكاثر لجعل الصورة المستقرة عنه تساهم في إعلاء شأنه وتعاد وتُكرر لهذا الغرض أو ذاك. والشيء الذي يتغيّر هو العصر والمؤلف. والأفضل هنا أن لا نستبقي مما قيل، إلا الجانب الرومانسي والإغراء المتقادم العهد الذي تجاوزه التطور العقلي.

والآن لنمضِ إلى الأصول الألبانية لمحمد علي، إذًا لقد أسرفنا في الحديث عنها وتكرارها. فالرجل ألباني - تركي. أما شجرة أسرته (الضئيلة، وهذا حق) فإنها تفرض عليه أجداداً غامضين في إيلليكا Ilica القرية الصغيرة في الأناضول[١٢] والجنوب الغربي لاستامبول[١٣] وقد ولد أب لجدّه في قونيه konya التي يجب أن تكون في الأناضول. وكذلك جدٌ آخر اسمه عثمان ولُدَ في إيدرين. وما من شيء ألباني في هذا كله. بيد أن كل الشهادات سواءأجاءت من مساعديه أو من أحفاده، تنسبه إلى هذا الأصل. وبهذه المناسبة نقول: إن صديقًا شديد الألفة مع تاريخ مصر والملكية، يُسِرُّ إلينا بهذه الحكاية: ففي الخمسينات وفي اليونان مُنِعَ الملك فاروق من الدخول إلى مطعم محرَّم على العرب وعلى الأتراك. فاحتج بنعومة قائلاً: «إنني لست تركيًا بل أنا ألباني!» وهكذا يبدو أن الأصول راسخة الجذور.

ودعمًا لهذه النظرية الألبانية، نذكر قضية الصلات المتميزة التي كانت تقوم بين محمد علي وبين مرتزقته التي كانت دومًا نخبة الجيش العثماني. وعلى الرغم من أن هؤلاء مسلمون فإنهم كانوا يكرهون أسيادهم الأتراك. وكانوا يتحدثون أغلب الأحيان بلغتهم الخاصة. ولما كانوا رجالاً قساة جبليين، يصعب خضوعهم للنظام، فإن خضوعهم لا يكون إلا لواحدٍ منهم ولا يغريهم أحد غيره. أضف إلى ذلك أن هذا الأصل المزدوج لباشاهم المقبل[١٤] هو وحده الذي يمكن أن يَشرَح لنا عاطفة الحب أو الكراهية التي حملها دومًا لسادة الباب العالي[١٥]. إنه كان يحتقرهم بقدر ما كان يحترمهم، وظل طيلة حكمه يتردد في العصيان على حكومتهم التي كان يستطيع التحكم فيها. فإذا صحّ ذلك، فإنه يمكن أن نضع فرضيّة أخرى: ففي ذلك

الحين، كان هناك عدد كبير من الألبانيين (ومثلهم من السلاف) يتجولون في سائر أنحاء الروملّي * ومن الممكن جداً أن يكون أبوه واحداً منهم . وحول العام ١٧٦٨ ، قضى اللّه أن يسكن في كافالا ، حيث تعرّف بالتي ستكون زوجته ، أي زينب ، بنت حسن آغا ، التي لم تلد له رسمياً ، إلا طفلين : محمد علي وأحمد . ولكن أكبر الظنّ أن ذريتهما كانت أكبر عدداً . ومن المؤلفين من يقول بعدد مقبول تماماً ، هو ١٦ صبياً وبنتاً (١٦) .

وكان إبراهيم آغا يشغل وظيفة يول آغاري Yo Aghasi ، أي نوعاً من الضباط المكلفين بحماية طرق المنطقة . وإلى جانب هذه الوظيفة نراه يقوم مثل أكثر أهالي المنطقة بتجارة التبغ ، أي إنه شخصية عادية تماماً ، في عالم عادي . ومع ذلك فإن التاريخ - يقف شاهداً للبرهان - على أن الآلهة ، تختار ، من هذه الأوساط نفسها ، أولئك الأشخاص المتميزين .

ويظلّ محمد علي ينظر إلى البحر ...

أتراه يمكن أن يكون في الشهر الأخير من عام ١٨٠٠ ، قد وعى أنه جزء من هؤلاء المختارين ممن اصطفاهم اللّه . . ؟ إنه يمكن الشك في ذلك ، فحتى هذه الفترة ، كان يُساعد أباه في أعماله كضابط في الميليشيا ، ومصدّرٍ للتبغ . وهو لا يعرف لا القراءة ولا الكتابة ، ولم يَسُدَّ هذه الحاجة إلا عندما بلغ الخامسة والأربعين ، ولكن لا من غير أن ينتقم من الماضي ، إذ فرض على أبنائه أن يتلقوا ثقافة لا تشكو ضيقاً . وهكذا فإن « سعيد » إذا لم نذكر غيره ، سيعرف - تحت عصا المستشرق الشاب الفرنسي Koenig (١٧) ، منذ الحادية عشرة من العمر - الكلام باللغة التركية والعربية والفارسية .

وعندما بلغ الثلاثين من العمر ، كانت لحمة طبعه قد اكتملت ، فقد أصبح محمد علي كما سيكون : عنيداً ، غير مجرد من المرونة ، ومن شجاعة جسمية حقيقية .

وعلى الرغم من أن مذكرات الدكتور Clot تنقصها الموضوعية، فإن شهادته ستظلّ ثمينة من هذه الناحية: «ففي آب ١٨٣٩ أصيب نائب الملك بجمرة في الظهر، جعلته يتألم ألمًا شديداً، ترافقه حوادث دماغية، على صورة ما يحدث كثيراً مع الهرمين. واحتاج الأمر إلى شقّ هذه الجمرة، في نهاية اليوم الثاني عشر، ذلك أن الورم كان ملتهبًا جداً، وتضخّم تضخمًا كبيراً، وكان يتألف من أنسجة سميكة جداً. فأخبرت سموّه، أن هذه العملية ستكون مؤلمة بعض الشيء، رغم قِصَرِ مدّتها. وقلت إنّ ما أفعله هو الوسيلة الوحيدة للعلاج، وأنني كنت أستخدمته بنجاح على عسكريين، أصيبوا بالورم نفسه. وأجابني نائب الملك أن لديه مثل هذه الشجاعة التي نجدها لدى العسكري البسيط، وأنّه لن يشكو مما تسببّه العملية من ألم.. وحقًا، وعلى الرغم من أنني كنت أقوم بقصٍّ أساسي، عمقه يوازي سمك إصبعين، بغية الوصول إلى حدود الأنسجة المتشحّمة التي كانت تؤلف الورم، فإن نائب الملك لم يصرخ أية صرخة، إلا أنّه اعترف بعد ذلك، بأنّه لم يعانِ أي ألم من هذا النوع في حياته». وأوضح الطبيب: «أنّه لم ينم تلك الليلة إلا ساعات قليلة، وكان نومه قلقًا جداً، ولكنّه في الساعة الرابعة من الصباح، كان يمشي على قدميه».

ويمكن أن نرى مثل هذا التعليق لدى P.Hamont المشرق على مدرسة البيطرة في القاهرة، الذي لم يكن يحب الباشا حبًا جمًّا مثل Clot، إذ قال «إنّه على جانب من القوة المعنوية تجعله دومًا فوق الأحداث، مهما تكن هذه رديئة. إنه رواقي الخلق. ولم يكن الألم الشديد يمنْعه من إظهار بشاشته الطبيعية المألوفة. ولم يحدث أن ندّت عنه صرخة تُسمَع، مهما يكن المرض الذي أصابه»(١٨).

وبالمقابل، ومهما قيل فيه، فإنه رجل عاطفي جداً، لا يسعه إخفاء حالاته النفسيّة، على ما سيشهد به الكونت دو فوربان (١٩) de Forbin: «لمحمد علي مزاج من نسيج واحد، عنيف، يصعب عليه أن يطيق التناقض». وسيقول أيضًا: «إن حديث محمد علي كثيراً ما يتقطّع بنوع من الفواق Hoquet المتشنّج.

وقد أكد لي أنّ ذلك كان نتيجة لِسُمٍ شديد، غير أن أثره أزيل في الوقت المناسب، ولم يترك وراءه منه إلا هذا الخلل الذي لا يستطيع أمهر أطباء أوروبا أن يجد له علاجًا.

ويضيف Clot بك، قوله: «إن له مزاجًا دمويًا عصبيًا، إنه كثير العصبية، شديد التأثر، ولا يخفي العواطف التي يشعر بها إلا بصعوبة شديدة.» ويشرح ذلك قائلاً: في عام ١٩٢٥، ولدى وصولي إلى مصر، كان الباشا يشكو ومنذ زمن طويل من آلام ناشئة من تشنجات عنيفة، كانت ترغمه على صراخ متواصل. فاستشارني بهذا الموضوع، وأعتقدت بأنّ حمية محكمة، هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذه من أوجاعه. ومن سوء الحظ أنّه لم يكن من السهل أن يلتزم هذا النوع من الحمية، ذلك أن نائب الملك كان معتاداً على أغذية، تتألف من مواد كثيرة الدهن، حصراً. وكان في فترة ما، قد اعتاد المشروبات الكحولية. ولم أستطع إلا بعد عناء كبير، وجهود كثيرة، أن أقنعه بالتزام الحمية التي نصحته بها. وكانت هذه الحمية التي تقوم على أساس فيزيولوجي، حسنة الأثر، وأعطته بسرعة نتائج حسنة جداً في زمن قصير جداً. ولم يعد محمد علي يشكو من هذه التشنّجات، واستطاع أن يستمتع بنوم مريح، كان محروماً منه، منذ مدّة مديدة، كان يسهر عليه فيها بعض مماليكه المشغولين بتمسيده وتحريك أعضائه.

«ومنذ ذلك الحين، وبناءً على نصائحي، التزم نائب الملك بالطعام الأوروبي، وجِيء إليه بطبّاخين إفرنسيين. وعندئذٍ تعودّ الجلوس على كرسيّه أمام المائدة، لتناول طعامه الذي كان يجالسه فيه أوربيونٌ متميّزون. وأنا متأكد بأنّ هذا النظام الغذائي، قد ساعد مساعدة كبيرة على إطالة عمر محمد علي، حتى الثمانين. ولنقل الآن إن هذا الأمير لم يتعرّض لأي مرض جدّي حتى عام ١٨٣٩.

وبالمقابل فإن كل هذه الشهادات تتفق على وصفه كرجل متعطّش إلى السلطة، وإلى العمل العسكري، والتنامي السياسي، الذي جعلته المبالغة فيه، يفقد

التوازن بين أهدافه، وضعف وسائله . وبهذا سيبدو وكأنه الأخ التوأم لمعشوقه . نابليون بونابرت .

وسيرى فيه السير شارل موري Ch. Murray « ذلك الإنسان الذي فُطِرَ على حبِّ المجد والقوة [...]، وكأنه خُلِقَ للقيادة والتوجيه[٢٠] . ومن جهة أخرى سيحيي بول ميروو Paul Merruau» طبعه الذي كان يبدو فيه رجلاً في آن واحد، شديد العزم، وسياسيًا، مؤهلاً للقيادة [٢١] . أمّا انطوان دولاتور، فيقول معجبًا أشدّ الإعجاب « أما أن تكون إرادته الشديدة القوة تستهوي الشعوب، وتتحكّم بالطبيعة، فذلك غير مُهِمّ، ذلك أن هذا الشيخ النبيل الهرم، لابُدّ له من الأمجاد»[٢٢] . ويتحدث Clot فيقول : « إنه لم يكن فقط يطمع بفرض سلطانه على مصر، بل كان يحلم لاسمه، بواحدة من هذه الصفحات المجيدة، على نحو ما قرأه عن نابليون» . وقد يغري الإنسان أن يقول إنه كان يريد لنفسه مثل أمجاد سيزار . ذلك أنّه عندما استولى على السلطة، لم يعد يتكلّم عن نفسه إلا بصيغة الغائب .

ويبقى أن نقول إن السمة البارزة في طبعه، هي، بلا ريب، شدّة الحذر . ومن غير أن يقال إن محمد علي يشكو الانفصام في شخصيته، نقول إنّ محمد علي يحذر باستمرار من كلّ شيء ومن كل الناس، وحتى مع أبنائه الذين لا ينقطع عن مراقبة أعمالهم وحركاتهم . وسيلاحظ الأمير Muscau - Puckler الدقيق الملاحظة، والذي زاره عام ١٨٣٧ ، « أنّه على الرغم من أساليبه الأليفة جداً، وتعبيره عن طيب نفسه الذي يلاحظ على قسمات وجهه ، يعطيك الانطباع بأنّك أمام أكثر الناس طيباً ومودّة . والأرق من كلّ من تعرفهم من القادة والحكّام ، ومع ذلك فإنه لا يخلو الأمر في بعض اللحظات التي يخالك فيها غير منتبه إليه، من أن يعبر عن أعمق الحذر ... »[٢٣]

إلا أن هذا الحذر، مع ذلك، لا يمنعه من أن يُظهر لك أحيانًا ، وكأنه أكثر الناس براءة وطيبًا : « لا تحكموا عليّ بمقاييسكم، ولكن قابلوني أو قارنوني بالجهل الذي

يحيط بي. إنكم لا تستطيعون أن تطبقّوا نفس القوانين في مصر وإنجلترا، إن قرونًا كثيرة يجب أن تمضي قبل الوصول إلى المستوى الذي بلغتموه أنتم. وليس لديّ لحسابي إلا بعض السنين. إنّ لديكم عدداً كبيراً من الأذكياء الذين يفهمون نصائح رؤسائهم. وأنا لا أملك إلا القليل جداً من الأشخاص الذين يعرفون كيف يفهمونني، وينفذّون أوامري. وأنا أبحث دومًا عن كلّ شخص يستطيع أن يقدّم لي بعض المعلومات؛ وقد يحدث أن يخيب أملي حتى من نفسي.

« وأنا لم أحصل على تربية مبكرة، بل إني ما تعلمت القراءة والكتابة إلا في السابعة والأربعين من عمري، ولم يحدث قطّ أن زرت بلداً أكثر حضارة مما أنا فيه» ولهذا فإني لست قادراً على تحقيق ما حققتموه أنتم من المستويات الرفيعة. والصعوبة تظلّ في البدء، وكان لدي لتحريك أرض مصر معول صغير. أما الآن فإن لديّ واحداً أكبر بكثير منه. ولكنّي أسعى إلى الحصول على كلّ المزايا التي نعرفها للمحراث(٢٤).

وسيملك هذا الرّجل أيضًا، وإلى أعلى الدرجات، حسّ اللغة الديبلوماسية، بكلّ ما يقتضيه من مهارة ورياء ونفاق وحسن تحايل. وهذه أشياء تستحقّ التقدير الأكبر ممن حوله لا سيما وأنه لا يحسن كبت عواطفه. وهنا نجد أنّ القصّة التي يرويها لنا الأمير Muskau - puckler تستحقّ أن تسجّل هنا.

فخلال مقابلة بين نائب الملك وبين أميرنا هذا، بدا للأمير أن يسأله عن قضيّة الراقصات المغنيات العظيمات الشهرة أمام السواح الذين يمرّون بالقاهرة؛ غير أنه كان قد صدر قرار بتوقيع محمد علي باشا، يُحظر عليهن عرض المفاتن، باعتبارها قليلة الأدب، ويكبح جماحهن دون تلطّف. لكن بوكلير يندهش من مثل هذا القرار. وفي لحظة من لحظات الذهول، أسمع مضيفه أو أفهمه بأنه يأسف على هذا المنع، ويدافع عن الراقصات. وهذه جريمة أو نوع من الاعتداء على جلالة الملك، إن كان

هناك من جريمة . ونكاد عندئذٍ أن نثير مشكلة . . لكن أرتين بيك [٢٥]، ترجمان نائب الملك، ينقل ملاحظات الأمير، متأنياً في نقل كلماته. وكانت عندئذٍ لحظة صمت سكت فيها الجميع. أما محمد علي فيظلّ كالصخر، ثم يعود وفيه ما يشبه حياء الأطفال، ويجيب قائلاً:

« - يا عزيزي، إني لا أفهم ملاحظتك، فمن هنّ هؤلاء العالمات (الراقصات) اللواتي تشير إليهنّ؟ فخلال حياتنا كلّها، ما علمنا مطلقاً بوجود مثل هذه المخلوقات التي تشير إليها. وعلى حين أن من كان حول الأمير، يحبس أنفاسه، كان هو يتابع فجأة كلامه كما لو أن الفكرة جاءت فجأة لتمرّ في ذهنه: « أوه! كنت تريد الكلام على الموسيقيين»[٢٦]. ولكن أنظر، إن هذا الأمر لا يتعلق بنا أبداً. إنه من اختصاص وزير الداخلية والشرطة. ولئن ظهر أننا قساة حيالهم، فذلك لأنهم استحقّوا ذلك ... ومع هذا فإننا باجراء تحقيق، وذلك لأننا فعلاً، وبكلّ نزاهة، لم نتذكر أو نسمع أي شيء حول هذا الموضوع».

وهناك مفارقة، تجعل منه نقيضاً لسادة الباب العالي. بل إنه سيحتفظ حتى في ذروة أمجاده، بأذواق الرحَّل وعاداتهم. فهو أينما كان، معسكر لا ساكن في بيت ثابت، وستظلّ مائدته بسيطة، وكان يخرج في عربة بسيطة، يجرّها حصانان عاديان تماماً[٢٧]. وعلى سبيل الإيضاح نذكر أن موازنة مصر عام ١٨٣٣، التي نشرها Bowring، كانت نفقاتها ترتفع وتصبح ٤٢٠٥٠٠٥ بورصة Bourses .[٢٨] أي ما يقابل (١٢٥، ٣٦٣، ٥٢ فرنك فرنسي) غير أن نفقات بيت محمد علي لم تتجاوز مبلغ ٤٠٠٠ بورصة، أي ما يقابل (٥٠٠٠٠٠ فرنك فرنسي)[٣٠].

وبدءاً من عام ١٨١٢، كان يسكن بالدرجة الأولى بيت شُبرا، ويرسم Linant de Bellefonds صورة لأيامه الأولى [٣٠]. كان بيته بيتاً من بيوت القرى، متواضعاً جداً؛ ولم تكن الفخفخة تظهر لا في المسكن ولا في الأثاث، ولا في

حاجات الخدمة . وكان لا يوجد إلا ستائر لا تكاد أن تكون بمساحة النافذة . ولكن دون أيّة زينة ، ومثبتة فقط ببعض المسامير . أما قاعة الاستقبال فإنها تتألف من بهوٍ مفصول عن قاعة الانتظار بشرفة مكشوفة . أما الأثاث الوحيد ، فهو دواوين من النوع العادي ، وتجد على النوافذ ذلك النسيج الهندي الذي لا زينة فيه . فإذا هبط الليل ، كانت الإضاءة تتم بشمعتين تقومان في شمعدانين كبيرين من الفضّة موضوعين على الأرض مباشرة ، على حين أن قاعة الانتظار التي كان يجلس فيها أوائل كاتمي الأسرار ، وكبار الموظفين ، كانت تضاء بسراج سيء يُغذّى بالزيت ، معلّق بقفصٍ تافه من أغصان النخيل مغلّفة بالورق . وعندما يترك محمد علي بيت حريمه في ساحة الأزبكيّة ، أو في القلعة ، كان يحمل معه كل حاجات بيته : كالسرير والمطبخ »(٣١) .

ولنقل مباشرةً إنّ هذه القلعة لعبت ، أو ستلعب دوراً أساسيًا في تاريخ مصر بصورة عامة ، وتاريخ محمد علي باشا بصورة خاصة . وكان صلاح الدّين الأيّوبي هو الذي أقام هذه القلعة عام ١١٦٧ ولم يتم البناء ، ولم تسكن إلا بدءاً من العام ١٢٠١ . وجاء المماليك والأتراك فأغنوها بعدّة أبنية . وسيقوم محمد علي فيتوّج المكان بمسجدٍ وقصر هو قصر الجوهرة ، ظلّ يبنيه من عام ١٨١١ حتى عام ١٨١٤ . وكان يقوم في شرق القاهرة ، وعلى هضبة المقطّم . وكانت الأبنية كلّها تتمتع من شرفاتها بمنظر حسن ، تُرى فيه المدينة . وفي أيام نائب الملك كانت ترى الأهرامات والسلسلة الليبية في الأفق . أما من جهة الشرق ، فإن المقطّم كان يُرى أمامه يبوسة مخيفة . وهناك ، كما في أي مكان آخر ، نجد الحياة دومًا قريبة من الصحراء . وكان شاتوبريان في في كتابه : الطريق من باريس إلى القدس ، يشير إلى ذلك . وعندما وصل الكاتب يوم ١ / ١١/ ١٨٠٦ إلى القاهرة ، مضى إلى القلعة في اليوم الثاني صباحًا . ولما لم يكن محمد علي هناك ، فقد استقبله إبراهيم باشا بنفسه . ومن المؤكد أنه لم يحتفظ من هذا اللقاء إلا بذكرى لا تبعث على السرور : « لقد قدّمنا آيات التبجيل والاحترام لسعادته ، الذي ربّما كان في الرابعة عشرة أو الخامسةعشرة والحقيقة أن عمره كان ١٦ ، ووجدناه جالسًا على بساط ، في مكتب تسوده

الفوضى، وحوله ما يقرب من اثني عشر منافق، كانوا يسرعون إلى إطاعة أوامره. ولا أظن أني رأيت في حياتي كلّها. منظراً كريهاً بهذه الدرجة. أما أبو هذا الطفل. فقد كان سيد القاهرة، على الأكثر، ولم يملك لا مصر العليا ولا مصر الدنيا وفي مثل هذه الحال، كان اثنا عشر تعيساً متوحشاً يقدّمون أسوأ أنواع المديح، والمداهنة لفتى بربري، يسجن لضمان أمنه في أحد البروج».

وأقلّ ما يمكن أن يقال هو أن شاتوبريان نقصه الحدس. تُرى هل كان يَسعَه أن يحزر أنّ هذا الفتى البربري، الكثير الشهوات، سيصبح قائداً رائعاً للجيش، بالإضافة إلى مدير يُحسن الإدارة كلّ الإحسان؟. وكيف يمكن أن يحزر في هذه المصر، التي كانت لا تزال مرتعاً للفوضى، أن هذا المراهق وأباه سيجعلان الشرق الأدنى وآسيا الصغرى، ترتجفان ذات يوم؟ » وإني لأحبّ أكثر، أن أرسل نظراتي إلى الخارج والإعجاب من أعلى هذا القصرْ، بتلك اللوحة الواسعة التي كان النيل يعرضها لنا مع الريف والصحراء والأهرامات. ويكاد يبدو أننا نلامس هذه الأخيرة، على الرغم من أننا على بعد أربعة فراسخ منها. فبالنظرة المجردّة كنت أرى بوضوح تلك القواعد الحجريّة لأبي الهول الذي كان يكاد يخرج من داخل التراب. فإذا وضعت على عيني مكبّراً، حسبت درجات الزاوية في الهرم الأكبر، وميّزت العينين والفم والأذنين في ذلك المسمّى أبا الهول، فلنعجب إذن من عظمة هذه الكتل الرائعة».

وهنا أيضاً يميل شاتوبريان إلى المبالغة لا بحكم خيبة الأمل، بل بحكم امتلاء القلب بالحماسة والإعجاب. فمن أعلى المقطّم، وشرفة القلعة، كانت النظرة الأكثر نفاذاً، لا يسعها أن تميّز التفاصيل. فأبو الهول، كما نعلم، يجلس القرفصاء في آخر ما يشبه الوادي، وعلينا إذا أردنا تمييز درجات الهرم، هرم خوفو Kheops، أن نتقدّم، على الأقلّ، لنصبح على مقربة من هضبة الجيزة. ولكن هل يمكن منع الكاتب الأديب من أن يحلم . . ؟

وكذلك مساكن نائب الملك في المحافظات إذ أنّها ليست بصورة عامة إلا بيوتاً متواضعة. ولن يوافق إلا بالكثير من العناء على إقامة أول قصر جديد باسمه، في

الإسكندرية، أي رأس التين[٣٢]. هذا القصر الذي انتهى تشييده في شهر آب (Aout)، عام ١٨١٧ .

وكان الإيطالي Forni واحداً من أوائل السوّاح الذين يقدّمون لنا وصفاً موجزاً: « لقد دخلنا إلى القصر، ومع أنه بني تبعاً للذوق الغربي - الأوروبي ، فإنه لا يُمثّل ، بالنسبة إلينا، شيئاً آخر أكثر من مبنى عسكري للاستقبال. وحقاً فإن صالة استقبال الأمير جميلة، يملأ أطرافها (صوفا) بسيطة، مغطّاة بنسيج هندي مُطَرّز بأهداب مذهّبة . وإلى جانب النوافذ المفتوحة على المرفأ، يقوم منظار كبير مُوَجّه نحو البحر . وإلى جانبه منظار صغير وُضع في متناول سموّه »[٣٣].

ويأتي Vernet، فيكمّل الوصف: « إن المساكن الخاصة مزينة زينة غنيّة، ولكن من دون طراز. وغرفة النوم مملوءة بمرايا وقنصليات، وأثاث آخر من صناعة باريسية. أما السرير فإنه موضوع في الوسط، تعلوه ناموسيّة من الشاش مطرزّة بشريط زهريّ، وفوق ذلك قبّة لطيفة. ويلاحظ أيضاً في هذا القصر، صالة مستديرة مزينة بستائر زرقاء، منسوجة بكلّ سوء الفنّ وفساد الذوق اللذين نراهما لدى نجادّ فرنسي.

« أما القاعة التي يستقبل فيها الباشا زوّاره، عادة، فإنها مربّعة، واسعة محاطة بدواوين واطئة ومضاءة، من كلّ الجهات، بنوافذ زجاجية، تنتشر بين قناطر تحملها أعمدة صغيرة.

ويضيف Paul chaix (بول شي) إلى هذا، قوله: إن مكان القصر جميل جداً ، يقع بين المرفأ، والمدينة والبحر بكامله. وهناك ممرّ مدعوم بأعمدة ، ويبدو بارزاً خارج البناء الحالي، يقُدّم لنا منظراً رائعاً، على البحر. ثم إن مساكن الحريم مفصولة عن القصر، ومعزولة في وسط الحدائق. أما الأثاث فإنه يتميّز بأناقة كبيرة من نوع نصف تركي، ونصف أوروبي. وهو يتألق بالدواوين Divans والأرضية الخشبية المبرقعة والمرصعة، وصالة البيليار. لكن ملك الفرنسيين يبدو وكأنه أغنى القصر بعدد كبير من الأشياء الخزفية، والطاولات، والزجاج المبلّر، والستائر

والساعات الكبيرة. أما الحمام فإنه يتألف من غرفة مزدوجة من المرمر الأبيض المخرّم بشكل أنيق جداً.

ويثبت محمد علي نظراته على البحر. وعلى بعد خطوات منه، تقف زوجته أمينة هانم التي تقوم بأعمالها المنزلية(٣٥).

وها قد مرّت اثنتا عشرة سنة على زواجها منه، التي يعيش أهلها في نوصرطلي Nusretli. وهي قريبة نوعًا ما لحاكم كافالا، وأرملة من زواج أول، وإذن - على ما يمكن افتراضه - فقد ورثت بعض الإرث، وكان في وسعها أن تطمح بزواج أعلى مرتبة. بيد أن محمد علي الذي لم يكن يصل إلى عمر التاسعة عشرة، جعلها تحبّه بعض الشيء. ويمكن التساؤل عن بواعث الحاكم في جعلها زوجة له. أفيكون هذا لحسن طالعه، أو لمركز إبراهيم آغا من عناصر الشرطة، أو بناءً على رغبة في ستر قريبة أرملة، لم تكن تبعًا لمقاييس العصر، فتيّة جداً؟. إنّ من الصعب العثور على جواب. وهناك شيء مؤكداً، هو أن الأمجاد التي بلغها محمد علي في هذه الأيام، وحظّه بين الجواري، والفخفخة العرضيّة، جعله يحتفظ، تجاه أمينة هانم بعواطف طيبة واحترام لا يمكن أن تزيلها الافتراقات، أو تكذّبها. فحتى موتها، تبقى عنده الزوجة المفضّلة، وأولئك الذين قُبلوا لرؤية صورها، رأوا أنها ذات شخصيّة قويّة وحاجبين سوداوين وكثيفين، وذات سمات رصينة، تكاد من خلالها أن تبدو عنيفة »(٣٧).

وصحيح أنه في أيار (مايو) عام ١٨١٢ عقد زواجًا آخر مع أرملة أحمد باشا وهو البيك السابق لطرابلس - ولكن ذلك كان بسبب قضايا سياسية فقط: « فالباشا المصري يتزوج أرملة طرابلس، ويُوظّف إخوة هذه في وظائف مناسبة، بعد أن انقطعت مواردهم. وربما أُرغمنا على الاعتقاد بأنه لم يتزوّج هذه إلا ليخدم أهدافه في غزو ليبيا، التي كان ملوك مصر قد امتلكوها سابقًا(٣٨).

وبين الأصوات التي تدفعها الرياح إلى البحر، نجد أصوات الأطفال: وكان إبراهيم هو الأكبر، ذلك أنه بلغ الحادية عشرة من عمره. وكان قد وُلد في قرية

Drama الواقعة على بعد عدّة كيلو مترات، في شمال كافالا، حيث احتمى أهله، هربًا من الطاعون الذي كان يعصف بالمرفأ. وكان طوسون يقترب من الثامنة من عمره، وإسماعيل يناهز الخامسة، أما إخوتهم، توحيده، ونازلي، فكان عمر الأولى ثلاث سنوات، والثانية سنة واحدة.

ولن يكون لمحمد علي أقلّ من ثلاثين ولداً، أي سبعة عشرة صبيًا وثلاث عشرة بنتًا. وبين هذه الذرية الضخمة، ولم يبلغ من هؤلاء عمر النضج إلا ثلاث بنات هنّ توحيده[٣٩] ونازلي [٤٠]، وزينب[٤١]، وسبعة صبية فقط هم: إسماعيل، وسعيد وحسين، وعبد الحليم، ومحمد علي الصغير.

ومن ناحية السمات والهيئة، كان إبراهيم (بغضّ النظر عن الجدري الذي أصابه فيما بعد وترك وجهه مليئًا بالحب) هو الذي كان يشبه أباه [٤٢]. وكان وصفه كاد الفين cadalvene[٤٣] وصفًا دقيقًا نسبيًا، فقال: «إن إبراهيم كان الأكثر شبهًا بأبيه من إخوته الآخرين. وكان قصير القامة أو غير طويلها، ينضم جسمه بعضه على بعض، ويتسع صدره عرضاً، ومن هذه الناحية، نراه مهيبًا، وخاصة بحكم هذه القوة الجسدية التي تسمح له بضربة سيف واحدة أن يفصل رأس الثور عن جسمه. وعلى الرغم من أنه ضخم بعض الشيء، فإن حيويته تلاحظ بسرعة، في سماته الطلقة والخفيفة. أما سمات وجهه فإنها منتظمة، وحاجباه كثيفان، وكذلك فإن شفتيه غليظتان بعض الشيء وذقنه قليلة الشعر تميل إلى اللون الرمادي. وإذا نظرت إلى ابتسامته، رأيتها تعبّر في أغلب الأحيان عن رقة وعذوبة كما لو أنها تريد أن تلطف تعبير نظرته. وكثيراً ما تشير قهقهاته الناظر بأنه الرجل المعتاد على احتقار ما هو أكثر من الأخطار. وحتى إذا لعلع صوت الرصاص والمدافع فإن وجهه يبدو وكأنه يحتفظ بنفس الهدوء واللامبالاة وحتى بالسخرية»[٤٤].

وخلافًا لمحمد علي الذي لا يتحدث إلا باللغة التركية فإن إبراهيم يتحدث أكثر الأحيان بالعربية وينظر إلى نفسه كمصري أكثر مما هو كتركي. وإذا ضحك فإن ضحكته عريضة وصافية أما ضحكة الأب (نائب الملك) فإنها أشبه بالنقيق

والهمهمة. ولو كان من عادة هذا الأخير أن يتجول في قصوره بمشية ساكنه كالقطة إذن لسمعنا خطى إبراهيم العسكرية تسمع على مسافة مئة فرسخ من مكان صاحبها. ولكن هذه التفاصيل ليست هي التي تميز الأب عن الابن، بل إن شخصية كل منهما ورؤيته للسلطنة العثمانية والعالم تتضادان أكثر التضاد، سواء أتعلق الأمر بترفيع بعض الجنود المصريين إلى رتبة الضابط (وكان محمد علي يكره ذلك جدًا) أم تعلق بالاستراتيجية السياسية.

وفي وسع محمد علي أن يقسو قسوة كبيرة على مساعديه حتى ليصل به الأمر إلى السب والشتم وحتى فرض العقاب بأسوأ الصور. ولكن إذا هو أعرب عن تقاليد أبناء عصره، الذين لا يرون لحياة الآخرين أية قيمة بالقياس إلى حياتهم، رأينا أنه قلما يضع تهديداته موضع التنفيذ. أما الانطباع الذي يتركه للناس المحيطين به فهو إنه ذلك الرجل الرائع العظيم المجاملة والألفة. وما من زائر أجنبي سمح له بمقابلته إلا وأبرز سمته هذه كل الإبراز.

وهكذا فإن Hamont يقول: «عندما لا تكون مشكلة تشغل البال فإن حديثه مفعم بالمتعة. ويترك محمد علي في عقول الأجانب الذين يذهبون لزيارته انطباعًا عميقًا بدرجة عالية من التفوق لديه» ويشهد Maden: «أن موقفه كان صريحًا جداً، ولطيفًا، ويعبِّر عن ذكاء عظيم. فحركات يديه، وإشاراته بصورة عامة، كانت تشهد على أنه شخص مثقّف جداً، أما طريقته في الحركة، فإنها غنيّة بالقدرة على إبراز مستواه العالي». وكذلك نرى Vernet يقول: «إن سُمُوّه يستقبلنا وهو يرتدي بدلة نظامية، ويُمسك بيده اليمنى غليونًا غاليًا، ويداعب باليد الأخرى لحيته، مستندًا إلى «وسادة». وعندما تكون على مقربه منه« نجد عينيه السوداين، تتألق بتعبير عن الفضول إلى المعرفة، وتشير إلى طيب، مؤنس جداً».

وهناك مزية أخرى من مزاياه، كثيراً ما أكّدت، هي استعداده لخدمة الآخر... وليس له شيء من عادات الملوك الذين يقبعون في برجهم العاجي... «لا شيء أيسر

من الحصول على مقابلة، نائب الملك. وما من ملك يمكن الوصول إليه بنفس السرعة. وقلّما اتّخذَ تدابير احتياطية لحمايته من أذى الآخرين، على حين أنه يمكن في كلّ لحظة أن يُغدَرَ به، ويقع تحت ضربات المتعصبّين، الكارهين». ويخلص الرّاوي Puckler Muskau إلى أن صاحبه لا يشبه أبداً ذلك المستبدّ المكروه من قبل شعبه، على نحو ما يتسلّى الناس بوصفه في الغرب... أفيمكن للمستبدّ الحقيقي أن يكون قليل الاهتمام بحماية نفسه؟ إذا وضع السؤال بهذه الطريقة، فإن الجواب هو كلا. ولكن بوكلر موسكو يهمل الحديث عن بعض التفاصيل. فمحمد علي رجل شجاع كلّ الشجاعة، جَسدياً ومعنوياً. وليس الموت جزءاً من اهتماماته.

ولئن كان علينا أن نلخّص شخصيّة رجل كافالا، فإن الكلمة أو الفكرة الأولى التي تخطر في البال، هي كلمة « الثنائية، ويتحدّث رواة أخباره، في وصف الشخص، الذي ذكرناه، إنه رجل كالأسد من جهة، وكالثعلب من جهة أخرى، ويضاف إلى ما قلناه قولُهم بالتعبير المعاصر Jekyll et Hyde، وأكثر الأقلام على وصفه بالقول: إنه مكيافللي. وفيما يتعلق بمؤلف « الأمير» فإنه يُروى على لسان الباشا هذه المزحة: «لقد بالغ الناس كثيراً في قيمة تعليم هذا الرجل. حتى لقد كان بإمكاني أن أعطيه بعض الدروس»!: ويبقى صحيحاً مع ذلك أنّ الرجل كان مكيافيللي الطبع، بالتأكيد. ولكن ليس بأكثر ولا أقلّ من أكثرية الساسة في كلّ زمان، ممن يرقون إلى مثل هذا المستوى العالي.

وعلى كلّ حال فإن الصبر ليس من خصال محمد علي. فإذا رغب في شيء، فيجب أن يتحقق فوراً. ويروي لنا كادالفين Cadalvene، أن الوالي تلقى من باريس كتاباً مجلداً لـ Thouvenin عن حياة الاسكندر» فسأل أحد مترجميه.

كم من الوقت تحتاج إليه لتقديم ترجمته لي.

ويجاب:

– في ستّة أشهر.

– ها.. هذا زمنٌ طويل جداً.

وأخذ فجأة سيفه التركي، فقسم به الكتاب ثلاثة أقسام، وقدّمها للمترجمين قائلاً.

- يتقاسم العمل بين ثلاثة، ويعاد إليّ خلال شهرين(٤٥).

أما إبراهيم فإنه سيشيع عن نفسه سمعة أكثر اكتمالاً ووحدةً لطبع حاد، لا غبار عليه، ومستبدّ. أما نوبار باشا (٤٦) أمين سرّه الشخصي، فإنه سيكشف لنا في مذكراته أنه يوم مات، ظهر على وجوه الناس درجة من الفرح يظنّ معها الإنسان أنه في عرس، لا في مأتم.

وأما هامون Hamont، فسيَوضحّ الأمر، قائلاً:

« إن إبراهيم شديد الاندفاع، سريع الغضب. وعندما يكون في أزمات غضبه، فإنه يصبح خطراً إلى أبعد حدّ. وهذه النقائص الموجودة في طبع هذا الأمير، قد أثرت تأثيراً سيئًا في نفسيّة الجيش. وهناك ضباط، من ذوي المراتب الرفيعة، أرغموا على ترك وظائفهم ... ».

وكثيراً ما يقال عنه: إنه مزهو بنفسه، على ما يقول Driaulr، عسير المقاربة، أما طبعه فإنه نقيض لطبع أبيه الكريم الأليف الإنساني. لكن الابن بخيل ودموي(٤٧).

لكن بعض المؤرخين يرفضون هذه الصورة بالاعتماد على مقطوعات من مراسلاته مع أبيه تكشف عن نفسيته. فهو مشغول البال دومًا بحالة جنوده. ويطلب أن يُعاملوا كبشر لا كحيوانات الحمل والجر »(٤٨)، أما من الوجهة الموضوعية فهذا لا يبرهن إلا على أن إبراهيم كان تمامًا، كما هي حال قادة الحروب، يعرف كيف يقود الجنود، ويجعلهم محبين له متعلقين به. وكان بونابرت يملك هذه الموهبة. وهذا لا يقلّل من عيوب طبعه البربري ويؤكد القنصل Mimaut عدا ذلك، في كتابه إلى سيباستياني يوم ٥ / ٤ / ١٨٣١ هذه السمة اللاشعبية لطبع إبراهيم لدى

سفره إلى سورية ونراه يقول : « إنه لن يوجد أحد في مصر لا يسعده غياب إبراهيم عن مصر. لكن التجار هم الذين يهنئ بعضهم بعضاً بغيابه، لأن عليهم أن يتحملوا شراهته وقسوته، وأثناء ذلك، على الأقل، لن يسمعوا أن واحداً منهم قد سَعِدَ بضربات الفلق، ولم يقل قط أحد إنه يشكو من الحكومة المصرية إلا منذ عودة إبراهيم من موريه Moree. وكانت معاملته واستبداده يحملان الناس على كرهه. وهو لا يعامل أحداً معاملة حسنة إلا الأجانب. أما الفرق بين طبع أبيه وطبعه فإنه فرق كبير! وحقًا فإن من المستحيل ألا يعترفوا بفضائل الأب ولطفه على الرغم من الشكوى أحيانًا من الإدارات الرسمية. ولئن كان أناس هذا البلد يعتبرون أن من المصائب أن تفقد مصر محمد علي فذاك بالدرجة الأولى لأنهم يخشون عسف ولده(٤٩).

بيد أنه إذا كان إبراهيم بلا ريب قائداً عسكريًا كبيراً يحسن التخطيط للمعارك، فإنه كذلك إداري كبير يكاد أن يكون كذلك بالفطرة. فهو يقوم - ضمن مجموعة أخرى من النجاحات - بالأعاجيب الحقيقية في ميدان الزراعة، ويقدّم خير برهان على كفاءته في إدارة أموال الدولة. وليس من المستحيل حول هذه النقطة أن يكون بخله الخرافي نعم الناصح له. وبهذه المناسبة سيكتب نوبار باشا أنه عندما كان إبراهيم يقرع أبواب الموت كان ينصحه باستدعاء الطبيب الفرنسي لالمان Lallemand. ويكون جوابه : « كلا كلا لا يجب أن تكتب إليه بالمجيء بل قل له فقط أن يفي بوعده ويزورني في مصر». ويخلص نوبار إلى القول: كم هو بخيل! وفهمت أنه كان يريد أن يتلقى عناية الطبيب لالمان لكنه لم يكن يحب دفع النفقات.

وكذلك فإن إبراهيم سيكون من كبار المغرمين بالكحول ويُعلمنا Ha mont خاصة (ولكنه ليس الوحيد) « أنه كان يسكر وأنه حتى في سكره يُرعب من حوله».

ويصرح نوبار قائلاً : كثيراً ما رأيت إبراهيم خلال سكره وشربه الخمر والشامبانيا، يندفع إلى رواية وقائع حربية، وعندئذ أرى جبهته الواسعة

تضيءوعينيه الزرقاوين اللطيفتين عادة تتألقان، على حين أن القسم الأدنى من وجهه كان يتراخى ويفقد سمات القسوة والصلابة التي كانت تميّزه.

أما ما يتعلق بأخلاقه الجنسية فإن Hamont يلاحظ أن الرجال والنساء يستوون لديه. وهذا أمر شائع في هذه المنطقة من العالم التي تسودها العاطفة الجنسية المزدوجة على الرغم من خفائها.

وعلى كل حال فإن لدينا شيئًا مؤكدًا: هو أن محمد علي كان يفضل طوسون ابنه الثاني وكان هذا الأخير نحيلاً، وشعره كستنائي اللون، والفم كبيرًا نسبيًا وباسمًا دومًا، وهو أقرب إلى أمه منه إلى أبيه، فهو لطيف أليف مغر شعبي جدًا (أي محبوبًا جدًا في الأوساط الشعبية)، وهو في ذلك لدى الجنود بمقدار ما هو لدى أبناء الشعب، وكان من المعروف أنه كان مسرف الكرم، وعندما كان أبوه يلومه باستمرار على إسرافه هذا، كان يجيب: يا أبي إنه يناسبك أن تكون مقتصدًا، أنت الذي لم يكن أبوك نائب ملك، أما أنا ابن محمد علي فعليّ أن أحفظ مستواي وأبدو كريمًا (٥٠).

لكن اسماعيل الولد الأصغر، كان سلطويًا ومتعاليًا. وخلافًا لإبراهيم كانت سمعته كساديّ ودموي، صحيحة لا مزورّة. وهو يملك من الزهو والطيش ما يملكه أخوه، ولكن من دون قوته ولا إرادته. فإذا هو ظفر أجهز على ضحاياه. وإذا هو شتم أذل سجناءه. ولا شك أن نهايته المأسوية كانت بسبب من عنفه الداخلي وتصلبه وضعف تسامحه.

ويرفع محمد علي عينيه إلى السماء الطاهرة...

غدًا منذ الفجر سنعبر إلى البوسفور ومن هناك إلى مصر للاشتراك في معركة غرضها طرد المحتل الفرنسي، أي هذا اللواء أبو نابرت - كما يسمونه في مصر - الذي سطا على مقاطعة من أملاك الإمبراطورية العثمانية.

ولئن كان الباب العالي سيّداً ، مهما كلَّف الأمر - على البحر الأبيض المتوسط ، وأفريقيا الشمالية ، وبلقان أوروبا وبلاد الشرق الأدنى ، وشواطئ البحر الأسود- فإن هذه الإمبراطورية ، على كل حال تهتزّ قواعدها ، بل إنها تتشقق . ويظلّ العالم في وضع المترقّب الذي ينتظر اللحظة التي يكمن فيها تقاسم ممتلكاتها . وبانتظار ذلك ، فإن على استامبول ، أن تبقي على اتباعها بين يديها . ومتى رُدّ الفرنسيون ، إلى البحر ، فإن مصر ستأخذ مكانها في الفلك العثماني .

وكان على كافالا ، شأنها في ذلك شأن كلّ المقاطعات العثمانية ، أن تقدّم حصتّها من المتطوعين الجنود : وهم ثلاث مئة محارب : وسيسافرون إلى البوسفور ، لينضمّوا إلى الفرق العثمانية . ومن هناك سينقلون باتجاه خليج مرمرة ، حيث ينتظرهم أسطول آخر ، هو أسطول جلالته جورج الثالث . فالإنجليز والأتراك المؤتلفون ، في سبيلهم إلى اقتلاع الجيش الفرنسي من الأرض التي هو عليها ، منذ ثلاث سنوات .

وعلي ، ابن الحاكم ، هو الذي سُمي َرئيساً لهذه الكتيبة المحليّة . أما محمد علي فإنه القائد الثاني . ولكن هذا الارتقاء (أو الترقية) اللا منتظرة ، بعض الشيء ، يمكن أن يُشرح (أو تُشرح) بطريقتين اثنتين : فإما لزواجه واحدة ممن يحميهنّ الحاكم ، وإما لأنه استرعى انتباه هذا الأخير ، بفضل نجاحه في القتال ضدّ الذين يعتدون على المنطقة ، أو في إعادة الصواب إلى بعض القرويين الذين لا يحبون دفع ضرائبهم . فإذا بدا أنه فوق ما يمكن تصديقه - على الرغم من تأكيدات مترجمي حياته - فإنه كان يعارك الأشقياء الذين يملؤون بحر إيجه . ويمكن القول بالمقابل ، إنه ، منذ أوائل شبابه ، لم يكن البحر بالنسبة إليه ، ذلك المجال المخيف للقرويين ، والفرسان . ولا شيء يحول دون الظنّ بأنه ، لأكثر من مرّة كان يحاول القيام ببعض الأعمال البحرية ، هنا وهناك ، بأكثر مما يُسمع ويُصدّق . وهذا المؤسس للأسطوري البحري ، لابدّ أنه كان إلى حدَّ ما بحّاراً .

وكثيراً ما صرّح محمد علي أنه لم يقبل هذه الحملة البحرية إلا مع التردد. وإذا نحن صدّقناه بأنه رفض رفضاً باتّاً عرض الحاكم، ولم يقبله إلا بضغط رجلٍ حكيم مكتهل، تنبأ له بمستقبل أكثر أمجاداً في بلاد النيل، منه في بلده، فإما أن صاحبنا يخرّف، وإما أنه لم يكن يملك وسائل كافية لشراء التجهيزات الضرورية لمثل هذه الرحلة(٥١).

وينتصب محمد علي، إذ أن (أحدهم) يشير إليه باليد. وكان هذا أحد أصدقائه القدماء وهو السيد Lion، الفرنسي الآتي من مرسيليا، الذي كان منذ ثلاثين سنة مستقراً في كافالا، حيث يدير مكتباً تجارياً.

ومرّة أخرى، راق لبعضهم (ومنهم Mouriez بين آخرين غيره)(٥٢) أن يقول: إنه لم يحدث قط أن نصائح هذا الرّجل وأعماله الطيبة، كانت تنقص محمد علي. ولكن ذكرى هذا العطف الأبوي تقريباً، ظلّت ماثلة في ذهن هذا الشاب المغامر. وعندما عرف النجاح، وتوّج به طموحه، فإنه كان يجب عندئذ أن يتذكّر ذلك أيضاً. ولقد يقال لنا إنه حول عام ١٨٢٠، وعندما أصبح والياً(٥٣)على مصر، بدأ محمد علي بتشوق لمعرفة أخبار صاحبه هذا، وأراد أن يعرف ما حلّ بالسيد ليون. وعندما علم بعودته إلى مدينته الأصلية، دعاه محمد علي، فيما يقال، إلى زيارته على ضفّتي النيل. ولسوء الحظّ، فإن السيد ليون مات، في نفس اليوم الذي عيّنه لإبحاره. ويقال إن محمد علي، بعد أن أخبر بوفاة صديقه، كتب لأخت المرحوم رسالة تعزية مصحوبة بهدية ذات قيمة كبيرة. وكثيراً ما يُعزى حبّ محمد علي لفرنسا، إلى تلك الصداقة بينه وبين ليون الفرنسي فيما يرى بعضهم. وعلى ما سنرى فإن هذا الحب يعود إلى أسباب أعمق وأعقد من هذا. ويبقى صحيحاً، مع ذلك أن أشخاصاً مثل ليون، استهداهم إلى اختيار مساعديه. وكانت مهمته كتاجر للتبغ، كثيراً ما حملته على الاتصال بأناس غربيين. ومن ذلك الحين نشأ لديه ذلك الاحترام المعروف عنه للأوروبيين ولا سيما للأغارقة والأرمن والفرنسيين. وعندما

وصل إلى السلطة، بدأ يجسّد هذه العاطفة بإحاطة نفسه، بالدرجة الأولى برجال موثوقين من الجنسيات الثلاث لقناعته بأن الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها حيث يجدها، لا بالإكراه، ولا بالإرغام، ولا بتأثير الدين أو العرق.

وعاد الريح ...

وهناك صيادون مَدُّوا شباكهم. وظل محمد علي جامداً لا يتحرك. وحانت ساعة الوداع. وكانت كفه تُداعب أطراف لحيته، ببعض العصبية، فإذا بنظرته الأكثر حدّة، تكشف التوتر الداخلي الذي يحرّكه.

وكيف لا يتساءل الإنسان عن التأملات أو الأفكار الأخيرة التي تتدافع في رأسه؟. أتراه يفكّر بالمجد الذي يَعده أن يكون بين يديه؟. أم بهذه الأسرة التي يدعها دون الكثير من المال لتعيش، أثناء غيابه شهراً وربّما سنة؟. وعلى هذا الوضع أن يسيطر على أفكاره الأخرى، أكثر بكثير من غيرها. وما لم يكن واحداً من المتنبئين، الذين يحسنون معرفة ما سيحدث غداً، فإنه لا يستطيع أن يتخيّل المصير الخرافي الذي ينتظره في أرض مصر ...

- ٣ -

السير رالف ضدّ عبد الله مينو

(١٨٠١ - ١٨٠٣)

خليج أبو قير في ٨ / ٣ / ١٨٠١

وكانت الشمس قد طلعت منذ عدّة ساعات .

والبحر الآن ، أصبح أخيراً هادئًا . والأعلام الإنجليزية تخفق بعظمة ، في ذرا السواري . ويلتفت اللورد كيث Keith إلى مواطنه السير رالف آبركرومبي Abrcromby . ولا يقول شيئًا ، لكن الإنسان يقرأ على وجهه سمات التخفف من الهمّ الكبير . وأخيراً ! ها إن سوء الطقس ، منذ ما يقرب من أسبوع يمنع كل نزول إلى البرّ . وكان يطوف على ظهر السفن البحرية المئة والخامسة والتسعين ، شيء من الإرهاق استولى على الناس المرغمين على السكينة والهدوء .

ويدع السير رالف منظاره يطوف حول الشاطئ المصري .

فعلى اليسار يتميز حصن أبي قير . إنه الهدف الأول ، وإليه تجري المراكب الأولى التي تنقل جزءاً من العشرين ألف جندي ، من جنود جلالته اللطيفة جداً جداً . وسيتغلبون على هذا المكان الحصين بسهولة . ولأن القسم الأكبر من الجيش ، جيش الشرق يظلّ غائبًا . ويبدو أنه يطوف في مكان ما من الدلتا ، بانتظار أوامر أغبى الألوية الذين حملتهم فرنسا في حضنها ، أي الجنرال Menou ، أو عبد الله مينو ، لأنه اعتنق منذ مدّة دين الإسلام ، عندما تزوّج امرأة مصرية(١) .

وينقل السير رالف منظاره البعيد إلى الشاطئ. وكانت المراكب الأولى قد وَصَلَت لتحاذي الشاطئ. وخلال أيام قليلة ستأتي الجيوش العثمانية، لتزيد ضخامة الصفوف البريطانية. ويتمّ القضاء على الوجود الفرنسي في مصر.

ولم يكن الإنكليزي مخطئاً. فخلال الأسابيع التالية، يكون الحُلم الشرقيّ، حُلُمَ نابليون بونابرت قد عاش، وفي ١٧ / ٣ / يستسلم حَصن أبو قير مع المئة والتسعين الذين كانوا يدافعون عنه. أما بقيّة الجيوش الإنجليزية، والمدفعيّة، والخيول والذخائر، فقد نزلت من سفنها. وأما بقيّة الأحداث فإنها ستتم بسرعة السيل.

وفي ١٨ / ٣، يصل مينو أخيراً إلى الإسكندرية. ولديه عشرة آلاف جندي و ٥٥٠٠ فارس. الجيش الإنجليزي يمتاز بالتفوّق العددي، والمواقع الأقوى.

وفي ٢١/ ٣/ لم يتمّ الهجوم المضاد الفرنسي، بقيادة Regnier ولانوس Lanusse على نحو ما انتظر منه. وكانت الخيبة قد تمّت. ومع ذلك فإنه يبقى لمينو أن يتراجع، ويجرّب حظّه من جديد. ولكنه لم يفعل. وكأنه حسب فجأة أنه بونابرت وكليبر معاً. وهكذا عاد إلى مثل هجوم فرسان مورا Murat على أبو قير أو كليرمان في مارانجو. فأمر اللواءRoyze، بالهجوم على الإنجليز. وقد استغرب الرجل هذا الأمر إلى الدرجة التي جعلته يستعيد أمر اللواء، ثلاث مرات، ثمّ بَذَلَ أقصى ما لديه من جهدٍ لحمل اللواء على إعادة النظر في قراره. ولكن ما من سبيل إلى التراجع. ويسأل Royze (رويز) عندئذ بغضب على من سيهجم. ويجيب مينو: «على خط مستقيم أمامك»، من دون أيٍ اضطراب (٢).

وفي الساعة العاشرة والنصف صباحاً. انتهت معركة Canope (على نحو ما سميّت) وقتل Royze وجزء كبير من ضباطه، خلال هذا الهجوم، الذي كان فيه من البطولة، بمقدار ما فيه من الغباء، وقام الفرنسيون بالتراجع، باتجاه القاهرة.

وفي ٢٥ / ٣، وصل كوتشوك حسين، القبطان باشا، بدوره مع الأسطول العثماني. ونزل جنوده، وحلّوا محلّ العسكريين البريطانيين، ورفع علَم الهلال إلى جانب الشعار الجديد البريطاني. أي L,union Jack.

وكان محمد علي حاضراً، كجندي عادي، بين الستة آلاف جندي عثماني. ووطئت قدماه لأول مرّة، أرض مصر. ولأول مرّة أيضاً تكتشف عيناه الساحل الرملي الإسكندراني، وفروع النخيل، والحصون، وقبب المآذن، في الشرق. ويَحزِرُ الإنسان، وراء ذلك، طرقات متعرّجة، متعطّشة إلى الظلّ. وأبعد من ذلك، ووراء جدران المدينة، كانت مياه بحيرة مريوط تتموّج. أي ما كان يسمى قديمًا بالماريوتيس Mareotis أو مصر الدنيا. كانت البساتين والقبور العربية تحتلّ جزءاً من حوض الحبوب السوداء. وكذلك نلاحظ بعض البيوت البيضاء ذات السقوف الطينية، مبعثرة هنا وهناك... على حين أن العين ترى على مقربة من هذه الأبنية الجديدة بيوتًا من الطين واللبن، تتميّز عن الخلفية الزرقاء، وهي مجمّدة على فقرها بما هو أكثر من ألف سنة. وهناك في هذه البيوت الفقيرة، يتجمع كيفما اتفق، الماعز والبقر. وقريبًا منهم، نجد رجالاً صفر الوجوه، ونساءً محجّبات، وأطفالاً نصف عراة يأكل عيونهم الذباب... إنها أرض قديمة في ألبسة بالية، تمزقها الآن قوى أجنبية من جديد.

وإلى جانب رجل كافالا، نجد عليًّا، ابن المحافظ، المُرأس على محمد علي... ويلقي هذا الأخير نظرة جانبية ويبدو له هذا الشاب شاحب اللون، بقسمات مُتْعَبَة. ترى هل أصابة دوار البحر؟ وحقًّا فإن المراكب اهتزّت هزاً عنيفًا خلال الأيام الأخيرة. ولكن، مع ذلك. أفيكون إذن، ذلك الخوف من معارك ممكنة؟ إنه ما من أحد يعرف شيئًا. غير أن وضعه يكشف عن التهاوي والاستسلام؛ وقد تكفي كلمات قليلة لتشجيعه على التراجع. وعلى كلّ حال فإن حضوره ليس بالأمر الذي لا يُستغنى عنه. أو ليس محمد علي هنا؟ وهو مستعدّ للتضحية، والحلول محلّه في قيادة الفرقة العسكرية، وتغطية الابن أمام أبيه؟ ترى أيوجد يومًا ما مؤرّخ يستطيع أن يخبرنا عمّا جرى في شبه جزيرة أبو قير؟.. وعلى كل حال فإن عليًّا تراجع، وسلّم

الأسلحة، ولعلّه فعلَ ذلك قبل أن يستخدمها، وترك مكانه لمحمد علي، الذي سرعان ما سمّي بنباشي[3]، ترقية له. وهاهي بسمة تضيء لحية رجل كافالا: وكان نجمه قد بدأ يبتسمُ له. وإذن فله الآن أن يحارب وأن يبرهن على استحقاقه لهذه الترقية.

وفي ٨ / ٤، أرسل الجنرال هوتشينسون Hutchinson بعض عساكره للاستيلاء على الرشيد، وفي اليوم العاشر سقطت المدينة.

وفي بداية الشهر الخامس، يصبح محمد علي جزءاً من الجيش العثماني والإنجليزي الذي يتقدّم باتجاه القاهرة« بفرقتين ستتلاقيان: الأولى عن طريق دمنهور، والأخرى، وهي الأهمّ »، يجب أن تصعَد النيل، من نقطة الرشيد. أما المماليك، الذين حقاً لا يقضى عليهم - فقد جاؤوا لينضمّوا إلى قوات هوتشينسون.

وفي يوم ١٠ / ٥، كان اللواء لاغرانج يُسلّم الرحمانية، ويعود فيرتدّ إلى القاهرة. وهكذا فإن الجيش الفرنسي قد انقسم نهائيًا، إلى قسمين، وأخذ الخلاف يخيّم على القيادة العليا، كما ظهر عجز مينو عن قيادة العمليات العسكرية، وانتهى إلى تثبيط همم الجنود.

وفي منتصف حزيران، كان العدوّ يتّخذ موقفًا له على مقربة من القاهرة، ويكتفي بمحاصرتها.

أما مينو، من جهته، المسجون في الإسكندرية، فإنه يُكثر من الحركات، ويضرب الأرض بقدمه، ويصرخ لمن يريد أن يسمعه. «إنّ جيشاً من ثلاثين ألف جندي فرنسي، استولى على إيرلندا. وهناك أسطول فرنسي وإسباني، يركبان البحر الأبيض المتوسط». وبكثير من النصائح التي لا يلتزم هو بتطبيقها أبداً: « فإخدِشوا الإنجليز والأتراك وتحرّشوا بهم، وانبروا لهم، ولا تتركوهم لحظة واحدة يستريحون فيها.

وفي يوم ٢٢ / ٦ ، تمّ الاستسلام . وكانت شروطه تماثل شروط اتفاق العريش ، إلا فيما تعلّق بالمهل والشروط المالية ، فقد كانت أسوأ وأعسر . وفي الأيام التي جاءت بعد ذلك ، أفرج عن السجناء المسلمين ، وعاد العلم العثماني ، يخفق في شوارع العاصمة .

وفي ١٤ / ٧ ، يترك الفرنسيون القاهرة ، ويمضون في النيل حتى مدينة الرّشيد . أما إبحارهم فوق السفن البريطانية ، وعودتهم إلى فرنسا ، فقد تمّا في ٩ / ٨ / ١٨٠١ .

ولمّا كانت قوى مينو محاصرة في الإسكندرية ، فقد رآه النّاس يهذي ويشبِّر ، ويأبى الاستسلام . بل إنه يمضي إلى أكثر من ذلك ، إذ كتب لجنوده ، في الأمر اليومي ، يقول : « إنّ القوى الفرنسية التي كانت في القاهرة ، استسلمت دون أن تقاتل ، ومن غير أن تهاجم الحصون بصورة نظاميّة . ولا أسمح لنفسي بتقديم أية ملاحظة ، حول هذا الحادث ، الأعجب من كلّ ما تمّ في هذه الحرب ، وذلك لأني أخشى أن أجلبب بالعار ... أولئك الرجال الذين كانوا جديرين باسم الفرنسيين والجمهوريين ... وفي أوائل أيلول استسلمت قوات الإسكندرية ، بدورها ، ورُحِّلت في السفن الإنجليزية . أما Menou فقد أصيب بالطاعون ونُقِلَ آخر من نُقِل(٤) . وانتهى كلّ شيء .

ولا شكّ أن ، محمد علي ، خلال هذه المعركة ، استطاع أن يقوم ببعض الأعمال العسكرية ، أو لنقل أنه ، على الأقل ، برهن على كفاءته القيادية . وأنه لمحتمل جداً أنّ هذا المكان كان حول الرحمانية (وهناك كتابات كثيرة تشهد على ذلك) أثناء التجابه مع قوات لاغرانج . وعلى كلّ حال فإنه عرف كيف يبرُز . ذلك أن القبطان باشا منحه لقب Serchesme(٥) .

وفي تشرين الأول عام ١٨٠١، رُحِّلَ الفرنسيون، ولكن ما من مشكلةٍ قد حلَّت، ذلك أنّه لا الأتراك ولا الإنجليز وأقلّ منهم المماليك» هم سادة البلد. والذي يظهر في الساحة هو الفوضى والاضطراب.

وكان الإنجليز مقسّمين بين ثلاث فرق. وكانت الأولى - المؤلّفة من ٢٤٧٨٦ جنديًا - تُعسكر أمام الإسكندرية، تحت إمرة اللواء، الثاني في إصدار الأوامر أي السرِ دون هوتشينسون (ذلك أن رالف أبيركرومبي Ralph Abercrommby، كان قد جرح جرحًا مميتًا في معركة ٢١ / ٣) . وكانت الفرقة الثانية تتألف من ٥٤٩٨ جنديًا كانت أكثريتهم من السيباهي Cipayes من جنود من الهند ومن البنغال ومن بومباي. وكانت تحتّل الرشيد وضواحيها. إنه جيش الهند الشهير. وكان يقودها الميجر اللواء Baird. أما بقيّة العناصر فإنها ركُزت في الجيزة وفي جزيرة الرّوضة، المواجهة للقاهرة.

أما الأتراك، فكانوا منذ ذلك الحين، تحت إمرة خسرو باشا، وهو عبد جيورجي قديم، سنراه باستمرار، مثل العنقاء التي تعود فتولد من رمادها. وخسرو باشا يظهر من جديد هنا أو هناك، في كلّ مرّة يتعلّق فيها الأمر بعرقلة صعود رجل كافالا.

« فما من إخلاص لديه، لسيّده، الذي يخدعه، وما من حماسة للحضارة التي يهزأ منها، ضحكًا، ولا من قلق حول مصائر الإمبراطورية التي ينظر إليها كما لو أنها لعبة شطرنج، ويربح ويغشّ ويربَح. إن حبّ السلطة، والظمأ إلى الثروة، هما كلّ ما يحرّكه وكلّ ما يؤمن به».

« إنه ضخم، قصير، أعرج، دون ما تناسق في الشّكل. ولا يعوّض وجهه عن بشاعته إلا بتعبير مستمرّ عن المكر والسخرية. ومن خلال حاجبين أبيضين كثيفين، يعلوهما طربوش أحمر، تنطلق من عينيه الزرقاوين - اللتين كثيراً ما يحجبهما، نصفيًا، جفنها المغضن - نظرة ثاقبة غنيّة الحيويّة. أما ما بقي من

سماته، فهي سمات رجلٍ بربري، أكثر مما هي سمات طفلٍ قوقازي، فهو فظّ يبدو غارقًا في لون بحمرة الدمّ، يبرزه بياض لحيته. وللرّجل طبع صلب، خبيث، ومنحطّ؛ والخلاصة إنه شخصيّة بغيضة، تهكمية ومضحكة. ذلك هو الشخص الذي يحسن اللعب، بكلّ ماضٍ لشعب، بما له من مستبقات في مشاعره القوميّة، ومعتقداته الشكلية، دون أن يساوره القلق على مستقبل، أكثر بعداً من وجوده في حياته(٦).

ذلك هو الشخص الذي: سلّموه مدينة القاهرة، وجعلوه ميرميران، أو لنقل الوالي، أو «نائب الملك»(٧).

أما شخصيّة خورشيد باشا، فكانت شيئًا آخر مختلفًا جداً. وقد سُمِّي حاكمًا للإسكندرية. و «فيه نبل التعامل وحسن الإلفة وهو مفعم باحترام نفسه عند الحاجة: بل إنه لم ينقصه شيء، مما ينشئ رجلاً ثمينًا في المشورة. والشيء الذي كان ينقصه، هو المعرفة العميقة للناس، التي كانت تقوم على علمٍ كلّه من الحدس، أي كانت تنقصه النظرة الثاقبة للأفراد المخلوقين للسلطة والحكم.

وهناك، داخل الجيش، قوة لم يستطع خسرو باشا، السيطرة عليها، هي فئة الألبان، أي جنودهم الخاضعون مباشرة لأوامر طاهر باشا. وهو رجل قليل الاخلاص للقضية العثمانية.

أما المماليك فإنهم يخضعون لأمرائهم (البيكوات) كلّ لجماعته، أي - إذا نحن لم نذكر إلا الأهم منهم - مثل عثمان البرديسي(٨). ومحمد الألفي(٩)(الذي انحاز تمامًا للإنكليز وهو يكره البرديسي)، ثم الشيخ الكهل إبراهيم بك القديم(١٠). وعلى الرغم من أنهم ينتسبون إلى نفس العرق أو المجموعة، فإنهم، باستمرار، يظلّون متنافسين، وكلٌّ منهم يجهد في أن ينتزع من الأرض المصريّة، ما بقي فيها من ثروة. ولكي يزيدوا من قوتهم، تحالفوا مع البدو الذين يُعدّون بخمسة آلاف شخص.

وسرعان ما كان رؤساء هذه القوى، يجابهون المشكلة ذاتها : فكيف تنظّم حكومة مصر؟ . وبصورة أوضح نتساءل : من الذي يستولي على الفريسة التي أخذت من الفرنسيين. وكان الإنجليز قد التزموا بإعادة مصر إلى تركيا. وينشأ هذا الالتزام، في آن واحد، عن معاهدة وقّعها الطرفان يوم ٥ / ١ / ١٧٩٩، وعن اتفاق مع فرنسا لدى بدايات السلام التي انتهت إلى معاهدة نهائية، هي معاهدة آميان Amiens في ٢٥ / ٣ / ١٨٠٢.

أما في باريس، فإن السلطة كان يساورها الشكّ في وفاء الإنجليز، وتكريم توقيعهم. وكذلك كانت الحال بين وزراء السلطان. فقد مسّهم الشكّ نفسه. وهو شكّ بدا أنه غير مبررّ. لكن الوفاء، مرة واحدة، لا يصبح تقليداً مضموناً دوماً. وحقاً فإن الإنجليز يعرفون أن مصلحتهم الكبيرة، التي يمكن أن يقدمها المصريون، جزاء مافعلوه من أجلهم. فماذا عساهم أن يقدّموا لهم؟ أو لم يفتح بونابرت لهم عيونهم؟ . ولكن في هذه اللحظة الدقيقة، لم يكن لهم إلا همٌّ واحد، هو منع عودة الفرنسيين إلى مصر. ولكن لابد لمصر من دولة راسخة قوية لكي يتمّ ذلك، فكيف تقام هذه الدولة؟ على حين أن المماليك والأتراك لا يطمعون إلا في أن يقضي كل منهم على الآخر؟

أما الأتراك، فإنهم لا يفهمون شيئاً غير العودة إلى الأوضاع السابقة، وهذا يعني أن يستعيدوا هم سلطة الدولة العثمانية كاملة، من دون المماليك. أما هؤلاء، فإنهم يريدون العودة، إلى الحالة السابقة، للاحتلال الفرنسي، أي إلى اختصار السلطة العثمانية وجعلها شكليّة أو إسميّة.

وقد دعت هذه المصالح المتضاربة، إلى دخول الإنجليز في المعركة، كوسطاء حياديين، لكن هذا الحياد سيكون مؤقتاً. وفعلاً فإنه لا قوات الوزير الأكبر، ولا العساكر الإنكشارية، العاملة بإمره القبطان باشا، هي التي انضمّ إليها المماليك أثناء المسيرة إلى القاهرة، بل هي قوات هوتشينسون Hutchinson. وهي التي دعتهم إلى الاشتراك معها. وقد ارتبط الإنكليز معهم ارتباطات ضمنتها حكومة

لندن ... ولكن انضاف إلى التعهد بحماية المماليك، شيء آخر: فعلى مثال المسؤولين الأعلى منه، كان هوتشينسون يكره الأتراك، الذين يُنظر إليهم باحتقار، إن لم نقل إنهم مكروهون من قبل الشعب المصري: بسبب العجز العسكري، والتهاون الإداري، واللا شعبية، وكلُّها تحول دون الاستناد إليهم أو الاعتماد عليهم، في حكم مصر والدفاع عنها في حالة عودة الفرنسيين. وهكذا فإن الإنجليز بدؤوا يلعبون بورقة المماليك. ومنذ ١٥/ ٥ / ١٨٠١، يكتب هوتشينسون لواحد من كبارهم، أي البرديسي، ووريث مراد بيك، ليقول: كن مطمئنًا أنني سأسهر على مصالحكم، وإنه ليس لكم أو لأسركم أن تخشى أي أذى»[١١].

ولكن من تردد إلى تردد، ومن محاولة الوصول إلى حلّ وسط، إلى إخفاق المحاولة، انتهى الأمر إلى أن لا يصل الطرفان إلى أي اتفاق. فكبير الوزراء والقبطان باشا يريدان حلاً نهائيًا، وجذريًا، للخروج من المأزق، والانتهاء إلى حلٍّ حاسم، مع البيكوات، بالقضاء عليهم دفعة واحدة. وعندئذٍ تنتهي المشكلة.

وفي ٢٢ / ١٠ / ١٨٠١، استدعى القبطان باشا إلى مكتبه في أبو قير، جملة البيكوات الذين يعيشون في مصر الجنوبية ويُقرئهم فرمانًا مزعومًا من الباب العالي، يعلن عفوًا عامًا، ويَرُدُّ إليهم أملاكهم وامتيازاتهم. ويدعوهم إلى زيارته في سفينته للاحتفال بفرمان العفو (مرسوم العفو) وهُرع البيكوات إلى تلبية هذه الدعوة دون أي حذر. وما كادوا يدخلون البحر إلا وبدأ اطلاق النار على مراكبهم فقتل خمسة وجُرح آخرون (ومنهم البرديسي) وسُجن الباقون. أما الصدر الأعظم أو كبير الوزراء. فإنه دعا إلى مثل هذا الفخ أولئك البكوات الذين يقيمون حول القاهرة ودعاهم إلى زيارته في مقره العسكري وقرأ عليهم المرسوم نفسه الذي غُشَّ به مماليك أبو قير. وعندما اجتمعوا قُبض عليهم وسجنهم في القلعة.

ألا أن بعض البكوات مثل سليم ومحمد الألفي حذروا أن يكون أمامهم فخ فهربوا إلى مصر العليا، ولكن لا من غير أن يبلغوا مقر القيادة الإنجليزية في الجيزة.

وعندما أنبئ هوتشينسون بالخبر ثار وغضب وطلب أن يُسلم إليه الباقون من المذبحة، ووجّه الاحتجاج واللوم إلى رئيس الوزراء وأجبر على إطلاق سراح سجناء القلعة وأدان للندن تواطؤ وبربرية كبار المسؤولين الأتراك. وكان من أثر ذلك أن الأتراك قدموا اعتذاراً - في الظاهر طبعاً - وحرروا السجناء يوم ١٢ نوفمبر. ولم يعد هؤلاء يقومون بأي إساءة ضد المماليك طيلة المدة التي قضاها البريطانيون في الإسكندرية.

تُرى أيكون محمد علي قد شارك في محاولة القضاء على البيكوات؟ إنه ليس في وسعنا أن نؤكد ذلك، ولكن عندما نعرف أنه قام بعد عشر سنوات بنفس العملية مع المماليك بنجاح، فإن من الممكن أن يقتنع الإنسان أن ما حدث أوحى له بعض الأفكار. وهاهو يقضي عدة أشهر في مصر. فاتسع إدراكه لهذا الوضع الشائك، وعرف من هم الأقوياء ومن هم الضعفاء، ولاحظ مواقف البلد وعاداته، وبدأ يختبر ويحلّل ويعي - ولا شك في ذلك - ويتوقع ما يمكن أن يستفيده رجل واسع الحيلة والتصميم من هذا الوضع الذي لا يعرف أوله من آخره.

وفي ١٦ / ١٠ / ١٨٠٢ يصل هوراس سيباستياني [١٢]، رئيس كتيبة فرقة الفرسان في الفرقة التاسعة، والرجل الموثوق لدى القنصل الأول، إلى الإسكندرية. وكان مكلفاً بمعرفة ما إذا كان انسحاب الإنكليز من مصر يتم بالشكل المناسب، أو الوصول إلى رأي حول الرأي العام في الشعب المصري ووضع البلد. وبطبيعة الحال، فإن أول خطوة خطاها، قادته إلى المطالبة، بانسحاب القوى البريطانية انسحاباً تاماً.

أما الأتراك، فإن صبرهم ينفدُ. وانهم يتلهفون للقضاء على البكوات. فإذا رحل الإنكليز، فإن في وسعهم عندئذٍ أن يتخلّصوا من الفساد أو الغنغرين (المُوات) التي يمثّلها المماليك أمام عيونهم.

وفي يوم ١٦ / ١١ / ١٨٠١ وصلت رسالة غير موقّعة مرسلة من الأستانة إلى تاليران (وزير الخارجية في الحكومة الفرنسية) وهي تعبّر في آن واحد، عن قلق

الباب العالي ومشكلة البريطانيين المعقدة. « وما من أحد يعرف إلى أي جانب يُنحاز هنا. وعلى الرغم من حسن نيّة فرنسا وروسياً، فإن البريطانيين لا يرحلون عن مصر إلا في أبعد وقت ممكن، وقبل أن يُسلموا الأمر إلى المماليك. وهم يلاقون حرجاً كبيراً في موقفهم، بحيث أنهم لا يعرفون إلى من يلجؤون (١٣).

وفي محاولة أخرى لخدمة مصالحهم، يحاول الجنرال ستيورات أن يقنع خسرو باشا، بالتنازل بعض الشيء، عن مواقفه. ولا ريب أن الرسالة التي يوجهها إليه بطريق الميجر Misset، والتي تصل إلى القاهرة في ١٣ / ٢ / ١٨٠٣، كانت إحدى روائع العمل الدبلوماسي: « إني لآسف أن لا تسمح السلطات المفوّضة لسموك بتقديم تنازلات أخرى، غير تلك التي رفضها البكوات، حتى في أكثر الظروف سوءاً.

« [...] ولقد كان لي الشرف، عدّة مرات، في جعلكم تلاحظون يا صاحب السموّ، أن الرغبة في إعادة الهدوء إلى البلد، هي السبب الوحيد الذي دعا جلالته (الملك) » سيدي، إلى التأخر في استدعاء جيشه، طول هذه المدّة.

« [...] هذا وإن المماليك بعد أن قاوموا كل المؤامرات المحبوكة ضدهم، قد دفعوا بانتصاراتهم حتى إلى مصر الجنوبية، التي ما تزال سهولها ملوثة بكثرة موتاكم. ثم إن الجثث التي تزيد عن ٣٠٠٠ من جنودكم التي بقيت بلا دفن ما تزال تغطي المساحة الفاصلة بين دمنهور والصحراء. وكذلك فإن قبائل العرب القوية التي تأتمر بأوامر البيكوات، تمدد مساهماتها على طول الضفة اليسرى للنيل، أما لواؤكم المتحصن والمحصور في معسكره، فإنه يعاني من البؤس ما يعانيه أي رجل شريف، إذا كان في مكانه، ومن كونه مرغماً على البقاء كشاهد مشلول يرى ما يوقعه البدو من تخريب وأذى، حتى إن الإسكندرية نفسها تخشى حقّاً نتائج اقترابهم منها بعد رحيلنا.

« ولما كنت ألاحظ الأذى الذي يشكو منه المماليك، فإني لا أستغرب أن تحركهم روح الانتقام. ولما كنت على عجلة من أمري، في استخدام نفوذي لحساب

الإنسانية المعذبة وإزاحة الخراب الكامل الذي يهدد مصالح الباب العالي، فإني عزمت على الفصل بين الطرفين. وأخذت على عاتقي إقناع البيكوات بالاستمرار في هذا الاعتدال الذي أبدوه في نجاحاتهم، والعودة بسلام إلى مصر العليا، وهم يشعرون تمامًا بقيمة الفوائد والعوائد التي يتخلون عنها، إلا أنهم وافقوا على هذه التضحية، خاضعين لإرادة هذه الصداقة التي أدى تدخلها ذات يوم إلى إنقاذ حياتهم، بأمل أن يصغي الباب العالي إلى رجاءاتهم المتكررة. ومع ذلك فإنهم اشترطوا استعادة جزء متواضع من تلك المخازن التي ساعدتنا قيمتها في التغلب على العدو المشترك لتأمين حاجاتهم الضرورية. ولهم فيها حقوق معقولة. وبهذا العون أصبحوا موافقين على التخلي عن مصر الجنوبية لتأمين تراجع مضمون لجنود كيايا بك Kiaya حتى عاصمة سموكم. وإذا لم يقم ممثلوا الباب العالي بأية حركة لإزعاجهم فإنهم يَعدون بأن يظلوا أوفياء لواجباتهم تجاه سلطانهم وأن يخلصوا في خدمته، وأن يدفعوا ضريبة متناسبة مع إمكانياتهم وأن يكتفوا بأمانة بالحدود الأرضية التي سيُخصّون بها »[١٤].

ومن سوء الحظ أن هذه الرسالة لم تجد جوابًا. وفي يوم ١١ / ٣/ ١٨٠٣ وافق البريطانيون، على أسف كبير منهم على الانسحاب من مصر. وقد حملوا في حقائبهم ذكرى: هي ألفي بك، (مصحوبًا بخمسة عشر مملوكًا) وأملهم الدفين أن يستطيعوا ذات يوم أن يلعبوا به كقطعة شطرنج لمصلحتهم. إنهم يعرفون أنه ما من شيء قد سُوِّي. لكن اللغم المصري إذا هو تُرك لنفسه، يظل يهدد بالانفجار. فاللاعبون باقون في مكانهم كلهم. كلهم، ما عدا واحدًا هو الذي يملك الجوكر، ويقف أمام كل توقع لخلخلة الموقف الذي لا يعرف أحدٌ كم هو معقد، لمصلحته هو. وهذا اللاعب لاعب الساعة الأخيرة: إنه محمد علي.

وما إن رحل البريطانيون حتى بدأت الحرب بين المماليك والأتراك. ولكن المماليك لم يعودوا كما كانوا. ذلك أن الحملة الفرنسية أضعفتهم إضعافًا كبيرًا، ولم يعد بإمكانهم أن يرمّموا خسائرهم. ذلك أن الباب العالي حرّم تصدير العبيد من أهالي جورجيا والشركس. وحرصًا على ملء هذا الفراغ فإنهم ضمّوا إلى صفوفهم البدو. إلا أن هؤلاء أعجز ما يمكن عسكريًا عن أن يضاهوا المماليك في الكفاءة الخرافية في الحرب، كما أنهم لا يملكون روح التعصب لجماعتهم التي أذاعت سمعة الفرسان المماليك في كل مكان. وكان يُضعفهم أيضًا تلك الانقسامات التي كانوا يعانون منها الكثير. ولو أنهم كانوا تحت قيادة رئيس كفء ومحترم، فلربما استطاعوا أن ينتزعوا السلطة من أيدي خسرو. إلا أن موت مراد بك أحد قادتهم الكبار والأعلى قيمة وفضيلةً، حرمهم هذا الحظ. ومنذئذٍ أصبحت السلطة والنفوذ يُتقاسمان بين كثيرين من السادة المتناوئين ممن تحركهم آراء متباينة.

وعندما يتولى القيادة عثمان البرديسي في بيت مراد، يشيع على مثال المرحوم البيك، أنه يعمل في خدمة فرنسا. ولقد نجح في جرّ العجوز إبراهيم وجماعته إلى مثل هذه الخدمة. فكيف لا يحاول خسرو باشا في مثل هذه الشروط أن يقضي عليهم؟. وهذا ما سيحاوله بكل جهده ولكن دون أي نجاح. ذلك أن القوات التي تأتمر بأمره والمنشورة في مصر الدنيا والوسطى لم تكن منظمة تنظيمًا حسنًا بالدرجة الكافية. أما جماعة الألبان فهو لا يراهم مضمونين أبدًا، وبفضل عليهم ميليشياته المؤلفة من النوبيين. وهكذا فقد قرر أن يبدأ المفاوضات معهم ويحاول أن يرص صفوف رجاله. ولكنه في الوقت نفسه ارتكب خطأين أساسيين.

فقد عزم، بغاية ملء الصناديق الحكومية الفارغة، على فرض طائفة كبيرة من الضرائب التي ترهق الشعب المصري، الذي أصابه شقاء كبير خلال المعارك السابقة.

وقد أثارت هذه التدابير غضب شرفاء[١٥] القـاهرة . أضف إلى ذلك، وهذا مـا هو أخطر، انه أهمل دفع الرواتب لجنوده المرتزقة الألبان، لمدة خمسة أشهر، وكان يقود هؤلاء طاهر باشا الذي يليه في القيادة محمد علي وحسان باشا. وكان حسان وطاهر يسكنون داخل المدينة على أن محمد علي ورجاله أرسلوا إلى ضواحي القاهرة.

أما هذا العمل الذي يبدو تافهًا في الظاهر فإنه مثقل بالمعاني. ولئن وُضع رجل كافالا على الهامش كما تكون الحال في (الكارانتينا)، فهذا على أرجح الظن لأنهم اتهموه أو شكّوا في أنه وضع نفسه على أوائل الطريق. ولكن من أي هذه الفرق الثلاث يشعر أنه الأقرب؟ فهو ليس مع المماليك الذين لا يقيم معهم في ذلك الحين إلا علاقات بعيدة إن لم تكن معادية. وكذلك لا مع خسرو، وذلك لأنه يرى أنه ليس لهذا الأخير الهيبة الكافية لكي يجمع عناصر سلطة يتخاصم عليها الجميع ويحسن قيادتها. لم يبق إذن إلا الألبان. ذلك أن له علاقات مؤكدة تجمعه معهم. أو ليس لهم أصول واحدة؟. وأغلب الظن أن خسرو باشا حزر ذلك، دون أن يعرف تمامًا أن يلاحظ ما يمكن أن يسببه له محمد علي من الأزعاجات . وحتى ذلك اليوم لم يكن رجل كافالا يعطي البراهين الكافية على الولاء الذي يريد نائب الملك أن يسمعها منه وبحق. وكان ضعفه أو لين طبعه خلال العمليات العسكرية التي كلفوه بها، من أسباب إثارة الشك حوله. ولكن خسرو لا يملك بين يديه وسائل تجنب العاصفة التي تتهيأ عناصرها أكثر فأكثر.

وحول نيسان من عام ١٨٠٣ وقعت مدينة المنيا، وهي مركز الاتصال بين القاهرة ومصر العليا في يد المماليك. وكان هذا النجاح كافيًا لانقسام البلاد إلى قسمين مباشرة وإلى قطع المؤن عن العاصمة.

وفي الأيام الأولى من الشهر السابع بدأ الألبان بدورهم، بخروجهم من الغابة، ليطالبوا بالمتأخر من رواتبهم، وبدؤوا يحتجون لدى طاهر باشا . فردّهم هذا

إلى الدفتردار [١٦] أي خليل أفندي، الذي أوضح لهم أن الصناديق فارغة، وأشار عليهم بالشكوى إلى محمد علي، الذي يظن، خطأ، بأنه يملك جباية الضرائب في مصر السفلى، فاحتج محمد علي وأكد لهم أنه لم يكن بين يديه، في أي يوم من الأيام قرش واحد.

ولما غضبوا من هذا الجواب، عادوا إلى خليل أفندي وطردوا الحراس، ومضوا إلى بيته وأنذروه بضرورة دفع رواتبهم. فأجابهم بأنه لا يملك الآن إلا ٦٠ ألف قرش، وهذا المبلغ إما أن يؤخذ، وإما أن يترك. فرفض الألبانيون وهددوا. ولما فقدوا الأمل بدفع رواتبهم، قام الدفتردار بإرسال رسالة إلى خسرو باشا، الذي أجاب ببعض الخفة: «إنني لن أدفع شيئًا ولن آمر بدفع شيء. وهؤلاء المرتزقة لابد لهم من مغادرة البلد والرجوع إلى أهلهم أو إنني سأذيقهم الموت دون أي استثناء».
وهنا يمكن القول: هل عبثت به أزمة من أزمات فقدان الذاكرة؟ ذلك أن هؤلاء المرتزقة يشكلون ما هو حول ٦٠٠٠ محارب وهم يشكلون نخبة المحاربين. وتعاظم الاضطراب، وبرز العصيان بصورة جدّية. أما خسرو القابع في قصره في الأزبكية فيجيب عن ذلك بإطلاق المدافع. فيعم الرعب بين السكان الذين خافوا أن يستولي المرتزقة على المدينة بالهجوم عليها. وأن يهددوها بالنهب. ورأى الناس منادين يجوبون الطرق ليدعوا الشعب إلى حمل السلاح، والانتظام في سلك الحاكم. وبدا أن مجموعات صغيرة استجابت للنداء أما بقية الشعب فإنها ظلت محجمة عن أية مشاركة.

ووصل التوتر إلى أعلى حدوده، وتتابع القصف. أما خسرو باشا فقد بدا هادئًا لأنه يعرف أن القلعة تظل بين يدي الخزندار[١٨]. ولكن من ملك القلعة ملك المدينة.

أما طاهر باشا، الأكثر جرأة أو الأقل تحسبًا للنوائب، فإنه لا يملك الرصانة التي لمحمد علي. فترأس حركة التمرد، وطلب برفقة الألبان مقابلة خسرو الذي أمره

بأن يعود إلى الطريق التي جاء منها، والبقاء هناك هادئًا. ولما كان طاهر مستاءً من هذا الرفض لمطاليبه، قام هوورجاله بمحاصرة القلعة. وأمر الخزندار مباشرة بإغلاق أبواب القلعة. فأنذره طاهر بضرورة تسليمه المفاتيح، وبدأ الخزندار برفض هذا الطلب ثم عدل عن ذلك وأعطاه المفاتيح لخوفه من الخصم.

وقامت بعض المعارك في كل مكان تقريبًا في العاصمة. وفي هذه اللحظة فقط يتدخل محمد علي ويقدم عونه القوي إلى المتمردين (١٩). وخلال المجابهات لامس الموت، إذ أصابته رصاصتان الواحدة تلو الأخرى وثقبت ثيابه الواسعة بدرجة كافية، ولكن لم تصب جسمه. وهذا على الأقل ما أكّده فيما بعد للأمير Puckle Muskau، في مقابلة خاصة. ويؤكد الجبرتي ونيقولا تورك Nicolas Turc، أنه كان المحرك الأول لهذا التمرد، مع الحرص على أن لا يظهر وأن يعمل من وراء الظل (٢٠). وهذا ما لا جدال فيه، مع التأكيد على أنه ليست له يد في تأخير دفع مرتبات الجنود. وعلى طول الأيام والأشهر كانت عبقريته تقوم على لعب الدور المزدوج دور العامل ودور الناظر. وكعامل كان يقلب ويحرك ويتآمر ويغير السيناريوهات. أما كناظر فإنه كان يترك أو يدع رجال العهد يختصمون ويتمازقون فيما بينهم، طمعًا بأن يستفيد من ذلك في الوقت المناسب.

وفي اليوم التالي سقطت القلعة، على يد طاهر باشا. ومن غير أن ينتظر، يُوَجّه المدافع إلى قصر خسرو باشا. وتبعًا لرواية الجبرتي سقط خسرو باشا مغشيًا عليه، عندما رأى أول كرات المدافع تتهاوى على الأزبكية. ويقوم العامل (Caffe) بالإخبار عما وقع: «وصلت بعض الرسائل البارحة ليلاً وهذا الصباح من القاهرة توكد أنه من يوم ١٠ حتى ١٢ الجاري كان الألبان يهاجمون منزل الباشا، وان المدافع والقنابل لم تنقطع عن التراشق، بعضها ضد الآخر، وكذلك كان الأمر بالبنادق والسيوف. وكان النصر حليف هؤلاء (يعني الألبان) أما بيت الباشا، ذاك الذي أقام فيه الفرنسيون مركز قيادتهم العامة، فقد احترق.

« وقد أصيب البناء الجديد بأذى كبير . وكان الباشا مرغماً على الهرب، إذ تركه أعوانه ولم يجد من المال إلا ما تركه الجنود الفرنسيون الذين بقوا هنا بعد رحيل الجيش الفرنسي وبعض الضباط الأتراك . أما طاهر باشا قائد الألبان ، فقد أعلن أنه سيد المدينة(٢١) [...]»

ومنذ اليوم التالي نزل طاهر باشا من القلعة وأسرع إلى طمأنة الشعب . ويقوم الناس عندئذٍ برفع الحواجز وعاد أصحاب الأفران والمقاهي إلى سابق أعمالهم .

ولم يعد لخسرو، بعد هذا ، إلا أن يجمع نساءه، وأمواله، ويفر إلى دمياط . ولم يدم عهده إلا خمسة عشر شهراً وواحداً وعشرين يوماً . وفي اليوم التالي ، جمع طاهر باشا حول شخصه، كل الموظفين الكبار، وبانتظار التعليمات الجديدة من الأستانة، عيّن نفسه قائم مقام (٢٢) . ومن سوء الحظ أن هذا الحاكم المرتجل الذي لم يكفه أن يرث صعوبات سلفه، بل بدا عاجزاً وغريب الأطوار يضاً. ففي تصريح أعد لطمأنة الشعب، نراه يعدُ الناس بأن المصالح والأشخاص، ستراعى وتحترم بدرجة واحدة. ويؤكد لروزيتي، أن المسيحيين تُحفظ لهم حقوقهم كاملة، ثم نجده، عملياً ، يمارس العكس تماماً. فهو يزعج الناس، ويخضعهم للتعذيب، ويفرض عليهم ضرائب مرهقة. وهكذا استطاع في فترة قصيرة جداً إثارة الشعب والعساكر معاً لأنه وعد بأشياء وحقق عكسها تماماً . وفي ٢٧ / ٥ / ١٨٠٣ وخلال ثلاثة أسابيع من تنصيبه كحاكم، فوجئ بتمرد الإنكشارية، فقُطع رأسه وألقي من النافذة التي كان بقربها .

وبدءاً من هذه اللحظة، لم يبق إلا اثنان قادران على التنازع على السلطة، والقدرة على التحكم في الألبان هما : محمد علي وحسان باشا. ولكي نعود إلى الصورة المكيافيلية التي تتطابق مع رجل كافالا، يمكن أن نلاحظ مرة أخرى أيضاً، أنه لم يكن قط وراء اغتيال طاهر باشا، بل إنه هو الذي أثار الناس والجنود عليه، وأنه وحده المسؤول .

أما حسان باشا فليس لديه شيء من اتساع الأفق، بل وليس له أن يكون في مستوى الوضع الذي أصبح مليئًا بالأخطار. وهكذا فإنه يبقى في الظل. - أما محمد علي فإنه لم يكن يشعر أنه على درجة كافية من القوة لكي يستقر في وراثة المرحوم الشريك في الدين. وإذا أراد الوصول إليها - وقد فهم ذلك - فإنه يحتاج إلى شريك قوي وقدرة عسكرية تكون سنداً له. وهكذا فإنه سعى للحصول عليها - وهنا تبرز عبقريته - عن طريق خصومة بالأمس، أي المماليك. فعقد اتفاقًا مع رؤسائهم، وعرض عليهم مشروع عفو عام. وبرهانًا على سلامة نيته فتح لهم أبواب العاصمة.

أما بالنسبة إلى المماليك المضيّعين، فكان ذلك فرصة غير منتظرة. ولِمَ يحذّرون من لواء شبه وحيد ومن دون قوى فعلية تعينه؟ ولمّا كانوا مهووسين بالرغبة في استعادة السلطة من جديد في مصر، فإنهم يقعون في الفخ.

وفي ١ / ٦ / ١٨٠٣، كان البكوات الهامون إبراهيم والبرديسي، يدخلون إلى القاهرة. وبدءاً من هذا اليوم، كانت مصر بين أيدي سلطة واقعية متقاسمة بين المماليك، ومحمد علي، ومن معه من الألبان، وهكذا وبصورة غير محسوسة يقترب رجل كافالا من القمّة.

- ٤ -

قيـام فـرعـون

(١٨٠٣ - ١٨٠٥)

وتمضي الأيام ، فإذا تجرأنا بعض الشيء، قلنا أنها تتماثل. هناك حاكم جديد يدعى الطرابلسي، عيّن من قبل الباب العالي، ولكن حكمه كان أيضاً أقصر عمراً من الآخرين. وبسرعة قام المماليك بمحاضرة القلعة، وأنذروا الرّجل السيء الحظّ بترك العاصمة خلال أربع وعشرين ساعة، وهذا ما عمله . أما في دمياط، فإن خسرو باشا يظنّ أن ساعة عودته إلى الحكم قد جاءت ، بعد أن سُلب منه، فقرر أن يسير إلى القاهرة لاحتلالها، وهذا ما فعله. فهرع محمد علي مصحوباً بزميله عثمان البرديسي إلى لقائه. وكان محمد علي يقود فرقة المشاة الألبانية، كما كان عثمان يقود المماليك المتحالفين مع البدو. ففتحت دمياط، واضطرّ خسرو إلى التسليم. وفي صباح ٢٧ / ٧ ، اقتيد إلى القاهرة وحُبس في القلعة.

وهكذا كان الوضع الانتقالي بشكل واضح ، عندما ظهر خطر جديد ينزل في الإسكندرية في ٨/ ٧/ ١٨٠٣ ، وهو علي باشا برغل[١] المعروف بلقبه الجزائري . الذي أرسله الباب العالي ليكون نائب الملك كبديل عن خسرو. كان هذا من أصل شركسي، وبيع كفتى في أول شبابه إلى الدآي[٢] داي الجزائر ، ومن هنا جاء لقب الجزائري، وعندما مات سيدّه قُدّم إلى صهر هذا، أي إلى حسّان باشا، الأميرال العظيم، ولم يكن هديّة تمّت بمحض المصادفة، إذ أن حسّان كان يملك أخا القادم الجديد.

وبطبيعة الحال فإن المماليك ومحمد علي، ومن معه من الألبان، لم يكن لهم أية رغبة في أن يُجرِّدوا لحساب هذا الدخيل، من ثمرات محاولاتهم. وبطبيعة الحال، فإن الجنود الذين كانوا يرافقون الجزائري، لم يكن في طاقتهم العددية أن يردّوا كلّ النّاس، إلى الصواب، أو يلزموهم حدَّهم. وما كاد الرّجل يحطّ رحاله حتى كتب إلى البيكوات ليخبرهم بكفاءاته وألقابه. وقد رفض هؤلاء رفضاً باتّاً استقباله في العاصمة، إن لم يقبل الحدود التي قبلها أمثاله، قبل عام ١٧٩٨. واستطاع الجزائري على مضض، أن يقرأ فرماناً من الباب العالي يمنح البيكوات بعض الامتيازات، ومن بين أشياء أخرى - راتباً سنوياً يساوي ١٥ بورصة[٣]. كما يُقدّم لأتباعهم ثمار بعض الضرائب المفروضة على القرى، بشرط واحد هو أن لا يكون لهم أية علاقة بإدارة البلاد ومواردها. وهكذا فقد أمكن أن يجد استقبالاً حسناً من قبل رؤساء المماليك. والحقيقة أنه وقع في الفخّ الذي كانت تهيّئه له جماعة البرديسي، ومحمد علي. وعندما ترك الإسكندرية، على رأس جنوده وجد أمامه في ضواحي القاهرة قوات الرّجلين الأكثر عدداً. ولمّا لم يغامر بدخول المعركة حاول الرّجوع إلى الإسكندرية دون أن ينجح. قبض عليه وقُتل.

عقد مع الشيطان

وهكذا فقد مضى محمد علي، من استبعاد إلى استبعاد آخر، حتى اللحظة التي سيبقى فيها وحيداً في الملعب. ففي بداية ١٨٠٤، ترك عامداً متعمّداً كل عوائد العمليات الأخيرة للبرديسي، وكان تحالفهما يبدو وكأنه أقيم ليدوم. وأقسم كلّ منهما للآخر بأن يبقى له أخاً طول الحياة، ومضوا في اليمين إلى الحدّ الذي جرح كلّ منهما يده ليمصّ الآخر دم الجرحْ، وكان البرديسي يتبع رجل كافالا، وعيناه مغمضتان. ويتقبّل كلّ أفكاره وملاحظاته، ويقبل بحراسة الألبان له بدلاً من جماعته هو. ترى أكان في دخيلة نفسه فرحاً حقّاً بهذه الشراكة؟ أو لم يكن يتوقّع أن

أخـاه الـكبير يمكن أن ينكشف عدواً خـطراً؟ إن إدوارد غوان Gouim يذكر حادثًا لا ريب أنه متخيّل، ولكنّه يعبر بدرجة كافية، عن قلق البرديسي، ويكتب قائلاً: فبعد قتل الجزائري، استدعى شيخ هرم، كان يعتبر كنبيّ، إلى خيمة البيك. ودعاه هذا الأخير إلى أن يتخذ مكانه بقربه، وسأله عمّا كان رأيه حول تحالف المماليك والألبان. فأجاب الرّجل: «عندما يأتي عيد بيِرَم، وهو الفصح الإسلامي، سيعلو الكثير من الضجيج ويسيل الدّم. - ولكن من أين يأتي الضجيج؟ ومن سيسيل الدّم؟ وسأل البرديسي: من يكون المنتصر؟ إلا أن جواب الكهل كان غامضاً: «إن الذئاب سيفترسون الأجانب». فسرت في ظهر البيك رجفة. ذلك أنه لا يمكن إلا أن يعرف أن كلمة «الأجانب» تشير إلى المماليك في عقول المصريين ... وعندئذٍ من يمكن أن يكونوا الذئاب، إن لم يكونوا الألبان؟..

وسواء أكان ما قيل من هذا النوع وهمًا أم حقيقة فإن هذه النبوءة لم تكن ذات أثر حاسم في موقف البيك، إذ ما من لحظة رأى أن من المفيد إعادة النظر في تحالفه.

وقبل أن نمضي بعيداً، يكون من الأمور الهامة أن نتحدّث عن زعماء طالما أهملنا هم حتى الآن، ونعني بذلك: القاهرة وسكانها.

كبار العلماء وأفراد الشعب

كانت القاهرة في العهد الذي نتحدث عنه، والتي أطلق عليها العرب اسم «أمّ الدّنيا»، تبدو كمدينة مهملة، وكان الأجنبي الذي يطأ أرضها، لا يملك إلا أن يستغرب درجة الشقاء والبؤس اللذين كانا يغطيان وجهها. ولم يكن قد بقي من ماضيها الزاهي، إلا بعض الأوابد المهملة الغارقة في محيط من الدروب العديمة الأسم، والمغمورة بالقمامات. ولئن كان يوجد هنا وهناك بعض البيوت ذات المظاهر الجميلة، فإنها تبقى محاطة بأبنية خربة.

ولئن قدّر سكان مصر يومئذٍ بأربعة ملايين ساكن، فإن سكان القاهرة يقدّر يومئذ بما يقرب الـ ٢٥٠٠٠٠، وربما لم يزد هذا العدد، بعد موت محمدعلي عام ١٨٤٩[٦]، وفيها طوائف غريبة متنوعة كافية. فإذا تركنا الأقباط الذين كان يقدّر عددهم عام ١٧٩٨ بما هو قريب من العشرة آلاف نسمة، وتركنا اليهود الذين كانوا حوالي (الثلاثة آلاف) فإن لدنيا بعد هؤلاء، مغاربة وسوريين (ما بين ١٥ أو ٢٠٠٠٠ نسمة) وعشرة آلاف تركي و ٤٠٠٠ مسيحي يسمّونهم ملكيين أو كاثوليك أورثوذكس، و ٢٠٠٠ أرمني. أما الشعب العادي المسكين، المشاهد الدائم، واللاوزن له، والمستغَل أكثر مما هو مستغِلّ، فإن ركيزته كانت تتألف من التجار والعمال المهنيين[٧]، والشيوخ والعلماء.

أما العلماء[٨]، فإنهم يُمثّلون القلب الديني، وهم وثيقو الاتصال بالمسجد - الجامعة، أي الأزهر. وعلى الرغم من أنهم غير مأجورين، إن كانوا معلمين أو أساتذة، فإنهم يسعدون بمزايا محترمة عن طريق الأوقاف وطرق أخرى، مثل الرواتب أو الأجور التي تدفعها الدولة من خزائنها، ومثل الإعفاء من الضرائب، فضلاً عمّا يقدّم لهم من مساعدات مالية، وهدايا مما يؤكل أو يُشرب. يضاف إلى هذا ما يقدّم لبعضهم، من أجور البيوت أو الدكاكين أو البساتين. وبين العلماء عدد ممن يجدون في الفعاليات الاقتصادية، أنواعاً كثيرة من الموارد الإضافية. وهم، في أكثر الأوقات، أصحاب مكتبات أو خطاطون أو نُساج. وربّما عَمل بعضهم في الخردوات أو في الخياطة... لكن ما يشار إليه هنا خاصة هو كونهم يؤجّرون محلات لأصحاب المهن، أو التجار. ويساهم هؤلاء العلماء في الحياة الاقتصادية للبلد في مهن. مثل الصناعات الحريرية، والطواحين، ومعامل الكلس، الخ.. وربّما كان منهم عدد من كبار الأغنياء، مثل الشيخ السادات[٩] مثلاً، يستفيدون من موارد هامة تأتي من الأوقاف، بالإضافة إلى الاستثمارات المتنوعة، مثل ذلك البناء ذي الطوابق الثلاثة القائم في بولاق، والذي كانت قيمة عام ١٧٩٢ تقدّر بـ ٤٥٠٠٠٠ Paras (بارة).

وكان العلماء في كل زمان، الوسطاء الطبيعيين بين الرعايا، والفئة الحاكمة. وكانت وظائفهم الدينية، والشرعية، والجامعة، تدفع بالشّعب إلى الاتجاه إليهم والاستنجاد بهم في أيام الأزمات، لكي يرفعوا مطاليبهم وشكاواهم إلى رجال السلطة [١٠] وهذا ما يعلل أن الفاتحين الأجانب - سواء أكانوا مماليك، أم عثمانيين، أم فرنسيين - حاولوا دوماً أن يستوثقوا من دعمهم المعنوي، إذا ظهرت في الأفق بوادر أزمة سياسية ... ويظلّ صحيحاً مع ذلك أن هناك تناقضاً بين الصلات المادية والاجتماعية التي توّحد بين الشيوخ والطبقة الحاكمة، وبين دور هؤلاء عندما ينقلون شكاوي الناس، أي ذلك الدور الذي يقدّر أنهم يقومون به. إذ أن الظلامات التي كان الشعب يشكو منها لا تنشأ عادة إلا من استبداد السلطة الحاكمة، التي كان العلماء دوماً وثيقي الصلّة بها. وخلال كل مراحل التاريخ المصري، كان موقف العلماء تجاه الأزمات التي تعصف بالبلاد، موقفاً، أقلّ ما يقال فيه أنه ذو وجهين تجاه الحركات الشعبية.

وفي بداية العام ١٨٠٤، كان يتميّز في الطائفة الإسلامية شيخ الأزهر، الشيخ الشرقاوي، الذي اختارته مجموعة من المشايخ، ولكن لابد من الموافقة الإرغامية من جانب السلطات المدنية في القاهرة. وكان رئيس جماعة التجار، رجلاً اسمه المحروقي [١١] والمواجلهي وهو تاجر غني، من أهالي البحر الأحمر، والشيخ السادات الذي ذكرناه سابقًا، والشيخ خليل البكري، وكلاهما يشرفان على فرقة صوفية، وأخيراً هناك الشيخ مكرم الذي يحمل لقب نقيب الأشراف (وهو رئيس أحفاد النبي في بلده). وكان هذا الأخير، البطل الشعبي الحقيقي، المشهور بقدرته على تحريك الجماهير، وقد قام في كل أيامه بدور سياسي نشيط. وفي عام ١٧٩٨، وبعد معركة الأهرامات، استطاع أن يجمع أكثرية الصنُاع وينظمهم كميليشيا (كعساكر غير نظاميين)، للدفاع عن العاصمة التي هرب منها المماليك. وفي عام ١٨٠٠، كان بطل الانتفاضة الثانية على الوجود الفرنسي.

أما لدى المسيحيين، فكان في المقام الأول جرجس الجواهري، وهو قبطي غني، كان بونابرت قد سمّاه رئيساً عاماً لمصلحة الجباية. وعندما رحل الفرنسيون، استطاع البقاء، مقبولاً في الأوساط السياسية.

وإذا نحن صدّقنا الجبرتي، فإن أكثر هذه الشخصيات كان، على الأقل، مشبوهاً.

أما الشعب... فبدون أن نرسم صورة كاملة للمجتمع المصري، يمكننا أن نصوّره كما يلي: كبار التجار، والصنّاع، والمأجورون، والباعة، والمزارعون، ثم طبقة المساكين والفقراء الذين يمثلون أغلبية الشعب. ومع ذلك فإن تناول المخدّرات نما في داخلها أكبر النمو، وهو تناول له من الأهمية ما يكفي لتبرير وجود «شبه نقابة» لباعة الحشيش. أما العمال من «الطبقة الأولى» فإنهم يعيشون حياة بائسة. ولباسهم مجرّد قميص أزرق من الصوف. ويسكنون فيما يشبه الأكواخ، وكلّ ما عندهم من أثاث هو جزء من حصير القصب، أو لنقل بقايا حصير، ينامون مع زوجاتهم وأبنائهم الكثر عليها. وفي أكثر الأحيان يظلّ الأطفال عُراة، أو عليهم الأسمال البالية. أما عمال الطبقة الثانية فإنهم يسكنون في أبنية أقرب إلى الأروقة أكثر مما يشبه بيوت الأجرة. فإذا استثنينا أنهم أفضل لباساً من زملائهم (لوجود الطربوش، والشال الموصلي)، فإن مستوى حياتهم لا يتشهّاه أحد.

فإذا وصلنا إلى التجار، أو «الطبقة الثالثة» قلنا أنهم يشغلون قمّة السلم الاجتماعي. ولكن القوة المالية والرقابة التي يمارسونها على قطاع أساسي من قطاعات الحياة الاقتصادية، يهبانهم أو يهبان رؤساءهم نفوذاً كبيراً، وبعض التأثير في السلطات الحاكمة للبلد.

وكنا نشير فيما سبق إلى الأهمية التي يمكن لكل منهم معها أن يكسب مودّة العلماء. وحتى هذا اليوم ما من أحد استطاع استهواءهم. وكان بونابرت في طريقه إلى النجاح، حين فهم، قبل محمد علي، أنه لا يكفي أن يستولي على هذا البلد

أو ذلك، بل يجب أن يستولي أيضاً على قلوب الناس جميعاً فيها. ولقد استخدم كل ما لديه من إغراء لكسب الناس لقضيّته. فلم يتردّد ذات يوم في التقدّم إليهم، بلباس شرقي كلباسهم، ومضى في ذلك الاعتقاد، إلى أنه هو وكلّ الجيش الذي يقوده، على استعداد تام لا عتناق الدين الإسلامي. ولكن على الرغم من أن الإغراء ربما أثر بعض التأثير، إلا أنه لم يكف للوصول إلى الغاية المأمولة.

لنقل إذن إن لعبة الإغراء هذه، هي التي سيستخدمها محمد علي بعد قليل.

عودة اللورد الألفي

وعلى حين أن محمد علي والبرديسي، في شباط (فبراير) من عام ١٨٠٤، كانا يلعبان بالشطرنج المصري، فإن الإنكليز قرروا أخيراً إعادة عميلهم الذي كانوا قد أخذوه معهم، إلى مصر من جديد: وهو الذي يُسمى محمد بك الألفي. وهذه حيلة كان قد توقع مثلها ماتيو دوليسبس Mathieu de Lesseps، عندما كتب لتاليران، قبل سنة واحدة، رسالة جاء فيها ما يلي: «فمنذ وصولي عملت على ملاحظة المسيرة السياسية لانجلترا، فيما يتعلق بهذا البلد. ولكن أبحاثي، وأحاديثي السرّية مع مندوبي السيد الكبير والمثقفين العاديين، الغرباء والمصريين، وسلوك الانكليز قبل انسحابهم وبعده، كل ذلك، أخيراً يحملني على الظن أنهم يحمون - ولكن بأسف - جماعة المماليك، ويقومون بعمل كل ما يجب لرعايتهم، وكسبهم.. إن الحكومة البريطانية، التي نعرف أن كل حروبها ومفاوضاتها، وأساليبها، ليست محدّدة إلا بمصالحها، تبغي جعل مصر خاضعة لتجارتها.. وهي لا تستطيع اليوم تحقيق هذه الغاية الهامة، إلا بعد أن تقيم حكومة تكون هي «بمعنى ما» قد خلقتها. ولديّ كل ما يبعث على الاعتقاد، أنها تستخدم نفوذها السياسي، وحيلها، لكي تضمن للبكوات، مخلوقاتها، كامل السلطة. ومما يبعث على الخوف أن هؤلاء لا يشترونها بشروط مفيدة لبريطانيا فقط، بل بشروط أخرى يمكن أن تسيء إلى تجارتنا، القريبة من الازدهار، في هذا البلد[١٢].

ويرى الجبرتي أن الألفي اكتسب سمعة الرجل المستبد . . فهو مغرور، ومشبع الثقة بنفسه، ويوحي بهلع شديد لسواد الشعب . ومع ذلك فإنه يظل صحيحاً القول : إن هذا الرجل هو آخر الباقين من كبار المماليك سابقًا : « ولقد كان » على طريقته « فريداً بين قومه »[١٣] . وعندما وصل إلى العاصمة الإنكليزية، أصبح خلال فصل من فصول السنة ، شهيراً في لندن كلها . وكان تقديمه الرسمي إلى البلاط قد فتح له الباب في كلّ البيوت الارستقراطية . فهيئته، وقامته المهيبة، وطرافة بدلته، قد أثارت الفضول والافتتان . وا أسفاه ، كل هذا معروف . ما من شيء إلا وهو غرور ودخان . وهكذا بعد حين، أصبح المملوك غير مطابق لذوق العصر ، ودام هذا حتى اليوم الذي عرف الإنكليز فيه أخبار الثورة التي وضعت السلطة بين أيدي البرديسي .

وفي أقل من خطف البرق أعيد الألفي إلى مكانه وأحيط باحترام لم يعرف له في أيامه السابقة، ويعود فيصبح أداة من الدرجة الأولى من أدوات سياسة حكومة سان جيمس Saint James . ولاحظ الرجل الطيب أنه على وشك أن يصبح سيد مصر ، وهو يقبل كل العروض، بهذه الصفة . وكان الناس يساهمون في تأمين نفقاته العادية مقابل الحصول على بعض الامتيازات أو الاحتكارات . وكان قد عُني بحمل أثاث ملكي في حقائبه . ومن الناس من يقول : إن في الفرقاطة التي حملته إلى مصر من بريطانيا، عدداً من الحرس الخاص، للملك القادم .

وعلى كل حال، فإن الألفي ليس بالشخص الذي لا حزب له في مصر . ولئن كانت شجاعة البرديسي وأعماله الجليلة قد بهرت عقول الناس في القاهرة، فإن الألفي اكتسب بكرمه نفوذاً ليس هناك من يعادله فيه في المحافظات . ثم إن بيته من جهة أخرى ضخم، وأثناء غيابه ، تركه لواحد من كشافيه Kachef[١٤] الألفي الشاب . وقد لقب بهذا اللقب للتفريق بينه وبين معلمه (سيدّه) . وعلى ذلك فإنه

يـصـل إلـى الإسكـنـدرية مــن علٍ، وسيـمـضي سريعًا إلى السقوط منه، وأرجله في الهواء.

ومـا إن وصل إلى البلد، حتى قـرّر محـمد علي، وصـديقه الذي أنزلت عليه اللعنة، أعني البرديسي، أن يتخلصا منه. وفي منتصف شباط (فبراير) نصبوا فخًا لأنصاره، وأرغموهم على التفرق. ومنذ هذه اللحظة شعر ا لألفي أنه ضاع وفي آخر لحظة. نراه ينجو من الأسر، ويهرب إلى مصر العليا.

وفي ٢٣ / ٢ / ١٨٠٤ أرسل ليسيبس إلى تاليران رسالة يقول فيها: «إن الألبان في غاية الفرح، إذ أنهم وجدوا المماليك، يُمزق بعضهم بعضًا. بل إنهم ساعدوا على هلاكهم، وتعلّموا ألا يخافوا بعد الآن، عندما لاحظوا السهولة التي تمّت لهم فيها الغلبة ... وأستطيع أن أطمئنكم سلفًا، أن مشروع محمد علي لم يعد ذا وجهين، وأنه سيتولى السلطة»[١٥]

ويلاحظ، أن وسائل محمد علي تتغير، لكن طريقته تظل هي هي: فهو يستخدم تارة أحد مزاحميه، وتارة آخر لفتح الطريق. ولو أن البرديسي كان يملك أدنى درجة من الحدس، لكان من المرجح جدًا، بعد كل هذه الحيل، أن يتذكر نبوءة الرجل الهرم، ولقال: إن انتصارًا آخر مثل هذا إن تم، فسيتم القضاء علي مباشرة». ذلك أن العون الذي قدّمه لمحمد علي هذه المرة سيجعله هو شخصًا لا فائدة منه» يبرهن على ذلك أن محمدًا قرّر أن يلتفت نحو زميل آخر: هو الشعب المصري. وهو يعرف أنه سيقيم بفضله سلطته بصورة موثوقة، وطويلة الأمد.

الدمية المنهارة

والآن، ماذا عساه أن يكون الوضع؟ أما الخزينة ففارغة، والبلد في حالة النزع، والتجارة في أسوأ درجاتها، بسبب فقدان الأمن على الطرق. والقمح «أي الخبز» ينقص نقصًا سريعًا. وعندما يعثر الإنسان على شيء منه، يجد سعره غاليًا جدًا. وهو يباع بأسعار عجيبة (أي بأكثر من ٥٠ بارة للأردب الواحد)[١٦]، بحيث يمكن – القول إن من العسير جدًا، أن يكون القمح في متناول الطبقات الأكثر فقرًا.

وعندما لا يكون المماليك هم الذين يجتاحون الأسواق، فإن البدو يحلّون محلّهم، وينهبون الأسواق، ويهاجمون القوافل، على حين أن المرتزقة التي تتراكم مخصصاتهم في غير أيديهم، يبدؤون بحملة نهب أية شحنة ممكنة تحمل بعض البضائع من أعالي النيل أو من مصر الدنيا.

وفي هذا الجو المأسوي يدفع التعيس البرديسي إلى الأمام من قبل محمد علي، ويكاد أن يصبح رئيسًا للبلاد. وفي اليوم السابع من ربيع الأول (٢٢ / ١٦ / ١٨٠٤)، يقوم الزميلان بالدخول إلى القاهرة. فإذا بالسيدين يهاجمان مباشرة بجمهور يشكو ما هو فيه من شقاء. وأمام هذا اليأس، يأمر البرديسي محمد علي بفتح مستودعات الحبوب، وتوزيعها مباشرة على الناس. . ولكن أي الرجلين هو الذي يستفيد من هذا القرار؟ ويرى الجبرتي، أنه يفيد الأول [١٧]. بيد أن الثاني يجتذب لشخصه - ما في ذلك ريب - شيئًا من مباركة الشعب. ومهما يكن الأمر، أفليس هو الذي يتولى توزيع القمح؟

ومهما يكن الأمر، فالتقدير السائد هو أنه ما من شيء قد حُل. وعلى البرديسي أن يردّ على الجنود الذين يتابعون المطالبة، بكل ما لديهم من وسائل؛ بمتأخرات رواتبهم. ولكن هذا بعيدٌ عن أن يكفي. واجتمع مجلسٌ لدى إبراهيم بك، واتخذ قراراً بتوزيع المبالغ المختزنة. بين الأمراء، تبعًا لموارد كل منهم. ولكن هذا أيضًا غير كاف. فالبرديسي مرغم على الالزام بدفع ضريبة تفرض - على أكبر التأذي من القناصلة- لا على الباعة فقط في القاهرة، بل كذلك على التجار الأجانب المقيمين في القاهرة. «وفرضت الحكومة، تبعًا لنظام الطوائف ضريبة كبيرة على مسيحيي البلاد، وأدخلت في عدادهم من هم في حماية فرنسا، طبقًا لمراسيم من الباب العالي، وكذلك على جماعة السويديين الذين ليس لهم من وزير مفوض، يتعهدهم بالرعاية وبين هؤلاء رجال كانوا قدَّموا خدمات كبيرة للجيش الفرنسي»[١٨].

وهكذا يُستولى ، على مرأى من التجار البائسين على بضائعهم لتباع بأرخص الأسعار . وحتى القهوة الآتية من حضرموت ويامبو Yambo فإنها تصادر وتُرخص أسعارها . وكذلك فإن البرديسي ، حبًا بكسب دعم الجيش ، يقوم بفرض ضريبة جديدة على الناس .

وبدأت القاهرة ، في الأيام التالية ، تتحول إلى بركان . فانفجرت التمردات بعض الشيء ، في كل مكان . ومن أعلى المآذن ، كانت تسمع أصوات تقول معًا : «برديسي ، ماذا تريد أيضًا أن تفرضه علينا من شقاء »[١٩] وبدأ الرجال والنساء يصبغون أيديهم باللون الأزرق ، كإشارة للحزن . وأغلقت الدكاكين أبوابها ، وتوالى نهب المرتزقة للـ Djermes[٢٠] التي تصل من أعالي وأداني مصر . وبدأ الناس بالمقابل ، يتجهون جماعات جماعات إلى الأزهر ، المكان المعتاد لتجمع الشعب ، في الساعات الحرجة . ويرى الناس قبضات الأيدي تنتصب ولكن ما من مرة في هذا الفوران من الغضب ، كان فيها شيء سيئ عن الباشا القادم - مما يدل على أن محمد علي لعب لعبته ، بأنعم الأساليب . - وفي الظل يرى الإنسان أنه يفرك يديه ، إذ ان اللحظة التي يلقي فيها البرديسي ، في الجحيم ، قد حانت .

وهكذا وزّع الألبان في القاهرة ، وكلفهم بمهمة منع المماليك ، من إيذاء الجماهير . وعندئذٍ بدأ الشعب يهتم ، عن كثب ، بهذا الحامي المبعوث أو المرسل من اللّه .

أما وأن البرديسي قد أُغضب بهذا التمرد الصاخب ، فلابد إذن من دعوة العلماء والأعيان في القاهرة ، وبدأ يُوجه إليهم الشتائم ، رادًا مسؤولية كل ما يحدث عليهم . ولكن محمد علي يقف عندئذٍ مع العلماء ويقول له : إنه ليس من واجب الشعب المصري أن يدفع رواتب العسكريين ، بل إن هذا يقع على عاتق الحكومة . وبهذا الموقف يبرهن لأعيان البلد أنه لا يخشى معارضة المماليك إذا هو دافع عن مصالح الجماهير . وهكذا ، وبصورة لا تكاد تحسّ ، يعرض على عيون الشعب صورة المنقذ ، ولكن ليس المنقذ فقط ، بل المنقذ الذي لا يطمع في شيء .

وأثناء الأسبوع نفسه، نرآه يثير نقمة الألبانيين الذين ينتظرون مرتّباتهم، المتأخرة عليهم، منذ ثمانية أشهر. ويبدأ صيد المماليك. ويذبح منهم عدة مئات. ويحيط الألبانيون بقصور كبار البكوات، ولا سيما قصر عثمان البرديسي وإبراهيم. وكانت المؤامرة مدبرة تدبيراً جيداً جداً، بحيث أن المحاصرين، يفهمون من لعلعة الرصاص، أن الهجوم قائم عليهم. أما البرديسي الذي كان بيته في موقع تستطاع فيه المقاومة، فإنه دافع بعزم. ولكن سرعان ما عرف أنه ضاع. فقام على رأس بعض الأوفياء الذين يحيطون به، وفتح أبواب قصره على كل مصاريعها، وهجم بسرعة كبيرة جداً وهو على ظهر حصانه، على مهاجميه، واحتمى بالحصن المجاور للمعهد. وعندما هبط الظلام، هرب من القاهرة ليجد الملجأ في الصحراء التي كان إبراهيم قد سبقه إليها. وإلى الخارج يا برديسي، صديق الأيام السوداء.

وكانت الخلاصة التي وصل إليها الجبرتي. ترى: «أن كل هذه الأحداث تتابعت بحكم إرادة الله وحسابات محمد علي».

خورشيد باشا، مجنون السلطان.

وعلى الرغم من هذا الانقلاب العسكري الذي يجعل الألبان وحدهم، سادة القاهرة، ومصر الجنوبية، فإن محمد علي، مع ذلك، لا يتسلم السلطة. ولا ريب أنه كان يشعر أن الوقت المناسب، لم يحن بعدُ. ويبدا له بحركة كريمة بشكل غريب جداً، أن يحرِّر خسرو ويضعه على رأس حكومة مصر، بانتظار مرسوم السلطان. وفجأة نشب تمرد عسكري. فحسان باشا، وكذلك أكثرية الألبان، خافوا أن يُبطش بهم، واحتجوا بعنف أمام محمد علي، وطلبوا إقالة خسرو باشا من منصبه، لكن رجل كافالا لم يردّ بشيء، إنه رام أن يُحل ما عقد، تماماً كما لو أنه أراد، بإعادة خسرو إلى السلطة» أن يتحقق من حدود قوته، فقط وأن يُقدم للعلماء، أي للشعب، البرهان على نزاهته وبراءته، وعدم التفكير بالمصلحة الشخصية من الناحية السياسية.. فوضع البائس خسرو مباشرة تحت المراقبة، ورحّل إلى دمياط التي سيسافر منها سريعاً إلى استنابول.

وظل محمد علي على ما كان عليه من الجرأة على الحق، وأشار على الباب العالي بتسمية حاكم الاسكندرية: خورشيد باشا. وكان رأيه هذا موضع ترحيب من السلطان وخورشيد الذي لم يطلب كل هذا، عيّن بدوره واليًا على مصر. وفي ٥ / ٣ / ١٨٠٥، كتب برنار دينو در وفيتي[٢١]، لتاليران « إن خورشيد باشا عيّن لباشوية القاهرة. والرجل ليس بصاحب تصوُّرات كبرى - ولكنه مطيع، ويقال إن جماعته محترمة[٢٢].

لكن ما تلا هذا يبرهن على أن الرجل لا يملك إلا ظلاً للسلطة: وكان محمد علي يعرف ذلك سلفًا . فما كان عليه إلا أن يرسل بمجموعة من الألبانيين، ليكونوا بأمر خورشيد. ويقوم هذا الوالي بتعيين خزنداره حاكمًا للإسكندرية، ويُسرع إلى السفر مع حرس الشرف. وينزل من مركبه الشراعي[٢٣] يوم ٢ / ٤ ، في بولاق ، بعد أن حيَّته المدفعية. وفي اليوم التالي يدخل رسميًا إلى العاصمة. وظل حرسه يرافقه، والموسيقى تصدحُ عاليةً من أجله، حتى وصل إلى البيت المهيأ من أجله، في الداوودية. وبعد ٢٠ يومًا، جاء الرسول من استامبول، حاملاً معه قرار التعيين. وجاء فيه ما يلي: « إننا نعطي حكومة مصر لأحمد خورشيد باشا. ولقد ساقنا إلى هذا الاختيار، ما تميّز به هذا الباشا وما عرفنا له من مهارة، يُعترف له بها، وفكر ثاقب، وذكاء وحكمة في إدارته[٢٤] » أما محمد علي وحركاته، فإن الفرمان لا يقول شيئًا ، كما لو أن هذا الرجل كان مجهولاً لدى الباب العالي.

لكن هذه العودة إلى الشرعية، لم تكن إلا وهمية ، لأن خورشيد ، في الواقع، ليس إلا الظل للسلطة الشخصية لرجل كافالا . وليس له من سلطة حقيقية: وهذا يعني أن السلطة كلها في يد الثاني. بيد أن الأول خورشيد، والثاني محمد علي، بل الثاني أكثر من الأول، مهددان بمماليك ، إبراهيم والبرديسي (الذي لا طاقة له والذي لا يستطيع هضم استبعاده عن الحكم). أما الألفي وسادة آخرون، من المرتبة الثانية، فقد جمعوا أنصارهم. وهم يمسكون بتلابيب الريف،

في أطراف العاصمة، في الجيزة، وصقارة وأمبابة: ونراهم يتسللون إلى مصر - الدنيا، ويستولون على قليوب وينهبونها، ويظهرون في بركة الحاج، ويبدون وكأنهم السادة غير المنازعين لمصر العليا وللفيوم.

أما داخل العاصمة، فإنه لا مجال للهدوء لدى السكان: وكذلك ما من اطمئنان للنشاط التجاري.

وتبقى الحاجة إلى المال بمثابة العقبة الأساسية، أمام الحاكم الجديد. ذلك أن موارد الدخل العام، تشكو النضوب، بحيث يستحيل الاعتماد عليها. وربما احتاج الأمر إلى مالي عبقري أو رجل ساحر لكي يدفع مرتبات الجنود. ولما كان المماليك هم الأهداف المباشرة للسلطة، فقد قرَّر - وهذه مفارقة غريبة - حملهم على دفع نفقات الحرب التي يشنونها عليها. أما أنصارهم، الخفيّون جداً، فيبحث عنهم، ويفرض عليهم ضريبة كبيرة. وحتى الست نفيسة، أرملة المرحوم مراد بك، استدعيت وطلب منها تقديم الضريبة. ويتوقع ماتيو دوليسيبس أن أيام الباشا أصبحت معدودة، ويكتب تقريراً عن هذا الأمر ويرسله من ليفورن Livourne إلى تاليران، وقد جاء فيه قوله: «إن خورشيد باشا، نائب الملك في مصر، يعاني من أشد أنواع الضيق. ولم يخف عني أن وضعه مزعج جداً»(٢٥).

أما محمد علي، فإنه لم يكن قط ممن يعارض «كبسات» المماليك. وكانت هجماته تقتصر على جبهات خفيفة، في أماكن لا تبتعد أكثر من الطوره Tourah، (وهي مدينة صغيرة تقع جنوب القاهرة).

وحول ١٥ / ٣/ ١٨٠٥، علم، أن الألفي بك ورجاله، مضوا إلى مقاطعة الفيوم فيعتقد أن غيابهم مناسب لمحاولة الاستيلاء على المنيا - وكان الرجل سعيداً جداً في الصدام الأول. إذ استطاعت قواته الوصول إلى الساحة العامة، ولكن سرعان ما استطاعت مقاومة المماليك التابعين لسليمان بك، أن تهزم رجال محمد علي. لكن هذا الإخفاق لم يوئسه. فبعد عدة أيام يكرِّر هجومه، واستطاع يوم ٢٥ / ٣ الاستيلاء على المدينة. وكانت هذه بمثابة الشارع الكبير الموصل إلى مصر

العليا. وكان فيها مركز مدفعيتهم، ومخازن تموينهم. وكان الاستيلاء عليها يتيح له إعادة المواصلات مع وادي النيل الأعلى، والقدرة على تموين القاهرة الجائعة.

وكان هذا نصراً هاماً يضعف، وبشكل محسوس، مواقع البيكوات، ويمدّد دائرة عمل حكومة خورشيد، ويرفع القيمة الشخصية لمحمد علي.

بيد أن خورشيد، خلافاً لسابقيه، يشعر بأن رجل كافالا ومن معه من الألبان، يمثلون خطراً عليه هو نفسه. وكذلك كان الباب العالي، هو أيضاً، قد بدأ يستشعر هذا الخطر، فنراه، يستخدم ديبلوماسية عالية، وينصح محمد علي وعناصره، بترك مصر، قائلاً: سوف تعلمون في الرسائل الواردة، أن استيلاء الفرنسيين على مصر، حمل الباب العالي على بذل تضحيات كبيرة في المال والرجال، لإعادة سيادته على مصر. ومنذ ذلك الحين، كان هنالك أناس سيئو النية، من بينكم أعادوا وقوع النيل تحت سيطرة المماليك. ولا يعزو الباب العالي ما وقع، والخطأ الذي تم، إلى الجميع. ومهما يكن من أمر، فإن الماضي مضى، وجاء تسامحه بالعفو عن الجميع، ومحا الجرائم. ولهذا فإنه يدعوكم إلى ترك مصر، والعودة إلى مساكنكم مع الألبانيين الشجعان. أفيمكنكم إذن أن ترفضوا العودة إلى أهلكم، الذين يمدّون إليكم أذرعهم لاستقبالكم؟ وكونوا متأكدين أن النسيان قد غطى على الأحداث السابقة، وأنه لن يكون هناك ما يلحق بكم الأذى، ولن يبحث أبداً في الأحداث ذات العلاقة، بنائب السلطان، خسرو باشا، ولا يشك الباب العالي مطلقاً بإنكم تتعجلون بتكريم هذه الاستعدادات الطيبة وبتنفيذ أوامره بالاطاعة الذي يستحقها(٢٦).

وهكذا فإن أمنية الباب العالي، تظل حبراً على ورق.

ويقرِّر خورشيد يومئذ أن يأتي، على سبيل إقامة التوازن بجنود أكثريتهم كردية. وكان هؤلاء يتمتعون في الجيش العثماني بسمعة عظيمة، جعلت لهم لقباً هو الدلهي(٢٧)، وهذه كلمة تعني «المجنون». . وفي ٢٩/ ٣/ ١٨٠٥، جاء منهم

أربعــة آلاف ليـدخلوا إلى القــاهرة ... وكــانـت هذه الطريقــة رابحــة، لـو أن هؤلاء القادمين الجدد لم يجلبوا لأنفسهم سوء السمعة واللعنات من قبل الشعب، وبحكم مـا هم عليـه من عـدم الانتظام، ومن كـثـرة مـا يؤذون الناس. ويشـهـد Drovetti على ذلك يوم ١١ / ٤ ، إذ قال: « لقد وصلت إلى القاهرة كتيبة مؤلفة من ١٥٠٠ فارس دلهي dellhis، وبدأ ت المدينة تشكو من وجود هذه الكتائب التي لم يكن أفرادها أكثر انتظاماً من الألبـــانيين. بل إنـهم اقـتـرفـوا حـتى الآن جـملة من الإسـاءات والاعتداءات(٢٨) » . ثم يوضح الموضوع بقـوله: « لن يكون غريباً أن يقوم مـحـمـد علي الـذي لـيس لـه مـا يـحـمد عـليـه مـن الـباب الـعالي، بتـفـجـيـر مشـاعـره في هـذه المناسبة» .

وفي هذا ما يحملنا على القول : إن رؤيته كانت صحيحة. فإن رجل كافالا مضى أخيراً إلى القيام بلعبته.

وفي منتصف الشهر الرابع عمد إلى جمع الألبانيين، وترك المنيا، واتجه إلى العاصـمة. وفي يوم ١١ ، سـجل مروره ببني سـويق. ويلاحظ Drovetti» أن سـماء هذه البـلاد التعيسـة بدأت تتلبد بالغيـوم الثـورية وهناك أيضاً غـيـوم أخرى تتراكم في سماء العـاصـمة ... ولكن مـحـمـد علي مع كل رجاله ترك مـصـر العليا ليـمـضي باتجاه القـاهرة بحجة المطالبة بمرتباتهم المتأخرة. ومع أن الإنسان يجـهل مشروع هذا الرجل الطموح والمغاير، فإن الباشا (خورشيد) يتخذ بعض التدابير العسكرية. فنقل إلى القلعـة كل سلاح المدفعية الذي كان مفرقا في المدينة . وكان هناك ١٥٠٠ عـصملي وألباني دُعوا إلى اتخاذ موقع لهم في الطوره، وعُزّزت كتيبة الجيزة وكذلك اتخذت عساكر الدلهي موقعها في بيوت القاهرة القديمة. ولا يسع الإنسان أن يعرف ، أيًا من المواقع سـيتـخـذها السكان في مثل هذه المناسـبـة. ولما كـان البـاشـا غـيـر مـتـأكـد من نواياهم، فإنه يبقي لديه كرهائن الشيخ عبد الله الشرقاوي وسليمان الفيوم (٢٩) .

وبانتظار ما سيحدث ، انتهز البدو الفرصة للاستفادة من الاضطرابات التي تهز العاصمة وتجر المصائب في مصر الدنيا. أما محافظة البحيرة جنوب الاسكندرية

فهي الهدف العام لغاراتهم. وبدؤوا يسلبون الفلاحين التعساء، لا محصول السنة فقط، بل إنهم أيضاً يسلبونهم جمالهم، والقسم الأكبر من بهائمهم. أما المماليك، فإنهم يتابعون غاراتهم في مصر العليا، ويسدّون مداخل القاهرة.

ويكتب دروفيتي مرة أخرى لتاليران قائلاً: «إن التجاوزات تعاظمت إلى مالا نهاية. وما من إنسان حتى إذا كان مسلماً، يجرؤ على الظهور في شوارع القاهرة أو في الطريق المؤدي إلى بولاق، التي هي مرفؤها، إن لم تغطه أسمال البؤس، وهذا يعني أن الخوف بلغ أقصاه لدى الإنسان، ولم يعد يظهر أحد خوفاً من أن يسلب ما لديه أو أن يقتل ... إن الفوضى الأكثر اكتمالاً تعمّ العاصمة. فالجنود يسجنون رؤساءهم، وضباطهم، وينهبون ما يمكن أن يجدوه في الطريق.. أو في الدكاكين، وحتى في البيوت. ولم يعد للباشا أية سلطة. إن هذا الوضع بلغ الدرجة العليا من الفوضى التي لا يسعه فيها أن يستمر كما هو»(٣٠).

وفي ١٤ / ٤، عسكر محمد علي تحت جدران الطورة وتظاهر جنوده بأنهم لم يأتوا إلا ليطالبوا بمرتباتهم، مما لم تجد معه عساكر الدلهي أي معنى للوقوف منهم موقف العداء. وفي ١٩ / ٤ دخل إلى القاهرة مع جنوده، واستقر في بيته في الأزبكية، في مركز المدينة.

وفي اليوم نفسه ينذر خورشيد بتسديد حقوق جنوده الألبان، واشتدت الأزمة. واضطر خورشيد إلى الألتزام بدفع ٢٠٠٠ ألفي بورصة، في أقرب فرصة. ويعود دروفيتي، فيكتب إلى تاليران بتاريخ ٣ فلوريال السنة الثالثة عشرة أي في ٢٣ / ٤ / ١٨٠٥ رسالة جاء فيها قوله: «منذ دخل محمد علي إلى القاهرة، بدأ سوء التفاهم يتفاقم بينه وبين سمو خورشيد باشا. وحتى الآن لم يتبادلا أية زيارة. ويطالب محمد علي بكشف حساب بكل ما دخل إلى صناديق الدولة، منذ اللحظة التي استلم فيها الباشا مقاليد السلطة. ويطلب من كيايابك، وقائد قوات القلعة صالح آغا، أن يقوما على رأس الجيش الذي يمضي إلى مصر العليا، وأن يبقى هو في القاهرة. وفي المدينة ما يتراوح بين ثمانية أو عشرة آلاف جندي، وكلهم يطلبون

مرتباتهم بكل إلحاح . إن الدكاكين مغلقة، وما من أحد يجرؤ على مغادرة منزله، وقد ظهر أن لمحمد علي تأثيره الكبير في الجنود. وعلى الرغم من أن الباشا دعا الرؤساء وأهل المدينة إلى عدم زيارته، فإنهم قاموا بها مع ذلك»(٣١).

ثم يأتي يوم ٢٨ / ٤ : «فعلى الرغم من الترتيبات التي اتفق عليها بين سمو الباشا خورشيد ومحمد علي، فإنه لا يبدو أن مجرى الأمور يتخذ اتجاهًا سليمًا بالنسبة إلى الأول. أما الألبان المستاؤون من الدفعات التي قبضوها، فإنهم يطالبون، بصوت عال، بمبالغ ضخمة، يستحيل أن يمكن دفعها. إنهم يطمعون بـ ١٢ ألف بورصة. وعندما قدمت لهم الملاحظات التي تكشف عن الاستحالة المطلقة، لدفع مثل هذا المبلغ، بدؤوا يطالبون بأن يقوم مدير المالية، ببيان ما يفعلونه بالميري (٣٢) (أي بأموال الدولة)، وخاصة بتلك الاعتمادات المخصصة للجيش (٣٣).

«[...] إن الوضع الحالي للقاهرة لا يسعه أن يقدم أية فكرة عن مستقبل هادئ. ولكي نطمئن تمام الاطمئنان، فإنه يجب أن ننسى، أن محمد علي هدف إلى باشويه القاهرة. وأن كل العمليات التي بدا أنه يوجهها لمصلحة الباب العالي، كانت تحمل سمة هذا الطموح، باتجاه السلطة العليا».

التتويج

وفي أول شهر مايو من عام ١٨٠٥، تم تطور جديد. فقد نزل خورشيد من القلعة(٢٤)، ومضى إلى المدّعي العام، من أجل، أو بغية عقد الديوان. فيدع لأحدهم أن يقرأ أمام القاضي، مراسيم السلطان التي تعيّن محمد علي باشا على جدة، وتأمره بمقاتلة الوهابيين: وكان هذا التعيين بين يديه منذ شهرين تقريبًا. وقد احتفظ به، في البداية، كسرّ، ثم أذاعه، وهو يقدر أنه يستفيد منه في استبعاد محمد علي نهائيًا من القاهرة.

وعلى الرغم من أن محمد علي يعي الفخ الذي يهيأ له، من خلال هذا الترفيع، فإنه يتقبل بهدوء هذا التعيين، ولكنه عازم على أن لا يخضع للواجبات

التي يقتضيها. فالسلطة، أصبحت في متناول اليد. ويجب اغتنام هذه الفرصة، والتأكد من أن أحداً لا يستطيع أن ينتزعها منه. ولئن كان عليه أن يسافر إلى الجزيرة العربية لمحاربة الوهابيين فذلك لا بدءاً من الآن، بل فيما بعد، أي عندما يقرر هو.

وتتم حفلة التعيين في بيت السيد آغا، في جوّ هادئ في الظاهر. ولكن ما إن رفعت الجلسة، حتى وجد الباشا الجديد الذي يتهيأ للرجوع إلى منزله، أنه محاط بميليشيا ألبانية تطالب (أيضاً ودوماً) برواتبها المتأخرة. ولكن محمد علي، الشديد الجرأة، يشير إلى خورشيد بالإصبع، قائلاً: أما أنا فلم تعد لي أية سلطة، والأفضل أن تتجهوا إلى سموّه الحاضر الآن. ومن غير أن يضيف شيئاً آخر، نراه يترك الاجتماع ليمضي إلى بيته. وعلى الطريق كان ينثر قطع الفضة والذهب، ويا له من رجل كريم، ليوزعها على المستحقين!. ومنذ ذلك الحين لم يعد الشعب ينظر إلا إليه.

وهناك في بيت سيدّ آغا أحاطت الميليشيا مباشرة بخورشيد، واتهمته بأنه حوّل الأموال العامة لمصلحته. وما من أحد يشك بأن هذا التمردّ أمرٌ دبره هو، محمد علي وحسان باشا، الرئيس الآخر للألبانيين، ونجح هذا الأخير بإبعاد غضبات العناصر عن خورشيد، وأتاح له الرجوع إلى البيت في القلعة، ولكن لا من غير أن يحصل منه على وعد، بعمل المستحيل، ليدفع للجند مخصصاتهم. وكما لو أن الرجل يريد البرهان على طيبه، وسلامة نيته، فإنه استدعى في اليوم نفسه المحروقي ثم جورج جرجيس (الجواهري) وفرض عليهما مبلغ ألفي بورصة. ولكن هذا ليس أكثر من نقطة ماء في محيط، وظل التوتر يتصاعد.

وبتاريخ ٣/ ٥/ ١٨٠٥، يكتب دروفيتي إلى تاليران، ما يلي: «إننا لم نعد نسمع أخباراً عن القاهرة منذ اثني عشر يوماً حتى ليقال إن هذه العاصمة فريسة لكل صور الفوضى والأعاجيب. وما من أوروبي يجرؤ أن يخرج من بيته. إن الجنود يرتكبون فيها كل أنواع الفواحش»(٣٥).

وفي اليوم الخامس، يلاحظ أن الهدوء يرتسم في الأفق . ولكنه يراه خادعًا «وظهرت إشاعة تقول أن سموه جانيب أفندي، رئيس الإدارة المالية في مصر، ومعه أهم المشايخ، أراد التوسط بين سموّ الباشا، وبين محمد علي، وأن هذين الأخيرين ، اللذين لم يجتمعا معًا، بحكم عدم وجود المكان المناسب لكل من الطرفين، اتفقنا أخيراً على الاجتماع في بيت صاحب السعادة « جانيب»، وأن الاثنين قررا الاتفاق على أن يتعهد الباشا، بدفع نصف رواتب سبعة أشهر للألبانيين، وأن محمد علي يقبل توزيع جنوده في مصر العليا، وأنه ، مع ذلك ، يستبقي في القاهرة جزءاً منهم تحت تصرفه، للوقوف ضد البدو الذين يسمّون جوّ مصر الدنيا» .

وعلى كل حال، فإن القنصل يبدو مقتنعًا أكثر أن محمد علي، يقترب من العرش . وحقًا، فمنذ اليوم التالي، يمكننا أن نقرأ بخطه قوله : « على الرغم من الأخبار التي يذيعونها هنا، حول مصالحة نهائية بين محمد علي وسموّ الباشا، فإني أحسب أن وضع الأشياء الحالي يوجب علي أن أسأل سعادتكم اطلاعي على التعليمات المتصلة بالسلوك الذي يجب أن أسلكه تجاه محمد علي، إذا هو استولى على مقاليد السلطة، أو إذا كان هناك ثورة ما، تحرم رجال الباب العالي من سلطة السيادة . ولقد اعتقدت أن عليّ أن أطلب الشيء نفسه من القائم بالأعمال في الأستانة، معتقداً أن ظروف سيادته يمكن أن يكون في الحالات الحرجة قادرة على إعطائي أوامر مؤقتة، بانتظار تعليمات سعادتكم» .

ونحن مرغمون ، في هذه القضية أن نعترف لدروفيتي بمزية فيها من التألق بالمقدار الذي يحمل تاليران على الامتناع عن إعطائه أي توجيه . ولما كان نابليون مشغولاً بالنضال ضد القيصر ، فإن تاليران يمتنع عن توجيه أي نوع من التعليمات إليه ذلك، أن نابليون لا يستطيع أن يقوم بشيء يمكن أن يسي إلى العثمانيين . وهكذا فإنه يوصي سيباستيان، الذي كان سفيراً له في الآستانة، بكسب رضى الباب العالي،

أو بالعمل على ذلك، ويشير بالتأني كل التأني فيما يتصل بقضية مصر. وكذلك فإن تاليران ينتهي إلى تحذير دروفيتي بقوله: « إن أوضاع مصر الحالية، كما يبدو، توجب أن تعطى لك بعض التعليمات، فيما يتصل بالسلوك الذي يجب أن تلتزمه تجاه محمد علي رئيس الألبان، إذا هو استولى على السلطة، أو لدى أية ثورة تجعل ضباط الباب العالي مجرّدين من السلطة والسيادة. إن جلالته الإمبراطورية، الذي أدلّى إليّ بتعليماته، يريد مهما يحدث في مصر، أن تبقى في عملك، وأن تحسن التعامل مع أية سلطة تستولي على مقاليد الأمور.

« وحقًا فإن المبادئ المعترف بها للشرق، في كل الأزمنة، فيما يتصل بالوكلاء التجاريين، هي أن عليهم أن لا يتدخلوا بأية صورة، بأي أمر سياسي. ولما كانوا غرباء عن كل ما هو سياسي جوهويًا، فإن عليهم ألا يتصلوا أي اتصال مع العناصر الديبلوماسية، ذلك أن السلطة العامة لا تهمهم إلا من زاوية الخير والشر، الحسن أو السيء، في القضايا التجارية، ومهما تكن اليد التي تقبض على زمام السلطة، فإن عليهم أن ينظروا إليها كسلطة مشروعة، عندما لا تؤذي لا وكالتهم، ولا التجارة التي يفترض أن هذه الوكالة تحميها. فإذا تهيأت أو حدثت بعض التغيرات في الإدارة فإنه يجب أن يقابلوها بالحذر والتأني. وفي كل الأحوال فإن هناك قاعدتين لا يجوز لهم أن ينحرفوا عنهما.

١ – عدم الاعتراف بسلطة، إلا أن يكتب لها النصر في البلد.

٢ – ألا يتركوا مركزهم وعملهم، مهما يمكن أن يحدث من الثورات « تلك هي التعليمات التي أمرتني السلطة الإمبريالية أن أنقلها إليكم، والتي عليكم أن تنظموا سلوككم تبعًا لها »(٣٦).

أما خورشيد فإنه فيما يشبه حالة النزع. فأمام الاستحالة التي يجابهها، في الحصول على الموارد الضرورية من قبل الميري، أو من ضريبة الملح، أو المساهمات المألوفة، أعلن أن على العاصمة أن تُقدم على مساعدته. وليس هذا بأقل

ولا بأكثر من القول: أن على السكان أن ينتظروا فرض ضرائب جديدة. وهذا ما دعا إلى استنكار شديد وغيظ وغضب، وإبراز للقوة، في الحين الذي يمضي فيه الدلهي إلى ابتزازاتهم. أما دروس الأزهر فقد أوقفت، وأغلقت المتاجر والأسواق، كإشارة احتجاج. وكأن الناس لا ينتظرون إلا مجرد إشارة من الشارع لكي يهمجوا على رجال الباشا.

لكن رجل كافالا، كان يصفق لما يحدث ولكن في الظل. ذلك أن ساعات خورشيد أصبحت معدودة. ويقول دروفيتي، بعد حوادث يوم ١٠ : « مهما يكن خورشيد باشا قد أنقذ بهربه إلى القلعة، فليس هناك ما يمكّنه من البقاء، في حكومة مصر. ذلك أن عليه أن يناضل ضد أحابيل رجل له مثل هذا الطموح والقدرة على المؤامرة، ويملك - وهو الخبير في فن التحايل - قوة الرأي العام وقوة السلاح. إن هذا الرجل الماهر عندما يتقرب من المشايخ والسكان، ويجعلهم يعتقدون أن العيب الأول يكمن في سوء الإدارة، وأن هذا هو السبب الوحيد في الوضع السيء للشؤون المالية، وبالتالي في الاضطرابات التي تهز القاهرة - يريد إشاعة الاستياء، وإفساح المجال لشخصه للوصول إلى القمة، دون أن يبدو عليه أنه يريد الوصول إليها... وهو الآن يملك الرأي العام لأهم قسم من السكان، وليس عليه إلا أن يريد ما يخفيه داخل نفسه، لكي يجد أن مقاصده متحققة.. ولكنه - وهو المحنك - يبدو في أساليبه، وكأنه يُحمل إلى السلطة العليا، عن طريق الشعب، محاولاً دومًا، لا أن يحصل على أصوات المشايخ والسكان فقط، بل أن يبدو إنسانًا ضروريًا للحكومة التركية...

وحرصًا على تهدئة الإضطراب، يقوم خورشيد بإرسال « كيايا » وآغا الإنكشارية بتهدئة الناس. إلا أنهم يُستقبَلون بضرب الحجارة في وجوههم. ويتم ما يبدو وكأنه محادثات بين الشيوخ وبين هؤلاء الإنكشارية، ويعطي الشيوخ فرصة ثلاثة أيام للباشا لإخراج الدلهي من المدينة.

وانقضت الأيام الثلاثة ، والدلهي ما يزالون في العاصمة، ولا يبدو أن في نيتهم أن يحزموا الأمتعة أبداً. أما محمد علي، فإنه يعلن، بلا فذلكة، أنه مع الشعب والعلماء ، ويمنع منعاً قاطعاً جملة جنوده، من أي اشتراك في الأذى، ضد السكان.

وعندئذٍ، أي في ليلة ١٢ - ١٣ / ٥، يقوم القضاة، والمشايخ والعلماء، - بعد أن خيّل لهم أن خورشيد باشا، يتهيأ للقضاء عليهم - بعقد اجتماع في بيت محمد علي، ويعلنون له بكل قوة:

- أن الكيل قد فاض! ونريد أن نخلع نائب الملك. !

- ومن تريدون أن يحل محله؟. والقائل هنا هو نائب الملك المقبل، ولكن بكثير من الحياء.

- وكان الجواب بلا لف ولا دوران:

- « ما دامت الأعمال الكثيرة التي قمتم بها، قد أوضحت لنا أنكم مع الشعب، بكرم وعدل، فإننا لا نفكر بأي إنسان آخر غيركم. ستكونون أنتم الحاكم ونحن نرضى شروطكم.

يتظاهر محمد علي، كمديرّ استراتيجي كامل، بأنه غير كفء لهذا المنصب. عندئذٍ يلح العلماء ولكن لا لمدة طويلة. إذ أنهم بعد قليل أتوا بعباءة (مبطنة بالفرو) وجلباب، وقام السيد عمر مكرم، نقيب الإشراف، ومعه الشيخ الشرقاوي، بإلباسه هذين الثوبين، واعتبر الرجلُ: نائبُ الملك في مصر (من غير أن يدري الملك)(٣٧).

ويلزم محمد علي، رسمياً، بالحكم بالعدل واحترام حقوق الشعب المصري وعدم اتخاذ أي قرار من دون مشوره العلماء. ويضيف إلى ذلك قوله: إنه إذا حدث أن كُذب في شيء من هذا، فإن لهؤلاء العلماء أنفسهم، كل الحق في عزله. وعندما نفكر بهذا المشهد، فإن الإنسان لا يسعه إلا الضحك. فأية سذاجة لدى رجال الشريعة الكبار، هؤلاء! وهل صدّقوا فعلاً حديث رجل كافالا؟.

وعندما علم خورشيد بما حدث، فإنه لم يدع نفسه للهلع. وأجاب بشيء من الاحتقار، وقال: «لقد عينّت من قبل السلطان ولن يكون لهؤلاء الفلاحين أن يعزلوني»[٣٨].

ولم يردّ محمد علي، وترك للعلماء حرية التصرف، ولما كان خورشيد يرفض الموافقة، فإنهم يقررون الكتابة لاستانبول أملاً بأن يوافق السلطان على اختيارهم.

وكان هذا الحادث استثنائياً. فلأول مرة، في تاريخ مصر، يقوم رجال دين، وأعيان من أصل مصري، بتعيين رئيسهم. ويتدخلون مباشرة لدى مستعمريهم لحسابه. ولأول مرة يشعر الإنسان أن المصري في طريقه إلى التأثير في مصيره. ويالها من يوتوبيا.

وبانتظار ذلك، قام الشعب الذي أفهم الموضوع بنصب حواجز. ويتسلح أبناؤه بمقدار ما يستطيعون، بانتظاره المجابهة مع خورشيد. أما قيام «فرعون» جديد فإنه أثار آمالاً ضخمة، خارقة للعادة. ومن الناس من باعوا ثيابهم لشراء سكين أو خنجر أو بندقية. ويقوم الزعيم الكاريسمائي عمر مكرم بالطواف في شوارع العاصمة. وفجأة، نجد أكثرية جنود خورشيد، يتخلون عن رئيسهم ويدعونه إلى مصيره. ولم يحتج الأمر إلا لقليل من الأيام، حتى أصبحت ثكنته شبه فارغة. ويذكر دروفيتي، «أنه ساد في هذه اللحظة في القاهرة، نفس الحماسة، ونفس الحمى، التي سادت في باريس في الأيام الأولى للثورة».

وقد يبدو التشابه هنا نوعاً من المبالغة، ولكن الأمر ليس كذلك. فلأول مرة منذ الاحتلال الفارسي، والروماني، والإغريقي والعربي، يبدأ الشعب بأن يكون له رأي. كان هناك رجال جديرون بالثقة، وهم رجال دين، بالمناسبة، ووجهاء فاضلون، أجمع رأيهم على جعل الشعب يتطلع إلى أفق، تبرز فيه ألوان العدالة والإنصاف. وبدأ رجل الشارع بتصديق ذلك، مقتنعاً بأن تسمية محمد علي، من قبل العلماء، وعلى يدهم ستكون نهاية للاحتلال التركي، وبالتالي نهاية للظلم والاستبداد.

ومضى أكثر من شهر وبدا أن الوضع لا يتطور، وقرّر محمد علي أن يحاصر القلعة التي يبقى فيها خورشيد متحصنًا. ورفض الألبانيون رفضًا مطلقًا أن يشاركوا في المعركة، إن لم تدفع لهم مخصصاتهم. وهكذا فإن الشعب حل تلقائيًا محلهم على الحواجز. أما النساء والأطفال، المسلّحون بالحجارة، فإنهم يتخذون مواقعهم على الشرفات، ليناوشوا جنود خورشيد، حيثما وجدوا. ويحاول هذا الباشا أن يجد مخرجًا من قلعته، فخاب مسعاه.

أما دروفيتي، فإنه لا يفكر إلا بمصالح فرنسا، ويظل قلقًا من إمكانية تقارب بين ألفي بك، حصان طروادة الإنكليزي هذه المرة، وبين النائب الجديد للملك.. ويتساءل أيضًا عن ردّ الباب العالي على التسمية اللا منتظرة لمحمد علي. وفي يوم ٢٠/٥/، نراه يكتب إلى تاجر فرنسي أسمه Felix Mengin(٣٩): «إنك لبحاجة اليوم إلى الكثير من المهارة والأناة، دون أن تؤذي أيًا منهما. ويشاع هنا أن الألفي بك، متفق مع محمد علي، وأنه سيدخل القاهرة قريبًا، إن لم يكن قد دخلها من قبل. وعليك الآن أن ترى محمد علي، وأن تحاول جرّه إلى شرح، حول هذا الموضوع. فإن لاحظت أن محمد علي قد عزم على محاباة الألفي، فابذل كل جهودك لإقناعه بألا يقدم على ذلك. واجعله يشعر أنه إذا حابى البيكوات، جرّ الأذى على نفسه من غضب الباب العالي، على حين أنه يستطيع التفاهم معه. واجعله أيضًا يلاحظ أن جيشًا فرنسيًا آخر، يمكن أن يعود إلى مصر، وأن البيك، صديق الإنكليز الذين هم حماته، سيكونون أمام لعبة غير يسيرة وقل له إن صاحب الجلالة، امبراطورنا، على علم بإخلاصه، للأمة الفرنسية، وأن من المناسب، من كل النواحي، أن ينسجم مع نفسه، في التصريحات التي أدلى بها، أمام المفوَّض العام ليسيبس Lesseps

«ولا بدّ أنك أدركت أننا انتصرنا، عندما هُزِم الألفي. لكن الإنكليز قد يتتصرون الآن، إذا قبل هذا بالمشاركة في السلطة العليا. وسيكسبون في حكم مصر

نفوذاً ، سيؤذينا . وعلينا أن نعمل لاستبعاد هذا المشروع، إن كان موجوداً . بيد أنه إذا فُهم أن محمد علي متفق مع كل البيكوات، وهذا ما أراه مستحيلاً، فإنه يجب عندئذ أن نغيّر أسلوبنا، وأن نعالج هذا الموضوع بكثير من اللطف . وقبل الدخول في الموضوع ، ينبغي أن نعرف خطة محمد علي، وإعلامي بها، لكي أستطيع أن أنبه من يحتاج إلى ذلك، بغية تقديم نص نستطيع معه أن نبدأ الحديث مع هذا الباشا . وأني أخبرك أنهم كتبوا هنا من الرشيد، أن الألفي بك، قد تعشّى معه يوم العيد الكبير . وأنه خلال هذا العشاء ، قرر أن الأول سيسمى شيخ البلد، عندما يكون الثاني قد أصبح نائب الملك . وأن الإنكليز فرحون بهذا : فحاول أن تعرف ما إذا كان لهم اتصالات من نوع ما، مع محمد علي، وما هي طبيعتها؟»

وفي ٢٢ ، ودوماً إلى نفس الـ Mengin، كتب دروفيتي مايلي : تلقيت رسالتك المؤرخة في ١٥ / ٥ . وأوافق على الزيارة التي قمت بها إلى باشا القاهرة «الجديد . . ولكن يجب أن أكرر لك أنه يجب ، في هذه الاتصالات، أن يُبذل كل الحذر الممكن حتى يتسنى لنا أن نعرف ، كيف ينظر الباب العالي، إلى هذا الإخلال أو الانقلاب في شكل السلطة، وأن نستطيع تلقي تعليمات حولها ولكن يجب الاتصال به، بأقصى ما يكون من السرّية . إن عليك بالضرورة أن تقابل محمد علي باشا، وتجعله ينحاز إلينا، والقضاء على كل مؤامرات أعدائنا، وبكلمة واحدة يجب الاتصال بشكل غير علني حتى لا تزعج المسؤولين الرسميين، لدى السلطان الأعظم .

أما محمد علي فهو لا يسرّع عمليات المحاصرة . . ولا يريد أن يساء به الظن عند السلطان بأكثر من هذه الدرجة . بانتظار أثر الرسالة التي وجهها العلماء إلى الآستانة . وأخيراً وبتاريخ ١٨ / ٦ / ١٨٠٥، أرسل رسول اسمه صلاح بيك . إلى القاهرة، من قبل الباب العالي، مهمته تقييم الوضع في القاهرة، والنظر فيما إذا كان هنالك مجال لاستبقاء خورشيد، أو تثبيت محمد علي . ولما كان خورشيد يرفض كل حل وسط فإن الوضع يظل هو هو، في حالة التوتر، حتى اللحظة التي يصل فيها

الكوتشوك ايمبروخور Kuchuk Imbrokor، إلى مصر. وهو يحمل مراسيم ينتظرها الجميع: «إلى محمدعلي باشا، والي جدّة ووالي مصر منذ ربيع الأول، إن الباب العالي يثبت الاختيار الذي قام به العلماء في شخص محمد علي، ويعلن انتهاء ولاية خورشيد باشا وإعفاءه من وظائفه. وعلى ذلك فإن عليه أن يسافر إلى الاسكندرية، مع كل الاحترام الواجب لرتبته وشأنه. وهناك سينتظر التعليمات التي ستسلم له، وتعيينه لولاية أخرى»(٤٠).

أما الشعب فإنه يبدو غير مبال بما يحدث من تطورات، وغير مبال بالتوجيهات الجديدة المرسلة من الباب العالي... إنه يتابع المقاتلة. وليس رحيل خورشيد هو الذي يعنيه، بل هو رحيل القوات العثمانية كلها. وبكلمة واحدة، فإنه يريد استقلاله. وحول هذه النقطة يتعارض العالمان، عالم العلماء والوجهاء، وعالم رجل الشارع، الذي لم ير شيئًا جيء به. . وأما دروفيتي فيبدو أنه أدرك ما ينتظر المتمردين: «إن شعب هذه العاصمة، لم يكن يعرف في أغلب الظن، حكاية الضفادع التي طلبت من جوبيتر ملكًا لها، لو أنها عرفته، فلربما كانت تحذر من الرغبة في التغيير».

وعندما تم عزل خورشيد اجتمع العلماء، وقرّروا أنه لم يعد لهم من دور يقومون به، في صراع ربما كان أفضل لهم أن يظلّوا غرباء عنه. وقرّروا أيضًا الامتناع منذ الآن عن أيّ تدخل في اللعبة السياسية. وطلب شيخ الأزهر وجماعته من الشعب إيقاف المعارك فوراً، والعودة إلى مشاغله العادية. وكذلك فإنهم جدّدوا دعمهم لمحمد علي. وأعلنوا أن على كل شيء أن يدخل في دائرة الانتظام، وأن كل شيء قد انتهى. ولكن ماذا؟ أو تكون نهاية الأحلام هكذا؟ أي في تمرد عامي أوقف قبل أوانه؟ . . أو كان كل هؤلاء الأموات من أجل لا شيء، أو لكي تعود مصر إلى نظام، ما قبل ذلك الربيع الفريد؟ والمحتمل عندئذٍ؟ والاستقلال؟ ومع ذلك فإن هذا هو الذي يُصرُّ عليه العلماء، أي العودة إلى النظام. وهكذا فإنه ليس على الشعب إلا

أن ينام على وسائد أحلامه. وأخيراً فإن هذا لم يكن المرة الأولى، ولن يكون بالمرة الأخيرة. وحقًا فإن بعض الناس، ممن يكونون على صورة الدون كيشوت، سيرفضون أن يضعوا السلاح، وسيظلون يقاتلون. وسنسمع عما قريب أن الجماهير ستلعن المشايخ بسبب جبنهم. . ولكن هذه الجيوب، جيوب المقاومة، سرعان ما يقضى عليها.

ولكن لم حدث هذا التغير العجيب في موقف العلماء؟ إن الجواب سهل: فحرصهم الشديد على الاحتفاظ بامتيازاتهم، والأملاك الموقوفة لحساب المصالح الدينية، جعلهم غير مستعدين أبداً، للمغامرة بثورة حقيقية على مثال ثورة ١٧٨٩. إذ أن ذلك يعني المخاطرة بمستوى حياتهم، المتميزة. أما الوجهاء (والتجار خاصة) فإنهم لم يكونوا يتمنون شيئًا اخر غير العودة إلى الحياة الآمنة في الطرقات، وإلى حرية مرور القوافل. وكان ينبغي أن تنتعش التجارة بكل ثمن ممكن. وأكثر من ذلك، وعلى نحو ما ذكرنا سابقًا، فإن هؤلاء الأشخاص الذين كانوا في ربيع ١٨٠٥ يقودون الفلاحين إلى المعركة، لم يكونوا محترمين حقًا. وإذا وضعنا جانبًا عمر مكرم، فإنه لا عبد الله الشرقاوي، حتى ولا الشيخ السادات، ممن يمكن اعتبارهم حملة «لمثل أعلى» أو جديرين برفع الشعب إلى مستوى النور والتنوير. فليكن محمد علي أو أي رجل آخر غيره، يحقق لهم أمنياتهم وهذا كل ما كانوا يبتغون.

ولما كان خورشيد قد فقد دعم السلطان، واعتُزل من قبل رجاله، فإنه كان مجبراً بالتسليم، ومع ذلك فإنه يضع بعض الشروط:

١ - ألا يرغم على تقديم أي حساب عن القضايا المالية.

٢ - وأن يستطيع السكن، بكل اطمئنان، في منزل حسان باشا.

- وأن توضع تحت تصرُّفه المراكب، والقوى العسكرية، وجملة الأشياء التي يحتاج إليها، في السفر إلى الإسكندرية. وأخيراً فإنه يفرض أن يُدفع لرجاله،

ما تأخر لهم من مرتباتهم . أي ما يعادل ٥٠٠ بورصة . . وقد نجح أصحاب العلاقة في أداء المبلغ» وفي يوم ٧ آب (أغسطس) ١٨٠٥ مضى الوالي المعزول إلى مرفأ بولاق على النهر . ويوم ٢٨ جاءت « فرقاطة» لنقله إلى الإسكندرية(٤١) . وكان قد خلف وراءه، رسالة بخط يده، ساعة سفره، يقول فيها : « إنني اترك رجلاً سيكون أضخم متمرّد في الإمبراطورية . إنه لم يكن لسلاطيننا قط من سياسة كثيرة الحيل، مثل سياسة هذا الرجل الشديد العزم»(٤٢) .

- ٥ -

الأسد البريطاني والثعلب الألباني (١٨٠٦ - ١٨٠٧)

كان يوم ١٢ / ٥ / ١٨٠٥ ، يومًا حاسمًا في تاريخ محمد علي . . إذ أنه اليوم الذي بدأ يمارس فيه حكومة مصر ، التي سيبقى على رأسها ٤٤ سنة متتابعة .

فتجاه الجميع وضدّهم، يمكن القول : إنه نجح حتى فيما كان يبدو مستحيلاً . لكن المصاعب التي تقف بانتظاره ، كبيرة وواسعة . فالبلد الذي يأخذه على عاتقه ، بلد متهدم، تفترسه الفوضى . ومماليكه يعيشون في مصر العليا(باتجاه السودان) أو مصر الجنوبية . والقوافل تتعرض للنهب على يد البدو ، باستمرار . والسلطة فيها محدودة بجدران القاهرة باتجاه مصر الشمالية . والإسكندرية محكومة بضابط يرسله السلطان . ولكن حتى في العاصمة نفسها ، تجد الجنود لا ينقادون للنظام (أو غير منضبطين) وهم يهددون في كل لحظة ، بضربة سيئة ، إذا تأخر وصول مرتباتهم .

وهكذا يجد محمد علي نفسه ، بسرعة ، أمام المشكلين الكبيرين في الوقت الحاضر : الحاجة إلى المال والمماليك . وخارج القاهرة ، وحيث تكون سلطته معترفًا بها ومحترمة ، تظل هذه اسمية فقط . أما السلطة الفعلية فهي ما تزال بحاجة إلى السيطرة عليها . وخلال الأشهر الستة الأولى ، نراه يحاول المماطلة في تلبية

الحاجات اليومية، بمقدار ما يكون في نية الباب العالي، أن يدع مصر هادئة، تتنفس بحرية. ويكفي أن تستعرض الفرمانات (المراسيم) التي تستمر في الوصول إلى القلعة حتى نلاحظ ذلك : « إلى محمد علي باشا ودفتر داره، وإلى أحمد المشرف على الجمارك في الإسكندرية، والرشيد، وإلى عثمان، الحاكم العسكري للإسكندرية :

« صدر الأمر بإرسال سريع، عن طريق البحر : كل كمية جاهزة، من أصل الـ ٣٠٠, ٠٠٠ كوك من ملح البارود التي يجب على مصر أن تُسلِّمها سنويًا، إلى ترسانة استانبول - والتي ، كما لاحظ طاهر، المدير الثاني لصناعة البارود الإمبراطوري - يجب أن توجد دومًا في معمل البارود، بكمية غزيرة، باعتبارها عنصراً أساسياً في صنع البارود المستخدم في المدافع [١].

أو قل ، بصورة أو بأسلوب عادي جداً : إلى محمد علي باشا ودفتر داره.

« أُكدَّ تخصيصُ راتبٍ يومي، قدره ١٥ بارة لـ« جيوالي gewali» مصر، الشيخ حسان بن عبد الرحمن من المدينة، باعتبار أن القرار المتصل بهذا الأمر قد ضاع»[٢].

ومنذ نهاية شهر آب (أغسطس)، طلب نائب الملك حضور ولديه، إبراهيم وطوسون، بين يديه. وكان الأول يناهز السابعة عشرة من عمره، والثاني لا يكاد أن يصل إلى الثانية عشرة. وسمى مباشرة إبراهيم حارساً للقلعة. وهنا تختلف الآراء حول هذه النقطة، إذ يؤكد موريز Mouriez أن طوسون عُيِّن، ومثله بانكلس Bankes. ولكن الاثنين ، هذا وذاك، لم يكونا في ذلك العهد يعيشان في القاهرة. وبالمقابل فإن الجبرتي يذكر اسم إبراهيم. وأكثر من ذلك أن الإنسان لا يفهم جيداً أن محمد علي، يُعين - حتى ولو تعلق الأمر بابنه المفدى- وهو طفلٌ في الثانية عشرة من عمره - لشغل مركز في مثل هذه الأهمية ، على حين أن الابن إبراهيم لم يكن أكبر منه إلا بأربع سنوات.

وعدا ذلك، فإنه كان على محمد علي أن يملأ الخزينة بأكبر سرعة. وكان المماليك والحكام الآخرون لا يعرفون، خارج الضرائب النظامية ، إلا مصدراً

استثنائيًا واحدًا: هو الإرغام على دفع المال. وهو وسيلة كلاسيكية، للحصول على المال في الظروف الاستثنائية. ومن غير أن يعدل محمد علي عن هذه الممارسة القديمة. فإنه- خلافًا لسابقيه - عُنيَ بتحميل العبء الأثقل، للطبقة القبطية المثقلة بكراهية الناس بقدر ما كانت مثقلة بالثروات الفخمة التي يملكها محصلو الضرائب القبط. ولقد حذر - مؤقتًا عندما كانت سلطته لم ترسخ بصورة كافية - من مسِّ المشايخ ذوي النفوذ والتأثير، كما حذر من مسِّ التجار الأوروبيين، على نحو ما فعلت جماعة البرديسي وغيرهم، مما أدّى إلى هلاكهم. وهكذا فإنه يفرض الضرائب، أولاً، على التجار المحليين المسيحيين في القاهرة. وبعد قليل من الزمن، أوقف مدير المالية العام القبطي، جيرجيس الجواهري، وأرغمه على ردّ مبلغ من المال بقيمة ٤٨٠٠ بورصة، كان يقال إنه حوّلها لحسابه الخاص، ورمى به إلى السجن. وكذلك زاد الضرائب على تجار الرشيد، ثم من جديد على القاهرة، بمبالغ محترمة. وفي نهاية الأمر، راح يهاجم الصناع، والوزّانين العموميين، وتجار الخشب، والسمك المملح، والمزارعين.

وعندما سُوِّيت هذه المشكلة، كان عليه أن يُحطِّم آخر أعدائه، أي المماليك. وركّز عليهم كل طاقته. وبدأ أول الأمر بجذب (أو إغراء) بعض البيكوات، يومي ١٩ و ٢٠/٨، وجرهم إلى فخّ في القاهرة. وهلك منهم فيه الكثيرون. ولكن الأكثرية هربوا، ومضوا إلى مصر الجنوبية (العليا) « لينضموا إلى أنصارهم. ولما حاول بعض السجناء - أي ما يقرب من ٨٠ شخصًا - أن يهربوا، أمر بقطع رؤوسهم. وكان بينهم خمسة فرنسيين، لا يعرف أحد كيف دخلوا في القائمة (وربما كانوا جنودًا قدماء من عناصر جيش الشرق، ضمهم المماليك إلى جندهم). ولم يتسّع المجال لدروفيتي، لكي يتدخل من أجلهم.

وقام محمد علي، على رأس الألبانيين، بعد ذلك، بالإشراف على بعض العمليات القتالية، وكان يقودها أحيانًا بنفسه، وأكثر الأحيان مع حسان باشا.

ولكنها لم تجد من النجاح إلا القليل : بل إن حسان باشا خسر، هو نفسه، على يد محمد الألفي، الذي عاد فظهر في شمال مصر. وقد قامت بعض المفاوضات مع البيكوات، الذين كانوا يفرضون شروطًا أقسى منها في أي يوم مضى، ولم تنجح أكثر. وكان الألفي يطلب لنفسه، مقابل خضوعه، الفيوم، وبني سويف، والجيزة والبحيرة، وكذلك العوائد الضريبية، لمئتي قرية. وكان لزملائه مطالب مفرطة أيضًا رفضها محمد علي رفضًا باتًا» وعلى ذلك فإن الحرب تتتابع. وفي نيسان أبريل من عام ١٨٠٦، بدأ الألفي يضرب الحصار على دمنهور.

وفي ربيع تلك السنة، كان وضع نائب الملك أشد حرجًا منه في أي وقت مضى. وخضع الباب العالي لضغوط الإنكليز، فقرّر الباب العالي إزاحته عن منصبه، وهذا قرار ليس فيه من شيء مُستغرب. ولئن قامت السلطات التركية عام ١٨٠٥، بالاعتراف بالانتخاب الشعبي لرجل كافالا، فقد كان ذلك، بصورة خاصة، لأنها كانت عاجزة عن مجابهته. ومنذ ذلك الحين كان الإنكليز الذين يُحرّضون هم أنفسهم بعض الشيء، من قبل عاملهم في الإسكندرية، الميجر Misset، قد عملوا في الظل، على جعل السلطان الأعظم يريد ما يريدونه. ولم يكن محمد علي في نظرهم إلا مجرّد عميل للفرنسيين، ومتمرد عاص خطر، يمكنه أن يضع الإمبراطورية كلها في خطر (٣). وهذه الحجة الأخيرة هي التي حملت حكومة سان جيمس على العمل ضدّه لدى السلطان. ونجحت بإقناعه بضرورة إعادة المماليك، مع صنيعتهم «الألفي»، وتعيين هذا الأخير رئيسًا لحكومة مصر. وأوضحت أنه إذا تطاولت الأمور، فإن حكومة جلالته، وقد فقدت كل أمل في دعم الآستانة، «سترى أنها مضطرة لاتخاذ التدابير الضرورية في مصر، خوفًا من أن تعود فرنسا، وتستقر في البلد، وتُعرض أمنَ إنجلترا للخطر».

أما من الجهة الفرنسية، فعلى الرغم من تحذيرات سيباستياني من تركيا، وليسيبس ثم دروفيتي من مصر، فإن تاليران - الوفي لسياسته - يرفض دومًا أن

يتدخل في القضايا المصرية. وهكذا فإنه كتب منذ شهر مايو ١٨٠٦، ليذكّر الأول بأن الحرب المدنية، منذ رحيل القوات الفرنسية، كانت باستمرار قائمة. ويخلص إلى النتيجة التالية: «اتركوا الآن أحداث مصر تجري مستقلة عنا، ذلك أن لديكم من العمل في المقاطعات الأوروبية ما يحملكم أحيانًا على توجيه الأحداث»(٤).

بيد أن الإنسان يجد في نفس الفترة، آثار مسألة غريبة، تحمل على الظن بأن بونابرت لم يكن بهذه الدرجة من اللامبالاة التي قد يظنها (أمثال تاليران)، تجاه مصر.

فخلال الشهر الخامس من عام ١٨٠٦، قام شخص يدعى علي بك العباسي بالنزول إلى الإسكندرية(٥)، ويشيع الرجل أنه سيحج إلى مكة. والحقيقة أنه رجل إسباني يدعى باديا كاستيلو، المولود في برشلونة، وهو متبحر في العلم، ومحب للفرنسيين. وقد قضى الصيف كله في الإسكندرية. وفي ٣٠ اكتوبر يمضي إلى الرشيد، وفي ١٠ نوفمبر إلى القاهرة، حيث يستقبله محمد علي شخصيًا. وفي ١٥ / ١٢، يتجه إلى السويس. ولكن قبل أن يسير إلى مكة، يتلقى زيارة دروفيتي، في قرية المطرية. وكان بصحبة القنصل خمسة مماليك فرنسيين في خدمة نائب الملك. ولم تصلنا أي معلومات عن هذه المقابلة. وكان الكلاتلاني قد سجل بعض المعلومات عن القوات الألبانية، في معسكر الإسكندرية، والرشيد والقاهرة، وقدَّم بعض التفاصيل عن بعض الأماكن التي اجتازها هو. ومن هناك نراه يمضي إلى مكة، ويقوم ببحث معمق عن الوهابيين الذين كانوا قد احتلوا المدينة المقدسة. ولنوضح أنه منذ عام ١٨٠٣، يكتشف الإنسان، في رسالة من تاليران موجّهة إلى السيدCoranceg(٦)، نوع الاهتمام الذي يوليه الإمبراطور نابليون، لهذه المنطقة من العالم. وتقول الرسالة: «إن القنصل الأول يكلفني بإبراز حرصه على بذل أكبر الحماسة في تلقّط المعلومات التي يمكنكم الحصول عليها، فيما يتصل بهذه الأمة (في الجزيرة العربية)، ونقلها إليّ بسرعة وانتظام، بأي الطرق تشاؤون»(٧).

ومهما يكن من أمر، فإن عمل هذا الرجل قد انتهى، بعد أن خبر أغراض الأصوليين، وهكذا عاد العباسي إلى السويس في حزيران (جوان) ١٨٠٧، ومضى يتابع مهمته في فلسطين وسورية.

فمن هو إذن هذا الشخص السرّي؟ أيكون جاسوساً لنابليون كما يدّعي الإنكليز[٨]. وكان شاتوبريان الذي لقيه مرة، ظن أنه رجل تركي غني، يحب السياحة، ويُولع بعلم الفلك. ولكن الشيء الموثوق به أن هذا العباسي المزيّف، يلتقي بالإمبراطور في بايون Bayonne، ويخبره أنه جمع خلال رحلاته، كمية كبيرة من الوثائق والخرائط حول مصر، والجزيرة العربية، وآسيا الصغرى، وهذه كلها توجد الآن في مدريد. فما كان من نابليون إلا أن أمر مورا Murat باسترداد هذه الوثائق من مدريد، لأن فيها، حتماً، معلومات مفيدة جداً... والواقع أن كاستيلو هو أحد أنصار الفرنسيين ودخل في خدمة فرنسا لحظة التدخل في إسبانيا. ولم تنشر أقواله عن الشرق إلا بعد انقضاء العهد الإمبراطوري وعودة الملكية إلى فرنسا. وهو دليل، لا ريب فيه، على أن نابليون لم يحرص على نشر بعض المعلومات التي تتحدث عن مصر محمد علي، وعن مسيرة الوهابيين[٩]. ولكن هل يمكن أن نعرف ذات يوم حقيقة هذه القضية؟ إن للتاريخ، هو أيضاً بعضاً من صور الحياة التي يصعب على الإنسان أن يكشفها.

وكان الضغط الإنكليزي على البلاط السلطاني، قد دفع ثمنه: ففي ذات صباح من يوليو تموز عام ١٨٠٦، وصل إلى الإسكندرية مصحوباً بثلاثة آلاف جندي، الباشا الحجي محمد، خلف صالح باشا. وهو يحمل مراسيم، تقضي نصوصها أن يبادل محمد علي وظيفته، مع واحد اسمه موسى باشا، بحيث يحل هذا الأخير محله في مصر، وينتقل هو ليعمل محل صاحبه هذا في سالونيك. ولكن نائب الملك لم يتأثر بالخبر أكثر مما يجب، واكتفى بجواب المتهرب من الإجابة. أما في داخل نفسه، فإنه كان يضحك هازئاً وكأنه يقول: «لقد فتحت مصر بالسيف، ولن أردّها إلا بالسيف! وأنا أعرف الأتراك: وهم قيد البيع،

مصر بالسيف، ولن أردّها إلا بالسيف! وأنا أعرف الأتراك: وهم قيد البيع، وسأشتريهم: وكان معي ٥٠٠ رجل (جندي) وعرفت كيف أنجح ثورتي؛ والآن لديّ أكثر من ١٥٠٠ حولي. وهذا أكثر مما يجب لكي احتفظ بما ملكت. . وذاك الذي يُلمِّع الذهب أكثر من غيره، وذاك الذي يجعل أحسن الحديد يقرقع، هو ذاك الذي يكون السيد»*.

أما من الوجهة الرسمية، فقد تصنَّع الرجل، طبقًا لمهارته المألوفة، أو تظاهر بأنه يطيع إرادة الباب العالي، ويملأ جيوب الرجل بالهدايا، عاملاً، بالسر، على أن يقف رؤساء «الأوجاق» (الميليشيا) والعلماء، معارضين لرحيله، ومصرّين على استبقائه. وهذا فعلاً ما حصل. . فقد وقع المشايخ على رجاء بمثل هذا المعنى. ثم لما تبين أنه لا فائدة من ذلك، كتبت رسالة أخرى بالمعنى نفسه، مصحوبة بحجة لا يمكن مقاومتها. وهي شك بمبلغ ٦٠٠٠ بورصة - ليرة عثمانية). وأتبع ذلك برشوة كبيرة، تسقط كل مقاومة للقبطان باشا، الذي يرضى أن يعود إلى البحر. ولكن لما كان محمد علي لا يملك أي قرش من الستة آلاف بورصة، التي التزم بدفعها، فقد طلب منه أن يرسل ابنه الكبير إبراهيم، كرهينة، حتى اليوم الذي يُدفع فيه المبلغ الموعود فعلاً. ثم إنهم اشترطوا عليه شرطًا آخر: فالمدن الساحلية، كدمياط والرشيد والإسكندرية لن تكون خاضعة لحكمه، وكل ما يُجبى من ضرائبها، يعاد إلى الخزينة الإمبراطورية، بكامله[١٠]. ثم ألح عليه بأن يقيم السلام مع بيكوات المماليك، ومنحهم بعض الأراضي، فيقبل الباشا ذلك كله. ولما كان المهم هو الظواهر، فإن إبراهيم يوم ٢ أكتوبر ١٨٠٦، نقل إلى سفينة القبطان باشا. ومن المرجح، في تلك اللحظة، أن يقول كل انسان أن السقوط لم يكن إلا قضية اسابيع بل أيام. كل انسان كان يمكن أن يقول ذلك عدا رجل كافالا. إنه كلما حدثت أزمة كبيرة عظيمة الإرهاق لمحمد علي، حدث معها أغلب الأحيان، حادث رباني، يعود بها هو من الحضيض إلى القمة. إن الحظ ظلّ دومًا شيئًا لا يمكن فصله

(*) تلميع الذهب، يعني دفعة كرشوة، وطنين الحديد، يعني كثرة السلاح.

عن الطرق التي تمضي بالإنسان إلى أعلى الأمجاد. والذي حدث يومئذ، لم يكن حادثًا ربانيًا واحداً، بل حادثين اثنين معًا. فعثمان البرديسي يموت فجأة، بحمّى مرارية، ثم إن الألفي يموت هو أيضاً في ٢٧ / ١ / ١٨٠٧. وكان قد انهى الخامسة والخمسين من عمره. ويقوم دروفيتي بإعلام تاليران مباشرة عنهما، مثيراً إلى فرضية قتلهما، على كونها فرضية غير صحيحة، إلى حد بعيد: «إني أسرع بأن أخبر معاليكم أني تلقيت خبر وفاة الألفي بيك. وكان ذلك يوم ٢٧/ ١. وهناك رأيان في معسكره، الطرف الأول يقول: إن موته المفاجئ جاء أثر أزمة غضب كبيرة دعته إلى أن يرفع بيده، هراوة هوى بها على رأس أربعة من البدو وقتلهم، وبينهم شيخ القبيلة؛ وهناك من يدّعي أن التقيؤات التشنجية العصبية، التي مات على أثرها، كانت نتيجة لسُمٍّ تناوله من بعض حريمه، كانت منهن ابنةُ الشيخ الذي يظن أنه قتله. ولكنه، قبل أن يموت، اختار شاهين بيك، لكي يخلفه»(١١).

وعندما سمع محمد علي بموت عدوه، لم يُصدّق الخبر. واحتفظ إلى جانبه خلال أربعة أيام بذلك البدوي الذي جاءه بالخبر، وأهداه فروة، وغطّاه بالذهب، وأمره بالتجول في المدينة لإذاعة الخبر (١٢).

وعلى ذلك فإن الأمير المملوكي الكبير، غاب عن المسرح. وهذا الرجل هو الذي قال محمد علي عنه: «إنني لن أكون أبداً مرتاحاً ما دام هذا الألفي يعيش؛ إننا نشبه بهلوانين، مع فارق واحد، هو أن له دعائم في رجليه»(١٣). أما الألفي فإنه قبل أن يلفظ آخر أنفاسه، همس قائلاً: «كل شيء قد انتهى، ومصر اليوم، بين يدي محمد علي. فما من إنسان كان له من القوة، ما يستطيع معه الوقوف ضدّه. ولا شك أن زوال المملوكين الكبيرين في فترة القليل من الأسابيع، أي اختفاء هذين الرئيسين للماليك، عدويه اللدودين، قد نفخ فيه روحاً جديدة كان في أشدّ الحاجة إليها، في ذلك الحين. ونراه عندئذ يضاعف الحماسة ضد خليفتيهما، ويقوم هو شخصياً على رأس جيشه، ويقوده إلى أعالي مصر، ويستولي على أسيوط في مارس (آذار) ١٨٠٧.

ويمكن الاعتقاد بأن السماء بدأت تزيح غيومها، منبئة بمستقبل أكثر هدوءاً. ولكن لا. فبدلاً من أن تكون مصر معزولة، فإنها ليست إلا مربّعاً صغيراً من الشطرنج الكوني الذي إذا أزيحت عن ظهره، حجرة من مكانها، ولو كانت الأصغر والأدنى شأناً، بل ولو كانت على بعد آلاف الأميال -فإنها تؤثر في مجموع اللعبة. تتابعت بعد ذلك مجموعة من الأحداث! كالعدول عن صلح آميان Amiens؛ وتحالف الإمبراطوريات الأوروبية (النمسا، وروسيا، وبروسيا) ضد فرنسا؛ معركة أوسترليتز، والطرف الأغر، وبينا Iena التي تمنح نابوليون، كامل السيادة على الأرض وتستبقى السيادة على البحر لإنجلترا. وأما في الآستانة، فإن صدى النجاحات الفرنسية، الكبيرة، يُغطي الفحيح الإنجليزي، ويُضعف من مهابة الإنجليز، إضعافاً كبيراً. ولقد تأثر سفير صاحب الجلالة الملك البريطاني، تأثراً كبيراً، بدءاً من يوم ١٦/ ٩/ ١٨٠٦، وقال: «إن النفوذ الفرنسي يغلب كل ماعداه؛ حتى ليقال إن الله نفسه تحالف مع أعدائنا. وإذا كانت الجيوش الروسية لاتغادر مكانها، وكانت أساطيلنا لا تظهر أبداً، فإن الحاجز الذي يُغطي حدودنا الهندية، سيسقط بنفس اللحظة.

ويقرّر البريطانيون آنئذٍ القيام بعمل مضاعف: أي أغلاق الدردانيل، والاحتلال العسكري للإسكندرية. وهكذا فإن مصر تجد نفسها من جديد محصورة، بين مجالي العمليات. وفي هذه القضية، فإن الميجر Major، ميسيت Misset، لم يكن غريباً عن هذا القرار الذي اتخذته دولته. وهو قرار سيبدو مجلبةً للكوارث.

ولم يزد اندلاع الصراعات اللامنقطعة، وصور التمرّد التي حدثت بين عامي ١٨٠٣ و ١٨٠٧، والتغيير المفرط للحكام، شيئاً غير تنامي قناعة العامل البريطاني، بإنه لا مجال في مصر، إلا للفوضى والاضطراب والحركات الثورية، من دون نظام المماليك. ولهذا فإنه كان حريصاً كل الحرص، على إعادة البريطانيين إلى مصر، وإقامة علاقات متميزة مع المماليك، الذين يعتبرون كعناصر مساعدة على الاحتلال

القادم. وهكذا فإن الانقلابات المتتابعة التي غيبت عن المشهد أمثال خسرو باشا، وطاهر، وخورشيد، كحكام شرعيين، جعل الإنجليز يتجهون إلى ألفي بك.

ولكن صعود محمد علي يُفسد عليه حساباته. ففي كل مرة بين عامي ١٨٠٤ و١٨٠٧. كان يقوم في وجهه كسدٍّ كبير. فكتب إلى الآستانة، أنه لن يقوم سلام ممكن في مصر من دون إعادة المماليك إلى مراكزهم. وهكذا فإنه إن لم ينته إلى دفع مشروع الاحتلال البريطاني لمصر، فإنه، على الأقل قد شجعه. وتبنى بذلك موقفاً مضاداً تضاداً كاملاً مع مشاريع ماتيو دوليسبس، وبرناردينو دروفيتي، اللذين حابيا منذ البداية مشروع محمد علي.

الرشيد أو حبة الرمل:

والواقع أنه لو أن فرنسا، أو عملاءها، قد ساهموا جميعاً في صعود، رجل كافالا، ولو أن انجلترا وعملاءها أيضاً، استطاعوا عرقلته، فإن مواقف كل منهما كانت من الوضوح بحيث جعلت الباشا يتذكرها، ساعة الخيارات السياسية. وهكذا ومع الأيام، فإن شراكته مع فرنسا تتزايد قوة، وتصبح المحرك الأول لسياسته.

ثم إن التقارب الفرنسي -التركي، ودخول الأتراك الحرب ضد روسيا، حملا انجلترا على التخوف من أن يعود الوجود الفرنسي إلى مصر بموافقة من السلطان سليم الثالث.

وهكذا وصلت إلى الإسكندرية يوم ١٧/ ٣/ ١٨٠٧ حملة عسكرية يقودها اللواء ماكنزي Mackenzie. وأنتصب Missetكشيطان جميل، وحال دون أن تفتح المدينة أبوابها لكتيبة ألبانية من عناصر محمد علي. ولكن الجنرال ينذر الحاكم أمين آغا، بإن يُسلّمه المدينة بحجة إنقاذها من غزو فرنسي، كما قال. وفي يوم ٢٠/ ٣/ ١٨٠٧، وبعد محاولة مزيُفة للدفاع عن المدينة، سُلمت إلى الفاتح الإنجليزي. أما الثلاث مئة رجل في المعسكر، فقد أعلن أنهم سجناء حرب، وسيقوا إلى مالطة. وأحصي عدد القتلى الإنجليز، فكانوا سبعة، وكان عدد الجرحى

ثمانية. وقام Misset عندئذ بتقاسم الفرح مع وزارة الدفاع البريطانية، دون أن ينسى مساهمته الشخصية في «هذا الفتح المبين».

وكان محمد علي عندئذ يقود حملة عسكرية في مصر العليا، ضد المماليك. وعندما شاع خبر البريطانيين، استدعاه، أعيان القاهرة. ولكن محمد علي أصغى لنصيحة دروفيتي (الذي هرب من الإسكندرية قبل دخول الإنجليز) واختار أن يسجل نصراً حاسماً على البيكوات، قبل أن يعود إلى العاصمة. وكان ذلك عبثاً. ولما كان مرغماً عندئذ على حل مشكلتهم، لكي يمضي للقاء الجيش البريطاني، فإنه غامر بفتح باب المفاوضات مع المماليك، لإحلال السلام. وأرسل إليهم وسطاءه محاولاً أن ينتزع منهم هدنة على الأقل. وكانت بواعثه أو تلك التي يعرضها لإقناعهم، ماكرة خبيثة، على الأقل: «إنكم لا تجهلون أن الإنجليز حادّوا سلطان المسلمين، ودخلوا إلى ممتلكاته. ودخلوا إلى الإسكندرية، بغية الاستيلاء على مصر، كما فعل الفرنسيون قبلهم. وهم يقولون بصراحة إنهم يأتون، طبقاً لدعوة الألفي ورجائه، لكي يحموكم، وجعلكم تنتصرون. ولكن لاتصدقوهم. وكونوا متأكدين أنهم إذا استولوا على هذا البلد، فلن يدعوا فيه أي مسلم. وليس الإنجليز، في الحقيقة، مثل الفرنسيين: «فهؤلاء لم يخضعوا لأي دين، ويعملون باسم الحرية والمساواة»، على حين أن أولئك هم مسيحيون، حريصون على دينهم. وأنتم لا تجهلون كراهية كل دين للأديان الأخرى. وليس من المناسب أن يستعينوا باللامسلمين، وأن يحملوكم على مساعدتهم لحرب المسلمين»[١٥].

ولما كان المماليك قد لذعوا في الأصل من قبل محمد علي، فإنهم أفصحوا عن شكوكهم: «إن هذا الذي يراسلكم خداع مكار. وكثيراً ما كذب في وعوده، ولا يحترم أيمانه فلا يمكن أن يُصدّق»[١٦].

وأخيراً، وطبقاً لتعليمات نائب الملك، انصاع المفوضون لكل الشروط التي يفرضها الأمراء.

وخـلال ذلك، قـام Misset والـلـواء Fraser ووجّهـا رسـائل إلى هؤلاء البيكوات أنفسهم، يحثونهم فيها على النزول باتجاه الإسكندرية، لدعمهم. . ومن دون أن ينتظر جوابهم، وعلى الرغم من التعليمات التي تحرم عليه احتلالاً آخر لغير الإسكندرية، قرّر اللواء فرازير أن يستولي على الرشيد. وكانت هناك كتيبة تخضع لقيادة اللواءين Wacop و Meade قد وصلت يوم ٢١/ ٣ إلى أبواب المدينة، دون أن تجد أمامها أية مقاومة. . فهذا الهدوء الظاهر، جعل الإنكليز يعتقدون ان الحملة ستكون نزهة صحية. . ولكنهم فوجئوا لدى دخولهم المدينة ان السكان مسلحون لهذه المناسبة، ومتحدون مع العساكر، فانقضوا عليهم. أما في صفوفهم، فإن الهلع بلغ أقصى مداه. ولم يكن لديهم ما يهيئهم لهذا النوع من معارك الشوارع. وكان الجنرال واكوب هو أول من قُتل مما أصابه من الرصاص. ولكن لم ينته كل شيء بعد، إذ يبقى بعض العناصر المنظّمين، إن لم يكونوا قادرين على قلب مجرى المعركة، فإنهم، على الأقل، سيخففون ضحاياها وآخرها. وكان هنالك مئة شخص يقودهم ضابط، يقفون في الساحة الأساسية. لكن الجنرال Mead، الذي جرح جرحاً خطيراً يأمر بالتراجع، وتمت المجزرة. ولو أن المصريين والأتراك لم يتوقفوا، لقطع الرؤوس، إذن لما بقي إنجليزي واحد لكي ينقل إلى الإسكندرية أخبار الهزيمة الجديدة.

ويشير الميجر Misset إلى ١٧٠ قتيلاً فيهم ٢٢ ضابطاً بالإضافة إلى ٢٥١ جريحاً(١٧). أما قنصل إسبانيا في الإسكندرية، فإنه يكتب في ٣/ ٤ إلى الماركيز دألمانيرا d'Almanera وزير إسبانيا في الآستانة مشيراً إلى ما حدث، ويقول: «إن الإنجليز هاجموا يوم ٣١ آذار (مارس) في الساعة السادسة صباحاً، ساحة الرشيد. وتحصن الألبانيون في البيوت الأخيرة للمدينة. وأقاموا حواجز في الطرقات، كما أقاموا بعض التحصينات في مدينة «أبو مندور» البعيدة بمقدار نصف فرسخ (كيلو مترين تقريباً من هناك) ولما كان الإنجليز قد هدموا جداراً، وسهلوا الدخول إلى الطرقات، وقاتلوا خلال ساعتين، ولم يستطيعوا المقاومة أمام نيران الألبانيين

الذين كانوا يرمونهم من الشرفات، ومن سطوح البيوت والنوافذ، وهكذا أرغموا على الانسحاب، وتبعهم الألبانيون أو تتبعوهم وكانت الهزيمة كبيرة، فقد فقدوا الكثير من العناصر والذخائر: ثلاثة مدافع، وقذّاف، وكثيراً من الطنابير وأدوات الفرقة الموسيقية وبراميل من الكحول والسكر، وبقي في ساحة المدينة مئتا إنجليزي موتى و ١٥٠ جريحاً. وكان بينهم قائد الحملة وحوالي اثني عشر ضابطاً. أما الألبان فلم يخسروا إلا ٤٠ رجلاً؛ وكان لديهم حوالي مئة جريح.. ولو كان لهم بعض الفرسان، إذن لما بقي منهم أحد. أما بقية عساكر الإنجليز، فإنها احتمت بإدكو Edko، حيث نزلوا من البحر. وكانوا يتواصلون مع أبو قير والإسكندرية من البحيرة. ويفترض أن المهاجمين كانوا أكثر من ألفي شخص.

«أما السجناء فقد عوملوا معاملة حسنة من قبل الحاكم علي بك. وقد ضمدّوا لهم جروحهم. أما بقية الموتى فقد بقيت جثثهم مهملة في الشوارع. أما الرؤوس فقد أرسلت إلى باشا القاهرة»[١٨].

وفعلاً فإن المئة والعشرين سجيناً المرسلين إلى القاهرة، ركبوا نفس المركب التي أرسلت فيها المئة رأس، المقطوعة من جثث رفاقهم. ومنذ أن وصلت إلى العاصمة، أسرع الناس إلى تعليق الجماجم على الرماح، من جانبي الشارع الكبير، شارع الأزبكية، تسهيلاً لرؤيتها من قبل الناس.

ولقد وصلت أخبار هزيمة الإنجليز في الرشيد منذ يوم ٥/ ٤ إلى القاهرة حيث لم يظهر محمد علي إلا في اليوم التاسع ... ولما كان دروفيتي يشجعه تشجيعاً كبيراً، فإنه، هو بدوره، حرّض على المقاومة. وأوقف عمر مكرم دروس الجامعة (الأزهر) وحث الشعب والطلاب على حمل السلاح. وأسرع الناس إلى ترميم السور وأنشئ خندق بين مرفأ بولاق وحصن كامين Camin.. وبسرعة كبيرة، بني معقلان، مجهزان بمدافع من عيار كبير في الأماكن الحرجة. أما في «الجزيرة» فقد أقيمت مراكز للمدفعية على سطح الماء، يحميها حاجز صنع، بين طرفي النيل، من مراكب ملأى بالرمل. ويأتي ضابط القنصلية، فينصح نائب الملك، وهو يصحبه في زياراته، ويساهم في إثارة حماسة المسؤولين العسكريين.

بيد أن الجنرال فرازير قرّر أن ينتقم لهزيمته. فوجه حملة أخرى ضد الرشيد والموقع المجاور، موقع الحامد.

وعندما إطمأن محمد علي لما شهده من جدّية في أعمال الدفاع عن القاهرة مضى مباشرة إلى الدلتا، على رأس ثلاثة آلاف مقاتل من المشاة، وألف فارس، قسموا قسمين، واحد يشرف عليه كيايا بك، والآخر يقوده حسان باشا.

وفي ٢١/ ٤، قامت المجابهة مع الإنجليز في منطقة الحامد. أفيكون النصر عندئذ بفضل عزم وسرعة محمد علي، أم بالقيمة المعنوية لوجوده بين جنوده؟ أم أن الأمر كما يقول الجبرتي تم لأن الله، قضى في كل هذه القضية، منعاً لخراب مصر، كما فعل في الأيام الماضية كلها، بأن يعمي عيون الإنجليز؟ هنا نجد شيئاً مؤكداً: فمنذ أن عادوا فوضعوا أقدامهم فوق الأرض المصرية، جاءت المصادفة وكأنها تآمرت ضد جنود جلالته، لتجعل من حملتهم هزيمة منكرة. وقد خسروا في الحامد ستة وثلاثين ضابطاً، و ٤٠٠ رجل، ومثلهم من السجناء.

«من الميجر فوجيلسانغ إلى الميجر جنرال فريزر قائد جيش جلالته البريطانية في الإسكندرية».

أتشرف بإعلامكم أنه بتاريخ ٢١، بعد أن تلقينا من الليوتنان كولونيل Mac Leod أمراً بالانسحاب بين الساعة السادسة والسابعة صباحاً، في ثلاثة خطوط، عندئذ قُوطعنا بعدد كبير من الفرسان والمشاة، دون أن نستطيع التجمع، وبعد أكثر من ثلاث ساعات متتابعة من الدفاع، تساقط بعضنا بعد البعض الآخر. وتركنا ثلثي رجالنا، في نفس المكان، قتلى أو جرحى. وأضع هنا أسماء الضباط القتلى والجرحى، والمساجين، وكذلك عدد الرجال(١٩).

وهكذا فإن المشهد البغيض الذي قُدِّم منذ بضعة أيام، للشعب في القاهرة، يكرِّر نفسه اليوم.

ورأى الناس عرضاً فوق ساحة الأزبكية؛ فيه ٤٠٠ من السجناء المبهوتين، يسبقون رؤوس رفاقهم. وأولئك الذين يسقطون، بسبب انهيار قواهم، يرمى بهم على ظهور حمير، في سراديب سطحية. وسرعان ما تقطع رؤوسهم، لتطويل العرض الجنائزي. وعندما حلّ الظلام، دفنت الرؤوس بعد أن قطعت منها الآذان. فهذه متى مُلحّت ودبغت، ترسل إلى الآستانة. ويدع محمد علي، أناسه، يفعلون ذلك. ولكن عندما انتهى الأمر، وقدّم العرض دروسه، نعود فنرى الرجل يعرب عن عواطف إنسانية، وإليكم الآن رسالة جديدة من الميجر فوجلسانغ إلى فرازير Frazer، كشهادة على ما حدث.

من القلعة إلى القاهرة، ١٨٠٧/٥/١:

إنه لا يسعنا إلاّ أن نشكر الله على الطريقة التي عاملنا بها الأتراك، باعتبارنا سجناء، وذلك طبقاً للأوامر التي أصدرها الباشا، وطلب أن يُقدَّم للجرحى أكبر العناية. وهو يتابع دوماً الإعراب عن طيبة، تجاهنا[٢٠].

وكان دور دروفيتي أساسياً: «فعندما صُعِدَ بالسجناء إلى القلعة، تبعهم قنصل فرنسا، مصحوباً بأطباء. وهيأ لهم المساكن، وأعطى ضُباطهم غرفاً جديرة بمقامهم. وكان يزورهم كل يوم تقريباً. وكان الجراحون يتابعون العناية بهم، على نحو ما يتم ذلك لدى الأوروبيين الذين يعاملون الأعداء الجرحى ويعنون بهم.. مما يشرّف سجناءهم الأسرى»[٢١].

وخلال كل الشهر الذي مضى، منذ نزول العدو إلى اليابسة، لم يقم المماليك بأية حركة. أما فرايزر فإنه يرى أن الحكمة تقتضي ألا يغامر بأية محاولة جديدة، وينعزل في الإسكندرية.

وكان محمد علي جاهزاً للضرب ضربة قاطعة، عندما قام فرايزر الذي فهم أكثر من Misset قيمة الخصم «بإرسال برلماني كموفد من عنده. وتنسجم هذه

المبادرة مع مقاصد الحكومة الإنجليزية التي أمرت بـإخلاء الإسكندرية عندما علمت بهزيمة جنودها.

من اللورد كاستليراغ إلى الجنرال FoX:

١٤ حزيران ١٨٠٧

«إن رسالتك المؤرخة بتاريخ ١٤/ ٥، والمرسلة من مسّينا، قد وصلت وبلغ صاحب الجلالة مضمونها. وإنه لبكثير من الحزن اطلع على التقرير المرسل عن طريق الميجر Fraser إلى M.Windham، بتاريخ ٦/ ٤. وإليكم بتاريخ ٢٤، والذي كشف عن الخسائر الجسيمة التي مُنّيت بها الجيوش البريطانية في الرشيد [...] فإن جلالته يَسرّه أن تتخذوا كل التدابير الضرورية من أجل اجلاء قواته من مصر، وأن تعود إلى معسكراتها التي خرجت منها في صقلية»(٢٢).

لكن رجل كافالا على معرفة كاملة بالقوة البريطانية، فلا يسعه أن يبدو شديد العناد. وهكذا فإن الاتفاق مع فرايزر Fraser، يتمُّ بسهولة. أما مبدأ الرحيل فقد قرّ. ولم يبق إلا الاتفاق مع محمد علي، على ردّ المساجين.

وفي يوم ١٤/ ٨/ ١٨٠٧، تم الاتفاق بينه وبين فرايزر (السابق الذكر)، على أن يبيع لإنكلترا.. قمحاً. ولم يكن العرض بريئاً. فهو يعلم أن إنجلترا تتخاصم هي ونابليون في شبه الجزيرة الايبرية (إسبانيا)! وهي بحاجة ماسة لتغذية جنودها. وأكثر من ذلك، أن واقعيته السياسية، تدفع به إلى مطالبة إنجلترا بحمايتها ويلتزم هو، مقابل ذلك، بمعارضة كل مبادرة لاحتلال الإسكندرية، مهما يكن المطالب بذلك «فرنسا أو الدولة العثمانية..»(٢٣) وما في ذلك شيء يستغرب: ذلك أنه خلال حياته كلها سيعيش بهاجس إنجلترا. ولن يكون مخطئاً في هذا. فإذا هو تحالف مع الإنجليز فإنه يأمل بدفع التهديد المستمر الذي تُمثله هذه القوة في عينيه. لكن الحكومة البريطانية ستشتري قمحه، بثمن باهظ، ولكن سيكون هذا كل شيء.

وكان دروفيتي، الشاهد اللا مباشر على مفاوضات نائب الملك، ولذلك فإنه

يكشف عن مقاصده الحقيقية. «ففي يوم ١٧ أيلول (سبتمبر ١٨٠٧) يكتب لسيباستياني» مايلي:

«البارحة، وبعد سفر المفاوضين الإنجليز، كان لي لقاء مع الباشا. وقد بدا لي سعيداً، وقد قدمت له بعض الملاحظات، حول اعتذاره لي عن عدم مقابلتي قبل البارحة، فقال لي إنه، في هذه الفترة، لا يستطيع أن يعمل ضد مصالحه. ولكن عندما يرحل البريطانيون عن الاسكندرية فإنه سيعاملهم دوماً كأعداء لحكومته، وهو يحذر كل الحذر من أن يزعجهم في شيء، مهما صغر، وهو يحيطهم بدرجة من العناية، جعلته يطلب مني ان أبقى في مكان لا أكون فيه قريباً منه، حتى يوم رحيلهم، وذلك -فيما قاله لي- أنه عندما رآني اللورد الإنجليزي، غضب غضباً شديداً، وكاد أن يوقف المفاوضات. وهو يخشى، بسببي، أن تنشأ بعض المصاعب»(٢٤).

وفي يوم ١٩، أخليت الاسكندرية. وفي العشرين يدخل هو إليها، ترافقه رشقات المدافع. وفي اليوم الخامس والعشرين، يتقبل زيارة Hallowei(٢٥) نائب الأميرال. وبعد أن تمت المجاملات التقليدية، نجد أسطول النقليات، يحرك آلاته ليرحل أخيراً.

وهكذا فإن الحملة العسكرية الإنجليزية عام ١٨٠٧ أدت إلى وضع مدينة الاسكندرية بين يديه. وكان هذا ما يحلم به منذ زمن طويل، ويجعله أيسر اتصالاً بالمصالح السياسية والاقتصادية للدول الأوروبية. وهذا الرجل الذي لم يكن، حتى الآن، إلا رئيس عصابة، ملقى عرضاً في أرض لم يستطع أبداً البقاء فيها، إلا بسبب من نفوذه ومهارته، نقول إن هذا الرجل يصبح عنصر قوة في السياسة الدولية.

ولا شك إن النجاحات التي أبرزها جنوده في مجابهتهم لقوة غربية كبيرة زادت زيادة كبيرة من سلطته ونفوذه في عيون المصريين، ودفعت من أذهان البريطانيين، محاولة وضع أقدامهم في مصر، لمدة طويلة.

هذا وإن الحملة الإنجليزية أقامت بفضل دروفيتي، تعاوناً مصلحياً بين محمد علي وفرنسا. أما النتائج في الجهة الثانية، فقد كانت تماماً على عكس ماكانت إنجلترا تتوقع من تدخلها في أرضه. وكان John Moore قد كتب في مذكراته اليومية يوم ٥/ ٢/ ١٨٠٧، أي قبل شهر من إنزال الجنود البريطانيين في الإسكندرية هذه الكلمات: وعندي أن حملة الاسكندرية ساءت تخطيطاً. فليس الهجوم على الأتراك في مقاطعاتهم البعيدة، مما يؤثر فيهم تأثيراً كبيراً. فإذا نحن فكرنا، في حال تقاسم الامبراطورية العثمانية أن مصر هي التي تناسبنا أكثر من غيرها، فإن في وسعنا الاستيلاء على الاسكندرية، في كل لحظة. ولا يستطيع الفرنسيون أن يكونوا فيها قبلنا. ولكن في مثل هذه اللحظة من الحرب، فإنه ليس علينا أن نحبس قواتنا في معسكرات بعيدة. إذ أن هذا التدبير، عندما يجرّدنا من قوة جاهزة، يمنعنا من الاستفادة من تفوقنا البحري لدى القيام بعمليات هجومية»(٢٦).

وهنالك نتيجة أخرى، غير متوقعة. فهذه العملية المخفقة، جعلت محمد علي يعي ضرورة الحصول على أسطول بحري، تكون القاهرة بدونه في متناول أي مهاجم، يأتي من البحر المتوسط... أما البائس Major Misset فإنه لم يبق له في نهاية عام ١٨٠٧، إلا أن يغادر مصر. ولكنه سيعود إليها بعد أربع سنوات. وبعد عدة أسابيع من الانتصار على الإنجليز، قام محمد علي بإرسال مبلغ ٦٠٠٠ بورصة التي تعهد بأن يدفعها مقابل إبقائه على رأس حكومة مصر. وفي هذه المرة، انتزع هذا المبلغ من الشعب، تبعاً للطرائق التي استخدمها كل سابقيه، مثل فرض الضرائب الموجودة، أو خلقها من جديد، وفرضها على أفراد الشعب. ولم يذكر الجبرتي من كل هذه الإساءات المفرطة إلا واحدة غريبة عجيبة، حتى ليمكن أن نشك في سلامتها. بيد أن الإعلام هنا يظل دقيقاً. فقد اخترعوا ضريبة جديدة أطلقوا عليها بوقاحة اسم «ضريبة الخبر الجيد» وكانت الآلية بسيطة بقدر ما هي جذرية. فقد وضعوا أوامر دفع مكتوبة. يسلمونها إلى «محصّلين». وكان هؤلاء يختارون عناصر يسبقونهم لكي يعلموا الناس بوصولهم. ومقابل ذلك، كان هؤلاء يحملون

المكلفين على دفع أعلى ما يمكنهم تحصيله. وحقاً فإن الشعب المصري لم يكن في نهاية متاعبه.

ولما دفعت هذه الضريبة (أي الـ٦٠٠٠ بورصة) سارع الباب العالي إلى وضع فرقاطة تحت تصرّف ابراهيم، وأعاده إلى مصر. ولو عرف سادة الآستانة ما سيقوم به هذا الرجل الشاب، بعد قليل، أو لو تخيلوا ذلك لحظة، لاحترسوا كثيراً قبل إعادته. وعندما وصل ابراهيم إلى القاهرة (إذ أن طوسون قام مقامه في القلعة)، سُمّي دفتر دار -رئيس المحاسبة- أو قل إنه كلّف بمساعدة أبيه في إعادة تنظيم مالية الدولة. وهذا ما قام به ابراهيم بشرف وحزم لا مجال للنقاش فيه. فملء صناديق الدولة، والحصول على الأموال الضرورية، لدعم جيوشه، وبحريته، مسألة يضيق بها صدر محمد علي. وهو يعرف ذلك بصورة أفضل من أي إنسان آخر، فبدون المال، لا يكون هناك جيش قوي، ومتى حرم القوة العسكرية، فإن ملكه سينقض من الأساس. وكان حتى هذه الساعة قد عاش على وسائل مالية مضطربة، ولم يتردد في فرض الضرائب، حتى على القوافل العابرة لأرضه. وها هو الآن يعالج المشكلة بأكبر طاقة ممكنة، ضاغطاً على الشعب والوجهاء، بلا أدنى مراعاة.

وفي ٣٠/ ٨/ ١٨٠٥، كان يمكن أن نقرأ من كلام دروفيتي مايلي: «إن علينا أن نتوقع ضرائب أكبر، وحجوزاً عسكرية على البضائع، وبالدرجة الأولى على خمسة أو ستة آلاف بالة من القهوة (والبالة هنا تزن ١٨٥كغ)، كان يجب أن تصل من السويس إلى القاهرة، مع القافلة الأولى[٢٧].

وبعد قليل، أي يوم ١٣ أيلول (سبتمبر ١٨٠٥)، نجد دروفيتي نفسه يخبر تاليران عن ذعره بقرار محمد علي بفرض الضرائب على الغرباء والأجانب: «ففي القاهرة تتخذ أنواع من التدابير لحمل المسيحيين الأقباط والأغارقة واليهود، على دفع الضرائب. ولم يوفر أي جزء من أهل الذمة. وكان المحميون الفرنسيون من هذه الناحية كسائر الآخرين. وقد اكتفيت بكتابة رسالة إلى محمد علي، شبيهة إلى

حد كبير بتلك التي قدمتها لسعادة القبطان باشا، وأضفت إليها، مع ذلك احتجاجات قوية حول سوء المعاملة التي لقيها من السلطات بعض المحميين الفرنسيين[٢٨].

وفي الوقت نفسه، فإنه سيجد صعوبات كثيرة مع جنوده الألبان الذين لم يقدموا خدماتهم إليه باستمرار، إلا طمعاً وحباً بالمنفعة، لطول ما تأثروا بالدسائس أو كسبوا بالهرب. وقد حدث أن أطلق الرصاص ذات يوم على بيته، ولم يجب حرسه إلا إجابة مستكينة. وهذا الحادث، الذي وقع يوم ١٩/ ٨/ ١٨٠٥[٢٩]، ونقل إلى تاليران عن طريق دروفيتي، كان من الجدّية، بحيث أرغم محمد علي على الإقامة والتحصن داخل القلعة.

وهذا الوضع -وهو واضح- لا يمكن أن يدوم أكثر مما دام. وعاجلاً أو آجلاً سيضطر نائب الملك إلى اتخاذ قرارات لا رجوع عنها.

فرعون

رجال الدين والمماليك

(١٨٠٨-١٨١١)

عام ١٨٠٨/ حدث انقلاب غير متوقع كان في مصلحة الألباني، إذ أن السلطان سليم الثالث الذي ذهب ضحية انقلاب عسكري، عوّض بابن عمه مصطفى، الذي سرعان ما قتل. أما خلفه السلطان محمود، المشغول كل الانشغال بدعم سلطته، فقد تناسى مشكلة محمد علي. ترى هل يكون قد استشعره؟. وعلى كل حال فإنه لما أعيد عليه الطلب، من جديد، بحرب الوهابيين، لم يخش أن يجيب، بأن مصر لم تملك بعد جيشاً تكفي قوته لمقاومة نزول الأجانب الممكن، من البحر على الشاطئ المصري، سواء أكانوا فرنسيين أم من الإنجليز. ولم يكن يغش إلا نصف الغش. فالحرب ضد الوهابيين تقتضي وجود عناصر كافية وأدوات تسليحها. ولكنها تقتضي أيضاً وجود أسطول يحملهم إلى الشاطئ العربي. ولكن لا شيء من هذا جاهز لديها. وأكثر من ذلك أنه ما من شيء قد سوّي في داخل البلد. إذ تنشأ مشكلات مستمرة فيه، وكثيراً ما تكون من عمل أولئك الذين ساعدوا محمد علي في الاستيلاء على السلطة، مثل المشايخ والعلماء.. سيكون عليه إذن أن يعمل على إحداث شروخ بينهم، وإثارة الانقسام في صفوفهم، وسينجح إلى درجة متينة، مقرّباً هؤلاء، ومبعداً عن القاهرة، تلك العناصر الأكثر خطراً.

ولنقل إنه في هذه السنة نفسها، قفز القفزة، ووضع اليد على أوقاف خصصها أصحابها للمساجد أو المؤسسات الخيرية -مما يدخل في تقاليد الناس في الشرق، منذ نشوء الإسلام. وما من أحد، في كل من حكم مصر، مهما يكن، إلا احترمها احتراماً كاملاً، بل إن الفرنسيين، هم أنفسهم، حذروا كل الحذر، من مسّ هذه الامتيازات المتصلة بالدين (ورجاله بطبيعة الحال).

ولكي نفهم بصورة أفضل ما عمله نائب الملك، فإن علينا أن نعرف، أنه حتى في ذلك العهد، عهد الشرع الإسلامي، لم يكن يقبل في هذه الناحية إلا القوة، فكل الفتوحات التي تمت بقوة السلاح، وكل المزايا التي حصل عليها من أعداء الدولة، توضع مباشرة تحت تصرف السلطان. . وكان في وسع هذا الأخير أن يوزع الأراضي على جنوده، باعتبارها غنائم حرب. كما أن في وسعه أن يعطيها لأناس مسلمين، شريطة أن يدفعوا للدولة ضريبة العشر على محاصيل أراضيهم.

وفي البلاد التي يسودها الإسلام، تُوزّع الأراضي من وجهة نظر الشرع، بصورتين:

١ - أراضي العشور الخاضعة للضريبة.

٢ - والأراضي الخراجية الخاضعة لضريبة الخراج.

أما الأراضي العربية، فهي دوماً عشورية، وبالمقابل نجد الأراضي التي استولي عليها بالسيف، من النوع الخراجي. وعلى ذلك فإن المسلم وحده، يمكنه أن يملك أراضي عشورية.

ويجب أن نلاحظ أن المصطلحات الإسلامية لا تعتبر وادي النيل، كما لو أنه جزء من المناطق العربية، لأن هذه، باعتبارها مقصورة على أراضي شبه الجزيرة العربية، وعلى القسم الأكبر من العراق من البصرة حتى الموصل. وعلى ذلك، فإن كل هذه الأراضي يجب أن تعتبر كما لو أنها خراجية. ولكن في النظام المصري لملكية الأرض، سمة خاصة، من حيث أنها لا تخضع دوماً للتشريع القرآني. . وحقاً

فـإن عمـرو ابن العـاص قـائد جيش عمـر بن الخطاب، اكتـفى بضـريبـة فرضت على المصريين وهي ضريبة سنوية، كانت حصيلتها الكلية ١٢ مليون دينار.

وكانوا في كل قرية يعمدون إلى التقسيم الدوري للأراضي القابلة للزراعة، بين المزارعين، ومن هنا كان ينشأ أن الأراضي، كانت قانونياً ملكاً للفئة التي كانت تستغلها. أما في الواقع، فإن الأرض تعود إلى الدولة من حيث أن السلطان يملك كل السلطات. وعلى ذلك فإن المزارع لم يكن يمارس، على الأراضي الموضوعة تحت تصرفه إلا حق الاستغلال. بيد أن الخلفاء وخلفاءهم من الطولونيين والأيوبيين والمماليك، أو الترك، انتزعوا لأنفسهم سلطة انتزاع بعض الأملاك (كالأراضي، أو البيوت) لكي يكافئوا بها ضباطهم الأكثر إخلاصاً. وهذه الأراضي، المنتزعة بهذه الصورة كانت معفاة من الضرائب.

وحينئذ ظهر «الملتزمون» «مُلاَّك الأراضي». وكان أحد الأشخاص الأغنياء، يستأجر لعدد معين من السنين، تلك الضرائب المفروضة على قرية أو عدد من القرى. وكان يدفع سلفاً ضرائبها لسنة كاملة. وعندئذ كانت المزرعة تسجل على اسمه من قبل قنصلية القاهرة. وطبيعي أن يسترد ما دفعه من المال وفوائده. وأكثر من ذلك -وليس هذا كل شيء- إنه كان يتلقى، لوجه الله، عدداً من الفدادين[(١)] معفاة من الضرائب تحت اسم «أملاك السيد»، وكان يملك أيضاً أرضاً أخرى تقطع للفلاحين، متى دفعت سلفة ثابتة. وكان المزارع يجد نفسه في وضع قريب جداً من وضع القنّ أو الرقيق. وكان في وسعه أن ينقل حقوقه إلى ورثته. ولكن استيلاءه الموقت، في الأصل، يمكن أن يؤخذ منه، بمجرد الرغبة التي يبديها سيّده.

وكان للملتزم، كسيد حقيقي، كل الحقوق على كل الفلاحين، المرتبطين بأراضيه. بيد أن حقوقه لم تكن وراثية، حتى ولا على مدى الحياة. ولكن البيكوات -باستخدام المال- يجدّدون إلى ما لا نهاية، ذلك الإيجار ويسمحون أيضاً بنقله إلى ورثة صاحب العلاقة.

ويمكن القول!إن أكثر هذه الملكيات حولّ في عهد المماليك خاصة، إلى وقف، ظاهري أو فعلي، لحساب المساجد، أو مؤسسات دينية أخرى، أو المؤسسات الخيرية. وكان مالكوها يستخدمون هذه الطريقة (المرخص بها في الشرع الإسلامي) تجنباً للمصادرة العشوائية، من قبل سلطات الدولة. وهي مصادرة تظل ممكنة باستمرار.

ولما كانت هذه المؤسسات غير قابلة للنقل، فإن كثيراً من الملاكين، الراغبين بأن يضمنوا لورثتهم بعد موتهم، فوائد هذه الأملاك، تعودوا أن يهبوها إلى هيئات دينية. وكان واضع اليد يدفع أجور هذه الملكية دون خوف -وكان هذا هو الميزة الأهم- لا من الضرائب ولا من طمع المماليك فيها. وهكذا أصبح الوقف يضم كل الأراضي الزراعية. إنها أصبحت ملكاً لأرستقراطية العلماء، الذين كانوا يتمتعون بها بكامل الاطمئنان، تحت غطاء الشرع الديني الذي لا يمكن العدوان عليه.

وبهذه المناسبة، نقول إن الجبرتي الذي لا يمكن أن يتهم بمحاباة نائب الملك، يعرف أن التجاوزات التي أتاحها هذا النظام، بلغت قمم الظلم: «إن هذه المزايا جعلت المشايخ، مدَّعين، طماعين، وكانوا يحسبون أن هذا الأمر سيدوم إلى الأبد. وكانوا يستغلون هذا الوضع بشراء الرخص، بسعر بخس، بعد أن كانت قد قدّمت لهؤلاء الناس الخاضعين للضريبة. وقد حرصوا على هذه الخيرات الأرضية، وأهملوا الدراسة والتعليم، ولم يكونوا يهتمون بها إلا بالمقدار الذي يضمن لهم هذه المزايا.

«ولقد أصبحت بيوتهم شبيهة ببيوت الأمراء القدماء. وكان لديهم خدم وحشم. وكانوا يحبسون ويؤذون ويضربون الناس، وقد اتخذوا لخدمتهم كتّاباً من الأقباط. وحدّدوا مبالغ ينبغي أن تدفع كأجور طريق، إلى الأشخاص الذين يقومون

بخدمتهم. وقد كتبوا إنذارات وتهديدات إلى فلاحيهم، وأصمّوا الآذان عن كل طلباتهم. وانتهى الأمر بهم إلى أن يصبحوا ما كان لا يجوز أن يكونوه... ولم يعودوا يتحدثون إلا عن القضايا التي تتصل بأخبار الناس ودعواتهم وحفلاتهم، وبالرخص وحسابات الفائدة، والدعاوى والشكاوى. وكانوا يتحدثون مع الأقباط، ويدعون الرؤساء إلى اجتماعاتهم وموائدهم، وكانوا يقدمون لهم، كل صور التشريف أو التكريم، ويتشرفون هم أنفسهم بزياراتهم. وكانوا يقدّمون لهم الهدايا، ويقبلونها منهم... ومع هذا كله، كان الرؤساء يكره بعضهم بعضاً، ويتحاسدون ويَدَعون لغرائزهم الطبيعية أن تنطلق بحرية، وكان كل منهم يحاول أن يرقى على حساب الآخر، ويرتمون بعنف في المتع واللذائذ».

وقرّر، محمد علي، في المرحلة الأولى، أن تلغى الرخص فلا يقبل أي استثناء إلا بإذنه. وقرّر جواباً عن المطالبات الملحة التي قدمها الملتزمون، إنشاء سجل عام للملكيات، ودعا الملاكين إلى تقديم سندات تملكهم، للتحقق من شرعيتها وسلامتها القانونية. وأسرع متذرعاً بالإطلاع على سندات مغشوشة، بإلغاء جميع سندات التملك، بكل بساطة. وخلال هذه المعمعة، نراه يسمح لمن يسميهم بالكشاف Kuchaf (وهم من موظفي الدولة) في المحافظات، بالاستيلاء على الالتزامات[٢]، دون أن يترك منها إلا تلك، المؤلفة من البيوت والحدائق. ومقابل ذلك، يهب واضعي اليد، راتباً يدفع لآخر العمر، يكاد يوازي العوائد الأصلية التي كانوا يتمتعون بها. وبهذا، نجده يحلّ محل الملتزمين، ويصبح المالك الوحيد للأراضي في مصر كلها. ومنذئذ يحق له أن يقول: إن مصر هي أنا.

والآن يصح القول: إن الجندي الصغير المجهول، الذي ولد في كافالا، صار تقريباً فرعونا.

وهكذا فقد أعطيت بعض الأراضي للفلاحين، على صورة الاستغلال، طول العمر، بنسبة ٣ أو ٥ فدادين لكل فلاح إذا كان في العمر المناسب للقيام بأعمال الفلاحة. وقد اتخذت هذه الملكية الفلاحية شكلاً رسمياً عن طريق نسخة مأخوذة

من السجلات المقامة لهذا الغرض، لكي تصبح في الوقت نفسه برهاناً حسياً، في قضايا الأملاك. وكان لهذا السجل فائدة أخرى هي أنها تصلح لفرض الضريبة على الأراضي أو على العقارات. ومن سوء الحظ أن توزيع الأراضي المتروكة للفلاحين، قد تم، أكثر الأحيان، تحت تأثير رؤساء المدن الذين لم ينسوا إكرام أصدقائهم وأقربائهم.

ومن بين كل أعمال الباشا، كان «تأميم الأراضي» هذا هو، على الأرجح، الذي أسال الكثير من الحبر. بيد أننا إذا وضعناه من جديد في إطار تلك الأيام، وجدنا أنه ليس شيطانياً بالدرجة التي يمكن تخيلها. ولئن لم يُحسّن شروط حياة الفلاح -وكم يجب لتحقيق ذلك- الذي تعوّد منذ قرون على أكمل أنواع العوز والفقر، فإن التأجير لم ينهب من أمواله شيئاً، إذ أنه لم يملك شيئاً أبداً في حياته. وبالمقابل، فإنه عندما منح الفلاح ثمرات ثلاثة فدادين أو خمسة، كان يهب الفلاح القدرة على التصرّف بهذا الحق الحقيقي. ومن جهة أخرى، يمكن أن نفترض، من وجهة نظر مالية فقط، أن وضع الفلاح، تحسّن حتى ولو كان ذلك بصورة عرضية، أو عابرة.

ويكتب John Ninet[٣] أحد المزدرين القساة، للسياسة الزراعية لمحمد علي، فيقول: «لئن كان الفلاح يربح الكثير، فإنه سرعان ما كان ينفق المال الذي اكتسبه بسرعة مفرطة. وكان الناس يرونه يتجول بين المعارض، كمعرض العبيد، ومعرض الأشياء الفضيّة، والحليّ، والأثاث والعشاءات المؤنفة. وكان لا يحرم نفسه شيئاً. وبعد أن أشبع بعض أمنياته الصبيانية والمهلكة، كان يجد نفسه أكثر فقراً مما كان، تحت سيطرة المقرضين بالربا الفاحش، في وسط كان فيه ثمن الأشياء قد تضاعف أربع مرات». وعلى ذلك فإن هذا الناقد يعترف، في إطار درامي، أنه كان هناك تقدم محسوس.

والشيء المؤكد أن محمد علي كان يقلّد نابوليون، نموذجه الأكبر، لأنه كان يحلم بإنشاء نوع من الارستقراطية الأرضية، التي يهمها استمرار سلطته والدفاع عن منجزاته. وهكذا فإنه عاد عام ١٨٢٩ إلى توزيع الأراضي اللامستثمرة بالمجان،

على رفاقه في السلاح، الذين كانوا معه منذ البداية، شريطة أن يستثمروها. وهذا ما سمّي بالابادية (أي خارج التسجيل الرسمي) وأعفاهم من الضرائب. وقد صلح هذا الاسم للدلالة على الأملاك الممنوحة للبدو، بغاية تثبيتهم في الأرض، والسير بهم إلى ترك عاداتهم القديمة، في النهب والسلب. ثم إن الترخيص، يلغى مباشرة، إن أهمل صاحب العلاقة زراعته، أو أجرّهو أرضه، بدلاً من استثمارها هو بنفسه. أما ما تعلّق بأفراد أسرته، (أسرة محمد علي)، وكبار ضباطه، فإنهم مزوّدون باقطاعات.. شبيهة نوعاً ما بتلك التي حازها مارشالات الامبراطورية.

ويمكن أن نتخيّل الهيجان الخارق للعادة، الذي أثاره هذا «الإصلاح» أو التطوير في القاهرة، حتى إن الأزهر، وهو المنبر التقليدي، لأكثرية العامة في الشدائد، يمتلئ بالناس، على نحو ما يحدث في الساعات العصيبة جداً. ويبرز كبار المستفيدين من الوضع السابق، ليبرهنوا أن عوائد أوقافهم ضرورية لا غنى عنها، للإبقاء على تقاليد عربية قديمة، لاستقبال الوافدين. فيجابون بأن الخزينة، بحكم الحرب، التي تتهيأ مصر للدخول فيها، ضد أولئك الذي انحرفوا عن الدين، بحاجة ماسة للمال. وأن هذه الحاجات المستعجلة تجبُ كل اعتبار آخر، مهما يكن في ذاته جديراً بالاحترام. وهكذا فإن المشايخ والعلماء، بقيادة السيد عمر مكرّم، يقسمون يميناً، يلتزمون فيه بتقديم حياتهم، إذا احتاج الأمر، لدعم حقوق الشعب.

وردَّ محمد علي، كما هي عادته، فيلف ويدور ويقسم. «فاعقدوا مجالس، وأقيموا تظاهرات بقدر ما تريدون. وسأصغي إليها بكل احترام، ولكنني لن أقبل أية مظاهرة علنية، ولن أقبل أيّ حث على التمرد أو على إثارة الاضطراب الشعبي، من أي مصدر جاء! ومن جهة أخرى، فإن هذه المظاهرات لا تخيفني مطلقاً، فإذا قام الشعب بالتمرد، كما تقولون، فلن يكون لي تجاهه إلا السيف والانتقام[٤].

ولكن القضية ظلت ملتهبة مدة طويلة. إلا أن تآمر المشايخ يمكن أن يعتبر منتهياً. ويبقى أن نعاقب أساس الفتنة: عمر مكرم أي الرجل الذي حاز محمد علي بفضله على دعم المصريين، وتسميته باشا. وهكذا فقد عزل من منصبه، كنقيب

للإشراف، وأقام مكانه الشيخ السادات، ونفاه إلى دمياط. ومن المرجح أنه كان يريد، في هذه اللحظة، وفي نفس الوقت، أن يتخلص من الشخص الوحيد الذي يمكن أن ينازعه في سلطته، في نظر الشعب، والوحيد الذي يملك هذه القدرة الخاصة على تحدّيه، وعلى تحريك الجماهير ضده. ويمكن من خلال هذا الغضب أن نجد أو نتعرف طريقة الأمير الخاصة. فهو يستثمر أوراقه ويحرّكها يميناً وشمالاً، ويستخدم تلك التي يمكن أن تقدّم له بعض الفائدة، ثم يرمي بها خارج الملعب دون أن يرفّ له جفن، أو يتحرك قلب.

وهكذا، فإن آخر معارض، إذا نحن استثنينا المماليك، قد تحطّم. أما العلماء فإنهم مرغمون على التزام الصف. وعلى الرغم من أن تأثيرهم لم يتحطم كلياً، فإنه مع ذلك، لم يعُد له من القوة، ما كان له منها في الماضي.

مالية فرعون:

وإذا شئنا أن نلخّص أفعال محمد علي، منذ اليوم الذي وصل فيه إلى مصر، وجدنا أننا تجاه مجموعة من أغرب مناورات التاريخ. فهو يحالف خسرو ضد العثمانيين، ويخونه بالتعاون مع طاهر باشا. ويقدّم صداقته التي لن تتزعزع لمماليك البرديسي، ويقوده إلى الحرب، ثم إلى اغتيال الجزائري. ثم إنه يؤثر في البرديسي الذي يستخدمه ضد الألفي، وهذا الأخير يضطر إلى العيش في المنفى. وهو لا يدعم خورشيد باشا إلا في الفترة التي يحتاج إليها ليثير ضدّه عمر مكرم وعلماءه، ليتحكم أخيراً، من خلالهم، بالشعب المصري. وفي النهاية يحطم مكرّم بدوره.

ولئن كان وضع يده على الأوقاف، يقدّم له مصدر عوائد محترمة، فإن العوائد الأضخم والأهم، جاءت من بيع القمح. فمنذ عام ١٨٠٩ إلى ١٨١٣، كان الإنجليز هم زبائنه الأعظم أهمية، وعلى سبيل المثال، نقول إنه في شهر أكتوبر (تشرين الأول) من العام ١٨١٠، وصلت ثلاثون سفينة إلى الإسكندرية، ترفع العلم الإنجليزي وتحمل ٧٢ ألف هكتوليتر.

وكالتاجر الجيد، لا يقوم رجل كافالا بتجارته على المعهود من الثقة بين الناس، والاستدانة، ثم الوفاء. بل إنه يطلب سفناً حربية، تحمل إليه الأموال، في الاسكندرية مقابل ما يسلمه من البضائع. وكان في وسع العقيد بوتان Boutin، الذي كان حينئذ يقوم بمهمة سرّية في مصر أن يكتب في ٢٩ تموز ١٨١١، رسالة إلى وزارة الدفاع، يقول فيها: إنه لولا قمح محمد علي، لكان على إنجلترا أن تجبر على تفريغ شبه الجزيرة الايبرية، ذلك أن جيوشها كانت ربما هلكت من الجوع(٥).

ولكن العملاء الفرنسيين في استامبول أو الاسكندرية، كانوا يعملون المستحيل لشل هذا التموين. وعندما كان دروفيتي يشكو من تصدير هذه البضائع إلى الإنجليز، يجيبه الباشا، بأنه إن لم يبع القمح إلى الإنجليز، فإن هؤلاء قد يأتون ليبحثوا عنه بأنفسهم ولم يكن مخطئاً. وهو يعرف جيداً منذ معركة الطرف الأغَرّ، أن هؤلاء بأسطولهم القوي يحتفظون بالسيادة على البحار. ولو أنه رفض مبادلة الجنيهات بالقمح، إذن، لعرف أنه لن يحرم نفسه من مبالغ كبيرة، فقط، بل سيغري القوى الإنجليزية باحتلال مصر، لكي تتمون بهذا القمح. أما فرنسا، التي لا تملك أسطولاً كافياً، فإنها لن تستطيع أن تقدِّم له أي عون. ولكن ليس هنالك فرنسا وحدها التي تغضب عليه، بل إن الباب العالي لن يكون راضياً، حول تنفيذ أوامره، لأنه يحرِّم تصدير هذه المادة التي تكون الدولة العثمانية بحاجة إليها. ومع ذلك فهو يتجاوز هذا التحريم. ومن جهة أخرى فإن حاجاته أو مقتضياته ستمضي متزايدة. وبسرعة كافية، نراه يثبت ثمن القمح بمائة فرنك مقابل كل هكتولترين. ولكن الإنجليز يستمرون في شرائه بدون أن يرف لهم جفن.

ولكن هذا المستغل الكبير يعرف أيضاً كيف يربح مثل هذا المال من أحصنته. ففي عام ١٨١٢ وعام ١٨١٣، يعلن الإنجليز عن رغبتهم في تجديد أحصنتهم الايبرية، فيأتي ضباط بريطانيون، وبياطرتهم معهم إلى مصر ليتزودوا بحيوانات الحمل. ويبيعهم محمد علي. ويحتج دروفيتي، من دون أن يحصل على أية فائدة.

وبهذا السلوك نفسه لا يأبى محمد علي، أبداً أن يتاجر مع دولة أخرى غير بريطانيا. ولئن كان المركز الأول لتجاراته، يقوم في مالطة، فإنه لا ينسى تكليف بعض العملاء النشيطين جداً، في كل المرافئ الأوروبية، مثل مارسيليا، أو ليفورن وتريستا، أو برشلونة أو حتى استوكهولم. ولما كان قد التزم الحياد في المبارزة الضخمة التي تدخل فيها بريطانيا وفرنسا، وحيث كانت النمسا وبروسيا وروسيا تقوم بدور لا شأن له، نراه يبيع المتحاربين من الطرفين، كل ما تستطيع مصر أن تبيعه، كالقمح، والأرز، والشعير، والفول، والعدس، والبصل، والصابون، والنطرون. وقد يُوجِّه أيضاً إلى نفس الأسواق بعض المنتجات الآتية من الجزيرة العربية أو من إفريقيا الداخلية، كالقهوة والصمغ، والجلود، والعاج وقراضة الذهب. أما الحبوب المعدّة للأستانة، فإنه يجرؤ أن يفرض على المصدرة إليها منها ما يعادل، كإذن خروج، ما بين ١٠-١٢ قرشاً للاردب. أو لنقل كان يتصرف وكأنه مستقل عن الإمبراطورية العثمانية.

وعما قريب سنرى هذا البائع السلطاني لا يكتفي بالتصدير. فعندما فهم أن من مصلحته أن يستفيد من البواخر التي ترسل محملة بالحبوب، إلى مالطة، وتعود فارغة، إلى مرافئ ارتباطها، بدأ هو بتحميلها بعض الأشياء المصنَّعة التي سيبيعها في مصر، بربح مناسب، وكذلك كان يحمِّلها مكنات تحتاج إليها صناعته الفتية، كما يُحمِّلها أسلحة وذخائر، لجيوشه البرية والبحرية.

ويظل دوماً يعدو وراء مصادر جديدة، بغضّ النظر، عن اللامشروعة منها. وعلى سبيل المثال، فإن واحدة من حيله، تقوم على جني مرابح كبيرة من تصنيع العملة، كما يستفيد من تقلب الأسعار، المفروض عشوائياً في سعر الصرف.

ونتساءل، من دون الدخول في التفاصيل التي لا قيمة لها: لئن كان ما يفعله نائب الملك غير غريب في ذاته، فإنه سيصبح كذلك، من حيث وضعه كتابع. فطبعه العملة على حين أنه ليس إلا موظفاً، في عيون الباب العالي، شيء فريد في بابه. فرئيس مصر يلعب على قيمة العملات المختلفة المتداولة، جاعلاً من سلطته حكماً

في قيمتها، فيعلّي أو يخفض سعر السوق، تبعاً للمصالح التي تتحكم فيه في هذه اللحظة أو تلك. فعندما يجب عليه أن يسترد أو يتقاضى ضريبةما، «يعيّن قيمة منخفضة عما هو جار في السوق. وعندما يريد أن يدفع لجنوده مرتباتهم، عندئذ يرفع من قيمة النقد، على حساب قيمة السوق. ومن جهة أخرى نراه يقلّل المعدن في القروش المضروبة بأمره. ففي عام ١٨١٥ لم تعد هذه العملة تشتمل على أكثر من ربع وزنها من الفضة. وفي آخر الأمر يعدل محمد علي عن هذه الممارسة غير القانونية، على الأقل، وذلك بفضل تنامي موارده الضريبية الطبيعية، وفضل إعادة تنظيم إدارته.

وهذه الأموال المتعددة المنشأ، سرعان ما تملأ صناديقه، وتتيح له أن يُجنِّد المرتزقة، وأن يزيد قدرته العسكرية، وينشئ قوته البحرية. . والخلاصة إنها تسمح له بأن يشيد أهراماته هو: «إن محمد علي يوفر للطوارئ المقبلة ٢٠ مليوناً في السنة. وفي ذلك الوقت كان يعتبر الباشا الأغنى في الأمبراطورية العثمانية(٦).

قتل المماليك:

وفي شهر أيار ١٨٠٩، يرى محمد علي أن الوضع صار أفضل وأوثق من ذي قبل، فيأمر بجلب زوجته أمينة. وبقية الأسرة من كافالا، في إطار ضخم من الفخفخة.

ويمكننا أن نتخيل، دون الوقوع في المبالغات، نوع العواطف التي يشعر بها رجل مثله، بعد فترة ثماني سنوات، قاسى فيها أعظم الشدائد، يوم وصول أسرته إليه. وليس مستحيلاً أن يكون خلال ليلة أو ليلتين، قد نسي أثقال السلطة، وطلبات جنوده من المال، والإنجليز وفرنسا.

وتمرّ الأشهر...

وكانت الاستراتيجية التي تؤلف كل عهده، وتقوم على اللعب بالازدواجية، بين فرنسا وإنجلترا، تتضح وتدق. وفي شهر كانون الأول (ديسمبر)، يصرّح لدروفيتي، أنه حتى ولو نشبت حرب بين السلطان وبين فرنسا، فإنه هو كباشا لمصر

سيبقى على الحياد . . وبعد سنة من ذلك التاريخ، يعقد مع شركة الهند الشرقية، معاهدة، يضمن فيها حتى إذا قام صراع بين الأتراك والإنجليز . . أن لا يُؤذي أيٌّ واحدٍ من رعايا جلالته، لا في أشخاصهم، ولا في أملاكهم، بل على العكس، إنه سيحميهم .

ومن المؤكد أن ميله إلى الاستقلال الحقيقي، بدأ يظهر في تلك الفترة . وفي عام ١٨١٠ ، يسأل دروفيتي عما إذا كان نابوليون سيساعده على أن يكون في وضع الدول البربرية barbaresques(٧)، ويُصمُّ دروفيتي أذنه عن مثل هذه التطلعات . وفي عام ١٨١٢ ، وعلى الرغم من أنه يحذر من إنجلترا حذراً شديداً، فإنه يطرح السؤال نفسه، على Missett الذي عاد إلى الاسكندرية في السنة السابقة . ولكن الإنجليزي يأبى أن يدخل في مفاوضات حول هذا الموضوع، ويطمئنه إلى أن حكومة جلالته ستبقى في سلام معه، حتى ولو كانت في حالة حرب مع تركيا .

ولكي يكون محمد علي حرّ التصرف في أعماله، يتساءل في نفسه، ماذا يبقى له أن ينهيه من العقبات غير تطهير مصر من الجرح المملوكي . ؟ وحقاً فإنه منذ هزيمة الإنجليز الذين حاولوا النزول إلى الشاطئ، جاءه عدد من أعدائه، بعد أن تعبوا من حياة الضياع وشقائها . وانضمّوا إلى صفه . ولكن التهديد يبقى قائماً مع ذلك . إذ أن خلفاء ألفي بك، ما يزالون يغذون الأمل باستقبال حملة عسكرية إنجليزية جديدة . بل إن العناصر الأكثر تفاؤلاً يفكرون أنهم سيحصلون على أموال ضخمة من إنكلترا، بغية تمزيق قوات نائب الملك، والانقلاب عليه . وفي يونيو (حزيران) من عام ١٨١٠ ، جاء خلفاء الألفي، وعلى رأسهم شاهين بك وأثبتوا وجودهم على أبواب القاهرة والجيزة، وارغموا الوالي على امتشاق السلاح . ودخل معهم في معركة في اللاهون يوم ٢٠/ ٧ على مقربة من الفيوم، وألحق بهم هزيمة بدرجة حسبوا معها أنهم كتبوا الفناء على أنفسهم . ولم يكن هذا كل الواقع . ولما كان لهم عدة رؤوس كالأفعوان، فإنهم لم يتأخروا عن الظهور ثانية مهددين ما وسعهم التهديد . عندئذ فكر رجل كافالا أن يقضي عليهم قضاءً نهائياً .

وفي أول يوم من آذار (مارس) عام ١٨١١، وبحجة الأفراح المقامة، على شرف طوسون الذي عيَّنه والده رئيساً للجيش المصري المسافر إلى شبه الجزيرة العربية، قرّر محمد علي أن يستجر إلى قلعة القاهرة نخبة القوى المملوكية، فيهم ٢٤ بك وأربعون من كُشافهم (وهم عملاء محليون)، محاطون بنحو ٤٠٠ رجل[٨]. وكان على رأسهم شاهين بك. وبطبيعة الحال، ولعدم وجود شهود رأوا ما جرى بأم أعينهم، فإن هذه الأرقام غير مؤكدة.

ولكن كيف جرى الكمين؟

إنه يمكن ترك النفس والخواطر على سجيتها، وتخيّل هؤلاء المماليك، يمرون بمهابة مع حاشية كبيرة بأروع ما لديهم من الثياب العريضة المصنوعة من الكشمير والحرير، والتي بدت وكأنها صُمِّمت كما ينبغي، لجعل المشي على القدمين، شيئاً شبه مستحيل، كما لو أنهم ولدوا ليكونوا هم وما يركبونه شيئاً واحداً. ودخلوا إلى الحصن من الباب الجديد، واستقبلوا خير استقبال من الباشا وبلاطه.. وقام لهم الباشا واستقبلهم ببشاشته المعهودة، وقدّم لهم مائدة، كان خلالها يتحدث، إلى العناصر الهامة منهم حديثاً شبه عائلي.

وفي هذه المرحلة نحن أمام فرضيتين: إذ يرى بعض المؤرخين، أن حفلة تسمية طوسون، يجب أن تتم في معسكر قبة العذاب وأن الأوامر أعطيت، وأن الموكب يتحرك باتجاه باب العذاب. ويرى آخرون أن الاحتفال وصل إلى آخره، وأن المماليك يُودِّعون مضيفهم مستأذنين بالانصراف. والحق أنه ليس لهذا من أهمية كبيرة. بل إن ما تبع ذلك هو الذي يبقى بمثابة الأمر الأساسي.

وتحرك الموكب، في نظام معيّن سلفاً، فحرس الباشا يتقدّم الجميع، ويتحرك المماليك بعده مباشرة. وعلى خطه يتحرك المماليك ووراءهم، فرقة ثانية لعلها كانت من عناصر الدلهي، تغلق المسيرة، مانعة كل رجوع إلى الوراء. ويمضي الموكب على طول مدرج الخروج الذي يهبط من الباب الوسطاني، وهو باب داخلي أساسي،

باتجاه باب العذاب، الذي ينفتح على ساحة الروملي. والطرق هنا ملتوية، ضيقة، ومنحدرة، فلا تفسح المحال إلا لثلاثة فرسان، بأن يتقدموا في الواجهة.

وكان الجنود الألبان، من أعلى الحصن، يراقبون المماليك الذين يتقدمون بصفوف متراصة تراصاً كبيراً، بحيث يستحيل عليهم أن يعودوا إلى الوراء.

وما إن اجتازت طليعة الباشا عتبة باب العذاب، حتى كان آخر المماليك يتركون باب السر، بصورة مدروسة تماماً، تجعل الكل يحشرون في المعبر. وفجأة انطلقت رمية مدفع. وانغلق الباب البرونزي المطل على باب العذاب في وجه شاهين ورجاله، على حين أن الباب الجديد والباب الوسطاني يدوران على محاورهما. وفي الواقع فإن الخمس مائة محارب يعلقون بالفخ. ومباشرة ينطلق الرصاص غزيراً عليهم، من أعالي الحصن. وتمت المجزرة في خليط من النار والدم.

وهناك أسطورة تدّعي أن مملوكياً واحداً هرب. وهو فيما يقال / أمين بك/ أخو الألفي. ويبدو أن بعض المشاغل الضرورية حالت دون وصوله في الوقت المناسب، ولما رأى الباب ينغلق على جماعته، وسمع لعلعة الرصاص، لوى رأس حصانه، واتجه إلى قرية البساتين، ومن هناك انتقل إلى سورية(٩). وهذه الرواية أدنى موثوقية وأقل شهرة من الرواية التالية، التي استعيدت على يد «العريف المصري»، في شهر نيسان، عام ١٨١١(١٠). وتبعاً لهذه الجريدة، يقال إن الرجل وُجدَ في أواخر الصفوف، في ذلك الاحتفال، وأنه ساق حصانه بأكبر سرعة داخل القلعة، يدور على نفسه« مذهولاً، ومحاولاً أن يجد مخرجاً. فلم يجد حوله إلا قمة الحصون التي تغرق في فراغ يرتفع حوالي الستين قدماً. ولكنه لم يتردد. ويقال إنه وخز حصانه وقفز إلى الهوة، على حساب حصانه، ولكنه وقع سليماً. تُرى أيكون هذا صحيحاً، أم هو أسطورة؟. ومع ذلك فإن الذين يطوفون بك في القلعة، يرونك المكان الذي تم منه القفز، قفز المملوكي العجيب، ويطلقون عليه اسم: قفزة المملوك»...

بيد أنه يقال: «إن شخصاً آخر قد ظل حياً، يطلق عليه اسم سليمان آغا، وهو مدين بحياته إلى الحيلة، إذ أنه رُحِّل من القلعة، مع بقية رفاقه الموتى. وعندما أخرج من القلعة، استطاع أن يهرب»(١١).

ولقد كتب أشياء كثيرة حول هذه الأمور وحول مشاعر وعواطف، يقال إنها أحدثت هزة عميقة في نفس نائب الملك.

ويروي Clot كلوت بيك - أن محمد علي أصيب بحالة عصبية شديدة تشير إلى اضطرابه. فقد كان يروح ويأتي بخطوات متقطعة، على كونه قد احتفظ بصمت مخيف. [...]، ولم تتمّ هذه المذبحة إلا بعد أن أثارت في نفس محمد علي هيجانات عنيفة [...]. وأصيب بعدها بموض عصبي لم يتركه أبداً». ويروي لنا Gouin أن وجهه قد تقلص عندما بدأ الرصاص يلعلع. [...] وكان هناك صمت مؤلم، انتهى عندما اقترب ماندريسي Mendrici من مواليد جنوا، الطبيب الشخصي للحاكم، وهو يهتف متألق الوجه، ويقول: إن الأمر قد انتهى! وها هو يوم عيد لسموّه. ولم يجب نائب الملك بشيء: إلا أن شفتيه، تغضنتا في بسمة احتقار، ورفع رأسه أمام الطبيب، وهو يلقي إليه بنظرة ملأى بالقسوة»... ويقول Puckler Muskau «إنه في لحظة التنفيذ، حبس نفسه في الديوان، بعد أن أبعد كل من كان فيه.. وبقي الباشا وحده. كان ممتقع الوجه، مضطرباً، صامتاً، ونظراته مثبتة، وكان قد رفع لفتّه Turban. وفي خضم انطلاق الرصاص، كان هيجانه من العمق بدرجة شعر فيها أن قلبه قد هبط منه، وطلب قليلاً من الماء. أما اللوحة المشهورة التي رسمها Horace Vernet فإنها تقدم لنا، محمد علي، جامد الوجه أمام المذبحة.

والحقيقة، إنه يبدو لنا أن من المحتمل، والمرجح، إذا نحن حسبنا حساب شخصيته، والأعمال الماضية لهذا الرجل، أن يكون قد احتفظ بكامل السيادة على نفسه. ولئن بدا عصبياً، فعلينا أن نعزو ذلك إلى التساؤل الوحيد الذي كان ينبغي أن يشغل باله، أي إلى أي حدّ نجحت العملية أو لم تنجح. أما رأيه هو، فإن هذه العملية، مهما تكن وحشية، يجب أن لا تكون إلا عملية عسكرية، بين عمليات

كثيرة أخرى. وأصلاً، فإن، الأمر لم يكن يعني إلا هذا. . كان الرجل يرسل جيشه إلى شبه الجزيرة العربية، وكان يعرف كل المعرفة، تلك الموارد الضخمة التي كان يملكها المماليك. ويعرف أيضاً تلك المزايا التي تجعل منهم، أمراء الحيلة والتآمر. . فكيف إذن يمكن أن يتصور الانطلاق أو الإقدام على حرب، من دون أن يصون قواعده الداخلية. ولو لم يقتل هؤلاء، إذن لعدّ عمله جنوناً تاماً.

أما أولئك الذين يستنكرون هذا العمل، فيجب أن نقول لهم: إنه كان يدخل، بصورة طبيعية، في الأعراف السياسية الشائعة في ذلك العصر، وتلك المنطقة. فالصدر الأعظم والقبطان باشا، فعلوا الشيء نفسه، في أبو قير والقاهرة، في شهر تشرين الأول عام ١٨٠١: وسيفعل السلطان محمود الثاني مثل هذا، ضد العساكر الانكشارية. في عام ١٨٢٧[١٢]، وفي شهر آذار (Mars) عام ١٧٩٩، وأمام جدران يافا، قام بونابرت بقتل ما يقرب من ٢٥٠٠ سجين[١٣]. دون أدنى اضطراب أو شفقة. وهل يجب أن نذكر كيف تخلص Philpe le bel من جماعة المعبد Les Templiers (أو الهيكليين)؟. وفيما يتعلق بالأعمال الكريهة والوحشية، يمكن أن نذكر أن القرن العشرين لم يوفر علينا فضائحه ووحشياته. والحق أن قائمة «السفالات» التي ارتكبت لمصلحة السلطة، قائمة لا نهاية لها. ولا وجود في بالوعة السياسة والحرب، إلا لقاعدة غالبة، هي إرواء طمع ما (ولا سيما طمع السلطة) مهما يكن الثمن الذي ندفعه لذلك.

ويقول شارل موري Charles Murray إذا نحن حاكمنا محمد علي، بعيون الأجانب، فسوف نقول إنه مجرم بجريمة كريهة، وبخبث لا مثيل له. وبالعكس، فإذا نحن حكمنا على أفعاله، من وجهة نظر مواطنيه، فلسوف نبرئه بلا عناء. . ويدقق الرجل أكثر عندما يقول: «إذا نحن نظرنا إلى الاتهام الموجّه إلى محمد علي، فسوف نقبل بلا عناء، أنه لم ينحرف عن أعراف عصره. وعندما يأتي سائح فرنسي ويلوم نائب الملك، على حقارته، فإنه سيسرع إلى مقارنته بقتل الدوق D'Enghien وسيخلص من ذلك إلى القول إن عمل نابليون كان أكره من جريمته هو».

إنه لم يكن هناك من مكان في مصر لسلطتين: وكان على واحدة منهما أن تزول. فإذا قبلنا ذلك، فإن الباشا لم يجد أي مجال للفخر، في عملية السلاح هذه. وعندما جاء الأمير Puckler Muskau وعبر لنائب الملك عن أسفه، بأن تاريخ بداياته ظل غامضاً، فما كان من نائب الملك إلا أن أجاب: «إنني لا أحب هذا القسم من حياتي. فبم يستفيد العالم من رواية هذه الخصومات والشقاءات والخبث، والدم المهدور الذي حتمته عليّ الظروف؟ إن تاريخي لا يبدأ إلا مع الفترة التي كنت فيها حراً من كل ضغط، واستطعت أن أنقذ هذه الأرض من نوم الأجيال».

ولم تكن مذبحة ١/ ٣/ ١٨١١، إلا مرحلة صيد المماليك المنظم في كل المدن وأكثر الأرياف. ولم يوق من ذلك إلا نساؤهم. أما وقد ضعف عددهم وحرموا رؤساءهم، فقد أصبحوا عاجزين عن القيام بأي دور سياسي أو عسكري، وسنجدهم بعد الآن في جيش محمد علي.

ومنذ الآن يستطيع نائب الملك أن ينطلق إلى حرب ضد الوهابيين بإلحاح شديد من قبل الباب العالي. وما دام قد سلم من كل تهديد داخلي، فما من حرج أن يضع نفسه في خدمة السلطان. وسيعمد إلى القيام بهذا الأمر، كمجرّد تابع جيد.

وهذا في كل الأحوال، هو الصورة التي سيقدّمها للسلطان العظيم.

-٧-

الفرعون والأصوليون

(١٨١١-١٨١٥)

أسس رجل يسمى ابن عبد الوهاب، في منتصف القرن الثامن عشر، عقيدة في قلب الجزيرة العربية، أطلق عليها بعد ذلك اسم الوهابية(١).

وكانت هذه العقيدة تدين كل ما استحدث على يد الخلفاء منذ العهد الأموي، ومن بعده، وتقف على تأويل أصولي واحد، لشريعة القرآن. وكانت تهدف إلى إقامة «إسلام» مطهرّ في جملة البلاد العربية، شبيه بذاك الذي عرف أيام النبي، وأتباعه (خلفائه) المباشرين.

وسرعان ما تنفرد هذه العقيدة بتطبيق حرفي للحدود المقرّرة في القرآن: كرجم النساء الزانيات، وقطع اليد اليسرى للسارقين أو السرّاقين. وينضاف إلى هذا منع الدخان، والموسيقى، والملهيات، وحمل الحلي، وبصورة عامة، تحريم كل ما يمكن أن يعتبر كتطور لآيات القرآن الكريم. وحتى اليوم، ما تزال هذه العقيدة ذلك العمود الأساسي الذي يستند إليه الحكم في المملكة السعودية.

ومنذ أن، برزت هذه العقيدة (التي تأنف الخضوع للسلطة العثمانية)، بطبيعة الحال، فإن النفوذ الديني للسلطان محمود الثاني، يتخلخل بسرعة. وفعلاً فإن هذا السلطان، من حيث هو كذلك، مضطر، في رأي المسلمين جميعاً، أو لنقل إن

من واجبه أن يضمن استمرارية الفروض المعروفة كالحج، والدفاع عن الأراضي المقدسة عند الإسلام. وهكذا فإنه أصبح شيئًا لا بد منه أن يحمي الأماكن المقدّسة لدى الإسلام والمسلمين. ومن واجبه (واجب السلطان) أي الباب العالي هنا، أن يدخل في معركة ضد هؤلاء المتمردين الذين ضوعفوا بلقب «المهرطقين» ويستعيد سلطته على المدن المقدسة.

ولكن لما كان السلطان مشغول الأيدي مع روسيا، فقد طلب منذ عام ١٨٠٧ حتى عام ١٨١١، أن يأمر محمد علي بالقيام مقامه في النضال الذي لا بدّ منه في شبه الجزيرة العربية.

ولئن كان السلطان قد منح رجل كافالا باشوية جدة، فذلك لأنه كان يرى في هذا التدبير وسيلة للتخلص منه أولاً، ثم ليقوم محمد علي بمهمة التخلص من هؤلاء الوهابيين، ولوضعهم أمام خصم برهن على كفاءة عسكرية وسياسية معًا. أما فيما بعد، فقد كانت أوامره تتكرّر، مرات ومرات، وذلك بسبب التطور المأسوي للموقف في الجزيرة العربية.

ولهذه الأسباب كلها التي أوضحناها أعلاه -أي ضعف السلطة الناشئة، ونقص العتاد الحربي، وقلة الأموال، والاضطرابات الداخلية -ظلّ محمد علي، يُؤجل الاستجابة لطلب السلطان، خشية أن يُرغم على الدخول في معركة بهذه الدرجة من الخطر. ولئن انتهى أخيرًا إلى القبول في أيلول من عام ١٨١١، فليس ذلك بالتأكيد بسبب ما لديه من حب الطاعة، والولاء. فمحمد علي، على ما برهن عليه ماضيه، ليس بذلك الرجل المستعد للتضحية باسم ما يسمى واجبًا، ذلك أن مصلحته الشخصية هي الغالبة دومًا. . ولئن قرّر أخيرًا هذه المغامرة، فذلك بعد تفكير طويل بالمكاسب التي يجنيها، من ورائها. . ولا شك أن واحدًا منها، والأهم حتمًا، هو اتصال معركته هذه بحلم الاستقلال الذي يداعبه سريًا. وهو يعرف أنه سيكون بحاجة إلى قوات عسكرية أكثر عددًا، وإلى مزيد من الثروة. فإذا اتسعت الطرق التجارية المصرية، كان ذلك وسيلة تتيح له الجمع بين هذين الإقتضاءين.

وموكا، مثل مسقط، تسلّح المراكب التي تجوب السواحل الإفريقية، على حين أن أساطيل حقيقية آتية من الهند، تصل في شهر مايس، لكي تعود فتسافر في تموز، محمّلة بكل أنواع الحبوب. وكلا المرفأين يملكان خمسين مركباً، يملكها صناعها الذين كثيراً ما يكونون أغنياء جداً. ولكن منذ أن وقعت الحجاز تحت سيطرة الوهابيين، فإن أية حمولة بحرية لم تعد تصل إلى السويس، مما جعل مصر مضطرة إلى التموّن بالقهوة من أميركا عن طريق مالطا.

وفي تموز من عام ١٨١١، ينقل دروفيتي إلى تاليران خبراً، خلاصته أنه في إحدى مقابلاته للباشا، سمعه يقول له، في حديث سرّي، من المفروض أن لا يطلع عليه أحد، أن له مشروعاً للمتاجرة في البحر الأحمر والأبيض المتوسط، وأنه يرغب في امتلاك سفن تجارية يمكنها أن تتمتع بالحياد، عندما يقوم صراع ما بين الأتراك وانكلترا[٢].

وبعد عدة أشهر، وفي شهر تشرين الثاني، وضع محمد علي، للوزير نجيب أفندي، فكرة، خبيثة، بشكل خاص: «ففي حالة قيام النزاع بين بريطانيا والدولة العثمانية، يستطيع الباب العالي أن يرفع محافظة مصر إلى مستوى الدولة المستقلة، على مثال الدول البربرية. عندئذ تستطيع مصر الباقية على حسن صلاتها مع إنجلترا، أن تقوم بتموين تركيا. . ومن جهة أخرى، فإن الأماكن الإسلامية المقدّسة تظل سليمة، دون أن يعرقلها شيء. فإذا انتهت الحرب، كان للسلطان دوماً حق استرداد مصر، وجعلها مجرد منطقة من مناطقه[٣].

ويلاحظ الإنسان كلّ ما في هذا الاقتراح من دهاء. ولكن الباب العالي يلاحظ ما فيه مما يثير الشكوك. ولهذا فإنه أصمّ أذنه عن الإصغاء إليه. ولكن هذا لا يستقيم أمره مع الوالي «محمد علي» الذي يحاول أن يدعم فكرة الحاجة إلى تهيئة حملة عسكرية، كبيرة، تحت قيادته الوحيدة، وتنطلق لا من مصر فقط، بل من سورية وبغداد. وبهذه الصورة يحسب الرجل أن في وسعه الاستيلاء، بضربة واحدة، وبلا عنف، على موارد هذه البلدان الثلاثة، وعلى قواها العسكرية[٤].

وهكذا فإن الرغبة في امتلاك سورية بدأت تساوره بقوة، وتستولي على عقله. ولكن استامبول تشم مرة أخرى، رائحة الفخ. وبعد عدة مراسلات بريدية، يقوم فيها كل فريق بنصب الفخ للآخر، ويلعب لعبة: «من يخسر يربح»، ويقرّر محمد علي تجهيز الحملة.

أما في أعماقه، فإنه يعرف سلفاً أن كل ما أبته عليه الديبلوماسية، فإنه سينتزعه يوماً ما بالقوة.

سفن، وأسلحة وبارود:

ولكن كان عليه قبل أن يغامر هذه المغامرة، أن يوفر لها المال، والكثير من المعونات. وكان عليه، في الحصول على مثل هذه الأموال، أن يخشى من الرأي العام. فيجمع الشيوخ والأعيان، وينتزع منهم بالغصب أو بالرضى على أربع وعشرين ألف بورصة. ومرة أخرى، يحاول أن يحصل من القبط على المال الكثير. ثم يقبض على المعلم غالي Ghali (وهو روم كاثوليك) خَلَف الجواهري وعلى أخيه، ويفرض عليهم (أو عليهما) ستة آلاف بورصة. وهذه بداية بسيطة، وعندما نزل إلى الشواطئ العربية نراه يفرض على تجار جدة، قرضاً إرغامياً قيمته ثلاثون ألف تالاريس Talaris.

وكانت مصر، في ذلك العهد، لا تملك أية صناعة حربية. لا ظلّ لأي معمل قادر على أن يقدّم له طبنجة (أي بندقية). وقرّر نائب الملك عندئذ أن ينشئ في الاسكندرية والقاهرة جزءاً من المعامل الضرورية.

ولكن يجب أيضاً أن يكون لدينا مدافع وبارود. فطلب نائب الملك من الآستانة خمساً وسبعين قدراً من النحاس من نظام ٩٧٢ أوقة Ocque[٥]. وهذه حجوم تتجاوز المألوف. ولكن أحد الصناع فكر في أن يسيّلها في قوالب بدلاً من أن يطرقها. وأرسلت أخيراً إلى مرفأ الاسكندرية على متن مراكب مصرية. منذ ذلك الحين كان التصنيع يمضي بسرعة فائقة، حتى أصبحت مصر واحداً من أهم من يقدّم السلاح للبحرية الامبراطورية ويمونها بالفتيل والحبالEn meches et filins. ولكن

هذا كله ليس بشيء إذا قيس بهذه المهارة التي يُمثلها إنشاء بحرية في هذا البحر الأحمر، الذي لم يكن فيه من هذا شيء، منذ قرون[٦].

وفي نفس الوقت الذي فكر فيه بالتدخل في الجزيرة العربية، لمح محمد علي ضرورة امتلاك أسطول محارب، أو أسطول للنقل، لضمان الاتصال مع الكتائب المعدّة للعمل، داخل البلد. فإذا نحن أرسلنا من حدود مصر، قوات فرسان، فإن هذه يمكنها أن تمضي في طريق الشاطئ، حتى تصل إلى مرافئ الوقوف، مثل يامبو وجدة. ومن هناك تمضي صعداً باتجاه المدن المقدسة. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة، بالنسبة إلى قوات المشاة. أما العتاد والتموين، فإن البحر يقوم بواجبهما. ولكن المرفأين اللذين تملكهما مصر، على الساحل، لا يملكان أي مركب. ثم إن سكان هاتين المدينتين الصغيرتين (يومئذ)، تنقصهما كل الموارد، والخشب خاصة. هنالك حَل واحد إذن، وهو نفسه الذي طمح الفرنسيون إلى الاستفادة منه، لدى وصولهم عام ١٧٩٨، إلى شواطئ البحر الأحمر، على حين أنهم كانوا يخططون لضمان اتصالهم الهند. إذ لقد قام المهندس فيرو Feraud، بأمر من بونابرت بإقامة مصنع في بولاق، يقوم فيه العمال بصناعة زوارق مدفعية، نقلت كأجزاء منفصلة، على ظهر الجمال حتى السويس، وهناك تمّ تجميعها. وهذا ما قرّر رجل كافالا أن يُكرّره. ولنقل هنا إن مصنع بولاق استعاد الحياة من جديد. وخلال عشرة أشهر، ومع أخشاب جيء بها، بالدرجة الأولى من الأناضول، وعمال جيء بهم من الاسكندرية أو من أوروبا، أمكن تركيب العناصر بعضها مع بعض، وإنشاء (أسيطيل) مؤلف من ثماني عشرة سفينة تتسع لمائة أو مائة وخمسين برميل[٧].

وقد أقامت السلطة، في السويس بحماية بعض التحصينات، ورشات للقيام بتركيب عناصر السفينة. وكان الشيء الأصعب من هذا هو تنظيم النقل الذي كان يجب أن يتم على ظهور الجمال. وقد استخدم لهذا الغرض ما هو في حدود العشرة آلاف حيوان، هلك منها عدة مئات بتأثير الثقل أو الوزن.

وعندما مضى الناس، كل هؤلاء الناس، إلى العمل، مسّت الحاجة إلى إعداد بحّارة من أي نوع كان، في الاسكندرية، وبحارة آخرين للسفر في نهر النيل. وحقاً فإن الأمر هنا لا يتعلق إلا بأسطيل مؤلف من مجرد زوارق مسلّحة. ولكن المهم هو أن يكون قادراً على سدّ حاجات الحملة المرسومة.

ومع ذلك فإن الجيش لا يتغذى بأسلحته. لا بد إذن من تموينه بالطعام والشراب، وهكذا أنشئت مستودعات في القصير، للقمح، كما أقاموا عنابر للمواد الغذائية في السويس.

وأخيراً، وفي بداية تشرين الأول ١٨١١، أرسلت حملة فيها ٨٠٠٠ رجل و٦٠٠٠ من المشاة وألفا فارس، وأبحروا. وكان طوسون الذي لم يكد يصل إلى الثامنة عشرة من عمره، هو قائد الحملة. وكان من الحكمة مع ذلك أن يضيف إليه أحمد، خزنداره، وهو رجل مجرّب، وشجاعته مشهورة، حتى إنهم لقّبوه في مصر بلقب بونابرت(٨).

فرعون، حارس الأماكن المقدسة:

كانت البدايات تعيسة، إذ بعد أن استولوا على مرفأ يامبو ومدينة Zouba، في كانون الثاني ١٨١٢، مضت قوات طوسون باتجاه «الحدود المقدسة» أي نحو المدينة. وكانت تنتظرها هناك هزيمة منكرة، ومذبحة عنيفة. وكانت الطريق إلى المدينة المقدّسة تتبع شعاب، «صُفرا» و«الجديدة»، الذي لا يتجاوز طوله ستة أميال، والضيق جداً في بعض الأحيان حتى لا يكاد يمر منه الجمل. وتقدم طوسون فيه ومعه رجاله، دون تبصّر. فإذا هو يفاجأ فوراً بمحاربين من بني حرب يهجمون عليه، ويرغمونه على التراجع إلى يامبو، مع بقايا جيشه. ومن حسن الحظ أن أعداءه لم يعرفوا كيف يستغلون نجاحهم. وبدلاً من أن يلاحقوه حتى المرفأ، اكتفوا بتعزيز معسكرهم، في قلعة المدينة، وبتسليم السكان واجب الدفاع عن مواقعهم في صفر Safral.

وعلى الرغم من أن محمد علي هُزَّ هزاً عنيفاً، بهذه الهزيمة، فإنه أسرع بإرسال النجدات إلى ابنه. ومهما يكن الأمر، فإنه استفاد من هذه الهزيمة: ذلك أن أكثر الجنود الذين قتلوا، في المعركة كانوا ألبانيين. وهكذا، وبصورة غير مقصودة، استطاع رجال سعود أن يُخلصوا مصر من عبء هؤلاء المرتزقة الكثيري الشغب.

وتمضي الأيام. وتُرشى القبائل الحامية للمضائق بكثرة ما أغدق عليهم من الأصفر الرنان، فما إن مضت الأيام الأولى من تشرين الأول ١٨١٢، حتى قام القائد الشاب بالهجوم عليها، وبدأ المعركة. وفي هذه المرّة، كان الحظ أكثر ابتساماً له.

وبعد أسبوعين من الحصار، استطاع طوسون الاستيلاء على المدينة، في كانون الأول عام ١٨١٢. وأعمل السيف في جزء من رجال المعسكر. وفي كانون الأول مضى طوسون إلى جدّة. وهناك في مضيق يصعب اجتيازه، اضطر الجيش إلى التوقفُ على يد وهابيين، تقودهم امرأة اسمها غالية من قبيلة بيغوم. ومن معركة إلى أخرى، هُزمت المرأة آخر الأمر. وعلى ذلك فإن طوسون يستطيع الآن الاستيلاء على جدّة. وفي كانون الثاني عام ١٨١٤ استولى مرة بعد مرة على مكة والطائف. ووصل خبر الاستيلاء على الأماكن المقدسة، إلى القاهرة، حوالي آخر هذا الشهر. ومن السهل أن تتخيّل كيف كان تأثير هذا النصر أو دويُّه عظيماً في مصر ثم في تركيا كلها، وفي العالم الإسلامي.

وقام إسماعيل، الولد الثالث لمحمد علي، بزيارة إلى الآستانة، برفقة لطيف بك، (الذي سوف نتحدث عنه)، لكي يحمل مفاتيح المدينة ومكة إلى السلطان. واستقبل السلطان الرجلين استقبالاً حافلاً جديراً بما حدث. وبدأت الهدايا تتكدس بعضها فوق بعض على قدمي اسماعيل. وفيها سيُوف، وخناجر ثمينة ورياش طُعّمت بالماس، كما قدّم لنائب الملك فروة وشالات من كشمير. وفي الوقت نفسه

يقوم مبعوث من الباب العالي بزيارة الاسكندرية، ليعبر لنائب الملك عن تهاني السلطان. وبصورة طبيعية جداً لُقب السلطان محمود الثاني بلقب الغازي كأنه يعزو لهمته شرف النصر.

وفي ٧/ ٧/ كان الميجر Misset الذي يستمر في استطلاع وقائع رجل كافالا وحركاته، يكتب لرؤسائه: «إن محمد علي حتى الآن كان يُعتبر إلى درجة ما، كمتمرّد في أوساط الباب العالي... وكان لقبه كباشا لا يكاد يعترف به، ولم يمنع الحكومة التركية من اتخاذ التدابير اللازمة لقلب سلطته في مصر، إلا ضعفها. وكان الباشا هو نفسه يعرف تماماً على أي قدم كان يعيش مع الباب العالي، وكان يشجعه أكثر فأكثر على تحدّيه. غير أن تغيراً كاملاً قد أثر تأثيراً كبيراً في وضعه. ذلك أن الاستيلاء على المدن المقدسة التي اغتصبها الوهابيون من قبل، قد قضى على الانطباع السيء الذي كان موجوداً ضدّه، وجعل الباشا عزيزاً على سلطانه[...].

«ولكني لا أستطيع الاعتقاد أنه أهمل تطلعاته في تنمية بلده وحبه للاستقلال»(٩).

وعلى كلّ حال فإنه على الرغم من هذه الانتصارات الهامة، فإن كل شيء يجب الاهتمام به. وحتى لو كان الحجاز قد خضع، إلا أن الوهابيين يظلون كثيري الجذور في شبه الجزيرة ولا يعترف سعود بأنه غُلب، ويقوم ابنه عبد الله بتنظيم كرّة على أعدائه. وفوق ذلك، فإن هذه الحملة الأولى قد كلفت محمد علي حياة ما هو أكثر من ثمانية آلاف من الناس، ومثل هذا العدد من الحيوانات، وأضعف صناديق الدولة بما يقدر ب ١٧٠ ألف بورصة.

ولما كان محمد علي قلقاً بلا ريب، ومدفوعاً بالحاجة إلى معرفة الوضع القائم معرفة صحيحة، ومعرفة الوسائل التي يمكن التسلح بها للقضاء على الحركة الوهابية قضاءً مبرما، فقد قرّر أن يمضي هو نفسه إلى الجزيرة العربية وقبل أن يبحر سلّم حكومة القاهرة إلى رجله الموثوق محمد لازوغلو، ومصر العليا إلى ابنه إبراهيم، ومصر الدنيا إلى أخي زوجته حسين بك(١٠).

وفي يوم ٢٨ آب (٢٨/٨) نجده يركب البحر مع ما يقرب من ستين شخصاً من أتباعه وحوالي ألفين من الجنود المشاة، على حين أن هناك حوالي ألف فارس وثمان مئة ألف جمل تحرّكت على الأرض.

ويصل إلى جدة خلال شهر أيلول. ومن هناك يمضي إلى مكة فيدخلها دخولاً رسمياً مهيباً يوم ٦/ ١٠ وسرعان ما جاءه الكثيرون من البدو، من بينهم الشريف غالب، الرجل القوي لسعود، فيقدّمون له الاعتذار، وينضمون إلى صفوفه. وبهذه المناسبة، فإن الدعم الذي عبّر عنه غالب لم يكن عفوياً ولا مخلصاً، إذ إن الشيء الأساسي لوارداته كانت تأتي من الضرائب الجمركية التي تدفع في مرفأ جدة ولكن منذ بداية الحملة، وكانت هذه الضرائب قد بلغت حدّها الأدنى. وفي مراسلة سرّية نجد محمد علي يتعهد بضمان الأمن في المنطقة، وبالتالي عودة التجارة إلى المرفأ. وهذه عوامل تجعل الشريف مطمئناً إلى عودة الازدهار، وسرعان ما انكشف أن هذا الشريف غالب حليف خطر ولا تفوته أية فرصة لخيانة سيّده الجديد، فيقوم محمد علي بالقبض عليه، ويرسله مع أطفاله الثلاثة إلى مصر، وفي وقت لاحق نفي الرجل إلى سالونيك ومات فيها»(١١).

وحيثما يذهب رجل كافالا، نراه لا يتردد في توزيع الذهب والفرو على أولئك الذين ينضمّون إليه. وفي الوقت نفسه نراه يقرّر تخفيف الضرائب ويساعد المعدمين ويزيد في إبراز براهينه على ما لديه هو من إنصاف وكرم.

أما الأسابيع التالية فإنه يخصّصها لتهيئة الحملة العسكرية الجديدة. وفي تلك الأثناء وخلال شهر مايس عام ١٨١٤ يموت سعود فجأة، ويموت معه أشد الناس حماسة للدفاع عن المذهب الوهابي. ومن أغرب الأشياء أن يموت الألفي والبرديسي في الوقت المناسب له سابقاً. وها هي القصة تستعاد مرة ثالثة ويقدم الموت عونه. ذلك أن عبد الله الابن الأكبر لسعود، لم يرث منه لا فنّ الحكم، ولا استعداده للدفاع عن المصالح السياسية لقبائل الصحراء. ويجد محمد علي أمامه خصماً كثير التردد وشديد الضعف بحيث لا يستطيع أن يحمل المشعل الوهابي.

وفي تشرين الثاني من هذه السنة نفسها كان يعود موسم الحج. أما مكة التي طال الوقت على من يريد زيارتها، بسبب خضوعها للوهابيين، فقد عادت من جديد مفتوحة للحجاج: وفي هذه المرة جاءها الكثيرون وقدّر بعض المؤرخين لحياة محمد علي الذي كان بينهم Driault و Gouin عدد الحجاج بثمانين ألف حاج.

وقامت أمينة هانم زوجة محمد علي بهذه الزيارة. ويعلمنا الجبرتي بأن المرافقة حتى السويس، كانت تشتمل على ابنيها إسماعيل وإبراهيم، وصهريهما، وكان أحدهما زوج Tehwide توحيدة، محمد بك الدفتر دار، الشخصية التي اشتهرت بسوء السمعة. وما أن وصلت إلى السويس حتى فوجئت بشكاوى الحجاج المختلفي الأقطار من المبلغ الكبير الذي فرضه عليهم حاكم المدينة كتكاليف الرحلة، (أي ٢٥ تالاريس)، وصرّحت أمينة مباشرة، أنها تلغي رحلتها إذا لم يرافقها فيها كل الحجاج الموجودين في السويس ليحجّوا معها وحدّدت هي نفسها المبلغ الذي يجب دفعه من كل واحد منهم، لكن القصة تؤكد المزايا والشخصية الاستثنائية لهذه الإمرأة، ويفهم كل إنسان تعلُّق محمد علي بها واحترامه الذي لا يعرف الوهن. ويقول Driault الذي يصف وصولها إلى جدّة وصفاً كثير التفاصيل، أن الفخفخة التي كانت ترافق رحلتها بلغت ما يجعل (سميراميس سابقاً لا تسعد بأكثر منها).

وفي بداية العام ١٨١٥ بدأت الحملة من جديد، وفي هذه المرة كان نائب الملك شخصياً يقود جيشه ويمضي معه إلى الهدف التالي أي مدينة Taraba.

وفي اليوم السابع من كانون الثاني يتقدم الجيش سائراً نحو Kolath. وفي العشرين من الشهر نفسه نجده يطل على بيزيل Bisel، التي ينتظره فيها أكبر حشد للقوات المعادية. كان هناك ما يقرب من ثلاثين ألف محارب اتخذوا مواقعهم على طول جنبات الجبال التي تطل على السهول. ويمكن القول من الوجهة النظرية، إن عدم التوازن في القوى، ينبغي أن يضمن النصر للمعسكر الوهابي، وهذا من غير النظر إلى عنصر له وزنه: فعلى خلاف الفرق المصرية التركية، لم يكن رجال عبد الله يملكون المدافع، وأكثر من ذلك، أن هؤلاء الأخيرين يرتكبون الخطأ الاستراتيجي

المشؤوم عندما تخلوا عن المرتفعات حيث يكونون في مأمن مناسب ربما كان من الصعب اختراقه. وعلى الرغم من أن عبد اللّه لا يسعه أن يجهل هذا فإنه قد خفض رأسه وقدّمه إلى الفخ الذي أعدّه له محمد علي.

وبعد أن تظاهر نائب الملك بأنه يقوم بالهجوم، عاد فأمر بأن يتراجع الجيش بعض الشيء ولم يتردد عبد اللّه، بل إنه انطلق لملاحقته، متخلياً في الوقت نفسه عن موقعه المتميز. وما إن بلغ السهل حيث تكمن فرقة الفرسان المصرية وتقف له بالمرصاد حتى انقضّت عليه، ويا لها من مجزرة.

وهكذا، فإن الباشا إذ حارب وهو في الصف الأول، انتزع نصراً رئيسياً ينضاف إلى تلك التي انتزعها من الإنكليز قبل عدة سنوات. ومنذ ذلك الحين ازدادت مهابة جيشه لا في المنطقة نفسها فحسب، بل في جميع أرجاء الأبيض المتوسط. وعندما ازداد عزما بنصره هذا، بدأ يستولي ضربة بعد ضربة على كل مدن ترابا (أو طراباً) وبيشا القائمة شرق جبال اليمن وأسرعت القبائل في تلك المنطقة لتعلن له ولاءها. ثم إنه توقف بعض الشيء في كو نفودا Konvoda، وعاد من جديد إلى مكة حيث وصل في ٢١ آذار عام ١٨١٥.

وأرغم عبد اللّه عندئذٍ بالتوقيع مع طوسون على معاهدة صلح تمنعه من أي تدخل في مشاكل الحجاز.

دسائس الباب العالي:

وكانت هذه ضربة حاسمة تتلقاها الوهابية، ولكنها لم تمت. فعلى مثال الأفعوان ذي التسعة رؤوس المملوكي، فسوف تولد من جديد من رمادها. فطوسون ما يزال في بداية شبابه. وكان ينبغي أن يقوم محارب من نوع محمد علي ليكلّف بمتابعة القتال. وهذا الرجل الذي يقع عليه الاختيار هو إبراهيم، الابن الأكبر للباشا. وبهذه المناسبة نقول إن هناك تقليداً عربياً يذكر أن نائب الملك جمع قبل أن يبدأ حملته، كل وزراء البلد وجنرالاته (ألويته) كي يتناقشوا فيما بينهم حول الوسائل التي ينبغي الأخذ بها. وبعد أن أوضح لهم مقاصده أراهم محمد علي تفاحةً وضعها في وسطِ سجادةٍ مُدّت في القاعة. وسألهم «أي واحد يأتيني بهذه

التفاحة، من غير أن يضع رجله على السجادة، فإنه سيكون قائد هذه الحملة. وقام كل واحد بدوره بالتجربة، وهو متمدّد على الأرض، واليد ممدودة. أيضاً فلم يفز أحد منهم بطائل. وعندئذ وبناءً على دعوة نائب الملك، جاء إبراهيم بدوره ليجرّب حظه. ولما كان قصير القامة فإن أحداً لم يشك بإخفاقه. أما هو فقد بقي غير مبال بالسخريات وكفَّ بهدوء، تلك السجادة، حتى أصبحت التفاحة في متناول يده. فتناولها عندئذ ووضعها بين يدي محمد علي.

لا شك أن صحة هذه الحكاية مشكوك فيها، كما يقول الكشاف Ex-plorateur والديبلوماسي الانجليزي بالغراف Palgrave[١٢]. ولكنها مع ذلك تعكس طبيعة الصعوبات التي ينبغي تجاوزها، إذ أراد الإنسان أن يستولي على هذه المنطقة: «كان ينبغي أن تلف السجادة العربية، بأناة، وبحسٍ حادٍّ لما يسمى بالاستراتيجية: أي عليه أن يضمن أمن المواصلات قبل أن يتسلّل إلى أعماق الجزيرة العربية».

وعندما انتهت مشاركته في الحرب، ضدّ الوهابيين، قرّر أن يعود إلى مصر، بعد حدوث أمرين معاً في القاهرة وفي أوروبا.

فمن جهة أولى، انتشرت إشاعة قيل إنها وصلت حتى Yambo، خلاصتها أنه حدث تمرّد دبرّه الباب العالي، في العاصمة المصرية؛ ومن جهة أخرى، علم أن الإمبراطور نابوليون غادر جزيرة Elbe، وعاد إلى فرنسا. وقد زعم عددٌ من المؤرخين، أن هذين الحادثين، هما سبب العودة المفاجئة، للباشا. لكن هذه الحجة لا تستقيم. ولنأخذ النقطة الأولى، أي «الانقلاب» الذي كان على وشك أن يتم في القاهرة. وتعود هذه القصّة إلى نهاية عام ١٨١٣، مع لطيف بك، ذلك الشخص الذي استُقبل، بكل الفخامة، في العاصمة التركية بصحبة اسماعيل. وهو مملوك من أصل جورجي. ولقد كان في البداية ملكاً لواحد اسمه عارف بك. وهذا بدوره قدّمه لمحمد علي. ولما كان هذا قد أحبّه أصدق الحب، على ما يخبرنا بأمره،

الجبرتي، فإنه سرَّع تقدّمه في المناصب، ثم إن لطيف بك سُمِّي من قبل محمد علي مرافقـاً لابنه إسماعيل، دونما شك من نائب الملك في أن قيامه بهذه المهمة تجاه الصدر الأعظم، سيكون مناسبة لتلقي جائزة شرفية منه. ولم يخطئ في هذا، ذلك أن لطيف حصل على مرتبة الباشا. وهناك مؤرخون مثل روني وجورج قطاوي Cattaui يقولون إن السلطان طلب منه أن يستفيد من غياب محمد علي لكي يدبِّر مؤامرة لإحداث انقلاب. بل إنهم يضيفون إلى ذلك أن المملوك سيكون بحوزته فرمان سري بتعيينه والياً كبديل عن رجل كافالا. وليس في حوزتنا أية وثيقة يمكن أن تحملنا على تصديق هذه النظرية. وبالمقابل، إذا نحن اعتمدنا على ما يرويه الجبرتي - فإنه يقال إن الرجل منذ عودته من استنبول، وحمله لقب الباشا، أصبح عظيم التكبر، كثير الإدعاء، وانتهى إلى أن تكرهه أكثرية رجال الإدارة المصرية، وخاصة محمد لازوغلو كتخدا[١٣] نائب الملك والعدو الكبير لكل ما هو مماليك[١٤]. وكان هذا مكلفاً بمراقبة لطيف بك الذي أعماه الزهو بنفسه، والمقتنع بأن محمد علي لن يعود أبداً حياً من الجزيرة العربية. وتهيأ لقلب الحكم، فأسرع لازوغلو الذي أخبر بالمؤامرة، والذي أسعده كل الإسعاد أن يتخلص من المملوك، أسرع وجمع حوله أعلى المسؤولين، وأجمعوا كلهم وقرّروا إنهاء لطيف بك. فبحثوا عنه واكتشفوا المكان الذي اختبأ به، وأوقف الرجل، واعتبر مسؤولاً متّهماً ثم جرّ حتى أسفل درج بيته، وضرب بعض الضربات، ولما رأوه ما يزال يقاوم، قطعوا رأسه كما يقطع رأس العنزة»[١٥]. وعلى ذلك فإننا لا نفهم بأية صورة حفز هذا الحادث محمد علي باشا بعد سنة كاملة مما حدث، أن يقرّر العودة إلى مصر بأكبر سرعة».

وبهذه المناسبة نقول إن جول بلانا Jules planat ضابط المدفعية القديم في الحرس الإمبراطوري، والذي سيصبح في المستقبل رئيس الأركان (١٨٢٤-١٨٢٩) لمحمد علي رسم صورة رائعة للازوغلو إذ قال: «هو رجل سياسي رقيق، ووزير عادل ومخيف، وهو يجمع بين هاتين السمتين للرجل الماهر في القضايا العليا، فضلاً عن اتساع حيلته في وسائل التنفيذ. ولما كان مخلصاً كل الإخلاص

لسيده، فإنه كثيراً ما وضع راتبه الشخصي تحت تصرف الخزينة. وخلّص الباشا ومصر طبعاً من بواقي المماليك. وكل هذه الأحداث أمور معروفة. ثم إن ذراعه القوية والمخيفة كثيراً ما دعمت أو حملت عبء الصولجان. إنه يحب الصراحة عندما تأتي المناسبة ومن أجل الخير. ويعرف كيف يتلاءم مع الجهل الوطني. ولقد قال يوماً لضباطه: انظروا إلى لحيتي البيضاء المحاطة بكل الاحترام والتقدير. إنها لحية رأس مسحورة بمبادئ خاطئة، وبهذه المستبقات غُمر الوطن دوماً بالظلام والبربرية. فعندما أرى أن الروس قد وصلوا إلى درجة عالية من التقدم على كونهم محرومين من كل الوسائل التي تساعد على النجاح، وأنه كان عليهم أن يفعلوا كل شيء وأن يحاربوا كل شيء، أقول كيف يمكننا أن لا تحمرّ وجوهنا خجلاً من أن نجد أنفسنا دون كل الشعوب المتأخرة جداً، على الرغم من أن لدينا دولاً كبيرة، وأن في وسعنا أن نغطي المتوسط بثرواتنا ونحتل أجمل المواقع العسكرية والتجارية»(١٦).

ولنمض من هنا إلى النقطة الثانية، وهي عودة بونابرت إلى فرنسا. ولقد أكد لنا أن نائب الملك كان مقتنعاً أن الإمبراطور لم يعدل مطلقاً عن فتح مصر. وعلى فرض أن الخبر كان يمكن أن ينتشر داخل البلاد العربية- بعد أن نحسب حساب بطء وسائل الإعلام في ذلك الحين -فإنه كان على محمد علي، الغني بتجربته السياسية، أن يعرف أن المنفي العظيم لا بد أن يكون له شيء آخر (أو اهتمامات أخرى) لدى عودته إلى فرنسا، غير الضياع في طبعة ثانية لحملة مصر. وجاءت بعد ذلك واترلو لتبرهن على صحة ما نقول.

وبالمقابل، فإن عودة محمد علي إلى مصر، يمكن أن تُفسّر بصورة أكثر معقولية برغبته في أخذ أمور دولته الناشئة على عاتقه، وبحذره الدائم من الباب العالي. وهو يعرف جيداً أن كل عمله (منجزاته) يمكن، بين يوم وآخر، أن ينهار في بضعة أيام عن طريق مؤامرات السادة الأتراك. وكبرهان على ما نقول، نشير إلى أنه في الأيام القليلة السابقة لعودة الباشا إلى القاهرة كتب Misset رسالة بتاريخ ٥/ ٦/ ١٨١٥ ما يلي: إن هذه الحكومة تقوم، هذه الأيام، بكل الجهود بغية وضع

البلد في وضع المدافع عن نفسه، بحكم الخبر الذي تلقته من مصادر مختلفة والذي يقول: إن التسلح الذي يتعهده الباب العالي والذي كان في طريقه إلى الانتظام، تحت إدارة القبطان باشا، تمّ ويتم لإعادة الاستيلاءعلى مصر باسم السلطان».

والشيء الذي يبرهن جيداً على القاهرة أنه في اللحظة التي كان فيها محمد علي يتخبط في الشبكة الوهابية لحساب الباب العالي، كان هذا الأخير يفكر في الطريقة التي يُحطِّمه فيها. وحقاً فإنه سيعيش طول حياته في الخوف من أن يحال ما بينه وبين ما يملكه، سواء أتم ذلك على يد السادة الأتراك أم تم على يد البريطانيين.

وفي ١٩/ ٦/ ١٨١٥ يدخل محمد علي القاهرة دخلة ملأى بزهو المنتصر. وفي الحين الذي تحتفل به العاصمة المصرية بأمجاد المنتصر، كان على بعد آلاف الأميال بونابرتيون يحملون الحزن والأسى. والحق أن بونابرت معبود نائب الملك سيشهد انطفاء آخر أحلامه في سهل واترلو.

أما طوسون فإنه يلتحق بأبيه في شهر تشرين الثاني (نوفمبر). وبعد أن تلقى من الشعب ما يستحقه من التمجيد، أسرع لدخول بيته بغية أن يضم بين ذراعيه ابنه عباس، الذي ولد قبل سنتين من غيابه.

ومنذ ذلك الحين، صار رجل كافالا في عيون العالم الإسلامي، ذلك المنقذ للمدن المقدسة للإسلام، أي ذلك الذي مكّن الناس من الشخوص إلى هذه المدن، والقيام بفروض الحج، كما استطاع كبح أو دفع هذه الهرطقة التي إن لم يكن قد قضى عليها، فإنه على الأقل حدّ من قواها وصغّر من شأنها. أما مهابته الشخصية التي ارتفعت في عيون الناس، فإنها ستساعد على تمتين حكمه في مصر، وزيادة وزنه لدى الباب العالي. وآخر نتيجة، على أنها ليست بالأقل شأناً، هي أن المعركة مع الوهابيين نشّطت القوة العسكرية المصرية، الفتية، بالإضافة إلى أنها خلصتها من عناصرها الألبانية، أي من الفئة التي كانت تثير الاضطراب باستمرار.

وعلى الرغم من الانتصارات التي فاز بها ضد الوهابيين، فإن الحرب ظلّت بعيدة عن الانتهاء. وكان على إبراهيم فيما بعد أن يجابه عدواً كلما مات، عادت إليه

الحياة من رماده. وستطول هذه الحرب مدة غير متوقعة، مسبّبة خسائر مستمرة في الرجال والسلاح والعتاد. وستصبح بالنسبة إلى مصر شبيهة بحربها في اليمن عام ١٩٦٢-١٩٦٣ وبحرب ڤيتنام بالنسبة إلى الولايات المتحدة أو بحرب أفغانستان بالنسبة إلى الاتحاد السوڤييتي.

-٨-

ابــن فرعــون

(١٨١٦-١٨١٩)

وعندما أبحر إبراهيم للوصول إلى شبه الجزيرة العربية يوم ٢٣/ ٩/ ١٨١٦ كان عمره قد بلغ السابعة والعشرين تماماً .

ومنذ بعض الوقت، كان اللواء الجديد يقضم لجامه في عجلته إلى بلوغ الأمجاد. فخلال المعارك التي خاضها ضد المماليك في مصر العليا، وخلال حكمه لمقاطعاتها، برهن أكبر البرهان على كفاءاته كمحارب ومنظم .

وكانت واحدة من مصاعب هذه الحملة التي تنتظره، تقوم على نوع الإدارة السياسية للحرب وعلى نوع الإدارة العسكرية. والقضية هنا هي اجتياز صحراء طولها ثمانمئة كيلو متر، أي هي المسافة التي تفصل المدينة عن الدرعية، التي هي المدينة الأهم في بلاد الوهابيين، وهذا إن لم نحسب المسافة الفاصلة بين المدينة ومصر، ولم نحسب مراكز التموين .

وهذه الصحراء الواسعة، التي تمثل دفاعاً طبيعياً، صحراء تجوبها بانتظام، قبائل يكره بعضها بعضاً، ألِفت خوض حروب المناوشات التي تلغم قوى الخصوم وتستنفدها، قبل أن يتاح لها الوقت للوصول إلى الهضبة الداخلية. ويكتب M.Roussel إلى الدوق ريشليو رسالة جاء فيها : «إنهم يرسلون دوماً قوات عسكرية إلى الجزيرة العربية وهذه الحرب تشبه «أفعوان ليرن» Hydre de Lerne

الذي يموت ويحيا باستمرار . ولا يحاول الوهابيون إلا مناوشة أعدائهم ويتجنبون الوصول إلى التماسك بالأيدي . وهم يركبون الجمل أربعة فأربعة ومعهم في كل جمل كيسان من الجلد ، في أحدهما الطحين المعجون بالماء ، وفي الثاني ماء . وفي هذا القليل من المؤونة يقفون في المعركة ثمانية أيام . أما الجيش التركي المؤلف من سبعة آلاف رجل فإنه بحاجة إلى أربعين ألف جمل ، يقتل منهم الزحار عدداً كبيراً مما لا يبدو واضحاً ، بالنظر إلى الإمدادات المتتابعة التي يرسلها نائب الملك»[1] .

وهنا نلاحظ شدة تعقيد المشكلة التي ينطلق إليها إبراهيم . وقد دعمه أبوه بمستشار عسكري هو ضابط فرنسي اسمه الكابتن Vaissiere أحد الناجين من حروب الإمبراطورية . وكان قد وصل إلى مصر عام[2] ١٨١٤ . ويضيع Vaissiere بوصلته وبعض الأدوات الرياضية ، منذ الساعات الأولى للحملة دون أن يمنعه ذلك من الاتصال مع ممثلي فرنسا إعلامياً فيما يتصل بتطور العمليات وبالطريق التي تتبع فيها[3] . وهو شخص غامض بعض الشيء ، غير أنه من الذين نجوا من الحكومة الملكية بعد انتهاء عهد نابليون دون أن يُعرف عنه عملياً أي شيء ، إن لم يكن ما يقال لنا في الهوية الشخصية التي وجدها Gabriel Guemard عن طريق بلدية Cas-tres عام ١٩٣٠ وهو رجل يدعى جوزيف ، فرانسوا ماري فيسيير Joseplh Fran-cois Marie Vaissiere ويبدو أنه ولد في Castres يوم ٢/ شباط/ ١٧٨٦ (وقد سجلت ولادته باسم Bessiere لا باسم Vaissiere) وفي عام ١٨٠٦ مثُل المسمى أعلاه أمام لجنة إعادة النظر ، ووضع في إطار من هو مصاب بقصر النظر ، (أي أنه استبعد من الخدمة) وفي هذا التاريخ ، كان طالباً وابناً لفرنسيس وكاشين ماري انطوانيت . ومن هذا الحين حتى عام ١٨٣٦ لم يعرف له من أثر . ولكني أجد في هذا التاريخ حكماً يأمر بتصحيح السجلات المدنية لرجل اسمه ، Joseph Francois Marie Vaissiere يعمل كضابط في القاهرة[. .] ومن سوء الحظ أن كل أثر له قد ضاع في هذا الوقت ولم أجد أي خبر عن وفاته . . ثم إن الرسالة التالية المرسلة بطريق Mimaut إلى وزير الشؤون الخارجية في ٣/ مارس ١٨٣٥ احتوت النص

التـالي: «لقـد أنهـيت قـضـيـة» بأحسن الصـور حظـاً، هي إنقـاذ تاجـر فـرنسـي من الإفلاس الذي كان يُهدده. واسم هذا التاجر Vaissiere وهو ضابط قديم قام بعد أن خدم الباشا بشجاعته ومواهبه العسكرية في الحرب ضد الوهابيين، بأعمال تجارية منذ بضع سنين. وخلال إقامة دامت ثلاث سنوات في الحبشة، جمع كمية كبيرة من قهوة هذا البلد، شحنها إلى مصر لكي يبيعها هناك أو ليرسلها إلى أوروبا، طمعـاً منه بأن يجـد طريقـاً أخـرى للتـجـارة. وبدلاً من أن يتلقى من الحكومـة المصـرية الرعـاية والجـوائز على مـا كـان عليـه أن يتـوقـعـه [...] هُدد بحكم روح الحـصـر والجـبـاية الضريبية، بفقدان قيمة هذه البضاعة كلها. وكانوا يريدون أن يفرضوا عليه غرامة توازي المصادرة. فحملت شكواه، مباشرة، إلى الباشا وثنيّت بشكوى مماثلة إلى يد السيد Boghos، الذي يجب أن أعترف بأنه خدمني في هذه المناسبة، مع كثير من الإرادة الطيبة، فحصلت على أمر بتسليم السيد فيسيير كل هذه القهوة أو جزءاً منها، بعملية بسيطة هي ضريبة بسيطة على الترانزيت (انتقال القهوة من مكان إلى آخر عن طريق بلد ثالث).

وكان إبراهيم قبل أن يترك القاهرة يحاول أن يفهم أسباب إخفاق طوسون الذي سبقه. وكانت أكثرية التعليقات تجمع على القول: إن أحد الأسباب الأساسية ينشأ عن الشروط الصحية السيئة أو الناقصة. وهكذا قرّر أن ينظّم إدارة صحية، زُوّدت بأكمل ما يمكن من وسائل العصر، ووضعها تحت إدارة الجراح الإيطالي الدكتور انطونيو سكوتو، وأضاف إليه ثلاثة أطباء، إيطاليين أيضاً، كمساعدين أساسيين وهم: جانتيلي Gentili تيديسكي Tedeschi وسوسيو Socio.

وفي المرحلة الأولى، نجد إبراهيم يتبع نفس الطريق الذي سبقه أخوه إليه. وكان على رأس هذا الجيش الذي يناهز السبعة آلاف رجل مدعومين بخمسة مدافع عيار ١٢ وبعض مدافع الهاون ومدفعين صغيرين تسير قنابلهما في خط منحن. وترك يامبو في ٩/ ١٠/ ١٨١٦ باتجاه المدينة مروراً بالحديدة. ويغادر المدينة ليصل إلى Henakieh التي يقيم فيها معسكره العام.

أما في القاهرة فإن حدثاً مربعاً أصاب محمد علي. ولا شك أنه جرح به أكبر جرح بالنسبة إلى كل الأحداث التي مرّت به في الماضي. ذلك الحدث هو الموت المفاجئ لابنه الذي يحبه أكبر الحب، أي طوسون، وهو في مقرّه العام في دمنهور. ولم يكن له من العمر إلا ثلاث وعشرون سنة.

ومن الناس من قال إنه أصيب بالطاعون بين يدي آمة يونانية. ويؤكد Gouin إن السبب الحقيقي لموته كان الإفراط في اللذائذ، في ليلة حب بين ذراعي إحدى الجورجيات الساخنات أو الحارّات. وهذا تفسير يصعب أن نصدقه. ويروي ج. مارسيل أيضاً أن أحداً لم يجرؤ على إبلاغ هذه المصيبة للباشا. ولهذا وُضع الجسد الميت في نعش مفتوح أدخل إلى القصر ليلاً ووضع على باب جناح النسوة. وعندما خرج محمد علي في الصباح من هذا الجناح، تعرف على ابنه وصرخ صرخة كبيرة، وارتمى على الجثة، وضمها إلى صدره مدة طويلة، ثم إنه انعزل في قصره وبقي وحده عدة أيام رافضاً النظر في القضايا العامة(٤).

وهناك رؤى كثيرة، اقترحت حول أسباب هذا الموت المفاجئ وظروفه. بل إن من الباحثين من قال بفرضية القتل. وقيل أيضاً إن إبراهيم عندما علم بموت أخيه، لم يبد ما يشير إلى الحزن أو إلى التعاطف بسبب عداء كان قائماً بين الرجلين. وهذه فرضية ليس في يدنا أية وثيقة جديرة للتأكد منها. ومهما تختلف الإشاعات، فإن الروايات كلها تتفق في وصف الحزن الكبير الذي شعر به محمد علي والتعاطف الذي أبداه الشعب الصغير والقوات العسكرية نحو طوسون. وكان يقال: «لو أن بخيلاً مسّ فقط كف طوسون، فإن بخله سينقلب على الفور كرماً بلا حدود».

وتم تشييع الجنازة بالفخامة التي يتخيلها الإنسان بسهولة في مثل هذه الظروف، فقد صحب الفقيد كبار رجال الجيش ووجهاء البلد وأبناء الشعب جملة، على حين أن محمد علي تبع ماشياً على قدميه، خطوة فخطوة، وراء نعش ابنه، حتى مكان الدفن.

ويخبر Roussel، الدوق دوريشليو بالحادث، فيقول في رسالته: إن سيدي طوسون باشا، ابن محمد علي، المعروف بفتحه مكة، مات في معسكره في دمنهور. وكان ذلك مصيبة كبرى لأبيه، كان مخوفاً وعزيزاً جداً لدى الجنود(٥).

أما في البلاد العربية التي سادها المذهب الوهابي، فإن الحرب تهزأ أكبر الهزء من موت أمير. وعلى أخيه إبراهيم أن يتابع المهام التي بدأ بحلها المرحوم أخوه.

البساط العربي:

إن الوصف المفصَّل لثلاث سنوات من الحرب لن يكون مسلياً. أما من ناحية الخطوط الكبرى، فإنها خليط من الهجمات المبعثرة، والمحاصرات والاستيلاء على المدن، في حين أن إبراهيم يبذل أقصى الجهد لدفع العرب إلى التمزق والتفرقة. أما النصائح التي يسديها محمد علي، لابنه فإنها تلخص في كلمات قليلة: عِدْ بالذهب والغنائم أولئك الرؤساء البخلاء أو الجشعين، وعد الأكثر طمعاً بمنحهم حق الحكم في المحافظات التي ستستولي عليها، أو حاول أن تفرق عناصر الحزمة الوهابية وأن تغري البدو بسكان القرى والمدن. وأخيراً استولِ على الدرعية، الحصن الاستراتيجي للجميع.

ولئن كان إبراهيم يشارك أباه في الشيء الأساسي من هذه النصائح إلا أنه يرى أن لديه ما هو أنجع من استعداء البدو على السكان المقيمين في قراهم أو مدنهم. وتقوم هذه الطريقة على ما يلي: الإخافة والتحبيب، ومعاقبة المجرمين، وجعلهم يشعرون أينما كانوا بسلطان غالبهم. وهكذا فإنه كان يحسن لقاء المشايخ، ويعطيهم الأمان على أن لا يطلب منهم أي غرامة، وعدم ممارسة أي صورة من صور الإزعاج المعهودة أو المعروفة عند سعود. والدفع المباشر لقيمة ما يقدّمونه لجنده. ونراه يوزع فروات الشرف، ويقدم الهدايا، ويعطي الأمان أو العفو عن الجميع. وبهذه الصورة فإنه ينجح في خلق حالة ذهنية ملائمة للغايات المصرية، لأنها تثير وضع «التخلي» عن المبدأ، لدى عدد غير قليل من الناس الذين يكرهون السلطة الاستبدادية والطائفية لدى رئيس الوهابيين.

ولكن هذه الحملة تفسح المجال أيضاً - وليس علينا أن نكفّ النظر - لبعض مشاهد القتل الجماعي، التي قام مترجمو إبراهيم، إما بإغفالها أو بالاعتذار عنها. فبعد إخضاع ماويه Maouyeh أمر بقتل كل المساجين، رمياً بالرصاص، مثيراً بذلك غضب الوهابيين واستياءهم. وفجأة تجمح المقاومة، وكان على الجيش المصري أن يقوم بعدة محاولات وهجمات لكبح التمردات، حول المدينة. ومع ذلك فإن إبراهيم لا يأبى أن يعود لتكرار ما فعل من قبل، أي لتكرار المنكر الذي يأباه الناس.

وهناك خطأ استراتيجي ضخم يسم أيضاً تقدمه. وهو يفسر بالعنفوان واللانضج الناشئين عن شبابه، لا كما قال مترجمه Gabriel Enkiri عن أسباب صحية. إذ ما كاد يصل إلى الراس EL Ras، وهي قرية فيها ستة آلاف نسمة، حتى أمر دون أي استعداد، أو إصغاء لنصائح De Vaissiere، بهجوم يقوده هو، معرّضاً بذلك قواته إلى مذبحة حقيقية، إذ سفكت دماء ثمانمائة من رجاله. ثم إن الحصار طال (إذا دام أكثر من ستة أشهر) وأنهك الجنود وكانوا ييأسون أكثر فأكثر لدى كل هجوم له يُضحّي فيه بعشرات من رفاقهم. وفوق ذلك فإن عبد الله لو جاء لنجدة الراس وهاجم المحاصرين إذن لكان من المرجح أن يبعد إبراهيم عن حدود نجد.

وأخيراً ينفسح المجال للمفاوضات، وتمت الموافقة من الطرفين على أن يرفع الحصار لكي يتابع تقدمه داخل نجد من غير أن يخشى أي عمل عدواني من ناحية المعسكر.

ويصل إبراهيم إلى خبرا، ومن خبرا إلى العنيزة. فسقطت المدينة بعد يومين من الحصار ولكن الهجوم يومئذ كان يخضع لتخطيط Vaissiere. ولما كان درس الراس قد حمل ثمراته، فإن إبراهيم، بدلاً من أن يستولي على «بريده» بالهجوم، آثر أن يوفر قنابله لحصار الدرعية هدفه الرئيسي. ويصدر العفو عن رئيسها واسمه هاجيلان، بعد أن حمله على ارتباطات رسمية بالوفاء بما تعهّد به، وأخذ منه أبناءه كرهائن.

وفي ٢٨/ ١١/ ١٨١٧، مضى ابن الباشا إلى (شكرا) وهي على بعد ٥٠ ميلاً من بُريده وفتحها يوم ١٤/ ١/ ١٨١٨، بعد عدة أيام من الحصار.

وهكذا أصبح إبراهيم، الذي ضمن مساعدة البدو، سيد الصحراء. وأسبوعاً بعد أسبوع، قضى على مخطط عبد الله الذي كان يأمل أن ينهك رجال الحملة المصرية، المعرّضين لمعارك محاربين أحرار، في قلب هذه المنطقة الصحراوية التي تساوي مساحتها ستة أمثال مساحة فرنسا.

ويشير Palgrave، إلى أن تقديرات عبد الله، كان يمكن أن تنجح مع خصم أقل مهارة. ولكن إبراهيم كف البساط العربي من دون أن يغير أي شيء هام في تكتيكه «البدئي» القائم على الخوف والاحترام. وعلى مدى تقدمه في نجد بطوله وعرضه، كان يتقدّم أكثر الأحيان كحليف لا كفاتح، آخذاً على عاتقه، كمسألة شرف، أن يدفع ثمن أي مادة يؤتى إليه بها، ويكرّم صاحبها أيضاً، ويمنع ضباطه وجنوده، من شتم الشعب غير المسلّح. وكذلك، فيما يرى «بالغراف أيضاً»، فإن القرى والقبائل، التي أدهشها انتشار القوى المصرية، وأغريت بالأمل في الربح، وراعها النظام والأمن اللذان قدما إليها، بدأت تنفصل عن قياداتها، بعضها تلو الآخر، وخضعت لإبراهيم. وكل أولئك الذي كانوا يطلبون المفاوضة، كانوا يحصلون فوراً على أفضل الشروط والأنفع لهم. بيد أن أقلية ضئيلة أبت مع ذلك أن تتنازل عن قضية المسلمين الحقيقيين، كما رفضت الاعتراف بسيادة «الثعلب المصري». وقد حذّر إبراهيم من اللجوء إلى القوة والعنف أو اكتفى بطرد الشديدي العنادمن بيوتهم، ودفعهم أكثر فأكثر إلى نجد، بعد أن أوصاهم، لا من دون هزء، بأن يزيد عدد الأوفياء لعقيدة محمد. وقد استنفدت هذه الاستراتيجية موارد عبد الله، بعد أن كلفها بجمهور ضخم من الجوعى أو من الذين لا فائدة منهم».

«ثم إن تقديم بعض قطع النقد والتموين بالكثير من الدخان (التبغ) إلى الذين سيقدمون جمالاً وأدلاء على الطريق، أمران جمعا القبائل البدوية كلها تحت علم

الباشا، وهكذا فإنه بعد أن لفّ، خطوةً بعد خطوة، أرض نجد، أخذ يقترب يوماً بعد آخر من الهضبة المركزية، مع المؤن الضرورية لأفراد جيشه، ... وفي هذا كله كان يبقى دوما على اتصالاته مع مصر، من دون أن يبقي وراءه إلا حلفاء أو أصدقاء.

وفي يوم ٦/ ٤/ ١٨١٨، يصل الجيش المصري أخيراً إلى الدرعية الواقعة على الهضبة الداخلية للجزيرة العربية، وكان عبد الله ينتظره هناك، محاطاً بجيش قوي مجهز بالمدافع والتحصينات. وتتألف المدينة من خمسة أقسام أو قرى مختلفة، أحيط كل منها بإطار محصن، ومفصول عن غيره بخنادق كبيرة. أما الكل فإنه يقوم في دائرة محصنة طولها ثلاثة أميال..

ولكي تتم محاصرتها، كان إبراهيم قد أعدَّ قوة تتألف من ٥٥٠٠. جندي وحتى منتصف حزيران، لم يحصل على أية جدوى ذات قيمة، وكان أبوه قد ضاق ذرعاً حتى إنه فكر بتعيين خليل باشا أحد كبار ضباطه، مع جيش جديد.

وزيادة في المصيبة شبّ يوم ١٢/ ٦، حريق في مستودع الذخائر، وأصابه بخسائر كبيرة. ولم يعد لدى الجيش إلا ما يكفيه عشرة أيام من الطعام، والقليل من الذخيرة ويقول Vaulabelle، إن إبراهيم، أظهر في هذه اللحظة الحرجة، صلابة نفس، وشدة عزم يصعب توقعهما لدى شاب بمثل هذا العمر.

وقام واحد من ضباطه الكبار، اسمه أوزون علي، لقيادة المراكز المتقدمة، فسأله عما إذا كانت النار قد التهمت كل شيء؟ فأجابه: «لم نستطع أن ننقذ شيئاً، ولم يبق لنا إلا الشجاعة والسيوف لمهاجمة العدو. وهذه تكفي للانتصار عليه(٦)».

وجاءته حول آخر شهر آب إمدادات من مصر، أتاحت له استعادة النضال. وهكذا كوفئت جهوده: فاستسلمت الدرعية يوم ١٥ أيلول ١٨١٨. فاستُقبل الخبر في مصر بمظاهر فرح لا يمكن وصفها، وخلال سبعة أيام كانت الاحتفالات تُدوِّخ

القاهرة، في الحين الذي كان فيه الأسرى ينزلون إلى البر في بولاق، وأسنانهم مقلوعة. فنُصب على النيل حصنٌ يُصورّ الدرعية ووضع الأسرى في وسط هذا الحصن القوى، الذي صنُعت جدرانه من الورق المقوى المسلح، ليُعرضوا فيه على الجماهير.

أما رئيس الوهابيين، فقد استقبله محمد علي بما يليق بمقامه من التكريم. ثم رُحِّل من القاهرة إلى الآستانة، ومعه رسالة من نائب الملك يرجو أن يعفى عنه. ولكن السلطان ظل عنيداً، كما أن الشعب قد فتن بأقوال خطباء المساجد، وظل يطالب بإلحاح بمعاقبته. فعرض ابن سعود بما بقي عليه من ثيابه الممزقة، ثلاثة أيام، في شوارع الآستانة. وفي اليوم الرابع قطع رأسه وطحن في مصنع للملاط والطين.

وجاء إلى القاهرة، ضابط مفوض أرسل من البلاط السلطاني، ليعلن لإبراهيم بأن السيد الأعظم يهبه مرتبة باشا ذي ثلاثة أذناب(٧). وقام إبراهيم، طبقاً للأوامر المكررة من قبل أبيه، بتخريب الدرعية تخريباً كاملاً، باعتبارها مركز الفرقة الوهابية وعاصمتها، وعاد إلى مصر بعد أن ترك بعض الحاميات، ومد السلطة المصرية حتى وصلت إلى سواحل الخليج العربي. ويكفي أن ننظر إلى الخريطة المرسومة هنا لكي نلاحظ الأهمية الاستراتيجية التي يمثلها هذا الاحتلال الذي يمتد من شواطئ البحر الأحمر، حتى شواطئ الخليج العربي.

وقد يكون إبراهيم قد تمنى البقاء في نجد وإعادة تنظيم البلاد. ويظهر لنا هذا بوضوح من مراسلاته مع أبيه. إلا أن أباه اكتفى بالتخريب (الموقت) للقوى الحية الوهابية. ذلك أن لديه مطامح أخرى.

ويشهد على ما وقع أحد المراسلين الذين رأوا بأعينهم ما حدث، إذ قال: «إن سقوط الدرعية وسفر عبد الله (أو رحيله) يبدوان وكأنهما ضغطا، إن لم نقل هدماً إلى الأبد، وجود العقيدة الوهابية. ذلك أن كل البدو، في نجد الذين لقيتهم، يعلنون أنهم سنيّون. ومع ذلك فقد لقيت في الرياض، بعض الأشخاص الذين

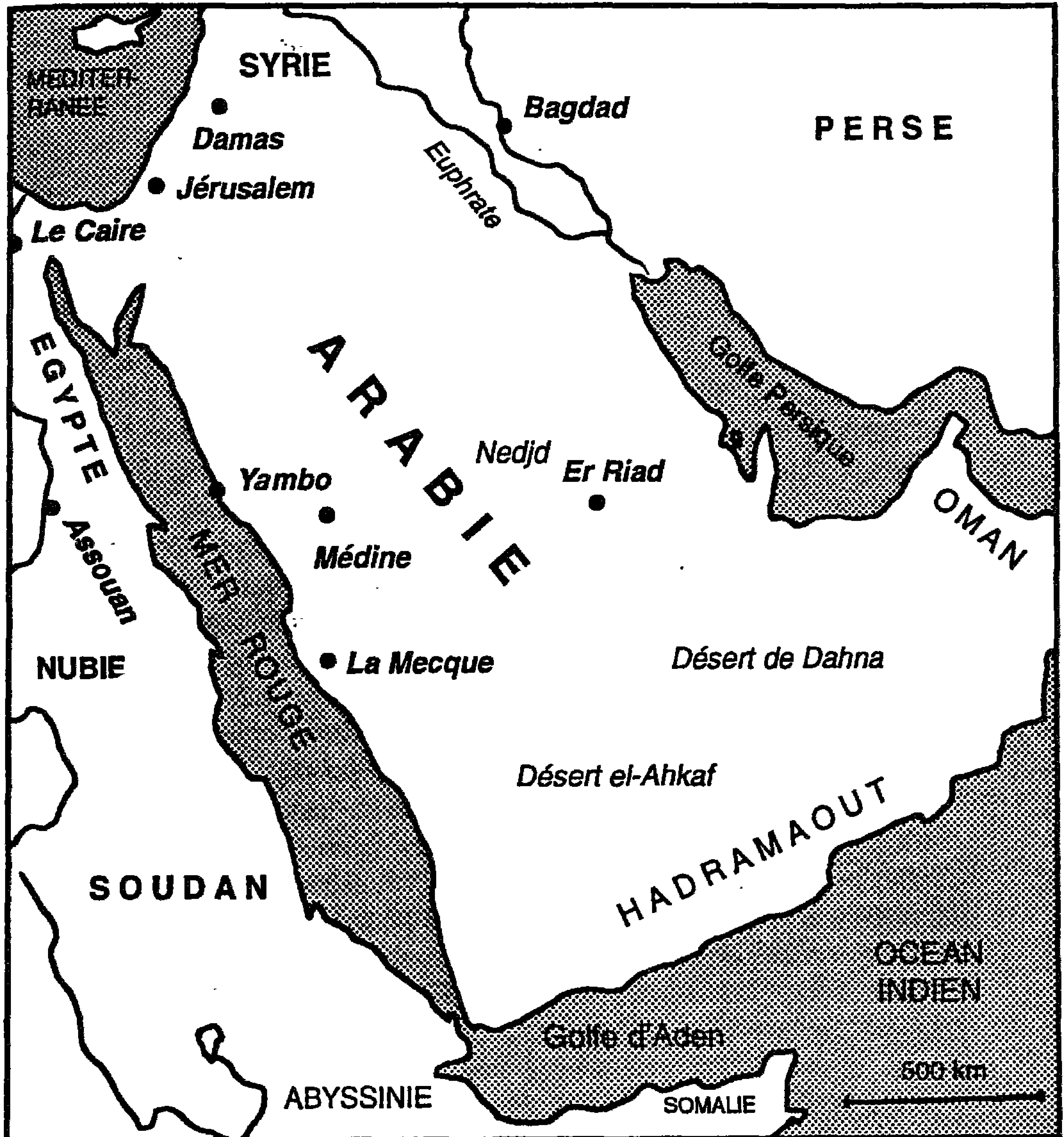
يعترفون أنهم متعلقون دوماً بالعقائد الوهابية. ولكن عددهم كان قليلاً. وكان الأمر يتعلق بما كان يبقى من سكان الدرعية، لا من البدو. أما هؤلاء فقد كان الخوف وحده هو الذي حملهم على اعتناق عقيدة عبد الوهاب: فحبهم للنهب وصلهم بهذه العقيدة، بمقدار ما كان أتباعها يحفظون لها قوتها، ويُقدم لهم وسيلة التمتع بهوايتهم في النهب(٨).

وهذه نتيجة أخرى أحرزها إبراهيم، فقد توصَّل على الرغم من قلة المدة التي انتهت في وسط عام ١٨١٩، إلى تحسين وضع شعب هذه المنطقة التي تهدَّمت بفعل الحرب، تحسيناً واضحاً. ويقول «بالغراف»: لقد رأيت بأم عيني آثار عبور إبراهيم، كالآبار المحفورة والأراضي المفلوحة والمعامل المفتوحة...

وبالمقابل، فإن بعض المترجمين، مثل Mengin وهامون Hamont، لا يقدِّمون إلا معلومات من مستوى الدرجة الثانية (أي ممن قيل لهم، لا ممن شهدوا بأعينهم). وهؤلاء يُلحّون على السمة الدموية للجنرال الشاب. وعلى كل حال، فإن من السذاجة القول: إن إبراهيم حرَّم على نفسه أن يقوم بأعمال فظيعة مجانية، ضد خصومه. ونحن نقرأ من جهة أخرى في رسائل روسيل Roussel إلى ريشيليو، قوله: كان لإبراهيم باشا نجاح جديد ضد الوهابيين، في مكان اسمه Chakra، إذ لقد أرسل إلى القاهرة ١٢٠٠ زوج من الآذان. وقد قام بمثل هذا العمل في دورما Dourma(٩).

وفي اليوم التاسع من كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٨١٩ وصل إبراهيم إلى العاصمة المصرية. وكان هناك عدد ضخم من أفراد الشعب، يتزاحم على الطريق التي سيسلكها. وعلى ما يقول E Gouin، فإن محمد علي الذي كان ينظر إلى المشهد من علٍ في جامع الغوري، الذي يعلو المنظر، قد ترك المجد كله لابنه، مكتفياً كأي مشاهد آخر، بالنظر إلى العرض الذي يمدّ شريطه في شوارع القاهرة.

شبه الجزيرة العربية



وغيّب شخصه -إذ حضر- خوفاً من أن يحيل إلى نفسه كلّ تلك المشاهد المليئة بالإكبار، تاركاً لابنه كل آيات الإعجاب والافتخار.

الجزيرة العربية العصيّة على الترويض، ونظرة إنجلترا:

وفي الجزيرة، كانت النار تختبئ تحت الرماد، من غير أن تنطفئ أبداً. وسيبقى فيها دوماً بؤر التمرد، تتوالد باستمرار. وسيضطر محمد علي إلى إن يرسل، دورياً، قوى جديدة، خوفاً من انتشار الحريق. ولهذا فإنه ظل خلال أيام سيطرته أي حتى عام ١٨٤٠ - لا يستريح الراحة الكافية، لتنظيم فتوحاته، خلافاً لكل فتوحاته الأخرى، وذلك لانشغاله عن ذلك، بصراعات متمادية. وعلى ذلك فإن سياسته ستقوم على تسمية حكام عسكريين، مصريين، في المدن الهامة، وتكوين مشايخ أو رؤساء عرب، يقومون بجمع الزكاة واتباع سياسة التقسيم من أجل استمرار السلطة.

ويعرض السيد صبري في كتابه: «الإمبراطورية المصرية تحت إدارة محمد علي، والمسألة الشرقية ١٨١١-١٨٤٩» شرحاً لا يمكن أن يكون أكثر موضوعية، لعدم نجاح هذه الحرب في جزيرة العرب، نجاحاً كلياً: «ذلك أنه ليس في إمكان أية دولةٍ في العالم أن تفرض سيادتها على بلاد الجزيرة العربية، ذلك أن من المستحيل أن يُلاحق البدو في الصحراء أو الاستيلاء على جبالهم. ولا يمكن أبداً أن نعتمد على أيمانهم المحلوفة أو على عقود وفائهم وخضوعهم. وكان إبراهيم قد كسب البدو، ولكنه لم يغلبهم قط، ولم يتغلب على خصومهم، ولا على العرب المقيمين في قراهم، إلا بقوة سلاحه وضربات مدافعه وسياسته المتسامحة والماهرة. لكن المصريين بعد مغادرته تلك الجزيرة، صاروا السادة في المدن الكبرى في الحجاز وفي نجد؛ أما الجبل والصحراء فإنهما كانا دوماً حصوناً طبيعية تدافع عن استقلال شعوبها. فالمقاطعات التي خضعت سابقاً للوهابيين، لم تعد تدور كما يقول -Vau

labelle، حول مركز معيّن، والعلاقة التي كانت تربط بينهم وجعلتهم أقوياء، ظلت محطّمة، إذ أن كل قبيلة، وكل منطقة استعادت فرديتها الأولى. وبكلمة واحدة، فإن الوهابيين كانوا يعودون إلى الظهور لا كوحدة سياسية تخضع لإرادة واحدة وسيد واحد، ولكن كتحالف بين المناطق، مُوحدٍ بإيمان ديني واحد. وبمصلحة واحدة في البقاء والانتقام.

«ومن المرجح، أن إبراهيم لو بقي في نجد، لقام بعمل يُكتب له الاستمرار، ويُعوِّد هذه المجموعات الشعبية على حياة منظمة. ولكن خلفاء إبراهيم لم يكن لهم مكانته، ولا تأثيره الطيب. وهكذا فإن التمرُّد المقموع لم يعد لديه من شيء آخر غير رفع رأسه».

«وهذا الاحتلال لشاطئ البحر الأحمر، ما كان يسعه إلا أن يثير أصداءً في العالم، ولا سيما في إنجلترا. ففي عام ١٨١٨، عقد الإنجليز مع محمد علي، معاهدة حول التجارة في البحر الأحمر. ولم يكن لقنصل فرنسا، روسيل Roussel أن يضع يده على الوثيقة مباشرة، فرتَّب أموره على أساس أن يقوم واحد من أصدقاء بوغوص بك، وهو المدعو السيد Fantozzi قنصل نابولي، بالحصول على نص المعاهدة. وفي يوم ١٦ أيلول -سبتمبر- ١٨١٨ استطاع أن ينقل إلى الدوق ريشيليو المواد الثلاث الأكثر تميزاً.

«وتنص المادة الأولى على أن البضائع الإنجليزية الهندية والآتية إلى السويس أو إلى القصير لا تخضع إلا إلى جمرك قيمته ٣٪ في مصر كلها.

«وفي المادة الثانية، يُنصّ على أنها، إضافة إلى ذلك، تدفع ٦٪ لتأمين النقل الذي يضمنه لها الباشا، والذي يبدأ من مكان إنزال البضائع في البحر الأحمر. حتى وصولها إلى الإسكندرية أو دمياط.

«وتنص المادة الثالثة على أن الباشا يحرص على جعل هذه المعاهدة سرّية جداً، واتفق هو مع الإنجليز على إبقائها نافذة مدة سنة كاملة، وإذا قامت حرب بين الإنجليز والباب العالي، أعطوا سنة لتصفية أعمالهم، من غير أن يزعج تجارهم، ولا سفنهم، سواء أكانت هذه البضائع قد وصلت إلى مصر، أو أنها ستصل في هذه المدة[١٠].

وما أن علمت حكومة بومباي، بعد ذلك بهذه المنجزات، حتى كلفت الكابيتين Sadlier بتقديم تهاني جلالته، وعرض تحالف هجومي، لإحلال السلام في المنطقة الشرقية والوسطى لليمن. ويقوم هذا التعاون على معاقبة قراصنة هذه المنطقة الذين لم يتتهوا من فرض ضرائبهم على السفن التجارية التي تخص رعايا جلالته[١١]. وقد تمّ هذا كله بالاتفاق المسبق مع أمير اليمن. ونقل إبراهيم هذه المقترحات إلى أبيه الذي سارع إلى رفضها بأدب جم، مدعياً أن جنوده بحاجة إلى الاستراحة من عنائهم بعد الحملة على نجد. وكان نائب الملك قد حُذِّر من جهة أخرى، من قبل حكومة الآستانة على يد الوزير محمد درويش، الذي كتب له في ١٣ أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٨١٩ رسالة جاء فيها: «أن الهدف الأول للإنجليز هو أن يزرغوا صُوًى تساعد في المستقبل على احتلال البلد»[١٢].

وقام الإنجليز بعد هذا الرفض بتوجيه أنظارهم إلى حكومة مسقط، وسلطات الخليج العربي. وحقاً فإن موكا Moka، وكل الجزء الجنوبي من اليمن، وعلى مقربة من مضيق باب المندب -وياله من ممر استراتيجي على طريق الهند- تثير شهواتهم، فضلاً عن أنهم تأخروا عن وضع اليد على المنطقة، قبل أن يسبقهم الأتراك. وحقاً فإنهم لم يخفوا شهواتهم هذه طول مدة الحملة على الجزيرة العربية، ولم يتأخروا عن دعم الحركة الوهابية، تماماً كما دعموا حركة المماليك. وقد كتب روسيل Roussel إلى الدوق دوريشيليو يوم ٨ شباط ١٨١٨، رسالة يقول

فيها: إن الإنجليز على صلات وثيقة مع الوهابيين، وقد حملوا إليهم مدافع وذخائر عسكرية. ويذكر على سبيل المثال ذلك الاحترام الكبير الذي يُكنُّه قائد جيش البدو، للإنجليز»[١٣].

وكان قنصل الإنجليز في موكا يطلب - إرسال بواخر عسكرية، بغية سد منافذ المرفأ اليمني والقيام بإنزالات إلى البر، لإرغام محمد أمير اليمن على احترام الشرف البريطاني الذي أهين في شخص ممثلهم، من قبل هذا الأمير وأسيئت معاملته هو وغيره من البريطانيين. ولم يطل الوقت على ورود جواب محمد علي. إذ أنه كلف حاكم مكة بإرسال قوى عسكرية إلى النقطة المهددة، لدفع الإنجليز، إذا هم قاموا بالهجوم عليها، ثم إنه يستدعي قنصل إنجلترا، هنري سالت Henri Salt، ويُذكِّر بأن اليمن تابع لتركيا منذ ما يقرب من ثلاثة قرون، وبأن إرسال حملة عسكرية إلى موكا يمكن أن يفسد العلاقات بين القاهرة ولندن.

وقد قُدِّم مثل هذا الاحتجاج، من قبل الباب العالي.

واتضح بعد ذلك أن هذا التعاون بين السلطان ومحمد علي، ناجع بصورة عامة. وعندما جاءت الكتيبة العسكرية البريطانية إلى موكا (شاطئ موكا) يوم ٣/ ١٢/ ١٨٢٠ قامت بقصف الشاطئ ونزلت فترة قصيرة وانسحبت ولكن لا من غير انتزاع معاهدة تجارية من أكثر المعاهدات فائدة لحكومة بريطانيا[١٤].

غير أن محمد علي لا يبالغ في احتجاجه على ما حدث. ومن الناس من يلومه -خاصة بين أصدقائه الفرنسيين- ويرى أن قبول هذه المعاهدة يعادل تسليم البحر الأحمر إلى الإنجليز. ولكن هؤلاء مخطئون. فمصر عاجزة عن العمل بنجاح، في هذه المنطقة المحكومة بأمراء غير موثوقين. وعلى كل حال، فإنه يبدو أن التحذير قد حُمل إلى أصحابه، وأنه بدءاً من هذه اللحظة، بدأ بتوثيق صلاته مع الرؤساء العرب (ترى من هم يومئذ؟). وقد سوعد في هذا بكل أنواع التعاطف، ولا سيما

تلك التي قدمتها مهارة الضابط الفرنسي آرماندي Armandy، قنصل فرنسا في مسقط ثم في موكا(١٥).

وأكثر من ذلك، أن الحلم الذي يبدو أن محمد علي يداعبه ويغريه في بعض اللحظات، كان سابقاً لأوانه. وعلى الرغم من فوائد موقفه، فيما يتصل بطريق الهند، فإنه لم يكن يوجد أي نوع من النشاط التجاري الحقيقي حول شواطئ البحر الأحمر، أو قل، على كل حال، لم يكن هناك أكثر من إمكانية الإثراء المحلي. ومن جهة أخرى، فإن مصر أدارت ظهرها لهذا البحر. والسويس مفصولة عن القصير، بما يقرب من المئة كيلومتر من الشاطئ الصحراوي. ولكي تصبح هذه المنطقة قادرة على التجارة الداخلية، من خلال البحر الأحمر، فإنه يجب أن لا يكون هذا البحر مسدوداً - بيد أن شق قناة ليس موضوعاً للبحث أيامئذ.

ومع ذلك فإن محمد علي لن يدير ظهره أبداً لهذه المنطقة: وخلال مدة طويلة أيضاً سنراه يحرص على متابعة حوادث الهند وملاحظة حركتها، وما فيها من قوات عسكرية، وما يحيط بها من التوازنات السياسية، كما لو كان يحتفظ بالأمل بأن يكون دوره من هذه الناحية لم ينته.

وبانتظار ذلك، فإن التدخل البريطاني المخفق في موكا ما زاده إلا تعميقاً لحذره، من البريطانيين، وهو مقتنع أن استيلاء البريطانيين على اليمن، قد لا يكون إلا بداية لاحتلال السويس. وهذا ما برهن التاريخ على أنه كان على حق. وقد أظهر في هذه المناسبة أنه في مستوى عال من بعد النظر. ولعل قصة موكا هي التي شجعته على القيام بحرب جديدة تهدف إلى التوسع؛ لكنه في هذه المرة كان سيمضي إلى السودان.

-٩-

على آثار بيبي الثاني

(١٨٢٠-١٨٢٢)

كان المصريون، منذ زمن طويل يعتبرون السودان بلداً مجهولاً، كله أسرار، وكانوا يعتقدون أنه غنّي بثروات أسطورية. وأصلاً، ألم يكن هناك، على عهد بيبي الثاني (من الأسرة السادسة) حملات عسكرية وجُهِّت إلى هذه المنطقة، وأتاحت نقل غنائم هامة، من الرجال، والمواشي، وثروات من كل الأنواع ... وجاءت بقزم من قبيلة البيغميه Pygmee «كان يعرف كيف يرقص رقصة الإله»؟.

ولئن كان محمد علي في بداية شباط من عام ١٨٢٠، يُوجِّه أنظاره إلى بلاد النوبة العليا، وما وراءها، فإن ذلك لم يكن، فقط، لأنه يقدِّر أن الغنيمة التي لاصاحب لها، سهلة الاقتناص. بل لقد كان لها أسباب أخرى مختلفة: منها، إن لم تكن أولاها، الحاجة الملحة إلى المال، بطبيعة الحال. فهو بحاجة دوماً إلى المزيد. ومزيد المزيد؛ ولا سيما وأن الحرب ضد الوهابيين، أفرغت صناديقه. ولما لم يكن يستطع أن يثابر على عصر شعبٍ جاثٍ على ركبتيه باستمرار، فقد كان عليه أن يستخدم وسائل أخرى لإعادة ملء صناديقه.

أما معرفته الشخصية، لوثائق تاريخية متصلة بقضايا السودان، فهذا ما لا يستطيعه أبداً، لأنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة. وبالمقابل فإن الحديث يحتل مكاناً كبيراً في حياته اليومية، شأنه في ذلك شأن كل شرقي. ولقد قلنا ذلك لأنه يتم بسهولة، إذ كان من عادته أن يتحدث إلى الكثيرين «وبينهم بدرجة محترمة، عدد

من الأوروبيين «وقد نجد بين هؤلاء الزائرين، عدداً كبيراً من المتعلمين والمثقفين، وحتى من أصحاب المعارف الكثيرة. وعلى ذلك فإنه يمكن الافتراض أنه اعتمد على بعض الدراسات التي نشرت حول السودان. وهكذا فإن روايات بعض السياح، ومنها روايات الاتنوغرافي (عالم حياة الشعوب) جوهان لودفيغ بوركهارد Johan Ludwig Burckhardt[1]، بين دراسات أخرى، جعلته يقتنع أنه سيجد هناك في قلب الأراضي العليا، ما بين النوبة والفازوغل، وكردفان، ودارفور، الذهب الكثير وكل الثروات المعدنية التي يحلم بها. فهناك -كما أكّدوا له- مناجم، لا تنتظر إلا أن تقدِّم نفسها إلى الفرعون الجديد. ومثل هذه الوعود لايسعها إلا أن تغري محمد علي، المهووس بكل ما يتصل بمناجم الذهب، والحجارة الكريمة. وسنراه، مرات عديدة يطلق رجاله للبحث عنها، ولكنهم لن يجدوا إلا سراباً بعده سراب. وجاء رجل من بروسيا اسمه Ruppel لاستكشاف ماعساه يوجد في سيناء. وكذلك جاء إيطالي، أسمه بروكي Brocchi يريد مثل ذلك، ولكن في الصحراء العربية. أما لينان دو بيلفون Linan de Bellefonds فإنه سيخفق في العتبة Et-baye. وسيبحث Caillaud عن الزمرد، فلا يجد إلا الزبرجد. أما الإيطالي البيمونتي Piemontais الذي يدعى Boreani فإنه أرسل من الخرطوم ليغسل ذهب Fazogl، فاستثار الغضب لأنه أعلن أن استثماره عقيم. وحتى محمد علي يمضي إلى المكان نفسه دون فائدة[2]. ثم إن هناك أيضاً تلك المناطق البعيدة في الجنوب، التي يصل منها العاج، وهو بضاعة ثمينة -وأثمن من الكل- وهو أحد المواد المطلوبة للتصدير من سنّار إلى مصر. بيد أنه يؤتى من هذا الجنوب بعطور وبخور والزبادة ومن المسك الذي يعطر به النساء ألبستهن الخفيفة.

وعلى ذلك فإن السبب الأول للحملة هو اقتصادي ... ... أما السبب الثاني فهو، في آن واحد، استراتيجي وعسكري.

ولما كان استراتيجياً، فإنه يستمد أصوله -سواء أكان شعورياً أم غير شعوري- من أقدم الأزمنة. ذلك أن الفراعنة، هم أيضاً، أرادوا أن يبسطوا سيادتهم على أفريقيا الاستوائية والسودان، بغية صيانة مصر العليا، من هجمات القبائل الأفريقية، الممكنة. وأكثر من ذلك، أن المنطقة تقدّم خصوصية نادرة، من حيث أنها لا تملك حدوداً طبيعية محدّدة، ثم لأنها، بمعنى ما، استطالة لمصر، وتنشئ معها مجموعاً طبيعياً، هو وادي النيل.

ثم إن هذه السيرورة نفسها، التي قادت الفراعنة إلى التاجين، تاج مصر العليا، وتاج مصر الدنيا، المصورين في القبعة الفرعونية، هي التي دفعتهم إلى التقدم أكثر فأكثر، بالصعود إلى منابع النيل، بحيث تكون بلاد النوبة، بدورها، منضمة إلى مصر. وعندما أراد محمد علي أن يضم السودان إلى بلده، فذلك يعني أنه يحل، بصورة ما، محل أمراء أعالي النيل.

أما الوجه العسكري، فإنه يستمد منحاه، من أزمنة أقرب إليه. أي من عام ١٨٠١، على وجه الدقة، وهذا تاريخ كان فيه الشاب محمد علي يحارب في الصفوف العثمانية، جنود الجنرال مينو Menou. وعلى الرغم من الهزيمة التي أصابت الجيش الفرنسي يومئذ، فإن الروملي لا بد أنه أدرك ما لدى الأجنبي من علم عسكري، كما أنه فهم -على حد تعبير Berthier بيرتييه -منذ ذلك الحين، أن القيمة الفوضوية، لا يمكنها أن تنتصر على الشجاعة المنظمة. وهذا الذي يداعبه الأمل بتحقيق انتصارات كبرى، يجب أن يشعر بمعنى، «النظام الجديد» وتطوير جيشه على هذا الأساس.

وحقاً فإن محمد علي لم يكن أول من أدرك هذا المشروع. ذلك أن إعادة صهر القوى العسكرية العثمانية أمر فرض نفسه على بعض العقول منذ فجر القرن الثامن عشر. ولئن ظهر من قبل، أن القوى العثمانية بدت متفوقة في ساحات القتال، فذلك يعود حتماً إلى المؤسسة العسكرية الإنكشارية، وهي محاولة لخلق جيش دائم الوجود.

وكان إنشاؤها يستند إلى مبدأ بسيط : كانوا يضعون الأيدي على خيرة سجناء الحرب، وينتزعون أبناءهم الذكور من الشروش المسيحية. وهذه الإمدادات التي أطلق عليها اسم (الإنكشارية) «أي الجيش الجديد»، كانت تربى في إطار الدين الإسلامي، وإطار الاعتقاد بضرورة تبجيل السلطان العثماني وحده. ولما كانوا ينتزعون قسراً من ذويهم، وتفرض عليهم (العزوبية) ويخضعون لنظام قاس، وللترهب خلال سنوات كثيرة، والتعلم المتفرد بغاياته، فإنهم كانوا لا يعرفون من أسرة غير جماعاتهم ولا يعرفون أي هوى غير عبادة الله والسلطان، كأن ذلك أهلَّهم لخوض المعارك بشجاعة فائقة، وبنظام لم يكن معروفاً عند الآخرين. . ولكن مع مرور السنين الطويلة، ولأسباب شتى، مثل -إلغاء العزوبية، والإرغام على الحياة في الثكنات العسكرية، وتوقف أو انتهاء الانتصارات -استقر الانحطاط في قلب هذه الجيوش المتميزة. وبمقدار ما كانت تضعف الروح العسكرية كان الانكشاريون يتعرضون أكثر فأكثر للأهواء الشعبية. وبسرعة وجدت الكتائب أنها لم تعد مؤلفة من خدم متعصبين ومخلصين، بل من مجموعة من الأفراد، لا تميّز لهم، غير أنهم من رعايا السلطان(٣). وبدءاً من نهاية القرن السادس عشر، كانت السلطة تجابه هجمة من صور التمرد، والوقاحة، والعصيان، والتهديد بالتشهير. وهكذا فإن ذلك العهد الماضي -أي العهد الذي كان فيه السياح الأجانب يستطيعون أن يعجبوا بتنظيم المعسكرات والثكنات في عهد سليمان الرائع- قد انقضى. أما البحرية فقد توقفت عند نموذجي الكارافيل (المراكب السريعة بثلاث صوار) Caravelle والغالير (أي السفينة الشراعية الحربية)، في حين أن البحارة أصبحوا عبيداً أو عناصر شقية.

ولنذكر أن إحدى محاولات إعادة التنظيم، في صفوف الإنكشارية، التي تمت بين عامي ١٧٩٢ و ١٧٩٣ كلفت السلطان سليم الثالث عرشه. وكان يجب أن ننتظر عام ١٨٢٦ لكي يستطيع محمود الثاني أن ينتهي من الإنكشارية بالطرد والقتل والإبعاد.

ومنذ عام ١٨١٥، حاول محمد علي، هو أيضاً أن يدخل النظام الجديد في جنوده. ولكن ردّ الفعل كان في العنف على مثل ما كان في عهد السلطان سليم: أي مشاهد النهب، والعدوان على الأوروبيين في الحي الفرنجي. وسواء أكان الأمر يتصل بالألبانيين، أو بمن بقي منهم، أم يتصل بالأتراك، فإنهم جميعاً كانوا يعارضون هذا المشروع، بمثل ذلك العنف حتى لقد لُقب الباشا بلقب (الكافر) أو المرتد عن الدين، وكان التمرد يحدث أكبر الفوضى في العاصمة. ولكن سرعان ماظهر أن من الضروري الاستغناء عن نائب الملك. وعندما أُشعر محمد علي بالخطر، احتمى بالقلعة، على حين أن جنوده كانوا يحاصرون قصره وينبهونه. ولم يستطع التغلب على الأزمة إلا بالتظاهر بأنه عدل عن نظامه الجديد.

واليوم، فإن مشروع فتح السودان يقدم له الفرصة المثالية للتخلص من الرؤوس القوية أو بقاياها التي كانت تقف في طريقه إلى التجديد. وعندئذ عُوِّض عن العناصر اليابسة بعناصر فتية غضة، غير مشرَّبة بميزات الطبقة ومكتسباتها. وخطر في باله أنه في السودان سيحصل على مستودعات ضخمة من الرجال كافية لخلق جيش جديد، يستطيع الباشا أن يعوده على النظام الجديد.

وهناك ميزة أخرى لهذا النظام، ليست بالأقل شأناً، هي تجارة العبيد. وسيؤلف هؤلاء هم أيضاً، عاملاً قوياً في إغناء الخزينة. وكانوا (يصيدون) هؤلاء الشباب، من منحدرات الجبال الحبشية، «ليصبحوا زينة في البيوت». وأولئك الفتيات ذوات البشرة الصافية والسمات السليمة، اللواتي يُطلبن أكثر من غيرهن، من قبل المماليك(٤). وأخيراً فإن النزول إلى المناطق الأفريقية، يتيح الفرصة لتصفية بقايا المماليك، الذين ظلوا يأملون، بعد مذبحة عام ١٨١١ باسترداد مواقعهم في وادي النيل، وكانوا يتجمعون في الدنقلا. أما نائب الملك، كمنظم حريص على حسن ما يفعل، فقد هيأ حملته. ولما كان يعرف أن حملته هذه لن تُمضي بدون بعض الاحتجاجات. فإنه حرص على إظهار هذه الحملة بمظهر البعثة العلمية، تاركاً لمن يريد أن يفهم، أن السودان هي الموضوع النهائي لعمليته، على حين أن الحبشة هي

التي كانت هدفه. وكان في قرارة نفسه يطمح إلى إنشاء إمبراطورية يحدّها البحر، ويمتد معها إلي أفريقيا الشرقية، بدءاً من السويس، وتنتهي في مناطق كانت تقوم فيها أيام «ألف ليلة وليلة» كبرى الموانئ العربية. وكان كل شيء جاهزاً في شهر أيار عام ١٨٢٠.

الاتجاه إلى الخرطوم:

كان هنالك جيشان يتألفان من (٤٠٠٠) جندي، وكانا لا ينتظران شيئاً غير صدور الأمر بالحركة(٥). أما أحدهما فقد وضع تحت قيادة ابنه إسماعيل، ووضع الثاني تحت قيادة صهره محمد بك الدفتردار. وفي هذه المرة سيقوم محمد علي بحرب خارجية لا كتابع لاستامبول، بل لحسابه الشخصي. وبطبيعة الحال فإن الفرق كبير.

وعلى عاتق إسماعيل وضعت مهمة فتح بلاد النوبة. وكان يصحبه مجموعة طريفة من المغامرين شبه المستشرقين من أصل إيطالي بصورة خاصة. وكانوا يحملون ألقاباً ضخمة، كعلماء طبيعة أو مختصين بالمعادن أو أطباء. وكلهم أقسموا لنائب الملك، «أنهم سينتزعون من رمال النوبة كل الكنوز التي جعلها جهل السكان تطمر في الأرض»(٦).

وقد تجمعت عناصر الحملة في أسوان، خلال شهر حزيران. واستخدمت الخيالة الطريق الترابي مع الجمال التي جُمّعت في إسنه Esneh، من أجل التوحيد اللاحق للقافلة. أما البقية فقد استخدمت النيل، وركب المشاة مائة مركب خفيف. أما إسماعيل، فإنه لن يترك القاهرة إلا في ٢٠ تموز.

وبانتظار وصوله، قام جمعٌ طليعي مؤلف من (٥٠٠) فارس، يقودهم محمد بك، بالتقدم حتى حدود الدنقلا Dongola، وتخلص على طريقه ممن بقي من المماليك. وأعرب ٣٠٠ شخص منهم. وهم جزء من الكل، عن خضوعهم. أما الآخرون فقد انسحبوا إلى سنار(٧) ثم إلى دارفور. أما فيما بعد فإنهم ذهبوا

يحتمون على ضفاف البحر الأحمر وهناك انتهوا، محطّمين نهائياً في التعاسة والشقاء.

ولما وصل الباشا الشاب، كان القسم الأعظم من رجال الحملة قد مضى إلى الشلال، الثاني شلال وادي حلفا. وبعد توقف دام اثني عشر يوماً عاد يمشي باتجاه ماراكاك، التي بلغها دون أن يلقى أي مقاومة.

وفي نهاية شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٢٠ دخلت الحملة أرض الشايقية Chaikieh وهي جمع من قبائل متفرقة أكثر الوقت، ومسلحة برماح طويلة وأخرى قصيرة.

ويفتح إسماعيل طريق المفاوضة. فوجد أن القبائل كلها مستعدة للتسليم، ولكن الشروط التي يفرضها عليهم الجنرال الشاب كانت من السخف، بحيث لاتترك لهم من مخرج غير الموت وهم يحاربون. ولما رأى أنه أسيء إليه في رفضهم، أمر بالهجوم عليهم أو بذبحهم. وكانت أمامه قرية Horti، حيث الشايقية تحاول أن تعيد تنظيم صفوفها، فأمر بالعبث بها، وأصبح كل عناصرها بين مشوّه أو مقتول. أما الذين بقوا على قيد الحياة وحاولوا الهرب ماضين بالسباحة إلى الشاطئ الأيمن من النهر، فقد أمكن اللحاق بهم والقبض عليهم وتمزيقهم، إن لم نقل طُحنوا بقوة المدافع. ولما كان إسماعيل قد وعد بمكافأة قدرها ٢٥ قرشاً كمقابل لكل زوج من الآذان يأتي بها أي جندي من جنوده كانت هذه المكافأة تكفي لإثارة طمعهم. فأقبلوا على الآذان يقتلعونها (مما يعني ضمنياً أنهم قتلوا أصحابها) ويفرحون بالقروش التي ستعطى لهم. وفي آخر النهار جاؤوا إليه ليضعوا بين قدميه ما يقرب من ١٤٥٠ أذن، اعتبرت كشاهد على ذكاء المحارب لدى رئيسهم. وكان على هذه الآذان متى مُلِّحت أن ترسل إلى نائب الملك.

أما ردّ هذا الأخير فأقل ما يقال فيه: إنه ناقد أو نقدي، إذ كتب لابنه الرسالة التالية: (لقد تلقيت رسالتكم كما تلقيت الآذان التابعة لأفراد من الشايقية. وعليّ يابني العزيز أنه ما من حكم يجهل أنه بالعدالة وحدها يمكن أن يصل إلى قلوب

الناس. وإذا أردت فتح بلد، فعليك أن تستخدم حسن العلاقة ومهارة السياسة. ذلك أنه ما من حكومة عرفت كيف تحسن السير بعملها سيراً حسناً، ولا إنجاز مهمتها بنجاح، بغير العدالة. وهذا شرط لا يمكن تجاوزه لخدمة أي قضية. وكان من الأفضل أن تحاول كسب شعب الشايقية بحسن الرعاية والرقة، بدلاً من فرض تسليم الأحصنة والسلاح، وإثارة الكراهية والعودة إلى التمرد...)(٨).

وما ان عُرفت هذه المحاولة حتى أثارت معارضة الإنجليز. ولنقبل أيضاً غزو السودان. ولكن ليس هناك مجال لأي مسّ بالحبشة. ويطلب هنري سالت Henri Salt وهو اختصاصي كبير بهذا القسم من العالم(٩)، يطلب فوراً مقابلة الباشا، بغية التعبير له عن التحفظ والقلق الذي تشعر به حكومته. وحذّره بقوله: إن بلاده لاتسمح أبداً أن بلد مسيحي، مثل الحبشة، التي عرفت كيف تحفظ استقلالها حتى الآن، ودينها أيضاً، وسط عالم معاد، تعود فتصبح تحت السيطرة الإسلامية(١٠). ولا ريب أن مسألة الدين هذه -وهذا ما يمكن فهمه- ليست إلا ذريعة. ذلك أن إنجلترا نفسها كانت تطمع في هذه الأرض الكبيرة وتحتفظ لنفسها بحق إلحاقها بها أو وضعها تحت الوصاية، في الوقت المناسب.

وحاول الباشا في البداية أن يكسب الوقت، ولكنه انتهى أمام حزم الإنكليز إلى غض النظر عن مشروعه، ووعد سالت Salt هذا بأنه لا يتجاوز الحدود المفروضة. وعندما كان سالت يروي الحديث لوزير الخارجية يوم ٢٠/ ١١/ ١٨٢٠ نراه يضيف تعليقاً يقول فيه: (ان سموّه بعد أن لاحظ موقفي الحازم، غيَّر لهجته، وعبرَّ لي، بالصورة الأوضح ما يكون، بقوله: «على الرغم من أن المنطقة مفعمة بالذهب والحجارة الكريمة، وأن فتحها كان مؤكداً، فمنذ الآن فصاعداً لن يكون له أي طمع فيها. وهو يفضل هذا على أن تسوء علاقته بنا، حتى ولو للحظة. ثم إن سمُوّه شرح لي فيما بعد أن الغاية الحقيقية من هذه الحملة كانت ترويض الجيش الذي أصبح مرهقاً، والحصول على معلومات عن مجرى النيل الأبيض الذي تَحدّى أبحاث الكثيرين من عظماء البشر، منذ عهد الإسكندر(١١).

ها إن النوبة قد غلبت، وها إن إسماعيل يصل إلى أطراف سنار في الأسبوع الأول من شباط ١٨٢١ . وهذه المنطقة منطقة سهوب تنبسط أمام عينيه وترتفع بمقدار ما تقترب من بلاد الحبشة. وهنا تظل الأرض خلال ثمانية أشهر مجرد صحراء ولكن منذ أن يبدأ فصل الأمطار نراها تتغطى، بتأثير الحرارة والرطوبة، بأعشاب كثيفة. وهنا يقوم خليط غير متجانس من الشعوب التي يحكم كلاً منها ملك، أو شيخ قبيلة. وهي أكثر بدائية مما رأيناه لدى الشايقية، بل إنها لم تر قط سلاحاً نارياً، ولا مدفعاً بطبيعة الحال، إلى الدرجة التي نرى معها أن محاربيهم لا يفهمون شيئاً -في البداية على الأقل- من طبيعة الجروح التي سببتها لهم.

وآثر إسماعيل قبل أن يغرق في سنار، أن يقضي بعض الأيام مرتاحاً، ويكثف قواته حوالي الشلال الرابع. وتحرك في منتصف شباط (فبراير) ووصل إلى بربره يوم ٨/ ٣ واحتلها دون أن يطلق أية رصاصة. أما في اليوم التالي فإنه يدخل أراضي شندي، ثم يتابع السير إلى الجنوب، متبعاً الشط الأيسر من البحر الأبيض (النيل الأبيض) من دون أن يلقى أية صعوبة غير نُدرة ما يؤكل، والعدوان المناخي. وفي نهاية شهر مايو (أيار) يصل إلى مكان التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق. وهو الآن في قلب السودان الشرقي.

غير أن الوصول إلى هذا المكان يوم ٢٧/ ٥/ ١٨٢١ يعتبر حدثاً هاماً في تاريخ مصر الحديثة والسودان المصري. وفي العام التالي، يقيم إسماعيل مقراً دائماً على الجانب الأيسر من النيل الأبيض، ويطلق عليه اسم امرأة عجوز هي الساكنة الوحيدة في هذه الزاوية الصحراوية: أم درمان. وبعد سنتين سيأتي محمد علي ويفتش المكان، ويفهم كل الفوائد التي يمكن أن يجنيها منه: ويسمي النقطة التي يلتقي عندها النهران، أي مكان المدينة التي ستقوم، في المستقبل، وحيث يستقر حاكم السودان المصري، باسم رأس الخرطوم، الذي أصبح مع الأيام الخرطوم فقط.

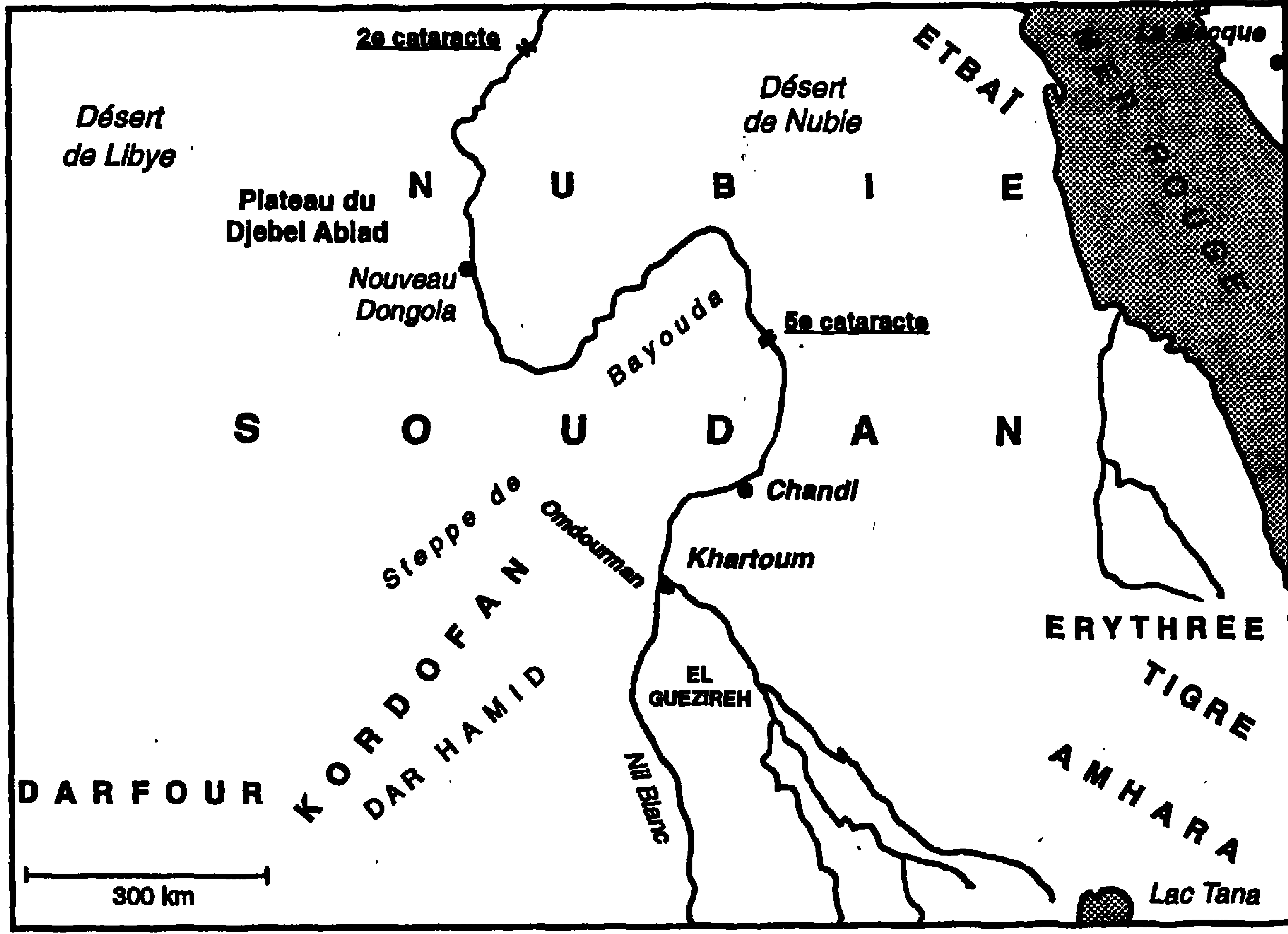
ولكن إسماعيل لم يتأخر فيه مطلقاً، إذ أن خمسة قوارب من أصل الـ(٣٠٠) التي رحلت من أسوان، استطاعت اجتياز الشلالات، ووصلت إلى هذه النقطة البعيدة. وفي ١٢ حزيران، وبعد أن تجاوز الجزيرة، دخل قائد الحملة دخولاً احتفالياً إلى عاصمة مملكة الفونغ(١٢) واعترفت سنار والملك بادي Badi مباشرة بالتبعية لمحمد علي.

إبراهيم يأتي للنجدة:

ويبقى أن نتابع هدفين وضعهما نائب الملك، هما البحث عن الذهب والحصول على العبيد. وكان كلا البحثين عبثاً. فالنيل الأزرق الذي كان يُقدّر أنه غني بالذهب، وعلى الأقل في مجراه الأعلى لا يجري معه من الذهب إلا بعض شذرات بلا قيمة. أما العبيد، فقد جرت ملاحقتهم بلا شفقة، ورُحِّل تماماً أو تقريباً من كان يسكن سنّار، ولكن من أجل الحصول على نتائج تافهة. ذلك أن نسبة الأسرى الذين وصلوا إلى مصر، تبدو نسبة ضئيلة وهنا يفرض إسماعيل (الخوّة) على الناس. وفرز جماعات من الجيش، لتمضي في كل الاتجاهات وتطارد العبيد (أي الناس السود البشرة) في الشرق والجنوب الشرقي. وقد أسرت أسرٌ بكاملها. وكان يمكن أن نرى الأب والأم والأطفال في غلال مشتركة حتى حدود مصر. وفي أسوان جرى الانتقاء: فالرجال وضعوا بلا رحمة بين أيدي معلّمين مكلفين بتعليمهم النظام الجديد، في الحين الذي يُساق فيه الأطفال والنساء إلى أسواق القاهرة حيث يتم بيعهم لمصلحة الخزينة(١٣).

وكان مناخ سنار هو الذي سينتقم لهؤلاء التعساء. ذلك أن المصريين الذين فقدوا قليلاً من جيشهم في المعارك التي خاضوها، سنجدهم عما قريب يجابهون الحمى الزحار. وهذه الأمراض التي تعصف بالجيش الذي أصيب أفراده بالشوق إلى بلادهم، وضعفت أجسامهم بسبب القحط، أصبحوا يعانون مما أصيبوا به أكبر العناء. ولما كانوا معتادين على السهول الكبيرة المفتوحة، لوادي النيل، فقد وجدوا

السودان الذي استولى عليه محمد علي



أنفسهم ضائعين في هذه السباسب الغارقة في الرطوبة وفي الغابات الواسعة في منطقة الفازوغل.

وفي نهاية أيلول (سبتمبر ١٨٢١) أي بعد دخول إسماعيل منطقة سنار، نجد هذا الجيش يشكو من فقدان ٦٠٠ ميت، وأكثر من ألفي مريض، وكاد الوضع يتحول إلى مذبحة كبرى، لولا أن محمد علي قرّر أن يرسل ابنه إبراهيم لمد يد المساعدة، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وجاء الابن الأكبر لنائب الملك، ومعه إمدادات كبيرة، وبصورة خاصة، كان معه أطباء جديرون بهذا الاسم، ليضعوا حدا لهذا الوباء بعزلهم المرضى وتنظيف المذارق Cloaques، حيث تتفسخ جثث الرجال والحيوانات. وعندئذ كان في وسع إسماعيل أن يعود من جديد إلى الالدورادو السوداني حيث يفترض، من خلال معطيات غامضة، وجوده في الفازوغل في المجرى الأوسط للنيل الأزرق. وفي هذه المرة كان بصحبة رجل عالم بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة هو فريدريك كايو Cail-laud، وهو مختص بعلم الجواهر والأحجار الكريمة وأصله من مقاطعة بريتانيا الفرنسية. التحق به بعد النصر على دونغولا(١٤).

وفي أول يوم من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٢١، يترك إسماعيل سنار لكي يصعد النهر. لكن الأشياء لا تجري أو لم تجر بسهولة. ذلك أن الحملة العسكرية مرغمة الآن على معركة ضد عدو يسكن منطقة صعبة التضاريس والصخور والوديان الصغيرة، وهو مستعد للدفاع عن استقلاله.

ثم انضاف إلى هذا كله محذور كبير آخر. ذلك أنه توجد هنا في الفازوغل بعض مناجم الذهب. ولكن محتواها من المعدن الثمين أضأل من أن يفكر الإنسان في استثمار مربح. وهنا بدأ اليأس يتسلل إلى المصريين الذين يجابهون حراباً تطلق كالسهام من خصومٍ غير مرئيين.

وزيادة في الأسى، فإن السنار التي تركها إبراهيم بغية القيام بفتوحات جديدة، كانت تتحرك مضطربة. ذلك أن خبراً شاع فيها، خلاصته أن القسم الأكبر

من الجيش قد هلك في مكان ما في الجنوب، وقد ثار السناريون، وقتلوا بحد السيف جملة مراكز مصرية. وهكذا اضطر إسماعيل إلى العودة بأكبر سرعة (شباط ١٨٢٢). لكن جيشه أصبح ممزقاً والقسم الأكبر من العتاد والذخيرة، إنما بقي في أعمق الأعناق الضيقة، أو سرير السيول الطينية التي وجب المرور بها من قبل.

ومن جهة أخرى، فإن إبراهيم الذي تقدّم باتجاه النيل الأبيض غُلب على أمره بالزحار ووقف أمام محافظة الدينكا. والحقيقة أنه حتى قبل أن يمرض، شعر باستحالة التقدم إلى أراضي دارفور تقدماً أكبر، لا سيما وأن عناصر جيشه أوذيت بالأوبئة المختلفة. وبناءاً على نصيحة طبيبه الدكتور أليساندرو ريشي (لأن سكوتو Seotto كان قد مات قبل قليل)، «انتهى إلى العدول عن فتح بحر الغزال (أو بحيرة الغزال) وقبل على غير رضى منه أن يعود إلى القاهرة.

«وكان قد مضى شهر على إصابة إبراهيم بالزحار، عندما وصلتُ إلى المعسكر المصري في سنار. ولما كانت الحملة قد هدفت إلى البحث عن منابع النيل، وتقدمت أكثر فأكثر إلى مناطق يتزايد حرّها أكثر فأكثر، وكأنها مشؤومة، فإن الحالة الصحية لإبراهيم كانت تتطور نحو الأسوأ فالأسوأ. ولما كان يفقد الكثير من دمه، فإنه كان يضعف بصورة مثيرة للقلق. وحاولت مرتين أن أقنعه بالعودة إلى الوراء، فلم أحصل على أية نتيجة، كان إبراهيم يرى أن التخلي عن مركزه في مثل هذا الحين، يعني عنده أنه خان مهمته. وكان يحاول التقدم إلى الأمام مهما كلف الأمر لأنه يحب أن يُضرب به المثل.

«وفي فيركال، Verkal، التي كان يجب المضي إليها، لكي نصل إلى النيل، نجد الباشا يتألم من جديد بمغص معوي، وبآلام مخيفة في الرأس وأوجاع في كل أعضائه. وكان نبضه ضعيفاً وغير منتظم. وعندئذ طلب أن يقال له الحقيقة عن حالته الصحية، فلم أستطع أن أخفي عنه خطورة حالته، معترفاً بأنه إن لم يعد إلى طقس ألطف جواً، فإني لا أستطيع تحمل مسؤولية حياته»[١٥].

ويخبرنا Megin أن محمد علي عندما علم بعودة ابنه، أسرع، كالمجنون إلى لقائه، وبقي إلى جانبه في قصر الروضة، حتى شفي تماماً.

أما إسماعيل فإنه كان يمضي إلى نهاية فيها من الفظاعة بقدر ما فيها من المأسوية، تماماً على مثال شخصيته. وعندما علم بعودة أخيه إبراهيم طلب من أبيه أن يعود هو أيضاً. ولكن الباشا يرفض الطلب، قائلاً له: إنك في ريعان الشباب وكامل قواك، وإنه لواجب بالنسبة إليك أن تناضل ضد أخطار الحرب، وتقاوم قسوة الطقوس»... غير أنه وافق على طلبه في أكتوبر ١٨٢٢ بعد أن شرح له ما وقع من أحداث. وسمح له بأن يقترب من مصر، شريطة أن تكون البلاد المفتوحة قد نظمت، قبل كل شيء.

وترك إسماعيل سنار، برفقة مائة رجل من جماعته. وفي أواخر تشرين الأول (أكتوبر) يتجه إلى بلاد النوبة حيث يريد تمضية فصل الشتاء.. ولما وصل إلى شندي وهي مدينة هامة فيها ما يقرب من ١٥ ألف نسمة، توقف عندها، ليفتش المعسكر، ويغتنم الفرصة لكي يفرض على السكان مساهمة ضخمة في نفقات الحرب. ويأمر أن يسلّم إليه، في الأيام الخمسة التالية، ألفا عبد وعشرون ألفاً من القروش القوية من إسبانيا (أي ما يقرب من عشرة آلاف فرنك ذهبي). ولكن نمر رئيس المدينة (أو أميرها مثلاً) يعترض ويقول: إنه لمستحيل مادياً أن نجمع ما تقول في هذه المدة القصيرة. وكان جوابه الوحيد، أن شتمه إسماعيل وضربه على وجهه، وهدّده بالخوزقة إذا هو لم ينفذ أوامره. وكان قدبلغ من الغضب، منذ تسلمه البلد، درجة جعلته يفهم أن سلوكه المهادن لم يكن إلا مصدر إساءات، وإهانات، حملته على عرض ما لقي، هو ورجاله، من أعمال اعتباطية. إلا أن الرجل تماسك، ووعد بأن يبذل أقصى الجهد لتلبية طلباته، ورجا إسماعيل أن يمضي لانتظاره على الشاطئ الأيسر للنيل، في قرية معزولة أمام شندي. فقبل إسماعيل ولم يساوره أي شك ومضى مع حاشيته، وجلس في غريفة مصنوعة من القش والطين، وأقام هناك. فلما جاء الليل قدم نمر لضيوفه وجبة فخمة، وجمع حول الغريفة قشاً كثيراً بحجة إطعام أحصنة ضيوفه.

وحوالي نهاية العشاء، وحلول الظلام، قام رجال نمر بإشعال النار في القش. فالتهب مكان العشاء كما لو أنه شعلة تغتذي بالزيت. وحاول إسماعيل ورفاقه، عبثاً، أن يهربوا من الباب الوحيد الموجود أمامهم. وفي كل محاولة للهرب كانت الرماح ورؤوس السيوف تعيدهم إلى المحرقة. ومات إسماعيل محروقاً تحت وابل من الشتائم الصادرة عن الجمهور الذي أسكره حب الانتقام. وكان عمره سبعة وعشرين عاماً، تماماً. ونقلت رفاته إلى القاهرة، وقبرت بجانب أخيه طوسون، في مقبرة الإمام الشافعي.

وهذا الموت الذي جاء بعد قليل من سفر إبراهيم، أرغم الباشا على إسناد القيادة في السودان إلى صهر محمد علي، أي إلى محمد بك الدفتردار الذي كان خلال ذلك، قد احتل كردفان. وينحدر هذا الرجل من أسرة من البكوات، عريقة. وربّي في استامبول تربية جيدة وتلقى تعليماً أعلى بكثير من المتوسط. وكان يتميّز بحبه للتاريخ والجغرافيا. وقد قبل كعضو في الجمعية الملكية للجغرافيا. لأنه كان أول من رسم خريطة لكردفان. ومع أن مظاهر الرجل مؤنفة، تظهر فيها سمة الرقة والمجاملة، فإن هناك في هذا الإنسان شيئاً من العنف والقساوة(١٦).

وبهذه المناسبة نقول إن قصة Edward Lane أدوار لين السائح الإنكليزي تستحق الاستطراد.

صدر مرسوم بتعيين ناظر في منطقة المنوفية، وتقدّم ذات يوم إلى أحد الفلاحين طالباً منه ٦٠ ريالاً، لتسديد ضرائبه. وأقسم الفلاح أنه لا يملك البارة الأولى من هذا المبلغ. وأن كل ثروته هي بقرة بائسة، وأن الحليب الذي يأخذه منها لا يكاد يسد رمق أسرته. ولكن شروحه هذه لم تؤثر في الناظر، فأمر الفلاح بإحضار البقرة، فأحضرها وجمع حولها الفلاحين. وأعلن عن بيعها بستين ريالاً. ولكن لم يوجد أحد يملك مثل هذا المبلغ في القرية. ولكن الناظر لم ييأس فاستدعى اللحام وأمره بذبحها وتقسيم لحمها إلى ستين جزءاً، كل واحد منها يباع بريال واحد. وهكذا جمع المبلغ الذي طولب به الفلاح. أما اللحام فقد كوفئ بالرأس، جزاء عمله.

بيد أن حاكم المنطقة، في ذلك العصر، لم يكن إلا محمد بك الدفتردار. فتقدم إليه السيء الحظ، الفلاح، لكي يبسط شكواه، راجياً ومتوسلاً أن يحكم بالعدل في قضيته. بعد أن سمع البيك شكوى الرجل، بكل ما لديه من الانتباه، وطلب إليه ذكر المبلغ الذي يقدره للبقرة المرحومة. فأجاب: «هو ١٢٠ ريال على الأقل». وتأمل الحاكم في الأمر قليلاً، ثم استدعى الناظر، وسأله:

- أهذا الذي يقوله هذا الرجل، صحيح؟

- فأكد المعلم قوله.

- هذا حسن. استدعوا لي اللحام.

وجاء اللحام بدوره.

- لم قطعت لحم هذه البقرة.

- لأن الناظر أجبرني عليه. ولو أني رفضت، لحقَّ له أن أُضربَ بالعصيّ، ولأحرق لي بيتي.

- فهمت. ولكن هل تعرفون من هم المشترون.

ويوافق الناظر واللحام على ذلك، فأمر الدفتردار بإحضارهم جميعاً.

وعندما اجتمع الستون فلاحاً، سأل:

- أهذه البقرة كانت تساوي ٦٠ ريالاً؟

- كلا، كلا، أيها السيد. إنها تساوي على الأقل ضعف هذا المبلغ.

وهزّ صهر الباشا محمد علي رأسه، واستدعى قاضي المنطقة، وحكى له القصة كلها. ثم سأله.

- ما هو رأيك.

- إني أحسب أن هذا الفلاح كان ضحية ظلم شديد، والله لا يقبل الظلم.

وأشار الدفتردار بإصبعه إلى اللحام:

- إذا كان الله يأمرك بالقيام بعمل ما، أتعمله؟

- بالتأكيد، يا سيدي. الله قادر على كل شيء.

- حسناً جداً. في هذه الحال، اقتل الناظر.

وفوراً اجتمع العساكر وقبضوا على المعلم. فربط، وقدّم عنقه إلى سكين اللحام.

«والآن، اقسم هذا الإنسان إلى ستين قطعة، وقام اللحام بالعمل.

وبعد ذلك، قال الدفتردار للفلاحين، وطلب منهم هذه المرة، أن يشتروا القطعة بريالين. ولم يخل سبيلهم إلا بعد أن سلم المبلغ ١٢٠ ريال للفلاح، والتفت من جديد إلى القاضي، وطلب منه:

- وماذا ترى أن يكافئ اللحام على العمل الذي قام به؟

ويجيب القاضي:

- بالطريقة نفسها التي عامله بها الناظر.

- حسناً، قال الدفتردار وأشار إلى الرأس الذي ما يزال ساخناً، أي رأس الناظر. فأشار إلى اللحام، الميت من الخوف وقال له:

- خذه، إنه لك وامض بسلام.

إن هذه القصة الشبيهة بالحكاية، والصحيحة على الأغلب، مع الأسف، تشهد على شخصية صهر محمد علي. ومن جهة أخرى، فإن ما نقدّمه بعد كلامنا هذا يؤكد ذلك.

وعندما علم هذا الصهر بموت إسماعيل، أسرع ووصل إلى المكان الذي جرت فيه القصة ... وخلال زمن يسير جداً، وضعت محافظة شندي في النار والدم. وضحّي بما يقرب من ثلاثين ألف رأس مقابل رأس إسماعيل، وما من شك أن هذا

الصهر كان سيمد الشقاء إلى محافظات أخرى، لو لا أن محمد علي الذي تلقى من ضباطه المستائين أكبر الاستياء، أصدر أمره بوقف هذه المجَازر. ويتساءل الإنسان، أمام سعة هذا الانتقام، عما إذا كان ما يقوله الدفتردار عن نفسه، لا يشتمل على أساس من الحقيقة، إذ لقد قال: «لقد أهلكت في العذاب وصوره المختلفة، عدداً من الكائنات الإنسانية، أكثر من الأطفال الذين كانوا سيولدون لي، لو أن كل واحدة من حريمي أنجبت لي كل يوم طفلاً، خلال حياتها كلها. وكان ذكر اسمه وحده في آخر القرن التاسع عشر، على ما يقول بالغراف، يكفي لإثارة أكبر الهلع بين سكان سنار وكردفان(١٨).

وقد وضع موت إسماعيل، ومرض إبراهيم حداً نهائياً لتقدم الجيش المصري، في أفريقيا الوسطى. ولكن كل بلاد النوبة أصبحت مفتوحة. واستولى نائب الملك على أكثر بقليل من مليوني كم٢. أي ما يعادل ضعف مساحة مصر الحالية.

ولئن غاب الذهب، فإن الاستيلاء على السوان، صار يحمل إلى مصر إضافة جديدة إلى الثروات الطبيعية، ويمنحه، بصورة خاصة، وسائل تغلغل اقتصادي وسياسي، يصل إلى قلب إفريقيا. وبهذه الصورة، وبفضل تملك مرافئ، البحر الأحمر، فإن طرق الاتصال بين السودان والجزيرة العربية، أصبحت منذ الآن بين أيدي الباشا. ولما كان يمسك بين يديه أيضاً، مرافئ الشاطئ العربي، وفي الشمال، مرفأ السويس، فإن علينا أن نقول: إن هذا هو الإشراف المطلق على البحر الأحمر. وحتى هذا اليوم، كان الرجل يعمل بصفته تابعاً للباب العالي، إلا أن فتح السودان رفع الباشا إلى مرتبة السلطان نفسه، وبالدرجة نفسها. وسنرى فيما بعد، أنه انتزع أيضاً حق إصدار العملة.

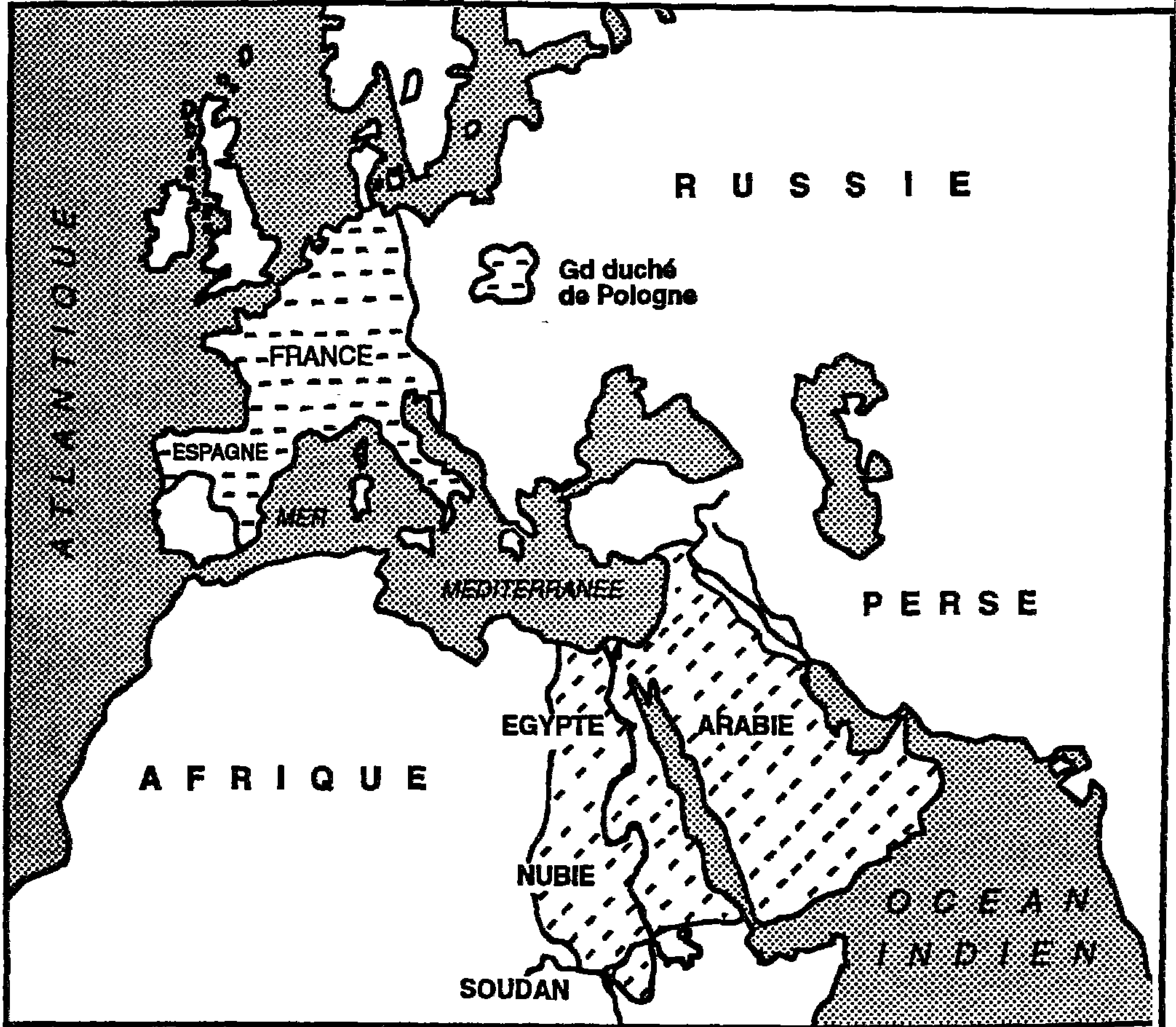
وبنهاية هذه الحملة (عام ١٨٢٢) يمكن القول: إن الإمبراطورية المصرية بزعامة محمد علي، أصبحت قائمة. فمن الخليج العربي إلى صحراء ليبيا، ومن السودان إلى البحر الأبيض المتوسط، ومن جهتي البحر الأحمر، تمتد هذه الدولة

على ما يساوي خمسة ملايين كم٢، أي عشرة أمثال مساحة فرنسا، أو نصف مساحة أوروبا. وهكذا فإن تويجر التبغ في كافالا، أقام إمبراطورية نابليونية، واقترب من السموات التي يتسامى فيها معبوده (نابليون).

وبديهي أنه لا يمكن اجتياز مراحل من هذا النوع من دون أن يكون لها نتائج، سواء أكان ذلك تجاه الباب العالي، أم تجاه الأوروبيين. ويلاحظ الكونت دومارسيللوس منذ عام ١٨٢٠، في مذكراته عن الشرق «أنه كان من السهل أن نتوقع منذ الآن أن يقوم صراع بين تركيا ومصر، في وقت قريب، تظل نتائجه موضوع شكوك. فإمبراطورية ناشئة في أنشط أوضاعها، لا يسعها أن تخضع مدة طويلة إلى إمبراطورية تزداد ضعفاً وكسوفاً. وهكذا بدأت تطرح المسألة الشرقية(١٩)، المشهورة منذ ذلك الحين. فبعد التدخل المصري في اليونان، ستصبح موضوع الاهتمام الأساسي للدول الأوروبية وتطل على أزمة مخيفة.

وعلينا الآن، قبل أن نمضي بعيداً في رواية الأحداث ذات العلاقة بالسياسة الخارجية، أن نتوقف بعض الشيء، ونُوَجِّه النظر إلى ما كان يجري داخل مصر.

الإمبراطورية التي أنشأها محمد علي عام ١٨٣٩
مقارنة مع إمبراطورية نابوليون عام ١٨١١



-١٠-

حكومة الفرعون

(بين ١٨٠٨ و ١٨١٨)

عندما أصبح محمد علي، رسمياً، والي مصر، لم يكن هنالك بلد مستقر يملك زمامه، بل أرض غريقة، يتنازعها وحوش أسمهم مراد، وإبراهيم بك، وبرديسي، وألفي، إذا نحن لم نتحدث عن سابقيهم الكثيرين الذين لا يحصى عددهم. وهؤلاء ظلوا يتخاصمون، خلال سنوات طويلة، بدرجة من العنف كبيرة جداً، حتى لكأن الأمر يتعلق بخزائن سليمان. وكانت الفوضى هي السائدة في كل مكان.

وهناك عدد كبير من المؤسسات العامة ظلت محرومة من العطاءات التي خصّها بها السلطان سليم الأول. فالجسور والسدود والأقنية تتهدم، بسبب عدم العناية بها. وكان الفلاح يعتبر مثل القن الذي لا يترك له غير ما يقيم به أوده، في أدنى الحدود. وكان يُضاف إلى شقائه اليومي، مرورُ الجنود المهتمين بالدرجة الأولى بفرائسهم، وكذلك غزوات البدو الذين يتهالكون، سنوياً، على المحاصيل. وبقي اللا أمن السيّد الأول الحاكم في البلد، وكان لا يمضي يوم من غير أن يتحدث الناس فيه عن الاضطرابات المريبة، وصور سوء المعاملة، أو الجرائم.

أما من وجهة نظر الضرائب، فقد وصلت البلد إلى أعلى القمم. وحباً بإدخال أكبر كمية من المال في خزينة الدولة، لم يزد المماليك على أن يطبقوا وصفات سابقيهم، أي ما يسمى بالقول: إفرض الضرائب، وأفرضها أيضاً، وزدها

دومـاً. ويذكر الجبرتي في يومياته أربعة وعشرين نوعـاً من الرسوم المختلفة، وهذا من غير حساب الإهـانـات الـتي تصيب التجار الأجانب بمقدار ما تصيب التجار المصريين.

أما التعليم فـإنه لا يزيد عن بعض كتاتيب لتعليم القرآن وجامعة الأزهر، فكأنه رُدّ إلى حدّه الأدنى. أما المستشفيات الرائعة، أيام صلاح الدين، فـإنها كـأنما عفّى عليها الزمن، ورُدَّت العناية الصحية، إلى ما يشبه اللاوجود.

أمـا الجيش، فـإنه يتـألف من خليط من الناس أُخـذوا دون تمييـز: كـالأتراك، والألبان، والديلهي المشهورين، والمغاربة الذين لم يدخلوا الجيش إلا طمعـاً براتب أو غنيـمـة. فكأن كل شيء كان يجب أن يُبنى وكل شيء يجب أن يُختـرع. وهكذا نرى أن المهمة التي ينبغي أن يتصدى لها رجل كافالا، مهمة بعيدة المقاييس.

ويقرّر الرجل، كـبداية، أن يطوّر البنى الإدارية، للبلد. أما أسلوبه فـإنه كان يُستلهم بالدرجة الأولى، من البواعث الخارجية، فلنقل إذن هي عسكرية. كان عليه أن يضع يده على الأداة الحكومـيـة، في كل مـسـتـوياتهـا. أمـا طريقـة الحكم التي سيطبّقـهـا، فـإنهـا تلخص بكلمـتين همـا: الحكم المطلق، والمركـزية. وكـان الأمـر كذلك في كل المقاطعات، في الإمبراطورية العثمانية. ولكن هنالك فرق مع ذلك، فقبله كـانت سلطة باشا مصـر، يسيطر عليها المماليك، أو عناصر غير خاضعة لأية رقابة. ولكن هؤلاء جميعـاً لم يعد لهم من وزن، في أيامه، باعتباره السيد الأول، ولم يكن هذا يسمح لأحـد، مهـمـا يكن شـأنه، أن يعـارض سلطتـه. وكـانت المراكـز الاستراتيجية مقفلة. وعندما لا تكون من أعضاء أسرته التي تملك أعلى المناصب، فـأنهـا تكون من بين من يدينون له بكل شيء. وإذا كنا في أوسـاط الشـرقـيين، إن قصرنا الحـديث عليهم، فـإن الحديث لا يدور إلا حولهم، وسيجد خدمـاً (بالمعنى العـام) مـهـرة، مثـل محـمد بـك لازوغلـو، أي كـيـاياه، الـذي ظل وزيـره الأهم، أو شريف بك، الذي يحكم أعالي مصر لحسابه، وبوغوص بك يوسوفيان.

أما من الأشخاص المرتبطين بمصيره، فهناك عدد قليل قاموا بدور هام جداً، كذلك الذي قام به هذا الأرمني المولود في سميرنا Smyrne، ولا ريب أنه كان أحد مساعديه الأعظم قيمة. وكان من قبل ترجماناً للقنصلية البريطانية، في مدينته التي ولد فيها، ثم كان كذلك للوزير الأكبر، أثناء الحملة العسكرية، التركية - الإنجليزية عام ١٨٠١. ثم إنه عاد إلى مصر بعد سنتين مع علي باشا بورغول الذي يطلق عليه اسم الجزائري، ثم دخل في خدمة نائب الملك. وأتاحت له مواهبه، ومتابعته العمل، في الصعود بسرعة إلى الأعالي، واكتسب بالتدريج، وشيئاً فشيئاً، نفوذاً كبيراً، يبرّره ما لديه من مرونة، وإمحاء ظاهر، أكثر مما لديه من تعليم عال أو عمق في وجهات النظر. ومع أنه يتّصف بكل هذه المزايا، فإنه لم يسلم من غضب سيّده عليه. ويروي نوبار باشا، في مذكراته، أنه بعد فترة صغيرة من تسمية محمد علي، رئيساً لحكومة مصر، كلّف بوغوص بك (ولم يكن يومئذ إلا خوجة، أي المعلم بوغوص) بقضية الجمارك. ففي دمياط، وبعد نقاش بينه وبين نائب الملك، حول قصة الحسابات، غضب هذا الأخير وأمر أن يجرّوه من رجله. . وكان هذا هو التعبير المستخدم الذي يعني قراراً بالموت. وانقض واحد من القواصين، على الرجل، كي ينفذ الأمر، وجُرّ بوغوص إلى خارج الغرفة. ومن حسن الحظ أن القواص كان مديناً، معنوياً، لهذا الأرمني. فتظاهر الرجل بأخذه إلى شاطئ النيل، أي إلى المكان الذي جرت العادة أن يلقى فيه المجرم، أي الأرمني هذه المرة. وعاد فأبلغ نائب الملك أن أوامره قد نفذت. وأخذه بعد ذلك إلى بيت يحتمي فيه. وحدث أن محمد علي، مضى إلى الرشيد بعد أسبوعين، لحل مشكلة مالية كان يحتاج فيها إلى النصائح. وعندئذ ندّت منه عبارة تألم قال فيها: «آه! لو كان بوغوص هنا، إذن لسهل علي الأمر، وخفف عني الإزعاج». لكن القواص الذي كان يعيش قلقاً جداً، منذ عصيانه الأوامر، ظن أن الباشا يريد امتحانه في هذا الكلام. وانهزّت أعصابه، وهجم على رجليه، طالباً من الباشا العفو عنه. فدهش محمد علي وسأله: أتريد العفو عن شيء؟. واعترف الرجل وهو في آخر درجات القلق، أن بوغوص ما يزال حياً. وصرخ الباشا: أبو غوص حي؟ إمض إذن وجئني به

مباشرة، فإن لم تفعل فإن رأسك سيحلُّ محلّ رأسه. وكان فرح القواص كبيراً بإطاعة أمر سيّده، ومنذ ذلك الحين لم يحدث قط شيء يفسد العلاقة بين الوزير وملكه[1].

وقبل أن نقدّم أمثلة جرت أثناء المفاوضات المعقدة بين الباب والدول الأخرى، أثناء الأزمتين، في عام ١٨٣٣، ثم في عام ١٨٤٠، كان بوغوص بدءاً من أول عام ١٨٢٦ مسؤولاً عن وزارتي التجارة والصناعة، مما لا يبدو شيئاً تافهاً، عندما نعلم أن كل السياسة التجارية لسيده، قائمة على الحصور (المونوبول). وهكذا فقد قام بالمستحيل لاستبعاد المعاهدة التجارية عام ١٨٣٣ بين انجلترا وتركيا، التي تهدف إلى تخريب النظام الاقتصادي لمحمد علي، بتأييدها نظام التبادل الحر بين أوروبا وكل المناطق الخاضعة للسلطان، بما في ذلك مصر. ويمكن أن نقارن بوغوص بتاليران صغير: فما من أحد هو أفضل منه، في مط القضايا التي لا يريد إنهاءها، والوقوف بوجه سيّده من دون أن يجابهه مباشرة.

«إن هذا الرجل الخجول جداً، رأيته بعيني أنا، يقاوم ما كان يريده الباشا مجيباً عن مداعبات محمد علي الذي كان يحاول إقناعه، خالطاً حججه بنعومة الصوت.

«ولكن لا تكن في مثل هذا العناد في أفكارك كما كان يقول، وأنت مخطئ، وما أقول لك هو الشيء المعقول، فانضم (أو فوافق) على رأيي، ياروحي، ياقلبي، يا خروفي ...».

وكان على عمّي الساكن، الذي لا يتحرك، وذي العينين الهابطتين، أن يجيب بالتتالي:

«كلا، فإني لن أحيد عن إرادتك»[2].

كان ماهراً في أن لا يسيء أو في تجنب الإساءة إلى الآخر، وفي عدم معارضة الآخرين من دون أن ينحني بالقدر نفسه. وأساليبه من أكثر الأساليب مودة، واستقباله للآخرين من ألطف ما يمكن أن تراه. وهو يملك عقلاً سليماً أكثر مما يملك

معلومات مكتسبة، ولديه من الحدس أكثر مما لديه من الموهبة الحقيقية. وهو رجل لا يتعب من عمله، وسلامته الخلقية، نموذجية، مخلص عضوياً ونفسياً، جسداً وروحاً لنائب الملك. ويقولون عنه إنه كثير الحب للإنجليز[٣] ويتهمه الفرنسيون بالانحياز لمقاصد انكلترا بحكم المنفعة الشخصية، إلا أنهم يقترفون خطأ كبيراً، ففي الوضع الذي كانت فيه مصر يومئذ، كان من الجنون منه أن يرتمي في سياسة المعارضة ضد سلطة كبرى في البحار، وفي التجارة في العالم. وبوغوص يعرف هذا، وهو ينضم أو ينضوي في هذا، في إطار تفكير محمد علي الذي فهم هذا الأمر، منذ الأيام الأولى.

فلما مات في ١/ ١/ ١٨٤٤، كان خلفه أحد مواطنيه، أرتين بك، وهذا هو أيضاً تلميذ قديم للرجل المشهور Jomard الذي كان -ولنذكر ذلك- عضواً في معهد فرنسا، وواحداً من محرّري جريدة وصف مصر Desription de L Egypte وسيحتفظ أرتين بنفس الوزارات حتى عام ١٨٥٠.

ويمكن القول إن نائب الملك قام بثورته الأرضية والاقتصادية، وأقام نظامه الواسع (الحكومي etatiste) بين عام ١٨٠٨ و ١٨١١. وفي رأيه أن الأشياء واضحة. وهو يعتبر نفسه قيّماً على الشعب المصري.

ويعد أن غيّر التقسيم المملوكي للبلاد الذي كان يجعلها تتألف من ١٤ محافظة، لكل واحدة بك (بيكها الخاص) أو كاشفها كحاكم، نراه هو يقسم مصر إلى أربع عشرة مديرية، يقسمها إلى مناطق (٦٤ جملة). وهذه بدورها تقسم إلى أقسام. ثم إن الأربعة عشر قسماً لمصر الدنيا، تقسم هي نفسها إلى ثلاث فئات، تحت الإدارة المباشرة لنائب الملك، وابنه إبراهيم، والدفتر دار المشؤوم. أما أقسام مصر العليا العشرة، فإنها تشكل مجموعتين، يقع إحداهما على مسؤولية طاهر باشا، والثانية تخضع لمسؤولية الكتخدا[٤] Katkhoda. ثم أصبحت هذه المديريات الأربع عشرة، سبعاً فقط، تُممت بدءاً من عام ١٨٣٤ مديريات بثلاث أخرى.

وكان يقوم بأمر المديريات: مدير لكل منها (أي محافظ) وكان هناك مأمور المحافظات أو الناظر (contremaitre). وفي كل قرية كان يوجد رئيس، أسمه شيخ البلد. وكانت هذه الوظيفة وراثية في غالب الأحيان. وأخيراً نجد جامعي الضرائب (الصرافين). ومن الطبيعي أن يدور هذا المجموع كله حول مركز واحد، هو الفرعون ذو التاجين، لا شخص آخر.

وكانت هذه الوظائف كلها تسلم حصراً لرجال أتراك. ولكن منذ عام ١٨٣٤، بدأ نائب الملك (بتأثير ابنه إبراهيم الذي يعتبر نفسه مصرياً أكثر منه عثمانياً) بتسليم الوظائف إلى أناس من أهل البلد. أما القيمون على المديريات فقد بقيت موقوفة حصراً على عناصر تركية. ومن المؤسف أن يكون الموظفون الجدد سيئي التعامل مع مواطنيهم مثل أصحابهم الأتراك، وسيعمل محمد علي، أول الأمر، على منع الظلم، والإفراط في تطبيق قواعد الحياة العملية، ولكن مع الزمن من جهة وبصورة خاصة، بعد مؤتمر لندن، وكبر سنه، سنراه يُخفِّف من ضغطه.

وكانت الوظائف الأساسية لعماله، تقوم على السهر على دفع الضرائب، وتطبيق النظام في قضايا الزراعة، والعمل على إدخال عناصر جديدة في الجيش. ولكنه كان دوماً يخضع لنفس المبدأ أي جمع المال، والحراب. وكانت المحاسبة في كل مديرية، توضع في يد كاتب قبطي. وهذا الكاتب يخضع لمحاسب رئيس يقيم في مبنى المديرية، تحت إدارة الحاكم أو المحافظ.

وفي البداية، كانت الإدارة المركزية تحتفظ بالسمة التقليدية التي كانت يومئذ هي القاعدة في كل المناطق التركية. ولكن عندما بلغ حكم محمد علي أواسطه، اتخذت هذه الإدارة صورة الوزارة على الطريقة الأوروبية، المحدودة فيما يتصل بعدد العناصر، والمضغوطة بعضها على بعض في يد نائب الملك.. ولم يعد أحد يتكلم عن كيايا الباشا، أو عن الدفتردار، أو الخزندار بل بهذا الوزير أو ذاك للدلالة على واحد أو آخر من مساعدي الباشا. وكان العرف السائد، في هذه الناحية، يسبق الإنشاء الرسمي للأقسام الوزارية الذي كان يمهد له إنشاء «المجالس» المرؤوس كل

منها بمساعدين مباشرين لنائب الملك. وكانت تتألف من موظفين مكلفين بمختلف فروع الإدارة السياسية، كالحربية، والبحرية، والتعليم، والأشغال العامة ... إلخ. ومع ذلك يجب أن يكون حاضراً في الأذهان أنه على الرغم من الظواهر، فإن هذه الوزارات لن تملك السلطة، التي نعرفها لها في أوروبا. بل إن نائب الملك هو السيد الوحيد والأعلى. وهو يقبل الآراء والأفكار والملاحظات. ولكن يظل الأمر كله بيده. وكان طول أيام حكمه ينظر إلى مصر، كما لو أنها ملكيته الخاصة، وكما لو أن الخمسة ملايين الذين يعيشون فيها هم من خلقه.

وفي عام ١٨٣٣، حُمل بوغوص على حمل لقب الوزير للشؤون الخارجية، وكان في الأصل يحمل أعباءها، ويقوم بوظائفها. وفي عام ١٨٣٧، ينشئ وزارة الداخلية وينُظّمها ويسلمها لحبيب أفندي، ويسلم وزارة التعليم العام والأعمال العامة أي وزارة الأشغال، إلى مختار بك الذي تلقى تربيته في فرنسا، وسمَّى لوزارة الحرب أحمد مينيقلي، وقسم وزارة المالية قسمين واحدة لمصر الدنيا والأخرى لمصر العليا، سلم أولاهما لباقي بك ولمحمد أفندي وتبقى وزارة البحرية لحسان أفندي.

وكانت كل واحدة من هذه الوزارات، تحتفظ بعادة النقاش في لجان أو ديوان مثلاً. حيث ستبقى المجالس التي سبقت تأسيس أجهزة الوزارات. وكتطوير الإدارة في المقاطعات، كان تطوير الإدارة المركزية، يتيح فرض الرقابة وإدارة القضايا العامة، بشكل أكثر نجعاً. ولئن كان رجل كافالا هو أول من يمنح مصر مختلف أجهزة دولة كانت توصف بأنها «رسمية» فإنه يفعل ذلك دون أن يخفف تعلقها الكامل بشخصه. أما وزراؤه فكانوا مجرّد أمناء سرّ، أو مستشارين، ينقلون إليه القضايا، ويُخضعون له جميع الحلول الممكنة، ثم يقومون بعد ذلك بتنفيذ أوامره.

وكانت هناك أجهزة استشارية وُجدت أيام الاحتلال الفرنسي: مثل ديوان القاهرة، أو دواوين المقاطعات، أو الديوان العام لمصر كلها. ولم يتقيد محمد علي بأي واحد منها في البداية. ولكن بعد مرور خمسة عشر عاماً نراه ينشئ من هذه الدواوين ما يشبه في كل شيء تلك الدواوين الشبيهة تماماً بمؤسسات فرنسا الملكية،

أو النابوليونية، مثل مجلس الدولة، أي مجلس خاص، أو جهاز من كبار الموظفين والوزراء، ولكن من غير أن يمنحها أقل سمة تمثيلية. وكان يحدث، بصورة استثنائية أن يدعو حكام المقاطعات إلى مجلس يضمّهم، عندما تفرض عليه الظروف السهر على المصالح العامة، على أن لا يكون لأي تطوير، ولأي مساهمة أو تدبير لانتقاء عناصر لمختلف مصالح الدولة، أي صلاحية مستقلة عنه. ونراه يدعو أحياناً شيوخ البلد لقرى معينة، ويستقبلهم فردياً، وأحياناً يجمعهم كلهم. ولكن ما من لحظة رضي أن يُرخِّص للشعب بأدنى صوت في إدارة قضاياه، حتى ولو كانت صغيرة جداً.

إن مبدأ إشراك الرعية في الإدارة، أو في الحكومة مبدأ غريب عنه كل الغرابة. فتركيز السلطة تركيزاً كاملاً بين يديه، وخاصة فيما يتعلق بالصورة التي يُمارس فيها هذه السلطة، ردَّ الوجهاء والعلماء -على الرغم من أن هؤلاء الآخرين هم الذين رفعوه إلى مركز السلطة العليا - إلى أصغر مستويات المشاركة في الحكم. وخفّض مستواهم، وسيحبسهم، تدريجياً، في ممارسة إدارتهم أو تعليمهم، أو مهنهم، إلا إذا استدعت اللحظات الحرجة أن يشركهم في الرأي، ولكن لمصلحته هو، لا لمصلحتهم هم. وهنالك عنصر آخر ذو دلالة قوية، على وضعه العقلي: فعلى الرغم من تدخل ابنه إبراهيم، فإن المصريين لن يُقبلوا في وظائف الدولة، أو في إدارة الشؤون العامة، إلا بأشد صور التضييق، وخاصة في المناصب العسكرية. وما من مرة قبل اعتبارهم كالأتراك أو كالمماليك كفاءة. (ونلاحظ هنا أن كلمة المماليك احتفظ بها، للإشارة إلى كل عبد أبيض أدخل إلى مصر). فالمصري، وكذلك العربي بصورة عامة، يعتبر وكأنه من العرق المغلوب: «ففي مصر، يجب أن يشقى كل ما هو مصري، وأما الأتراك والأوروبيون، فإنهم يتمتعون بكل الامتيازات، من حرية، وتميّز، ورخص. أما بالنسبة إلى العرب والسود فيجب أن يجرّدوا من كل حق». ومهما يكن في تعليق كادالفين وبروفيري Cadalvene و Breuvery قاسياً، فإنه مع ذلك، يعكس الشرط الذي يعيش ضمنه أو يبقى حياً، على الأصح، كل مصري. ولم يحدث أن رُفِّع المصري أو العربي إلى المناصب الإدارية والمراتب العسكرية، إلا

بعد طويل انتظار. وكان تأثير إبراهيم في هذا كله كبيراً جداً. ولكن حتى بعد أن حدث ذلك، فإن لمناصب الرفيعة، والدرجات العسكرية العالية، حقوق محفوظة للأتراك وللأجانب.

ولئن كانت اللغة التركية مسيطرة، فإنها بالتدريج تفسح المجال للغة العربية، كلغة للإدارة، ولا تبقى اللغة التركية إلاّ داخل الحكومة. ولا يتكلم محمد علي العربية، ويتظاهر بأنه لا يفهمها بدرجة كافية، مما لا يجعله يستغني عن المترجم. ومن الصعب علينا أن نقبل بصحة هذه الأشياء. ومن يعلم أنه بحكم ذلك الجهل المزعوم للغة، يستطيع أن يفهم أفكار محادثيه وان يحكم على صدق ترجمانه، هو نفسه؟

أما من وجهة نظر التمثيل الدولي، فإن مصر تبقى في وضع مجمّد. ولما كانت جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية، فإنها لا تملك الحق الشرعي في إقامة علاقات ديبلوماسية، ذلك أن هذا الحق خاص بالدولة ذات السيادة. ومع ذلك فإن محمد علي يصل، على كل حال، إلى إزاحة هذه العقبة، باستخدامه مندوبين تجاريين في جملة المرافئ الكبيرة، وفي البحر الأبيض المتوسط. وكان يستخدم بعض الشخصيات كمستشارين سياسيين، أو كوسطاء شبه رسميين، ويتراسل، لهذه الغاية، مع مارسيلوس Marcellus و Puckler-Muskau، ولاسيما مع Marmont. وحتى في الآستانة كان يستخدم عنصراً نشيطاً جداً، هو نجيب أفندي مع توجيه أساسي في المكر لمصلحته ضمن هذا الديوان.

وبدءاً من عام ١٨١٩ شاء أن يأخذ بمشروعه للنظام الجديد. وكانت هذه القوات العسكرية بحاجة ماسة إليه، وهو شيء لا يستغنى عنه إذا هو أراد أن يحقق حلمه في الاستقلال. وهو حلم «سيجلب له قريباً أم بعيداً» استياء الدول الكبرى. وفي ذلك اليوم، وسواء أتى من تركيا، أو من الدول الكبرى، مثل إنجلترا أو روسيا، أو حتى من فرنسا، فسيكون هو -محمد علي- قادراً على سحقه، كما سحق المماليك، والوهابيين، وقبائل النوبة. والواقع ومهما يكن الأمر غريباً أو مفاجئاً، أو مهما يبدُ كذلك، فإنه لن يطمع إلا بفضل الجيش، ومن أجل الجيش

في الأخذ «بالحداثة»، أو لنقل بتحديث الأرض القديمة. إنه يجب أن يلبس الجنود لباساً واحداً، ويجب أن تكون لديه الذخائر. ولهذا أقام مصانع البارود. ولن يكون الجندي الجاهل قادراً على أن يكون ضابطاً جيداً. وهكذا ستنشأ مدارس عسكرية محصنّة في البداية، ثم مدارس تهتم بالمصالح العامة. وكذلك فإن تحريك الجنود بالسرعة الضرورية، يقتضي وجود طرق جيدة، وطرائق اتصال جديدة ولذلك بدأ يحفر الأقنية، ويخطّط لفتح الطرق. ولا شك أن بلداً مفتوحاً من الشمال، على البحر المتوسط الضخم، لا يمكن أن يدافع عن نفسه إلا بوجود سفن حربية، ولهذا بنى الترسانات، لكي تصنّع المراكب. لنقل إذن إن هذه الإرادة التوسعية، وهذه الرغبة في امتلاك القوة، سيؤدّيان -في العذاب الكبير، غالب الأحيان- إلى جرّ الشعب كله على مضض إلى طريق التقدم رغماً عن الظلمات الموحشة التي يعيش فيها.

-١١-

جيش فرعون الجديد

(١٨١٩ - ١٨٢٤)

وفي عام ١٨١٩، قرّر الفرعون إقامة النظام الجديد الذي لم يستطع إقامته قبل أربع سنوات. واستعان لذلك بالدرجة الأولى بضباط فرنسيين، في أكثريتهم وبصورة خاصة، بواحد منهم هو العقيد Joseph Seve محارب قديم في الجيوش الإمبراطورية، الذي جاء يبحث عن الثروة في ضفاف النيل. وهذا الرجل شخصية مدهشة تستحق أن نقف لحظة قصيرة على تاريخ نشاطها.

ولقد ولد الرجل يوم ١٧/ ٥/ ١٧٨٨ في ليون، من أب صانع للقبعات، وأم، أبوها طحان. وفي يوم ٢٣/ ٨/ ١٧٩٩ في الحين الذي يصل فيه إلى الحادية عشرة اتخذت أسرته قراراً بإلحاقه في «البحرية» كي ينضبط طبعه المتمرد. وهانحن نراه يركب البحر في طولون، كمتدرب فني، في فرقاطة اسمها LA Muiron[(١)]. وبعد أربع سنوات وضع في كتيبة المدفعية الثانية. وفي عام ١٨٠٥ كان يشارك في معركة الطرف الأغر، حيث أصيب بضربة فأس، وفي عام ١٨١٢ أرسلت كتيبته إلى هانوفر، ويجد نفسه بعدها في ثلوج روسيا. وعندما نجا سمي مساعداً Adjudant. ثم إنه يشارك في آخر معارك الإمبراطورية خلال الأيام المئة للإمبراطور، حيث وُجد هو والكثيرون مُسرّحين من الخدمة عام ١٨١٥، لدى سقوط الإمبراطورية. وقد طلب أكثر من مرة أن يعود إلى الخدمة من جديد، فأُبي

ذلك عليه فانطلق عندئذ إلى تجارة عربات الأحصنة والأحصنة نفسها. ولم يحرز نجاحاً. وفي عام ١٨١٦ ومن تعب النضال، أرسل استقالته كضابط إلى وزير الحربية الجديد، الدوق دو فيلتر Defeltre فقبلت. وفي ذلك الحين لم يكن عقيداً ولم يصبح كذلك قط، على الرغم من أقواله لمحمد علي، بل بقي ملازماً في كتائب الفرسان.

وعلى كل حال فها هو الآن في حالة العوز والفقر، تلاحقه طلبات الدائنين. وخلال شتاء ١٨١٨، وما هُدِّدَ به من سجن، التجأ إلى خاله جويليه Juilet، ويحاول أن يكون نسياً منسيا. وأخيراً وجد أحد البيوتات التجارية ترضى بأن يكون ممثلها التجاري. فسافر إلى ميلانو في شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٨١٩، ووجد هناك ملاحقات جديدة. وسرعان ما وجد أنه لا يملك أية موهبة، كبائع. وعندئذ سمع أن شاه فارس يبحث عن ضباط قديرين، لجعل جيشه على مثال الجيوش الأوروبية، أو ما يسمى بالنظام الجديد. ويتجه إلى الصديق الوفي الوحيد الذي يستطيع أن يقدمه للشاه وهو الكونت دوسيغور. ويجيب الكونت برسائل اعتماد لسلطان آخر، تتثبت نظرات العالم عليه، أي محمد علي ولا يتردد سيف Seve في القبول. فيودِّع أوروبا، ويسافر إلى مصر في يناير (كانون الثاني)، ١٨٢٠ وفي هذه المرة أراد القدر أن يبتسم له، لا بفضل الرسائل التي تشهد له، فقط- ولكن بتوصيات من قبل المهندس باسكال كوست Pascal Coste - الذي عرفه في الإسكندرية. فيستقبله نائب الملك، ويوظِّفه في خدمته مباشرة. ويكتب كوست في حقه ما يلي: عندما كنت في معسكر فوج Pompee استقبلت زائراً فرنسياً هو السيد Seve، الضابط في كتائب الفرسان، الذي كان قد وصل منذ عدد قليل من الأيام، إلى الإسكندرية. وقال لي إنه يتمنى أن يخدم محمد علي باشا، فأسرعت بتقديمه إلى سموّه الذي أحسن استقباله، وكلّفه بإدارة معمل المدفعية في ترسانة القاهرة[٢].

وقـد أخطـأ Coste، في هذه النقطة الأخـيـرة، إذ أن نائب الملك وظفـه كمهندس، وأعطاه راتبـاً، لكي يسافر إلى أعالي مصر، بحثاً عن مناجم الفحم. وفيما يرى بعض الناس فإن التكليف بمثل هذه المهمة، لضابط خيّال، شيء يقرب من اللاكفاءة واللااختصاص، ولكن هذا يعني أننا لا نعرف العصر وعاداته. ففي تلك الأيام كانت مصر، ملتقى عدد كبير من المغامرين، والدجّالين من كل نوع، جاؤوا يبحثون عن الثروة، في بلد تعتبرها أوروبا الدورادو جديدة. فأبحروا في وادي النيل مسلَّحين، لهذه المناسبة، بألقاب، مفخَّمة بدرجة أو بأخرى، بحكم رغبتهم في إضفاء وجه جديد على أنفسهم، أو قل إنهم يُقبلون بأكبر الشوق، لخدمة نائب الملك، بمواهب يزعمون أنها لم تستخدم في بلادهم. ثم إن السقوط النهائي لنابليون، والأنظمة الرجعية للتحالف المقدس، فرقّت، وردّت إلى العطالة، بل حتى إلى طلب الصدقات، أناساً كثيرين، منهم من كان من ضباط الإمبراطورية أو من المجندين للثورة. وكانت أمريكا، وفارس، ومصر، التي تنفتح للحداثة، تُمثِّل، في عيونهم أملاً جديداً. لكن محمد علي، الحذر دوماً، يظل شديد اليقظة. وبعض هؤلاء ممن هم أكثر كفاءة، يُستبعدون بلطف وأدب، مثال ذلك البارون دار ماندي d'Armandy الملازم الأول السابق للمدفعية الطائرة للحرس، والذي أشار روسيل Roussel إلى مروره(٣) المذكور سابقاً، والذي جاء إلى مصر يحمل جواز سفره. وكان قد ظن أنه يجد عملاً ما لدى الباشا، ولكن عندما عيل صبراً حزم أمره على السفر إلى السويس، ثم إلى جدة، ومن هناك مضى إلى موكا(٤).

وهناك آخرون مثل سيف، وُضعوا تحت المحك، في مهام بعيدة في أعالي مصر، قبل أن يقبلوا ويُسلَّموا مراكز أساسية. وكان الباشا عندما يُحذَّر من الاختيار السريع، يجيب عن ذلك بقوله: «إني أعرف أنه من بين خمسين يقدمون إلي ربما كان ٤٩ يُشبَّهون بحجارة كريمة مزيفة. ولكني لا أستطيع اكتشافهم قبل أن أجربهم.

وعندما أجد الحجرة الكريمة الوحيدة الصحيحة، فإنها تعوضني هذه المرة عن الخسارة التي تحملتها من الآخرين(٥).

وأكثر من ذلك أن هؤلاء القادمين الجدد كثيراً ما يثيرون مصاعب تجعل بوغوص بك مرغماً على الكتابة إلى مختلف الممثلين الأجانب بشأنهم، ويشهد على ذلك تلك الرسالة التي كتبها Thedenat Duvent إلى الجنرال Dessoles، وزير الشؤون الخارجية عام ١٨١٨. وإليك الآن نصها:

سيدي:

أتشرف بأن أقدم لسيادتكم نسخة مع ترجمتها المقابلة من بيان كتب باللغة الإيطالية، ليُوجَّه إلى جميع الممثلين الأجانب، كالقناصل أو من يشبههم، بأمر من سموّ الباشا، نائب الملك في مصر، عن طريق السيد بوغوص، أمين سره الأول وترجمانه، وفيه يشكو من أن كثيرين من الفرنسيين القادمين حديثاً، يقومون بأعمال مسيئة تجعل عيون الشرطة تتفتح عليهم.

وإنه لمؤكد، يا سيدي، أن الإنسان يرى، منذ بعض الوقت، عدداً كبيراً من الأجانب، وأكثرهم من الإيطاليين وأبناء مالطة واليونان. وهم أفراد سيئون أو مشبوهون، بل إن منهم من ارتكب مخالفات من أنواع مختلفة من الإساءة إلى النظام العام، تصل أحياناً إلى حد الجرائم، وهي جرائم أساءت ولا تزال تُسيء إلى مجموعة الفرنسيين الشرفاء من زاوية أمنهم الشخصي الذي يمكن أن يؤذى(٦).

وهكذا نفهم بصورة أفضل حذر الباشا.

وعلى ذلك فإن سيف قبل المضيّ إلى أعالي مصر. وبدا فيما بعد أن رحلته كانت خائبة، إذ ليس هناك أي أثر للفحم. ولكن عندما عاد إلى القاهرة بعد ثلاثة أشهر من الغياب، قدّمه محمد علي إلى ابنه إبراهيم، باعتباره قادراً على إنجاح المشروع الذي داعب خياله خلال مدة طويلة: أي إعادة تنظيم الجيش المصري.

وسمي «سيف» مباشرة «آغا» واعترف به رسمياً كمعلّم. ولكنه ليس الضابط الفرنسي الوحيد المكلّف بمشروع التطوير العسكري. وفي الوقت نفسه نجد الملازم أول ماري Mari (المعروف باسم بكر آغا الكورسيكي الأصل ورئيس الأركان فيما بعد للجيش الذاهب إلى الجزيرة العربية) وقد لقب بلقب Bey-Tapin من قبل الجالية الفرنسية وهو واحد من الفرنسيين النوادر، الذين تعلموا بسرعة كبيرة لغات البلد. وكانت هذه الكفاءة تسمح له أن يترجم كتيبات عسكرية إلى اللغة التركية(٧). ونعثر أيضاً على الرقيب آرغو argault والنقباء كادو ودوميرج وكيسون Cadeau, Dau-mergue, Caisson. وهناك نقيب أسمه Beaufort d' Hautepoul، كان يساعد على تنظيم هيئة الأركان على حين أن ضباطاً آخرين مثل براسي، Brassy وبروم Prom وبوك Bock والفينغين Walfingen وآراغو Arago يخدمون حول الماجور جنرال. غير أن هذا التعداد لم يقل كل شيء. ففرنسا تبدأ بأن تكون أكثر فأكثر حضوراً في الأرض المصرية، وعلى ما سنرى فيما بعد، ستحتل قريباً أو ستشغل كل البنى الكبرى في البلد، سواء أكان الأمر في المجال العسكري، أو البحري، أو الطبي، أو الزراعي أو حتى في عالم تنظيم المدن، بإشراف المهندس ascal Coste.

وأنشئت مدرسة المشاة العسكرية عام ١٨٢٠. وكانت التدريبات الأولى تتم في القسم الأدنى من القلعة، فوق ساحة الروملي، في حضور الباشا، والسلطات الكبرى، وأمام جمهور كبير العدد. إلا أن هذا الجمهور على عجل من أمره في التمتع والفرح بالمقاومة التي يبديها مواطنوه ضد المعلّم الفرنسي، أكثر مما هو مستعد لحسن تقييم نوعية المناورة. أما بالنسبة لأهل البلد، فإن هذا النظام الجديد يكاد يمس الكفر لا لأنه يقتضي النظام والإكراه، بل لأنه يبدو لهم أن من اللامحتمل أن ينقاد عسكري مسلم لأوامر ضابط مسيحي.

وبعد عدة أسابيع من المحاولات، وعلى الرغم من مثال إبراهيم الذي انقاد كأي مجنّد، للأوامر ووقف في الصف كالآخرين، فإن الذي تقدم هو المعارضة

وروح التمرّد. وبهذه المناسبة إليكم هذه القصة التي ينقلها أكثر المترجمين للرجل المعدِّ للبقاء في ذاكرة الشعب المصري، لا تحت (أسم العقيد جوزيف سيف، بل بعد اعتناقه الإسلام تحت اسم سليمان باشا العظيم).

وقامت كتيبة يوماً ما بالتدرب على إطلاق النار على ضفاف النيل. أما «سيف» الراغب في التمتع بالمنظر، فإنه يهمز الفرس برجليه، ويبتعد بصورة يستطيع معها أن يرى جملة المناورات. وعندما وقف أمام الصفوف بدأ يصدر أوامره وعندما قال: أطلق النار رأى حصانه ينتفض، فصفرت بعض الرصاصات حوله، وكادت أن تصيبه. وعندئذ ينتصب فوق همازتيه وينقض على الكتيبة التي يهزها، ويضرب ذات اليمن وذات اليسار بكرباج قوي، لكن الضربات أو الطلقات تتكاثر ويصرخ هو: «ما أكثر غباءكم» أبمثل هذه المسافة ولا تصيبون هدفكم؟ «أعيدوا الكرّة إذن!» صوّبوا وأطلقوا النار. وأثار النقع تحت أقدام فرسه ووقف مجدداً أمام الكتيبة وأمر «استعد السلاح، صوب، أطلق النار!» ويؤكد من حضر أن أفراد الكتيبة الذين إذ رأوا بأعينهم كل هذه البطولة، ارتفع ضجيجهم، وأعربوا عن الندم، ويلاحظ أن بعضهم ازداد إعجابهم، حتى وصل بهم الأمر إلى تقبيل همازتيه(٨).

لكن مجموعة صغيرة اعتنقت الإسلام لا تكفي للحصول على الإجماع. فالرجال يتدرّبون ولكن بما يشبه الغصب الواضح، يتدربون على هذا الفن الجديد في الحرب. وكانوا يضيقون صدراً بهذه التدريبات المغرقة في «المكانيكية» التي تجعل من الجندي كائناً بلا إرادة، في عيونهم، أو كما يرون هم. وأخيراً وأمام هذه المقاومة العنيدة وهذا البطء في التقدم، يُتخّذُ القرار (بتأثير سيف على الأرجح) بنقل الكتيبة إلى Esneh على مقربة من أسوان، في أعماق مصر العليا، وإلى فارشوط Farchout، ما بين Girgheh وكينيه Keneh حيث توجد معسكرات التعلم وحقاً فإن هذا الانتقال هو الوسيلة الوحيدة لإبعاد المتدربين الجدد عن العاصمة، وجعلهم في نجوة من الاجتماعات العامة التي لا تفتأ تندد بمفاسد النظام الجديد.

وفي أول الأمر، كانت نواة الجيش تقوم على سواعد أقرباء لنائب الملك، وأبناء موظفيه بما لا يزيد عن ٣٠٠ أو ٤٠٠ شخص في المجموع. وشيئاً فشيئاً، وبتأثير «سيف» وما فيه من شجاعة واندفاع سيزداد، هذا العدد. وسرعان ما وُجد رجال أكفاء قادرون على تعليم الآخرين تعليماً يكفيهم للانغماس في الجمهور المجتمع في، بني هالي، على مقربة من منفلوط في أعالي مصر.

ومنذ عام ١٨٢٣ كان في وسع نائب الملك أن يجعل قناصل فرنسا وانجلترا، دروفيتي وسالت Salt الذين صحبوه إلى مصر العليا، يعجبون بالمناورات التي قام بها ثلاثون ألف رجل تعلموا النظام الجديد، وانتظموا في سلكه.

ويمكن لمثل هذه الحركة أن تكبر وتتضخم، لولا أن الخسائر الهامة التي نشأت عن عدم اعتياد السودانيين على الحياة داخل المعسكرات، لم تكن تطرح مشاكل جدّية، في إعداد المجندين. وهذا ما حمل الباشا على اتخاذ قرار يجعل التجنيد يمتد إلى أهل البلد أنفسهم، أي على المصريين. وبتعبير آخر، نقول أن هذا تجديد ذو شأن، ذلك أنه يختار إنشاء جيش وطني. وهذه هي المرة الأولى، على الأقل منذ بداية الزمان، التي يحصل فيها المواطن المصري على حق امتشاق السلاح. وحتى هذا الحين، كان الجيش الفاعل في مصر، غريباً عن أهلها تماماً.

وبدءاً من عام ١٨١٧، كان نائب الملك الراغب جداً في تسريع تعليم أفراد كتائبه، يحتاج إلى معونة أجنبية، فكلّف تاجراً فرنسياً من الاسكندرية اسمه تورنو، بالحصول على مساعدة حكومة لويس الثامن عشر. ويستجيب الملك بشحن أربع بندقيات من صناعة Sainl Etienne سداً لحاجات المدرسة العسكرية[٩]. وحوالي منتصف ١٨٢٤ يكلف تورنو Tourneau الجنرال بيليار Belliard الذي وقّع عام ١٨٠١ عقد استسلام القاهرة، بتأسيس لجنة مكلفة بدعم ونصح الباشا، في محاولة التطوير، التي يقوم بها. ويختار بيليار لرئاستها لواءاً هو البارون بويّيه Boyer، الذي كان هو أيضاً أحد رجال الحملة على مصر. ويصل هذا إلى مصر في آخر السنة ومعه

نائب له هو الماركيز دو ليفرون Marquis de Livron الذي يظل يقبل ويدبر عدة مرات بين باريس والقاهرة بغية تنفيذ طلبات القاهرة من المعدات والذخيرة، واختيار مدربين عسكريين أيضاً.

وقد زيد في أعضاء لجنة Boyer خمسة رؤساء مفرزة، ونقيبان Captaine وملازمان أولان Lieutenant وعقيد في المدفعية هو ري .Rey. ولكن هنالك أمر هام هو أن النموذج المعتمد لإنشاء هذا الجيش المصري، هو النموذج الفرنسي نفسه. وكذلك كان الأمر في القواعد المتبعة في الجيش الفرنسي بعد أن تمت ترجمته للغة العربية.

وبفضل هذه المعونة استطاع محمد علي عام ١٨٣٣ أن يقدر أن لديه حوالي ٩٨٠٠٠ جندي من المشاة. أما بالنسبة إلى عام ١٨٢٩، فإن كادالفين Cadalvene وبروفيري Breuvery يحصيان الأعداد بصورة أقرب إلى اليقين. وفيها:

٢٢ فوجاً من مشاة الصف فيها ٤ كتائب من ٨٠٠ رجل، أي ٣٢٠٠
جندي للكتيبة---------------------------------- ٧٠٤٠٠

فوجان من مشاة الحرس ------------------------- ٦٤٠٠

فوج من المشاة يتكون في سوريا ------------------- ٣٢٠٠

١٣ فوج من الخيالة في كل منه ٦ سرايا من ١٤٠ رجل أي --- ٨٤٠

١٤ في كل فوج --------------------------- ١٠٩٢٠

فوج من خيالة الحرس -------------------------- ٨٤٠

فوج من الخيالة يتكون في سورية ------------------ ٨٤٠

فوجان من سلاح المدفعية مشاة، يضم كل واحد ١٥٠٠ رجل ٣٠٠٠

فوجان من سلاح المدفعية من الفرسان ------------ ٣٠٠٠

ثلاثة أفواج من المحاربين القدماء يضم كل واحد ٨٠٠ رجل -٢٤٠٠

المجموع = ١٠١٠٠٠

بيد أن العبء العسكري المفروض من قبل محمد علي على شعبه، بدأ يصبح مرهقاً جداً، أما دعوة المجنّدين فسوف تعاش من قبل الفلاحين، بصورة مفجعة.

ويبقى السيناريو جامداً باستثناء بعض التفاصيل. إذ أن الحكومة تبعث إلى كل المديرين، ومن هؤلاء إلى كل مشايخ البلد، بأمر يطلب تقديم عدد من الذين حان موعد تجنيدهم، خلال مدة معينة. أما المرتزقة المرتبطون بخدمة الحكومة، فإنهم يهبطون فجأة على القرى للبحث عنهم وينجح بعض القرويين في الهروب. وآخرون يختفون أو يختبؤن بين المقابر، حيث يتلقون من نسائهم، متى جُنَّ الليل، طعامهم. وبعضهم يخلع بعض أسنانه (القواطع) (لكي يعجزوا عن تمزيق غلاف الخرطوشة). وفئة ثالثة تكلّف آخرين بضربها على السبابة في اليد اليمنى (من هنا تمتنع عليهم القدرة على إطلاق الرصاص)، أو يحرقون إحدى العينين بالكلس الحي (من هنا ينشأ العجز عن التصويب)، ويُصحب هذا كله بشتائم ولعنات لمن أصبحوا يسمونه ظالم باشا. أما الهاربون من الخدمة فيردّون إليها بالضرب بالعصي أو بالكرباج، الذي يُختار جلدهُ من فرس النهر أو جلد الفيلة(١٠). ثم يجرّون إلى ساحة القرية المركزية، فيصلون في حالة من التعب والبؤس إلى الدرجة التي تجعل الأطباء يُعفون من الخدمة العسكرية، عدداً يربو على النصف. أما الباقون فإنهم يشحنون، مكتوفي الأيدي من خلف الظهر، إما إلى القاهرة وإما الإسكندرية ليلتحقوا بطبيعة الحال بالسلاح الذي أُعدّ لهم. غير أن كل هذه الفظائع ستؤدّي إلى تغيير غير متوقّع في حيادية هؤلاء الرجال، أي إلى تغيير في وضعهم النفسي، على بعد ألف ميل من امتيازات محمد علي.

والمصري، بطبيعته، كائن مسالم في جوهره. وعلى الرغم من أنه قد يكون محاربًا، منتصراً تحت قيادة الفراعنة، فإن قرونًا من الاحتلال جعلت أكثرهم ينقادون إلى هذه الجبرية الخاصة بالإسلام، التي ترى أن الخير والشر يتعلقان فقط بإرداة اللّه.

وعندما كانت مصر تحت الحكم العثماني، كانت رؤية أي تركي مسلح بعصا، توقظ فيه مشاعر خوف لا يمكن ضبطها. وكان المحتل هو الراعي الذي يسوق أمامه قطعان الماعز أو الخراف، دون أية مبالاة بفكرة الخوف أو الإذلال التي يثيرها حوله. ولكن هانحن الآن وبصورة لا يمكن أن توصف، أمام معجزة تقع. إن الفلاح الملتزم بالجندية ينسى وضعه في الحالة الأولى ويقول في نفسه «إني جندي محمد علي، وينتقل من الوضع التافه، المصغر والذليل ليتبنى الآن، في وقوفه تحت الأعوام مجنداً، وضعاً مضاداً لذلك الذي كان يعرفه لنفسه في القرية إنه يرفع رأسه الآن عالياً، ويقول أنه جندي محمد علي» ويجد في هذه التسمية وسيلة لرفع الاعتبار. وعندما يجدد أتراكًا يُذكِّرونه بأصله المتواضع بغية شتمه والإساءة إليه، يجد للمرة الأولى أنه قادر على ردّ الشتيمة بمثلها. وهكذا وعلى مرّ الأيام، فإن الجيش الوطني يصبح الموئل الذي تتكوّن فيه، هوية وطنية، وشعور قومي، يفسحان مجالاً، فيما بعد، لما يسمى عصر النهضة التي هي صورة من صور الاستحالة اللا متوقعة، التي تتدخل أحيانًا في مصائر الشعوب.

فإذا كان الأمر كما نقول، فإننا إذا وضعنا أنفسنا في مكان محمد علي، أمكننا أن نفهم الأسباب التي تجعله يدور في إطار تركي بالدرجة الأولى. ذلك أن نائب الملك يعتبر - وبحق - على ما يبدو لنا - أن المصري الذي انحط بسبب العبودية الطويلة، قد فقد كل غريزة قيادية. وبهذه المناسبة، نقول إنه عزي إلى الباشا، أنه قدّم توصيات، لا نعرف ما إذا كانت صحيحة، أو أنها جزء من القصة الخرافية. فيقال إنه قال لابنه إبراهيم: «احذر لا تضع الجنود المصريين أبداً في الصف الأول، ذلك أنهم سيكونون أول من يستسلم، ولا تضعهم أيضاً في الصف الأخير، ذلك أنهم سيكونون أول من يتراجع ويهرب. فاحبسهم إذن بين ضباطنا الأتراك».

وإنه لمن الممكن جداً، إنه لولا اليد الحديدية العثمانية والتأطير الغربي، لما كان المصري قادراً على الانتصارات التي أصبحنا نعرفها. ولقد فهم ذلك محمد علي،

وأتخذ عن سابق قرار وتصميم، موقفًا متحيزاً، ومقصوداً. وبالمقابل فإن موضع النقد إلى أبعد مدى، هو أنه يطبق نفس المحاكمة على المجالات كلها، بلا استثناء، مفضلاً دومًا، ذلك الغريب على ابن البلد وهو يستبقي بهذا شعبه منفياً على أرضه نفسها.

النظام في السلوك اليومي

إن اللباس مُوحد لكتائب المشاة والأفواج، من دون تمييز. وهو يتألف شتاءً من بنطال من نسيج صوفي أحمر مُطوّى عند الحزام، ومضيّق عند الركبة، ومن معطف صغير من نفس النسيج، مشدود بحزام من الجلد. أما في الصيف فإنه يخاط من قماش قطني ميال إلى اللون الرمادي. ويأتي الطربوش، فيكمِّل هذا المجموع. وهو واحد للجميع، مصريين أو أوربيين. ولنقل مباشرة: إن هذه الألبسة أسيئت خياطتها، وكثيراً ما تكون مهترئة. أما الأحذية فإنها، على ما هي عليه الطريقة الشرقية، إنما تلبس كما تلبس «البوابيج». نحن إذن بعيدون جداً عن سان سير حتى ولو كان روح المؤسسة المشهورة، يحاول أن يُبعث.

ويتألف الغذاء البائس، من الخبز والفول والعدس والأرز. أما اللحم فقليل، هذا إن لم نقل معدومًا. وأما المخصصّات فإنها تكشف عن اللا تناسب الضخم بين رواتب الضباط ورواتب الجنود البسطاء. أما أهمية الراتب، أو راتب الضباط، فسببه أن محمد علي يريد إخلاصًا كبيراً من رجاله، ثم لكي يحرم السلطان من أفضل عناصره في هيئة الأركان.

وحرصًا على أن لا توجد حوادث هرب جماعية قبلت السلطة بألا يفصل العسكريون عن زوجاتهم. وهكذا فإن الثكنات، وأماكن تجمّع الجيش، تُرى محاطة بغريفات مسكينة، مبنية بالطين المجفف، حيث يتجمع نساء وأطفال في نوع من الاختلاط البشع. وعندما ينتقل الفوج إلى مكان آخر، إن لم يكن بعيداً جداً،

فإن الأسر تمسك بما لديها وببعض الأواني، وتتبع رجالها، مهما تكن الحال. وليس من النادر أن نجد جنديًا يحمل ولده. فإذا تعلق الأمر بحملة بعيدة، فإن النساء المهملات لا يكون أمامهن إلا الجوع أو خلع العذار[١١]. ويقول Chaix «إن هؤلاء الآباء الفقراء تتبعهم نساؤهم لتتقاسم معهم عدسهم وخبزهم الموزع عليهم من الثكنة[١٢]. وكل معسكر مصحوب بجملة أكواخ بلا سقف، تحتمي بها هذه الأسر الجائعة. أما مدة الخدمة العسكرية، فليس لها من نهاية إلا نهاية القوة البدنية للرجل، وعندئذ يبقى له أن يموت».

وفي البداية لم يكن للضباط من لباس مُوحدً، أو مقيّد بنظام معيّن. أما فيما بعد فقد أصبحوا يلبسون معطفًا قصيراً مطرزاً باللون الأحمر الوردي. والسروال، لباس واسع عند الفخذ، ضيّق عند ربلة الساق، وصدرية تركية بعشرين زراً، وحزام من الحرير فيه خطوط مذهبة، ولفائف من جلد الماعز وبوابيج حمراء[١٣]. أما العقداء فإنهم يحملون علامتهم (النيشان) وهي زينة بصورة الهلال المذهّب أو المؤلمس. وبصورة عامة فإن كل من هم من أصحاب الدرجات يتميّزون عن رجالهم بزخارف العرى البرندبورية من الصوف والذهب. لكن المساعد Adjudant يحمل على صدره ربع هلال.

ويتألف سلاح الجنود الجدد، بالدرجة الأولى من (سنكه)[١٤] وبندقية ذات حراب مثلثة الشكل، من طراز ١٧٩١ وليس هذا السلاح إلا الخلف الحسن المباشر، لما كان قبله عام ١٧٧٧. وبهذا السلاح المحترم المطعّم بالسيليكس (الصوان) أنجزت انتصارات إبراهيم، تمامًا كانتصارات نابليون. بيد أن بعض الألوية كانت مسلّحة بحربة ذات منشار، وأخرى من بنادق من منشأ بلجيكي أو إنجليزي. وتعرف هذه الأخيرة بمدافعها القصيرة المدى وعدم وجود الحلقات[١٥]، كما تعرَّف بسوء نوعيتها، مع الأسف.

أما ما يتعلق بفرقه الفرسان، فإنه يمكن القول إنها بمدرَّعيها ورمّاحيها وقنّاصيها، يمكن أن تُقرَّب أشد التقريب من سلاح الفرسان الفرنسيين. وحقًا فإن الفرسان يحملون نفس الدروع من نموذج عام ١٧٩٨، ذات حشوة مضفورة بشرائط من الجوخ الأحمر تحيط بالرقبة، وفتحات الكتف، وبسيف مقبضه من الصفر، وبغمد من الحديد من مصنع كليغنتا Kligenthal ومسدس قربوس السرج من عيار ١٨ بحاضنة من النحاس. ومع ذلك فإن الفكرة السيئة لدى المسلمين عن القبعة، أرغمت أصحاب العلاقة، على تغيير غطاء الرأس أو الخوذة، ففرِضت مقدمتها. أما زينة الخوذات على الطريقة القديمة فقد عوّض عنها بهلال، كما غيِّر العرف بغطاء للرقبة بالزرد. أما اللباس فإنه يتألف من سترة صغيرة زرقاء بدون ذيول، ومن سروال طويل من نفس اللون، يغرز في الجزمات. أما في الصيف فإن اللباس التحتي يتألف من بنطال من القماش الأبيض(١٦).

وعندما لقي أوزيب دولاسال Eusebe de salle مفرزة من هؤلاء المدَّرعين، فكر إنه لا ينقصهم إلا دروع الفخذ وقطعة نقد Ecu(١٧). وفي عام ١٨٤٣ رآهم جيرار دونرفال يلمعون تحت شمس القاهرة أثناء الاحتفال بالمحمل (أي الذهاب إلي الحج)(١٨). غير أن هذه الخيالة لم تستطع من شدة الحر أن تتعود حمل أستلحتها. وليس هناك، باستثناء بعض المفارز المعدة للحراسة، من استمر في حملها وانتهى الأمر بالاستغناء عنها وإيداعها في مستودعات الجيش.

وكان سلاح المدفعية يستخدم نماذج المدافع الموجودة أو المستخدمة في فرنسا، أي قطع ال ٨ وال ٦ وال ٤ وقد صنّعت بعض البطاريات الثقيلة أو لنقل تألفت من مدافع الهاون ومدافع الحصار. وكل جندي يعمل في سلاح المدفعية يلبس بدلة رسمية لونها أزرق غامق..

ولكن لا يكفي في إنشاء الجيش أن يكون لدينا جنود يحسنون الالتزام بالنظم العسكرية، بدرجة كبيرة أو صغيرة، ولا أن يكون بين أيدينا عتاد وذخائر. ذلك أن

كل دولة تريد الاستقلال أو تنزع إليه، أو تريد استبقاءه، لا يمكنها الاعتماد دوماً على الأجانب في صناعة الأسلحة. وهذه حقيقة أولية فرضت نفسها، منذ الساعة الأولى على محمد علي. وبدأ الأمر بقلعة القاهرة وجربت إعادة تنظيم المستودع.

وكان على رأس المحاولة مهندس تركي اسمه محمد أفندي الودنالي الملقب بالطبّال. ولكنه فقد ثقة مولاه فاستبعد ثم مات عام ١٨١٠ في الاسكندرية في شروط غريبة، في اللحظة، التي كان يحاول فيها، فيما يبدو، السفر إلى الآستانة. وفي عام ١٨١٧ يقوم مهندس فرنسي اسمه Gonon، بتجهيز العنبر بمكنة للحفر وبأفران عاكسة (أي تتم عملية الصهر بانعكاس حرارتها على المعدن). ويبدو أن الرجل في البداية، كان موضع ثقة الباشا، إلا أن هذه العلاقة تهاوت[١٩] فيما بعد. ونقل عن الباشا قوله: أن غونون ثمين جداً، ولكني لن أستخدمه مطلقاً ما دامت لي الباشوية.

وأقيم في جوار العنبر، معمل للأسلحة السهلة النقل. وكان بعض خبراء صناعة السلاح الألبان يصنعون فيه بلاتينات ممتازة[٢٠]. ثم إن فرنسياً آخر، كان في ماضيه يراقب صناعة الأسلحة في فرساي إسمه Guilemain، كلف عام ١٨٣٣ بإدارة هذه المنشأة التي أصبحت منذ ذلك الحين تنتج بنادق بالجملة، من النوع النظامي. ثم إن مصر جُهِّزت أيضاً بمعمل للأسلحة البيضاء، ولصناعة البارود، وبمعمل آخر للخراطيش[٢١]، وبمعامل لصناعة العتاد والاسراج Harnachement.

ومضى الأمر إلى الأمام، وأنشئت معامل لصنع النيترات تعمل بمجرد التبخر في الشمس، في تيرانيه Terraneh، وفي آشمونين Achmounein، في القاهرة القديمة وفي بدراشين Bedrachein وآسيوط، بعناية إيطالي، اسمه Baffi، (ولقب باسم عمر بك)[٢٢]، بمراقبة Pascal Cost الذي كان يومئذ مهندساً رئيساً، لنائب الملك.. وكانت الأولى تنتج ما يقرب من ثلاثة آلاف قنطار سنوياً[٢٣]، ثم إن

الكومس، Koms أي أكوام الأنقاض للقاهرة، تؤلف وحدها مصدراً لا ينفذ ما عنده. وكانت العادة أن ينتج ملح البارود بطريقة المراجل، وهذا نظام مكلف جداً للقاهرة أو لمصر، التي كان عليها أن تأتي بهذه من أوروبا، وكانت المادة الوحيدة التي تُحرق هي قصب الذرة. وكثيراً ما كان المحصول غير كاف، فإذا فقد قصب الذرة فقد معه ملح البارود. وأكثر من ذلك أن الطريقة كانت مرهقة جداً للحكومة أي أن كل قنطار يوازي ما قيمته أكثر من ١٠٠ فرنك. أما نظام التبخر الذي ابتكره الإيطالي، فصار لا يكلف أكثر من عشرة فرنكات. ثم إن هذا «البافي» يستغل بحيرات النطرون، وصحراء ليبيا، ويغني مخزن البارود القديم الفرنسي القائم في جزيرة الروضة.. وقد ترك مصر هذا الرجل الطريف، مرة أولى عام ١٨٢٢، وهو غني، يحمل في جيبه مبلغاً فلكياً أي ما يقرب من ٥٠٠ ألف فرنك. وقد بدّد هذا المبلغ يميناً ويساراً، خلال سنتين وعاد إلى القاهرة حيث يستخدمه محمد علي مرة أخرى.

وكذلك فقد أنشئ في القاهرة عام ١٨٣١، في حوض المقصود(٢٤)، معمل للبنادق يشرف عليه رجل اسمه مارانجو. وانتهى إلى استخدام أكثر من ألف ومئتي معلم عامل، أو متعلمين وإنتاج ما يقرب من ٩٠٠ بندقية شهرياً. ولكن هذا السلاح المصنوع على المثال الفرنسي، أصبح يعتبر أكثر خفة وأسهل تناولاً من النموذج الإنجليزي، وبديهي أنه ما من واحد من هذه النشاطات يغيب عن انتباه القناصل المقيمين في مصر.

ويقول Driault لحساب محمد علي طبعاً.. إنه ينتبه في القوت نفسه إلى جملة من المنشآت النافعة، التي أقيمت لرفع مصر إلى مستوى عال من الازدهار، إن كان هنالك درجة من الاستقرار في الحكم أعلى من الدرجة السائدة، أو إذا كان هو - محمد علي - لا يريد كلِ شيء لنفسه. لقد كان يريد لمصر أن تحتاج أقل ما يمكن من الخارج وأن تكون قادرة على إمداد جيرانها بإنتاجها.

وهكذا فإنه لا يتوقف عن إغراء العمال من كل نوع. وأنشئ معملان للسالبيتر واحد منهما في القاهرة والآخر في أسيوط.. واشتُريت أعداد كبيرة من المواشي، وسلمت إلى البدو الذين يعيشون على مقربة من الصحراء. وكذلك فقد استخدم أوروبيون غير قلائل لتمليح الأسماك التي تكثر في البحيرات، ووزعت عشرة ملايين من أشجار التوت في أسيوط، التي استدعي إليها عدد غير محدود من الأسر الدرزية، لكي تربّي دود الحرير، وتبعد مصر عن التبعية لسورية، من أجل هذه البضاعة. ثم إن القناة الرحمانية في أبو قير، الغاصة، منذ قرون عديدة بما جاء إليها من هنا وهناك ستحفر من جديد، وتفتح للملاحة. وقد شعر نائب الملك أنه لا يكفي أن يكون لديك الكثير من البضائع، إذا ضعفت أو نقصت وسائل تصديرها. وقد بدأت الدولة بهذا العمل الكبير الذي سيعيد الزراعة إلى محافظة كاملة، عدا فوائد الملاحة.

أو أيضًا «إن الباشا أمر رجاله في أوروبا أن يبحثوا له عن عمال من كل نوع. وهو يريد إقامة فبارك في بلده، حتى لا يحتاج يومًا إلى بضائع أجنبية. وهو يمتدح نفسه على أنه استطاع صناعة أجواخ وأقمشة حريرية، وقطنية، إلخ.. ولا ريب أن شقاء جنوب أوروبا يومئذ ييسر له تحقيق رغباته، من هذه الناحية. وتقوم مراكبه التي تصل إيطاليا لتأتيه بعدد كبير من الأشخاص.

واستطاع محمد علي، بعناده القوي، أن يصل إلى إنتاج سلاح دفاعي، وسلاح هجومي استثنائيين في عصره، وخاصة بالنسبة إلى بلد مثل مصر كانت أو ظلت حتى مدة قريبة غارقة في الفوضى.

وإذا شئنا أن نُصنّع الأسلحة، وجب علينا أن نثقّف العقل. ولهذا تنشأ مجموعة من المدارس العسكرية. ففي عام ١٨٢١ في بولاق، أنشئ معهد للدراسات العامة. وفيها تعلّم اللغة العربية، والتركية، والإيطالية، كما تعلم

مفاهيم الحساب والهندسة. وأتي بمثقفين إيطاليين وأخر سوري اسمه رافائيل دوموناشيس اقاموا بإدارته وأشرفوا على الدراسات. ومع الأيام نشأت مجموعة من المؤسسات المعدة لتأطير هذا التعليم الأساسي. وبين عامي ١٨٢٢ و ١٨٣٤ نجد بالتتابع: مدرسة للضباط الصف في دمياط، والمدرسة العسكرية العليا في خانكاه التي جعل نظام تدريسها وموادها على شاكلة مدرسة سان سير العسكرية. وكذلك أنشئت مدرسة للأركان بالمعنى الدقيق، ومدرسة للموسيقى العسكرية والهندسة التي تقدم أولى حفلاتها في ٤/ ٥/ ١٨٢٦. وبعد ثلاث سنين، أنشىء معهد مماثل في أبو زعبل وكان يعزف المارسيليز أثناء عشاء دعا إليه «كلوت بك»[٢٥].

أترانا مضطرين إلى التذكير، بأن هذه المدارس لم تنشأ إلا لكي تقدم العناصر الضرورية للوحدات المحاربة، والخدمات الإدراية للجيش،

ولنقل إن الجهاز التعليمي أوروبي بالدرجة الأولى، إن لم نقل إنه فرنسي. وكان سيدوم هذا الوضع إلى ما لا نهاية، لولا ميل محمد علي إلى الاستقلال. ونراه يقدّر أن الوقت قد حان لتهيئة المصريين للحلول محل الأوروبيين ومحل هؤلاء التقنيين الذين يكلّفونه أموالاً باهظة. وفي هذا المنظور قرّر محمد علي عام ١٨٢٦ إرسال عدد من شبابه، لتلقي الدراسات العالية. وكان بهذا يستعيد مشروعًا قديمًا، كان قد فكر فيه بونابرت أثناء إقامته في مصر، ولم ينجح في تحقيقه. بسبب الحصار البحري المفروض من الإنجليز. فالتحية لبونابرت مرة أخرى،. ولفرنسا دومًا. . .

١٢

الفرعون والمعرفة
النظام والعدالة (١٨٢٦ - ١٨٤٠)

أبي العزيز جداً:

لقد وصلنا بحماية النبي (ص)، سالمين، أصحاء في نهاية رحلتنا، لا تقلق على صحتي. فالطبيب الفرنسي الذي كُلِّف بها قال إنها جيدة، ولكنه يجد أن بشرتي صفراء قليلاً. وقد وصف لي علاجًا لإعادة لوني الطبيعي. وسآخذ كل دواء يريدونه. إني هنا لأتعلم. . . .

إنهم ينزهوننا بانتظار أن يبدؤوا تعليمنا. ولقد أروني الشانزيليزيه، والتيفولي، والقصر الملكي (باليه رويال - المسرح الآن). ولا شيء أدعى وأبعث على المسرة من هذه الإقامة الأخيرة. إن أمامنا سوقًا كبيرة عرضت فيها كل ثورات الدنيا. وعندما ينتهي النهار، نجد أنفسنا في حديقة رائعة، ترى الأزهار فيها تُعطر الهواء. ومساقط الماء تشيع الرطوبة، وتظهر خلية من الحسناوات الشابة هربت بلا ريب من أسرة مجاورة، وما من حجاب حقود يخفي إغراءاتها. وما من حارس يحميهن. وكانت إحداهن تنظر إليّ ضاحكة، وهزني الإغراء وأسرني، فتبعتها، وكنت على وشك أن ألقي إليها بمنديلي. ولكن هذا اختفى من جيبي. أو لعل يداً متأنية، سحبته، لكي تمنعني من القيام بعمل غير سليم. وهذا كله لا يهمّ، إنني سأعود إلى هذا المكان وسوف أرى حسنائي المجهولة وأرجوك أبي أن تشتريها لي، متى أصبحت عالمًا إذا كانت كما آمل، موضوعة برسم البيع.

إن هذه الرسالة التي نشرت في ٢٢/ ٨/ ١٨٢٦ في جريدة ساخرة فرنسية اسمها Pandore وثم أعيد ذكرها ونصها في كتاب لأنور لوقا عنوانه : سوّاح وكتّاب مصريون في فرنسا، في القرن التاسع عشر[١]، تحيّي أوائل البعثات الطلابية التي أراد إيفادها محمد علي. وإذا تركنا السخرية جانبًا، فإنها تعكس عكسًا شبه جيد لخليط من السذاجة، والفضول، وحتى الاضطراب، الذي كان يجب أن يشعر به الفتيان الذين جاؤوا حديثًا من وادي النيل، عندما اكتشفوا لأول مرة مدينة غربية.

وكان نائب الملك في البداية، يفكر بإيفاد بعثاته إلى إيطاليا لا إلى فرنسا، وليس في هذا ما يثير العجب، ذلك أن اللغة الإيطالية، في ذلك الحين كانت اللغة الأوروبية الأوسع انتشاراً في الشرق. ولئن اختيرت فرنسا أخيراً، فذلك لأن دروفيتي تدخّل في الموضوع. وحقًا ففي عام ١٨٢٦، سأله بوغوص بك عن رأيه في هذا الموضوع، فنصحه أن يتجنب إيطاليا وخاصة، حيث تنحط الحياة العقلية تحت نظام رجعي[٢].

وقد سلّم أمر البعثة الأولى من الطلبة إلى جومار Jomard. ولكن الجغرافي الشهير استعان في هذه المسألة بمساعد له هو، جوزيف عقوب Joseph akoub، وهو قبطي يعيش مستقراً في باريس منذ عام ١٨٠١، وكان أستاذ اللغة العربية في مدرسة لوي لوغران، (لويس الكبير).

وكانوا أربعين أولئك الذين وصلوا إلى فرنسا تحت إشراف موظفين من القصر. وكان ثمانية عشر منهم مصريين تمامًا. أما الآخرونِ فقد ولدوا في استامبول أو في مدن أوروبية أخرى، أو في مدن آسيوية من أراضي الدولة العثمانية. وما أن وصلوا، حتى قام جومار بتوجيه تعليمهم، والإشراف عليهم في حياتهم الخاصة. . وما أكبرها مهمة، إذا نحن فكرنا بأن الأمر يتعلق بشرقيين، يجهلون كل شيء عن أوروبا، ويرُمون فجأة في وسط الحياة الباريسية.

ويسكن هؤلاء في حي اللوكسمبورغ ١٥ شارع rue du Regard في الفندق الصغير، فندق دولاغيش de la Guiche، وهم تقريباً لا يعرفون شيئاً خارج لغتهم الأم (التركية أو العربية). ومن السهل أن نتخيل أية صدمة ثقافية أصابتهم، وأي المصاعب تواجه Jomard. وقد أصبح بعض هؤلاء الطلاب أطباء، وآخرون مهندسين، أو أساتذة أو زراعيين، وبحريين أخيراً. ومنهم من دخل السان سير Saint Cyr. ومن بين هؤلاء جميعاً لم يذكر التاريخ إلا رفاعة الطهطاوي. ومن خلال خمس سنوات من التجارب والملاحظات المعيشة يومياً في مدينة النور سيستطيع هذا أن يكتب كتاباً عنوانه تخليص الأبريز في تلخيص باريس(٣).

وفي عام ١٨٣٢ نجد الدكتور Clot يصحب معه، هو أيضاً، دزينة من أحسن طلابه في أبو زعبل، لرفع مستواهم في ممارسة الطب والجراحة في مستشفيات باريس.

وأخيراً فإن هذا الأسلوب، الممتع في الأعماق، والذي كان يمكن أن يفسح المجال لجيل جديد من المصريين، تخلصوا من آفة الأمية، وانفتحوا على العالم.، لم يقدم أخيراً إلا نتائج محدودة جداً. أما سبب ذلك فهو بسيط. ومرة أخرى نقول إن المصري غير وارد في هذه السيرورة التي تخص في أكثريتها أبناء الأتراك. أما رجل وادي النيل، فإنه كما هي العادة متُجاهَل. وعندما فكر محمد علي بهذه البعثات، لم يفكر فعلاً في مصر، ولكن في وسيلة لضبط فتوحاته والناس الذين يعيشون فيها.

وبطبيعة الحال، فإن عليه أن يفكر أيضاً بالتعليم العام، كنتيجة طبيعية للمدارس العسكرية، ولكن كان لا يوجد تقريباً أي شيء من هذا كله في هذا الميدان، عندما وصل محمد علي إلى الباشوية، على القاهرة. ولكن إذا نحن وجدنا هنا وهناك، في ظل المساجد، مدارس تقوم بعبئها مؤسسات الإحسان،

أو الجمعيات الخيرية، فإننا نجد أن هذه المدارس لا تعلم إلا أشياء مبسطة عن الدين الإسلامي، والقراءة، والكتابة، وأحيانًا، بعض الحساب(٤). وحقًا فإن هناك جامعة الأزهر، التي تستقبل طلابًا آتين من كل بلاد الإسلام، لكن هذه، هي أيضًا، لا تعلّم إلا اللغة العربية، والنحو العربي، والشريعة الإسلامية، حصراً.

وقد أنشأ المسؤولون في بداية الأمر «مدارس مدينة خاصة» ويحصي جومار سبعًا منها، وهي

١ - المدرسة المتعددة الفنون، بإدارة أدهم بك هيكيكيان، ومعه أستاذ اللغة الفرنسية مالوس Malus شقيق الفيزيائي الذائع الصيت.

٢- مدرسة الإدارة المدنية، ويديرها آرتين واسطفان.

٣- مدرسة الترجمة، التي سلّمت للشيخ رفاعة.

٤- مدرسة الكيمياء التطبيقية، ويديرها Heim.

٥- مدرسة الجسور والطرق.

٦- مدرسة المناجم، ويديرها لامبير Lambert.

٧- مدرسة الهندسة والجغرافيا التي يتعهدّها السيد مالوس برعايته هي أيضًا.

ولكن هذه المؤسسات لم تقم إلا لغاية المنفعة المباشرة. وقد أنشئت كل واحدة منها على حدة، بما يلبّي الحاجة التي شعر بها المسؤولون. وما من صلة بين هذه مطلقًا. وفي أكثر الأحيان، لا نراها تتبع أية طريقة معيّنة. وفي أكثر الأحيان، كان طلابها يقبلون لمجرّد المصادفة ويُوزّع طلبتُها على مختلف المؤسسات دون النظر إلى مواهبهم الشخصية، وعندما يتخرجون يُستخدمون من دون تمييز وتبصر.

ويعلّق بريس دافين Prisse d' Avenne على هذا كله بقوله: كانت المدارس قد أسّست لغاية عسكرية بحتة. وتخرَّج منها عدد قليل من الأكفاء. وأنى لنا أن

نطمح إلى الأكثر. إنه لم يكن يوجد عناصر تحضيرية، وكان يجب أن نرفع الناس مباشرة حتى إلى علم الكائنات الذي يحتاج فهمه، إلى تلك الثقافة الأساسية، التي تنتقل في بلادنا، من جيل إلى جيل آخر، أي مع الحياة، إذا صحّ هذا القول. وما من تصورّ جريء إلى هذه الدرجة، من غير أن يؤدّي إلى الإخفاق. ولما كان محمد علي هو، نفسه، فيما يشبه مرتبة الأمية، وخُدع بما فيه من كفاءات، على أمّيته، فقد حسب أنه يستطيع أن يبعث على ظهور علماء، تماماً، كمثل ما شهد وجود جنوده، بمجرد قوة إرادته.

وأحياناً شعرت المقامات العليا أن بعض المدارس الخاصة، تقوم بعمل مضاعف، أو أنها لا تتناسب مع الحاجات، وأن في المدارس البدائية والثانوية ثغرات كثيرة. لا بد إذن من إعادة النظر في التعليم العام، في كل درجاته. وتفرض هذه الحاجة الآن نفسها. وبمثل هذه الروح، وعلاجاً لاضطراب الإدارة، وبتأثير من شخصيات من نوع Lambert و Bruneau، فكرّت الإدارة العليا بتطوير التربية الوطنية. ولنوضح هنا أن لامبير وبرونو ينتسبان إلى هذه الحركة التي نشأت في فرنسا في العشرينات من القرن التاسع عشر، وهذه الحركة هي السانسيمونية التي قامت بدور هام جداً في تاريخ فرنسا، ثم في تاريخ مصر. وهذا موضوع واسع يحتاج إلى موساعات(٥).

وقد اجتمعت اللجنة لأول مرة في ديسمبر، كانون الأول من عام ١٨٣٥، برئاسة مختار بك. وكان من بين عناصرها أعضاء فرنسيون، مثل كلوت، ولينان وهامون، وبرونو، ولامبير وفاران Varin. وكذلك كان فيها عناصر عثمانية ومواطنون من البلد نفسه، مثل الشيخ رفاعة، والبيهومي وكياني بك، واسطفان، وهيكيكيان، وأرتين، وهم في أكثريتهم تلاميذ قدماء لجومار Jomard. وانتهوا إلى وضع إطار عام يؤسس منذ الآن فصاعداً، لثلاثة أنواع من المدارس: الابتدائية، والتحضيرية والخاصة.

أما المدارس الأولية التي يصل عددها إلى الخمسين، فإنها تقوسمت بين مختلف المديريات، تبعًا لعدد سكان المديرية. ولا يقبل الطالب إلا إذا بلغ السابعة من العمر، من دون أن يتجاوز عمر الثانية عشرة، وأن يتمتع بصحة جيدة، وأن لا تكون فيه عاهة ظاهرة. وهذا برهان آخر على الأهداف العسكرية لنظام التعليم. أما مدّة التعليم الابتدائي فهي ثلاث سنوات، ويتعلم فيها الطالب اللغة العربية، والقراءة والكتابة، وأوليّات الحساب.

أما هدف المدارس التحضيرية فهو تهيئة الطلاب المتخرجين من المدارس الابتدائية، لجعلهم قادرين على الانتساب إلى المدارس الخاصة. وتمتد الدراسة هنا أربع سنوات. وعلى ذلك فإنها تشتمل على أربعة صفوف، يُنجح في كلٍّ منها بامتحان نهائي، كما كانت الحال في المدارس الابتدائية. ويشتمل التعليم على مواد اللغة العربية، والتركية، والفارسية، والحساب، والجبر، والهندسة، والتاريخ، والجغرافيا وحسن الخط، والرسم. أما المدارس الخاصة فإن عليها أن تهيئ الطالب لمختلف الخدمات العامة المدنية منها والعسكرية.

وقد أنشئ مجلس أعلى للتعليم العام، في الوقت نفسه. ومن مهماته الإشراف على الإدارة العامة، وعلى كل المدارس المدنية منها والعسكرية معًا. ووضُعت مهمة التفتيش بين يدي جوزيف سيف الذي أصبح خلال ذلك سليمان باشا.

وكتتمة للحكاية، يجب أن نعرف أن العضو الأكثر طرافة من هذا المجلس الأعلى، هو Lubbert Bey، وكان المدير السابق للأوبيرا، في باريس. وهو من العناصر المقبولة والمقربّة من شارل العاشر. وهو يزعم أنه ترك فرنسا، وفاءً منه لآرائه الحريصة على الشرعية. أما في الحقيقة فإن الذي أتى به إلى مصر، هو الخوف من دائنيه، ولهذا يبقى على شواطئ النيل. إنه رجل عادي، محبب، ذو وجه

وردي اللون كالدمية، يثق الإنسان بأنه يلاقيه في واحد من هذه البيوت الفرنسية الميسورة في القاهرة، في ساعة العشاء، وبصورة خاصة لدى Mari . وهو يدفع ثمن عشائه برواية بعض (القصيصات) الخفية نسبياً، عرفها أثناء حياته في المسرح. وفي عام ١٨٣٧، يجد بوكلر Puckler هذا الموسيقي، رئيسًا للجنة الفحص، في مدرسة المدفعية وهذا مثال خادش على استخدام الكفاءات . . .

وتخضع المدارس بطبيعة الحال إلى نظام عسكري محض. فالطلاب يؤلفون ثلاث سرايا. وكل واحدة، منها تتألف من أربع مفارز، من ١٢٥ رأسًا. والتعليم مجاني. ثم إن التلاميذ المختارين، يأكلون ويشربون ويلبسون على حساب الدولة، وكلهم يتقاضون راتبًا، وهذا كله هو الوسيلة الوحيدة التي وجدوها لحمل الأهل على الانفصال عن ذريتهم.

وعلى المفتش، الذي هو عضو في المجلس الأعلى، أن يزور كل مدرسة مرة، كل ثلاثة أشهر، وأن يقدم بيانًا عن زيارته. ويتمّ الفحص أمام لجنة تحكيم، من أعضائها، عضو من المجلس ومدير المدرسة. أما الطلاب الناجحون في امتحانات التخرج، فإنهم ينقلون إلى المدارس الخاصة. أما الساقطون، فيبحث لهم عن استخدام أو عن وظيفة ثانوية في الإدارة، ويُعْيَنون فيها. ثم إن كل المدارس، والتحضيرية منها كالخاصة، تملك نظام طباعة على الحجر (ليتو غرافي)، لطباعة دروس الأساتذة، ، كما تملك مكتبة ومجموعة من الأدوات.

تلك هي أنظمة التعليم المختارة من قبل المستشارين الفرنسيين لدى نائب الملك. ولنقلها مباشرة: إن هذا النظام يقدّم نتائج مخيّبة للأمل. فمحمد علي الذي أراد أن يُسرِّع تنفيذ إصلاح في مثل هذه الدقة، والاستفادة بأكبر سرعة ممكنة من فوائده، لم يستطع تجنب العثرات، وسرعان ما انكشف عمله عن ثغرات خطيرة. ولئن كانت هذه المدارس خطوة متقدمة بلا جدال، عما كان موجوداً من قبل، فإن

الجهود التي بُذلت للحاجة إليها، وحصاد نتائجها، قبل أن تنضج نضجاً كافياً، قد أعلنت عن إخفاقاتها: «ولقد أقام محمد علي من حوله، تعليماً عاماً. ولكن السؤال يطرح نفسه: لماذا؟ كل ذلك من أجل الحصول على ضباط، ومديرين، وإداريين، وأطباء، لا من أجل تنوير شعبه، ووضع خيرات التربية كبديل عن: الجهل الخصب بالفقر والشقاء. ويمكن القول إنه لا شيء كان عاماً من هذا الذي سموّه «التعليم العام»(٦).

ويُوجه بوجولاد Poujoulade إلى هذه المحاولة لوماً مستحقاً، يتصل بطريقة المعلمين المصريين، التي تقوم بالدرجة الأولى على الذاكرة، لا على الذكاء، متبعة في ذلك، تقاليد الأزهر. أما المدرسون الأوروبيون، فقد كان تعليمهم في أكثر الأحيان محرّفاً من قبل المترجمين الذين لا يمكن الاستغناء عنهم.

وهناك خطأ آخر: هو أن الأساتذة المصريين الذين دعوا إلى الحلول محل الفرنسيين، قبل الأوان، يُعبِّرون، في لغة التدريس، باللغة العربية الأدبية أو لنقل باللغة النحوية، وهي لغة عالية، بالنسبة لأبناء الفلاحين الجهلة. ولذلك فقد عجزوا عن فهمهم: «ترُى هل كان يؤمل - وهذا تساؤل يطرحه Pelissier - من عدة سنوات قُضيت في فرنسا ومدارسها، أن يصبح هؤلاء (الذين لا يحسنون لغتنا)، أن يضعوا هذه اللغة في خدمة تعليم الفتيّة الآخرين وهم لم يحذقوها بعد؟ إن وظيفة الجهاز التعليمي تستحق مزيداً من الصبر، ومزيداً من النضج.(٧)»

وعندما تخرّج الطلاب من مدارسهم، وأصبحوا أساتذة جدداً، ووضعوا أمام أبسط المسائل المتصلة بتخصّصاتهم، فإذا هم يُعبِّرون عن قلق وجهل مطلقين وهؤلاء الذين نسميّهم مهندسين، يكشفون عن أنهم عاجزون عن تنظيف قناة.

ومهما يكن الأمر، فليس كل شيء كارثة إذ تستحق بعض المدارس، كالمدارس المتعددة الفنون، أن نشير إليها إشارة خاصة. إن شارل لامبير الذي شهد

له الإنجليز بالكفاءة، وخصّوه بالاحترام، استطاع هذا السان سيموني بفضل حبه للدراسة والتعاطف الذي بثه لتلاميذه، أن يحفظ نظام مدرسته. وكان برنامج الدراسة صورة من برامج المدرسة الفرنسية المتعددة الفنون، فقرِّب بالتدريج من برامج مدرسة الفنون والمهن في باريس. وهي المكان الوحيد للتعليم الذي لم تُطبق فيه الطريقة العسكرية، وربما كان هذا هو السبب في مردودها الطيب.

وفي عام ١٨٤٤، كانت الهندسة، والفيزياء، والميكانيك، وفن البناء، تؤلف العناصر الأساسية في التعليم. وكان لامبير يحاول دومًا أن يجمع بين النظرية والممارسة. وكان التلاميذ مرغمين يوميًا على التدرّب في جناح الفيزياء، وحبًا بجعل مصر قادرة على الاستغناء عن الصناعة الأوروبية، فإنهم وصلوا إلى إنشاء معمل بهذا الجناح، لإصلاح الأدوات العلمية. وأخيراً فإن مخبر الكيمياء أصبح يقدّم خدمات محترمة. وقد صُرف أكثر من مليون فرنك في مختلف هذه التجهزات. وبالمقابل فإن هذه المدرسة قدَّمت بين ١٨٤٥ و ١٨٤٩، لنائب الملك مئة وثمانية مهندسين للجسور والطرق، وثمانية وعشرين أستاذاً للعلوم. واثنين وعشرين مهندساً للمناجم، وثمانية عشر مديراً أو مفتشاً للفبارك. وقد ترجم تلاميذ Lambert لامبير ما يقرب من عشرين كتابًا كلاسيكيا، طبعت نصوصها طبعًا أوبالطباعة الحجرية. ومن سوء الحظ أن المتخرجين من هذه المدرسة، كثيراً ما وُضعوا تحت أوامر مهندسين أتراك (أو يقال إنهم كذلك) تجريبيين، مجرّدين من كل تعليم. وكثيراً ما كانوا ينصبون فخاخًا أمام ضعف تجربة هؤلاء الشباب لكي يتمّ تسريحهم.

وليس بالأمر الخالي من المتعة، أن نشير إلى مؤسسة كان لها بعض التأثير في تنامي التعليم، وهي المطبعة. ذلك أن هذه، التي جيء بها إلى مصر، بعد الاحتلال الفرنسي وأثناءه، لأول مرة، غابت عن مصر بغياب الاحتلال. ولكنها عادت وعاشت على ضفاف النيل. ففي عام ١٨٢١، وبدافع من مصري اسمه عثمان نور

الدين، جيء بمطبعة عربية، ألحقت بكلية قصر العيني. وفي السنة التالية، نقلت إلى بولاق، وكُبِّرت تكبيراً عظيماً. وكانت تطبع كتباً تركية وعربية وفارسية، وتنشر ترجمات كتب أوروبية علمية، كما تصدر جريدة عربية، هي «الوقائع المصرية». ثم جيء بمطبعة أخرى إلى الإسكندرية. وسرعان ما طبعت القصيدة الإنجليزية التي نظمها القنصل Salt، بعنوان مصر. وبعد الحملة الأولى على سورية صارت تصدر - للوقوف ضدَّ التأثير أو النفوذ الإنجليزي، الذي كانت تقف معه جريدة الـ-Moniteur Ottoman، التي تُصدر في استامبول - صحيفة شبه رسمية باللغة الفرنسية، واسمها Le Moniteur Egyptien. وكان اسم رئيس التحرير فيها كاميل تورك، Camille Turle، الذي وُظِّف في باريس، براتب سنوي قدره عشرة آلاف فرنك. وفي عام ١٨٢٦، يُعلمنا جومار Jomard، أن مطابع بولاق والإسكندرية، نشرت ترجمات ٦٤ كتاباً حول العلوم والتاريخ، والجغرافيا، ويروي لنا الدكتور Clot، في مذكراته، أن طلاب مدرسة الطب، اتجهوا إلى الترجمة من الفرنسية إلى العربية، ونشروا أرقى كتب الطب المطبوعة في باريس. وكان أصحابها، أطباء مشهورين في هذا العلم. وكانت هذه الترجمات الاثنتان والخمسون قد طُبعت في القاهرة، وكان عدد المطبوع يساوي الألف من كل كتاب.

وفي عام ١٨٣١ قام المؤرخ Michaud بزيارة هذه المؤسَّسات، واكتشف أنها ثماني مطابع جاءت من فرنسا، ومعها حروف افرنسية وعربية كلها صُنِّعت في باريس. أما الورق فهو إما من أصل فلورنسي أو تريستي. أما الإدارة فكانت على عاتق رجل ماروني تعلّم صنعته في ميلانو، واستعان بناظر مطبعة ألماني، ومصحّح إيطالي، وطابع إغريقي، واثني عشر عاملاً عربياً. وكان الطبع يبدو لـ Michaud طبعًا جيدًا وصحيحًا. وهو مع ذلك، يقدِّر، بدقة وحدس، «أن شأنه شأن مكنة مائية، وضعت، بنفقات كبيرة، لتصب الماء على صخر قاحل. وحقًا فإن الشعب

عاجز تماماً عن الاهتمام بأي دراسة من أي نوع. وفي أكثر الأوقات، كانت الكتب ما إن تُطبع حتى يُذهب بها لتكدّس في بعض المخازن، حيث تفسد بعد حين، لأنه ما من أحد يهتم بشرائها. وأقل من ذلك أن يقرأها. ولأنها لا تستجيب بأية صورة لروح الشعب، ذلك أن الشعبَ الفقير (والصغير معًا) يُفكر بمن يُقلل عنه الضرائب، ويهتم بتحسين شروط الحياة له، وفوق ذلك كله، أن تُحترم كرامته، وبطبيعة الحال، فإن القضية ليست كذلك داخل أقلية من السكان الأجانب. ففي عام ١٨٤٠، قرّر بعضهم الاجتماع دوريًا، لتبادل الآراء وإعلام الآخرين بالأعمال العلمية لكل منهم، وإنشاء مكتبة حول مصر. وهكذا فقد أسّسوا، بدافع من بريس دافين Prisse d' Avenne، ومن طبيب متميّز، هو الدكتور Abbott أسّسوا ما سمّوه: بالجمعية الشرقية التي سرعان ما غيّرت اسمها باسم الجمعية المصرية. أما المكتبة، التي زوّدت بكتبها بهبات عفوية، فإنها كانت ذات فائدة كبيرة للسوّاح وغيرهم ممن يريد أن يعرف شيئًا عن البلد. وكان من بين هؤلاء جيرار دونرفال Gerard de Nerval الذي استفاد كثيراً منها.

ويستحق اسم Prisse أن نفرد له مكانًا خاصًا، ذلك أن تجربة هذا الرجل تكاد أن تكون الوحيدة من نوعها. إذ لقد قضى سبع عشرة سنة في مصر. وكما يقول جان ماري كارريه Carre، «فإن شجاعة اكتشافاته، وجرأة مغامراته، ليس لها ما يعادلها إلا حذاقة ملاحظته»(٨). ويعود الاختصاص في ماضي مصر أو علم ما في هذا الماضي Egyptologie كله إلى اكتشافه عام ١٨٤٣ ورق البابيروس المقدّس Hieratique وأعطاه اسمه . ولقد أغنى الأركيولوجيا بنشره كتبًا كثيرة ذات أهمية بارزة جداً، كان قد خصّص لها سنوات من العناء، كما ضحّى لها بثروته(٩). ويدين له اللوفر بقاعة أجداد تحوتمس الثالث التي سمّيت كذلك بغرفة ملوك الكرنك، وهي آبدة تاريخية تتساوى أهميتها التاريخية مع أهمية البابيروس المقدس، وأهمية لائحتي أبيدوس، التي فككها ونقلها على حسابه متحديًا ألف خطر، ومصاعب كثيرة، دون أن يُقدّم له أي عون حتى ولا أقل الدعم الرسمي.

ومنذ عام ١٨٢٩، في الحين الذي لم يكن فيه عمره يزيد على الثانية والعشرين، عيّنه الباشا كمهندس مدني وهيدروغرافي (مهندس مائي)، ثم صار يُعلم الطوبوغرافيا في مدرسة الأركان، التي وضعت في معسكر الخانقاه، في نهاية سهل هليوبوليس. وإلى هذا العهد يعود تاريخ مذكراته «حول الأعمال الأصعب إنجازاً، في مصر المنخفضة (يقول بعضهم: السفلى). ونحن نجد فيها، بين أشياء أخرى، مخطط قناة من الإسكندرية إلى القاهرة، ومشروع جسر معلّق على النيل، بين جزيرة الروضة، وحديقة إبراهيم ابن محمد علي، إلا أن طبعه الاستقلالي، وصراحته العنيفة، سرعان ما جعلاه يختلف مع الموظفين الأتراك. وفي عام ١٨٣٦ اضطر إلى الاستقالة. وعندئذ يجعل نفسه كشافًا (باحثًا، منقبًا مكتشفًا)، ويلبس الثياب الإسلامية، ويعيش عيشة الفلاح تحت اسم إدريس أفندي. وفي عام ١٨٤١ حدث حادث خطير، جعله يقف ضد ناظر الأقصر الذي كبل يديه بالحديد أربعة أيام، بلا خبز ولا ماء ولا نور. ومنذ ذلك الحين لم يعد يعيش إلا عيشة التائه. وأُعطيَ عندئذ مرتبة وسام الشرف عام ١٨٤٥ فيأبى أن يقسم يمين الولاء للويس فيليب، ويعيش أيام الإمبراطورية الثانية، حياة قلقة يرافقها الفقر، أي حياة الناشر. وفي عام ١٨٥٨ يعود إلى مصر ويرى أشياء كثيرة قد تغيّرت. وبعد أن قام ببعض التنقيبات في بلاد النوبة ومصر العليا، عاد إلى فرنسا حيث توفي منسياً من الجميع.

طبيب الفرعون

ويُعين الدكتور أنطوان بيرتيليمي كلوت، بتوصيات من الدكتور Cauviere من مستشفى Hotel - Dieu في مرسيليا، عام ١٨٢٥. وهو شخصية أخرى جديرة بالاهتمام. كان عمره واحداً وثلاثين سنة، وأصله من غرونوبل، وهو ابن أحد الضباط الصغار، أيام الإمبراطورية. وقد استقر خلال سنتين في مرسيليا، وفاز بنجاح كبير، لامع في دعم نظرياته أمام كلية مونبيلييه. والواقع أن كوفيير أوصى به إلى تورنو Tourneau، المكلّف من قبل محمد علي، بتعيين أو بتوظيف طبيبين متميزين مارسا الطب فعلاً، على أن يكون أحدهما في الطب العام والآخر في الجراحة، بغية الإشراف على الإدارة الصحية المصرية. لكن كلوت Clot

الذي كان متردداً أول الأمر، لم يقبل إلا بشرط أن يكون هو من يدير العملين معاً» أي الجراحة والرئاسة معاً. وفي ٢٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٢٥، وقع عقداً لمدة خمس سنوات، براتب سنوي قدره ٨٠٠٠ فرنك، (١٠)

وعندما وصل الرجل إلى مصر كانت الخدمات الصحية شبه مفقودة. ولا ريب أن الدولة تملك بعض الممارسين الماهرين مثل الأرمني بوصاريان، طبيب نائب الملك الأول. بعد وفاة طبيبه منديسي من جنوا، واليهودي الإيطالي موربوغو مدير المستشفى الفرنسي في الإسكندرية، أو الفرنسي دوساب Dussap. ولكن هذين لا يعالجان إلا الأتراك، أصحاب المراتب العليا، والمقيمين الأوروبيين. أما بقية البلاد فهي متروكة للمجبِّرين والدجالين.

وكان أول عمل قام فيه Clot هو إنشاء مجلس للصحة، مكلف بالإدارة العامة للخدمات الصحية، يُسلم رئاسته إلى بوصاريان، ويُخضع لهذا المجلس، أو يعرض عليه مشروعين هما التطعيم الضروري أو الإجباري. ثم إنشاء مستشفى نموذجي. وبفضل الأول قضي على الجدري الذي كان يلتهم كل عام ما يقرب من ستين ألف نسمة. وهكذا أوقف جشع هذا المرض الكريه.

ولكن الرجل يحتاج إلى مجموعة من الأطباء والصيادلة بتنظيمات متراتبة. ويطبق هنا الأنظمة المعمول بها في فرنسا، مع جعلها ملائمة للأوضاع المصرية. وهكذا فإن الجراحة وُحِّدت مع الطب، بحيث أصبحت المنظومة تشتمل على صنفين فقط بدلاً من ثلاثة، هما الأطباء والصيادلة.

وهكذا أنشئ تبعاً للأولوية، مشاف فيلقيه (تخص الفيالق)، واحد في أبو زعبل، والآخر في القاهرة، حيث يستقبل معسكر التعليم، جزءاً كبيراً من الفيالق؛ والثاني في الإسكندرية لمرضى المعسكر ومرضى البحرية. وبعدما هدُم هذا المشفى، أبو زعبل «أنشئ مكانه بناء حديث، واسع، مُهوّىً وقادر على استقبال ألف مريض

ألف مريض تقريباً. وهنا أيضاً يطبقون النظام الفرنسي. [11] وقد نقل هذا المستشفى فيما بعد، إلى القصر العيني، أي في المكان نفسه الذي أقام فيه ديجينيت (Desgenettes ولاري Larrey) المستوصف التابع لهما.

وكانت كل من المنشأتين تملك ضابطًا محاسبًا، وكُتابًا وممرضات. ولكن هذا كله أيضًا ودومًا مسخرٌ لنفس الغاية: أي الجيش وحده. وكما يلاحظ Clot «إن هذه المنظمة - يعني المستشفى - تكفي حاجات جيش يتألف من مئتي ألف رجل، يظلّون دوماً في الميدان. «ثم إنه يوضح أكثر، فيقول: «إن الإدارة الطبية لم تخلق، أول الأمر، إلا من أجل الجيش. ولم يفكر محمد علي في توسيع إطار العناية، بحيث يدخل فيها الشعب، إلا بعد بضع سنوات».

كانت مصر في تلك الأيام تحتاج أشد الحاجة إلى الطب والتطبيب. وكان الفلاحون هم أول من يتألم من هذا الوضع. فيداوون متى أمكنت مداوتهم. ولكن Clot - وهنا يكمن البرهان على وجود عقل كبير - يقرّر أن ينشئ أطباء من أهل البلد، ويؤسس أول مدرسة للطب، في القصر العيني بجانب المستشفى. وعندما دُشِّنت عام ١٨٢٧ كان عدد طلابها ٢١٥ طالبًا. أما أوائل الأساتذة (فيما عدا كلوت Clot، الذي سُمي مديراً) فهم بارتيليمي وبرنار، (وهما فرنسيان) وإيطاليان هما فيغاري وأوتشيلي Ucelli، وواحد إسباني اسمه Gaetani.

أما مدة الدراسة فقد جُعلت خمسَ سنوات، متى انتهت، يستطيع كلُّ تلميذ (ولو كان قليل الذكاء) متى كان مثابراً على الدراسة، أن يملك المعلومات الضرورية لممارسة الطب[12] «ثم إن الدروس تُترجم على يد مترجمين ماهرين رغم كل ما في هذه الطريقة من ضعف. ومع ذلك فإن كلوت بك خلال ثمانية عشر عاماً من الإقامة في مصر، ينشّئ ١٥٠٠ طالب، كان أكثرهم، بلا خلاف، من أحسن العناصر». وعندما قام الدكتور لالمان Lallemand بزيارة القاهرة، وهو أحد المشاهير الكبار في عالم الطب، من جامعة مونبيلييه، فيؤكد يومئذٍ، أن «مدرسة

الطب» في القاهرة كانت قادرةً على تنشئة أطباء ممارسين جديرين بالثقة بل وخرّجت بعض المتفوقين في التعليم[١٣] . »

وبعد أن أقام كلوت هذه المدرسة، بدأ يهتم كل الاهتمام بتنظيم الطب المدني. فأنشئت مكاتب استشارية للعناية بالمرضى، دون مقابل - وفي هذه المرّة كانت العناية خاصة بالشعب لا بالعسكر - في مدينة القاهرة والإسكندرية، مع الترخيص لها باستقبال المدنيين في المستشفيات العسكرية. ووضع أطباء وصيادلة في مركز كل محافظة، بصورة تدريجية. ومع مرور الأيام، أصبحت البلاد كلها مغطاة بعيادا ت ومشاف صغيرة أو كبيرة، تسمح بفتح المعركة مع الأمراض المحلّية، ولا سيما الكوليرا والتفوئيد والجدري، والزحار، والتهاب العين، والطاعون، وما يشبه ذلك من الأمراض الشائعة، والوبائية أحيانًا. ومن جهة أخرى فإن نسبة وفيات الأطفال، بعد أن لوحظ أنها نسبة رهيبة، حملت كلوت بك على إنشاء مدرسة للممرّضات والقابلات، أقيم على إداراتها فرنسية هي الآنسة بالمير (Palmyre) التي كانت تُعلم إعطاء الأبر، وأخذ الدم والتطعيم.

أما في الميدان الصيدلي، فإن مصر لم تكن تعرف يومئذ إلا من يداوي بالأعشاب، من دون أي تعليم. وكانوا يبيعون أشربة مصفاة وحجبًا لا أدوية حقيقية. وكانت المنتجات الكيماوية الأكثر شيوعًا ناقصة تمامًا أو غير موجودة. أما دستور الأدوية العربي، الذي كان مشهوراً جداً في القرون الوسطى، فقد أهمل كل الإهمال. وهكذا فإن كلوت يكلف رجلاً كيماويًا إيطاليًا، هو لويجي اليساندري Luigi Allessandri بإنشاء أول مدرسة للصيدلة. ولم يطل الانتظار، للحصول على النتائج: إذ سرعان ما قام العطارون المجازون بتصنيع الأدوية المألوفة، بصورة علمية تمامًا. وبطبيعة الحال لم ينس أحد نقد هذه المحاولات، ولا سيما Hamont الذي يقدّر أن الأطباء الذين تخرّجوا من كلية Clot ليسوا أهلاً حتى لمداواة رضّة ما أو كسر ما. وهو يرى أن الفحوص تنقصها الجدّية، وأن الطلاب يُخبّرون سلفًا

بالأسئلة التي تُطرح عليهم . ومن المؤكد أن في هذا النقد مبالغة كبيرة، وأن شيئًا كثيراً من هذا النقد أملي بدافع من الغيرة بين الأنداد .

ولما أصبحنا قادرين على معالجة أمراض الناس، فإن من الطبيعي أيضًا أن نهتم بالخيل. ويمكن القول، على وجه الدقة، إن هامون Hamont هو الذي يفتح الطريق في هذا المجال. وقد جاء هذا البيطري، وهو ابن نقيب من عهد الإمبراطورية، بدعوة من محمد علي، ووصل إلى مصر في شهر اكتوبر (تشرين الأول)١٨٢٦ وكان يرافقه واحد من مواطنيه واسمه Pretot وكلا الاثنين من قدماء طلاب ألفور[١٤]، ولكن هذا الأخير سرعان ما أصابه المرض . واعتقد أنه سيعالج ويصحّ، في Smyrne (إزمير)، فمضى إلى هناك ومات في البلد . أما هامون، الأكثر مقاومة، فإنه يبقى وحيداً على رأس هذه الخدمة البيطرية، ونجح في إقامة مدرسة في أبو زعبل، على مقربة من كلية الطب . ولما كان حسن المسايرة، فقد استطاع بسرعة أن يتقرب من الباشا، ويكسب عطفه. فوضع تحت تصرفه الأمكنة التي لا بدّ منها في أطراف قصره في الشبرا . وكانوا يُعلّمون في هذه المدرسة علم التشريح والجراحة، وعلم النباتات. كما يعلّمون علم الخيل .

وزيادة على هذه المدرسة، يصل هامون في بضع سنوات إلى إنشاء مستشفى، وحديقة نباتات، ومكانًا لضمان تناسل الأحصنة العربية، حيث كانوا يحصون نحواً من ثلاثين حصان أصيل وستمئة وسبعين فرسًا وهكذا ينشئ لنفسه وضعًا ممتازًا. إلا أنه عام ١٨٤٠ يتهم بإيثار مصالحه الخاصة في عمله، بحق أو بغير حق، ويضطر إلى الانسحاب[١٥] .

ولئن قمنا بجرد لهذه المنشآت، فإننا مضطرون إلى القول : إنه على الرغم من حسن إرادة الباشا، وجرأة الرجل أو الرجال الذين تولوا أمرها، لم تعط إلا ثمرات قليلة. وكان ينبغي أن نبقى عشر سنوات أخرى على الأقل، حتى نحصل على جيل جديد من الطلاب الذين أتموا كلّ درجات التعليم. ولكن ما إن عُقد مؤتمر لندن (١٨٤٠)، حتى أصبح كل ما له علاقة بالتعليم، يتهدم دفعة واحدة، مع

تهدم أحلام رجل كافالا. ويؤكد بعض المؤرخين، أنه ما إن حُرم محمد علي من انتصاراته، حتى أهمل كل اهتمام بالتعليم العام، مثل طفل يحرد من لعبته؛ «فالمدارس، بالنسبة إلى محمد علي ليست إلا وسائل حرب، ولما اضطر إلى العدول عن مطمحه في الاستيلاء على تاج السلطان، رأى أنه لم يعد، بحاجة إلى جيش. وإذن فهو ليس بحاجة إلى المدارس(١٦)».

ويُعلّق فيكتور سكولشير Victor Schoelcher على هذا بقوله: لو أن الباشا كان يشعر برغبة حقيقية في إعادة الحياة إلى مصر، إذن لاستفاد من فترة الصلح، لكي يعطي للمنشئات التعليمية، اهتماماً جديداً، ويجعلها عوامل فاعلة في التحسّن والارتقاء، وينشئ رجالاً متميزين يسعه أن ينشرهم في البلاد، ويُحملهم المهمة النبيلة في تنمية التعليم. ولوسعه استخدام المال الذي كانت تفترسه الحروب في زيادة عدد المدارس، ويضاعف وسائلها في التأثير.

ومن المؤلفين من يحسب أن المسؤول الأكبر عن هذا الإهمال للتعليم، كان إبراهيم الذي اضعفت عزيمته مشكلات سورية، فعرض على أبيه حذف المنشآت العظيمة الكلفة، ليوفرها على الخزينة.

والحقيقة، هي أنه حتى لو صحّ أن التعليم العام الذي قد اخفق مع نهاية رجل كافالا، فإنه يبقى صحيحاً مع ذلك، أن الضربة القاتلة هي التي كرّمنا بها خليفته العباس الأول بين عامي (١٨٤٨ - ١٨٥٤). إذ أنه عندما جلس على العرش، كان قراره الأول أن تُحذف كل المدارس الحديثة التي صحّ لمصر، أن تفخر بها يوم كانت موجودة. إنه لأمير يملك أفكاراً رجعية تماماً، كما أنه عدو لكل نفوذ أوروبي، مما حمله على سحب أفضل الطلاب في المدارس الخاصة لجعلهم حرس الشرف له. «عندئذ ترك كلوت مصر(١٧). وكتب بعد ذلك يقول: إن عباس باشا يبذل جهداً منظماً ليقضي على ما فعله جدهُ، وهو يستبسلُ في محو كل أثر للوجود الفرنسي، حتى آخر آثاره التي قد تُذَكِّر بالحضور الفرنسي. فلا الإدارة الصحية، ولا مدارس الطب حتى ولا التوليد وُفِّرت من شره وبترت كل فروع هذه المؤسسة».

وهكذا عمل عباس على القضاء على جهود عشرين سنة متتابعة، مما اضطر Varin إلى ترك العمل العظيم الذي كان قد ناضل بدمه من أجل بناء منشآته. وحتى المؤسسة التي كان يُدرّس فيها ومعه أبناء رفاق السلاح أيام محمد علي أغلقت أيضًا، وأحيل Varin إلى التقاعد.

النظام العام

وسواء أأغرقت هذه التجديدات، أم لم تغرق، فإنها لم تكن لتستطيع أن تتمّ لو أن رجل كافالا، لم يأخذ على عاتقه إشاعة الأمن والاطمئنان من حيث أنها من بين اهتماماته الأساسية. وإن أرضًا تقع فريسة للفوضى والنهب، وطرقًا لا يطمئن الإنسان فيها لا على ماله ولا على حياته، لا يسعها أن تكون عوامل يطمئن الأجانب فيها لشيء، ولا يمكن أن يقوموا فيها بأي عمل. ولكن البلد التي وضعت عليها يد من الحديد، هي التي ستجد بالتدريج هدوءها وأمنها، لا تلك التي كان يسودها العنفُ وحده.

وكل السواح الأجانب الذين كانوا، في ذلك العصر، يزورون مصر، يشهدون بلااستثناء «أنهم كانوا يشعرون بأمن لا مثل له في مصر العليا وحتى في بلاد النوبة، أو بين خرائب تدمر، أكثر مما لو كانوا في شوارع باريس ولندن». وكان في وسع Puckler - Muskau أن يتنزه كسائح بلا إزعاج، حتى الخرطوم(١٨).

أما البدو الذين كانوا دومًا سببًا للاضطراب، فإنهم بعد الآن أصبحوا مرتبطين بالأرض؛ بسبب الترخيص لهم بملكيتها، إلا أن يكونوا فرسانًا أو رجال أمن. ولولا ذلك لما خطر في بالهم أن ينطلقوا إلى الغزو، كما كانت حالهم من قبل.

وبفضل القمع الذي لا رحمة فيه لكل ما هو نهب أو سلب وجرائم وجنح، أصبح الأمن قائمًا في المدن والريف.

إن استتباب الأمن أمر كان من أفضل منجزات الباشا. ومن جهة أخرى فإن ذلك مشهود به من أكثرية السواح والنقاد لنظام محمد علي، كما شهدت به تقارير

القناصل: «وعندما ضُمن الأمن في كل أنحاء مصر - وهذا مما كتبه بوورينغ Bowring إلى Palmerston - فسواء أكان الأمر على جوانب النيل، أم في واديه، أم في الطريق التي يمشي فيها الناس، أو في المناطق المهجورة من السكان في الصحراء، يشهد الناس جميعاً أنه أمر عظيم قدّمه الباشا للناس. إن الأرض المصرية، وبلاد النوبة، والمطلّة على البحر الأبيض المتوسط، أرض مأمونة تماماً [. . .]. فما من مدينة ولا قرية إلا وهي مستعدة للتعويض عن أي خسارة سببّها العدوان على حق الملكية».

وفي بداية حكم الباشا، كانت الحال كما كانت أيام المماليك. كان رئيس الشرطة خاضعاً لأمر الكيايا، الذي يقود السرايا حيثما ذهبت لتوفير الأمن. أما في عام ١٨٣٠، فإن الرئاسة سلّمت لظابط بك (ضابط. قائد) يتبع دائرة الحرب. ثم إن نقل أو تصدير البضائع الغذائية كان مضموناً يقوم بأمره موظف خاص. وكذلك فإن مراقبة الأسواق العامة، تظل، كما هي الحال في الماضي، بين يدي «المحتسب»، وهو حاكم متنقل متبوع بحامل الموازين، ومكلف بتجريم الباعة تجريماً كبيراً ولا سيما الذين يتلاعبون في الميزان. أما الجزاء فهو بسيط بقدر ما هو سريع. إذ أنه يحكم على المخالفين بالضرب بالعصي[١٩].

وبالمقابل، ومن وجهة نظر العدالة، يمكن القول إنه ما من شيء جدّي، مسته يد التطور. إنها تظل قائمة، بالنسبة إلى ما هو مدني أو جزائي، فهذا تنظر فيه المحكمة، التابعة للسلطة العليا لقاضي مصر الكبير. ولكن إذا كان الأمر يتعلق بقوم ذي شأن، ارتكبوا الجرائم أو حتى الجنح البسيطة، فإن شأنها يتولاه نائب الملك، أو أحد أبنائه أو موظفون كبار. وهؤلاء هم الذين يحكمون في القضية. ويقول جومار Jomard، الموالي جداً للحكومة، إنه آسف على مايقع. ويعترف آسفاً بأن الساعة التي يجب أن يوضع فيها قانون مدني، لم تحن بعد[٢٠].

وفي عام ١٨٢٦ أنشئت محكمتان تجاريتان مؤلفة من تجار، بعضهم أوروبي، والآخرون من أهل البلد، في القاهرة والإسكندرية. أما الأولى، فإنها

تشتمل على ١٥ عضواً، منهم خمسة مصريين واثنان مغربيان، وستة مسيحيين من الشرق ويهوديان. وأما الثانية فإن فيها تسعة أعضاء فقط: أي أربعة مصريين، وإفرنسيًا واحداً، ويونانيًا واحداً، واثنين من المشرقيين ويهوديًا واحداً. وقد برهنت هذه المنشآت، على فائدتها، في موضوع السندات والتحويلات والإفلاس. ومن سوء الحظ. أن حسناتها تعدّل بانتظام بما فُرض على الحكام من رفع قرارتهم إلى المجلس الأعلى، أو إلى نائب الملك الذي يلغيها كلما وجد أن مصالحه يُساء إليها.

أما فساد القضاة، فيبدو، على الأرجح، شراً لا علاج له: وكلهم يُشترى من قبل من يَدفعِ الأكثر، بدءاً من القاضي الأكبر نفسه. أما الأسلوب (أسلوب رفع القضية)، فإنه يُردَ، كما هي الحال في كل البلاد العثمانية، إلى أبسط التعابير. وكذلك أمر العقوبات فهي، بدائية، على الأقل: كالضرب بالعصا للمخالفات، والموت بالنسبة إلى الجرائم - وتستمر العقوبات البدنية، في الضرب بالكرباج. بيد أن العقوبة البشعة بالخازوق، المخصصة للقتلة، قد ألغيت، كما أُبطل قطع اليد للسارقين ووضع مكانه أقسى الأشغال الشاقة.

ومن الغريب، في وسط هذا العالم القائم على الاستبداد، والمصبوغ به، والمرتكز على عقليات كثيراً ما تكون قروسطيه، أن يكون موقف محمد علي من الأمور الدينية طيبًا ورحيمًا. وكذلك فإن التسامح الذي يبديه تجاه الأديان الثلاثة، موقف نموذجي.

ويُقبل الأقباط ، بشكل طبيعي دومًا، في وظائف إدارة الأموال والجمارك، بحكم كفاءتهم في هذا المجال، التي أكدتّها الأعراف. ومن الأقباط من يرقى فيها إلى أعلى الوظائف.

ومن المسيحيين الآخرين، المنتسبين إلى طوائف أجنبية، كالأرمن، والأغاريق، من يقُبل أيضًا في بيروقراطية نائب الملك الذي لا يتردد في الاستفادة من كفاءاتهم. وعندما يُعلي نائب الملك مصلحة الدولة (دولته هو طبعًا) على

المستبقات الدينية التي لم يُصب بها هو، فإنه يضرب المثل على تسامح استثنائي «يتقدم في عهده تقدمًا ممتازًا. ويلاحظ Browing، عام ١٨٣٩، ألا أحد يشعر، بأي مساءة، بسبب الرأي الديني». وكان كالدالفين وبروفري (Cadalvene, Be-ruvery) اللذان لا يتهمان بإعجابهما بالباشا، يلاحظان قبل عشر سنوات (أي عام ١٨٢٩): «أنه بفضل التسامح الديني، الأكبر اليوم في مصر، منه في أي مكان في الشرق، يستطيع الأوروبيون أن يزوروا كل المساجد.

وكان محمد علي، بتدبير لم يعرف من قبل، يضع المسيحي الشرقي على قدم المساواة مع المسلم. وربما تكرم أحيانًا... فمنح الأول، تشريفًا كان خاصًا حتى الآن بالثاني: وفي عام ١٨٣٤، نراه يُسَمِّي حنا بكري أمينا عامًا للمالية، في سورية. ويعيّن بازيلوس غالي كمدير عام للمحاسبة، في مصر: أما الأول فإنه سوري كاثوليكي من دمشق. وأما الثاني فإنه قبطي. وكنا رأينا أنه عيّن بوغوص بك وزيراً للشؤون الخارجية. ولأول مرة، يصل مسيحيون مشارقة إلى رتبة البيك. ولما كان الباشا مجردًا من أية عصبية، فإنه ضمن للطوائف المسيحية، ولرجال الدين عندهم حرية وحماية مطلقتين. وبديهي أنه بصفته مسلمًا وابن مسلم، يستطيع أن يمارس العنف، بلا حق، على الشعب المصري، على نحو ما فعل دومًا: وعندما هاجم ملكيات المساجد، والمؤسسات الخيرية، فإنه كمسلم، لم يكن بحاجة إلى برهان على احترامه لإيمانه، وبدا، إلى حد بعيد، معفى من كل أنواع الحذر التي كان المستعمرون يحتاجون إليها في بلاد الإسلام.

ومهما يكن من أمر، فإن عدم التعصب يتيح، في مصر، قبول المؤتمرات الكاثوليكية، للنساء، إذ أن أخوات القديس سان فنسان دوبول Saint Vincent de Paul يصلن إلى الإسكندرية عام ١٨٣٠ تقريبًا، ويفتتحن أول بيت لهن في الشارع الذي سُمّي مباشرة، شارع الأخوات وعما قريب سيصل الجزويت والفرنسيسكان بعدهن.

والمجال الديني شيء استثنائي إن صحّ هذا التعبير. أما بالنسبة إلى الباقين، فإن محمد علي يُمارس سلطته، كما يحلو له من دون أي حدٍّ، غير إرادته هو. فالأشخاص والأملاك تظل بين يديه، وهو لا يحرم نفسَه من التصرّف بهم كما يريد. وما من مفهوم عن الحرية الفردية يحمي الفرد من المبادرات والتدخلات الحكومية. غير أن هذا الوضع، كحق وكواقع، سابق في الوجود لحكومة الباشا محمد علي، ولكنه أصبح مرهقًا أو متزايد الإرهاق بمقدار ما يُمارَسُ الحكم بنشاط أكبر فأكبر، وبمقدار ما يتحكّم به بصورة أشدّ فأشدّ. إن هذا الوضع وضع متفجر بشكل خاص، في إطار، يعتبره هو، ومنذ الساعات الأولى من حكمه، وكأنه إحدى مقاطعاته، المحرَّمة على غيره، أي ميدان الزراعة.

- ١٣ -

المزارع الأكبر

(١٨٠٨ - ١٨٤٠)

ولقد رأينا هذا من قبل: فمنذ عام ١٨٠٨، اعتبر محمد علي نفسه المالك المطلق للأرض المصرية كلها. وعلى ذلك فإنه هو الذي يقرّر كلّ عام، تلك الأراضي التي يجب أن تزرع. وهو الذي يعطي لكل أسرة من المزارعين، مساحة الأرض التي يجب أن تُستثمر، وطبيعة البذور، ونوع غرس الأشجار. وعلى مديريه ومأموريه، ونُظّاره في المحافظات، أو يسهروا على تطبيق أوامره وقراراته في هذه الناحية. وهذا ما يجعلهم هم مشرفين، أو مديرين، في الاستغلال الزراعي. وبطبيعة الحال، فإن ملكية الأرض تجرُّ معها ملكيةَ المحاصيل الزراعية في الأرض المصرية. ويكتب Roussel إلى الدرق دوريشيليو يوم ٩ حزيران ١٨١٩ رسالة جاء فيها، «إن الباشا، الحريص على نظامه في الحصر، يغالي فيه أكثر فأكثر. فبيع الفول الذي يشكل الغذاء الرئيسي للشعب، كان دائمًا حرًا، من أجل استهلاك الناس. وها هو الآن يشتري كل فول البلد، ثم يعود فينفرد ببيعه، بحيث أن الوزن الذي كان يباع بخمسين باره، منذ ثلاثة أيام، يبلغ سعره، على يده، قريبًا من الثمانين»[1].

وعلى ذلك فإن الملك هو الذي يحدِّد السعر الذي يشتري به الغلال، ويعيّن السعر الذي يبيعها هو به، في الداخل أو في الخارج. ويراقب، بفضل عمّاله، المبيعات والمشتريات. وهكذا فإن الفلاحين مرغمون على شراء بعض استهلاكهم

بسعر أعلى بكثير من السعر الذي باعوه به. وبطبيعة الحال، فإن هناك فرقًا كبيراً بين سعر البيع وسعر الشراء. فمحمد علي يشتري الغلال بسعر أرخص بكثير من السعر الذي يبيعها به. وأصلاً، فإن كلمة اشترى وباع، لم يعد لها هنا معنى. إذ لا يمكن أن نشتري ما نملكه، ومحمد علي يدفع ثمنًا رمزيًا، بمثابة أجر للفلاح.

وحول هذه النقطة، انتهت الأنظمة الباشوية إلى صور التجاوز والإفراط المثيرة. ولابُدَّ أن رجل كافالا لاحظ ذلك بالضرورة. إذ أنه في عام١٨٣٢ يقبل أن يهب للفلاحين حق التصرف بالحبوب الأساسية: كالقمح، والذرة الصفراء، والشعير، وكذلك الفول. إلا أنه يحرمُ تصدير هذه البضائع، ويحفظ لنفسه منها شيئًا، في كل عام، بعد أن يكون اشتراه بسعر يحددّه هو: فيأخذ ٤ هكتولتر من كل هكتار.

وعندما يحين موعد المحاصيل، تكون كل المنتجات مُدّخرة في مخازن الحكومة. وفيها يقرّر المسؤولون ما هم بحاجة إليه من كل نوع، وبعد أن يطرحوا من المملوك، تلك الضريبة الشخصية «الميري» ومجموعة من الضرائب الصغيرة، يعطي كل فلاح ثمنها على صورة تذكرة، أي أمر بالدفع موَجّه إلى الخزينة. وعندما نصل إلى تاريخ الاستحقاق، يدفع له (للفلاح) الثمن على صورة أقمشة ومنتجات مصنَّعة لا يُصرِّفها الفلاح إلا بخسارة كبيرة. وفيما بعد، وحول عام ١٨٣٤ تختفي هذه «الاستحقاقات، لحساب قانون من هذه القوانين الاستبدادية المسرفة، التي لم يسبق مطلقًا لأي رئيس مستبد أن يضعها، خلال التاريخ. وأحطُّ من ذلك أن يضفى عليه اسمٌ نبيلٌ هو كلمة «المسؤولية الجماعية». وهو قانون أعمى ووحشي من جهة أخرى، ويقوم على حمل كل السكان، بلا استثناء، مسؤولية التعاون عن ديون كل فرد تجاه الخزينة، فإذا كان لدينا فلاح من الفلاحين، دفع أو أعطى كل ماعنده، وظلّ مع ذلك، مديونًا للدولة، فإن هذا الدين يُوزَّع على الفلاحين الآخرين من القرية نفسها؛ وإذا بقيت القرية مديونة بعد أن يكون كل ساكن من سكانها قد حُرِمَ من آخر ما يملكه، دون أن يغطي الدين تغطية تامة، فإن الباقي من الدين يُوزّعُ على

القرى المجاورة؛ ولئن عجزت المديرية عن ذلك وأنهكت كل مواردها، ولم تسدِّد جميع مساهماتها، فإن الباقي من الدين يُوزَع على المحافظة المجاورة، وترغم هذه على تغطية هذا الباقي. وهكذا فإن التضامن (أو التعاون) يجرّ شبكته على المحافظات كلها، إذ أن على المحافظة، أو على المحافظات جميعًا، أن تملأ الفراغ الذي يمكن أن ينشأ في الخزينة إما عن عدم وفاء الديون، وإما عن الإدارة السيئة لواحدة أو لأكثر من واحدة، من بينها(٢).

ومن الناس - ممن يحرصون على تبرئة محمد علي من المسؤولية عن هذه القضية - من يدّعي أن الفكرة لم تأت منه، ولكن من أحد المقرّبين إليه، الذي سيدعى إلى احتلال مركز وزير الدفاع. وهو الذي يُسَمّى محمود بك. ومع ذلك فإن محمد علي عندما أحيط علماً بهذا المشروع، هتف قائلاً: «حقًا إن هذا رجل عبقري!». إنه هو وحده الذي وجد الوسيلة لإرغام الشعب على دفع كل ديونه السابقة والحاضرة والمقبلة!.

ويمكننا، تخفيفًا لمسؤولية ذلك المقرّب من محمد علي، أن نقول: إنه ليس هو الذي اخترع هذا النظام، بل إنه، كنظام، كان موجوداً من قبل، وكان معمولاً به في عهد المماليك، إلا أنه سقط من الاستعمال في عهدهم، وكان أخف دمًا، وأكثر حياءًا، وأقرب إلى التقوى، حتى في زمن القائد عمرو بن العاص. عام ٦٤٢.

وربما شككنا في ذلك. فالنتيجة المتمناة جاءت على عكس ما انتظر منها. ذلك أنه أصاب بالضربة نفسها، الرجل الشغيل والرجل القليل الاندفاع للعمل، وحطَم آخر دافعٍ يمكنه أن يدفع الفلاح إلى العمل. ففي السنة الأولى، أفقر محمد علي الرجل النشيط الحريص على عمله، وصاحب الوجدان، واضطره إلى دفع ديون الكسلان الذي لا يعمل: وفي السنة الثانية لم يعد هنالك من رجلٍ صاحب دين وتقوى، ينبغي أن نفقره. فاستقرّ الضعف الوجداني، واشتدّ معه البؤس. ذلك أن الأمر كما لاحظ كادالفين Cadalvene وبروفيري Breuvery، هو أن هذا

النظام نسي أنه كان يوجد نوع من العجز يستحيل معه الوفاء بالديون، ويحمل الإنسان على التوقف: وكانت هذه هي حال مصر كلها». ومن هنا ينشأ الإخفاق الكامل في آخر كل حساب.

وما من عمل قام به محمد علي أدهش الناس من معاصريه، ومن جاء بعدهم، أكثر من قانون «التأميم» الذي بلغ من الجرأة والاعتباط، ما جعل من محمد علي، الفلاح الأكبر للأرض المصرية. ويبقى أن البلد كانت قد جهزّت بمجموعة من المنتجات الثمينة التي ظل يجلها حتى ذلك الحين، أو قل إنه أضاَع عشرات السنين في معرفتها. وأخيراً يجب أن نقبل أن محمد علي أو نائب الملك، أدخل أو أحلّ مكان النظام القديم، نظام إراحة الأراضي، وهو طريقة أخرى للتناوب الزراعي العقلاني التي لم يُفلح الفلاحون المتروكون لأنفسهم في أن يَجدوه ويُحلوه محل غيره. وهي نظرية لم يكن لفلاح أن يخترعها، وأقل من ذلك، أن يطبقها.

ومن جديد كان يدور الجدل حول هذا الموضوع. فكثير من رجال الاقتصاد والمؤرخين يقترحون، كل على طريقته، جواباً عن التساؤلات التي أثارها هذا النظام: ترُى أكان الباشا يستطيع أن يفعَل أكثر من الاستيلاء على الأراضي، كلها، في سبيل إرغام الفلاح على العمل وزيادة الإنتاجية؟ أو كان يمكن لولا هذا الضغط - ولعله يجب القول أو لولا هذا الظلم والقهر - أن تعرف مصر ذلك النمو الزراعي الذي كان نموّها هي، والذي كانت إليه بأمسّ الحاجة؟ والجواب، بصورة طبيعية: هو نعم؟ كان يوجد، طبعاً طرائق أخرى. أعدل بمئة مرة. وأقل استبدادية بالتأكيد. وكما يقول كادالفين وبروفري: لئن أصبح من الضروري أن نضع حداً لعادات الكسل والتراخي، التي كان الشعب المصري، قد تعودّها، كنتيجة أو كنتائج مباشرة لأكثر من خمسة قرون من ضروب العذاب، التركية والمملوكية، فلربما كان الأنجع، أو على الأقل، الأكثر إنسانية، أن نعيد إلى هذا الشعب تذوّق العمل، بجعله مالكًا لثمرات شغله وتعبه. وبصورة غير محسوسة عندئذ، كان الفلاح يعرف التنامي في صورة حياته. وبالتأكيد سيتذوّق اليسر والحياة الغنية.

وكانت المنافسة ستتم وتستقر بين الفلاحين. وبحكم طبيعة الأشياء، كان هذا الفلاح سيصل إلى فلاحة كمية أكبر من الفدادين، التي فرضها نائب الملك، بدون اللجوء إلى العنف. وكذلك فإن الضرائب والجمارك كانت تضمن موارد متزايدة، وكانت الدولة قد حصّلت ما كانت تحصل عليه في المجتمعات الليبرالية، متى أديرت هذه إدارة حسنة: أي على زيادة في الموارد العامة، تقوم على زيادة الرفاهية العامة.

ولكن محمد علي لم يتمتع قط بشعور الإنسانيين. ونحن ما نزال في القرن التاسع عشر. ولئن كانت القنانة لم تعد موجودة في أوروبا الغربية (على كون الشرط الاقتصادي للفلاحين وا لعمال، لم يكن مثاليًا قط)، فإنها ظلت تعصف في أوروبا الشرقية، وكذلك في إمبراطورية النمسا، إن لم نذكر مناطق أخرى) التي لم تلغها (أي القنانة) إلا عام ١٨٤٨ (أي قبل سنة من موت محمد علي) ولكنها لن تلغى في روسيا إلا بعد عام ١٨٦١.

ولا يجب أن نرى في هذا الشرح، أية رغبة لمجاملة الباشا، بل يجب أن نرى فيه حرصًا على الموضوعية، وفعلاً فإن بعض المؤرخين صورةّ بدرجة من العنف ودرجة من التحيّز تجعلنا نلاحظ أن ما لديهم من العَمى لا يكاد يتميز من ذاك الذي كانوا يظنون أنهم يدينونه. «ويُعلّق كادالفين وبروفيري على الموضوع» فيقولان: إن نظام محمد علي، نظام تخريبي للجنس البشري. . ولئن انتزعت سلطة ما، الحق في قيادة الشعب، بالعنف، إلى مزيد من التكامل الاجتماعي - وهذه فكرة عظمى يمكن أن تغفر أذى هذا المشروع الجريء - إلا أن نائب الملك يميل (لا شعوريًا طبعًا) إلى النزول بمستوى الإنسان في مصر، لا إلى تمدينه». لكن هامون Ha-mont، بعد أن أشار إلى عزم نائب الملك على تعيين بعض المصريين في الإدارة، يصل آخر الأمر إلى هذا التعليق الذي لا يُصدق، «إنني أجهل ما إذا كان محمد علي، عندما سمى بعض الفلاحين كموظفين أو كحكام، قد أراد تعديل (الطبع) المصري، الذي كان حتى ذلك الحين، غارقًا في الدناءة. ولئن كان هذا هو ما كان

جيد، ويجب الاعتراف له بذلك وشكره عليه. ولكنه يبدو لي أن نائب الملك في مثل هذا الظرف، نقصته الحكمة. أو يَظن واحدٌ منا أن إنسانًا ما، بلغ اليوم أدنى درجات الانحطاط والجهل، والتدني، والتفاهة، يمكنه أن يكون المحافظ في إدارة حكومية؟ إن هذا مستحيل!».

لكل هل يجب أن تستنتج من هذا أن الشعب المصري، كان، بالفطرة، وسيبقى أبديًا، فيما يسميه هو بالدناءة أو الانحطاط؟ وهل يجب أن نقول مع Mad-den، أنه لم يحدُث قط أن سيّدًا في مثل هذه الوحشية، قد حكم مصر؟» ولكن كيف نحكم على موضوعية، ألفريد دوموليون de Mauleon في قوله: كان المرزبان ينظر من نوافذ قصره في رأس التين، ويمتلئ فرحًا عندما يرى قواه البحرية وترسانتها[٣]».

ونحن نعرف أن محمد علي لم يكن قديسًا. فما أبعده عن ذلك! ولكن أن نردّ الرجَل إلى مجرّد مزاجه أو طبعه الاستبدادي، فهذا إفراط في التبسيط.

جوميل أو الذهب الأبيض المصري.

وحوالي العام ١٨٢٠، تم اكتشافٌ ذو أهمية عظمى، كأنه جاء ليحمل نفسًا جديدًا إلى الزراعة المصرية: فقد حدث أن مهندسًا فرنسيًا، من ليون، كأصل، ولكنه جاء من نيويورك، التي بقي فيها عددًا كبيرًا من السنوات، لاحظ عام ١٨١٩، في بساتين نائب الملك (أو في حدائقه)، في شبرا فيما يرى البعض، أو في حدائق أحدهم اسمه ما هو (أوماكو) بك[٤] - فيما يرى آخرون - لاحظ بضع شجيرات قطنٍ، طويل التيلة، من أصل حبشي، ولكنه يستعمل هناك كنبات للزينة. هذا الرجل يسمى جوميل Jumel. فقرّر أن يستغل اكتشافه، لمصلحته الخاصة ولمصلحة البلد الذي حلّ ضيفًا عليه. وطبعًا، ليس هو ذاك الذي يُعلّم المصريين كيف هي شجرة القطن، المعروفة من أيام فرعون: إذ أن هناك مومياء ات (أو ميومياوات) مغطاة بأشرطة من قماش القطن، وأن بعض مقاطع من التوراة، وبعض النصوص التي تعود إلى اليونان الكلاسيكية، تشهد على وجوده. ومع

ذلك، وفي القرن الثامن عشر، كانت مصر بعيدة جداً عن أن تكون من كبار المنتجين في الشرق. ذلك أن القطن البلدي الذي يزرع عادة في وادي النيل، من نوع رديء، ثم إن إنتاجه كلّه يستهلك في سد الحاجات الشعبية والمحلية.

ويحاول جوميل، بالاشتراك مع تاجر فرنسي من القاهرة - أن يقوم بتجربة لزراعة هذا النوع من القطن، في أرض صغيرة من أراضي قرية المطريّة، غير بعيدة عن مسلة هليوبوليس. فحصل من ذاك عام ١٨٢٠ على ثلاث بالات صدّرها إلى أوروبا. وعرفت منذ وصولها رواجًا كبيرًا. فاتفق مع محمد علي على حق زراعته. ولكن على مساحة كبيرة، مشترطًا أن يحصل لنفسه، لدى النجاح، منحةً قدرُها عشرون ألف دولار(٥). ويستجيب الملك ويُسند إليه إدارة مساحات واسعة، ستغطي عما قريب مناطق كبيرة من الدلتا. ولما كان مقتنعًا بأنه سيجني من ذلك ثروة ضخمة، فإنه (أي الليوني) يعمل بحماسة، خلال ثلاث سنوات متتابعة. وفي عام ١٨٢٣ زاد الإنتاج عن مئتي ألف قنطار. ومن سوء الحظ أن جوميل لم يحظ بالجائزة التي كان يستحقها عن جدارة. ذلك أنه مات عام ١٨٢٣، متأثرًا كالكثيرين من أمثاله، بعوائق متنوعة تُسببها له أنواع من الصعوبات المختلفة، وضعتها أمامه الإدارة المحلية، فيما يتصل باستغلال الأراضي، أو فيما يتعلق بإدارة مصنع الخيوط الذي أقامه في بولاق. فمرض ومات عام ١٨٢٣ في شهر حزيران. وسيأتي حسودون، تبعًا لانحراف عقولهم، ليبذلوا جهودهم لمحو كلّ ذكرى له، فيعطون القطن اسم «ما هو»، ويعزون كذبًا، ابتكاره إلى درويش زعموا أنه هو الذي جاء بالبذور من الهند. ولكن نجاح قطن جوميل كان رائعًا، ولم يكن موت صاحبه ليُقلل من تنامي استغلاله.

ولكن ماذا نفعل بكل هذا الإنتاج، إن لم نبعه إلى الأجنبي؟ ولهذا نرى نائب الملك يتفق، لهذه الغاية، مع بعض بيوت تجارية تعمل لحساب أوروبا. وكانت الشركة الأولى التي قدّمت له سلفة على حساب البضاعة، أي تسليم بالات القطن،

هي الشركة السويسرية التي تسمى Voilier . وبعد قليل من الزمن، قامت شركات فرنسية كثيرة بسدّ الطريق عليها، وحلّت مَحلّها، وتجاوزتها.

ومن سوء الحظ أن الإنتاج صار يتناقص، اعتباراً من عام ١٨٢٨ بسبب ما عانته الأرض من الافتقار، ثم بسبب غياب عدد كبير من الفلاحين المرتبطين بالأرض، بحكم التشديد على ضرورة التجنيد. وهذا ما يلهم جون نينيه John Ninet (وهو مراقب للنظار في خدمة الملك عام ١٨٣٩) ذلك التقرير الذي يحمل عنوان: «تزايد فساد القطن المصري». وهو يعزو تخلف الإنتاج إلى رفض المسؤولين استخدام التقدم التقني[٦]. وكان فيما قاله: «إنه في مرات عديدة، رجونا بوغوص بك بأن يأتينا من الولايات المتحدة بالأدوات الضرورية، وكانت مطالباتنا تبقى حبراً على ورق». ويخلص من ذلك إلى أن السلطات كانت تعارض عمداً وجود هذه المعدّات التقنية، بغية أن يبقى الفلاح أداة إنتاج».

بيد أن القطن، حتى إذا كان يدخل لمدة طويلة، في قائمة المنتجات الأكثر امتيازاً، ليس هو التجديد الوحيد للباشا، ذلك أن القائمة التي يذكر فيها كلّ ما حاول أن يقوم به، بنجاح متباين، سواء أكان في المجال الزراعي، أم في أشياء أخرى كثير، قائمة تستلفت النظر، ويمكن أن تعتبر كمثال نادر، إن لم يكن وحيداً، من نوعه.

فنائب الملك يستزرع ما هو أكثر من مئة ألف قدم، بأشجار الزيتون في الأراضي الكثيرة الحصى.

ثم إن إنتاج الأرز، وسُع بقوة في الأراضي المنخفضة، والطميّة. ففي كل السنين القديمة، كان المصريون يستخدمون تقنيات تعود إلى الأزمنة القديمة، بغية تشذيب الرز. وأما محمد علي، فإنه يُعوِّض عنها بمراجل قويّة، فيصل المحصول السنوي إلى مئة ألف أردب عام ١٨٣٥، ثم يهبط فجأة إلى ما هو أقل من ثلاثين ألفاً، بسبب التجنيد الكثيف الذي كان يستدعيه احتلالُ بلاد فُتحت حديثاً، وخوفاً من إثارة عداءات كبيرة مع السلطان.

وتفد خمسون أسرة من الدروز المختصين، ويُركزون سقائفهم Magnaner-ies (جمع سقيفة من قش يُربى فيها دود القز)، وتستقر في وادي الطوميلات. ففي محافظة أسيوط وحدها، زرع عشرة ملايين شجرة توت. ثم يؤتى من سورية، بالتتابع بخمسة آلاف صانع، مختصين بتربية الدودة، بحيث أن إنتاج الحرير يبلغ عام ١٨٣٣، خمسة عشر ألف طن.

وبدءاً من العام ١٨٢٧، يزرع القنّب بنجاح، على مساحة واسعة، بحفز من رجل فرنسي، من أبناء غرونويل. وكان هذا المحصول يجد سوقًا له معيّنة تمامًا في مناطق مختصة بعمل الحبال لبحرية الحرب، ولكنه يفيد أيضًا في صناعة مخدرٍ، كان يُقدر تقديراً عاليًا في الشرق: وهو الحشيش.

أما في أعالي مصر، فإن الصعيد يصبح بفضل مناخه نصف الاستوائي، ذلك المكان المختار لقصب السكر. وفي عام ١٨١٥ أقام إنجليزي اسمه Brinn وهو ملازم أول قديم، تاجر، مصفاةً حديثة قريبة من Mellaoui (الملاوي).

أما شجرة النيلة، والتي كانت إحدى فصائلها معروفة قديمًا في البلد، أو الفوّة، (Garance) التي أدخلها أحد القبارصة، فإنهما تصبحان موضوع اهتمام عنيف. ذلك أن محاصيلهما الثمينة تغذي مجموعة من المصابغ. ثم إن محمد علي يستدعي أيضًا، من البنغال أربعين أسرة خبيرة بمعالجة النيلة Indigo. وفي عام ١٨٣٠، أصبح الإنتاج السنوي لهاتين الشجرتين، يرتفع إلى مئة و٢٥ طن.

أما العصفر فقد أصبح موضوعًا لتجارة كبيرة. ذلك أن أزهاره المجففة تتيح إنتاج الصبغة الحمراء، في الحين الذي تتغذى الطيور والدجاج والعصافير من حبوبهما.

كما أن التبغ والخشخاش يغطيان حقولاً بكاملها في مصر العليا، والثاني منهما يصلح لصناعة أو استخراج الأفيون، وكان هذا عام ١٨٣٣ يغني البلاد بما يقرب من مليون فرنك.

ثم إن رجل كافالا يعرف من تجربته الشخصية معنى التجارة بالتبغ، وأرباحها. ولما كان التبغ البلدي، من نوعية رديئة، فإنه يرسل أشخاصاً إلى تركيا والشرق، للحصول على أحسن الأنواع. وينشئ لتخميره، سطوحاً واسعة، ويخضع تجارته للحصر (إدارة حصر التبغ والتنباك) ولما كانت هذه ضئيلة الموارد، فإنه، من جديد، يبيح عندئذ استيراد الأنواع الثمينة. ويُرتب على المستورد منه، ضرائب ثقيلة.

أما في الفيّوم، فإن الناس يقبلون على زراعة الورود وهي زراعة تقليدية في المنطقة، يُقطر منها ماء الورد المشهور.

والحنّة، المستخدمة في الشرق، من أقدم العصور والتي تُصبغ بها أصابع النساء وشعورهن، تصبح الآن موضوعاً لانتباه خاص.

وهناك عدد من النباتات التي تحبها الحيوانات، وتجد فيها طعامها المفضل، مثل السنفوان الأيدوصارون، وعدة أنواع من البرسيم (الفصّة). وقد تأقلم بعض هذه مع الجوّ. وأرسلت الحديقةُ النباتية في مونبيليه التي يديرها Delile، بذور الخطمية Guimauve، والترنجان Melisse، والأرمواز(٧) Armoise أي الأرطماسية وهي نبتة عطرة، والكريسون Cresson (أي البقلة).

وبالمقابل فإن المحاولات التي أرادت أقلمة شجرة القهوة، أخفقت كلها. وكان لا يزال باقياً من أثارها، غير الناجحة، اسم حديقة كبيرة في القاهرة القديمة تدعى الآن «بجنينة البن» التي زالت الآن.

ولم تُهمل الأشجارُ المثمرة، هي أيضاً. وكان مصريو القرن الثامن عشر لا يعرفون إلا أشجار البلح والتمر. وكان الناس، في بساتين الرشيد، التي مجدّها شعرياً Savary(٨)، يجدون خليطاً من شجر البرتقال والليمون والرمان، والمشمش، واللوز. وقد تكاثرت هذه الأشجار في بداية القرن التالي.

ولنذكر أن إبراهيم الذي يهوى الزراعة، ينتج خمراً متوسط الحال، من «الدوالي» جاءته من بوردو. وينتج له بستانه الواسع في الجيزة، الذي يشرف عليه الكولونيل (العقيد Varin، بعض الهليون، والبازاليا).

ومن بين أشجار الزينة، يجب أن نذكر القرانية الدموية Cornouiller San-quin التي تستورد من اليونان. وهناك عدة أنواع من الأشجار الضخمة تستخدم لزيادة الظل في الشوراع الكبرى من المدن، مثل تلك التي تؤدِّي إلى قصر الشوبرا في القاهرة.

وإلى جانب السيكومور (تين فرعون Sycomore)، مثله مثل عذراء المطرية، التي تتضخم ضخامة هائلة. ويزرع الناس الميموزا والسرو Cypres والحور على طول القنوات. ولنذكر أن محمد علي يُعفي - ولهذه المرة فقط - يُعفي الأراضي التي تتصالب فيها الأشجار، من كل ضريبة. ويقع أحياناً أن تنشأ حدائق، وبساتين حول ضفاف المحمودية.

وفي عام ١٨٣٣ نجد السانسيموني Barrault يقدّر أن نائب الملك زوّد مصر بعدد يترواح بين الخمسة أو الستة ملايين من الغراس الحراجية.

ومهما يكن القرف الذي يمكن أن يشعر به كارهو الباشا، فإنه لا يسعنا إلا التساؤل! كيف لا نستطيع أن ننحني احتراماً للقرارات التي أتخذها الرجل لإشاعة التجديد في بلده؟.

وحقًا، كما سنراه فيما بعد، ليس ذلك إلا بداية.

-١٤-

أكبر رأسمالي في العالم

(١٨١٤ - ١٨٤٠)

ها إن محمد علي، الذي أصبح في كل الاعتبارات، التاجر الوحيد في مصر، كما أنه المالك الوحيد، والمزارع الفريد لدوّلَه (مصر + السودان + الجزيرة العربية + سورية + بلاد النوبة). ولم يكتف الرجل فقط بتصدير منتجاتها، بل أراد أيضًا تحرير مصر من كل عبء أو ضريبة تدفعها إلى أوروبا، لشراء البضائع المصنّعة. ولهذا قرّر أن ينشئ صناعات مماثلة في مصر. وعندما ينشئها من دنانير الدولة (ويجب ألا ننسى ذلك) التي هي دنانيره أيضًا، يجعل نفسه مالكًا لهذه المصانع.

فمنذ عام ١٨١٤، أعلن في مالطة! إعلانًا يطلب فيه توظيف عمال من كل الأنواع. وفي الوقت نفسه يصادر في القاهرة، وفي جميع المدن الأخرى في المحافظات، كل الصناع المحليين. وهكذا يقوم، بالحصر الصناعي «كنتيجة منطقية للحصر الزراعي. فكل منتجات المحاصيل التي لا يمكن أن تباع في الخارج بأسعار مناسبة، يجب أن تستهلك في أرض مصر نفسها. إلا أن بعض البضائع ولا سيما (المنسوجات) تتطلب نوعًا من التحويل قبل أن تُوضع قيد الاستهلاك. وبديهي أن تقتضي المصلحة العامة أن تخضع الموارد الأولية للتحويل (لتحويلها إلى بضائع يمكن بيعها بسهولة) في مصر، بدلاً من أن تُصدّر إلى الغرب لكي تعود إلى وادي النيل، على صورة بضائع مصنّعة.

ويعلن الباشا أنه ليس على مصر، أن تستغني فقط عن البضاعة الأجنبية، بل عليها أيضاً أن تهاجم الأسواق الأجنبية. ويبدو أن هذا القرار اتُخذ بإيحاء من بوختي Bockhti، القنصل العام للسويد. وهو يريد أن يقوم الباشا، بإنشاء فبارك للدولة. ولهذا عيّن مديراً عاماً لهذه المعامل.

ويهتم محمد علي أكبر الاهتمام، فيما يبدو، بصناعة الأنسجة. ويبدو أن نظامه، أي نظام المعامل اليدوية، قد طُبّق أول الأمر في القاهرة عام ١٨١٦ في حيّ الخورونفيش Khoronfich، وكان فيها حرفيون من فلورنسا، يغزلون الحرير، ثم إن هذا الحرير سلّم إلى نسّاجين محليين.

وقليلاً فقليلاً، نشأت مناسج للقطن أو للكتان في القاهرة والمحافظات بعدها. وقد اشتملت على ستة آلاف مهنة. وكانت الأولى هي منسجة بولاق، التي كان جوميل قد أقامها، حيث كان يعمل عمال مالطيون بالدرجة الأولى، ومن هنا جاء اسمها «المالطا». وفي عام ١٨١٧ جيء بثلاث نسوة من مرسيليا لعملية تصنيع خيوط القطن، وجيء بسبعة عشر رجلاً من ليفورن، لتصنيع خيوط الحرير. أما منسجة مالطا، فقد وُجد فيها ما يقرب من مئة مهنة، بدأت نشاطها، بواسطة ١٤ طنبوراً تتلقى حركاتها من مكنة، يحركها ثمانية ثيران. وكانوا يُصنّعون فيها الموسلين وما يسمى عندنا باسم الباتيسته.. ومن سوء الحظ أن القوّة المحرّكة المقدّمة عن طريق المكنات، لا تعطي إلا حركة غير منتظمة مما يجعل عربات الحمل والمرادن كثيرة الانكسار. ويتمّ في الحي المعروف باسم السيدة زينب، إنشاء «معمل» لصنع المنادف (المنافش)* يعمل فيها الأطفال خاصة. وفي عام ١٨٣٢ أقمشة كتانية، بلغ الإنتاج فيها مليون قطعة.

ويستدعي محمد علي من سيدان Sedan اختصاصياً اسمه Ducot (دوكو)، لكي يُعلّم العمال صناعة الجوخ Drap. ولكن لم يُصنّع إلا جوخ تافه، قد لا يفيد

---

* - المندف: مكنة أو آلة لندف القطن أو الصوف.

حتى في تلبيس العساكر. وقام مُعلّم لصناعة الطرابيش أقيمت في Fouah فربح ربحًا ضخمًا لأن الناس بحاجة إلى الطرابيش؛ ونراه يزاحم مزاحمة جدّية، طرابيش مشهورة ذات سمعة حسنة، تصنّع في تونس.

وهناك عشرون طاحونًا تقوم باستخراج زيت الكتان، والسمسم والقرطم. وجاء رجل من إزمير، فأقام في الرشيد مدبغة نموذجية، يُستخدم إنتاجها لصناعة الأحذية، والوسائد. غير أن منتجاته تنكشف رداءتها، لأن الجلود التي يُسلمها الفلاحون، تكون في أكثر الأحيان قد عُرّضت للفساد والتفسخ. ولما كان الاستهلاك يتضاءل، كان من الخير أن تغلق المدبغة.

أما مكنات البخار الأولى، فقد استوردت عن طريق الإنجليزي Galloway الذي نشّأ أيضًا عمالاً مهرة لصهر الحديد في بولاق، ومصنعًا لرقائق النحاس في القلعة. وقد أقيمت فيها أدوات حدادة، وأدوات ثقب أوتسنين، ومناشر ميكانيكية، ومصاهر كما تُصنّع فيها أيضًا المراسي للسلاح البحري الحربي.

وكانت كلُّ فبركة (كل معمل) تملك إدارتها الخاصة، ومستودعاتها. وكان لها نوع من الأختام الرسمية (ولنقل خاتمًا رسميًا) يمنع التزوير في الصناعة. وطبيعي أن كلَّ ما في المعمل والمعامل، كانت للفرعون.

وكان محمد علي المزارع الوحيد (والباقون هم عماله فقط) والصناعي الوحيد لدولته، ولنقل أكبر رأسمالي في أيامه. بيد أن الأرباح التي جناها من هذا الميدان، - من غير أن نقول إنها ليست بشيء - كانت دون أمثالها التي تنشأ من الزراعة. والحق أن مشكلات كثيرة يضاف بعضها إلى بعض، وتنضاف هي إلى تلك التي تطرحها تنظيمات أو مؤسسات، ما تزال غير مكتملة. وأما شراء الأنوال فإنه يرغم الحكومة على دفع نفقات باهظة. فمصر هي بلد الرمال. وهذه تتسلّل بسرعة إلى المكنات وقطعها المختلفة، وتضرُّ بحسن عملها، وتكون الحكومة

مضطرة، بلا انقطاع، إلى شراء مكنات جديدة، يقوم عليها عمال جهلة، فلا يحسنون تنظيفها ولا تشحيمها ولا تزييتها في الوقت المناسب. ولذلك فإنها كثيراً ما تتوقف عن العمل قبل أن تكون قامت حقًا بالخدمة.

وهناك مشكلة أخرى، أخطر من غيرها، وهي أن مصر لا تملك المحروقات، إذ ليس لديها لا مناجم للفحم ولا غابات. وهكذا نفهم، وبسهولة، أنه بغض النظر عن بعض الاستثناءات، فإن المعامل والمصانع التي أنشأها محمد علي، لم تكن أبداً في حالة حسنة، بل إن أكثرها زال واختفى، عندما غاب عن بال أميرها، أن يدعمها بقوته الحاسمة.

ومنذ ربيع ١٨٣٠ لاحظ الكابتين هودر Huder مرافق غييومينو Guillemi-not، سفير فرنسا، في الأستانة، إغلاق الكثير من معامل صناعة الخيوط التي حوِّلت مبانيها إلى ثكنات. ويقول الدكتور Bowring «إن التجارب الصناعية التي قام بها نائب الملك، قد كلفته غاليًا، ومع ذلك فقد خسرت. وفي عام ١٨٣٥ أضاف بوكلر Puckler أن أكثر من عشرة ملايين دولار، قد أنفقت كخسارة محققة. ومع ذلك، وبغض النظر عن هذه العاهات، يظل صحيحًا أن إنشاء هذه الصناعة، قد قدَّم الخبز لآلاف من الفقراء الذين كانت حياتهم تتعلق حصراً بالازدهار الزراعي.

وهذا يعني أن لاستغلال البلد لمصلحة رجل واحد، نفس النقائص التي تلاحظ في كل الأنظمة التي تنفي الحرية الاقتصادية: ولما كان الشعب مضطراً إلى احتمال العبء المرهق لخدمة عسكرية لا حدود لمدتها، فإنه سيبقى اليوم حافي القدمين، كثير الشقاء، كما كان من قبل. ولن يجد السبيل إلى الاغتناء إلا أكثرية عملاء أو عمال الدول الأجنبية.

ونقول أيضًا إن مدَّ الحصر إلى منتجات السودان والبلاد العربية في شبه الجزيرة العربية، قد انتهى إلى نفس النتيجة الكريهة. ذلك أن تجاره الصمغ، وهو

المصدر الأول لأرزاق أهل كردفان، تصبح مستحيلة. ومثل هذا يقال عن تجارة القهوة والعطور، ذات السمعة العاطرة في اليمن والحبشة. هذا وإن التجارة الوحيدة التي بقيت سالمة للإفراد، في أفريقيا الداخلية، هي تجارة العبيد. وهكذا أصبحت الخرطوم - ولمدة طويلة علامة حقيقية على المتاجرين بالسود.

وكنهاية للحساب، نقول: إن تجارة مصر الخارجية، كانت على كل حال، تتزايد بصورة عجيبة. وعلى حين تجارة مصر المملوكية مع العالم تساوي واحداً من ثمانية من تجارة أوروبا مع الشرق، فإنها أصبحت تساوي النصف عام ١٨٣٤. وكانت فرنسا هي الشريك المتميز في هذا الأمر. وفي ٧/ ١/ ١٨١٨ نقل Thede-nat- Duvent إلى الدوق دوريشيليو، مذكرة في هذا الموضوع، نقدِّم هنا بعض مقاطعها.

«إن مصر التي أرادوا لها، دونما وعي، أن تكون مستعمرة فرنسية بقوة السلاح، هذه المصر تقدّم سوقًا واسعة للمنتجات الفرنسية. وجاءت الطبيعة فجعلت منها نقطة الوصل بين آسيا وأفريقيا، وجاءت السويس ففتحت لها باب الهند [. . .].

«[. . .] إن الباشا الذي يحكم مصر، ويلقب بنائب الملك، كوّن منشأة تجارية لحسابه، في مرسيليا، وسلّم إدارتها إلى السيد باسيل فرزلي Basile Farsali. ولم يكن هذا المدير يرغب في شيء قدر رغبته في كتلة المبادلات بين البلدين [. .]

«إن كميات هائلة من القمح والأرز والخضار من كل نوع، استوردت بعنايته عن طريق مرفأ مرسيليا، خلال عام ١٨١٧، وردّ ذلك بالجوخ، والأشياء الحريرية، وأشياء أخرى مصنّعَة في فرنسا.

«وقد عبّر نائب الملك في مصر، سمو الأمير محمد علي عن رغبته في تنمية العلاقات مع التجارة الفرنسية، في مرافئ مصر. وقدَّم حديثًا برهانه في ظروف

القحط الذي عانت منه فرنسا، إذ أسرع بإيصال كمية كبيرة من القمح والأرز والخضار[1] . . . إلى مرسيليا.

وعلى ذلك فإن مالية محمد علي، تربح بصورة طبيعية من هذا النمو الزراعي والتجاري. ثم إن عوائد الخزينة المصرية أعلى بما لا يقاس مما كانت قبله.

تلك هي المنظومة الاقتصادية للباشا، في خطوطها الكبرى.

فيه وإليه يعود هذا الاندفاع الحاسم الذي عرفه الإنتاج. وأول ما فيه هو القطن وإنشاء صناعات ذات فائدة وحيوية تبدو أكثر قلقًا، غير أن بعض جوانبها ستعيش بعده، أو ستنشأ فيما بعد.

أما ما أخطأ فيه (ولكن هذا يَصحُّ على أوروبا كلها في ذلك الحين)، فهو أنه لا يُشرك الشعب العامل، في منافع هذا النمو الاقتصادي الذي لا يُحسّن مطلقًا شروط حياته، بل إنه يؤذيها أحيانًا. وفي الوقت نفسه نلاحظ انعطاف الإنتاج وسوء نوعية المنتجات، مما يؤدي إلى تضاؤل التصدير.

وخلاصة القول إن الباشا طبع إدارته بطابعه، وجعلها وحدة استبدادية، ضرورية مؤقتًا لتحريك التجارة، ولإنشاء عالم صناعي، ولكن كان على هذا الوضع ألا يُستبقى كما هو، بدءًا من اللحظة التي حَسُنت فيها أرباحه. ولكن لئن كان محمد علي على جانب من الحكمة بهذا القدر، فقد كان عليه أن يُمثِّل الاستثناء المطلق. وهذا شيء لا ينبغي الشك فيه. ولكان محمد علي أميرًا طاهرًا، وعبقرية صاخبة. لنطرح إذن هذه القضية، بشكل آخر، ولنقل: كيف يمكن أن يكون مصير تطور مصر، لو أن حكم المماليك والعثمانيين دام طويلاً؟.

- ١٥ -

الماء والطرق والسدود
(١٨١٦ - ١٨٤٧)

يتعلّق ازدهـار الـزراعة بنـظام الريّ، فـهذا النظام هـو الشرط الذي لا بُدّ منه للازدهار.

وكان نابليون قد لاحظ بوضوح الوضع الخاص لمصر من هذه الناحية: إذ أن سهول الـ Beauce والـ Brie خصبّت بالسقي المنتظم للأمطار، وتأثير الإدارة صفر من هذه الناحية. أما في مصر، حيث صور الريّ لا يسعها إلا أن تكون صناعية، فإن الإدارة هي كل شيء. فإذا كانت سيئةأو ضعيفة، فإن الأقنية تُسَدّ، ويصعبُ إصلاح الأعطال. وتكثر هنا مخالفات نظام السقي، وتُتجاوز أنظمة الري، بالمخالفات أو بالمصالح الخاصة للأفراد، أو لبعض الجماعات. (١)

وكان كليبر ومينو Menou، قد عملا على تنمية نظام الأقنية، الذي كان موجوداً في مصر، في كل العهود. لكن محمد علي، يمضي إلى أبعد من ذلك بكثير: فحكمه مؤشر على نقطة البداية في تحديث أعمال الجمع والتوزيع في مياه النيل.

وهناك فرنسيان يظلان متلازمين في العمل الجبار الذي بُدئ به. هما أوجين موجيل(٢) Eugene,Mougel و Louis Maurice Adolphe Linant من بيلفون Bellefonds. وكان هذا الأخير، الذي أصله من Lorient، طالبًا في مدرسة

البحرية، عندما وصل إلى مصر عام ١٨١٨، بصفته رساماً، مع بعثة الكونت دو فوربين de Fourbin. فأعجبه البلد. فبقي فيه. وبرعايةٍ وتوجيه من الجمعية الأفريقية[٣]، مضى يتجول في وادي النيل كله، من البحر المتوسط إلى السودان الشرقي ويكتشف صحارى سيناء والجزيرة العربية مع ليون دولابورد Leon de La-borde، ويصل إلى موقع مدينة البتراء بعد ستة عشر عاماً من تسلل السائح السويسري Burckhardt

ويعود بمبادرة منه، ويستعيد الحسابات التي عملها عام ١٨٩٩ (الأب إيني) Le Pere Aine المهندس الأول في اللجنة العلمية لجيش الشرق. ويجد فيها ما يدعو إلى الشك، والحق أن عمل الأب، الذي نشر عام ١٨٠٨ ارتكب خطأً في التثليث، فجعله يقرّر أن هناك فرقًا في المستوى بين البحر الأحمر، والبحر المتوسط، مقداره ١٠ أمتار، مما يجعل من المستحيل أن نفتح طريقًا مائية، تصل بين البحرين. ويأتي Linant فيصحّح الخطأ، ويؤكد أن من الممكن شق قناة بحرية مباشرة بين السويس وبيلوز Peluze (غير بعيد عن بور سعيد الحالية)، ومن دون المغامرة بغمر أراضي الدلتا. ويبقى هو الشخص الوحيد المنسي في مشروع قناة السويس الحالي. وعندما نشير إلى Bellefonds، فإننا لا نستطيع الامتناع عن إقامة التوازي مع Amerigo Vespucci، وكريستوف كولومب. أما الثاني فقد اكتشف أمريكا (الأمريكتين)؛ ومع ذلك فإن الذي شُهر بالاكتشاف أميريكو، وأُعطي اسمه لها لا اسم كريستوف كولومب. إن للتاريخ فترات غريبة من فقدان الذاكرة...

وبدأ بحفز من الباشا، بتطهير الأقنية الموجودة. ثم ثنّى بحفر أقنية أخرى، وخلال ذلك كان يُحسِّن الوسائل التي كان يملكها الفلاح حتى ذلك الحين، لرفع مياه النيل حتى فروع النهر. وهكذا فإن ما يقرب من ٣٨ ألف مكنة رافعة أُدخلت إلى مصر. وبفضل أعمال تُصورت، تبعًا لمخطط منهجي، بدأت منظومة الري

بالأقنية، تقوم بالتدريج مقام النظام السابق، في الإغراق عن طريق إقامة أحواض في أعالي مصر وأدانيها.

وكما كتب لينان، في مقدمته لكتابه[٤]: «قبل وصول الجيش الفرنسي الذي يقوده بونابرت، كانت كل قرية، تدار بوكيل للبيك الذي يحكم المحافظة. وكان يقوم بالأعمال التي كانت تناسبه، فيما يتصل بالسدود والأقنية، وأدوات التصريف، لسقاية أرضه، من غير أن يفكر فيما عساه أن يسيء إلى جيرانه». ومن هنا كانت تقوم خلافات لا حصر لها، وكثيراً ما تؤدّي إلى خصومات دموية.

لكن محمد علي وضع حَدّاً نهائيًا لهذه الفوضى. فحول عام ١٨١٦، أمر ببناء مئات من السدود، أملاً بضبط النيل ومنعه من تجاوز حدوده، في فترة الفيضان الكبير. ونراه بين عامي ١٨١٦ و ١٨٣٢، يمنح مصر أكثر من ثمانين ميلاً من الأقنية؛ وهذا عمل ضخم جداً، لم يكن ممكنًا لولا السخرة. وكان الحفارون، الذين يسهر عليهم مهندسون وعناصر ثانوية، تعيّنهم الحكومة، يأكلون الفول والبصل والذرة ويبذلون أقصى جهدهم حتى الغروب. وكانوا مجهزّين بأدوات بدائية، هي تمامًا تلك التي كانوا يستخدمونها بأيديهم للعمل في الحقول. ويمكننا أن نتخيّل كمية العناء، عندما نعلم أنه في سنة واحدة، وبوسائل بدائيّة بائسة، أزاحوا ما يقرب من خمسين مليون متر مكعب من تسوية الأتربة[٥]. وعندئذ يقسمّ الممرّ الطويل - الذي لا يتجاوز عرضه ١٠كم، ويشكل مساحة وادي النيل في مصر العليا - إلى أحواض كبيرة، مساحة كل منها ما بين ١٨ - ٢٠ ألف هكتار، وتُوصل بقنوات أو مصارف، .

وهكذا فإن أحد الإنشاءات الأعظم بروزاً لمثل هذا العمل، كان حفر قناة المحمودية[٦].

وعندما كان الباب العالي هو الذي يحكم، فإن الطريق المائية التي كانت تصل ما بين النيل والإسكندرية، أوشكت أن تجف إلى الدرجة التي لم تعد يُلاحظ فيها في نهاية القرن الثامن عشر، إلا خيط من الماء، يقوم بحاجة السكان في المدينة. ولكن شعب الإسكندرية يزداد، والحاجة إلى الماء تصبح ماسة، وعندئذ كان لا بُدّ من علاج هذا النقص.

وهناك ثلاثة أسباب حملت نائب الملك على حفر المحمودية.

أولها سبب اقتصادي. فبفضل هذه القناة، يمكن أن نأتي بالماء إلى الإسكندرية، وأن نسمح لهذه المدينة بالنموّ، وأن ننشئ طريقًا مضمونة لنقل البضائع (والقمح خاصة) المعدّة للتصدير.

أما السبب الثاني فهو «عاطفي». فمنذ وصوله إلى مصر، وبصورة خاصة منذ إلحاق الهزيمة بالإنجليز الذين حاولوا إنزال جنودهم إلى المدينة عام ١٨٠٧ - مما أتاح له وضع اليد على المرفأ - ظلّ محمد علي يفكّر برفع المدينة القديمة إلى مستوى المرفأ الدولي. وعلى ذلك فإنه كان لا بُدّ من تغذيتها، في كل الفصول، بماء الشرب وينشئ في الوقت نفسه، طريقًا مضمونة للاتصال السريع بينها وبين العاصمة.

أما السبب الثالث فهو من نوع عسكري: «ذلك أن جناح المرفأ الذي يقع في الطرف الغربي للمدينة، لن ينتهي إلا بعد سنة أو سنتين. وعندئذ ستشكل القناة خط دفاع جديد للإسكندرية، من جهة الأرض. وعلى الأرجح فإن محمد علي، كان يهدف إلى هذا، بما لا يقل عن هدف آخر، هو سهولة نقل بضائعه بدون التعرض لأي خطر، ونقلها، فوق ذلك، بثمن زهيد؛ ولكن المحرك الخفيّ للكثير من الأعمال، هو حرف مياه النيل بصورة تجعل فتحة الرشيد صعبة الاجتياز، ويسهل سدّها أمام أسطيل الكابتين باشا، الذي ظن أنه مهدّد به، منذ ثلاث سنوات، وهذا ما أوجب أن يقام حاجز للمدخل إلى دمياط، إذ لا يمكن أن نقارب البرّ من البحر إلا في الإسكندرية، تحت نار المدافع(٧).

وقد بدأ الأعمال حوالي شهر تموز (يوليو) عام ١٨١٧ . ومرة أخرى، يُحتاج فيها إلى السخرة. ويذكر Linant عدد المسخرّين - وربما بشيء من المبالغة - ليقول بأنهم ٣٦٠,٠٠٠ إنسان.

وقد سُلم المشروع أولاً إلى واحد اسمه الحاج حسن. وهو مهندس تركي، يهمل كل دراسة أخرى جرت قبله. لكن المخطط الشديد التعرج قد تمّ من دون تهيئة أو تحضير. وكان رؤساء القرى ينزلون إلى البحر مع العمال الذين أتوا بهم، ويحفرون كيفما اتفق. وبعد بعض الوقت صاروا يُجبرون، على وصل القطع المحفورة فيما بينها، بالمصادفة، بعمل زوايا، والانطلاق إلى خطوط منحنية غير معقولة، مما يجعل القناة مجرّد تتابع لأشرطة غير منسجمة.

وفي بداية عام ١٨١٩، وبعد أن اتضح عجز الحاج حسن، قدر محمد علي أن ينقل الإدارة إلى المهندس باسكال كوست، كان هذا الرجل ابنًا لنجار من نجاري الأثاث، وقد وُلدَ في مرسيليا في ٢٨/ ١١/ ١٧٨٧ . وبعد أن تابع دروس تلميذ قديم لـ Ledoux عُين كرسام عام ١٨٠٤، بين يدي السيد Pen-chaud، مهندس المدينة. وعندما أُوصي به من قبل هذا الأخير، قُبل عام ١٨١٤ في مدرسة الفنون الجميلة في باريس، في صف الهندسة المدنية. وقد استرعى انتباه جومار Jomard الذي أرسله بمهمّة إلى الباشا محمد علي. . وبقي في مصر من عام ١٨١٧ حتى عام ١٨٢٧ . وسرعان ما وضع المخططات، وبنى أو أنشا فبركة للبارود Salpetre، عن طريْق التبخر الذي تصوَّره Baffi: وكانت كفاءته في القضايا المائية عالية، إلى الدرجة التي جعلته مرشحًا لحفر الأقنية في الزقازيق. ولهذا الغرض، طلب إلى محمد علي أن يقدّم له، خلال ستين يومًا، ثلاثين ألف فلاح. وردَّ عليه نائب الملك بضرورة تقصير المدة، قائلاً: «إنني سأعطيك ستين ألفًا بدلاً من ثلاثين أو حتى ثمانين ألفًا[٨]. ». وهنا نلاحظ مرة أخرى، ضيق صبر الباشا.

وهكذا فإننا مدينون أيضًا إلى Coste بالتسعة عشر برجًا تلغرافيًا، التي أنشئت بين ١٨٢١ و ١٨٢٢، ما بين قلعة القاهرة والإسكندرية.

وحدث أن محمد علي، كان مصابًا بأزمات ربو، ونَصحَه Clot بحمامات بحر، فطلب إلى صاحبنا نفسه أن ينشئ له جناحًا، مع متمماته، فوق شواطئ المرفأ القديم، في الإسكندرية وقد انجز المطلوب عام ١٨٢١ . وخلال ذلك قام المرسيلي بتجديد حدائق قصر شبرا، بإنشاء بيت لبوغوص بك، وفيلا لقنصل انجلترا.

وبالمقابل، فإن عدداً من مشاريعه لم ير النور، لنقص الوسائل. وخاصة، عندما بدأت حرب موريه Moree[٩]. لأن هذه ابتلعت كل أموال الخزينة. وعلى كل حال، فإن الأبحاث التي تمّت، على مدى طول إقامته في مصر، سمحت له بالقيام بأعمال تستحق الإعجاب، وجعلته يلقى كل تقدير في الأوساط العلمية[١٠].

وعندما بدأ بتنفيذ بناء مسجدين، واحد منهما في القاهرة، والآخر في الإسكندرية، وكان المسيحي جداً، Costi، قد حصل من نائب الملك على الترخيص له بدراسة كل المساجد الموجودة في القاهرة. ولكن لا من غير أن يتلقى من الباشا نصيحة هامة إذ قال له: «لا تذهب إلى جامع الأزهر، حيث يوجد طلاب كثُر مستعدون للاحتجاج على وجود «كافر». ولكن كوست تجاوز هذه النصيحة. وقابل رئيس الأزهر، الذي استقبله استقبالاً لطيفًا جداً. ولكن يجب أن نشير إلى أن كوست كان يعرج. وربما كانت هذه العاهة - التي هي علامة على سرعة العطب، وشدة الاستعداد للوقوع في الأمراض - جعلته يحظى بتعاطف الشيوخ وتلطفهم، ذلك أنهم سمحوا له بأن يزور الأماكن المقدسة كلها بحرية تامة.

وقد عاد مرة أولى إلى باريس في أيلول سبتمبر عام ١٨٢٣ وسمّي مفتشًا لأعمال محافظة الـBouches - du - Rhone ومضى إلى مرسيليا لكي يقوم بواجبات عمله، ولكن سرعان ما تركها، تلبية لإلحاح محمد علي. فعاد من جديد إلى القاهرة، حيث طلب الباشا منه بناء قصر قريب من مسكنه في شبرا. . وهذا قصر لم يبن قط.

وفي عام ١٨٢٧، وخزه عقرب (حفظه في زجاجة، سلّمها بعد ذلك إلى متحف التاريخ الطبيعي)، وقد عالجه الدكتور دوساب أحد قدماء البعثة المصرية ثم عالجه كلوت فنصحه هذا بالعودة إلى فرنسا. فيركب باخرة اسمها Alceste، ثم يصبح عمله مقسّماً بين التعليم في مدرسة الفنون الجميلة في مرسيليا، وبين رحلات أوصلته إلى بلاد فارس. وهذا ما أتاح له أن يجمع جملة من الذكريات. ثم انطفأت شعلة حياته عام ١٨٧٩ وعمره يناهز المئة عام.

وعندما كُلف كوست Coste بقناة المحمودية، بذل جهده كله لكي يصلح الأعطال، ولكن العمل كان قد أفسد أكثر مما يجب، في بدايته، وعندما تمّ هذا العمل وجُد أنه بقي غير مكتمل. . ولعدم وجود منحدر كاف (وبالتالي بسبب ضعف صبيب الماء)، فإن المياه الحلوة سرعان ما هوجمت بتسللات للمياه البحرية. وكان هناك فرنسي، آخر باسم Huyot وهو مرتبط ببعثة الكونت دوفوربان وقد حاول أن يدع مياه القناة تصل إلى خزانات الإسكندرية عن طريق قناة أخرى، ولكنه لم ينجح إلا نصف النجاح: وسيكون الماء الواصل أقرب إلى الملوحة. وهكذا نجح محمد علي بالتخطيط، وأخطأ المهندسون بالتنفيذ.

وقد انتهت المحمودية في ديسمبر (كانون الأول) عام ١٨٢٠، وتمّ تدشينها الرسمي في شباط (فبراير) عام ١٨٢١، ولم تكلف إلا ثلاثين ألف بورصة. وهذا مبلغ ضئيل بالقياس إلى ضخامة المشروع، ومما يعني أن نظام العمل المجاني (أو السخرة) هو الذي جعل هذا المبلغ صغيراً نسبيًا. إذ لقد عمل فيه ما يقرب من عشرين ألف فلاح، ضحّوا بحياتهم من جراء التعب والحمّى في مستنقعات غير صحية(١١).

وبدءاً من عام ١٨٣٤، عيّن مجلسٌ رأسَهُ Linant الذي رفُع إلى رتبة مهندس أول لمصر كلها. وفي العام التالي، أنشؤوا مؤسسة أو دائرة الأشغال العامة،

الموصولة بالتعليم العام (دائرة المعارف، أو وزارتها . .إلخ)، ووضعت تحت المراقبة العليا لمختار بك.

وعدا الأعمال المقتضاة لحاجات السقي، قام محمد علي بتحسينات أخرى، فقد أغلق السد الذي يفصل بحيرات المهدية Mahdieh ومريوط، القريب من الإسكندرية. وهو سدٌّ كسره الإنجليز عام ١٨٠١ بغية عزل Menou في الساحة، وحرمانه من الماء الصالح للشرب. وقد ردّت مئات أو عدة مئات من الهكتارات الأرضية إلى عالم الزراعة، بفضل هذا الترميم. وكذلك فقد أمر الباشا بسدّ القناة الفرعونية، كوصل طبيعي بين ذراعي النيل الذي كان يَمرُّ بمدينة منوف. وخلال هبوط مستوى النهر، كان هذا التحويل يرفع كتلة ضخمة من الماء، عن فرع دمياط، وهذا ما نشأ عنه أذى كبير لمزارع الأرز القائمة بين المنصورة والبحر(١٢). أما جسر اللاهون Al - Lahoun الذي يعزوه الناس إلى أعمال صلاح الدين، فقد كان على وشك الانهيار. فدعّموه بتصفيح، وضاعفوه على بعد مئة متر بسدٍّ آخر بني بالحجارة بناءاً معمارياً.

وفي نفس الفترة تبدأ -و دوماً تحت إشراف وتوجيهات Linant de Belle-fonds - دراسة إقامة سد كبير في رأس الدلتا. وكان هذا أيضاً مما تصوّره نابليون. وهكذا نراه يقول: سيأتي يوم يقوم فيه الناس بإنشاء سدود على أذرع دمياط والرشيد، في «بطن البقرة»، وهذا ما سيتيح، بعد الاستعانة بحواجز مؤقتة، بترك مياه النيل كلها، بالتالي، تجري في أحد الفروع أو الثاني، وتُضاعف «الفيضان بهذه الصورة».

وفي البداية، كان محمد علي يُفكر بسدّ على النيل، ووقفه كله على فرع الرشيد. ولكن Linant حمله على أن يلاحظ المخاطر التي تنطوي عليها إقامة سد وحيد، وأقنعه بضرورة إقامة سدّين، أحدهما على أحد فرعَي النهر، ينفتح وينغلق

بالإرادة، فيتركان الماء يجري بصبيب كبير أو صغير من جهة أو أخرى. وكأن نائب الملك أغري بهذا القول أشد الإغراء، ومنحه كامل السلطة في هذا الأمر.

وقُرِّر أول مخطط للسدّ من قبل لجنة كان فيها إلى جانب Linant، المدير العام للأعمال أو الأشغال العامة، الأب انفانتان Enfantin.. "Le Pere"، وكذلك عدد من البوليتيكنيكيين انتخبوا من بين أحبائه: وكذلك مهندسو المناجم Lambert وفورنيل Fournel، والنقباء برونو وهوارت Hoart و Bruneau. وكان من أعضائها إنجليزيان Galloway و Walle. أما المكان الذي اختير لإقامة السدّ، فهو بالضبط ذلك الذي كان يفكر فيه نابليون: أي المكان المسمّى «بطن البقرة» أو النقطة التي يرسمها، فرعا الرشيد ودمياط، في مكان نشوئهما. وفي ١٢/ ٥/ ١٨٣٤، دُشن أو دشنت «الورشة». وفي ذلك اليوم كان السيمونيان الحاضران يحتفلان، في آن واحد، بذكرى نابليون وصعود العذراء. وهناك ابتلع كل ما في الكهف من خمور. أي ست عشرة زجاجة من الشمبانيا، و١٥ زجاجة من الـ Bourgogne، وعشر من خمر Provence وعشر أخرى، من الخمور العادية(١٣).

وكان هنالك آلافٌ من حفاري الأرض، أي أربعون ألفًا على ما يقول En-fantin. والشيء الذي لا يُصدق أنه لم يدر في ذهن أحد أن يحسن استقبالهم: فلا سكن، ولا أدوات، ولا غذاء. وكان يجب أن يبنى كل شيء: كالمستودعات، والمستشفى، والخدمة الطبية، إلخ. بل إن لينان اضطر، كما اعترف هو نفسه، إلى الاستيلاء على المراكب المحمّلة بالقمح التي تمر فوق النيل، وإلى مصادرة الطواحين التابعة للقرى المجاورة، وكذلك مصادرة الأفران: «ففي مصر، يريدون، متى قرّر شيء، أن يتحقق مباشرة، فيما يشبه السحر أو الكن فيكون». وعندما يرغبون في شيء فإنه يجب أن يُنفذ مهما كلف الأمر، وكل الوسائل حسنة، شريطة أن يتم العمل بسرعة. أما أن يتمّ العمل المطلوب، على ما ينبغي، وأن يبقى هو هو، على مرّ الأيام، فليس هذا بالهدف. ما يجب عمله، قبل كل شيء فهو أن نسعدَ به جاهزًا، ويجب أن يُضحى بكل شيء من أجل هذا الغرض.

وهذا الفقدان للصبر - وهو إحدى سمات طبع محمد علي، الأكثر ما يدعو إلى الأسف - يؤدي به إلى أن يقول لـ Linant قولاً يدعو إلى العجب، على الأقل؛ إنه يريد هدم الأهرامات الموجودة في الجيزة، لاستخدام حجارتها في بناء السد! بل لقد اجتمعت لجنة من رجال «الأشغال العامة» وذهبت إلى مكان الهرم، بغية دراسة المشروع(١٤). ولكن لينان المعارض كل المعارضة لمثل هذا العمل، والذي لا يحب أن يعارض الباشا سيده، وجهًا لوجه، يجد القيام بتمثيلية ما، أمرًا لا بُدَّ منه. فيقدّم بكل صبر وجدّية كشفًا، لمحمد علي. وكان هذا الكشف يقدِّم أرقامًا، يخلص منها إلى أن الأعمال التحضيرية وحدها تُكلف خمسة عشر مليونًا من القروش المصرية. وعندما وجد محمد علي أن المبلغ ضخم جدًا، عدل عن مشروعه، ورضي بحلٍّ أكثر حكمة، وأقل عبثًا بالآثار، أي حل لينان الذي يكتفي بمقالع عادية.

لكن الصراعات الناشئة عن التدخل الشخصي لرئيس السامسونيين، في إدارة الورشة (٥/ ١٨٣٤) وعدم انتظام أخلاق أنصاره، والهرب الكثيف للفلاحين، سرعان ما أفسدت سير الأعمال. وأضيف إلى ذلك انتشارُ وباء الطاعون، الذي كان ضحاياه أكثر من ٣٥ ألف نسمة. وفي عام ١٨٣٥، علّق كل شيء. وفي عام ١٨٣٧، وبعد سفر Enfantin، وأكثر أصحابه، يحاول لينان أن يستعيد العمل في السدّ. ولكن - على ما يكتبه هو - «لمَ يعد أحدٌ يقدّم مواد البناء، ولم يعد لي شيء أقوم به في السدود».

ويجب أن ننتظر حتى العام ١٨٤٢، حتى يتابع العمل، ويمضي بقوة إلى الأمام، بسبب وجود مهندس آخر هو Dieudonne Eugene Mougel- المكلف من قبل، بأعمال حوض الإسكندرية. وعندما وجد أن محمد علي يُكلف هذا الرجل بالمشروع القديم، فإنه لا بد أن يكون لينان قد شعر بشيء من الأسى، ولكنه لم يشأ

أن يظهره، ملاحظًا بشيء من الفلسفة: «أن موجيل اقترح نظامًا آخر للتنفيذ، وإلا فلمَ لم أُطلع أنا، ولم يقل لي أحد، شيئًا عن العودة إلى العمل الذي كنت بدأته هنا؟

ومهما يكن لدى موجيل من عبقرية، فإن من المرجح أنه لولا ملاحظات سابقه، إذن لما كان له أن يقوم بأي عمل، قبل تمضية مدة طويلة. وفي يوم ١٢/ ٦/ ١٨٤٢/ أرسل القصر، بواسطة أرتين بك، كتابًا للينان، هذا نصُّه.

«إن السيد موجيل، مدير الأعمال في حوض الإسكندرية قد كُلّف من قبل نائب الملك، بإعداد مشروع سدّ على النيل، على أسس جديدة، وبالاعتماد على مبادئ استحقت استحسان سموّه. وعندما مضى هذا إلى الأمكنة التي يجب أن يدرس فيها صورة التطبيق، طلب أن تساعده بتجربتك مؤسسًا طلبه على ما قمت به، بأمر من نائب الملك، من أعمال ودراسات جادّة حول نظام النيل، وتجهيز مصر الدنيا بأقنية، لإيصال الماء. وقد أخذ سموّه بملاحظات السيد موجيل، وأمر بأن أدعوك إلى الاتصال بهذا المهندس، لكي تعطيه الوثائق التي اضطررت لجمعها، لدى قيامك بتنفيذ ما نفذته من الموضوع الذي يُشغله الآن. وإن سموّه ليعلق أكبر الأهمية على أن يحاط السيد موجيل، علمًا، بما يمكن أن تقدّمه له الإدارة. وهو ينتظر منك، أيها السيد الكريم، أن توضح له نتائج تجربتك، من خلال المعلومات الثمينة التي حصلت عليها، كما ينتظر أن تتعاون معه، فيما يتعلق بتنفيذ عمل يهم سعادة البلد، وهو عمل يجب أن يجد عون كل الموظفين الذين يحب نائب الملك، أن يعتمد عليهم.

السكرتير الأول لنائب الملك وترجماته

أرتين بك

وكان السيد موجيل قد وجه إليه رسالة هذا نصُّها.

«إني أعتمد عليك وعلى كرم أخلاقك ونزاهتك، في إعطائي كل المعلومات الهيدروغرافية الموجودة بين يديك. ولقد كتبت بهذا المعنى رسالة إلى سموّه، أقول فيها: إن من العدل بمقدار ما هو مناسب، أن تشترك معي في جزء من عمل السدّ، لأنك كنت صاحب المشروع الذي بدا أنه جدير بالتنفيذ.

«وقد طلب إليّ سموّه أن أتصل بك، للحصول على الوثائق التي سأكون بحاجة إليها، والتي هي قيد معرفتك».

ولما كان لينان لاعبًا بارد الأعصاب، فقد انحنى لرغبة سموّه دون تردد.

ومنذئذ، صار موجيل يدخل التغيير على المشروع الأول. وفي أوائل يناير ١٨٤٣، قدَّم ملاحظاته الخاصة، إلى مجلس الجسور والطرقات. وخلافًا للينان الذي كان يرى ضرورة إقامة جسرين، يبعد كلٌ منهما عن الآخر بمسافة ستة كم تقريبًا، كان موجيل يتصوّر عملاً واحدًا لذراعي النهر. وأكثر من ذلك، أن المخطط يشتمل على جملة تحصينات لا يمكن إلا أن تغري الباشا. أما عيبه الأساسي فهو أنه يستند إلى أرض أقل استقرارًا من أرض السدَّين الآخرين اللذين تصورهما لينان، إذ يقعان في منطقة بعيدة عن سرير النهر.

أما تقرير اللجنة المختصة، فقد كان موجزًا، بدون تفصيلات: وهو يقول: «إن مشروع السدّ لم يُسبق بدراسات كافية، وهو لا يبلغ الغاية (لا يحقق الغاية) التي اقتُرحت علينا. وليس من الضروري، لإنتاج خيرات كثيرة للزراعة، أن ترفع المياه خمسة أمتار أو ستة. وعلى ذلك فإن الدراسة يجب أن تعاد من جديد».

وعلى الرغم من ذلك، يُغضّ النظر عن هذا التقرير، وفي عام ١٨٤٧، خلال احتفال غني متأصل في التقاليد المصرية (ويؤكل فيه خمسون جاموسًا ويستخدم فيه ثلاثمئة طباخ)، قام محمد علي بوضع حجر الأساس لهذا المشروع، ويوصي بضرب الميدالية التذكارية التي سبق أن تكلمنا عنها في أول الكتاب.

وعلى الرغم من أن موقف لينان كان موقفًا أنيقًا في هذه القضية، وأن عمله لم يكن (على الأرجح) لا أسوأ ولا أفضل من عمل زميله، فإنه حرص على البرهان، - بالاستناد إلى المصوّرات - في دفتره المشار إليه سابقًا، على أن لعمله مزايا أخرى، من بينها أن سدّه لم يكن يكلف في الثلاثينات من ذلك القرن، إلا ما يقرب من ٢١ مليون فرنك، على حين أن مشروع موجيل الذي لم ينجز تمامًا، كلّف ٤٧ مليونًا. والواقع أن الأعمال، المتقطعة عدة مرات، لنقص الاعتمادات، لم تزل متأخرة حتى نهاية عهد محمد علي، وكما يقول Scipion Marin: «يجب أن نعزو ذلك إلى التراخي المشهود في الإدارة، وهو تراخ لا شفاء منه، وهو الذي يعوق في الشرق إنجاز الكثير من المشاريع ذات الغايات الطيبة».

وعندما مات محمد علي، عام ١٨٤٩، خلفه حفيده عباس. فاستبعد موجيل، بسبب عدم كفاءته - كما زعم هو - وسلّم إنجاز المشروع إلى مظهر أفندي، وهو أحد أفراد البعثة القدماء التي أوفدت إلى باريس. أما التقرير الذي قدّمه الرجل لهذه المناسبة، فإنه يدعنا نفكر مرة أخرى، أن تحفظات لينان لم تكن ضعيفة المستندات ويلاحظ بين عيوب أخرى، أن التوسع الأكبر في جزء من السدّ، يُبرز بعض التشققات. ثم إن الدعامة[١٥] التي يفترض أنها مبنية بحيث تحول دون أيّ تسرب مياه كانت غير صالحة. ومع ذلك فإن لينان يعزو - بموضوعية مؤكدة - هذه العيوب لا إلى موجيل نفسه، ولكن إلى نقص الكفاءة لدى العمال، وضيق صدر محمد علي نفسه[١٦].

ولما كان محمد علي مشغول البال بهموم ضخمة، فإنه لا يملك التفرغ للأعمال المدنية. ومع ذلك، وبفضل دخول الأجانب إلى البلد (الإسكندرية) وما تبع ذلك من بناء أحياء جديدة، فإن هذه الإسكندرية أصبحت مدينة نصف أوروبية، لا كتلك الضاحية البائسة، التي كانت قائمة وسط خرائب مقبرةٍ كبيرة، كانت قد عرفتها كتائب نابليون.

«لقد فتح الباشا طرقًا سالكة وواسعة. وكان الحي الفرنجي هو الأجمل في المدينة. والمخازن الأوروبية كثيرة، والمسيحي يحاذي المسلم. وفي وسع الأجنبي أن يتدبر أمره، من دون أن يعرف مئة كلمة عربية. ويجد أنه يُحادث بالفرنسية أو بالإنجليزية في فنادق أنيقة: وتدين الإسكندرية لمحمد علي بأنها أصبحت أو عرفت حياة جميلة، وتضاعفت مساحتها المسكونة ثلاث مرات عما كانت عليه عام ١٧٩٨. أما ضواحيها شبه الخالية من الناس، التي لم يكن لأحد أن يبحث فيها عن قطع أثرية، إلا بالمغامرة بأن يلقى الضبع أو ابن آوى، فقد غطيت ببساتين كثيرة الظلال، وبمساكن فردية حلوة، وحتى بأحياء جميلة[١٧]».

وأما القاهرة، فقد كان عليها، بحكم اتساع المدينة وكثافة سكانها، أن تنتظر نهاية القرن التاسع عشر، لكي تعرف نفس التجديد. وفي عام ١٨٤٧، كانت العاصمة على الحال التي وجدها فيها محمد علي، قبل نصف قرن تقريباً. وكان القليل من أزقتها على درجة كافية من الاتساع لمرور عربة؛ أما القسم الأكبر منها فقد كانت ضيقة بشدة، بحيث كان من الأسهل على الفرنسيين أن يقذفوا المدينة بالقنابل، عند الانتفاضة، بدلاً من التقدم عبرها سيراً على الأقدام كما حدث في ساراغوسة. أما سكانها فكانوا كثراً في كثير من الأحياء. ولذلك كان من الصعب أن يمرّ الإنسان في أسواقها، بسبب الزحام من جهة وضيق الأزقة من جهة أخرى[١٨]».

ومع ذلك فقد أصابها بعض التحوّل فيما يتعلق بغدير الأزبكية[١٩] (أو مستنقعها). وعندما وصلت الحملة الفرنسية إليها، كانت مساحة الأرض توازي أربعين فدانًا أي ما يعادل (١٧) هكتاراً، وكانت تسقى بماء الفيضان، وتبذر فيها البذور كسائر حقول مصر. وعندما يأتي الفيضان، وخاصة عندما يحل الظلام، نجد المكان يرتدي كل ما له من سحر. وكان يمكن أن نجد فيه مراكب تضيئها أنوار الشاطئ. وكثيراً ما تلاحظ مقاهٍ تُغرّد فرحًا، وتظهر فيها مغنيات راقصات،

على أكبر سعادة من جنود جيش الشرق. ولكن بدءاً من عام ١٨٠٧ بدا وكأن هذه المتع قد اختفت؛ ولم تعد أفراح الأزبكية كماكانت عليه من قبل. فالمراكب الصغيرة لم تعد تذرع البحيرة ذهاباً وإياباً حتى ليصف سائح اسمه Valentia، مكانها، و«كأنه أرض واسعة مغطاة بالبذور، غاب عنها أكثر الأشجار التي زرعها جنودُ الحملة الفرنسية(٢٠)».

وفي العام ١٨٣٧ قرّر الباشا أن يُحوّل المكان إلى حديقة واسعة، ويأمر وزير الأشغال العامة مورثان بك - وهو تلميذ من البعثة المصرية إلى فرنسا - بدراسة مشروع بهذا الاتجاه. وقد قدّم المخطط إلى نائب الملك، الذي صادق عليه. وعندئذ ترسم ثلاثة شرايين تدور في المدينة. أما على المحيط فتحفر قناة عرضها عشرة أمتار تقريباً، تملأ جوانبها بأشجار، وتحلّى بأزهار.

ومن سوء الحظ أن الأشياء تتخرب بسرعة. ذلك أن القناة تجف، عند انتهاء الفيضان. أما سكان الساحة ولا سيما الثلاثة أو الأربعة قناصل، فإنهم يقرروّن استخدامها لإقامة اسطبلات لخيولهم فيها. ولكن متى عاد الفيضان، اضطر أصحاب العلاقة إلى الانسحاب. وعندئذ يدّعون، أو يدَّعي من يشاء، أن القناة تسبب كل صور الحمّى، ويطالبون بتغطية القناة. وأمض إذا شئت، وأسأل لِمَ غطيت القناة؟. لكن الحكومة تنحني لرغباتهم، وتفقد الأزبكية واحدة من أجمل زينتها.

ولكن ها إن القناة تردم. ويتضاءل الماء. لكن الحاجة إليه تبقى عظيمة، وعلى الأقل لسقي الملكيات المجاورة التي عدمت الماء، والتي وجدت نفسها بين صبح ومساء محرومة من السقاية. وكان للقنصل العام الإنجليزي، السيد موري Murray بيت يطل على الساحة، وهو أول من رفع صوته احتجاجاً. وفجأة يبني على محور القناة (المرحومة) مجرى مكشوف من نوع ما بالحجر والطين، وبعرض

قريب من المتر . وعندما يعلو سطح الماء يمتلئ المجرى به ، فإذا «نقص الطوفان تحوّل إلى ما يشبه المجاري الصحية ، فتكتفي السلطة عندئذ بتغطيته بقبة أو سقف . وظلّت الساحة مهملة لتصبح بعد ذلك مكانًا لائقًا للشطار والغشاشين والنشّالين في العاصمة . وكان عليها أن تستمر في الانحطاط ، حتى مجيء إسماعيل (الحفيد الآخر لمحمد علي من ابنه إبراهيم) . وعندما قام هذا بزيارة باريس بمناسبة معرض عام ١٨٦٧ ، رأى في باريس ما يشد أكبر الإعجاب . فأقبل على تجميل عاصمته تجميلاً يشبه ما رآه في باريس . وفي عام ١٧٦٨ جاء مهندس فرنسي اسمه Grand ، وسلّمت إليه إدارة الطرق وخدمة العاصمة . وكان عليه أن يُوجه أقصى الاهتمام ، لحديقة الأزبكية . فوضع مكانها حديقة أخرى بمساحة تقرب من عشرين فدانًا ، بشكل مُثمَّن الأضلاع ، لتحل محلها . أما الأطراف المجاورة مباشرة فقد حُولت إلى أحياء جديدة مع طرقات جديدة ، ذات أروقة مقنطرة على صورة طريق الريفولي R..Rivoli في باريس . وتم تدشين ذلك عام ١٨٧٢ ، بعيد شعبي ، حضره اسماعيل ووزراؤه . أما الآن فمن المؤسف أنه لم يبق شيء مما كان في الماضي كأماكن نزهة جميلة في مصر .

ولقد رأينا مثل هذا في عام ١٨٢٠ ، أيام محمد علي ، الذي أراد أن يبني مسجداً في القاهرة ، وكلّف كوست بهذا المشروع . وكان على المسجد أن يكون قبره الذي يستريح فيه . ويتحدث كادالفين وبروفيري ، بالقول : «إن مسجداً مزيّنًا بأعمدة رائعة من الغرانيت الوردي الذي كان يُزيّن ديوان صلاح الدين ، سيقام فوق بقايا تلك الصالة المشهورة التي كان السلاطين فيها قضاة يحكمون بالعدل بين الناس» . لكن ديوان صلاح الدين ، على ما يقول Curvzon [٢١] ، عام ١٨٣٣ ، كان قاعة جميلة حقًا مقسّمة إلى أجنحة بأعمدة رائعة تاريخية ، من الغرانيت الوردي اللون ، فهدمت مع الأسف بأمر من محمد علي . ولكنه اضطر إلى ذلك لإدخالها في المسجد الذي بناه بمرمر أبيض بني وهو مادة ممتازة . ولكن مهندسه

الأرمني العامي يُقدّم لنا مع البناء الجديد، تضاداً مزعجاً مع البناء الذي هُدّم بلا رحمة. *». وليس المهندس بأرمني، بل هو يوناني، اسمه يوسف بوشنه(٢٢)، ولكن هذا الرجل لا يتخذ كنموذج له جامع القديسة - صوفي، على نحو ما ظنه بعض الناس، بل إنه يتخذه من جامع السلطان أحمد في استانبول(٢٣).

أما فيما يتصل باختيار الرخام، كمادة بناء، فإن Linant de Belbfonds، هو المسؤول عنه، ولكن على مضض. ونراه يوضح أمره هنا في مذكراته. إذ يقول: «عندما خطرت لمحمد علي، فكرة البدء ببناء مسجد في القلعة، لكي يكون قبره فيه، بُحث عن رخام مناسب. وكان يرى مختلف أنواعه في مساجد القاهرة وبكل الألوان، وفيها ما هو جميل بالقدر الكافي. وسألني عما إذا كنت قد رأيت في رحلاتي إلى الصحراء، مناجم رخام جميل. وأجبته: فعلاً، رأيت ذلك في سلسلة الجبال التي تُحدُّ وادي عربة، حيث يوجد دير سانت انطوان، من جهة الشرق. هناك نجد رخاماً من أنواع مختلفة، وهي نفسها التي كانت تشكل موزاييك المساجد، والبيوت القديمة. وقرّر نائب الملك أن يرسل أحدهم لكي يأتيه بنماذج، من المكان الذي كنت أشرت إليه. ولكن الشخص المختار لم يكن إلا قواصاً (جندي، شرطي) ولم يكن يعرف لا إلى أين يذهب، ولا ما إذا كان الرخام رخاماً أو لا. ووجد أثناء الرحلة، في وادي سنوّر، قطعة من المرمر وعلى الرغم من أني ألححت عليه لكي يتابع طريقه حتى يصل إلى المكان الذي عيّنته له، فإنه عارض ذلك، قائلاً، إن هذا الذي وجده، رخام ممتاز. وعاد يحمله إلى محمد علي. وقد حذر كل الناس من قول الحقيقة، إلا أنا نفسي. وشرحت لنائب الملك أنه على الرغم من أن هذا الحجر جميل، ويمكن استخدامه لبعض الحاجات، إلا أنه لا يمكن استعماله في الأبنية. وخاصة إذا كانت معرّضة للهواء. وعلى الرغم من ذلك، فإن

* - لنلاحظ أن هذه الظاهرة تتكرر كثيراً في التاريخ الإسلامي حيث الحاضر يُجبُّ الماضي جبّاً عنيفاً.

استخدامه ظل قائمًا تبعًا للأوامر. وهكذا فقد بني جناح من المسجد بالمرمر، على نحو ما كان مقررًا من قبل. ويُعلق لينان على ذلك بقوله: «إن قطعًا كثيرة منه كانت جميلة جدًا. ولكن بدلاً من حفر متر مكعب، لرخام جيد النوع، كان يجب أن نحفر خمس مئة متر».

وربما كان هذا الجانب التفصيلي، يُعلل بطء الأعمال. وعندما نعلم أن الصبر ليس بالفضيلة الأولى للباشا، فإن هذا الواقع لا بد أن يحيّر الإنسان: «إذ لقد استخدم، خلال الاثنتي عشرة سنة، عددًا ضئيلاً من العمال في بناء المسجد. حتى إنه لا يكاد ارتفاع البناء يعادل النصف المقرّر، فإذا هو انتهى بعد خمسين سنة، فإنه سيكون الشهادة الوحيدة على أن مدينة القاهرة ستتمتع طويلاً بتقوى الباشا» على نحو ما يسخر به غليدون[٢٤]. ويعلق كولي Cooly على ذلك قائلاً: إن المسجد كان يبنى، منذ بضع سنوات، عندما كنا في القاهرة. ولكن عندما نلاحظ إهمال العمال وبطأهم، فإنه لا بد من انتظار عدة سنين قبل أن نرى اكتماله. ولنقل مع ذلك إن المواد كانت في أكمل جمالها: إنها مرمر قاتم يعمل فيه العمال، بيد ماهرة، وسيكون على جانب من الغنى والجمال، لا يقارن به أي بناء آخر[٢٥]. أما Hahn Hahn فيقول، «إذا نظرت إلى داخل القلعة وجدت المسجد الجديد الذي يبنيه محمد علي. إنه حقًا واسع وهو ذو هيبة خاصة، لا بحكم موقعه فقط ولكن بأسلوب بنائه، أو قل بالاثنين معًا. أما المجموع فإنه يبهج النظر. لكن المسجد لم ينته إلا جزئيًا، ولا بدّ من عدد مناسب من السنين حتى يكتمل. وتبعًا لفكاهة غريبة بعض الشيء، يحكيها الناس بعضهم لبعض، في القاهرة، والضواحي، فإن الباشا الذي يمكن أن يموت بين لحظة وأخرى، سيظل على قيد الحياة، ريثما يكتمل بناء المسجد. ومن الممكن جدًا أن تكون هذه الفكرة الوهمية قد ساورت عقل الباشا، وأن يكون مستعدًا للتمتع بعدة سنين، قبل أن يصل إلى يومه الأخير[٢٦].

ترى بمَ كان محمد علي يخدع نفسه. إنه عندما مات، لم يكن المسجد قد تمّ، ولن يتمّ إلا في عام ١٨٦٠ وفي يمين المدخل إلى المسجد، نجد حاجزاً مفرغًا مذهبًا، يحتوي قبر الفرعون الأخير. والأرض مفروشة بسجاد مزيّن بالذهب. وعلى كل جانب تجد العين شمعدانات كبيرة من الفضة الخالصة.

أمّا الساحة، فإنها محاطة بمجموعة أعمدة من المرمر الجميل الشرقي. وفي الوسط نجد مجرى مائيًا لغاية الوضوء، له شكل ثماني الأضلاع، مزخرف زخرفة ثقيلة. أما الرواق الممتد من الشمال إلى الغرب فإنه يُعلى ببرج مربّع، بلون أسود وذهبي، وبنوع من الجناح الصيني. أما الساعة التي تُلقي ظلها على الوجه الغربي من ساحة المسجد(٢٧)، فإنها هدية من لويس فيليب إلى محمد علي، يشكره فيها على الهبة التي منحها لفرنسا، وهي مسلّة الأقصر.

وظل محمد علي يتابع بجهد مسعور، تنمية البنى التحتية للبلد، ولهذا فكر بمشروع تطهير الماء القابل للشرب، بالشب، تبعًا لطريقة اكتشفها الكيماوي الفرنسي فيليكس دارسيه Felix d'Arcet ولكن يجب أن ننتظر عهد سعيد باشا، حتى تُحل مشكلة مصلحة المياه في الأحياء الأوروبية، سواء أكان ذلك في القاهرة، أم في الإسكندرية، عملاً بمبادرة من المستشرق Koenig الذي أصبح في ذلك العهد أمين سر لأوامر (أو قيادات) نائب الملك. وبالعكس، فإن الباشا لم يعمل إلا القليل لتحسين المواصلات، التي ظلت، لعدم وجود طرق سليمة تسلك طريق النيل، بالدرجة الأولى، كما تسلك طريق المحمودية. غير أن الحاجة لتيسير العلاقات التجارية بين الهند وأوروبا، عن طريق البحر الأحمر، حملت شركة إنجليزية، كان محمد علي صاحب أكثر الأسهم فيها، على تنظيم حركة سيارات (عربات) ما بين السويس والعاصمة. ولما كانت التجارة المصرية تتخذ مدى أكبر فأكبر، فقد أصبح ضروريًا أيضًا أن تُنظم حركة بريدية منتظمة. وهنا أيضًا نجد استعادة لمشروع بونابرتي أهمل بعد رحيل جيش الشرق. وكانت هذه المصلحة، في الأصل،

مخصوصة بالمراسلات الرسمية. ومضمونة بنوع من نقابة بريدية، يشرف عليها رجل اسمه حامد عمر. ولم يستفد منها الناس العاديون إلا فيما بعد.

وأقيمت منارة جديدة في مدخل مرفأ الاسكندرية، في نقطة رأس التين. وكانت أول محاولة لمدّ السكة الحديدية، تتم بين طريقين قصيرين، أحدهما يمضي من محاجر الطورة Tourah إلى النيل؛ والثاني يمضي من قناة المحمودية إلى مكان ركوب السفن في البحر. وأخيراً فإن البرقيات الهوائية (وهي من أعمال كوست - ويجب أن نذكِّر بذلك) كانت تصل الاسكندرية بالقاهرة.

وها نحن الآن أمام أوّل طريق مكدَّم (مرصوف بالحصى). وهو يمضي من باب الرشيد إلى رأس التين. ففي أول مرحلة، استخدم الصلصال الأحمر الآتي من المقطم. ثم لوحظت هشاشته، فعُوِّض عنه ببلاط من الكلس والبوزولان الصناعي(٢٨). أما الطرق الأخرى فإنها مفروشة بالحجارة.

وكانت طرق مدينة الاسكندرية مبلّطة، كلُّها تقريباً. على مثال بعض المدن الإيطالية. ويرى لينان، أن هذا التبليط كان ممتازاً، وكانت السيارات تسير فيه بسهولة.

وتمت أول تجربة للإضاءة بغاز Lebon ، في القاهرة(٢٩).

وأنشئت لجنة لتنظيف المدينة أو تخليصها من الفضلات أو الأوساخ، في الإسكندرية، للسهر على النظافة، والوضع الصحي، وتجميل المدينة.

وكذلك بنيت تحصينات قوية، من عمل عقيد فرنسي اسمه غاليس Galice تحيط بالمرفأ وتلتف حوله.

وإلى هذا العهد يعود تجديد الموسكي أي سوق الفرنجة، وغطاء الخليج، أي القناة المكشوفة، التي تجتاز المدينة من أولها إلى آخرها.

وقد جُربت المراكب البخارية، ثم وضعت قيد الاستعمال، في المتوسط وفوق ماء النيل.

وكما نرى: فإن هذا عالمٌ يتبع عالمًا آخر. ويجري كل شيء كما لو أن دوّامة (دردوراً) تنطلق دفعة واحدة. وفجأة تهبط أو تدور حول مصر، لتخليصها من سماتها المغرقة في القدم. فما الذي ينقصها الآن لكي تكتمل سعادة الفرعون الجديد؟ إن مدنها تكبر وتنمو، وصناعاتها تزدهر، وزراعتها تتفتح، وعرباتها وجنودها مستعدون للإنطلاق إلى حدود البلد في أي مكان. غير أننا بعد النيل، نجد البحر. لا بُدّ له إذن من قوة بحرية. وتلبية لهذه الرغبة، سيوقف الباشا طاقته التي لا تنفد، على هذه الناحية.

-١٦-

مراكب فرعون

(١٨١٢ - ١٨٣٩)

كان محمد علي ينشئ جيشه من شيء ما، كان موجوداً قبله. أما قواته البحرية، فإنه سينشئها من لا شيء. وبسرعة ما فهم أن الأسطول العثماني، على الرغم من تفاهته، يظل العقبة الكبرى أمام أحلامه في الاستقلال. وما دام بدون مراكب، فإن الباب العالي سيكون له عليه سلطان، ذلك أن أضعف قوة عسكرية، تظهر أمام الإسكندرية، ستجعله صفراً، كقوة. ذلك أن جبهة البحر المصري، الشديد الاتساع والصحراوي، تجعله فريسةً سهلة لأي نزول على الشاطئ، قد لا يكون متوقعاً أبداً. وأكثر من ذلك، أن الأسطول الذي يملكه هو، يمكنه أن يؤمن وسائل الاتصال مع الأجزاء الأخرى من إمبراطوريته. وأخيراً فإنه إذا أراد أن يقوم بدور يُطمع به في الأبيض المتوسط الشرقي، فسيكون الأسطول ضرورياً جداً له.

إلا أن كل شيء ما عدا البحر يقف حائلاً بينه وبين أي طموح يريد تحقيقه: كالتقاليد البحرية، وصناَّع المراكب، والأحراج، والورشات والملاحين. ولكن ما هي هذه العقبات في عيني محمد علي؟ إنها قطعة من القش نرميها بلا مبالاة، بقلب اليد.

وأول إشارة إلى منشأة حربية مصرية في البحر الأبيض المتوسط، تُقدِّمُ لنا من الوثائق الصقلية التي تشير أو تكشف منذ عام ١٨١٢ عن وجود حراقة ومركب شراعي مسلَّح[1].

وفي عام ١٨٢١، كان الأسطول المصري يتألف من قوة بحرية تجارية، فيها ثلاث وحدات يمكنها عند الخطر، أن تنقلب إلى قطع مقاتلة. وهي لا تعتمد على أي ترسانة خاصة. أما الأسيطيل الموجود في البحر الأحمر، فليس فيه إلا بعض المراكب المصنوعة في بولاق، والتي حُملت على ظهور الجمال، كقطع مستقلة، من خلال الصحراء.

ومنذ شهر شباط (فبراير) ١٨٢٢، لوحظ شيء من التقدم: إذ أن هنالك ثلاث فرقاطات من ٦٤، وتسع حراقات بحرية، أربع سفن شراعية، ثلاث صيادات، وست سفن (حراقات لاحراق سفن العدو) والمجموع: خمس وعشرون قطعة بحرية. ولكن منذ عام ١٨٢٤، حمل محمد علي مشروعه محمل الجدّ. وكان أول ما بدأ به هو طلب قطع بحرية عسكرية، من ورشات بحرية أوروبية. وكانت فرنسا، بطبيعة الحال جزءاً من أوائل من طلُب منها مثل هذا. وهكذا فقد طلب فرقاطات، وحراقات، وسفن شراعية، من مرسيليا، وبوردو، وليفورن، وجينوا وتريستا. ولكن هذه القطع ظلّت، مع ذلك، تافهة. وعلى الأرجح فإنه ما من واحدة من هذه الورشات كان يَسعها أن تقدّم مثل هذه الطلبات، بأحسن صورها، مع ملكٍ ما، ما دام ممكنًا دومًا أن نتحارب معه، في يوم من الأيام.

وفي كانون الأول من عام ١٨٢٤، تلقى اللواء ليفرون - أثناء مروره بمصر، كعضو في بعثة الجنرال Boyer، على كونه يقوم بدور الوسيط العامل لحساب نائب الملك، في فرنسا - تلقى الرسالة التي نضع نصّها هنا:

إن سموَّ محمد علي، نائب الملك في مصر، ثقة منه بحماسة اللواء دوليفرون ومواهبه، كلفني بأن أعطيه هذه التعليمات المتصلة بمختلف المهمات التي يرغبُ بتنفيذها في فرنسا. كما يطلبُ من الجنرال دوليفرون أن يسافر مباشرة إلي فرنسا، وتكون مهمته الأولى أن يحصل من حكومة جلالته شارل العاشر على الإذن ببناء فرقاطتين Fregates على مثال جان دارك، وسفينة حربية على مثال الـ Cuirassier مع التعديلات التي تكون قد بَدَت أقرب إلى الكمال من سابقاتها.

ويجب أن تكون هذه المنشآت الثلاث مجهّزة ومبطّنة بالنحاس ومسلّحة بفوهات نارية، وبنادق وسيوف. ومطابقة جملة في كل شيء لأفضل الأسلحة في البحرية الفرنسية. وقد رُخص للجنرال دوليفورن، بأن يطلب من سعادة وزير البحرية، ، اختيار أو تسمية ضابطين أو واحد، من البحرية الملكية، على أن يكونوا أذكياء ومجرّبين في الإنشاءات البحرية، لمراقبة العمل في هذه المنشآت الثلاث. وسيكون لهم من التعويضات تلك التي يريدها سعادته. . أما إرسال هذه المنشآت إلى الإسكندرية، فإن الجنرال دوليفرون سيتخذ كل التدابير الأمنية والأناة المناسبة. وسيطلب الجنرال نفسه قبل بناء هذه المنشآت، من حكومة شارل العاشر الترخيص بهاتين الحراقتين والسفينة الشراعية الحربية المستعدة كلها للإبحار. ثم إن الجنرال ليفرون مأذون بحكم هذه الرسالة بالتفاوض مع الحكومة الفرنسية باسم سموّه، نائب الملك، وسيدفع الثمن المتفق عليه بالوسائل التي ستقدّمها إليه خزينة سموه. وعندما يحصل الجنرال ليفرون على الترخيص لهذه المنشآت بعبور البحر إلى مصر، فإن عليه أن يستأذن باصطحاب بعض ضباط البحرية الملكية، من بين أولئك الذين يملكون المعارف الضرورية لإنشاء مدرسة نظرية وعملية في مصر؛ وسيعامل هؤلاء الضباط معاملة مشرّفة من قبل سموّه، على أن يُسمح لهم بالبقاء عدة سنوات في خدمته(٢).

وتعتبر هذه الوثيقة نقطة البداية، للسلاح البحري لمحمد علي.

وفي شهر نيسان (أبريل) ١٨٢٥. لم يفت الكونت دوشابرول Chabrol، الذي كان وزيراً للبحرية آنذاك، أن يلاحظ خطورة القضية التي تُعرض عليه: «وكتب يقول: إن تسليح مثل هذه المنشآت في الشرق، في الأوضاع الحالية، سينظر إليه كنوع من التحيّز لمصلحة الأتراك ضدّ الأغارقة [وكان الطلب المصري قد تمّ في الوقت الذي كانت فيه مصر تتدخل في حرب الموريه Moree] حتى ولو نظر إليه كمجرّد عمل تجاري(٣)».

وأخيراً، فقد نوقشت هذه المشكلة في مجلس الملك شارل العاشر في ٢٧ نيسان ١٨٢٥، ونشأ عن ذلك أن الوزير حرّر هذا التعليق: «بشرط أن تبنى هذه القطع في مرسيليا، عن طريق شركة تجارية فقط. ولا يمكن في أية حال أن تبنى في طولون.» ولم تخل هذه القضية من أصداء ودويّ في الصحافة الفرنسية، بل إن بعض الصحف أبرزت استياءها بوضوح، إذ تقول: «إن مرافئ فرنسا المطلّة على البحر الأبيض المتوسط، أصبحت ترسانات، يهيئ فيها محمد علي وسائله لمهاجمة الأغاريق». ويا لها من كارثة!.

وفي ٢٤ اكتوبر (تشرين الأول) التالي، يقدم دروفيتي عن الأسطول المصري، للوزير الفرنسي ما يعرفه من معلومات، فإذا هو: فرقيطتان، وحراقة و١٥ سفينة شراعية وصيّادة واحدة، وسفينتان بخاريتان. ويشير الرجل إلى دزينة من الكورسيرات (مراكب قرصان)، وما يوازيها من سفن النقل.

وفي نهاية العام ١٨٢٦، أصبح الباشا يملك ٣٨ سفينة وكلها من ذات الحمولة الخفيفة إن استثنينا الفرقيطتين اللتين سبق ذكرهما، وخمس حراقات بحرية. وبطبيعة الحال فإن هذه المنشآت تؤلف ما اعتيد على تسميته «بأول سلاح بحري لدى محمد علي». أما الثاني فسيرى النور بعد معركة نافارين (وكان السلاح المصري البحري قد أغرق بكامله تقريباً عندئذ).

أما العاملون في هذه المجموعة، فينطبق عليهم نفس المبدأ المعمول به في الجيش الأرضي، وهم البحارة العرب والأطر الأجنبية، وهكذا فنحن نجد، آخر العام ١٨٢٧، مجموعة فيها عشرة ضباط من البحرية الفرنسية هم بومبار Bompar ورينييه Reynier و Le Dentuو 'Isnard و Matraire و Briandو Maffre و Lucianiوأخيراً قبطان السفينة Letellier (٤)، وهو ضابط قديم مجرّب، وأحد الذين نجوا من معركة الأغرّ، الذي سنراه يقوم بدور أساسي. وبعد مدة سيأتي جان فيكتور بريسون Jean Victor Bresson الذي سيُرَقَّع إلى رتبة نائب أميرال الأسطول(٥)، وتوزي هوسّار Touz Houssard، الملازم في المراكب الفرنسية الذي سيقود إحدى وحدات «الأسطول المصري الثاني، في الحرب الأولى لسورية. وهذا الضابط الذي يعود فيظهر في الإسكندرية نحو عام ١٨٣٠ سيكون أيضاً أستاذ الرياضيات لمحمد سعيد، الأمير الشاب الذي أراد أبوه أن يهبه للسلاح البحري.

ولما كان طبع محمد علي يطلب العجلة في كل شيء، فقد استعجل بناء الوحدات الكبرى الموجودة في الورشة، في جملة مرافئ تطل على المتوسط. فيفتح في الإسكندرية، على مقربة من رأس التين، مدرسة للعلوم البحرية، سيتخرّج منها ٤٠٠ طالب، ثم يتخرج ١٦٠٠، وكانوا مُدربيّن، لا على المناورات في الأشرعة فقط، بل كذلك على خدمة المدافع، وكذلك على تحركات الجيوش الأرضية، بانتظار نزلات ممكنة على الأرض.

لكن هؤلاء البحريين الجدُد، وكلهم فلاحون، سرعان ما بدوا أرقى من البحريين الأتراك، وخاصة في أعمال الضاربين بالمدفع. وإذا نحن صدَّقنا شهادة Marmont فإن السرعة التي يتعلم ويتُمثل فيها هؤلاء المتخرجون كل ما هو تقنيات جديدة يبدو كأنه معجزة(٦). غير أن الشهود، الإنجليز أقل مديحاً لهم. ويعترف النقيب Mackensie في تقريره للـ Royal Asiatic Society (الشركة الأسيوية

الملكية) بأن الأسطول يُرعى رعاية جيدة. ولكن البحارة قليلو الخبرة. والأركان تافهة جداً. ويقدِّر أن هذه القوة البحرية يمكن أن تكون سريعة، أمام القوات التركية، ولكنها لن تكون ذات شأن تجاه قوة أوروبية مهما تكن قليلة الأهمية. وشاء الله أن يجعله على حق فيما بعد. وسيعي محمد علي هذا الضعف. وتأتي الوقائع فتؤكد له مشاعره. وهذا مثال على ذلك:

ففي ذات يوم أمر أن تدار حراقة (مصيرية كان موجوداً فيها) ورجا نقيب فرقاطة بريطانية هي الـ Glasgow أن يفعل مثل ذلك. فلاحظ - والساعة في يده - أنه يكفي دقيقتان للحراقة الإنجليزية لإنجاز المناورة، على حين أن حراقته هو تحتاج إلى ست دقائق[٧]. وهذا ما جعله يعلن مباشرة لضباطه «إننا ما نزال أطفالاً: أولا ترون أن هؤلاء الآخرين، إذا قامت المعركة، سيرشقوننا ثلاث رشقات، مقابل كل رشقة منا؟» ولكي يعالج هذه المشكلة، نراه يكلف Letellier بتهيئة حراقة يتعلم فيها بحارته صورة الحركة.

ومنذ ذلك الحين فرض نظام قاس جداً على كل أصحاب المراتب. وحدث أن نقيباً بحرياً فقد مركبه لأنه أراد أن يدخله إلى المرفأ بدون دليل. ، على الرغم من التعليمات المضادة، فقدّم إلى المجلس الحربي، وحُكم عليه بالموت، رمياً بالرصاص. وكان الضرب (أو الجلد) يترقب كل إنسان يخالف التعليمات، أدنى المخالفة.

وفي نيسان من عام ١٨٢٩، بعد معركة نافارين، حدث أن رجلاً نزل على الأرض في طولون، ليرأس أو ليراقب ترميم البحرية المصريةوكا ن اسمه Lefebure de Cerizi وكان وُظّف على يد Livron، كمهندس بحري، رئيساً، براتب قدره ٣٦٠٠ تالاري Talaris[٨].

وما أن وصل إلى الإسكندرية، حتى هيأ، خلال شهرين، مخططات لترسانة حديثة، يوافق عليها الباشا مباشرة. ولنقل: إن إنشاءها يشبه الأعجوبة. وعندما

بدأت الأعمال الأولى، لم يكن رأس التين إلا شاطئًا جرُزًا، خاليًا من كل شيء. ويغطيه مستنقع مجزأ إلى بحيرات صغيرة يستخرجون منها الملح. وعند بدء العمل في الترسانة، أخلي المكان (وهو حيٌّ يسكنه الفقراء من أهل المدينة)» ثم حفر الشاطئ بغية الوصول إلى أساس صلب، لاستقبال أو وضع المنشآت التي يراد إما إصلاحها وإما إنشاؤها من أولها إلى آخرها. (وقد تسمّى أحواضًا أو أرصفة إنشاء) وكان أربعة من هذه الأحواض، مع ما يسمونه مقدمة الأحواض، قد هيّئ، للمراكب الهامة. وسرعان ما أقيم مصهر، وأحواض، ومصانع أقمشة، وأخرى للمسامير وثالثة للحبال، وعنابر لحفظ الأخشاب، وزوارق تجسير للترميم. ثم أتي بنجارين وثقابين وخراطين، ورصاصيَن وجلافط[9] أي (اختصاصيين بسدّ حزوز السفن بالزفت)، وكل هؤلاء استجلبوا بأجر عالٍ من مرافئ أجنبية، لتعلّيم هذه المهن إلى المحليين. وظهر في الوقت نفسه (معمل) لنسيج الأشرعة في الرشيد. وهكذا اجتمع خمسة آلاف عامل مصري يُنشؤّون على أساس خدمة الترسانة التي انتهى بناؤها في مدة لم يسبق أحد إلى مثلها: أي خلال سنتين. وكانت العقبة الكبرى التي صعب التغلب عليها هي فقدان الخشب، وهكذا فإن محمد علي عام ١٨٣٣ طلب أن تضم إليه منطقة أضنة Adanaرغبه منه في استغلال أشجارها الضخمة. وبانتظار ذلك، كان خشب البناء يشتري إما في أوروبا وإما من آسيا الصغرى.

وقام سيريزي Cerisy بتسريح المستخدمين الأتراك غير الأكفاء وشكر المورّدين الغشاشين. وفي ٣/ ١/ ١٨٣١، أخرجت الترسانة أول بارجة فيها ١٠٠ مدفع، وسمّيت باسم محمد علي، وأنزلت في البحر. وفي ١/ ٨ يكتب ميمو إلى سيباستياني، يقول: إنه لشيء عجيب، ذلك النشاط الذي أنهى وسلّح هذا المركب، الذي خرج من الترسانة في ٣ كانون الثاني الأخير؛ ويقال إن السيد

سيريزي حقق أعجوبة في عمله هذا. وصحيح أن نائب الملك منذ رجوعه إلى هنا، لم ينس قط أن يلاحظ سير الأعمال والأنشطة والعمال، وشرّف المنشأة بحضوره[10]».

ولكن هذا لا يكفي الباشا دومًا، ذلك أنه ما لبث أن سأل عما إذا كان يوجد أو لا يوجد في أوروبا بواخر أعظم قوة؟ ويجيبه سيريزي أنه يرى بينها ما له ثلاثة جسور بقياس ١٢٠. ولكن ميناء الإسكندرية ليس من العمق بحيث يستقبل مثل هذه الغوائص Carene. وفوراً يأمر الباشا بحفر البحر، وتعميق مدى غائصه لكي ينشئ له، منذ الغد، بوارج في قوة ما ذُكر. ويبذل سيريزي جهداً عملاقًا، وفي عام ١٨٣١ شهد انطلاق مركب ضخم، فيه ١٣٦ مدفعاً، اسمه مصر. وفيه من البحارة ألف شخص.

ومنذ ذلك الحين صار للسفن مدافع ومدافع بحرية Caronades [11]، من نفس العيار ٣٠. ثم إن القطعتين لا تختلفان إلا في الوزن. ورققت هياكلها في الجزء الأعلى حتى تجعل الاقتحام أكثر صعوبة.

وأخيراً نجح سيريزي، أول من نجح في اجتياز الممرات الخطرة الموجودة في المرفأ القديم للإسكندرية بالنسبة إلى مركب من نموذج الـ ٧٤. ومن المعروف أن الأميرال Brueys كان يظنُ عام ١٧٩٨ أن هذا مستحيل على الرغم من التقرير المعاكس لواحدٍ من ضباطه المكلفين بالسبر، وأن كارثة «أبو قير» نشأت، جزئيًا، عن هذا الرأي الخاطئ. ومع ذلك فإن الوحدات، الأولية من نوع أو قياس ١٠٠ ينبغي أن تخفّف من جزء من المدافع، لكي تخرج من المرفأ.

لا ريب إن كل هذه الأعمال باهظة التكاليف، فإذا نظرنا إلى موازنة عام ١٨٣٥، وحدها وجدنا أنها تصل إلى ٧٣ مليون ونصف المليون من القروش، وكل مركب يكلّف دخل محافظة كاملة.

وإن أجمل مديح لمواهب سيريزي، ونشاطه، وروح النظام وبعد الرؤية، لدى هذا المهندس الكبير، قدَّمه Marmont في حديثه عن رحلته إلى الشرق. غير أن انتقادات ملأى بسوء النية، وأعمالاً تتجاوز الإمكانات الإنسانية، وصعوبات وعوائق لا نهاية لها، مع الإدارة المحلية، وكذلك مع بيسون، تنتهي بتجاوز حد الصبر لدى هذا المهندس الذي يصرّح لديستورميل d. Estourmel بأسف شديد كبير، قائلاً: «إنني لواء بلا ضباط. فالمهندسون العرب الموضوعون تحت تصرُّفي، قادرون على متابعة نموذج معطى، ولكنهم عاجزون عجزاً مطلقًا عن أي شيء آخر. ولقد اكتسبوا معارف مادية؛ أما التفكير، ومقارنة الأمور بعضها ببعض، فإنها بعيدة عن طاقتهم، وليست في متناول أيديهم. حتى إنها لتبلغ حد فقدان الصبر». وهذا اعتراف مؤلم، عندما نعرف أنه يتحدث هكذا، عن رجال هو الذي نشأهم. ولما نفذ صبره، ونفدت طاقاته المعنوية والجسمية، المادية والروحية، ترك الخدمة في مصر، في نهاية عام ١٨٣٥. وعندما رحل، كان Besson هو الذي يجمع بين وظائف مدير الترسانة، وبين رئيس الأركان في القوات البحرية.

وكان على عمل سيريزي أن يكتمل بحفر حوض لإصلاح هيكل السفينة(٢)، لكن المحاولات الأولى المسلّمة لأيدي مهندسين أتراك، بدا إخفاقها. وفهم محمد علي أنه ينبغي الاعتماد على مهندس أوروبي. ولهذا فإنه اتجه إلى الحكومة الفرنسية. ولكن هذا المهندس الشاب، خريج مدرسة الجسور والطرق، المقترح، لم يكن إلا Dieudonne Eugene Mougel، الندّ المقبل رغماً عنه، للينان دوبيلفوند Linant de Bellfonds.

ولكن العمل المطلوب يقتضي خمس سنوات من التعب والعناء، بدلاً من الثلاث السنوات المقدّرة من قبل. وفي نفس الوقت كان على موجيل أن يبني في المرفأ رصيفًا للركوب والشحن، وسكة حديدية للوصول إليه، وكان ذلك تجديداً حقيقيًا في ذلك العصر.

وحوالي نهاية ١٨٣٩، كانت غاية الفرعون قد تحققت. فها هو الآن يملك أخيراً أسطولاً حربياً، يشبه ما لدى الأوروبيين من نوعه، في الظاهر على الأقل، وترسانة مجهزة بكل الوسائل المادية المعروفة في ذلك العصر.. وعلى ذلك فإن الإمبراطورية العثمانية لن تجرؤ أبداً على النزاع مع تابعها، في قضية مياه البحر الأبيض المتوسط الشرقي.

ومع ذلك، فإنه ما من منجز من منجزات محمد علي، تعرض للنقد بقدر ما تعرض لها أسطوله البحري الحربي. وصحيح أنه كان في وسعه أن يتنقل على سطح البحر، أكثر مما كان في وسعه أن يحارب، وأن هذه القوة البحرية انكشفت في المعركة الوحيدة التي خاضتها، وأسودّ وجهها. ذلك أنها كانت عاجزة عن تبييض الوجه. ولكن هؤلاء الذين ينتقدونها في هذا، ينسون أنه لم يكن في حسبان محمد علي، في أية لحظة من اللحظات، أن يضاهي الأساطيل الأوروبية. ولقد قلنا سابقاً إن نائب الملك، كان يعرف تماماً مواطن الضعف فيها، كما كان لا يرى فيها إلا وسيلة نقل مضمونة لنقل جنوده من مكان إلى آخر، وإلا حماية للشاطئ المصري ومياهه، ويرى بشكل خاص أنها سلاح ديبلوماسي، في مصارعته للسلطان العثماني. وعلى الرغم من أنها لم تبق بعده (نعني هنا القوات البحرية على مثال كل محاولاته في التجديد) فإنها برهنت مع ذلك، على ما تستطيع الإدارة والعزم أن يحققاه في مصر. ولكن هذه المصر - وهذا صحيح - ما أكثر ما طال عليها العناء، وما أسهل ما قضي عليها بعد محمد علي.

-١٧-

شامبوليون. الميراث
- معركة المسلاّت

يظن الناس أن محمد علي قد ضحَّى بهرم، بغية إقامة جسوره على النيل. والبرهان، إن كان هنالك برهان، أنه يرى هو وسابقوه معاً، أن الأوابد المتناثرة في البلد لا تغري بالاهتمام مطلقاً. أما توجيهات الباشا فهي بسيطة: علينا أن نبني بسرعة، وبلا تأخير. ونشأ عن ذلك أنهم اعتمدوا على المحاجر الجاهزة، أي على المعابد، وعلى الأوابد من كل الأنواع. فلئن صَحّ أن نائب الملك، لم يكن، في أكثر الأحيان، قد أُطلع على التخريب الذي أصاب هذه الأعمال التراثية. فإنه يبقى صحيحاً أنه يدع من يخرّب هذه الآثار حُراً، ما دام يلبي حاجة إنسانية من حاجاته، دون أن يكون عليه جناح. وهكذا فإن عدداً من الأعمدة والصخور القديمة، قد اختفت من الإسكندرية، لكي تُنشأ بها ثكنات عسكرية، أو بعض الأعمال المرفئية، التي كان يديرها سيريزي.

ويمكننا أن نقرأ ما كتبه كادالفين وبروفيري في العبارات التالية: «إنه لعبث أن نبحث في اشمونين Achmounein عن بعض الآثار (الأوابد) التي كانت تُزيِّن بها المدينة الرائعة التي أقيمت على خرائبها هذه الضاحية (الميلاوي)، التي أصبحت الآن هي نفسها خربة. وهذا الذي احترمه الزمن (ومرّ الأيام) والتعصب، جاء الجهل والطمع فقضى عليه. وكذا فإن بقايا هرموبوليس الكبرى، استخدمت لبناء معمل لملح البارود Salpetre» .

يبدو شارل لونورمان Charles Lenormant [١] أكثر قسوة في أحكامه ونراه يقول: إن محمد علي أحرق الأروقة، والمعابد، والفنون الجميلة، على مذبح الصناعة، ولكي ينشيء مثل هذه الروائع، كان لا بُدَّ من الحجارة الكلسية، ولكن بدلاً من أن يمضي للبحث عنها، على مسافة ميلين في الجبل، بدا له أن من الأبسط أخذ الآثار، وكل ما كان مبنيًا بالحجر الكلسي، أي أن Antinoe و Achmounein وAntoepolis وإيليفانتين Elephantine ، قُضي عليها في أقل من خمس سنوات. بل إن الأقصر كانت قد بيعت لرجل يعمل في ملح البارود. وأخيراً فإن آثار مصر لم يكن لها قط من عدو مثل هذا التاجر السخيف، محمد علي - كولبير. ولينظر الإنسان إلى درجة استيائنا إذ نرى الطريق، والمسرح ، والشارعين الكبيرين ذوي الأروقة، وقوس النصر، وكل الأوابد قد اختفت: إذ لقد حُوِّل الباب الضخم، باب أشمونين، إلى بويب لقناة، وإلى معمل للسكر: وأخيراً لنتصوّر أن مصر جاءها قمبيز ما، ومرَّ بها (ماسخًا أمامه كل شيء) [...]ولولا أن الدول الأوروبية العظمى تدخلت، إذن لما بقي في مصر آبدة واحدة. تلك إذن هي الثمرة الأوضح (الوضحى) للحكومة الرابعة، حكومة محمد علي صديقنا. إن هذا شيء يجب أن نذيعه على الملأ كله . ولن أتأخر عن ذلك : إن ديلنداي Delenda -غايتي هي كارتاجوCarthgo أي الموت لقرطاجة، أو هو الموت للأتراك ولعرقهم.

بيد أنه لمجرَّد مبالغة أن نؤكد أن التراث الفرعوني لا يَهمّ محمد علي في شيء. وأصحُّ من ذلك أن نقول : إنه في بداية حكمه، جوبه بمشكلات فيها من الخطورة ما جعله يذهل عن إنقاذ كتل الغرانيت الضخمة أو الحجر. ومن جهة أخرى - وهذا مالا يمكن أن ننساه - فإن محمد علي رجل أميٌّ، عاجز بالضرورة كل العجز عن إدراك معنى الأشياء الثقافية. إنه قبل كل شيء، محارب، وديبلوماسي، وصناعي ، وتاجر . أما آثار العهود القديمة، مهما يكن فيها من السموّ، فإنها لا تُمثل أية قيمة تجارية له، وأقل من ذلك أن تُمثل فائدة عسكرية. ومع ذلك ، فمنذ العام ١٨١٩ ، وبعد زيارة لمقابر غورناهHypogees de Gournah يخبرنا caillaud، أن محمد علي استاء من نبش المومياوات.

ثم إن من أوائل الناس - ذلك أنه لم يكن الوحيد - الذين دعّوا الباشا إلى حفظ الثروة التاريخية الهائلة، للبلد، هو شامبوليون ، حقًا وصرفًا.

ففي ١٨ / ٨ / ١٨٢٨ ، وصلت بعثة أفرنسية - إيطالية، إلى مصر . أما الأولى فقد تبناها شارل العاشر ، وأما الثانية فتبناها الدوق الأكبر لمقاطعة توسكانيا، ليوبولد الثاني . وكان على رأس البعثة الفرنسية شامبوليون، مصحوبًا بشارل لنورمان ، والمهندس أنطوان بيبنت Bibent، وبالسيد Duchesne، من دائرة الوثائق أو الأختام . وبرسامين منهم Nestor L,Hote[٢] وبرتان Bertin ولوهو Lehoux. أما المجموعة الإيطالية، فيرأسها تلميذ لشامبوليون والمستشرق البيزاني روسيليني rosellini، مع عمه جاتيانو روسيليني Rosellini وصهره Salvatore cherubini، ابن المؤلف الموسيقي المشهور . وانضمّ إليهم عالم طبيعي هو Giuseppe Raddi، ومعاونوه كالاستري Gallastri وبولانو Bolano، والطبيب الأركيولوجي Alessandro Ricci، والرسام Angelelli.

وفي ٢٤ / ٧ / ١٨٢٨ استقبل الباشا جان فرانسوا شامبوليون ولونورمان، بقصر رأس التين . وقد تركا لنا صورتين عن المقابلة . وإليكم الآن تلك التي وجهها الأول إلى أخيه في نفس اليوم .

« في هذا اليوم، وفي الساعة الثامنة استقبلني الباشا . ويسكن سموّه عدة بيوت جميلة، مبنية من الخشب بكثير من العناية، على مثال قصور الآستانة . وتقوم هذه الأبنية ، ذات المظهر الجيدّ في الجزيرة القديمة للمنارة . ومضى بنا السيد دروفيتي، الذي كان عليه أن يُقدمنا، إلى القصر ، أنا والكومندان، ولينورمان، في عربته التي يجرّها حصانان نشيطان، وكانت تسير بسهولة رائعة، في طرق ملتوية وضيقة في الإسكندرية، بفضل مهارة السائق، وكان يتبعنا، راكبين على دواب عنيفة ، شبابنا في ثيابهم الرسمية .

نزلنا على السلم الكبير لقاعة الديوان، ودخلنا إلى قاعة ممتلئة بالموظفين، وأدخلونا مباشرة إلى قاعة ثانيةٍ، كان فيها زاوية بين نافذتين، يجلس بينهما محمد

علي في بدلة بسيطة جداً، وهو يمسك بيديه Pipe بيبا مثقلاً بالماس. أما قامته فكانت ضئيلة. ولو أن جملة هيئته تشير إلى البشاشة، التي تستغرب من رجل مشغول بكل ما نعرف من الأشياء الضخمة، ومثقل بالكثير من الهموم. هذا وإن السمة البارزة في وجهه هي زوج من الأعين، مفعم بالحيوية يشيران إلى تضاد مع لحية بيضاء تنزل حتى تصل إلى صدره.

وبعد أن سألنا سموُّه عن أخبارنا حيّانا تحية حسنة، وسألني أنا عن مشروع رحلتنا. وقلت أني راغب في المضي إلى الشلال الثاني، وإني أطلب الفرمان منه (لتسهيل السفر) فوافق مباشرة على ذلك وقدم لي اثنين من حراسه لمرافقتنا، وجعلنا محترمين أينما ذهبنا، من كل الناس، في كل شيء.

ثم إننا تحدَّثنا عن قضايا اليونان، وقصَّ علينا سموّه، خبر ذلك اليوم، أي موت أحمد باشا من باتراس الذي قُتل على يد اليونانيين، الذين أدخلهم إلى غرفته، جنُود ألبان اشتروا من قبل. وهذا التركي الشجاع، على الرغم من تقدمه في السن، قتل سبعة بيده، وسقط هو ميتًا لكثرة من هاجموه. وبدا لي أن هذه المغامرة قد هزّت مشاعر الباشا هزاً عميقًا.

ولقد كرَّمنا بفنجان من القهوة بلا سكر. واستأذنا بعد ذلك من سموّه، الذي ظل يرافقنا بتحيات يدوية، لا يمكن أن يوجد ما هو أرق منها. ومتى حصلنا على الفرمان بين أيدينا، نصبح قادرين على الوصول إلى القاهرة، ومنها إلى مصر العليا»(٣).

غير أن حديث لونورمان أكثر تفصيلاً، وهو يُعبِّر عن حس حاد في الملاحظة.

«في صباح الأمس، قمنا بزيارة الباشا، الذي استقبلنا ببساطة كبيرة، وحركات لطيفة حقًا. كان ذلك في الساعة الثامنة. وكان شامبوليون، وكومندان الإيغلي L,Egle، وأنا معه قد ركبنا عربة السيد دروفيني (الفريدة من نوعها في البلد). أما بقية فرنسيينا، فكانت تتبعنا راكبةً الحمير، ولم يجتمعوا بنا إلا على درج مدخل القصر.

وبعد أن اجتزنا غرفة الانتظار، الملأى بالحرس، وجدنا أنفسنا في قاعة كبيرة، فيها أكثر من عشرين نافذة، كان في زاويتها كهل قصير(٤) يشبه تماماً رئيساً للبلاط الملكي، لو لم يضع على رأسه قلنسوه مربعة، أضاف إليها لفّة من الموسيلين الأبيض. وبدلاً من اللباس الأحمر، كان يضع معطفاً زيّن بالفرو، لونه أزرق. أما البيب الذي كان يدخنه فطوله عشرة أقدام، ومطعم كلّه بالماس والحجارة الكريمة. وكان هذا هو الأثاث الوحيد الثمين في القاعة. وكان هنالك عشرون حارساً أو ضابطًا، يلبسون لباساً أجمل وأرقى من لباس الباشا. وما إن دخلنا حتى صرف من كان لديه من حاشية، يعمل كل أفرادها معه. ودعانا بيده إلى الجلوس: وعندئذ بدأت المحادثة بين دروفيتي، المكلف بالنيابة عنا، بالحديث، ومعه ترجمان القنصلية الذي يترجم إلى الفرنسية ما يقوله الباشا باللغة التركية. ودار الحديث حول رحلتنا، ووعدنا بكل الحماية وكل الدعم. وسألنا عما إذا كنا نمضي أولاً إلى قمة فرعون (وهذه تسمية تركية للهرم). ثم دار الحديث حول السياسة. وكان الباشا مهتماً جداً بالحادث الذي سمعه منذ قليل، والذي كان مزعجاً للأتراك، ومزعجاً أيضاً للباشا. وكان ذلك حادث اغتيال أحمد باشا من باتراس Patras، على يد يونانيين أدخلوا إلى بيته أثناء الليل. ويبدو أن هذا الخبر يملك على الباشا قلبه. وفي وسط الابتسامة اللطيفة التي كان لا يفتأ يكرّمنا بها، كنا نراه من حين لآخر يلقي علينا نظرات كنظرات الأسد وكانت تشعرنا، ولو من بعيد، بالرجل الذي قضى على المماليك. وما من شيء أدهشني مثل وجه هذا الرجل القديس؛ وكنت قد تخيلته على مثال لوحة هوارس [Vernet]، أو ما ما رسمه السيد Forbin، أثناء رحلته. وكم كانت المفاجأة كبيرة عندما لقيت بدلاً من ذلك الرأس القديم، والأنف الأقنى وذاك الوجه المثالي الذي قدَّم لنا من قبل مديرنا الرومنسي، رجلاً قصيراً، ذا أنف مستدير، وعينين ناعمتين، ولحية بطرك... وحركات صغيرة مختلجة كحركات مركيز نابوليتاني، وهذا كله مخلوط بإشارات مفاجئة ومظاهر حاسمة لم تكن تسمح لنا أن ننسى تماماً زميله الجزار باشا. وكان عليّ أن أقول: إنه قدَّم لنا أثناء الحديث قهوة من أسوأ

الأنواع ووضعت فناجينها فوق غطاء مطرز بالذهب. كان ذلك كنظرة الباشا داخل ابتسامته الدائمة. وبعد ربع ساعة، أذن لنا بالخروج، بنفس اللطف، وعدنا وركبنا السيارة وكان ذلك قضية منتهية.

أما خلاصة هذا المختص بالآثار المصرية فهي: «أن هذا التركي الطيب كان رائعًا!» أو لم يدع ضيوفه إلى اعتبار مصر كبلدهم»؟

وفي ١٣ / ٨، وقبيل السفر إلى القاهرة: ثم إلى مصر العليا، قام شامبوليون ولونورمان بوداع الباشا. ويبدو أن هذه المقابلة الثانية تركت انطباعًا أفضل لدى مفتش «الفنون الجميلة» قال: «كان الرجل أكثر بشاشة منه في المرة السابقة... وقد دار الحديث حول الهيروغليف (اللغة الهيروغليفية). وقال له شامبوليون، بين أشياء أخرى، (أنه قرأ ما كتب على مسلتين موجودتين في الإسكندرية) وقد أثار هذا اهتمام الباشا بقوة. وطلب ترجمتهما، وظهر أنه حريص كل الحرص عليها، مما دعانا إلى القيام بهذه الترجمة وملاءمتها مع لغة الفراعنة الغريبة [...] ولقد وجدته أكثر جدية ورصانة. وكانت ابتسامته الرقيقة التي تطل على لحيته البيضاء، تناسبه بشكل أفضل».

وكتب شامبوليون: «إني الآن (أي الساعة الثامنة مساءً) من زيارتي لوداع الباشا. وكان سموّه رائعًا؛ وشكرته على الحماية المفتوحة (الواضحة) التي خصنّا بها. وأجاب: إن الأمراء المسيحيين الذين تعاملوا مع أبناء رعيته وجدوا رعاية متميزة. وإن واجبه هو أن يقابلهم بالمثل. وقد دار الحديث حول الهيروغليف، وطلب مني ترجمة ما كتب على مسلات الإسكندرية، فوعدته بذلك، وسيجدها أمامه غداً صباحًا باللغة التركية، على يد قنصل فرنسا، وقد أراد محمد علي أن يعرف، إلى أي نقطة من بلاد النوبة، كنت أريد أن أمضي إليها في رحلتي وأكد لي أننا سنلقى حيثما كنّا تكريمًا وحسن استقبال. وتركته بعد كثير من الثناء وكان تواضعه يردّه بصورة لطيفة جداً».

وطوال الرحلة التي قام بها شامبوليون، كان يُجابه بالمأساة الكبيرة التي تنزل بمصر القديمة. ومنذ ذلك الحين لم يتوقف قط عن التدخل في هذا الشأن لدى نائب

الملك. ولكنه لا يدافع من أجل إنقاذ آثار مصر القديمة فقط، ذلك أنه عندما كانت المشكلة هي تحويل مدرسة الطب التي أسسّها Clot إلى معمل للحرير، ثار الآثاري المصري على هذا، ونجح بكسب القضية. ويبدو أن العناية الإلهية قد ساعدت على هذا النجاح بصورة غير مباشرة. فذات صباح، جاء إبراهيم باشا إلى القنصلية العامة الفرنسية، حيث كان يجتمع أعضاء البعثة الفرنسية، ولا سيما الدكتور باريزية، وهو عالم كبير من علماء الأوبئة، جاء إلى الشرق لكي يبحث عن وسائل لمقاومة الطاعون. فدعاه إبراهيم مع شامبوليون إلى العشاء على مائدة محمد علي. وأثناء السهرة، وقع ابن الباشا فجأة على الأرض ضحية سكتة ما؟ واستطاع باريزية Pariset، بمعجزة، أن ينقذه منها (أي من الموت). . ومنذ تلك الساعة بدأ محمد علي يُعجز الضيفين بالإكرام، مكرّراً القول: «إن واحداً منهما بعث ابني حياً من موت كان محققاً، والثاني أوضح لي ما كان لبلدي مصر من أمجاد تاريخية». وينتهز شامبوليون الفرصة المناسبة لكي يعبرِّ بوضوح عن مشكلة الآثار، ويدافع عنها أحسن الدفاع، في الحين الذي كان فيه باريزيه ينطلق في الدفاع عن الشعب المصري، وعن ارتقائه الاجتماعي.

وفي ٢٩ / ١٠ / ١٨٢٩، يتقدم الآثاري المصري بتسليم «كلمة للباشا من أجل المحافظة على الآثار المصرية»، نقرأ فيها ما يلي: إنه لأمر ضروري، مستعجل، وفي غاية الأهمية - ما دامت الآراء المحافظة لدى سموّه، معروفة لدى رجاله - أن يتّبعه هؤلاء ويعملوا على تطبيقها في كل ما لها من أبعاد. وإن أوروبا كلها لتعترف لسيّد مصر بأكبر الجميل إذا اتخذ سموُّه التدابير الضرورية لضمان الاحتفاظ بالمعابد، والقصور، والقبور، وكل أنواع الأوابد التي تشهد أو ما زالت تشهد، على قوة مصر القديمة وعظمتها، والتي تبقى في الوقت نفسه، أجمل صور الزينة لمصر الحديثة. وقد حان الوقت، وكان يجب أن يحين من زمن بعيد، أن يوضع حدٌّ لهذه الهجمات البربرية التي تحرمُ العلوم في كل لحظة من آثار ذات قيمة عظيمة. ونقرأ أيضاً: إن من الأهمية بمكان عظيم لمصر أن تسهر هي نفسها، وحكومة سموّه، على الاحتفاظ

الكامل بالمنشآت والأوابد القديمة، وهذا أمر يشكل باستمرار ذلك الموضوع الأساسي والهدف الرئيسي، للرحلات التي يقوم بها جمهور من الأوروبيين ممن ينتسبون إلى الطبقات الأكثر تميّزاً من المجتمع. وإن أسفهم لينضم إلى أسف أوروبا العالمة، الذي يرثي بمرارة، لذلك التهديم الكامل لمجموعة من أوابد مصر القديمة، التي هُدِمت هدماً كاملاً، من دون أن يبقى لها أدنى أثر »(٥).

ومن المؤسف أن كل هذه التحذيرات لم تؤثر إلا قليلاً، لا بمعنى أن محمد علي، يستجيب لها باللامبالاة، ولكن لأن الوضع، كان عصياً على المراقبة الكاملة. وفي برقية (أو رسالة) بتاريخ ٢٤ / ٢ / ١٨٣١، يروي قنصل فرنسا Mimaut (ميمو) ما يلي: « إن عمالاً من البرابرة، مرسلين، لا أعرف من أي بيك جاهل أو مأمور غبي، بدؤوا بهدم معبد الدندرا المعتبر، بحق، في عداد أجمل المعابد في مصر العليا. وعندما أخبرت بذلك عن طريق سائح مستاء جداً، رجوت محمد علي بأن يوقف هذا العدوان المخيف، ويُجدّد أمراً صدر سابقاً حصلنا عليه منه، أي السيد شامبوليون وأنا، خلاصته أن يحرِّم مسّ أي أثر من الآثار التي خلفها القدماء. ويعاقب على ذلك أكبر العقوبات قسوة، كما لو أن العدوان عليها عدوان على أشياء مقدَّسة. وقد اتخذ هذا القرار، هذه المرة، بكثير من العناية والحزم بحيث رجوت معه أن أي واحدٍ من هؤلاء المتوحشين لن يسيء بعد الآن - من أجل بناء بعض الفبارك البائسة - إلى ما قد بقي لنا من روائع الفن المصري وفخامته». ولكن أوامر محمد علي، من أجل الدندرا، لن تطاع إلا أسوأ الإطاعة، حتى اضطر Puckler Muskau إلى التدخل، هو أيضاً.

وحاول لينان دوبيلفون هو أيضاً أن يحصل على ثلاثة فرمانات، لمنع تهديم الخرائب الرائعة في Antinoe ولكن عبثاً. ويصحّ هذا على جهود Estourmel، بعد لقاء تم عام ١٨٣٣، حيث شكا للباشا تخريبات تصيب بقايا الماضي الرائعة، ووعده الباشا بأن يتعهّد هو نفسه، تنفيذ هذه الأوامر.

« لقد قلت للباشا إنه على الرغم من الأوامر التي كان أصدرها، فإن الناس ظلوا يُخرّبون آثار مصر القديمة كل يوم. وكانوا يأخذون الحجارة الملأى بالكتابات، والرخام الثمين لكي يستفيدوا من موادها الكلسية؛ وكان التخريب يمضي سريعاً جداً، حتى إن أربعة عشر أثراً، جاء ذكرها في الكتاب الكبير عن مصر، كانت قد اختفت؛ وإن الذكريات والعواطف المتصلة بهذه الآثار كانت صلات بين مصر وأوروبا، وإن من المهم جداً الحفاظ عليها.

« وأجابني محمد علي أنه بناءاً على طلب من ميمو Mimaut، أصدر أوامر بهذا المعنى: « وسأستغرب كل الاستغراب ألا تكون هذه الأوامر قد نُفّذت؛ وربما كنت الحاكم الأول الذي تطاع أوامره أكثر من أي إنسان آخر. ولكنني لا أستطيع، فيما بعد، أن أوصي الأوروبيين بأي دقة في الإطاعة، إني أكثر ما أكون تسامحاً، من هذه الناحية، وسأكون مدفوعاً إلى الظن بأنهم هم لا أناس البلد، الذين يفسدون الأوابد التي يريدون بيعها أو تصدير بقاياها»(٦).

وليس الاتهام الثاني بالأمر الذي لا سند له. ولئن كان السلك القنصلي يرفع الصوت عالياً لحماية التراث المصري، فإنه بعيد جداً عن إعطاء المثل الحسن. ويأتي في رأس القائمة مما يُسمّى « بالنهابين »* قنصل انجلترا Salt، ودروفيتي. ويخبر روسيل، ريشيليو، في رسالة مؤرخة في ٢٢ / ٧ / ١٨١٧ يقول فيها: إن تذوق دروفيتي للتراث القديم، قرّبه من « سالت» بحكم ميولهما المتقاربة. ولما كان لهذا الأخير سلطة مطلقة، لدى تجار الآثار في لندن، تعطيه الحق في دفع كل المبالغ اللازمة للحصول على آثار مصرية، فقد أراد دروفيتي أن يحاربه، فنشأ عن ذلك ندية وبغضاء. وأنا لا أعرف ما إذا كانت تجارة دروفيتي، تتيح له أن يدعم الصراع المرهق في ، الأثريات « ضد سالت الذي منحه الوصيّ على العرش، حرية كاملة في هذا الباب »(٧).

* - انظر كتاب المغامرة الاركيولوجية في مصر بريان BrianM. Fagan منشورات بيغماليون Gerard Watelet

وتكملة للحكاية، يجب أن نوضح أيضًا أن القنصل النشيط، قد تاجر . . بريش النعام، وكان دومًا في تنافس معه (مع سالت)، على نحو ما يكتبه روسيل نفسه، بعد ثلاثة أشهر: «إن السيد دروفيتي موجود الآن في مصر العليا حيث منحه الباشا إذنًا في المتاجرة بريش النعام، الذي أتي به مع قافلة دارفور. أما سالت قنصل انجلترا، فإن عليه أن يسافر إلى نفس المنطقة برفقة اللورد بلمور Belmore، فيما يقال [...]»(٨).

والواقع أنه منذ عام ١٨١٦ كان دروفيتي موجودًا على رأس مجموعة رائعة من التماثيل، والمسلات Steles، والنقوش الضئيلة البروز basrelief، كلُها تقريبًا مسروقة من مقبرة طيبة الكبيرة وقد عُرضت أولاً على فرنسا، ثم بيعت لبلاط تورينو.

وكثيراً ماأشاروا إلى أن دروفيتي، الذي سمع أن شامبوليون يعرب عن عزمه السفر إلى مصر، أراد أن يقنعه بألا يفعل ذلك، بغية متابعة شراء الأشياء القديمة بكل راحة بال: «تلقيت الثانية من رسائلكم التي شرفتموني بكتابتها إليَّ يوم ١٨ / ٢ . وإني لأرجوك أن تكون مقتنعًا أني لا يضاهيني، بعلك، أحد في الاهتمام بالرحلة الهامة، التي تريد القيام بها إلى مصر. وهكذا فإني لأتألم أكثر من أي شخص آخر، من الظروف التي لا تسمح لي بتشجيعك على تنفيذ هذا المشروع في بحر هذه السنة، ما لم تعط التدابير الجذرية المتخذة ضد الأتراك من قبل الدول الموقعة على معاهدة لندن، من هنا حتى شهر آب المقبل، على النتائج المتوقعة منها. ذلك أنه يسود في مصر، كما هي الحال في كل الأجزاء الأخرى للإمبراطورية العثمانية، روح عدائية ضد الأوروبيين، يمكنها في بعض الأحوال أن تنتج تخمرات، وحركات تمرّد ضد الأمن الفردي لأولئك الذين يسكنون هنا، أو يوجدون كسواح. ولو أن الأمر لا يتعلق إلا بمحمد علي في وضع حدٍّ لآثار هذا الاستياء، لما كان من الصعب عليّ أن أنال منه، ما كلفتني بأن أقوم به، أو أسأله عنه. ولكنه هو أيضًا يتعرّض لمثل هذا العداء، بسبب عواطفه الأوروبية، ولم يجرؤ أن يعطيني الضمانات التي أطلبها

لكم، أو لرفاقكم في الرحلة. وإذا حدث، أثناء هذه الفاصلة، تغيير ما في الوضع السياسي للدول التي تدخلت ضدّ تركيا، فإن في وسعكم أن تشدّوا الرحال، دون انتظار أي رأي مني، ذلك أن بعثتكم لن تلقى أية صعوبة، وسوف تحمى بالصورة الأكثر نجعًا، من قبل الحكومة المحلية. وقد طلب Rosselini نفس الطلب وتلقى مني نفس الجواب. فتفضلوا بالاقتناع أنني سأكون الأكثر حزنًا في عدم القدرة على الاستجابة للطلب المناسب لرغباتكم، التي يجب أن تكون أيضًا رغبات كل أصدقاء العلوم التي تتعهدونها، بمثل هذا النجاح»(٩)

وكان على العالمة بالآثار المصرية Hermine Hartleben، أن تغرق في هذا الاتجاه مستعيدة مقطعًا من رسالة شامبوليون إلى أخيها، تقول فيه: «إني لأقيم وزنًا ضئيلاً جداً لصفته السياسية وسلوكه في مصر، حيث لم يهتم (يعني دروفيتي) إلا بمصالحه المرتبطة بمصالح الباشا، من غير أن يقدّم أية رعاية للمصالح القومية التي تُدفع رواتبهُ، لحمايتها. إن كل الفرنسيين يحتقرون هذا الرجل. ولا أجرؤ على القول أنهم على خطأ»(١٠).

ومع ذلك فإنه يمكننا، حول هذا الموضوع، أن نخفف النقد، وأن نتابع النظرية التي يدافع عنها جان جاك فيختر(١١). وهي متزنة تمامًا ومعقولة: لقد كان وضع دروفيتي في ذلك الحين حرجًا بشكل خاص. فقد كان يفاوض مع فرنسا عندئذ، محاولاً أن يخرج الباشا بصورة مشرفة، من التزامه في موريه Moree. وكانت معركة نافارين (اكتوبر ١٨٢٧) قد تمّت وكان التوتر الذي يخيّم في مصر، والعداء الذي ينطلق منه، كبيرين تجاه القوى الأوروبية. كل هذه كانت عوامل تجعل الوقت أو الظرف غير ملائم لوصول وفد أجنبي. وهكذا كان نصح دروفيتي لشامبوليون بتأجيل زيارته إلى ما بعد، نصحًا نزيهًا. والبرهان أنه عندما وصل شامبوليون إلى مصر، قام بكل ما يستطيع لتسيير مهمته، واستقبله بحرارة غير

مصطنعة . أو لم يكتب شامبوليون نفسه لأخيه : « من جهة أخرى، فإني هنا منعَّم، مرفه، مُدلَّل من جميع الناس، وخاصة من دروفيتي، على الرغم من أن صحته الآن تدعو إلى الرثاء » . وفي رسالة بتاريخ ٢٩ آب أضاف قائلاً : « إن دروفيتي مسرور جداً بوصولي، وهو الذي يضع لي اللائحة الأدعى إلى السرور، في رحلتي المقبلة» . أما هذا التغير في سلوك قنصل فرنسا، فإنه يُعلّل بيسر، متى علمنا أن ما حدث بين الساعة التي كتب فيها دروفيتي لشامبوليون، ليقنعه بعدم المجيء إلى مصر، أي بين ٣ / ٥ / ١٨٢٨، وبين وصوله إلى مصر (١٨ آب)، ذلك أنه كان قد وقّع على اتفاق يوم ٩ آب بين محمد علي وبين الدول الأوروبية . وهو اتفاق يُسمح فيه وديًّا» بانسحاب قوات إبراهيم من الموريه Moree، تحت رقابة اللواء Maison.

فإذا قبلنا هذا، فإنه يبقى مع ذلك أن القنصل لم يعمل قط إلا لمصلحته عندما سرق الأوابد والمسلات، على مثال زميله salt- الذي كان Gianbattista Belzoni* - تنيّن بادوفا» - يعاونه على هدم جزءٍ من معبد الكرنك . فإذا قلنا هذا، أضفنا أن هذين الديبلوماسيين كانا قد قلّدا بفرح، في مشروعهما، من ممثلي النمسا وبروسيا والسويد .

ويجب أن ننتظر عام ١٨٣٥ حتى ينشر المونيتور المصري أمراً، نسوق هنا أهم فقراته :

« إنه يحدث أن بعض الأجانب يُهدّمون المنشآت القديمة، ويسحبون منها الحجارة الكريمة، وأشياء أخرى مشغولة، ويُصدِّرونها إلى البلاد الأجنبية . وإذا كانت هذه الأساليب ستتابع، فإن أحداً لن يشك أنه في مدة قصيرة لن يبقى شيء من الآثار القديمة في مصر، ويكون كل شيء قد صُدِّر إلى البلاد الأجنبية . ومن المعروف

* - انظر، رحلة إلى مصر والنوبة . لـ G.Belzoni، نشر، بيغماليون GeRard Watelet

أن للأوروبيين أبنية مخصصة لرعاية الأشياء التراثية، فالحجارة المغطاة بلوحات وكتابات، وأشياء أخرى مشابهة، تحفظ هناك بعناية، ويُطلع ُعليها سكان البلد ، كما يراها السواح الذين يريدون الاطلاع عليها : إن مثل هذه المنشآت تمنح البلاد التي تملكها شهرة كبيرة. ولقد رأت الحكومة، بعد النظر بعين الاعتبار إلى هذه الوقائع، أن تحرِّم تصدير الأشياء التراثية التي توجد في المنشآت المصرية القديمة، والتي لها مثل هذه القيمة الكبيرة، كما رأت ضرورة إقامة مكان خاص في العاصمة يكون بمثابة مستودع للأشياء التي يُعثر عليها، أو الأشياء التي سيُعثر عليها من جديد، في الحفريات القائمة أو الممكنة. ورأت الحكومة أيضًا أن تُعرض هذه الأشياء لكي يراها السواح الذين يزورون البلاد، وأن تمنع هدم الأبنية القديمة التي توجد في مصر العليا، وأن تسهر على رعايتها بكل أنواع العناية [١٣].

ويعلّق الدكتور Clot على هذا القرار، ويقول : منذ أن سُمح للناس بزيارة مصر، بكل طمأنينة، لوحظ أن السواح الذين تجولوا في البلد، أبدوا شراهة كبيرة في حمل ما يمكن حمله منها. ولهذا فإن نائب الملك اضطر إلى منع التصديرات العشوائية لمخلفات الأزمنة القديمة، وسيكون متحفظًا جدًا، في الترخيص بالحفريات. ولن أنهي كلامي هذا من دون أن أتمنى رؤية نائب الملك، وهو يفتح متحفًا لهذه المخلفات، حيث يمكن استقبال كل كنوز الأركيولوجيا الموجودة فيها، وررعايتها والعناية بها أكبر العناية».

لكن التدابير المتخذة ظلت غير كافية لإيقاف البعثرة والضياع. وكتب «نسطور لوت Nestor L,Hote» يقول : « إن بربرية السواح ليست بأقل كارائية من جشع الأعراب. وهي تهاجم كل الآثار. وكثيراً ما تهدم أقساماً كبيرة منها لترفع منها أصغر قطعة من المنحوتات، ثم إن إدارة الأتراك تساهم ، بدورها، بتخريب الآثار، تخريبًا لا يقل أسىً. وما تفعله أو فعلته هذه الإدارة، قد يمضي حتى إلى داخل الجبال، ليهّدم قطعة فقطعة كل اللوحات المرسومة على النواويس(المقابر) ويقتطع

منها بعض أجزائها ؛ إن الأنانية والغرور ليسا من بواعثها. ولكنه ، بدعوى حاجات الحكومة، نراها تعمل، على نحو ما يقال، في دفعة واحدة، على اقتلاع بوابات كاملة؛ وتردُّ هذه إلى ما يشبه الغبار، لتستخدمها في صناعة البارود. وصحيح أن الباشا منع عماله من مسّ الأوابد التي تحمل آثار كتابة ما. ولكن هذا المنع مجرَّد وهم »(١٤). والسيد نستور لوت على حق فيما يقول ، ذلك أن Prisse d,Avenne احتاج إلى التضارب (بالمعنى الحقيقي للكلمة وبالمعنى المجازي) بغية إيقاف بناء مملحة البارود في الكرنك، بحجارة كبرى المعابد.

ولما كان الأمر كما قلنا، فيما يتصل بموقف دروفيتي أو موقف Salt، فنحن مرغمون على الاعتراف، بصورة ما، أن كلا الرجلين سمح بانتزاع روائع ما خلفته القرون الماضية من أيدي نهابي الأيقونات ومتلقي الآثار الفنية من كل الأنحاء، حتى ولو كان ما فعلاه لم يهدف لخدمة مصالح مادية، بل لمصالح ذاتية. أو ليس هذا كما يقول Fiechter « بالأقل شراً»؟ وحقّاً ماذا كانت ستصبح هذه الأشياء، لو أنها بقيت في أيدي العمال، وصناع الفرعون؟ ولا ينبغي أن يغرب عن البال أنه يجب انتظار عام ١٨٥٨ ، أي عام تسمية أوغوست ماربيت Auguste Mariette(١٥) لمركز مدير مصلحة الأثريات *، حتى يعود الأمر طبيعياً (تقريباً ، ويقف نهب الأوابد القديمة.

ومن بين كل هذه المغامرات الحسنة أو السيئة، يُذكر بشكل خاص ما يتعلق بمسلة معبد الأقصر، أي تلك التي تُزيّن اليوم واحدة من أجمل ساحات العالم، إن لم تكن الأجمل بإطلاق: أي الكونكورد. ففي البداية لم يكن الأمر يتعلق مطلقاً، بهذه المسلة. بل إن هذا الأمر يعود إلى حكم لويس الثامن عشر الذي استعاد فكرة لنابليون، وعمل على التفاوض مع نائب الملك ، كي يقبل التخلّي عن آبدة ما، يمكن

* - ماربيت باشا (١٨٢١ - ١٨٨١) للكاتبة اليزابيت دافيد، نشر بيغماليون Gerard Watelet

أن تَذَكر بحياة الفرنسيين الفخمة في مصر. وقد قبل محمد علي يومئذ أن يتخلى عن إحدى مسلتي كليوباترا، باعتباره أن الأخرى كانت انجلترا موعودة بها. ولكن منذ ثاني يوم وصل فيه شامبوليون إلى الإسكندرية، مضى إلى مكان المسلتين هاتين، وأحزنه كل الحزن ذلك الوضع السيء الذي كانتا فيه.

ومن جهة أخرى، فإن الإنجليز أسرعوا وأرسلوا مجموعة من مهندسي «القوات البحرية» الملكية، بغية دراسة مشكلة النقل. ويخلص تقرير هؤلاء إلى أن نقل تلك الآبدة الضخمة المتخلى عنها لهم، يقتضي إنشاء طريق خاص، كلفته ٣٠٠٠٠٠ فرنك، وكان عظم هذا المبلغ سبباً في تبريد همة، وزارة سان جيمس.

وعندما علم شامبوليون بالأمر، في الوقت الذي كان فيه، هو، في الأقصر، كتب إلى أخيه: «إني على أحسن حال الآن، بعد أن عرفت أن العالم الإنكليزي استبعد فكرة فتح طريق، تكلف ٣٠٠,٠٠٠ فرنك، مما يزهِّدُ حكومته من هذه القصة، وبالتالي حكومتنا نحن، من هاتين المسلتين البائستين المقيمتين في الإسكندرية. إنهما تثيران شفقتي، منذ أن رأيت مسلات طيبة».

وعندما عاد إلى مصر العليا في بداية آذار عام ١٨٢٩ وفحص من جديد حالة «المسلّتين، مسلتي كيلوباترا، اقتنع كل القناعة برأيه. فأسرع وكتب إلى دروفيتي، «إني أرغب أن تصل رسالتي هذه إليك في الوقت المناسب لكي توحي لباريس. بفكرة الحصول على مسلّة واحدة من مسلتي الأقصر كبديلة عن هذه المسكينة المهترئة القائمة في المرفأ القديم. إن هذا سيكون أجدر بالوطن وبالوزارة، وبكم».

ثم يكتب رسالة لأخيه: «لقد رأيت هذه المسلات الجميلة. فلِم نتسلّى بنقل مسلّة الإسكندرية، عندما يمكن أن نحصل على واحدة من هاتين. بهذا المبلغ المتواضع، مبلغ ٤٠٠٠٠٠ فرنك، على الأكثر؟ إن الوزير الذي ينصب واحدة من هذه المسلات في واحدةٍ من ساحات باريس، سيُخلِّد نفسه بأرخص الأسعار».

غير أن أحد المبررات التي تجعل شامبوليون يرغب في هذا، هو أيضاً ذلك الخوف من أن يرى هذه الأعمال معرّضة لكل أنواع النهب: «إن هذا القصر الرائع (يعني معبد الأقصر) هو الأكثر تعرضاً للعدوان من كل الأوابد المصرية المغمورة بمساكن فقيرة للفلاحين الذين يحجبون ويشوهون حسن هذه الأبواب الكبيرة الجميلة، هذا إن لم نتحدّث عن بيت حقير لبنباشي، يقف على ساحة المعبد المثقوبة بعنف ضربات المجارف، بغية فسح المجال لمرور قذارات التركي».

لكن المشروع الذي يتصوره ليس ببسيط: ويتعلق الأمر هنا بنقل الآبدة الكبيرة (التي تزن أكثر من ٢٢٠ طن، و ٢٣ متراً كارتفاع) على ظهر «عوّامة» تستفيد من فيضان النيل. وتظل العوامة تسير حتى تصل إلى الإسكندرية، ومن هناك تنقل في مركب ليصل بها إلى فرنسا.

ترى أيعرف هذا أم لا؟ إن الفكرة التي يعرضها شامبوليون هي نفس الفكرة التي خطرت ببال Linan de Bcllefonds، وهذه أوحي بها من قبل pline (الكتاب ٣٦) وعرضها بدوره على سالت. وهذا ما جعل Salt يفكر بهذا المشروع، قبل فترة، فيما يتصل بنقل المسلة، ولكن من دون أن يجد مشروعه أي ظل للتنفيذ.

ومهما يكن الأمر. فإن مثل هذه المحاولة تحتاج إلى اعتمادات. وهذه تحتاج إلى وزير. وفي آب ١٨٢٩، يَحُلّ بولينياك Polignac محل Martignac على رأس الحكومة، ويسلّم هذا وزارة البحرية إلى البارون d,Haussez. وعلى الرغم من أن هذا لا يحمل شامبوليون داخل قلبه (أي لا يحبه) فإنه يُسكت عواطفه، وفي ١٨/ ١١/ ١٨٢٩، يطلب من سيريزي، معلومات عن أبعاد المسلة ووزنها، ورأيه في وسائل النقل. ويبدو أن سيريزي كان مشغولاً جداً بأعماله، ولا يحب أن يكون مسؤولاً عن مشروع مرتجل، ولهذا فإنه لم يجب.

وهنا تتجه الوزارة إلى. . جان فكتور بيسون «Besson» الذي كان يومئذ مديراً لحركات المرفأ في الإسكندرية. فيقوم بوضع مخطط كلي. . وقد استوحى بيسون أفكاره من فكرة شامبوليون (أو من لينان؟ أو من لورومان)، فوضع مخططاً

لإنشاء عوامة ضخمة، قادرة على نقل الأبدة المشار إليها من طيبة إلى الإسكندرية على سطح النيل . وهنا يأتي مركب بخاري ويسحب العوامة حتى يصل بها إلى طولون.

وأخضع المشروع لدراسة لجنة سُمّيت لهذا الغرض واجتمعت في باريس. ورفضته باعتباره شديد التعقيد، وصعباً على التنفيذ. ثم إنه عظيم التكاليف، وينقصهُ الأمان. وعندئذ تفضل اللجنة إنشاء مركب كلّه سطح واحد على أساس مشاريع رولان الشهير، وهو مفتش عام للهندسة البحرية وسيسمّى الأقصر Luxor فيأمر D,Haussez ورشات طولون ببدء إنشائه. إلا أن ثورة تموز تقلب الوزير الذي لا يستطيع في مذكراته، أن يخفي مشاعر المرارة من هذا الموضوع، إذ يقول: «لم أُعطَ الفرصةَ اللازمة لرؤية مشروعي عند تمامه. وأنا في وزارتي. وسيجهل الناس أن تصورُّ المشروع من عملي، وأن كل الوسائل الضرورية للتنفيذ، كانت قد هيئت، ووضعت قيد العمل، في أيامي أنا» "١٦". وبناءً على توصياته، سلّمت إضبارته إلى شخصية قريب له: هو البارون ايزيدور جوستين سيفرين تيلور Justin Isidore Severin Taylor وهو ابن لبريطاني تجنّس فرنسياً، وهو مؤلف درامي، وأركيولوجي في بعض ساعاته، وهو الآن مفتش في الفنون الجميلة وكوميسير ملكي في الكوميدي فرانسيز.

وفعلاً، فمنذ شهر نيسان ١٨٣٠، أي بعد أربعة أشهر من عودة شامبوليون إلى فرنسا، قامت الحراقة Lancier بالسفر إلى مصر، ودخلت ميناء الإسكندرية. وكان فيها البارون تايلور، المرسل بمهمة من قبل شارل العاشر لمقابلة الباشا وإنجاز القضية. ولكن البارون لم يَصل، ويداه فارغتان، بل كان معه بين الهدايا التي يحملها إلى الباشا (أسلحة، وقبعات، ودروع، وبورسلين سيفر) وكتاب بعنوان وصف مصر. ومن دواعي الأسف أن هذه الهدايا لم تؤد إلى إحداث الأثر المطلوب. ذلك أن باركر القنصل البريطاني، خلال هذه المدة، وقف معترضاً، كما ينص ميمو Mimaut.

« وكانت الحكومة البريطانية، على ذمة بعض السوّاح، قد طلبت عن طريق قنصلها العام لدى محمد علي، واحدة من المسلّتين القائمتين في الأقصر، وتذكرّت، وكثيراً ما تذكرّت، أنها، في الماضي، وعدت بالاستجابة لهذا الطلب، أيام السيد Salt الذي سبق الموجود اليوم. وقد جُدِّد الوعد بهذه المسلّة، لزميلي الإنجليزي السيد Barker . وعندما علم هذا الأخير أن مشروعنا كان أن نطلبهما، هما الاثنتين لفرنسا، هرع من الرشيد، التي كان هو فيها، لكي يطلب تنفيذ وعدٍ ملتزم به سابقاً مع حكومته ومعه هو. وفي هذا اللحظة لقيت نائب الملك، في حرج كبير لا يعرف كيف يخلص منه، فقد كان جميلاً لديه أن يعطي (يهب) ملك فرنسا، الذي كرَّمه بالكثير من أعطياته، كبرهان على اعترافه بالجميل، إلا أنه كان يخشى أن يخطئ في حق الحكومة الإنجليزية، التي يرعى حقها، لكثير من الأسباب. وفي مثل هذا الاضطراب والقلق، كان يريد أن يجعلني أوافق على واحد من هذين الاقتراحين: فإما أن نعطي مسلة الإسكندرية أي مسلة المطرية، وعدداً كبيراً مثلها تبعًا لاختيارنا، لعزمه على الاحتفاظ بالمسلّتين القائمتين في الأقصر حتى لا نجعل أحداً يغار من الآخر، وإما - إذا كانت فرنسا وإنجلترا تحرصان على أخذهما - أن نعطى واحدة لكلٍ منهما.

« وإني أعرف الباشا تمامًا، وأعرف كيف أتصرف معه. فأعلنت له بوضوح أن أيًا من اقتراحيه لا يعجبنا، وأننا لا نريد مطلقًا أن نتقاسم المسلتين اللتين في الأقصر تتقابلان أو تتكاملان، واللتين لا تقبلان الانقسام. وإني لأجدني أقل رضىً أيضًا، عن فكرةٍ ترى أن أقدّم للملك مسلات ليست إلا التفاهة بجانب الأقصر.

وأجابني محمد علي بقوله:

- إنكم تضعونني في حرج كبير.

- ترى هل يسمح لي سموُّه أن أقدّم الوسيلة المناسبة لإرضاء الجميع.

إذن فإنك تقدّم لي خدمة كبيرة.

- لقد سمحتم للإنجليز بأخذ مسلة من طيبه. فقدّموا لهم مسلة الكرنك المعروفة بأنها الأكبر والأجمل، ويكون الإنجليز فخورين بذلك، وقدّموا للملك فرنسا الذي يعترف بجميلكم مسلّتي الأقصر.

« وكانت هذه الفكرة بالنسبة إلى نائب الملك، كخيط من نور فشكرني على ذلك بأكثر مما أستحق. وبدءاً من هذه اللحظة، سُوّي الأمر وانتهى كل شيء. وهكذا فإن محمد علي سيرجو من جلالة ملك فرنسا التفضل عليه بقبول إحدى مسلات الإسكندرية، ومسلتي الأقصر. وسيقدّم عرضه هذا في رسالة تكتب باسمه إلى سعادتك. وحباً بإنهاء سريع لهذه المشكلة، ولكي لا يكون هناك أي نقاش، الزمته الاستفادة من الزيارة التي سيقوم بها قنصل إنجلترا، بمناسبة البيرم (العيد الكبير) لإعلامه بالهدية التي سيُقدمها لجلالة الملك البريطاني، وأنها ستكون مسلة الكرنك الجميلة. وقد رضي السيد باركر بهذه الهدية نيابة عن ملك بريطانيا، وشكر سموّه.

« والحقيقة أن مسلّة الكرنك أرقى بارتفاعها (علوّها) وبصورة عملها، من مسلّتي الأقصر. غير أن لها ظرفها الخاص بها. إنها موضوعة وسط ساحة، محاطة بأبنية ضخمة، ولابد من القيام بهدم قسم كبير من هذه، ومن الأرجح ألا يهدم شيء منها، من أجل شق الطريق أمامها»[١٧].

وعلى ذلك فإن ميمو استطاع بهذه الحيلة أن يحرم، أو فكّر أن يحرم إنجلترا من مسلّة، وأن يقدم لفرنسا ثلاثًا. ولكن بأيها تكون البداية؟

وبحفز من البارون تايلور، بدى بالحديث عن واحدة من مسلاّت كيلوباترا. ولكن المحاولة أخفقت، والآبدة أهملت وقُدّمت إلى ... الأمريكيين. ويراها الإنسان اليوم منتصبة في الحديقة المركزية Central park في ظل متحف عظيم في العاصمة يسميه الأمريكيون Metropolitan Museum[١٨].

وعندئذ يعود البحث إلى الاختيار الذي اقترحه وفضله شامبوليون. وفي ١٥ / ٤ / ١٨٣١ تحركت الأقصر - التي يقودها Verninac de Saint Maur، من

طولون إلى الإسكندرية - وفي وسع الإنسان أن يتخيل الملحمة بسهولة: إذ يجب أن نصعد النيل حتى الأقصر، وأن نرفع الـ ٢٣٠ طنًا من الغرانيت من مكانها إلى السفينة، ثم العودة مع النهر النازل والدوران حول شبه الجزيرة الإيبرية، واجتياز الخليج، خليج غسكونيا، والوصول إلى الهافر، والصعود مع نهر السين حتى باريس. وربما كان في هذا ما يجعل رمسيس الثاني يهتز هياجًا. وفي يوم ٢٣ / ١٢ / ١٨٣٣. أقيمت المسلّة في ساحة الكونكورد. وعلى سبيل ردّ الإحسان بالإحسان قام لويس فيليب بعد ١٣ عامًا، أي في ١٨ / ٩ / ١٨٤٦ بإهداء الساعة التي ستوضع في المسجد الذي كان يُبنى في ذلك الحين. والذي يستريح فيه اليوم قبر محمد علي.

أما الإنجليز فإنهم كرّروا محاولتهم بعد أربعين سنة. وفي عام ١٨٧٨، تصل إلى لندن، واحدة من مسلتي كيلوباترا، وهي الآن تنتصب في واترلوبريدجWaterlo Bridge(جسر واترلو).

غير أن ملحمة المسلاّت لا تقف عند حدّ هذه المسلاّت الثلاث. ففي كل الأزمنة، كانت المسلاّت رمزًا متميزًا لمصر. وقد حمل آشور بانيبال اثنتين منها إلى نينوا. وهناك مسلات أخرى، وصلت إلى بيزنطة. أما أباطرة الرومان الذين كانوا فرحين بها أكبر الفرح، فإنهم نقلوا منها ١٣ مسلّة إلى روما. ولابد هنا من الإشارة إلى إحداها التي نُصبت في ساحة لاتران Latran«١٩».

أما الشقيقة التوأم، لمسلّة الكونكورد، فإنها ما تزال باقية في مصر. ولعلها تترقب عودة أختها.

وتكملة للرواية، يجب أن نذكّر بأن التنافس بين فرنسا وإنجلترا الذي لم ينقطع أبدًا، يرنُّ مرة أخرى في مجال الزرافة. فقبل أن يصل شامبوليون إلى مصر، كانت جيوش محمد علي قد غزت السهوب السودانية، وعادت مع زرافتين أرسلوهما مباشرة إلى محمد علي. ولما سمع دروفيتي بالخبر، رجا نائب الملك بتقديمهما هدية لشارل العاشر، الذي كان يُعنى أكبر العناية بمعرض وحوشه في حديقة النباتات.

وكشيطان يخرج من علبته، قام قنصل إنجلترا بتقديم الطلب نفسه إلى محمد علي. فوجد هذا نفسه مرتبكًا، كما كانت الحال بعد ذلك في المسلات. إلا أنه لم يترك مجالاً للتأثير والتأثر، وأشار بفكرة الانتقاء باليانصيب. فواحدة تكون لفرنسا وأخرى لإنجلترا. وهذا ما تمّ. إلا أن دروفيتي قال إن الفرنسية كانت قوية، متينة. وأما الإنجليزية فكانت ضعيفة معرّضة للموت السريع. ومهما يكن الأمر، فإن الحيوان ركب البحر - لأول مرة ووصل إلى مرسيليا يوم ١٣/ ١٠/ ١٨٢٦. فاستبقوه عندهم بانتظار الصيف. فصنعوا له، خوفًا من البرد، لباسًا واقيًا من المطر، له أزرار من الأمام، وكان مختومًا من جهة أولى بخاتم محمد علي، ومن الجهة الثانية بخاتم شارل العاشر. وأخيراً، وبعد أن جاء الربيع، قطعت الزرافة، بشجاعة، خلال شهر تقريبًا، المسافة الفاصلة بين مرسيليا وباريس، بمعدل ٢٧ كم كل يوم وفي ٣٠/ ٦/ ١٨٤٧، استقبلت استقبالاً حاراً في حديقة النباتات.

-١٨-

فرعون
والحريّة المدماة

لم تكن فتوحات محمد علي، حتى الآن، سواء أكانت في الجزيرة العربية أم في السودان ، إلا محاولات أو مغامرات محدَّدة. كالقضايا التركية، والقضايا المصرية. وما من مرّة كانت تمسُّ المصالح الأوروبية، أو تطرح مشكلةً ما، على الدول الكبرى ... ولكن الأمر مختلف جداً في المعركة التي سيقوم بها في قلب البيلوبونيز (اليونان). وكانت هذه المعركة الجديدة مثقلة بالانعكاسات، على أوروبا، من جهة أولى، وعلى سادة الصدر الأعظم من جهة أخرى. ذلك أنها - على ما سنرى- تحمل رجل كافالا على القيام بدور مضادّ تماماً للدور الأول، وتجعل منه ذلك العدو للسلطان، لا ذلك العون المساعد.

وكما هي الحال في مصر، فإن اليونان تعيش تحت الجزمة التركية، منذ أكثر من قرنين. ولكن هناك فرقًا واحداً على الأقل، هو أن انفعالية الفلاح ورضاه الدائم بقدر اللّه، ليسا بموجودين عند اليوناني. فمنذ عام ١٧٨٩ ، كانت أصداء الثورة الفرنسية تثير حماسة المثقفين الأغارقة، وتوقظ فيهم الرغبة في الاستقلال. وكان الشاعر قسطنطين ريغا Rhigas، مؤسِّس أول جمعية وطنية هي l,Hetairie (الهيتريا)، يتوقع من بونابرت أن يتدخل بعد انتصاراته في إيطاليا، لحساب اليونان، ولما خاب أمله هنا، كرَّس حياته للعمل المباشر، ضد العثمانيين. وهذا ما أدّى إلى إعدامه عام ١٧٩٨ . لكن النضال لم ينته بنهايته. وفي ٢٥/ ٣/ ١٨٢١ قام

بطرك PatraS جرمانوس Germanos، بإعلان حرب التحرير الوطني، مما أُعقب مباشرة، بمذابح للأتراك في موريه Moree، أُتبعت بمذابح للأغارقة في استانبول . .

وفي ١٢/ ١٢/ ١٨٢٢، قررَّت جمعية النواب الأغارقة في إبيدور Epidaure، استقلال اليونان واختارت كرئيس أعلى له الكسندر مافرو كورداتو Mavrocardato .

واضطر العثمانيون، رغماً عنهم - إلى منح المدن الإغريقية جملة من الامتيازات، وسمحت أو رخّصت لها بتعيين « رؤساء Primats من المذهب الأورثوذكسي، يُنتخبون من المواطنين ويصادقُ عليهم من قبل الصدارة العظمى . وبسرعة كبيرة ، قامت بعض المدن بتجهيز ميليشيات سرّية . وأدّى ذلك عام ١٨٢١ إلى أن تطمح الموريه إلى إقامة حكومة في نوبلي Nauplie، وحولّت المنطقة كلها إلى المقاومة (Maquis) . وهذه تعني مقاومة الجنود غير النظاميين في ثورة ما .

ورأى السلطان عندئذ أن الوقت قد حان لوضع حدٍّ لوقاحة الهيلينيين*، لا سيما أن معركتهم أصبحت تستهوي، أكثر فأكثر، الانتيلجانسيا الأوروبية . ولكن الصدارة العظمى التي أضعفتها الأيام، وأدمتها ، بدت وكأنها عاجزة عن الانتصار . وفي غضون شهر آذار (مارس) ، عام ١٨٢٣ يتجه السلطان محمود الثاني إلى بطله الجديد ليطلب منه قمع الثورة، وقتل المتمردين .

وقد وجد من قال : إن السلطان رأى، ضمنيًا، أن يحاول إضعاف قوى تابعه، بهذه الطريقة . بل لقد وجد من قال إن باشا مصر القديم، خسرو باشا، الذي ردَّه محمد علي إلى الآستانة ليحل محلّه، هو الذي ظلّ يحمل الحقد منذ عام ١٨٠٥، على محمد علي، وجعل السلطان يقحمه في هذه المعركة . ولئن كانت الصدارة

* - نذكر بالمناسبة أن الإسكندر الأكبر استولى على تركيا وسورية ومصر وإيران وأفغانستان، وحتى حدود الهند، وجعلها تحت سيطرتهم مدة ألف سنة .

العظمى تَحسّد، أكثر فأكثر، رجل كافالا، وسواء أكان ذلك في ثورة اليونان، أم في إخماد ثورة الوهابيين، أم في الاستيلاء على السودان، فإن السلطان في الواقع انقاد لحاجات الموقف بالدرجة الأولى.

أما في عيني محمد علي، فإن طلب سيدّه ليس بالأمر الذي لا يثير الاهتمام. وكان محمد علي يتمنّاه لسببين: أولهما أنه كان يرى، بلا ريب، حرب الموريه، مناسبة لكي ينشر أمام العالم قوة جيشه الفتي، ويبرز أمام الدول الكبرى، تفوقه العسكري على قوات الصدارة العظمى. ثم إن نفوذه الخاص، في عيون العالم الإسلامي، سيرتفع حتمًا. أما السبب الثاني - وهو الأهم بلا مراء - فهو أنه يأمل مقابل الخدمة المقدّمة أن ينال الباشوية على سورية، التي يحلم بها منذ مدة طويلة. وحقًا فإنه يقدّم هذه الخدمة، أي قمع الثورة اليونانية، في سبيل تحقيق هذا الأمل.

لكن لوفرني Lauvergne، والسيد صبري الذي وافقه على رأيه، يشرحان ذلك بسبب آخر: هو التزام الباشا بمعونة السلطان. ولما كان، فعلاً، قد لقي العقيد سيف Seve في الموريه، في بداية عام ١٨٢٥، فإنه يسمع آراء هذا الرجل، حول أهداف محمد علي: « فلئن استسلمت الموريه. فسيعامل الأغارقة، على نحو ما يريد باشا مصر. ونحن لا نخفي حقيقة أن ذكاء هؤلاء، أكبر من ذكاء الأتراك وسيكون ذلك هو الأداة الأولى لحضارة العرب (أو لتحضيرهم)، وعلى الرغم من اختلاف الدين، فإنهم سيعاملون كما عامل ملك فرنسا الكاثوليك الروم، والبروتستانتيين.

« وكلّما اتخذ التثقيف، وتذوّق الآداب، جذوراً عميقة في مصر، فإن الباشا سيخفف من هذا التصلب الضروري، لكي يفرض الصمت على عواطف البغضاء؛ وبكلمة واحدة، فإن العصا لن تكون الفزاعة لشعب جاهل وبربري. ومن جهة أخرى، فإن البحارة اليونانيين لن يكونوا منسيين. ومصر بلد خصب بالموارد الأولية؛ وجهلنا إنما ينشأ عن أننا نبيع للتجار الأوروبيين، ما لا نستطيع تصنيعه.

ومتى تحضرت مصر، فإنه سيكون لها معامل للقطن، والنسيج، والجوخ، وستمضي بواخر الأغارقة لنقل منتجاتنا، إلى كل مرافئ الدنيا. وكان محمد علي يحسن تقييم البحارة الأغاريق، كما تقيمّ الموريه نفسها؛ وإني لشبه واثق أنه سيصدر العفو العام، لحسابهم، شريطة أن يأتوا مع أسرهم لكي يقيموا في أرض مصر[1]. »

وفي رأينا أن هذه الفرضية غريبة نوعًا ما. إذ أننا لا نفهم كيف أن رجلاً بوعي الباشا، (وهو يعرف تماماً ماهية الروح الإغريقية، لأنه جاورها خلال كل الطفولة)... يمكنه أن يتخيّل، أن قضية الموريه، ستنتهي بمجرد الاستسلام، وأن الأغارقة، سواء أكانوا بحارة أم لا، سيميلون إلى القيام بخدمة محمد علي وخدمة مصر. أما أنه لا يكنّ أي بغضاء تجاه الأغاريق الذين عاش معهم دوماً، في جوّ كامل من التفاهم، وأنه كذلك خال من كل عصبية دينية، فذلك حقائق أو مجموعة حقائق! ولكنّ ما بين أن يثق الإنسان بالأهداف التي يعزوها «سيف» لمحمد علي، وبين أن يكون هو شخصية ذات فضائل من النوع الذي أبرزناه، لابدّ أن المسافة بعيدة.

وفي المرحلة الأولى. كان الشيء الوحيد الذي يطلبه السلطان محمود من تابعه، هو قمع التمرد في جزيرة كريد.

وفي ربيع العام ١٨٢٣. يرسل محمد علي مجموعة بحرية وعدَّة كتائب إلى كانيه LACanee، فيضبط التمرُّد. فيكافأ مباشرة بالباشوية على كريد. وعبثاً يكون ما غنمه من باشوية، يكافئ ما كلفه ذلك من مال ورجال[2]، ذلك أن الجزيرة، على كل حال، ذات أهمية كبيرة بالنسبة إليه، بالنظر إلى موقعها الجغرافي الاستراتيجي، وإلى التسهيلات التي يمكن أن تُقدّمها له، في حال التدخل المباشر في البيلوبونيز. وهذا تماماً هو الهدف الذي حَدَّده له السلطان. وفي ١٦ يناير (ك٢) ١٨٢٤، صدَر فرمان إمبراطوري يسمِّي محمد علي باسم القاضي على الكفرة (وطبعاً، فإن ذكرى الوهابيين هنا تعود إلى الذاكرة)، ويُكلّفه بإحلال السلام في اليونان لحساب الصدارة العظمى.

وقام رجل كافالا بتهيئة جيش، عَيّن له إبراهيم ابنه قائداً عاماً. وفي ١٧ تموز (يوليو) ١٨٢٤، يترك إبراهيم باشا الإسكندرية، مصحوباً بمعاونه Seve (الذي أصبح خلال ذلك يُسمى باسم سليمان باشا)، ومعه ٥١ باخرة حربية. و١٤٦ مركب نقل و ١٨٠٠٠ رجل و ٨٠٠ حصان. وتمضي هذه الأرمادا باتجاه رودُوس. بغية الوصل بينها وبين الأسطول التركي الذي يقوده «خسرو باشا». أما الحقد الذي يشعر به هذا الأخير فلا يساويه أو يعادله إلا نقص الكفاءة فيه. وبرهاناً على ذلك نقول: إنه عندما وصل إبراهيم إلى نقطة اللقاء لم يكن خسرو قد وصل إلى رودوس. وعلى الرغم من تفوقه، فإنه ترك قواته تُضرب من قبل الرئيس الوطني Miaoulis في قناة ساموس، مما اضطره إلى الاحتماء بمرسى بودرون، عل خليج Cos كوس. وهكذا فإن إبراهيم أضاع ما يقرب من أربعين يوماً للبحث عن الأميرال. ولم يجده إلا يوم ٢٧ آب. ومن المؤسف أنه ما إن تم الاتصال حتى برزت الخمسون باخرة العائدة لمياؤوليس Miaoulis، المسبوقة بالسفن المحرقة التابعة لرجل وطني آخر إغريقي، اسمه كاناريس Kanaris. وبجرأة مدهشة، قام اليونانيون بهجومهم، وأشعل كاناريس النار في باخرة الأميرال، التركي، ثم قام بسرعة البرق، بهجوم على أربعة مراكب أخرى. ولم يجد القبطان باشا شيئاً يفعله أفضل من إصدار الأمر إلى أسطوله بالتراجع، تاركاً الأسطول المصري وحده، في مواجهة الأغاريق. لكن هؤلاء بعد الاشتباكات المتتابعة، يُرغمون إبراهيم على الابتعاد عن الشاطئ، ويمنعونه من النزول إلى البر. ذلك أنه كان في الأسطول المصري، وسيكون كذلك باستمرار، بعض نقاط الضعف: فهو يمخر في البحر دون نظام، ومدافعه مزحومة بالأمتعة، والصناديق وثياب البحارة. وهذه الأشياء، في حالة الاشتباك مع العدو، لا بدّ لها من أن تُفقده الحرية الضرورية للقتال. وأكثر من ذلك، أن امتداد بحريته فوق سطح البحر، امتداداً كبيراً، يرغمه على ترك بعض قطعه دون حماية. فما من شك إذن أن مراكب الأغاريق البحرية الكبيرة المهارة في المناورات، تصيبه بخسائر كبيرة. وهكذا يفقد المصريون خلال سبعة أشهر، بعضاً من أحسن

قطعهم. وأخيراً كانت اللاوحدة والخصومات، مضافة إلى القتال بين الأخوة الوطنيين، الفرصة الوحيدة للقوات المصرية لكي تعبر البحر، والهجوم على اليونان.

وكان الأغاريق خلال هذه السبعة الأشهر قد حرّروا تقريباً أراضيهم (البيلوبونيز). ولم يبق في يد الأتراك إلا مرفآن صغيران أو ثلاثة، أقلها تواضعاً هو مرفأ مودون حيث اختار إبراهيم إنزال قواته[٣]. وبعد عدة عمليات من التطهير وتعرّف أخبار العدو استطاع هذا أن يحرّر في ٢آذار ١٨٢٥ المرفأ المجاور لكورون. وفي ٢٥ من الشهر نفسه، فكّ الحصار عن نافارين التي سقطت بعد مقاومة بطولية في ١٨/ ٥/ ١٨٢٥.

وخلال السنة نفسها. استطاع إبراهيم -المستند إلى الأماكن القريبة من الشاطىء، أي تلك التي استولى عليها هو أو الأتراك. ووضعوها بين أيديهم- أن يتقدم إلى داخل البيلوبونيز. ويوم ٢٣ حزيران، نراه يحتل تريبوليتزا. التي لم تكن إلا رماداً، لأن السكان أخلوها بعد أن أشعلوا فيها النار حيث استطاعوا.

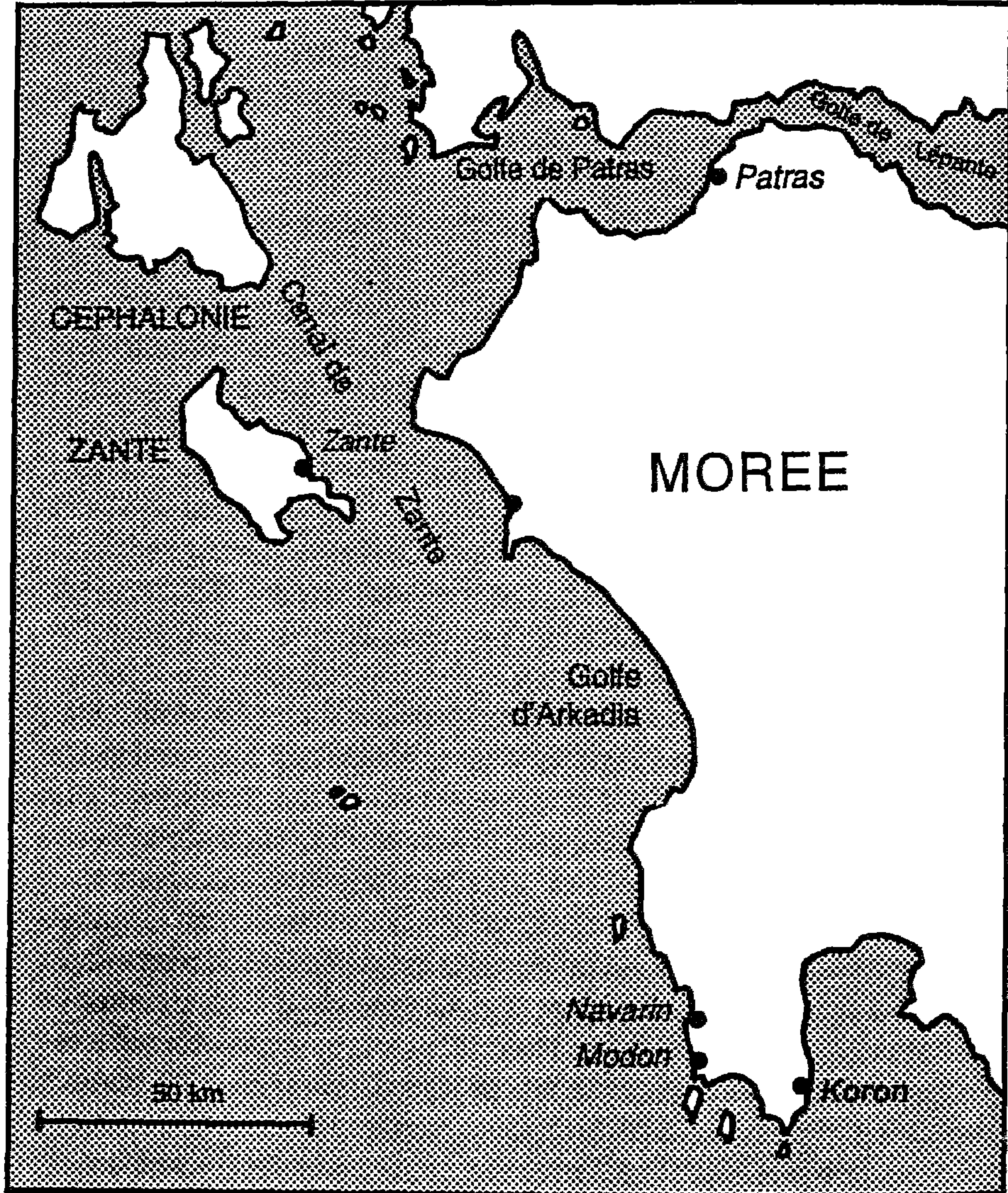
وفي ٧/ ٧/ يمضي إلى الأمام، ويُحلّ السلام في لاكونيا Laconie ويمكن القول بعد ذلك، إننا إذا وضعنا Nauplie على حدة، فإن كل المناطق الهامة أصبحت بين يديه. ومع ذلك فإن كل المنطقة أصبحت مسرحاً لحرب العصابات دون توقف.

وعندئذ يكثر الحديث في كل أوروبا، عن اقتحام الموريه Moree، وعن تهجير كثيف لسكانها إلى مصر. أما Hamont فإنه يترك لنا وصفاً لما حدث، يجعل الظهر يرتجف برداً، إذ يقول:

«إن شبه الجزيرة البيلوبونيز، المعروفة اليوم باسم الموريه، أصبحت أرضاً لمعارك دامية بين الاستبداد والحرّية. وبما يشبه الحتمية الغربية، رأينا الجنود الذين تدرّبوا على أيدي رجال من الشعوب المسيحية أتوا ليحاربوا هذا الاندفاع النبيل لشعب بكامله. ويبدو أن ما يُسمّى بالنظام الجديد، في مصر لم يكن له أن ينشأ إلا

ليخلق عقبات أمام تحرّر سكان اليونان. فكأن اختلاف الآراء الدينية، جعل السيف يُشهر باليد؛ وسُقيت الأرض بالدم، من جهة وأخرى، إما باستقبال الموت أو بفرضه على الآخرين. وكان كل من المعسكرين يدعو إلهه ونبيّه. أما في صفوف المسلمين، فإن هناك إماماً يذكّر المدافعين عن الهلال، بصحة القرآن، واستحالة وجود أي خطأ فيه. وأما في صفوف المسيحيين، فقد جاء مطران أو بطرك ليؤكد للشرفاء الأغارقة، المصدر الإلهي للإنجيل. فمحمد وعيسى، والسيف والصليب، كانت هي الكلمات الموّحدة بين أصناف الناس، وكان هؤلاء جميعاً يذبح بعضهم بعضاً، لأن الفلسفة، على الأرض، لم تقض بعد على تنوّع العلاقات الدينية. و«كانت المدن، والقرى، والأكواخ المحاصرة من قبل الجيوش المصرية، قد أصبحت فريسة النار. وكانوا يقتلون الشيوخ الأسرى، ويأخذون صبيان الأغاريق وفتياتهم ويرسلونهم إلى مصر لإكثار سكان السرايات. وكان إبراهيم باشا يأمر بالقضاء على المسيحيين المسنّين، فيذبحون أمام عينيه. وكانت النساء المخطوفات يرغمن في الطريق على إنجاب مسلمين، ذات يوم. و«قطعت بالمناجل» «٩٠ ألف شجرة زيتون و١٢٠ ألف شجرة تين، بأيدي المصريين، في سهول «كلماتا ونيسيا» وهذا ما كانته نتيجة أولى لنزهات جيش نائب الملك».

وعلى الرغم من أن هامون لم يطأ قط أرض الموريه، وكان دوماً يدين أعمال الباشا، فإن الأمر السائد هو أن إبراهيم باشا، على طول هذه الحرب وعرضها، برهن على وحشية بربرية، في التعامل مع أعدائه. وقد لامه عدد كبير من المؤرخين على تصرفاته الوحشية، كما أن عدداً آخر قدَّروا أنه ما دام المتمردون عازمين على القتال، حتى النهاية، فقد كان لا بد من أن يفعل إبراهيم باشا ما فعله الآخرون. وهناك شيء آخر مؤكد: هو أن محمد علي لم يكن يرغب أن يجري ما جرى في اليونان، وقيل على لسانه إنه قال لابنه «يا بنيّ، قدَّر اللهُ لك النصر. ولكن إذا انتصرت، فليجعلك متحلياً بالرقة: كن عدواً مع أعدائك. أما مع الضعفاء، فكن رحيماً(٤)!».



مسرح العمليات الحربية من ١ إلى ١٨٢٧/١٠/٨

إذا أنا نسيتك، ياميّسولونغي Missolongui:

وتلقى إبراهيم من أبيه نجدةً، فيها عدة عشرات الألوف -فأصبح بحكم ذلك قادراً على القيام بتوسيع عملياته، خارج البيلوبونيز. فيُركب البحر جزءاً من جنوده، وينقلهم إلى خليج باترا Patras، أمام مدينة صغيرة فيها ما يقارب التسعة آلاف ساكن. وكان صيتها قد ذاع منذ ما يقرب من ثلاث سنوات، لا في بلاد الأغارقة فقط، بل في تركيا وأوروبا أيضاً. إنها Missolonghi أي مدينة البراح. ولما كانت مفتوحة على البحر، فإنها تسمح للأغارقة باستقبال كل النجدات التي يكون أهلها بحاجة إليها للإبقاء على المقاومة: كالجنود، والذخيرة، والمؤن.

وقد استطاع أولئك الألفان المدافعون عنها، والذين يقودهم أشخاص من نوع Botzaris[٥] و Mavrocordato أن يُلحقوا بجيش رشيد باشا (الذي كانت له سمعة أحد كبار الألوية العثمانية) عدة هزائم رنانة. وفي ليل ٢٠-٢١ آب أغسطس ١٨٢٣، نجح بوتزاريس بالقيام بهجمة جريئة بقدر ما هي غير منتظرة - على الجيش المرسل بقيادة مصطفى، باشا Scodra، والذي كان عليه عبء الهجوم على اليونان الغربية - ودخل المعسكر التركي بثلاث مئة وخمسين سوليوت إلى قلب المعسكر التركي وملأه بالذعر.

وفي حزيران عام ١٨٢٥، يتقدّم رشيد باشا على رأس عشرة آلاف مقاتل؛ ويقف أمام «مدينة البراح(*)». فيأمر بهجوم، فيتحطم. ولما كانت هجماته الأخرى قد أحبطت فإنه دعا إلى التفاوض. فأجابه المقاومون: إن مفاتيح الساحة معلقة بمدافعنا. وبعد ستة أشهر طلب الباشا، بعد أن ثبطت همته، السماح له برفع الحصار. فأجابه السلطان: إما ميسولونغي وإما رأسك!».

وعندما دُعي إبراهيم إلى النجدة، تولى هو القيادة. ودعم رشيد الذي سيلتقيه من جديد بعد سنين ولكن كعدو في المرة الثانية. ومنذ ٥/ ٢/ ١٨٢٦،

(*) البراح: الأرض البائرة ويقال: الأرض الجرد أي التي لا تنبت شيئاً.

صارت الهجمات ... تتوالى، لتتوقف. ويفهم إبراهيم باشا عندئذ أن الوسيلة الوحيدة للاستيلاء على المدينة، هي شطرها أو قطعها عن العالم. ولكن الوصول إلى ذلك كان يوجب قطعها عن البحر. فوَجَّه كل جهوده نحو الجزيرتين اللتين تحميان المرفأ القديم. وفي ١٤/ ٣، استولى عليهما ومنذ ذلك الحين لم يعد بالإمكان أن تُموَّن البلد.

وبسرعة نفدت المؤن، واضطر المحاصرون إلى الاغتذاء من لحم كلابهم، وأحصنتهم، أو من الحشائش المملّحة التي تكتنف الشاطئ، وتعددت الأوبئة. ولكن اليونانيين العنيدين يأبون التسليم. وكانت السفارات (أو القنصليات) تُتابع، كما هي العادة، تطورات المشكلة، مرسلة صرخات عالية، ولكن دون أن تجرؤ على أي عمل. لكن المثقفين يماحكون. بل إن شاتوبريان نفسه يستاء ويبالغ في الاستياء. ولكن لا روسيا ولا فرنسا ولا إنجلترا، ولا النمسا، تفكر في التدخل عسكرياً لإنقاذ ميسّولونغي: وسراجيفو ليست بعيدة ...

وقيل عن لسان إبراهيم: «إني لأعجب للشجاعة حيث لقيتها». وهكذا فقد حاول إقناع المحاصرين إقناعاً عقلانياً، وعرض عليهم شروطاً مشرّفة بدرجة أو بأخرى ولكنها تُرَدُّ جميعاً.

وأخيراً، وفي ليلة ٢٢/ ٤/ ١٨٢٦، اجتمع القادة العسكريون. وأدّى بهم اليأس إلى محاولة الخروج من الحصار، بالإضافة إلى هجمة ليلية يقوم بها Ka-raiskakis أحد المتمردين، على معسكر إبراهيم.

ويتم الإحصاء. فالمشوّهون، والأطفال، والكهول، والنساء، يُعدّون بستة آلاف تقريباً. وكلهم مجمعون على تقاسم الأخطار، فتألفت ثلاثة خطوط. أما الأول فقد نجح بالمرور من خلال الصفوف المصرية، ولم يفقد إلا أحد عشر رجلاً. وكذلك الثاني، أيضاً. أما الثالث المؤلّف بالدرجة الأولى من الأطفال والنساء فقد كُبح. وتنفتح أبواب ميسّولونغي، ويدخلها الجيش المصري.

وبدأت معركة شوارع في كل مكان. فلما أصبح الصباح وجدت «مدينة البراح» وكأنها مجموعة خرائب. ولم يُوفَّر إلا النساء والأطفال ثم سيقوا إلى مصر. أما بقية الشعب فقد مَرَّ بحدّ السيف. فانتشر الخبر في كل بلاد اليونان، وامتد إلى أوروبا، وشاع حديث المذبحة. فأرعبت بعض الناس، في حين أن الآخرين يستمدوّن منها القرار العصيّ على الردّ، قرار الانتقام لموتى ميسولونغي.

ولنذكر هنا أن هذه المدينة كانت آوت وجهاً أسطورياً هو اللورد بيرون. وعلى مثال أحد الليبراليين الفرنسيين، أي العقيد Fabvier، أقسم بيرون، هو أيضاً، أنه سيساعد معركة الاستقلال. وفي بداية عام ١٨٢٣، أصبح بيرون عضواً في لجنة التحرير المحبّة لليونان، ومنح جسمه ونفسه لهذه القضية، وقدّم لها عوناً مالياً يوازي ١٤٠٠٠ ليرة ستيرلنغ. وفي ٢٣/ ٧، ركب البحر إلى اليونان. وعندما جاء اليوم الثالث من آب، لوحظ الرجل في سيفالونيا (جزيرة كبيرة تقع في الشمال الغربي المقابل لمنطقة موريه) حيث قضى أربعة أشهر في تنظيم حركة التحرير. وفي كانون الثاني من عام ١٨٢٤، وتلبية لنداء مافروكورداتو، قرَّر الإقامة في ميسولونغي للمساعدة على تنظيم اليونان الغربية، وتعهّد المساعدة على توحيد صفوف عناصر حركة التحرير، وكذلك للمساعدة على تنظيم العساكر، ودفع نفقاتها. ولما كانت صحته قلقة، فإنه عانى مجموعة من هجمات الحمّى، ومات يوم ١٩ نيسان ١٨٢٤ وعمره ست وثلاثون سنة. أما اليونان الثائرة فقد أقامت له جنازة قومية وقرّرت إعلان الحداد الوطني لمدة واحد وعشرين يوماً(٦).

ولما كانت قوات جيش رشيد باشا، قد أصبحت حرّة، فقد اتجهت ضد منطقة L'Attique. وفي تموز من عام ١٨٢٦، تبدأ بحصار آثينة، التي كانت قواتها الإغريقية تواجه مرحلة صعبة. وما إن مضت مدة يسيرة حتى اضطرت إلى الاحتماء بالأكروبول.

وكان على الشعب، تجنباً للمذابح، أن يحتمي بالجزر مثل Egine أو Sal-amine وبالمقابل فإن جزيرة هيدرا Hydra احتفظت بوضعها كمركز حسّاس،

باعتباره محمياً بمدافع ساحقة وبمدافع المراكب الراسية في المرفأ الصغير. وستصبح فيما بعد المركز أو النقطة الرئيسة في المعركة القادمة.

ومنذ الآن يرى الباب العالي أنه مرغم على الاعتراف بأن التابع المخيف يملك بين يديه خاتمة الصراع، ومصير الإمبراطورية. ولكن الأهم من ذلك، والأعظم في النتائج هو أن الدول الأوروبية عرفت ذلك أيضاً.

-١٩-

فرعــون وأوروبا

(١٨٢٦-١٨٢٧)

وما إن فُتحت الموريه حتى بدا أن رجل كافالا يقوم على مفجرة للبارود.

ورغبة بفهم جيد للمطبّ الذي وقع فيه، علينا أن نلاحظ الأوضاع من عل، أو أن نُحلّق فوق تموجات اللعبة السياسية للحظة الحاضرة، مهما تكن حالها من التعقيد.

وبينما كانت الأحداث السابقة، تجري بعضها وراء بعض، كانت الديبلوماسية، لأسباب غريبة عن غيرية بايرون، تتحرك لخدمة ما يُسمُّونه بالمصالح العليا للدول المختلفة. وعلى ذلك فإننا الآن على عتبة ما كان يُسمُّونه بـ«المسألة الشرقية».

ففي هذا الثلث الأول للقرن التاسع عشر، لم يكن قد بقي للإمبراطورية العثمانية إلا نفسٌ صغير من الحياة. وكان السلطان محمود الثاني قد بدأ بإصلاحات فيها من الجرأة أكثر مما فيها من العقل. وبذلك غيّض كل المصادر القديمة للقوة العثمانية. وقد نجح، أو قل لم ينجح إلا بإحاطة نفسه بالفراغ، ولم تعد قوته الكبرى، لتستند إلى شيء آخر غير العجز الذي لا دواء له، لدى شعبه. ومن جهة أخرى، فإن الاحتفاظ بالإمبراطورية، كان يحتاج إلى الأتراك. وهذا ما كان ينقصه، فإذا قلنا أن شعب الإمبراطورية يتألف من ١٧ مليوناً من السكان، قلنا أيضاً إنه ليس في هؤلاء إلا ما هو سبعة ملايين من الأتراك، أما الباقي فهو مؤلف من

أغاريق، وأرمن، وعرب، ويهود، وسلافيين. وهذه شعوب لا تربط بينها لا التقاليد التاريخية، ولا الدين، ولا اللغة المشتركة، ولا يشتركون في شيء، إلا في العبودية. إنهم جميعاً شعوب مغلوبة على أمرها، مظلومة، تتطلع تلقائياً إلى التمرد، وتخفي فكرة الحرب المدنية بين أضلاعها، وتعيش في أرض مساحتها ٣٥٠٠٠٠٠كم٢.

ومن البديهي أن مثل هذه الإمبراطورية تقتضي إما السيطرة عليها بالفتح، وإما تقاسمها. ولكن ممَّ تتألف هي؟ أمن مولدافيا والفالاشيا(١)؟. إن الحماية الروسية تغطيهما سلفاً. أم من بلغاريا التي تنتظر أية لحظة مناسبة لكي تتمرد؟ أم من صربيا؟ إنها مسيحية كلها وفخورة بتمرد ناجح، وتريد أن تعيش تحت حماية أمير تختاره هي. أم من جزيرة قبرص؟ إنها لا تستضيف إلا مئة تركي، ضائعين بين ثلاثين ألف إغريقي. أو من سورية؟ وهذه أيضاً مقسّمة بين شعوب مختلطة. ففي المدن الساحلية يعيش المسيحيون. أما في المنطقة الوسطى المجاورة للصحراء، فلا نجد إلا عرباً، وفي الجبال يسكن الدروز والموارنة. أما مصر، فإنها لمحمد علي. تبقى إذن الآستانة. وعلى ذلك، فإنه يمكن القول إن تقسيم الإمبراطورية العثمانية يُلخّصُ في وضع اليد على البوسفور.

ومنذ ٤ تموز (يوليو) عام ١٨٢١، وجّه Nesselrode(٢) وزير الخارجية الروسية بياناً أُرسل إلى الدول، راجياً أن تعلن عن رأيها في مصير الإمبراطورية، ويشير إلى أن القيصر يطلب من المعنيين بالأمر، من الدول الأوروبية طبعاً، الاتفاق على تقسيمٍ كان يبدو له ضرورياً، ولا بدّ منه، وقريباً جداً. وبعد أسبوعين، وجّه مجلس الوزراء الروسي رسالة، يعرض فيها على فرنسا، تحالفها لحل هذا الموضوع. لكن الدوق دوريشليو يطالب بمشروع مشخّص غير غائم. وهذا ما رفضته الوزارة الروسية. أما شاتوبريان فبدا وكأنه من أنصار مذكرة نيسلّرود Nesselrode. ومن سفارته الرومية (إيطاليا)، نراه يدعو وزيره إلى الاتفاق مع القيصر من أجل توزيع عادل، للمقاطعات العثمانية في أوروبا(٣). والحق والواقع معاً، أن كل دولة تحاول، من خلال حجب متعارضة، أن تحصل على القسم الأكبر من الغنيمة.

وروسيا أولاً - وهي قصة قديمة ...

ومن قبل، وفي القرن الثامن عشر، كان بطرس الأكبر قد تصوّرً أو فكّر بالاستيلاء على تركيا. ووافقت كاترين الثانية على ذلك. ثم إن الروس كانوا يقرعون أبواب السراي (يعني أبواب العثمانيين)، بانتظام، بغية أو بأمل فتح البحر الأسود، والسيطرة عليه نهائياً، من أعالي البوسفور، مع مراقبة البحر الأبيض المتوسط من أعالي الدردنيل، وكان ذلك ممكناً. إذ ما من شيء كان يحول بينهم وبين اجتياز هذه العتبة، لولا الخوف من إثارة أوروبا كلها عليهم. ومع ذلك فإنهم قلّما.. انقطعوا عن العمل على بلوغ غايتهم.

ولكي يصلوا إلى غايتهم، كان ينبغي أن يُضعفوا تركيا باستمرار، وأن يثيروا التمرّد عليها في المناطق المسيحية من الإمبراطورية العثمانية، وهم الذين شجّعوا أهالي صربيا واليونان على القتال من أجل التحرّر، بأمل الحلول، محل تركيا في السيطرة عليهم جميعاً. وهم لا يهتمون بتحرير هذه الشعوب إلا بشرط خضوعها لهم، بل إنهم يوافقون على التعامل مع المتمردين، ولكنهم يعارضون استقلالهم الكامل.

والنمسا، ما شأنها الآن؟

إن موقعها الجغرافي يتطلب منها أن لا تكون محاطة بروسيا. ومتى وضع الروس أيديهم على استانبول والدردنيل، صارت مزاحمة سفنهم شيئاً مزعجاً جداً لأسطول النمسا التجاري الذي كان يستغل آنئذ كل تجارة مع الأدرياتيك. وكانت النمسا في أيام ميترنيخ، تحاول تطبيق مبادئ التحالف المقدّس بشكل دقيق، لأنها تخشى العدوى الثورية اليونانية، في داخلها.

وفرنسا الآن، أين هي؟

إن وضع اليد على مضيق الدردانيل، من قبل روسيا، ربما وضع عقبة أمام مطامعها في البحر الأبيض المتوسط. غير أن التقارب الإنجليزي - الفرنسي يشبه في

الصعوبة تحالف الإنجليز والروس، ذلك أن مصالح ضخمة وجوهرية في الشرق، تفصل الأمتين. ثم إن النفوذ الفرنسي في اليونان، إذا أضيف إلى النفوذ الذي اكتسبته فرنسا في مصر، يُرعب الإنجليز، من انقطاع التوازن المتوسطي. وكذلك فإن انتصار مصر في موريه يعني خطراً مضاعفاً مصرياً، فرنسياً معاً.

ومنذ البداية، كانت حكومة شارل العاشر تتعاطف مع القضية التركية - المصرية كما تتعاطف مع القضية اليونانية، ولكن هذا التناقض في السياسة الفرنسية -وهو نقطة الضعف الكبيرة- لن يخطئ ما سيلقاه من انقسام في الرأي العام الفرنسي، لاسيما وأن هذا قد انحاز إلى القضية الإغريقية.

ومن الناس، مثل الكونت جوردان Jourdain، من يحسب أنه يجب، في آن واحد، أن نؤكد الاستقلال المصري، والاستقلال الإغريقي، بغية تقوية مصر واليونان معاً، وأن نجعل منهما نقطة استناد للنفوذ الفرنسي في الأبيض المتوسط. بل إن الكونت جوردان كتب حتى إلى إبراهيم باشا ينصحه أن يستفيد من الأحداث، لكي يعترف بالاستقلال اليوناني، ويعلن استقلاله هو «لكي ينشئ إمبراطورية جديدة، سرعان ما تصبح، واحدةً من أجمل الإمبراطوريات في العالم».

ومن الناس من يقدِّر أنه يجب الاختيار بين واحد من الاثنين فإما مصر، وإما اليونان.

أما بريطانيا، فإنها لا تريد، للأسباب التي ذكرناها آنفاً، لا نفوذ فرنسا في مصر واليونان، ولا إقامة دولة مصرية في الموريه، كما لا تريد تدخل روسيا. ذلك أنها تفقد مع احتلال الآستانة، من قبل الروس، جزءاً من نفوذها في الأبيض المتوسط، ووسائلها في الاتصال مع الهند عن طريق تركيا، وأهمية ممتلكاتها في الشرق، كما تفقد سوقاً مفتوحة للتصدير السنوي بثلاثين مليوناً من الفرنكات تأتي من المنتجات البريطانية، ومن هنا جاءت كلمات اللورد Chatham: «إن رجلاً

لا يرعى مصالح إنجلترا، في استبقاء الإمبراطورية العثمانية، كاملة، ليس لي أن أقبل نقاشاً معه».

وهناك رجلان مدعوان للقيام بدور حاسم في هذه البلبلة، هما: جورج كانينغ Canning، رئيس وزراء بريطانيا وابن عمه ستراتفورد كانينغ، السفير فوق العادة لبريطانيا، لدى الصدر الأعظم.

ويتبع ذلك محادثات ومفاوضات فيها من التعقيد والالتواء ما يوازي بَعضُها بعضاً، مثل: مؤتمرات سان بترسبورغ (٥حزيران ١٨٢٤، و ٢٤ شباط ١٨٢٥)، وضغوط روسية، ومهمة ويلنغتونWellington إلخ..

أما البروتوكول الموقع في سان بترسبورغ، (يوم ١٣ آذار ١٨٢٥) فإنه يقبل مبدأ التدخل الأوروبي في اليونان، بغية إنهاء الأحداث، التي توقع الاضطراب في الشرق.

وفي ١٧/ ٣/ ١٨٢٦، يُوَجّه نيقولا الأول، على غير توقع، إنذاراً دراكونياً إلى السلطان محمود الثاني الذي يجد نفسه مرغماً على قبوله. وهكذا انقاد الأتراك إلى توقيع معاهدة: أكرمان Akerman (تشرين الأول عام ١٨٢٦) التي ترخّص للروس بمزايا تجارية، في كل أرجاء الإمبراطورية، وبصورة خاصة ترخص لهؤلاء «بحماية المولدافيا وفالاشيا وصربيا».

وفي ٤/ ٤/ ١٨٢٦، وقُع فيها على معاهدة إنجليزية- روسية هذه المرة، بين ويلنغتون ونيسيّلرود Nesselrode. وإليكم الآن موادها الأساسية.

«لما كان جلالته قد رُجيَ من قبل الأغارقة للتدخل وتقديم وساطته الطيبة، بغاية الحصول على مصالحة مع الباب العالي، وكان بحكم ذلك، قد قدَّم وساطته إلى هذه الدولة العثمانية، ولما كان يرغب في بحث تدابير حكومته، تجاه هذا الموضوع، مع جلالته الإمبراطورية، المشبعة بالرغبة في وضع حدٍّ للصراع الذي يقوم في اليونان والأرخبيل، وإحلال تسوية تتفق مع مبادئ الدين، والعدالة، والإنسانية، فإن الموقعين هنا قد اتفقوا على ما يلي:

«أن تكون التسوية التي تُقترح على الباب العالي - إذا قبلت حكومته الوساطة المقدّمة - بحثاً عن جعل اليونان تجاه الدولة العثمانية، في العلاقة المنصوص عليها فيما بعد:

إن اليونان تظل تحت إشراف هذه الإمبراطورية، على أن تدفع لها الجزية السنوية» وسيتمتع الأغاريق، في هذه الدولة، بحرية كاملة في الشؤون الدينية، والتجارية، وأن يديروا، هم وحدهم، حكومتهم الداخلية».

وفعلاً، فإن هذا البروتوكول، إذ لا يقيم وزناً لحرية الشعوب، وهي موضوع ثابت للقرن -أو في إنجلترا على الأقل- يُقرِّر مستقبل اليونان، على كونه يسمح للروس والبريطانيين بالتدخل عسكرياً، لإزاحة القوات المصرية الموجودة في موريه.

أما في السنة التالية، فإن إنجلترا تصل إلى كسب فرنسا لوجهات نظرها في الوساطة، وفي التدخل العسكري. وبدأت الدولتان بالعمل على حمل محمد علي على ما يشبه خيانة السلطان. وحول هذه النقطة بالذات، سيحدث كل ما حدث.

ويطلب الكونت جان باتيست فيلليل(٤) Jean Baptiste Villele رئيس الوزارة الفرنسي، من الباشا، عن طريق اللوائين بيليارد وبوييه Belliard et Boyer (وكان Boyer، في القاهرة، على اتصال دائم مع باريس) بأن يسحب جنوده من الموريه، وأن يُعَوَّض عنها بسورية، أي أن باريس تطلب من الباشا أن يتخذ موقفاً يسمح له بالتصالح مع أوروبا. ويحاول Boyer أن يتخلى الباشا عن المعركة التي ضُلِّل بها، لا سيما وأنها تضعف عبثاً، قوته العسكرية الفتية بالإضافة إلى أنه يقف ضد سياسة المسيحية.

وقام ستراد فورد كانينغ -أي سفير جلالته في الآستانة عن طريق سالت، القنصل الإنجليزي في مصر- بالإشارة إلى نائب الملك، بضرورة قبول الوساطة

الإنجليزية بين الترك والأغاريق، وسيعَوِّض عن هذا باستعداد إنجلترا الدعم مطالبة الباشا، بباشوية سورية.

وفي ١٠/ ٦/ ١٨٢٦، يكتب كانينغ إلى قنصله ما يلي: «إذا أمكن أن نفهم نائب الملك بأن مصالحه الذاتية تقتضي منه أن يقبل آراءنا، فإنه ما من شك أن عونه سيساهم في إنجاح مفاوضاتنا، وقد يكون الأفضل بالنسبة إليه، الحصول عى جزء من الجزية التي سيدفعها الأغاريق، وكسب باشوية سورية لحساب ابنه. وهذا أنفع له من الاستمرار في تبديد موارده لقمع شعبٍ مُصرٍ على استرداد حريته، وأنه يجب، في هذا أن يقضي عليه، قبل الاستيلاء على بلاده»(٥).

ومن هذه اللحظة، كان على نائب الملك، إما أن يبقى إلى جانب السلطان في نضاله ضد التمرد الإغريقي، وإما أن يراهن على الدعم التالي للدول الكبرى، ليحقق حلمه السوري. ويصبح هو -ومن يدري-؟ مستقلاً.

ولا يجهل الرجل أن إعلان الاستقلال سيكون عملاً في نهاية الخطورة، لأنه ربما جَرَّه هذا إلى حرب مفتوحة ضد تركيا. ولكن ليست الحرب هي التي يخشاها. ولكنه يكره السلطان، وأكثر من ذلك أن الموقف الذي تبنّاه خسرو في رودوس، ثم في ميسولونغي لم يفعل شيئاً غير الزيادة في كرهه، للباب العالي وحذره منه. فمنذ حرب الجزيرة، صار الرجل يعتبر نفسه كبطل للإسلام، ويخشى أن يُنظر إليه نظرة سيئة إذا هو تمرَّد على السلطان أو إذا هو تآمر مع أنصار المسيحية، تآمراً يحسبه الرأي العام حرباً صليبية جديدة.

وهكذا فإنه أعلن لـ Salt يوم ٢٥/ ٨/ ١٨٢٦، ما يلي: أنه لن يكون لي سر أخفيه عنك «والحقيقة أن لي الآن رجلاً، في ركابين. فكل شيء سيبقى في الميزان، كما هي الحال الآن، حتى الربيع، وإلى أن يحين هذا الموعد، أنتظر أن تقدِّم لي حكومتك مقترحات ترضيني، فإذا هي فعلت، فإنني سأجد دوماً وسيلة ما لسحب قواتي من موريه، وإلا فإنني سأجمع كل مواردي الجاهزة، وسأحصل، بحكم النفوذ الذي أملكه لدى الباب العالي، على قيادة كل الأسطول العثماني، وسأكون على رأسه، وأنتهي من هذه القضية(٦)».

وبعد أن وازن محمد علي بين الـ«من» والـ«إلى»، رأى أن يمتنع عن اختيار معسكر القوى العظمى الغربية، إذا لم تلتزم هذه بحمايته من أي انتقام يتعرَّض له من جانب السلطان.

وفي هذا الوقت، دخلت النمسا إلى المسرح، وكانت تبدو حتى الآن غير مهتمة بالمسألة المصرية، ولا بنتائج التمرد الإغريقي، الذي كان ميترنيخ لا يرى فيه خيراً. وكان المستشار يعتبر أن الطريقة الوحيدة لـحلّ المشكلة التي عقّدتها وساطة مصر وفرنسا، هي عمل سريع وحازم من الجهة التركية، أي من جهة محمد علي، إلا أنه لاحظ بسرعة توقف الأعمال الحربية في موريه، ذلك أن إبراهيم باشا تلقى من القاهرة أمراً بأن لا يُحرك ساكنًا. أما في الواقع، فإن نائب الملك كان ينتظر ضمانات كلٍّ من إنجلترا وفرنسا.

وفجأة يرسل ميترنيخ إلى الإسكندرية، في شهر أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٢٦، ديبلوماسياً متميّزاً، هو السيد Prokesch-Osten أملاً بجعل رجل كافالا ينحاز إلى وجهة نظره، كما تؤكد ذلك مجموعة الوثائق التي أطلع عليها صبري في ڤيينا.

وعرض بروكيش في المقابلة الأولى، للباشا، ضرورة تنشيط الحرب القائمة، ووضع حَدٍّ لها بأكبر السرعة، ولكن نائب الملك، الراغب في الانتظار حتى أوائل الربيع، يوضح أنه مقتنع أن روسيا وإنجلترا، ستتدخلان، منذ الشتاء القادم، بصورة حاسمة، لمصلحة الأغاريق.

وينقل لنا بروكيش أن الباشا يشدِّد اللوم على انفعالية الباب العالي، ويقول: «إني دخلت هذا الصراع كخادم للسلطان، وكنت أريد أن أشارك فيه، ولكن لا أن أدخله وحدي، ولكني كنت مضطراً بحكم وضعي كتابع، أن أبذل كل التضحيات، وأؤجل خططي لخدمة مصر، لأستفيد من النسغ الذي كان عليه أن ينعش هذا البلد. لكن أصحابنا ألقوا العبء كله على كتفيّ، وأخيراً تركوني وحديَ بلا سند. وكم كتبت للآستانة، أو ماذا لم أكتبه لها في هذا الموضوع؟ ولكن كلماتي لم تجد من

يصغي إليها . . إنهم يعارضون عملي، ويشلّون في كل ما أريد أن أقوم به. وكنت أعي تماماً أهمية اللحظة التي تبعت ميسّولونغي. ولهذا فقد قُرّر أن القبطان باشا سيمضي دون تأخير إلى نافارين، ومن هناك إلى هيدرا Hydra، في الحين الذي كان فيه جيشي مرغماً على أن يعسكر في البر أمام هذه الجزيرة، وأن ينقل إليها تهيؤه للهجوم. ولم يكف القبطان باشا أنه لم يف بوعده من هذه الناحية، بل إنه كان سبباً في خسارة هذه المعركة، وفي كل ما قد ينشأ عنها».

لكن بروكيش يتجنب بمهارة، أن يعذر تواني الباب العالي، ويكتفي بملاحظة أن مصر، وقد وُجدت في الوضع المزعج الذي يوجب عليها دخول الحرب، من غير الدعم التركي - سيكون من مصلحتها إنهاؤها، بزيادة العزم، وتسريع الحركة، ويبذل جهده بعد ذلك لدعم صحة أقواله، بأسباب سياسية وتجارية. إلا أن نائب الملك يستقبل هذه الملاحظات بهيئة من لا يُصدق، ويقول: «إني لا أريد إلا مصر، ولا تمضي رغباتي إلى أبعد من هذا. مصر بلد صغير ولكنه من القدرة على الإنتاج، ما يجعله الآن دُرّة، لولا هذه الحرب. ويكفيني عشر سنوات من السلم، لأجني منها أربعين مليون تالاريس، فإن تُركت لعملي، فإن هذا البلد سيتغير تغيراً جذرياً، وستصبح مصر في صف الدول العظمى الأربع في العالم، أي إنجلترا، وروسيا، والنمسا، وفرنسا، وستصبح مصر بأموالها، الدولة الخامسة. وما الذي أجنيه من الموريه وكريد وكل هذه الجزر؟ إن لديّ من العمل في مصر ما يكفيني، ولا أحتاج إلا إلى الهدوء وحرية العمل».

ويُحلّ بروكيش، عندئذ، محل نظرية تعنيف الحرب، نظرية الانتهاء منها، مع مالها من أخطار تعرقل التجارة، كما تدخل حرية مصر، في الحال التي إذا انتهت فيها الحرب، إلى مخرج بائس، فإن جناح الأغارقة يحصل على الاستقلال. ولكي يقطع الباشا الطريق على محدثه، نراه يقول هذه الكلمات: «ولكن إذا كانت إنجلترا لا تريد، فماذا يسعني أن أفعل؟».

إن الخوف من إنجلترا كان هو الذي يَشلّه باستمْرار. وهو الخوف الذي لوحظ عندما طلب منه سالت Salt ألا يمسّ الحبشة. إن ما كان يسكن قلبه هو ملاطفة وزارة سان جيمس. وكانت هذه تعرف ذلك أكبر المعرفة. وفي كتاب أرسله باركر (خلف سالت في الإسكندرية) إلى ويرّى Werey زميله في إزمير، وردت هذه الجملة: «أية قيمة يمكن أن يكون لها معنى سياسي» لصداقة الباشا للفرنسيين؟ وعلى فرض أن هذه الصداقة وصلت إلى أعلى نقطة بحكم عرفان الجميل الذي أثير بالرعاية والاحترام الشخصي، فماذا يمكن أن يكون لها من قيمة؟ وإذن، دعهم ينعموا بسلام من كل فوائد ومزايا حب محمد علي؟ مادمنا نستطيع السيطرة عليه بالخوف؟ وهكذا يجب أن يكون الأساس لسياستنا، وضع قوة إنجلترا الهائلة في كف ميزان، وحب الباشا لعشاقه ومريديه الفرنسيين في الكفة الأخرى، وانظر أي الكفتين ترجح؟»(٧).

وهكذا فإن المقابلات التالية التي حَظي بها بروكيش من الباشا، لم تغير شيئاً من موقفه، أي موقف الترقب، بحيث أنه خلال الأشهر الأخيرة لعام ١٨٢٦، ظل واقفاً في ملتقى الطريقين، أي الانقياد لسيّده، أو التمرد.

ولو أن الباب العالي أقال خسرو باشا، واستغنى عنه بمحمد علي في قيادة الحرب، مع الوعد القاطع بأن سورية ستكون له مكافأة على الخدمات المقدَّمة، إذن لكان من الأرجح أن يصبح مستعداً لبذل أعظم الجهد، في إنقاذ الأتراك من محنتهم بالحرب. ولكنه منذ بداية العام ١٨٢٤، كان يبذل ما يستطيع من الجهد لإقناع الباب بضرورة وحدة القيادة، التي ستؤول بطبيعة الحال إلى ابنه إبراهيم. وإلى جانب الأمل في إزاحة الندّ خسرو، كان ينضاف أيضاً حساب عسكري، لم يكن خالياً من المنطق. ذلك أنه كان يقدّر أن الاختلافات، أثناء العمليات، بين القادة، تنتهي بالشلل. وهو يشرح ذلك، على طريقته، مع نجيب أفندي، الرجل الموثوق لديه في الآستانة، عندما يلومه على أنه لم ينشط كما يجب، لدى وزراء الباب العالي، لكي يشرح لهم وجهات نظره في ضرورة توحيد القيادة. وقد كتب له في رسالة مؤرخة

في ١٣/ أيلول/ ١٨٢٤ : «إنه ليس من شك في أن النجاح لن يتم في القضايا الهامة إذا انقسمت القيادات. أفتكون كلُّ الأسلحة التي قدّمتها مصر، مجرَّد إنفاق وتبديد؟ لا تضعفوا إذن جهودكم، وثابروا، وابسطوا كل ما لديكم من نشاط، لإقناع وزراء الباب العالي بما أقول، إن سلامة الإمبراطورية وشرف اسم المسلم لا يتمان إلا بهذا الثمن[٨]».

وكان على هذا الترخيص الذي انتزعه محمد علي من الباب العالي يحوله إلى مجرد مخدوع.

الواجب أو التمرّد؟

وفي غضون العام ١٨٢٧، يوَجِّه الباشا، رسالة إلى السلطان يوضح فيها أنه يريد الانسحاب من القتال. وفي الحال قام السلطان بلعبة ماهرة، وصبَّ مديحه على شخص تابعه، ورفعه إلى السماء، وقدَّم له كضمان لمودته التي لن يصيبها الوهن، ذلك الرأس الذي طالما رغب التخلص منه أي رأس خسرو الذي أقيل من منصبه، وأحلّ محلّه طاهر بك، الذي يتلقى الأمر بالانتظام في إطار تحكّم نائب الملك. وكان هذا بالنسبة إلى محمد علي نصراً كبيراً. وها هو الآن ينتقل من مجرَّد تابع إلى مستوى السلطان، على قدم المساواة وبدءاً من هذه اللحظة، نراه يتساءل أتكون المكافأة إذن، هي سورية؟

وخرج الباشا من سباته. وبدأ بالنشاط المعروف له بجمع ١٥٠٠٠ رجل، وتنشيط تسليح أسطوله، وتعجيل الترميمات الضرورية للعمارة التركية التي انضمت إلى أسطوله في مرفأ الاسكندرية. وعندما تم ذلك، عيّن لابنه مهمته القادمة في الخليج أي هيدرا Hydra. بيد أن وضعه المالي وضع سيء للغاية، وينقل دروفيتي بتاريخ ١/ ٤/ ١٨٢٧، ما يعني أن هذه الضائقة «أرغمته على الاستدانة من وزرائه، وكبار ضباط بلاطه»[٩].

وفجأة حدث الانقلاب! وتغير موقف الباب العالي. وفي شهر مايو (مايس)، أعيد خسرو إلى الساحة، وعيّن وزيراً للحربية، وكان هذا التعيين حَرِيّاً بأن يُفجّر غضبه. فيستدعي مباشرة دروفيتي، ويصرّح له أنه فقد الثقة بالسلطان، وقرّر أن يغيّر سياسته في القضية الإغريقية، تغييراً لا يعارضُ فيه رغبات فرنسا، ويعلن له أنه جاهز للتعاون، كما يريدون، وأنه يقبل باستقلال اليونان.

ووثق دروفيتي بنزاهة هذا الانقلاب. أما Guilleminot سفير فرنسا في الآستانة، فإن رأيه مخالف لدروفيتي، ويحذر حكومته منه وأنه سيخسر الكثير من كيانه، إذا أعلن السلطان عن قلة وفائه. لكنه يخطئ بقوة، لأنه مذكرة من سالت جاءت تؤكد نيات نائب الملك، وتوضح أن سموّه يشير بإرسال قطع فرنسية وأخرى إنجليزية للقيام باستعراضٍ في ساحل الإسكندرية يرغمه على الانسحاب من الحرب».

وفي نهاية شهر مايو (مايس)، يحَدث نائب الملك الأميرال Rigny بنفس الحديث، وفيه أنه سيكون مستعداً لأن يكون متهماً في عيني السلطان، وأن يفقد سمعته في الإمبراطورية العثمانية، وأن يعدل عن المشاركة في الحرب، ما لم يجبر على ذلك إجباراً، في الظاهر على الأقل، ومن المؤسف أن رينيي Rigny هذا لا يملك شيئاً يُقدّمه مقابل التخاذل الذي أعرب عنه رجل كافالا.

أما الدول الكبرى، فقد رأت أن لا تستعجل الأمر.

وقرّرت فرنسا وإنجلترا وروسيا، باتفاق مشترك، أن ترسل أسطول بحري مختلط، إلى مياه المتوسط. وفي ٦ تموز (يوليو) عام ١٨٢٧، تم الاتفاق في لندن على معاهدة فرنسية إنجليزية - روسية، تعيّن صور العمل البحري. ولئن حدث بعد هذا التحالف، انسحاب مصري من القضية التركية، فإنهم مع ذلك لن يدفعوا أي ثمن لقاءه.

وتبادر روسيا إلى الإيحاء إلى فرنسا لدفع قنصلها لدى محمد علي إلى العمل، أما البارون دو داماس، وزير الشؤون الخارجية الذي نقل إليه دروفيتي،

نيات الباشا، فإنه يكتفي بالجواب بما يلي: إن الاحتجاجات السلمية لمحمد علي تتفق تماماً مع وجهة نظر الحلفاء: ولكن المعاهدة الموقعة والمتفق عليها بين هذه الدول، تضطرها لدى الحاجة إلى معارضة عملياته، في الحال التي يكون فيها نائب الملك في موقف معاد للأغارقة».

وكما نلاحظ، فإن هذا الجواب لا يشتمل على أي وعدٍ لمحمد علي. ثم إن داماس Damas حدّث Guilleminot بهذا الأمر وجعله يفهم أنه حر في إرسال بعض القطع البحرية إلى الإسكندرية لمنع الأسطول التركي - المصري، من الإبحار إلى اليونان» وكذلك لصدّه هو عن كل عون يُرسَل إلى ابنه إبراهيم. وبهذا ينظر بعين الاعتبار إلى رأي Rigny. ولكن Guilleminot الذي ظل غير مقتنع من نزاهة محمد علي، لا يتصرف بالترخيص الممنوح له أو لا يستخدمه، وهكذا فإنه لم يكن هناك أي استعراض بحري فرنسي أمام الإسكندرية.

وناورت إنجلترا أيضاً، فقررت أن ترسل إلى مصر الميجر كرادوك Cra-dock، مع التعليمات التالية: إطلاع محمد علي على قرارات الدول الثلاث فيما يتصل بالقضية اليونانية، أي حمله على فهم الأمر التالي: فإذا هو استجاب لرغبتهم بالتزام الحياد، فإنه سيكون ساراً للجهة الأقوى. أو معرضاً للإخطار في حالة احتدام الصراع. لكن تعليمات لندن لا تشتمل إلا على إشارة غامضة إلى ماصرّح به الباشا لسالت في ربيع ١٨٢٦. وكما فعلت فرنسا فإن إنجلترا ترى أنه يسعها أن تبقي محمد علي على الحياد، بالاستناد فقط إلى العقل، من دون أن تعد بأي شيء، أو تضمن أي شيء.

وفي ٢١/ ٨/ أشار المبعوث الإنجليزي في رسالة سريّة موجهة إلى ستراتفورد كانينغ - أشار هذا إلى آخر لقاء له مع الباشا، وكتب يقول: أن سموّه يتمنى أن يعرف بصورة مؤكدة ما هو الموقف الدقيق للحكومة الإنجليزية، تجاهه في الحال التي يجر نفسه فيها إلى انتقام السلطان».

. لكن إنجلترا لا تجيب. وكذلك فعلت فرنسا . .

غير أن ساعة إبحار العمارة المصرية إلى اليونان، واستعدادها للتدخل في العمليات العسكرية، حملا أصحاب العلاقة على مضاعفة الجهد المبذول لعزل الباشا عن الصراع. ومن إزمير لا يفتأ Rigny يرسل إليه الرسالة بعد الأخرى وكذلك فإن الأميرال كودرينغتون Codrington يكتب إلى سالت بنفس المعنى.

ومن الآستانة، يرسل غيبومينو ضابط بحرية، اسمه Leblanc، إلى الإسكندرية لكي ينصح محمد علي بالوقوف عند حدٍّ التظاهر. وكذلك فإنه أرسل أحد ضباط معيّته، اسمه هودير Huder إلى الإسكندرية في صيف ١٨٢٧ ليعمل في الاتجاه نفسه. ولكن Rigny، وكوردينغتون وغيبومينو guilleminot، يكتفون بالنصائح، والمناشير، والكلمات المنقولة، ولكنهم لا يقدّمون شيئاً محسوساً لنائب الملك، ولا يفعلون شيئاً لإقامة عقبة حاسمة ضد تنفيذ مشروعاته.

وفي يوم ٥و٦ آب، عام ١٨٢٧، وعند الفجر، بدأت العمارة المصرية ترفع المرساة. ذلك أن الدول الثلاث لم تكن قادرة على الاتفاق على تقديم أي ضمان لمحمد علي. ولم تعرف كيف تعجزه عن العمل.

وبعد يومين من رحيل العمارة المصرية، وصل كرادوك من جديد. وقابل بوغوص، ومضى إلى القاهرة. حيث كان الباشا موجوداً، ليشعره بأن على الأسطول المصري أن يعلن الحياد.

وفي يوم ١٩، يسأل الباشا سالت: هل لكرادوك الحق، في إجابتي. . عن أسئلتي السابقة؟ أو هل يحمل اقتراحاً جديّاً؟ فأجاب بما يفهم منه أن لا حق له في ذلك، ولكنه يؤكد للباشا، مع ذلك، أن إنجلترا، إن كانت راضية، فإنها لن تتخلى عنه، ويشير إلى الاعتراف باستقلاله، دون أن يرتبط بشيء. ذلك أنه ليس مأذوناً بذلك. وأخيراً فإن الاتفاق الوحيد الذي تمّ، كلامياً، هو التالي: كرادوك يلحق بسرعة بالأسطول البريطاني، ويطلب من أميرالات المتحالفة أن تكتب لإبراهيم، بعدم الهجوم على هيدرا، لأن القوات البحرية ستعارض ذلك، أما محمد علي فسيرسل إلى أميراله، محرّم بك، تعليمات سرّية، لإعلامه بهذا الاتفاق، وتأمره باتباع التعليمات نفسها.

ويحسب سالت أن مهمة كرادوك قد بلغت الشيء المهم من غايتها. ومع ذلك فإنه يكتب إلى لندن أن محمد علي ينتظر من السلطان أن يهبه سورية ودمشق. ورغبة في القضاء على هذا الأمل، يجب أن نعده بالعون الجاد من الدول الثلاث، في تحقيق مشروعه في تكبير دولته. ولكن ما من جواب.

ومنذ ٣١ آب، سيكون الأسطول الإنجليزي - الفرنسي. الروسي، بقيادة كوردينغتون، قد ألقى مراسيه في مدخل نافارين. ومع ذلك فإن هذا القائد أطلع إبراهيم على الأوامر التي تلقاها هو، أي الوقوف ضد أي تحرك للأسطول التركي - المصري. وفي يوم ٢٢ أيلول، يفعل Rigny ما فعله كوردينغتون.

وتمّت مقابلة جديدة يوم ٢٤ أيلول بين محمد علي وكرادوك وهنا يعد إبراهيم، صادقاً، أنه لن يغادر نافارين. فأصبح كل شيء على ما يرام، وبدا أن الصراع يمكن أن يُتجنب ولكن المقاومين الأغاريق انتهزوا الفرصة، وأرادوا الهجوم على باترا Patras فيغضب إبراهيم غضباً شديداً، ويحتج على ما وقع أمام كوردينغتون وريني Rigny، ويطالب بحرية الردّ على العدوان، فرُفض ذلك عليه.

وكان محمد علي دائم الاطلاع على الاتجاه المقلق الذي تتخذه الأحداث في الموريه فلم يبق له من مخرج إلا أن يحاول تفعيل الآستانة.

وفي ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٢٧ يكتب إلى السلطان هذه الرسالة

«لقد أحطت علماً بأوامر الصدر الأعظم، وبرسائل جلالتك، التي يشرفني أن أكون تلقيتها منذ بعض الوقت، كما تلقيت بعضها حديثاً. ولقد تأملت فيها بأكبر العناية. وما من حاجة إلى القول هنا (ويعرف الوزراء هذا جيداً) أنه سيكون من المؤذي جداً أن نعطي الحرية للأغاريق، وكم تكون خطيرة نتائج مثل هذا التدبير، ويعرف كل الناس - حكومات، وشعوباً، وأمماً - تلك الأجوبة الصريحة التي قُدِّمت، مرات عديدة، إلى سفارات الدول العظمى، من قبل الصدر الأعظم. أما أنا فإني عازم على أن لا أتباطأ أبداً في إنجاز المهمات التي كلفت بها، وأعتبر أن

الانقياد لأوامركم البهية التي تلقيتها، جوهر الواجب نفسه. وأريد أن أفعل ما هو أكثر أيضاً، إن أمكن ذلك، ولكن عندما نأخذ في الاعتبار ظروف الوقت الحاضر، فإنه يمكن تصور إمكانيتين:

١ - إن موقف الدول الأوروبية ليس إلا تحدّياً.

٢ - إن القطع الإنجليزية والفرنسية، الجاهزة للمقاومة، ولسدّ الطريق على الأسطول الذي يريد الهجوم على هيدرا، سيمنع أو يحول دون المعركة فعلاً.

ولئن صحت الفرضية الأولى فهذا أفضل. وسيكون من السهل أن نعمل تبعاً لذلك، ولكنكم تعرفون أن التجربة والسياسة تعلماننا أن علينا، في كل قضية لها مثل هذه الأهمية، أنه يجب التفكير بالظروف السيئة، أكثر من التفكير بالظروف الحسنة، والتأمل بعمق في الأولى من أجل حُسن معالجتها. ولنفرض إذن أن الأساطيل الأوروبية قرّرت أن تعارضنا بحزم، وأن تسدُ المنافذ علينا وعلى الأسطول العثماني لمنع أو تجنب الصراع المسلّح. وأقدّر أنا بفهمي الضعيف، أن قطع أسطولنا... لن تتحمل صدمة القطع الأوروبية، الأفضل تجهيزاً، والأكثر تدريباً. وأنها ستحترق.. أو ستتناثر. وأن الثلاثين والأربعين ألفاً الموجودين فيها لا يمكن إلا أن يهلكوا. وأكثر من ذلك، أن البغضاء والكراهية السياسية والدينية لن تتوانيا عن الانفجار بين الباب العالي والدول المسيحية، وأن اضطرابات خطيرة ستنشأ من ذلك، في البر كما في البحر. وإذن سيكون من المؤكد أن أفقد ماء وجهي لدى محاكمتي.. أمام شعبي، وتجاه الباب العالي وسيقول الناس: «إن محمد علي باشا هو المخطئ، الذي أثار هذه الاضطرابات، وهذه المشكلات».

ولما كان مستحيلاً عليّ أن أكون المسؤول بكل سرور، عن موت الثلاثين أوالأربعين ألف رجل، فقد قرّرت أن من المناسب إقامة اتصالات حاسمة، مع ابني إبراهيم باشا ومع قباطين سفننا، أنه لا يكفي أن نتوكل في كل شيء على الله، في قضايا الحرب، بل يجب أن نفعل ما يمكن أن نفعله إنسانياً، وحقاً فإن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء، ولكن يا أفندي إن الله يقول في القرآن: اصبروا وصابروا وإن

الثبات يقوم في هذه الناحية على تعلم الفن العسكري والبحث عن وسائل لردّ الشر بمثله.

لكن السلطان يجيب بهز الأكتاف على حجج تابعه. وأغلب الظن أنه كان مقتنعاً أن فرصة محمد علي الأولى هي الصحيحة، وأن الحلفاء يخادعون ويمكرون.

ولكن محمد علي يتميز من الغيظ، (إن سوء المزاج الذي ملك على سموه أمره، بعد الأخبار السيئة الآتية من الموريه Moree يبرز في كل أعماله وفي كل لحظة...)(١٠).

وفي ٨ تشرين الأول، يكتب محمد علي إلى ابنه رسالة يلح فيها على تجنب النزاع مع الدول المتحالفة، حتى ولو استوجب ذلك عدم تنفيذ أمر الآستانة، إن كان هذا يعني بدء الأعمال العدوانية، ضد القوات المتحالفة. وكان إبراهيم، في الأصل، يشارك أباه في هذا الرأي، وفي ١٢ تشرين الأول، يكتب إلى الباب العالي، ليطلب تعليمات جديدة.

ولكن السلطان يظل ثابتاً على مواقفه، وفي يوم ٢٧ أكتوبر (تشرين ١) أُخبر محمد علي أن الأمر أعطي لإبراهيم بتحريك قواته، وأن رسالة إبراهيم يوم ١٢ أكتوبر لم تغيّر شيئاً في قرارات الحكومة العثمانية.

وهكذا فإن الأسطولين يقفان الآن وجهاً لوجه.

-٢٠-

فــخ نـافـارين

(١٨٢٧-١٨٢٩)

يتألف مرسى نافارين من خليج كبير ذي شكل بيضوي مفتوح، مياهه عميقة، ويبلغ عرضه ٣٥٠٠ متر من الشرق إلى الغرب، كما يبلغ طوله ٥٥٠٠ متر من الشمال إلى الجنوب. وهو يتسع لأكبر المراكب، ويؤمّن لها ملجأ يحميها من عواصف البحر الأيوني، وهو مغلق برصيف طبيعي طويل، هو جزيرة سفاكتريا Sphacterie، التي يبلغ عرضها ١٠٠٠ متر، وتكون صخورها من جهة المرسى، متراساً، فيه نواتئ من ١٠٠ أو ١٤٠ . متراً وعلى ذلك فإن سفاكتريا لا يوصل إليها إلا من جهة البحر العالي.

أما إبراهيم المضطر إلى تجنب كل عملية ضد Hydra، فقد قصر جهده على تعزيز موقعه على الأرض. وترك عبء التدابير التي يجب اتخاذها ضماناً لسلامة أسطوله، على أميرالييه، وسلم أمرها إلى الفرنسي Latellier الذي كان يقوم يومئذ بوظائف شبيهة برئيس الأركان.

وفي هذه اللحظة، كان مجموع سفن الأسطول التركي المصري، يؤلف هلالاً، عمق مياهه لا يزيد عن ٢٠٠٠ متر، ثم إن الجناحين يستندان إلى حصن نيو-كاسترون، وإلى بطاريات النقطة الجنوبية من سفاكتيريا. أما المركز فإنه يَمرُّ أمام

جزيرة شيلونيا Chelonia. ويرى الإنسان في أقصى اليسار ثلاث فرقاطات هي الإحسانيه والسورية والمحاربة وهذه ترفع علم جناح محرّم بك.

ونجد بعد ذلك ثلاث سفن كبيرة، تأتمر بأمر القبطان حسين بيك علي وهي Gouch I Revan والفاتح والبرج الظافر، وينضاف إليها مركب Livourne أو اللبوة La Leone، وكلها تأتمر بأمر القبطان حسين بك.

أما ما يتبع، فإنه يتألف من بقية الفرقاطات التركية، بإمرة طاهر ومصطفى بك، وترسو أكثر هذه السفن إلى مرساتين، وُضعت في اتجاهات مختلفة بعض الشيء، تبعاً للتيارات، ورتُبت مراكب الحراسة في الخط الثاني بشكل تستطيع معه أن تطلق نيرانها من كوى سفن الصف الأول. أما السفن والمراكب الخفيفة الأخرى فإنها تؤلف صفاً ثالثاً موزعاً بصورة مختلفة.

وأما مراكب النقل فإنها راسية في الداخل من الجهة الشرقية على مقربة من الأرض. وهناك مجموعتان من السفن المحرقة يمكن أن تنطلق إلى حيث ترى أنه يمكن العمل. وقد احتفظت كل هذه القطع بصواريها عالية.

وتتألف العمارة الإنجليزية التي وُضعت تحت قيادة الأميرال كودرينغتون: الأسيا وجنوا والألبيون، وأربع فرقاطات. وكذلك تتألف العمارة الفرنسية التي يقودها الأميرال Rigny من الفرقاطة الأميرالية -السيرين Sirene - والـ Scipion والـ Trident وبريسلو Breslau والـ Armide.

وألحقت بهذه كلها فرقة هيدن Heyden الروسية المؤلفة من أربع بوارج وأربع فرقاطات.

ومن سخرية الأقدار أن الأميرال Cordrington وضع مخطط عمله على أساس أن تقوم الـ Asia والـ Albion و Genoa بمهمة الرقابة على بوارج العثمانيين. وكُلّف الأميرال De Rigny بإسكات الفرقاطات المصرية. وهكذا وبنوعٍ من

الترهيف اللا أخلاقي للأقدار، كلّفت فرنسا، في حالة قيام المعركة، أن تقضي على ما أنشأته بيديها.

وكانت الجهتان تحرصان على تجنب المواجهة، ولكن كلاً منهما تستشعر بأن حدّ التدابير البسيطة للإخافة، قد تم تجاوزه.

وكان على ظهر الفرقاطة المصرية Guerriere عدد من المدرِّبين الفرنسيين. وفي ١٥ أكتوبر قام الأميرال Rigny بتحميل الصيادة، Alcyone رسالة تطلب من هؤلاء أن يتركوا سفينتهم. وقد وافقوا على ذلك، وكتبوا بياناً يحمل التواقيع التالية: Luciani, Le, Maffre Mataire, Reynier, Bompar, Letellier, Dentu d'Isnard, Briand, Chabert. وفي يوم ١٩ أكتوبر في الساعة السادسة صباحاً، ركبوا على ظهر السفينة التجارية النمسوية الـGiacomo وبقي Letellier وحده، في الـ Gerriere ثم تركها عند انطلاق الضربات الأولى للمدافع، على نحو ما تدل عليه الرسالة الموجهة من قبل Rigny إلى وزيره: «إن الضباط الفرنسيين المستخدمين في أسطول إبراهيم انسحبوا من مهامهم على ظهر سفينة نمسوية، باستثناء Letellier الذي لم ير أن الظرف خطير إلى الدرجة التي تحمله على قبول هذا الإنذار. وأنا أعرف أنه كان ما يزال موجوداً على ظهر الفرقاطة المصرية La Guerriere، عندما انطلقت أول قنبلة»(١).

أما رحيل الفرنسيين الضباط فليس فيه من عيب ولا نقد. وقد كتب Mi-maut، عندما حدثنا عما حدث يقول: لقد طُلب من الضباط الجدد أن يقسموا اليمين على أن لا يخونوا أسطول محمد علي، نائب الملك في مصر، وأن يدافعوا عنه حتى الموت.

وطلبت اليمين نفسها من ضباط البحرية الفرنسية الذين يقومون بالخدمة في مصر. ولست بحاجة إلى القول لسعادتك، أن عواطفهم، وكذلك واجبهم، حملتهم على استثناء حالة الحرب مع فرنسا، وأن هذا الاستثناء لم يثر أي ظل من الصعوبات. كانوا يومئذ بعيدين جداً عن افتراض إمكانية حالة متوقعة»(٢). وكان هذا ينطبق تماماً على ما وقع أيام عام ١٨٢٧.

وفي هذه اللحظة، كان يُظن أن كل شيء سيظل سلمياً.

وفي اليوم ٢٠، حول الظهر، كانت العمارات المتحالفة تقف أمام مدخل المرسى، على صورة صفّين (أو عمودين): واحد في الشرق في مهب الرياح، وهو يتألف من البوارج الإنجليزية التي تتبعها الفرقاطات، وكانت الفرقاطة Darmouth من بينها والسفن الفرنسية الخمسة، أما الخط الثاني، فإنه في مهب الرياح أيضاً، ولكن بانحراف قليلٍ إلى الوراء، وهو يتألف من تلك القطع الروسية التي تقودها الـ Azoff.

وقام صهر محمد علي، محرّم بك، مباشرة بإرسال رسالة إلى الأميرال الإنجليزي، طالباً منه العدول عن شروعه في دخول ساحة المرسى، وأجاب كودرينغتون بجفاء، «إنه جاء إلى هنا ليصدر أوامر، لا ليتلقاها».

في الساعة الثانية تجاوزت سفينة أسيا الرأس الجنوبي لسفكتيريا التي لم تطلق أدنى رصاصة. كان مدفعيو الأتراك يدخنون في المنحدر.

وفي الساعة الثانية والعشرين دقيقة، كانت تلقي مراسيها على بعدٍ ما من الـ Guerriere المصرية (من صنع فرنسي)، ثم ناورت إلى الغرب بصورة تجعلها تعارض أو تعترض القطع التركية، وحتى هذه اللحظة لم يحدث شيء يُعكّر الجو. ولكن ما مضى إلا القليل من الوقت حتى انقلب كل شيء، على نحو ما يقوله Rigny لوزيره.

و «كانت الـ Sirene تتبع السفن الإنجليزية. وفي الساعة ٢,٢٥، كان القبطان Robert يجعلها على مقربة طلقة مسدس من أول فرقاطة في الخط التركي، وفي هذه اللحظة كان أحد زوارق الفرقاطة الإنجليزية Darmouth، يقارب واحدة من الحراقات التركية التي كانت الدارموس قد رست بقربها. وهنا سمع صوت طلقة رصاص من بندقية، جاءت من الحراقة، وقتلت الضابط الإنجليزي الذي كان يقود الزورق. وكانت السيرين الـ Sirene جد قريبة من الحراقة التي كان في وسعها أن تغرقها، لو لم يكن هناك من خطر على الزورق الإنكليزي. فما كان من الدارمَوس

Darmouth إلا أن أطلقت كمية من الرصاصات على الحراقة. وفي الوقت نفسه تقريباً، كانت السيرين Sirene تقف وجهاً لوجه أمام الحراقة المصرية «الإحسانية». فرفعت صوتي، بمكبر الصوت، وكلمت رجالها بالفرنسية، لأقول إنها إذا هي لم تصوّب نحوي، فلن أصوّب نحوها، وفي نفس اللحظة أيضاً انطلقت ضربتا مدفع، من واحدة من القطع التي كانت ورائي، في الخط الثاني؛ وبدا لي أن إحدى الضربتين موجهة إلى (الدارموس) التي كانت تطلق الرصاص على الفرقاطة، أما الثانية فقد أصابت وقتلت رجلاً. وحالاً صوّبت وضربت هذه القطعة، وهنا قامت الفرقاطة بفتح نيرانها علينا. وكانت الساعة عندئذ، الثانية والأربعين دقيقة»[٣].

وما هي إلا ثانية، حتى أصبحت المعركة عامة.

وقال Rigny: هذا ما يحصل أو ما يحدث، عندما يغامر أحدهم باللعب مع مدافع من عيار الـ ٢٤. «إن هذه المزحة، التي تتردد باستمرار على الألسنة، صحيحة إلى الدرجة التي لا يمكن الامتناع عن ذكرها، كلما ذكر الإنسان معركة نافارين. ولكن الحق هو أنه كان من الجنون أن نتخيّل أن مشارقةً، فيما عرف عنهم من زهو، كثيراً ما يكون مبالغاً به، يقبلون وكأنهم غير معنيين، بترك أسطول أجنبي يحتقرهم، في حين أنهم كانوا يملكون الوسائل، وعلى الأقل، ما ظنوه كذلك، لإيقافه واعتراضه. وأكثر من ذلك هو أن نتساءل: ما الذي كان يريد الزورق الإنجليزي، أن يفعله على مقربة من الحراقة، إذا لم يكن عازماً على التصدّي والإثارة؟

وهكذا قامت المعركة.

أما محرم بك، وهو على ظهر الـ Guerriere فإنه يأبى أن يقبل القدر، وعلى حين أن المدافع كانت تَزأرُ من كل الجهات، فإن جماعته تستبسل في البقاء صامتة، على أنها باعتراف Codrington كانت تستطيع أن تسبّب له أكبر المشاكل، «ذلك أنه كان لدينا على الأذرع، بقدر ما كنانستطيع احتماله، بالنظر إلى عدد بحارتنا، وكانت مدافعنا الموجودة على الميمنة تعمل بلا انقطاع، وأحياناً كنا نصوّب من الجهة اليسرى

ونكرّ هذا الحبل أو ذاك، شادين على عقدة التثبيت هذه أو تلك تبعاً لما يبدو لنا أنه ضروري للدفاع عن أنفسنا ضد المراكب الأخرى»[٤].

وبعث محرم واحداً من ضباطه ليعلم الأميرال الإنجليزي أنه لن يضرب أحداً. وأجابه هذا بأنه لن يفتح النار على من لا يهاجمه. والواقع أن محرم بك، أدرك بنظرة واحدة، عظم المأساة التي تترقب الأسطول المصري -التركي. وعندما سلك هذا السلوك، كان يحاول الحد من خطورة المأساة، وتبرئة نفسه من المسؤولية. ولكنه كان من الصعب عليه، بل من المستحيل، أن يحمل من عنده على مقاسمته وجهة نظره، وهم يرون إخوتهم يحاربون حولهم ويموتون. ومنذ فترة كان طاقم فرقاطته عصيّاً على الانقياد، ويهتاج بجانب مدافعه. وأرسل كودرينغتون، واحداً من ضباطه، اسمه Dilke، بغية تأكيد حيادهم المتقابل، وما إن صعد إلى مؤخرة السفينة حتى قتل برصاصة وجهت إليه من كوة السفينة، وعندئذ لم يكن هناك من مناص من المعركة.

وبلغ اليأس من محرم بك مبلغاً جعله يقفز إلى زورق ما، ويحمله على إيصاله إلى الشاطئ، وهكذا فإنه لن يكون له شخصياً أي ضلع في الاشتباك الذي طلب سيّده منه أن يتجنبه، مهما يكن الثمن.

واحتدمت المعركة على طول مساحة المرسى. في الحين الذي كانت فيه سحابة من الدخان تغطي نافارين. وكان هذا الدخان من الكثافة بحيث أن الكثير من القطع البحرية المتحالفة، صارت تضرب بعضها بعضاً. وأصبح كل من يريد أن يلقي نظرة عامة، عاجزاً عن القيام بها. وسواء أكانت القطع من جانب أو آخر فإنه كان من أعسر العسير أن يقوم بمناورات للتركيز أو للدعم، وبطبيعة الحال، ما كان لأية قيادة أن تصدر أي أمر.

وعلى ذلك فإن كل قطعة، أو كل طرف، كانت أو كان يحارب لحسابه الشخصي. أضف إلى ذلك أن أكثرية السفن التركية أو المصرية مجمدة بحكم رسوها نفسه.

أما الأسطول العثماني فهو بحكم الظروف، وبحكم التدابير المتخذة في الأيام الماضية، لم يعد يؤلِّفُ إلا نوعاً من التحصينات العائمة التي تحارب وتسقط أجزاؤها بعضها بعد بعض، تبعاً لإرادة الخصم الذي احتفظ هو بحرية المناورة إلى حد كبير.

وتتابعت المعركة، بلا انقطاع حتى مَدّ الليل جناحيه على العالم. وكان المستهدف فيها، كما هو متوقع، والمعرّض أكثر من غيره لأهداف الانتقام، هو الأسطول المصري، لأن قطعه في الحقيقة، هي القطع الوحيدة التي يَسمحُ لها، وضعها في الدفاع عن نفسها. أما القسم الغربي من الخط، فإنه لم يدخل المعركة إلا فيما بعد، أي في الحين الذي تمّ فيه كل شيء.

وتلك القطعة المسماة La Guerriere التي لم تدخل جدياً إلى مسرح القتال إلا حول الساعة الثالثة، وجدت نفسها تحت نيران الـ Asia، وهي على بعد منها لا يتجاوز طولها المتحرك، وهي هدف رائع الجودة. وما هي إلا لحظة حتى فقدت كل صواريها. وحوالي الساعة الرابعة والنصف، نجح ملاحوها المبعثرون بإقامة صارية سليمة، وتركت تجنح إلى الشاطئ الشرقي، حيث انتهت إلى الغرق، ولكن لا إلى مدة طويلة. ذلك أن الريح رفعها عند المساء وجعلها حطاماً، يجتاز المرسى كلّه، ويصل إلى مستوى سفاكتريا، وفي الصباح تفضّل العدوّ وقضى عليها.

وأثناء الليل كله، كانت الحرائق تتتابع، وتزداد من حين لآخر انفجارات العنابر، على حين أن من بقي حياً كانوا يحاولون الوصول إلى الشاطئ بالسباحة.

وعندما طلع النهار بدا أن أسطول محمد علي، الرائع حتى البارحة، والراسي في ساحة المرسى، قد انتهى. ولم يبق منه إلا الفرقاطة Leone وخمس مراكب حراسة وثلاث قلعيات وأربع سفن شراعية. وكانت بعض الوحدات يمكن أن تُرفع وتصلح، خلال الأسابيع التالية، وبعضها الآخر لا يزال صالحاً للخدمة، أما الخسائر الكاملة، فإنها تظل هائلة.

وما من شيء يسمح لنا بأن نقدّر، بصورة جدية، عدد القتلى أو الجرحى. أما عند انتهاء المعركة، فقد تحدث الناس عن ٢٠ ألف قتيل أو ٣٠ ألفاً. ولكن الأسطول بكامله كان يحمل على الأكثر، ١٩ أو ٢٠ ألفاً من البحارة، وأربعة آلاف جندي، والحقيقة أن العدد ٣٠٠٠ الذي أعلن عنه الكومندان ريشار، من Peloarus بواسطة ضابط مصري، فإنه يبدو الأكثر قبولاً. أما عند الحلفاء، فقد أُحصيَ عددُ القتلى ب ٦٥٤ قتيلاً أو جريحاً، منهم ٢٧٢ إنجليزي، و ١٨٤ فرنسي، و ١٩٨ روسي. وكذلك فإن القطع الأميرالية قد أصابها بعض الأضرار، ولكن ما من واحدة منها، أصبحت عاجزة عن القيام بمعركة جديدة.

وكانت هزيمة الأسطول العثماني، تامة. أما البحرية المصرية، الحديثة التدريب، فقد ظهر أنها عاجزة عن مجابهة البحريات الأوروبية بأمل معيَن، صغير أو كبير، في النجاح.

والشيء الغريب، هو أن خبر نصر الحلفاء قد قوبل في السفارات، كحادث وقع في غير ظرفه، وينظر إليه ستراتفورد كانينغ (كقصف الرعد) أو كحادث مذهل. أما البارون (دوداماس) فإنه يكتب إلى Rigny يقول: (إنه ليسعدنا أن تكون أولى طلقات المدافع قد قام بها الأسطول المعادي، ولو أن الأمر غير ذلك، إذن لكانت ورطتنا كبيرة(*)).

والواقع، أن كل المعنيين، باستثناء الروس، وجدوا أنفسهم، وكأنهم وقعوا في الشرك، لأنهم ظلوا يتذبذبون ويخادعون، لا هم وحدهم، بل محمد علي أيضاً. ذلك أن الدول الكبرى لم تعرف أو لم ترد أن تدفع الثمن اللازم لتخلي الباشا عن (معونة السلطان)، وكذلك فإن الباشا لم يجرؤ على المغامرة بسياسةٍ، كان يمكن أن توقعه في خلاف مع السلطان والإسلام.

(*) -من يستطيع أن يقول إن الأسطول المصري بدأ يطلق نيرانه على أسطول ثلاث دول، كلها أكفأ منه.

وعندما سمع محمد علي أخبار الهزيمة (٢ تشرين الثاني، نوفمبر) ظل قوي الجأش، لا يعتريه الاضطراب، على نحو ما يشير إليه بريد في ١٣ كانون الأول بيزوني Pezzoni (وهو موظف قنصلي في الإسكندرية) إلى ريبوبيير (وهو موظف في قنصلية الآستانة):

«حملت إحدى وحدات الأسطول المصري المشارك في المعركة، إلى محمد علي باشا، الذي كان عائداً لتوه من الإسكندرية، رسالة من نافارين، بعد أن عادت منها، كان فيها تفاصيل عما عانته عمارته من القوى المتحالفة، يوم ٢٠ تشرين الأول.

«وعندما قرأ محمد علي هذه الرسالة التي يخبره فيها ابنه إبراهيم، عن كارثة أسطوله، اكتفى بالقول: إنه كان يتوقع ما حدث، وإن معركة من هذا النوع كان لابد منها»(٥).

الرحيل عن موريه:

أما الباب العالي، فإنه بدلاً من أن يغيّر سياسته، بعد نافارين، ظل على عناده السخيف، وكتب محمد سليم باشا، الوزير الأول (الصدر الأعظم) إلى محمد علي لكي يخبره: «أنه ما دام الأمر كذلك، فإن الحرب إذن قد أعلنت، وإذن فلا بد أن يصبح الجهاد واجباً على كل مسلم»(٦).

ولكن لم يعد للباشا من همّ إلا جيشه الذي لم يعد لديه من ذخيرة، وظل محبوساً في الموريه، وهو يفكر أيضاً بالنتائج الخطيرة التي تترتب على مثل هذا الصراع - الذي يعرف أنه غير متكافىء - مع الدول العظمى. ومنذ ٣ تشرين الثاني ١٨٢٧، كان يُحذِّر الباب العالي، قائلاً: (في الحال التي نحن فيها الآن، فإن إعلان الحرب على الدول الثلاث، لا يمكن أن يكون له إلا نتيجة واحدة، هي أن نجعل الثلاث أربعاً أو خمساً. ذلك أن الدول الأخرى التي لم تشارك حتى الآن في التحالف المعادي لنا، ستقول على الغالب: «إن أمام الدول الثلاث، غنيمة يتقاسمونها، على حين أنها لا تحصل على شيء، وتشتد فيها الغيرة. أما رأيي فإنه

سيكون من الأفضل، أن ننتهي الآن بشروط خفيفة، وأن نبدأ منذ الآن بتنمية قوانا في كل مكان، وترك الأيام السيئة التي لم يكن منها بدٌ، تمضي وتتناسى»[٧].

ومن المؤسف أن هذه الرؤية السليمة، لا تغري السلطان، فيظل يكذب ويخادع، كما فعل ذلك دوماً، عن طريق مداعبة غرور نائب الملك، ووعده بالكثير من المزايا والعجائب، في حال وقوع الحرب ضد الأوروبيين. وكان يوجد في سلة الوعود، باشوية سورية بطبيعة الحال، في الحين الذي يحصل فيه إبراهيم علي القيادة العليا لكل مقاطعات تركيا الأوروبية، ولكن محمد علي الذي لُسع سابقاً بقضية خسرو، لا يقع هذه المرة في الفخ. ومنذ الآن فصاعداً، فإنه لن يفكر إلاّ بمصلحته هو لا بغيرها. وكان هدفه المباشر هو اللاتضامن مع الآستانة، والانسحاب من الحرب، بعزة وكرامة، من غير أن يثير غضب السلطان عليه. ولم يكن مخطئاً. إذ أنه يعرف أن عناد الباب العالي لن يؤدّي به إلا إلى الهاوية. وهو يعرف أيضاً أن روسيا تريد متابعة الحرب ضده، بعد تلك المحاولة التي بدأت في نافارين، وفرض سلام الدول المتحالفة. وفي ٢١/ ٣/ ١٨٢٨ يكتب إلى ممثله في الآستانة: «إن الباب العالي يعتمد على تخلي فرنسا وإنجلترا عن روسيا. فإذا نظرت إلى مثل هذه الفكرة نظرة الحس السليم، فسترى أن من المضحك حقاً والمخزي أيضاً، أن نعتقد لحظة واحدة، أنه سيكون لنا بعض الحظ في قهر روسيا والتغلب عليها، على كوننا لم نستطع أن نكون حازمين تجاه الفرس، وعلى حين أن قوة روسية صغيرة تغلبت عليهم، وهدمت مدنهم... إن الحكمة والأناة وحدهما هما اللتان تستطيعان أن تكشفا لنا كم نحن بعيدون عن إمكانية الوقوف ضد روسيا، ومقاومتها»[٨].

وجاء المستقبل، وأعطاه الحق. إذ أن روسيا مصمّمة على مهاجمة تركيا، وكانت وزارة Villele، رئيس الحكومة الفرنسية، تدعم رسمياً استقلال اليونان، وإغلاق الدردانيل، ودعم العمل الروسي. وبالمقابل فإن إنجلترا تعارض هذا المخطّط الذي سيؤدّي إلى القضاء على الإمبراطورية العثمانية، وإلى هيمنة الروس على الآستانة. وهي لا ترغب إلا في تقاسم تدريجي، من دون هزات، تقاسماً يتطابق بصورة أفضل، مع آرائها.

وتقرر روسيا عندئذ أن تنفرد بالعمل. وفي يوم ٢٦/ ٤/ ١٩٢٨، نراها تعلن الحرب على تركيا. ومن الغريب حقاً أنها لم تجد أية معارضة، في الحين الذي كانت فيه أوروبا كلها، لا تفكر إلا في المحافظة على سلامة الإمبراطورية العثمانية. ولكن هل يمكن المحافظة على هذه السلامة؟ ولئن كان من الخير أن تستبقي هذه الأخيرة، فلم إذن تحالفت إنجلترا وفرنسا مع روسيا، للقضاء في نافارين، على القوات البحرية التركية -المصرية، ولتسريع حركة الاستقلال في اليونان، مما يؤدي بالضرورة، إلى تمزيق هذه الإمبراطورية؟ والآن، لِمَ يغلق الأوروبيون عيونهم عن هذا الاندفاع الروسي، باتجاه البلقان؟ إنه إذن ويا للغرابة، ذلك التفكك في الأمراء الذين يحكموننا...

وفي ١٩/ ٧/ ١٩٢٨، اتفقت الدول على إرغام المصريين على الجلاء عن موريه، ولو احتاج ذلك إلى التدخل العسكري. ولم يكن هذا إلا قراراً شكلياً. ذلك أن الإنجليز كانوا هم والفرنسيون، يعترفون باعتدال محمد علي في نافارين. وبالتالي فإنهم مستعدون للبحث عن حل ودِّي.

وعلى كل حال، فإن فرنسا أرسلت إلى موريه بعض القوات العسكرية بإمرة اللواء Maison. وكانت تعليمات هذا اللواء، أن يضمن رحيل المصريين عن موريه. ولكن الذي حدث، قبل أن تكون قواته قد بدأت العمل، هو أن محمد علي عقد اتفاقاً مع كودرينغتون يوم ٩آب - aout في الإسكندرية، يقضي بالانسحاب من الموريه -باستثناء بعض الحصون- وإعادة العبيد الأغاريق الذين خطفهم إبراهيم(٩)، وإرسال بعض القطع البحرية إلى اليونان، لضمان عودة الجيش، تحت حماية العمارات المتحالفة. وهكذا فإنه لم يحدث أي صدام بين قوات اللواء Maison، وبين عساكر إبراهيم. وفي المناسبات الوحيدة التي تبادل فيها الرؤساء المصريون والفرنسيون الحديث على الأرض، غلبت لقاءاتهم اللطيفة، على ضربات المدافع التي تبادلوها، في نافارين. والواقع هو أن الجلاء عن الموريه بدأ في أيلول ١٨٢٨ وفي ١٠ تشرين الأول، عاد إبراهيم إلى الإسكندرية.

وبعد سنة من هذا كله، بدأ الأتراك الذين كانوا في حرب مع روسيا، بفتح عيونهم على الخطر الذي يهدّدهم في وجودهم نفسه، وعندئذ وجّهوا، يوم ٩ أيلول ١٨٢٩، نداء إلى السفراء الأجانب، يرجون فيه، باسم الشفقة أن يتدخلوا لإنقاذ الإمبراطورية العثمانية، من غرق مؤكد.

وفي ١٤ أيلول، كان الصلح الموقع في Andrinople يشبه وصيةً مفروضةً على الإمبراطورية العثمانية. وفيها فرض على الباب العالي في المادة العاشرة، أن تقبل هي مشروع استقلال اليونان[١٠].

وقد حذر محمد علي، خلال الحرب التي قامت بين روسيا وتركيا، حذر كل الحذر من أن يقدم أدنى مساعدة عسكرية أو أي شيء آخر لرؤسائه في استامبول. وقد عرض، في اعتذاره هذا، حججه. وفيها أن جيشه أصبح ضعيفاً جداً، منذ حملته على الموريه. لكن الحقيقة هي شيء آخر، إنه مجروح حتى العظم من التضحيات التي بذلها خلال تدخله، ضد الأغاريق، مثل فقدان قوته البحرية، والنفقات التي حُمل عليها، من دون أية ثمرة، حتى ولا بالوعد الذي يهبه باشوية سورية. وبصورة غريبة جداً، سنرى أن كل حقده سيُصَب لا على الذين قضوا على أسطوله، بل على السلطان نفسه، المسؤول الوحيد، في رأيه، عن الكارثة. وفوق ذلك فهم يأبون عليه باشوية سورية؟ لا بأس إذن، ولكن إذا هم أبوها عليه فإنه هو سيحصل عليها بالقوة.

-٢١-

الفاصل الجزائري

(١٨٣١-١٢٨٩)

لو استعرضنا ما يجول في خاطر الفرعون الأخير لوجدنا أن نافارين أصبحت جزءاً من الماضي، مثل كل الحوادث التي لا بد لها أن تقع لكل إنسان يلعب على مستوى الأعالي.

أما أن الأسطول المصري الذي كونّته الهندسة الفرنسية قد أغرق بسفن حربية فرنسية، فذلك ما يبدو غير معقول أو نوعاً من الجنون. ولكن ليس في هذا إلا ما هو شائع جداً في لعبة الدول. ومن جهة أخرى، فإن محمد علي، بعد الخروج من هذا الإخفاق، لا يشعر بأي ضغينة تجاه فرنسا، وفرنسا هذه تشعر دوماً أنها قريبة منه. وحقاً فإن هناك بين البلدين خيوطاً تصل الطرفين مما يشبه الحلف الضمني، وتعاطفاً متبادلاً. ولكن وفي هذه المناسبة، يشعر محمد علي أنه بحاجة إلى فرنسا ودعمها لكي يحتفظ بإمبراطوريته، ومدّها إلى سورية: ومن جهة أخرى فإن فرنسا بحاجة إلى محمد علي لإقامة توازن بين نفوذها والنفوذ الإنجليزي الروسي في الشرق. وهما لا يتضاربان إلا على نقطة واحدة، ولكنها أساسية. إن الباشا يريد أو يحلم بأن تكون إمبراطوريته مستقلة، بعيدة عن كل وصاية أجنبية، تنتهي، كما يعرف هو، بابتلاعها. أما فرنسا، فعلى العكس، ذلك أنها تريدها تحت وصايتها.

ولكن أين هي حجارة الشطرنج الدولي بعد نافارين؟

أما في الآستانة فإن السلطان خرج من الأزمة أكثر ضعفاً من تابعه. . ولئن انتهت الحكاية بالنسبة إلى نائب الملك، بالجلاء عن الموريه، فإنها، بالمقابل، استطالت بالنسبة إلى محمود الثاني بحرب روسية - تركية وبسلام مجحف.

ولما لم يكن جيش محمد علي قد عانى أية هزيمة، فإنه خرج أكثر قوة من أي وقت مضى. ولكن ماذا نقول عن القوات البحرية ... ؟ إن هناك أسطولاً آخر قيد الإنشاء وسيكون أكثر قوة، وأعظم روعة من الأول. ولكن من سيكون المشرف على الإنشاء؟ إنه سيريزي CerisY أي أنه فرنسا بطبيعة الحال.

وهكذا فإن التابع قد أصبح من الوجهة العسكرية، وأكثر من أي يوم مضى، قادراً على إخافة سيّده. وفي وسعه أن يقطع علاقته جهاراً معه، والانتقام لنفسه من جميع صور الإذلال والغبن التي عانى منها الكثير. ويبقى أن الساعة، من الوجهة السياسية، لم تدق بعد.

أما ما يتعلق بفرنسا، فإنه حدث لديها حادث جديد، ثقيل بالنتائج التي مازالت غير قابلة لأن تلمح، أي القطيعة الديبلوماسية بين باريس، وبين ولاية الجزائر. وأصل هذا شيئان أو مشكلتان - من الوجهة الرسمية المعلنة ظاهرياً - وهما القرصنة، وعدم دفع الاستحقاقات المالية للداي، كثمن الحبوب التي صُدِّرت إلى فرنسا في أيام الديريكتوار (حكومة المديرين). والحق أن كل المشكلة نشأت عن عملية سياسية داخلية، أُعِدت لترفع شأن البوربون وجيشهم، ونظامهم.

ومهما يكن الأمر، فإن التوتر بين البلدين بلغ أعلى مراحله، يوم ٣٠ نيسان عام ١٨٢٧، بسبب. طاردة للذباب، إن لم تكن مروحة. ويبدو أن الداي حسين، وصل به الغضب إلى ضرب دوفال قنصل فرنسا بها، وكجواب عن هذا، طالبت حكومة شارل العاشر بتقديم اعتذار عما وقع. ولم يجد الداي من جواب آخر، غير استقبال مبعوث الملك شارل عندما وصل إلى مرفأ الجزائر على ظهر الـ Provence - وهي قطعة بحرية مسلحة - استقبالاً حافلاً، بضربات المدافع. وعندئذ أصبح من الضرورة، أن تُغسل الإساءة، وانتهازها فرصة للاستيلاء على الدول البربرية، التي

كانت تُشتهى منذ بعض الوقت. ولم يُذكر ساعتئذ إلا اسم محمد علي، ولكن عن طريق من؟ عن طريق دروفيتي.

وفي ١/٨/ ١٨٢٧، أشار هذا المندوب الفرنسي على حكومته بأن ينتدب محمد علي، لهذه المهمة، لأنه يملك جيشاً قوياً وجاهزاً للحرب، ويمكن تكليفه كقائم مقام عن فرنسا، بغزو الجزائر. أما حقوق السلطان على هذه الولاية- وهي نظرية أكثر منها مادية- فلا يسعها أن تقوم كعائق لا يمكن تجاوزه.

وكان الباشا سعيداً بما كُلف به، وبدا مستعداً للقيام بهذه العملية. وكان من قبل قد لـمّح لفيلليل Villele، بمثل هذا، وعرض عليه أن يؤدّب الداي الجزائري، بنفسه هو. ولكن محمد علي ليس بالدون كيشوت. ولم يفعل ذلك عبثاً، بل إنه أراد بتأييد فرنسا هنا، أن يكسب إلى جانبه هذه الفرنسا، عندما يفكر بالاستقلال وبالاستيلاء على سورية.

ويأخذ الأمير De olignac الذي حلّ محل رئيس الوزراء ومعه La Feronays وزير خارجيته بهذه الفكرة: ذلك أنها تستجيب لقناعاته. ومنذ عام ١٨١٤، كان هو أيضاً قد فكر بالوصل بين مشكلة الولاية هذه، وبين ولاية مصر. غير أنه رأى قبل القيام بهذه العملية، أن يُعلم الباب العالي. وفي ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٢٩، أرسل تعليماته إلى الجنرال Gilleminot. سفيره في الآستانة، لكي يحمل السلطان على موافقته على ما سيقوم به محمد علي ضد البرابرة. وفي الوقت نفسه كان يعرض مشروعه على زملائه، وعلى الملك. فعورض من قبل Bourmont، وزير الحربية، ومن d'Haussez وزير البحرية. وقال أحدهم: إنه لا يجوز أن تسلم قطع بحرية فرنسية إلى مصر، وقال الآخر: إن فرنسا لا ينبغي لها أن تنتقم لإهانتها، عن طريق شخص آخر غير مؤهل لذلك. وحاول بولينياك أن يبحث عن حَل وسط، فقال: إن المراكب البحرية لن يُتخلى عنها، بل ستعار فقط، ثم إن فرنسا يمكن أن تشارك في الحملة بعمارة وبأدوات حصار، وبضباط مهندسين. ووافق الملك على هذه الصيغة المعَدلَّة.

وتابع بولينياك عمله في الطريق التي عيّنها لنفسه، وأرسل الكابتين Huder، مساعد Guilleminot إلى محمد علي. وركب هودر البحر من طولون يوم ٣نوفمبر عام ١٨٢٩، ووصل إلى الإسكندرية يوم ١٦. وقابل نائب الملك، الذي يُطلعه على طلباته، مقابل خدماته هذه المتطلبة منه: وهي قرض بقيمة ٤ ملايين تالاري يُرَدّ خلال أربع سنوات، وإعطاؤه أربعة مراكب مجابهة وثمانين مدفعاً، من نموذج حديث. وكل من الطرفين يستوفي حقه، في هذه السوق: محمد علي وقطع بحرية، وممتلكات جديدة. وفرنسا تضمن نهاية قضية الجزائر. وتربح أوروبا القضاء على القرصنة.

وفي كانون الأول من عام ١٨٢٩، تعود المناقشات، لتصبح أكثر فأكثر حدَّة في مجلس الوزراء. وفي ١٩كانون الأول، وبعد مناقشات عنيفة، يتقرَّر مبدأ حملة عسكرية مباشرة ضد الجزائر، من قبل فرنسا وحدها.

وخلال ذلك كان غيومّينو قد جَسَّ المخاضة في الآستانة. أما في الاستشارة الأولى، فإن الباب العالي لم يثر أي اعتراض على عمل الباشا في مصر. أما في المرة الثانية، فإنه انقلب وأعرب عن رفضه، ولكنه اقترح أن يرسل بعثة للمصالحة، لدى الداي في الجزائر. وليس هذا الانقلاب المفاجئ، نتيجة لنزوة، ولا هو مجرد مصادفة، بل إنه ينشأ عن عملية نسفٍ قام بها لدى السيد الكبير، سفير إنجلترا.

وفي ٢٠ كانون الأول، عام ١٨٢٩، يعود هودر إلى باريس حاملاً معه رفض محمد علي لمقترحات Polignac: ذلك أنه يريد أن يعمل وحده، إذ أن التعاون مع دولة مسيحية لا يسمح له أن يبرر سلوكه في عيون المسلمين. وهو لا يقبل عون الأسطول الفرنسي إلا لحمايته هو نفسه، ضد عدوان ممكن. ولم يكن بولينياك رغم كل شيء، يريد قطع المحادثات مع محمد علي باشا. ولدى اجتماع مجلس الوزراء يوم ٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٣٠، يقترح الرجل دفع أربعة ملايين (تالاري)، على عدة دفعات: بحيث تكون الدفعة الأولى سابقة لمغادرة الحملة مرفأ الإسكندرية، والدفعة الثانية متى وصلت إلى طرابلس، والباقي في الجزائر. ثم إنه يقترح أيضاً

هبة بثمانية ملايين، كبديل عن المراكب الأربعة، التي بدأ أن إعارتها أو هبتها، أمر مستحيل.

وفي بيان عام (وزّع في ١٨ كانون الثاني ١٨٣٠). نراه يعرض على سفرائه في لندن، وڤيينا، وبطرسبورغ وبرلين، ذلك المشروع الفرنسي - المصري، في خطوطه الكبرى وكانت ردود الفعل فورية.

فمترينخ معاد لترك العمل لمصر، ضد الولايات البربرية، وتدعم بروسيا النمسا، وتصف روسيا صاحب هذا المشروع بأنه «ذو رؤى» وتراه عيباً تحمله فرنسا، وتدفعها إلى الدفاع عن نفسها بوسائلها الخاصة.

أما الإنجليز، فإنهم يستنكرون المشروع استنكاراً كاملاً. ويضعون أنفسهم مباشرة على مستوى أمن الإمبراطورية العثمانية، وسلامة كامل ممتلكاتها، من حيث هي أشياء خالدة. ويدعون فرنسا إلى حل اختلافها مع الجزائر بنفسها. وكما يقول الجنرال اللواء Boyer: «إن إنجلترا كان في وسعها أن تمنع الباشا من غزو الحبشة، لتدعه يقوم بفتوحات عقيمة في السودان والجزيرة العربية، واستنفاد قواه وخزائنه في اليونان، قبل الضربة المشؤومة في نافارين. وهكذا تبقى السياسة الإنجليزية هي هي في الأعماق، ومتغيرة مرنة في الشكل، وما من لحظة شجعت آراء الباشا. وكانت تتركه يفعل ما يشاء، على أن تحبسه أخيراً في حدود إرادتها التي لاتتزحزح. ولهذا التكتيك ميزته في حمل نائب الملك على إنفاق جزء من طاقاته في الخارج. فإذا هُزم، فإن إنجلترا تجهز عليه: أما إذا انتصر، فإنها ستعمل على اقتطاف أرباحه»(١).

وإذن فإن من الطبيعي أن تعارض كل تحالف بين مصر وبين دولة أوروبية (عظمى طبعاً).

أما في مصر، فإن القنصل الإنجليزي يُفهم محمد علي بوضوح، أن عدوله عن مشروع بولينياك، هو الشرط الأول لسلامته هو. فإن لم يعدل، فإن إنجلترا تعارض آراءه في البحر الأبيض المتوسط، وسورية، والبحر الأحمر، على حين أن سفير إنجلترا في استامبول، مكلف بأن يطلب من الباب العالي صدَّ الباشا عن أية مبادرة.

وفجأة يصرّح محمد علي، للقنصل الإنجليزي باركر، بعد أن يشير بين أشياء أخرى، إلى السلامة الكاملة للسلطنة العثمانية، العزيزة جداً على مجلس وزراء سان جيمس. . بقوله: «إن إنجلترا قوية جداً. . ولقد توقعت منذ مدة طويلة أنني لاأستطيع أن أقوم بشيء عظيم، من دون إذنها. ومهما اتجهت إلى اليمين والشمال، أراها أمامي لجعلي أخفق»[٢].

ولما كان المشروع الفرنسي - المصري، لم يلق إلا المعارضة والنقد، فإن هذا ينفي أي تدخل لمحمد علي، في مشكلة الجزائر.

وفي ٦ شباط عام ١٨٣٠ أوفد بولينياك إلى الإسكندرية أحد الديبلوماسيين هو البارون Langsdroff، في مهمة إعلام محمد علي، أن فرنسا تتكلف هي نفسها بالحملة ضد الجزائر، وتقديم معونة بما يعادل مليون ونصف المليون من القروش، إن هو أخضع ... طرابلس وتونس.

وخلال ذلك، أحيط الباشا علماً بالعروض السابقة، التي حُملت إلى باريس، مع هودير Huder، يوم ٢٠ يناير (كانون الثاني) فقبلها وهو متحمس جداً... وفي اليوم السابق للذي نقل إليه Langsdroff الأخبار الجديدة قطع التفاوض لشدة الاستياء، متنبئاً بأن الفرنسيين لن يصلوا أبداً إلى الجزائر، أو أنهم لا يجرؤن على البقاء فيها، خوفاً من إنجلترا، وهنا أخطأ مرتين.

وفي ١٤/ ٦/ ١٨٣٠، نزلت القوات الفرنسية من سيدي فروّش، على مسافة ١٧كم من غرب الجزائر، واضعة نهاية للسيطرة التي تمارسها تركيا منذ القرن السادس عشر. أما سيطرة فرنسا، فلن تنتهي إلا عام ١٩٦٢.

ويمكن القول، بعد كل حساب، أنه كان من حظ محمد علي أن الأحداث أغنته عن الدخول في هذه المغامرة الجزائرية. وتبعاً لكل الاحتمالات، فإنه لو غامر، على نحو ما قيل له، لوجد أمامه عدداً كبيراً من خيبات الأمل، على حين أنه الآن حرّ في توجيه أنظاره إلى الشرق...

المسيرة إلى الشرق:

وكان واضحاً أن المشروع السوري لم يغادر ذهنه قط. إنه يريد هذه الأرض. ولا شيء يمنعه عن تملكها. وكان يجب على الباب العالي أن يتوقع فقدان الصبر لدى تابعها. ذلك أنه أصدر لتهدئته فرماناً في ١٧ آب ١٨٣٠، يضم فيه كريد إلى باشوية مصر. كإقطاع له[٣]. ولا شك أن محمد علي كان سعيداً جداً بهذه الهدية التي تمنح أسطوله موقعاً استراتيجياً عالياً جداً... ولكن أيكفي هذا التنازل لمكافأة محمد علي على التضحيات التي قدَّمها أيام حرب الموريه؟ إنه يمكن الشك في ذلك، لا سيما وأن هذه الجزيرة ستكلفه أكثر مما تعطيه. وزيادة على ذلك، ومنذ نافارين، كانت العلاقات بين التابع وسيّده تسممت بشكل غريب.

كان نائب الملك يمضغ غضبه وحقده، على أنه لم يحصل على سورية، كمكافأة على العون الذي قدمه إلى السلطان ضد الأغارقة، كما أنه حُرِمَ باشوية عكا ACre... لكن السلطان نفسه لم يكن يحقد عليه بأقل من حقده هو، على أنه وقف مكتوف الأيدي، عندما كان يواجه الروس. ولكن الباب سيُقدّم له، بصورة غير مباشرة، المبرر الذي ينتظره لكي يهاجم سورية. ولكن ما هي هذه السورية، في اللحظة التي كان فيها الباشا يتهيأ لغزوها؟

إن سورية، كانت، على مثال مصر، قد عرفت الغزو العربي، وتتابع الأسر الحاكمة المختلفة، مثل الأمويين والعباسيين والفاطميين والمماليك. ومنذ عام ١٥١٦ (إلى ١٥١٧) أصبحت هي مقاطعة عثمانية، وقسمت ثلاثة أقسام أو ثلاث باشويات، ثم أربعاً وهي دمشق، طرابلس، حلب، وصيدا. وكانت فلسطين تؤلف جزءاً من المجموع.

أما الوضع السياسي لسورية، فإنه يبدو، تلقائياً، مشجعاً لمطامح محمد علي. ويمكن أن نجد في هذه المقاطعة، شعوباً نصف مستقلة، تتمتع بمزايا تقليدية. كالتجمع القائم في المنطقة اللبنانية بحكم سكانها الدروز والمارونيين. الذين كانوا مُوحدِّين، يحكمهم رئيس واحد، هو الأمير بشير الشهابي. ولم يكن من عادات

محمد علي أن يمضي، على عَمَى في حرب قادمة. وهكذا فإنه كان وثيق الصلة بهذا الأمير، بل إنه استقبله مرتين في مصر، أولاهما عندما اضطر الأمير، إلى الرحيل عن لبنان، هرباً من أعدائه المحليين. ومن ناحية أخرى فإن عند البشير ما يجب من دعم في جبل لبنان كله.

وكان محمد علي، منذ عدة أسابيع تحديداً، يجري مفاوضات سرية مع الأمير اللبناني. وما إن علم السلطان بهذه المناورات، حتى رد رداً فيه من القوة بقدر ما فيه من الخرق. إذ أمر باشا عكا، عبد الله بقطع كل العلاقات مع جاره المصري، وكافأه أكثر عندما ولاه على طرابلس. وحرصاً على جمال القصص التي تروي، يقال لنا إن الأمير عبد الله السابق الذكر، تعوَّد أن يُهدِّد رعاياه بفرض ضرائب عليهم، بصورة مضحكة وغريبة معاً، تقوم على إرسال بضائع ناتجة حصراً عن ممتلكاته، كالقمح والصابون إلخ ...، وإرغامهم على شرائها بأسعار عالية وغير معقولة. وعندما يخطر ببال أحد أن يزعجه في شيء، كان يجابهه، آلياً، بهذه الكلمات «إحذر مما أنت فيه، وإلا سأرسل إليك الصابون»(٤).

«وهذا القرار الذي اتخذه الباب العالي في دفع هذا الإنسان إلى رقعة الشطرنج السياسية، يعود بنا، مرة أخرى، إلى هذا النوع من الوقاحة التي تتميز بها الحياة السياسية. وحقاً، فإننا إذا عدنا عشر سنوات إلى الوراء، أي إلى عام ١٨٢٢، وجدنا أن هذا العبد الله نفسه، كان العدو اللدود للآستانة. ولما كان فيه من الغرور ما يكفي ليلعب لعبة المتصرين الفاتحين، فقد غامر بعملية تهدف إلى وضع اليد على باشوية الشام. ولكي يحقق مآربه، قسّم أمراء المنطقة، وسبّب الاضطراب، بدرجة حملت السلطان الذي أحيط علماً «بسفالاته» على تحريك مجموعة من الباشوات إلى عكا، مع أمر بحمل رأس هذا المتمرد إليه. وهكذا عاد الرجل إلى مدينته عكا Saint-Jean- d' Acre، لكي يهزم كل الحملات الموجّهة إليه، وهو واثق من تفوقه المطلق. وبرهاناً على ذلك، فإن كل السرايا المرسلة ضده، كانت لامعة جداً في عدم كفاءتها، وكان يعرف أنه محميٌّ بالحصون الشهيرة، أي تلك الحصون التي ردَّت فصائل بونابرت الكبير.

ومن المفارقات الكبيرة أن الأمور لم تنتظم هناك، إلا بعد تدخل محمد علي، إما لأنه قدّم، وإما لأنه عرض وساطته، ففاوض الآستانة على العفو عن عبدالله، وحصل على قرار بإعادة باشويته إليه، لقاء دفع نفقات الحرب كغرامة، قيمتها ٣٠٠٠ بورصة (٧٥٠٠٠٠ فرنك في ذلك العصر). واليوم وبعد عشر سنوات، كان هذا الشخص هو الذي عيّنه السلطان كدرع الأمان له، بل وكسيف يشهره ضد مصر...

وسرعان ما أصبحت عكا مركزاً للتآمر ضد السلطة في مصر. ولم ينقطع عبدالله عن تشجيع الهجرة لدى المتمردين المصريين، وتأمين العيش لهم، والتعهد بحمايتهم. وفي عام ١٨٣١ هاجر أكثر من ستة آلاف من الفلاحين إلى عكا، بحمايته هو(٥).

وإذا شكا محمد علي أمر هذا الرجل إلى الباب العالي، أجيب: «إن الفلاحين المصريين هم من أفراد الإمبراطورية وليسوا عبيداً لحاكم مصر». «وأنه لحلال لهم أن ينتقلوا إلى أي مكان يطيب لهم». وأجاب هو مباشرة: «في هذه الحال سأستعيد فلاحيَّ الستة الآلاف+١!». وهذا إعلان للحرب لا يكاد أن يكون متنكراً. كل شيء إذن جاهز. إذ أن نائب الملك أعدّ كل شيء، وتنبأ بكل شيء وعلى ذلك فإن النجاح لم يعد يتعلق إلا بحسن التنفيذ.

ولقد رأى الناس، من خلال إرادته الثابتة في فتح سورية، أنه عازم، لا على إنشاء إمبراطورية فقط، بل إمبراطورية عربية تماماً، إذا أردنا الدقة في الكلام. ولنقل الأشياء على حقيقتها، فوراً: إن هذه النظرية قد دعمت من قبل مؤرخين شديدي التعلق بالعرب والعروبة. ولا شك أنهم أغروا بفكرة جعل... الباشا رائداً للحركة العربية الشاملة، التي اتخذت أكبر حجم لها في عهد عبد الناصر. ومع ذلك، وعلى الرغم من أننا في إطار حكم بهذا الطول، وبهذه الحركة، يمكن للإنسان أن يجد عناصر تدعم هذه النظرية، فإنها لا تبدو مما ينسجم مع عقلية الباشا. ويبدو

لنا أيضاً أنه كان خاضعاً دوماً لنفس الضرورات التي خضع لها سابقوه، أي حسن معرفة أبعاد حدود مصر، لكي يحميها بشكل أفضل من الهجمات الخارجية، على نحو ما فعل، في المرة الأولى عندما استولى على السودان.

ومنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، كان غزو الهكسوس يُفهم المصريين أنهم ليسوا وحدهم على هذه الأرض، وأن الصحارى التي تحيط بوادي النيل لا تجعلها عصيّة على المعتدين. وهكذا فإن هجمات كثيرة أو حملات عسكرية ضخمة، إنما شُنت، في عهد الأسرة الثامنة عشرة، بقصد الدفاع، لا بقصد الفتح، وامتدت إلى الشرق عن طريق سورية حتى ضفاف الدجلة والفرات، وإلى الشمال، عن طريق كيليكيا، حتى بلاد الحثّيين، والأناضول الحالي. غير أن هناك أيضاً مبرراً آخر، أكثر حسماً، على نحو ما ترويه السيدة دوروش نوبلكور Desroches Noblecourt عندما قالت: «كان الأمر يتعلق بمعرفة من يقدم لبلده المكانة المهيمنة الأولى بين الدجلة والفرات، وبين البحر الأبيض المتوسط، حتى يصبح السيد الأول في المبادلات التجارية. وهذا ما يرفعه بحكم الواقع إلى مستوى القوة العظمى في ذلك العصر(٦).

وعلى مثال تحتمس ورعمسيس Thoutmosis, Ramses فإن الضرورات السياسية، على ما يبدو لنا، هي نفس السياسة التي تحمل محمد علي على وضع قدمه على درجات الشرق». وكانت الدولة العثمانية في أيامه، شبيهة بالكونفدرالية الحثية سابقاً.

ولئن التزم، في القضية اليونانية، بالوقوف إلى جانب السلطان، فذلك لأنه يأمل أن يحصل على سورية كهدية تقابل خدماته، ولأنّ وضعَ اليد على سورية سيسمح له بالوصول إلى الغاية المحببة، غايته هو، أي ضمان الأمن لحدوده، ووضع دولة فاصلة (أو مجرد فاصل) بين مصر والآستانة.

وفي أول تشرين الأول، كانت القوات المصرية جاهزة للانطلاق. إلا أنها جُمّدت بانتشار وباء الكوليرا (أو الهيضة) الذي يغزو البلاد، ويكشف لنا Cerisy (سيريزي) عن خطورة المرض في رسالة مؤرخة بيوم ٢٠ تشرين الأول ١٨٣١ «إنها

لحياة غريبة أن يُرغم الإنسان على البقاء سجيناً خلال شهر كامل، وأن لا يجد حوله إلا موتى أو مشرفين على الموت. ولقد فقدت مصر خلال شهر آب أكثر من ١٢٠ ألف إنسان. أما في القاهرة فإنه كان يموت في اليوم الواحد أكثر من ألفي إنسان ...)[٧].

وعندما توقف المرض، مضى جيش يتألف من خمسة وعشرين ألف جندي تقريباً، يقوده إبراهيم الذي صحبه الصديق الوفي جوزيف سيف. وتحرك باتجاه عكا Saint Jean d'Acre.

-٢٢-

على خطا بونابرت

(١٨٣١-١٨٣٢)

ومض القسم الأكبر من الجيش، في أواخر شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٣١ . وكان يقوده إبراهيم آخر هو إبراهيم يكن الملقب بالصغير، حتى لا يُخلط بينه وبين ابن محمد علي .

أما إبراهيم «الكبير» فإنه يركب البحر إلى يافا على متن الفرقاطة كفر الشيخ . وكان يصحبه Seve . وكان جيشه، متبوعاً بفرقة بحرية تتألف من كورفيت واحدة، وثلاث بريكات(*) أما بقية العمارة فإن عليها أن تلحق به فيما بعد، إلى عكا .

وبعد نابليون، أي مع فارق قدره ثلاث وثلاثون سنة، قام ابن محمد علي، بطلب النجاح حيث أخفق الكورسيكي .

ووصلت قوات إبراهيم (الصغير) إلى غزة يوم ٧ نوفمبر، واحتلتها في المساء نفسه . وفي اليوم العاشر، اتجهت هذه القوات إلى يافا . ولكن المدينة قد سقطت من قبل في يد إبراهيم «الكبير» ولم يكن في ذلك أي خطر . ذلك أن الحامية التركية، ما إن علمت بوصوله حتى ركبت رجليها، ومضت تحتمي بالقدس . وفي ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر)، تجمعت أطراف الحملة العسكرية لتمضي باتجاه حيفا، التي سقطت

(*) الكورفيت Corvette، تترجم أحياناً إما بمركب حراسة وإما بسفينة حربية . والبريك Brick، تسمى إما سفينة شراعية، وإما قلعية (شراعية) .

دون أية مقاومة. وعندما مضت الأيام الأولى من كانون الأول (ديسمبر)، وقفت القوات أمام عكا.

ويعزو أكثر المؤرخين خيبة بونابرت، أمام هذه المدينة، إلى أنه لم يكن على علم موثوق بنوع حصونها، وبالتالي فإنه قلّل من قيمة المقاومة. وهذا صحيح، ولكن من جهة أخرى يجب القول، إن نابليون لم يكن رجل حصار، وكان يفضل أكثر ما يُفضل، المساحات الواسعة التي تنسجم مع عبقريته العسكرية.

وبدت المدينة الممتدة أمام عيني إبراهيم وكأنها لم تتغير في شيء منذ عام ١٧٩٩، إنها تقدم دوماً شكل خماسي غير منتظم، ثلاثة جوانب منه تسبح في الماء، أما الجانبان الآخران الأفضل تحصيناً فهما يؤلفان الجبهة الأرضية، وحولها جميعاً خندق عميق نسبياً. أما الجانب الجنوبي فإنه محميٌ بثلاثة أبراج محصّنة. وأما الجانب الشمالي فإنه محصّن بأربعة. وهناك بابان فقط يسمحان بالوصول إلى الساحة: «الباب البحري في الطرف الأخير من المرفأ، وباب المدينة.

أما المرفأ فإنه محميٌ بحصن قائم على جزيرة، وهو مسبوق بسدٍ، وبخط من المنخفضات. وتتألف المدينة من جملة من البيوت الحقيرة المبنية بالحجر، يعلوها سقف مصنوع هو أيضاً من التراب، أو على شكل قباب، ومخلوطة بحمّامات وأسواق وخانات. وما من شيء يستحق النظر إلا الجامع المزيّن بأعمدة رائعة من الرخام السماقي، تعلوه قبة أنيقة.

وكانت الحامية تتألف من ثلاثة آلاف جندي، أكثرهم من الألبان. ويحميها ضابط ذو وزن اسمه خورشيد بك، يحيط به مهندسون ومدفعيون أوروبيون، لكل منهم نفس الكفاءة، وبحكم توجيهاتهم وإدارتهم لا يجوز أن يكون هناك أي هدر. أما البارود والمدافع، فإنها لن تستخدم إلا بعلم ودراية.

وفي اليوم الثامن من كانون الأول عام ١٨٣١، صباحاً أمر إبراهيمُ بالهجوم، وخلال عشر ساعات، كانت المدينة تقذف بالمدافع قذفاً عنيفاً: «وقامت فرقاطتنا وحدها - على ما يقول مقدّم «الجعفرية» - بإطلاق ما يزيد عن ٣٠٠٠ قذيفة، منها

٢٠٠٠ على الأقل، أصابت جدران الحصون ولم يكن لها من شأن غير إحداث ثقوب في هذه الجدران، دون أن تهز فيها شيئاً[١] ... وهذا يعني أن القصف كان أقرب إلى العنف منه إلى النجع. وعلى الرغم من النشاط القوي للأسطول، فإن المصريين لم يصلوا حتى ولا إلى إحداث ثغرة في الحصون، وهكذا فإن عشرة أيام انقضت، كلها هجمات وقصف بالقنابل، ولكن من دون طائل.

وكان السلطان في الآستانة، يُكثر من التهديد، ولكنه مع ذلك بدأ محاولاته للوصول إلى حل وسط (أي إلى حلٍّ لا على التعيين).

ويكتب البارون دو فارين de Varenne، القائم بأعمال السفارة الفرنسية في العاصمة التركية، بتاريخ ١٠/ ١٢ / ١٨٣١ ما يلي: إن الباب العالي يضع على حدّ سواء، المعتدي والمعتدى عليه، ودبّر لنفسه وسيلة للتعايش مع محمد علي، فإذا لم يكن هذا الأخير، راغباً، بأن يكون مستقلاً، ففي وسع هذا الباب عند الحاجة أن يترك له سورية، بدون أن يُظهر أنه تراجع عما كان يقوله[٢].

ويصل، في هذا الوقت، إلى الإسكندرية، أي في يوم ٢٨ كانون الأول ١٨٣١، مبعوثو محمود الثاني، وقد استقبلهم نائب الملك، وصرّح لهم بأن: «ابنه هو في سبيله إلى الانقضاض على الحصون في عكا. وليس في وسعي أن أستدعيه، من غير أن أنقذ شرفي وشرفه. ولكن متى سقطت المدينة، فإني مستعد، بعد أن أعاقب خصمي عبدالله، لإعادة وضع الحصون بين يدي السلطان. وفي وسعه أن يستخدمها كما يشاء[٣].

وعندما نُقل هذا الجواب إلى الآستانة، فإنه لم يزد على أن يسرّع الخطا الضرورية، للقيام بهجوم معاكس تركي. ذلك أن والي حلب، ووالي طرابلس، ثم دمشق، ثم القدس، والقيصرية Cesaree، يتلقون الأمر باستدعاء المواطنين للخدمة العسكرية، وجمع الحشود، للانقضاض على جماعة محمد علي، ومساعدة عبدالله. وجُعلت.. حلب مقراً للتلاقي بين مختلف القوى.

وكان هناك رجلٌ واحد، قد نهض، ولكن لا لإعانة الباب بل لمدّ يد العون إلى إبراهيم. والرجل هنا هو الأمير بشير الشهابي. وكان عونه متوقعاً. فيستقبله

إبراهيم أحسن استقبال، ويستفيدُ منه في معرفة المنطقة، ضماناً لحسن تموين الجيش. وهذا ما حمل كدالفين Cadalvene وبارو Barrault (باروّ) على كتابة مايلي: «إن الأمير بشير.. في معسكر إبراهيم، يعني أن سورية هي التي تقع بين أيدي المصريين».

بيد أن هذا الدعم لا يغيّر الوضع في أي شيء. ومن هنا جاء تعليق قنصل فرنسا في الإسكندرية، الذي يقول فيه: «إن الظن الذي جعل الجيش يتقدّم، والذي دعا إلى الاعتقاد بأن عكا ستسقط كما يسقط بيت مهمل، هو أحد الأسباب التي ساهمت في تطويل عمر المقاومة، إلى هذا الحد.. لقد ظنوا إن قضية الحصار مثل أية معركة، وأن وجود عمارة بحرية جيدة، وجيش منظم أحسن التنظيم.. يُعوضان عن حسابات العلم. وأن السمعة العسكرية لإبراهيم باشا، ستكفي للتغلب، على كل العقبات. وسيبدو هذا الوهم معقولاً، إذا نحن تذكرنا أنه كان أيضاً وهم بونابرت، الذي اعتقد أنه سيقضي على عكا في أيام قليلة. إنه كان لهذا اللواء العظيم، على أقل تقدير، وباستثناء المدفعية الضخمة التي حرمته منها مصادفة بائسة، ما يضمن له نجاح أي عملية من هذا النوع في المعدات والرجال، كان له ضباط مهندسون ذوو مزايا كبيرة. ولكن مدير أعمال الحصار الذي بدأه إبراهيم، كان مهندساً إيطالياً لم يكن له في الماضي أية قيادة من هذا النوع[٤]».

وتمرُّ الأيام، ويأتي الشتاء السوري، فيلغم الجيش المصري من الداخل، وأخيراً قرّر إبراهيم أن يكتب لأبيه ليطلب منه إرسال مهندسين أكفاء، ورجال مدفعية. لأنه شعر بعدم جدوى هذه الهجمات المتكررة. ومن جهة أخرى فإنه أدرك أن عمل الأسطول أصبح بلا جدوى، فأمره أن يعود إلى الإسكندرية، وسيستفيد منه لإصلاح الأضرار التي أصابته.

واستجاب محمد علي، مباشرة، لطلبات ابنه. وأضاف إلى الأسلحة والذخائر، ضابطاً من نابولي، وهو عقيد في الجيش كمرتبة، ومهندس كشهادة وعمل. وقد سبق له أن قدّم براهينه لدى حصار ميسولونغي: وهو العقيد

«روميي». وفي ٢٣ كانون الثاني ١٨٣٢، غادر Romei الإسكندرية، مصحوباً برجل من كورسيكا، هو السيد Albertini، وآخر من البييمونت (الإيطالية)، فوصلوا إلى معسكر إبراهيم في ٢ شباط (فبراير). وما إن وصلوا حتى أخذوا الأمر مأخذ الجد. وغيّروا التدابير التي اتخذتها المجموعة السابقة.

وخلال ذلك نشر الباب العالي قائمته السنوية للترفيعات أو ما يدعونه تثبيت الباشوات، القائمين بالعمل، في الإمبراطورية. ولكن لم يرد في القائمة لا اسم محمد علي، ولا اسم ابنه إبراهيم، مما يعني أن السلطة أقالتهما إقالة كاملة.

وفي ٣/ ٣/ ١٨٣٢، أي يوم العيد الكبير، أمر إبراهيم بقصف عام للمدينة فظلت هذه تقصف ستة أيام بلياليها قصفاً أكثر إحكاماً، وهنا انهار البرج الذي انصبّت عليه القذائف، أكبر الانصباب، وجرَّ في سقوطه، جانباً من الجدار، تاركاً ثغرة فيها من الاتساع ما يسعف الهجوم.

وفي ٩/ ٣/ ١٨٣٢، قدَّرت القيادة أن النهاية قريبة أو جاهزة. وقامت بهجمة جديدة. وكانت الجهود كلها تتكاثف حول الثغرة. وكانت المجابهة مرعبة جداً. وكان عبدالله باشا وأحسن من في حاميته، يقاتلون بطاقة اليأس. وسرعان ماتُركت البنادق، واستخدم السلاح الأبيض، وبعد عدة ساعات، ظهرت الخيبة مرة ثانية. ويرى Romei العقيد، أن المسؤول عن ذلك هو «الزهو بالنفس والجهل الكبير لدى كل الأشخاص الذين يقودون في المعسكر، ونقص التنظيم، وكذلك نقص النظام والتنظيمات التي لا بد منها لنجاح أية محاولة[٥]. وهذا ما يبرهن على أن النظام الجديد لم يخل من الخلل.

وجاء مخبر - كأنه بُعث به لزيادة خطورة الأشياء - يُعلم إبراهيم أن مفرزة من الجيش العثماني، يقودها عثمان باشا، تهاجم طرابلس، شمال بيروت، التي كانت قد احتلت من قبل المصريين، كما أن مفرزة تتركز في حماة على العاصي. لابد إذن من الردّ. ولهذا، وفي ٢٩ آذار ترك إبراهيم في عكا لواءين أو حوّل حالة الحصار إلى مجرد حصر Blocus ومضى إلى الشمال مع عشرة آلاف جندي.

ويصل إلى طرابلس يوم ٤ نيسان. فوجد أن جنود عثمان باشا غادروها، ورفعوا حالة الحصار عنها، لأن رئيسهم فضل الالتحاق بالجيش العثماني في حماة وبعد أن استراح إبراهيم مدة ثمان وأربعين ساعة، سار يلاحق الهارب. وبعد أقل من أسبوع، اجتاز لبنان، وفي ١٥ نيسان ١٨٣٢، ظهر أمام حمص، وكانت المدينة تعاني من نقص في تموينها، فقرّر ألا يدخلها، ورأى أن من الخير أن ينسحب إلى البقاع. ويعزو عثمان باشا هذا التراجع إلى الخوف، فيترك حماة على رأس ١٥ ألف جندي، ليدخل حمص، ويتعرض للجيش المصري على مقربة من خان كاسييه Khan Kassieh على طريق القوافل التي تصل استامبول بدمشق.

لكن التجابه المتمنّى جداً أو الذي طالما تمناه إبراهيم لم يدم طويلاً، وما هو إلا لقمة من عدوه، ثم يوقع فيه الاضطراب ويزعجه ساعتين، ويبدأ بمطاردته.

وبطبيعة الحال، فقد اشتد عزمه بهذا النصر، لأنه لا يرغب في الابتعاد عن هدفه الأساسي، عكا. فترك إبراهيم حمص إلى بعلبك. ليبقى فيها عشرة أيام، ويُعزّز دفاعات المدينة، ويترك فيها حامية يرأسها عباس باشا ابن أخيه طوسون. ولما كان لا يخشى أية هجمة من أية ناحية، رأى أن يسير على طريق عكا، حيث يصل في الأيام الأولى من شهر مايس.

وأخبر أن قوات عبدالله، أثناء غيابه قامت بعدة هجمات، تحولّت إلى معارك دامية في سفح الأسوار القديمة ولكن ما من طرف، حصل على نتيجة حاسمة.

ويعيد إبراهيم الكرة، ويهجم هجوماً قوياً جداً، وفي ١٥/ ٥/ ١٨٣٢، وبتوجيهات Romei دوماً، بدأ طوفان من القنابل ينهمر على المدينة. وفي هذه المرة كانت الأضرار كبيرة، إذ أن المنازل تهدّمت، وقُبر مئات من السكان في الخرائب، والمساجد والساحات خربّت، أما قصر عبدالله فقد هدم نصفه، واضطر الباشا (يعني عبدالله) إلى الاحتماء أو اللجوء إلى البناء الذي كان ملكاً لقاهر بونابرت، أحمد الجزار باشا.

وأخيراً، وفي يوم ٢٧/ ٥/ ١٩٣٢، جاء الحظ واختار معسكره.

وقام إبراهيم بهجوم متواقت عل النقاط الثلاث الأكثر ضعفاً في المدينة. وسارت المعارك بشدة فاقت كل المستويات. وربما تقابل إبراهيم وعبدالله وجهاً لوجه، تقريباً، والسيفُ في قبضة اليد، غير بعيد عن برج خرنيه Kharne، لكن المبارزة لم تحدث.

وحوالي الساعة الخامسة استطاع فريق من جيش إبراهيم، كان هو على رأسه، أن يتسلق الحصن بين كابو بورجو وبين البرج الإنجليزي الذي استولى عليه، وحطّم مقاومة العدو، ونجح في تثبيت قدمه في خان، وكانت هي النهاية. إذ أن المصريين وصلوا إلى قلب الساحة. وكان السكان قد فقدوا الصبر، وأُرهقوا كل الإرهاق، فطلبوا من عبدالله أن يُسلّم أسلحته، ويرسل وفداً إلى إبراهيم ليطلب السلام. وبعد عدّة تأجيلات، انتهى الباشا إلى القبول. وكانت حاشية الباشا تحيط به أما هو فقد ربط منديلاً في رقبته، كعلامة على الاستسلام والخضوع. وقام الباشا حوالي منتصف الليل بزيارة إبراهيم، متظاهراً أنه سيركع. لكن ابن محمد علي دفعه عن ذلك مباشرة، وقال له:

- «إنني لا ألومك على محاربتي، لأننا متساوون. وخطؤك الوحيد هو اعتقادك بأن قدرتك كافية على الوقوف ضدّ محمد علي»(٦).

ويُقال إن الرجلين أمضيا بعض الوقت في الحديث، في خيمة صيفية خارج المدينة، في آخر قنطرة تتجاوز السهل. ثم إن إبراهيم اعتذر من عبدالله، قائلاً:

- «ستنام نوماً مريحاً هذه الليلة».

ويقال إنه أجابه، بسرعة:

- كما كنت أنام دوماً. فلا تعاملني كامرأة. إن الصورة التي دافعت بها عن نفسي تبرهن لك على العكس. وقد ارتكبتُ خطأ في تصديق كلام الباب العالي. وأرى الآن أنه ليس للسلطان من شرف أكبر من شرف بنات الليل. ولو أنني عرفت ذلك من قبل، إذن لاتخذت تدابير أخرى، ولوجدت، أني الآن لست بين يديك».

وفي ٣٠/ ٥، نرى أن ذاك الذي كان باشا عكا القوي أبحر في سفينة مصرية، مصحوباً بزوجاته وببعض أعضاء أسرته فأُخذ به إلى الإسكندرية لمقابلة محمد علي. فعومل لديه معاملة حسنة جداً، كما عامله ابنه.

وعندما قَبَّل طرف الثوب الذي يلبسه محمد علي، همس، فيما يُروى، قائلاً:

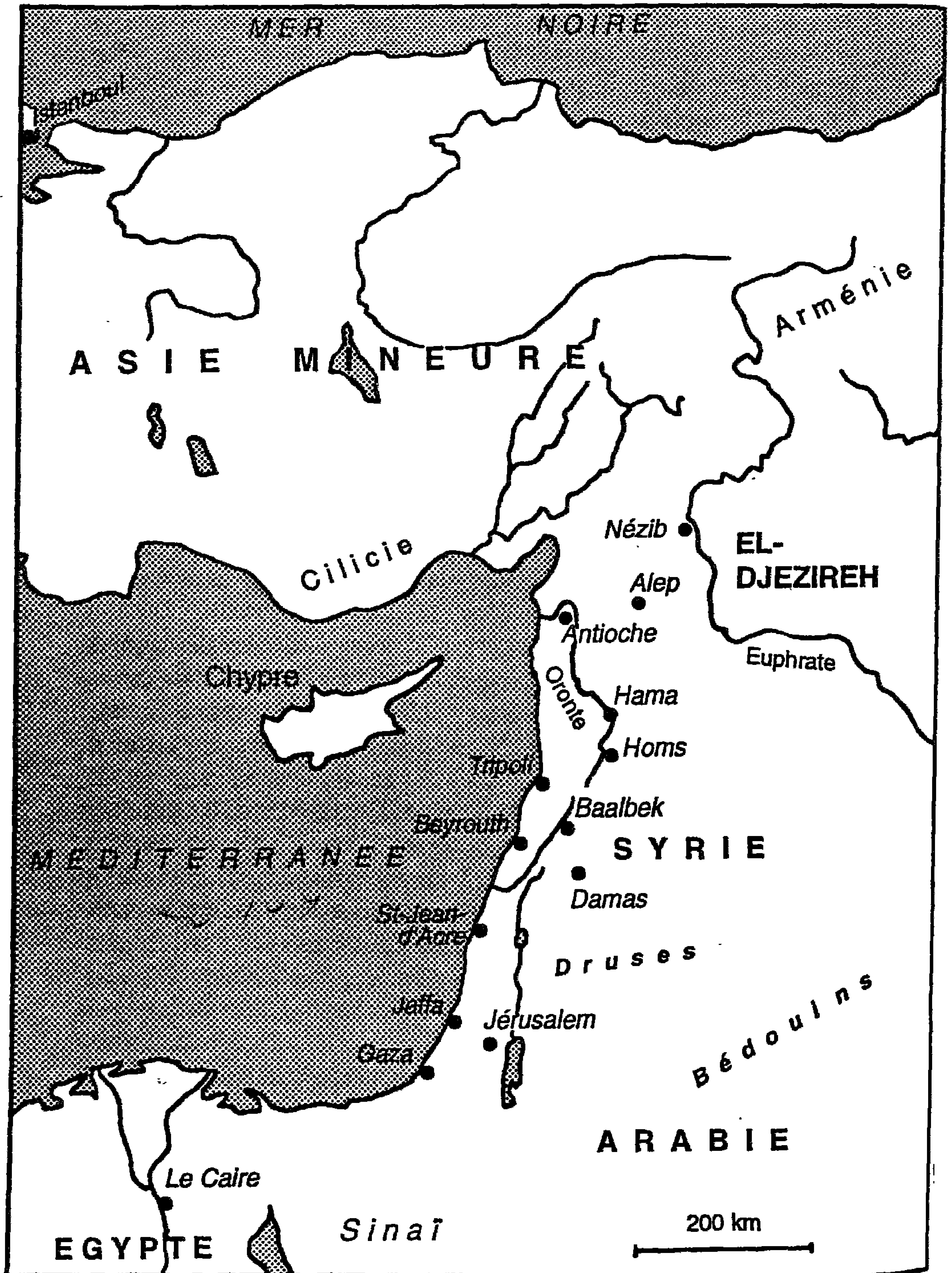
- «ليكن العفو الذي يأتيني منك عفوَ ملك لا عفو وزير»[٧].

وبعد مدّة ما، سُمح له بالاستقرار، مع أهله، في الحجاز. ومات في المدينة عام ١٨٤٢ (أي قبل محمد علي).

ولما كان ابن محمد علي أسعدَ حظاً من بونابرت، فإنه قد نجح في اختراق الحصون في المدينة الخرافية التي لا تُقهر.

ويقال إن هذا كلّفه ٤٠٠٠ قتيل، ومئات من الجرحى. وما يزال أمامه أعباء كثيرة.

معركـة سوريــة



-٢٣-

معركة قادش

(١٨٣٢)

أثار خبر سقوط عكا، حزناً شديداً في «استانبول» على نحو ما نتوقع. «وأحدث الاستيلاء على عكا تأثيراً كبيراً وهكذا أصبح محمد علي سيّداً على سورية، آمناً من ناحية الجبل، وزيد نفوذاً في عيون جماعته. وبهذا استُبعد كل البعد عن أي نوع من أنواع المصالحة مع الباب. ونحن نشك فعلاً، في أن يكون هذا الأخير قد قطع كل شك، فيما لدّى محمد علي، من قوة عسكرية، أو حول تفوقه في الموارد، وبالتالي حول نتيجة الصراع، الذي لا بُدّ أن يكون سقوط عكا، قد ضمن لنائب الملك ما يريده من الفوز والانتصار»(١).

ولهذا، فإن محمد علي، قام بما تعوّد أن يقوم به عادة، أي بالمفاوضة، لتحذير خصومه. فأرسل مباشرة رسالة إلى السلطان، يقدِّم فيها عروضاً للمصالحة. ومع ذلك فإنه وضع شرطاً لخضوعه من جديد، هو إصدار فرمان يعيد إليه حكم مصر، ومعه الباشوية على طرابلس وعكا. وعندئذ يكون مستعداً للتخلي عن مطامحه في باشوية دمشق.

ولكن الباب العالي يظل سجين زهوه، ثائراً على وقاحة تابعه. ويجيب بكيل اللعنات ضدّه ويعلن أنه خارج عن القانون. ويجدر بنا هنا أن نذكر نصَّ المذكرة التي أرسلها السلطان إلى سفراء الدول الموجودين في الآستانة لأن هذا النص يستحق الوقوف عنده.

إن محمد علي باشا . حاكم مصر السابق ، وجد أنه رُفَع من وضع المواطن العادي جداً ، إلى مستوى الرئيس الأعلى لهذه المحافظة الواسعة . ومنذ ذلك الحين لم يقف الباب العالي ، دون القسم الأكبر من طلباته . ولئن كان قد أدّى بعض الخدمات أثناء عمله تحت إدارة الحكومة ، فإنه وَجَدَ مكافآت عليها لا عدد لها .

ومع ذلك . فإنه لم يعرف كيف يُقدَّر الكرم الإمبراطوري ، بل إنه ، وقد تغافل في الوظائف التي سُلمت إليه ، عن سلطة الحكومة التي يتعلق هو بها ، ونظر إلى نجاحاته كما لو أنها من صنع يديه وحدهما ؛ وغفل ، أكثر من مرة ، عن وضعه كفرد مطيع ، بل إنه أظهر ، بسلوكه ، تلك الفكرة التي كونّها عن نفسه ، وهي أنه قدّم للإمبراطورية خدمات جُلّى . ولما كان يظن سلفاً ، بحكم مقاصده المجرمة ، أن أقل خدمة قدمها ، كانت عظيمة ، فإنه رأى أن يكشف عن مطامع أكبر فأكبر ، يريد فيها أن يَضمَّ إليه ، هذا البلد أو ذاك .

وكان لمثل طرئقه أن تُعتبر من قبل الباب العالي مخالفات كبرى لواجب الخضوع للقوانين العامة التي تنتظم الإمبراطورية . ولكن لما كان سموّه يعمل في خط من الاعتدال والتسامح ، منقاداً في ذلك لعواطف الطيب والنبل التي تحرك مشاعره فإنه كان لا يرى في الامتيازات التي يُخصُّ بها محمد علي إلا وسيلة لتشريفه ، ومكافأته على بعض الأعمال المفيدة .

وكان يعود عندئذ إلى خضوع ظاهري ، ليسرع إلى طلبات أخرى ، كان رفضها أو مجرد فحصها المتأني الذي تقتضيه مصالح الإمبراطورية ، يثير لديه صُوراً من التظلّم لقاء التضحيات التي قدّمها لخير الدولة ، كما لو أن الحكومة تقبل خدمات موظف مكلف بتنفيذ أوامرها ، باعتبارها فعلاً خدمات . وعلى كل حال فإن كرم الباب العالي لم ينقطع عنه .

[...] واعتبر مآخذه على عبداللّه ، باشا ، والخلاف القائم بينهما على بعض المصالح الخاصة ، مبرراً لدفع جيوشه البحرية والبرية ضدَّ والي عكا من دون إذن من الباب العالي - واختراق حصون عكا واحتلالها .

وبعد فإن طمع رجل كبير السن «وأعمى» وجشعه، اللذين يصلان به إلى حدّ الاستيلاء على بلد بكامله، ووسائله الماكرة في المطالب التي ينشدها لدى حكومات صيدا ودمشق، تعبر بوضوح عن درجة الوقاحة في أهدافه. إن الشك من هذه الناحية لم يعَد مسموحاً به.

والآن وبعد أن وقع ما وقع، بقضاء الله، فإنه لم يَعد هناك من مجال إلا للسلاح الذي سيقرر من سيكون فعلاً سيد الإمبراطورية: أهو محمود الثاني أم «الشيخ الأعمى»؟.

هزيمة الباشاوات:

وكان نائب الملك الذي يستفيد من الشكاوي العقيمة التي يقدّمها الباب العالي يسرع في تهيئة ما هو مفيد في المعركة الثانية التي يعتبرها شيئاً لا بدَ منه. ويضاعف من نشاطه، ويرسل إلى ابنه رجالاً وعدَّة وأموالاً.

وكان ينبغي أن يبقى إبراهيم خمسة أيام حتى يصل من عكا إلى دمشق. وفي ١٣ حزيران ١٨٣٢ يدخل إبراهيم العاصمة السورية، من دون أن يلقى أية مقاومة. ذلك أن علي باشا الذي يرأس الحامية، قدَّر أن الهرب أفضل من معركة محكوم عليها سلفاً بالإخفاق.

ولما كانت دمشق محمية بسورٍ قلما يُعتنى به، وليس لديها إلا قلعة مربعة، فإنها لا تتمتع بحكم ذلك بأي تميّز عسكري. والشيء الذي يُغري بها هو مرتبتها الدينية والسياسية في الإمبراطورية. وهي أول عاصمة لقوة الخلفاء، وبلد الإسلام المكين أيام الصليبيين. ثم إنها البلد المتميّز لحكومة السلاطين الأتراك، ولعلاقتهم بمكة. وهكذا تصبح المركز الإداري، للفاتح المصري، بعد أن حَلَّ بها إبراهيم.

وبعد ذلك مباشرة، مضى جزء من الجيش الإمبراطوري العثماني، في الطريق، يقوده حسين باشا. ومن الغريب أنه لا يسرع أبداً. وبعد أن وقف ثمانية أيام في إنطاكية، حيث كانت الهيضة (الكوليرا) تجتاح صفوفه، نراه يتحرك باتجاه

الإسكندرون. وعلى الرغم من التلوّث الذي كان يملأ جوّها وحرارة الصيف التي تعزّز ذلك التلوث، فإن حسين يقرّر أن يعسكر فيها بانتظار الأسطول والتموينات التي وَعدت بها استامبول.

أما الجزء الثاني من الجيش، الذي يقوده محمد باشا، فقد اتّجه إلى حماه. وعندما قدّر أن تحصينات المدينة غير كافية، تجاوز أوامر وزير الحربية واتجه في الطريق قاصداً حمص. فوصل إليها حوالي ٧/ تموز، عام ١٨٣٢. وكان باشا حلب قد سبقه إليها مع مجموعة من العساكر غير النظاميين.

وعندما كان المترجم ينقل إليه إشارةً تُوصيه بألا يتوقف وبمتابعة المسيرة، واتخاذ موقع له بعيداً عن حمص، قَبِل محمد باشا أن يحضر حفلة عشاء تقام على شرفه، مصرّحاً، كما قيل: «إننا اليوم لن نفعل شيئاً. والعدو على بعد ١٨ ساعة من هنا». وستكون هذه الفرصة شؤماً عليه. وبعد أن أمر رجاله بالعسكرة في العراء، قرب العاصي. ترك المضيفين يحملونه إلى خيمة الاحتفالات. وعلى حين أن الألوية الترك، يتسلّون بين «السلام عليك» وصور الثناء التي تنهال عليهم، كان إبراهيم يمضي كقطار من النار. وفي صباح اليوم الثاني، نراه على أطراف المدينة.

أما في المعسكر التركي، فقد عمّ الذهول. ومحمد باشا يتحيّر، ويطير صوابه. وتتابعت الأوامر والأوامر المضادة. وأخيراً، فإنهم بدلاً من أن يظلّوا في حماية الحصون، ألهم قائدهم، لا ندري، بأي شيطان، بأمر قواته بأن تنقسم قسمين، وأن يمضوا هكذا لمجابهة المصريين في الأراضي الحرة. وفي آخر ما بعد الظهر (أي عند العصر) كانت الجيوش تتقابل.

ولم يكن لإبراهيم باشا من همّ إلا حرية الاختيار! تُرى أيهاجم جناح اليسار الذي يُدير جنوده ظهورهم لقناة ما، أم يهاجم جناح اليمين؟ فاختار جناح اليسار. وعندما هبط الليل كان الجناحان قد أفنيا. «ومن المدافع الأحد عشر التي كان يستطيع القادة الترك أن يوفروها وينقذوها، لم نجد إلا ستة في طريقنا. إذ أن الخوف الذي اعتراهم يوم حمص كان من الشدّة بحيث أنهم تابعوا الهرب دون التجرؤ على

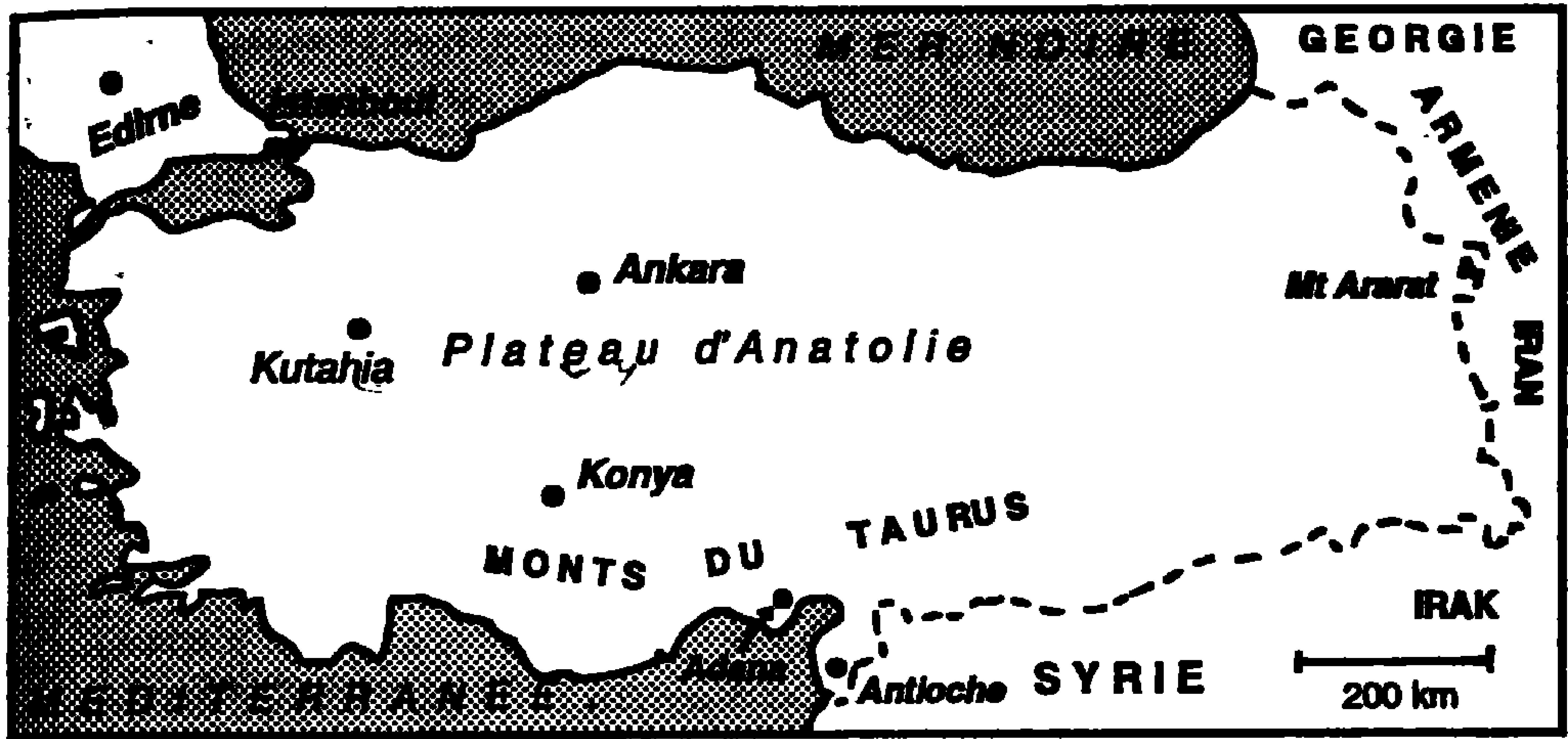
غشيان حماه»[٢]. أما قلب القوات النظامية الذي كان موجوداً في حمص، والذي كان فيه ١٠٤٧ رجلاً، فقد حُطِّمَ كلُّه[٣].

وقد عرفت هذه المعركة باسم «هزيمة الباشوات» إذ قتل فيها ثمانية من هؤلاء العظيمي المراتب من ذوي الأذناب الثلاثة. وكانوا قد جاؤوا لنصرة زميلهم المسكين[٤]. ولكن يمكن تسميتها باسم قادش[٥]. ولربما عُزِيَ إلى ابن محمد علي عشية هذا النصر قوله: «سأمضي إلى الأمام دوماً ما دمت أستطيع التفاهم مع الناس باللغة العربية»[٦].

حدود المستحيل:

ودخل إبراهيم في انطلاقته هذه إلى مدينة حماه يوم ١٠/ تموز ١٨٣٢. ويوم ١٤ آب استولى على حلب، العاصمة الثانية لسورية. والمشهورة قديماً بروعتها وجمالها، والتي كان ما يزال فيها يومئذ بعض الآثار. ومن غير أن يكون لها أوابد شبيهة بتلك التي صنعت مجد القاهرة أو استامبول. فإنه ما من بلدة شرقية أخرى تتجاوزها في جمال أبنيتها، وقبابها، وخاناتها، ومآذن مساجدها. وهي مبنية من الحجر الكلسي الطباشيري المحيط بها، وتقوم على حدود الصحراء. وكانوا يسمّونها في تلك الأيام، الشهباء، بالتضاد مع دمشق، السمراء. وعرف عنها أنها قليلة الانقياد لنير الظافرين. وعندما رأت أو شهدت وصول إبراهيم، -لا من دون بعض السرور- تأملت، بلا ريب، مصيراً أفضل من الملزمة أو الكماشة العثمانية.

وفي ٢٨، دخل ابن محمد علي أنطاكية من دون أن يعترضه شيء غير مايشبه المقاومة. وفي ٢٩ نجح في اللحاق بجيش حسين باشا، الهارب. وبعد أن احتل تقريباً كل المدن السورية، نجده الآن في سفح جبال طوروس. واضطُرت قوات حسين أن تتخذ موقعاً لها في مدخل بيلان Bailan، بين أنطاكية والإسكندرونه. وكانت الطريق ملتوية كثيرة النتوءات، مضغوطة في بعض الجهات بحيث لايستطيع الجمل أن يمشي عليها إلا بصعوبة. فإذا مضينا إلى ما وراء هذه الطريق بدت لنا الأناضول.



الأناضول

وتبعاً لكل الخبراء - كانت القوات التركية تتمتع بوضع شبه متعذّر على العدو. ولكن بدلاً من أن يستفيد قائدها من الدفاعات الطبيعية التي تتميّز بها، عاد حسين ليكرّر الخطأ التاكتيكي الذي ارتكبه نائبه في حمص، وقسم قواته قسمين. لكن إبراهيم بادر إلى الهجوم. واستمرت المعركة ما يقرب من ثلاث ساعات. ولما كان يكّرر المناورة التي نفذها في حمص، أي استخدام جهد اليمين المصري، ضد يسار الخطوط التركية، معاناً بهجوم مضلّل على الجناح الأيمن والقلب، فقد حاز إبراهيم نصراً رائعاً. أحصوا فيه ٢٥٠٠ قتيل وجريح في معسكر الأتراك، مقابل حوالي ٢٠ فقط لدى المصريين. وهكذا كان على حسين باشا أن يتراجع باتجاه أضنه(٧).

ومنذ هذه اللحظة، ينفتح فصل جديد، فيه عالمان هما القديم والجديد، أي الإمبراطورية التي تقف على حافة قبرها ومصر التي تولد من جديد. وكل منهما يمضي في طريقه، ليصل بالضرورة إلى نقطة اللاعودة، حيث يلعب الأول لعبة

سقوطه النهائي، كما يلعب الثاني لعبة انحطاطه. ومن هذه اللحظة يقوم التجابه بين روايتين للمستقبل: مستقبل محمد علي ومستقبل ابنه إبراهيم.

ومنذ أن حاز إبراهيم نصره على طريق بايلان، لم يعد الجيش المصري يتقدم خطوة واحدة. بل يبقى في حالة الدفاع عن النفس، لأن ذلك ما أراده نائب الملك. وهكذا تضيع خمسة أشهر في مناقشات عقيمة. ويكاد الإنسان يشعر أن محمد علي يحبس أنفاسه، وأنه شبه خائف من جريمة العدوان على السلطان، التي يستعدُّ للقيام بها. ترى أيقف على عتبة السراي، دون أن يجرؤ على اعتلاء عرش سيده المقلوب؟ ولئن بدا كالمنتقم للمؤمنين الحقيقيين، أو كالمنقذ المسلّح بالدين الإسلامي، الذي أوذي بإصلاحات محمود، فلربما كان خلع السلطان مسموحاً به. أما الحلول محله؟ والحقيقة أنه لم يكن وارداً لديه، - مهما يقل القائلون والقوالون - أن يحتل العاصمة التركية. وفي هذه اللحظة نراه لا يطمح إلى عرش الآستانة، ولا إلى ضرب الإمبراطورية العثمانية التي يمسك بها بين يديه، بل هو يفكر، فقط، في انتزاع استقلال مصر من سيّده، على احتفاظه بفتحه على سورية. وعدا ذلك يتساءل الإنسان، ماذا سيفعل بهذه الإمبراطورية التي دخلت حالة النزع، وبدولها المنحلة المتناثرة؟ أما في استانبول فإنه لن يكون إلا رجلاً مفعماً بالحيوية، على رأس إمبراطورية ميتة. ولئن أصدر أمره إلى إبراهيم بوقف تقدمه، فذلك لأنه مقتنع بأن السلطان سيقبل ما حصل، وأن الدول العظمى -وفرنسا على رأسها- ستدعم مطالبه. وهنا يرتكب (باشانا) الخطأ الذي سيكلفه غالياً.

ولنشر هنا إلى أن أحاديثه مع Mimaut (ميمو) تطلعنا تماماً على حالاته النفسية. فلماذا لا يقبل الباب العالي ما وقع، حرصاً على ضمان ما تَبَقّى من الإمبراطورية، بعد أن سلخ عنها ما سُلخ بقوة الأحداث؟ أو لم تقبل أمريكا الشمالية أن تنفصل عن إنجلترا، كما قبلت هاييتي الانفصال عن فرنسا، وبلجيكا عن هولندا؟ أو لم يقبل الباب بوضع خاتمه على وثيقة استقلال اليونان؟ بعد أن ضحّى ما ضحاه

في سبيل استبقائها؟ ولماذا تكون الإمبراطورية وحدها معفاة من مضمون أول قانون من القوانين الإنسانية: أي قانون الضرورة(٨)؟.

ومنذ شهر آب ١٨٣١ كان ميمو هذا يعرض لسيباستياني، الوضع القائم، ويقول: «مراسلاتي مع الوزير، منذ وصولي إلى القاهرة، خلال شهر شباط، ومنذ عودتي إلى هنا، كان موضوعها شرح السياسة الحالية لنائب الملك، والفكرة المهيمنة عليه. والتي تتصدّر كل مجالسه. وأظن أني أوضحت ما يكفي إيضاحهُ في هذا الموضوع ولم أعد بحاجة للرجوع إلى تفاصيله.. ذلك أن الظروف والوقائع التي تبرهن على أن ما كان لي فيه شرف كتابته إلى سموه، استناداً إلى ما رأيت بعيني، وإلى ما أسره إليَّ محمد علي، كان الحقيقة الخالصة، وإنني لم أخطئ في المعلومات والأسرار التي كنت قد قدمتها».

«ومن المرخّص لي أن أعيد القول اليوم، إن هذا الشيء الكثير من الأسلحة الأرضية والبحرية شيء معروف، وإن الغاية معترف بها اعترافاً صريحاً وعلنياً».

«أما الأهداف التي عزيت إلى محمد علي من قبل الكتاب السياسيين والهازلين أو الصحفيين والسواح الخفيفي العقول أو غير المطلعين بدرجة كافية، حول تفكيره بالحلول محل السلطان محمود، لأنه لن يرضى بأقل من الجلوس على العرش الإمبراطوري فإنها مجرد اختراع؛ ولئن كان مثل هذا التفكير قد مرّ بخاطره، بين الأحلام العائدة للمستقبل، أو بحكم شط الخيال، فإنه لم يكن يضع إمكانياته، إلا بعد سلسلة من الأحداث العصيّة على التنبؤ الإنساني، الذي يجعل منها ضرورة لا تقاوم ونوعاً من التعبير عن أماني شعب بكامله. أما اليوم، ومهما يجب أن يكون عليه المستقبل، فإن آماله تدخل في إطار أكثر وضعية. وأقوى موضوعية. إنه عزم فقط على البقاء باستمرار، في وضع التابع للمتبوع، وعلى أن يقدّم للسلطان كل المساعدات المالية التي سيستطيع أن يضيفها إلى الحصص التي كان يجب أن يستوفيها السلطان منه ... ... إذا تركوه يؤسّس ما يسميّه «مؤسّسته العربية». ولقد عرضت في بعض رسائلي ما يفهمه محمد علي من هذا كله.

كان يقول إن ما يبغيه ليس أكثر من سورية لا فوقها ولا تحتها، وإن سورية تنقصه، ويحب أن يمتلكها، على ما قال، لأنه يستطيع ذلك الآن، ولأنه يريده أيضاً»(٩).

والحقيقة، لئن كان ميمو قد حلّل موقف محمد علي تحليلاً جيداً، حول عدم اهتمامه باحتلال العاصمة العثمانية «فإنه مع ذلك لا يحسب حساباً لهذا التساؤل الأساسي الذي يعبّر عنه محدثه، غداة معركة بايلان: «لماذا لا يُضحّي الباب، حفظاً لبقية إمبراطوريته» بالقطعة التي أخذت منه بقوة الأحداث؟ أو لم تُفصل أمريكا الشمالية عن إنجلترا، وهاييتي عن فرنسا، والبلجيكا عن هولندا؟».

أما السبب الحقيقي، فهو أن الفرعون ينظر إلى استقلاله، كما لو أنه نتيجة «طبيعية» وحتمية. وإذا تحدث عن هذا فهو يتحدث عندئذ عما يسميه بالمنطق التاريخي الذي لا رادّ له. وفي هذا يخطئ بما هو من أكثر من قرن.

وهناك أيضاً، وعلى حدود تركيا، كان إبراهيم يتابع نفس الحلم الذي يحرص عليه أبوه، مع فارق واحد، هو أنه لا يؤمن بأن القوى الأجنبية ستتدخل. وهو بعد ذلك أقل إيماناً بقبول انعطاف الباب العالي.

وغداة الانتصار في Bailan بيلان (بايلان) ساور القلق فرنسا بعض الشيء وحلّ محل المتعة التي شعرت بها يوم سقوط عكا. وكان ميمو ينصح محمد علي بالاعتدال والتأني. «ولما كان سيداً على سورية، فإن الأمر عندئذ بالنسبة إليه، يقوم على التوقف في الوقت المناسب، واستحقاق مجد آخر، عن طريق التصرف بنجاحاته تصرفاً سليماً.

لكن إنجلترا لم تبد أية حركة(١٠). أفلا تكون في هذه الساعات العصيبة وفيّة لاستراتيجيتها التقليدية؟ ولنتذكر أحاديث Boyer عنها عندما يقول: إن الديبلوماسية الإنجليزية اللامتغيرة في الحقيقة، والمرنة في الشكل لن تتقبل آراء رجل كافالا. إنها تتركه يفعل ما شاء. لكنها فيما بعد، ستحبسه في حدود إرادتها التي لاتتحوّل.

قونية، آخر حصن للإمبراطورية:

وكان محمد علي الممزّق بين الآراء المختلفة، يترقّب إشارة من الغرب تفرض عليه الطريق التي ينبغي أن يسير فيها. ولكن إبراهيم، الواقف في سفوح تحصينات جبال طوروس. يتميّز غيظاً من نفاذ الصبر. إنه يريد السير إلى الأمام، والسير إلى أقرب نقطة استراتيجية، وهي «قونية» بأكبر سرعة ممكنة، حتى لا يتسنى للأتراك أن يجمعوا قوى جديدة. ولو أن الأمر لم يتعلق إلا به، إذن لكان الآن على شواطئ البوسفور.

لكن السلطان الذي يعرف أن كل لحظة شيء ثمين، يُلّوح للبارون دوفارين - Baron De Varenne، القائم بالأعمال في سفارة فرنسا في استامبول- بإمكانية التسوية، كما أن الباب العالي يوجه رسائل «مصالحة» إلى محمد علي.

وقد بدأت بعض المفاوضات التي لا تكون في العادة إلا غامضة، ولا تصل، إلى أي شيء. وانتهى محمد علي إلى اكتشاف سر الباب العالي، وأن هذا الأخير سيمنّيه بأوهام، لكي يتسنى له إعادة تنظيم قواته. وأخيراً فإن الباشا أضاع أيضاً ثلاثة أشهر طويلة ولم يأمر ابنه بالتقدم إلى قونية إلا في ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول)، ومع ذلك فإنه يوصيه بألا يتقدم أكثر، ويضيف قوله: «متى شتتت بقايا الجيش العثماني القديم، در نصف دورة وعد إلى بايلان».

وهذا ما لا يفهمه إبراهيم. ذلك أن عنفه وقناعته بأن العالم السياسي لايتراخى إلا أمام الحدث الواقع، جعلاه يستخلص نتائج تؤرقه. وأجاب أباه: قائلاً: إذا اتبعنا أوامرك فإن علينا أن نعود إلى الوراء، متى وصلنا إلى قونية. بيد أننا سمعنا إشاعة تقول: إن الوزير الأول، يتقدم نحونا، على رأس جيش ضخم. وإذا نحن تراجعنا فسيقال إننا خفنا وإننا عاجزون عن جعل حديدنا يفُلُّ حديده. ولم يكن هذا كل شيء. بل إن الوزير الأول، لن يذهل في هذا الوضع، عن السير إلى قونية. إنه سيتجاوزنا ويتبعنا وينشر إشاعات كاذبة، حول أسباب تراجعنا. ومن يدري؟ فإن الجماعات الشعبية ربما انضمّت إليه. وربما استطاع إثارة سورية والأناضول ضدنا.

وعندئذ يرى الناس أن غاياتنا غير مفهومة. وهكذا فإن علينا أن لا ندع الفرصة تفوّتنا أو تفلت من أيدينا، وأن نمضي إلى قونية، لإزعاج القوة وانتظار الوزير الأول، لضربه في الحال التي سيقوم فيها بمهاجمتنا. وعلى ذلك فإن من الضروري أن ترسل إلينا بالسرعة المناسبة، لواءين. وسأطلب أنا إلى «مفتي خادم» (أي رجل دين)(١١) فتوى تعلن سقوط السلطان(١٢).

وعندئذ يعدل الباشا عن توجيهاته في التراجع، ولكنه يلاحظ أن كل تقدم إلى ما وراء قونية في الظروف الحاضرة أمر لا تستسيغه الدول العظمى. «والواقع أنه عندما يكتب هذه الكلمات، كان لا يعرف شيئاً عن موقف الدول المعنية بالأمر. أما إعلان سقوط السلطان، فإن محمد علي يعتبره مخالفاً لمصالح مصر في الظروف الحالية.

ولكن إبراهيم لا يتراخى. ويعود إلى مهامه، وينجح في نيل موافقة أبيه، حول هذه النقطة. وعدا ذلك فإن الفتوى التي يريدها من كل قلبه، ارتفعت ضدّه وكذلك نالت من أبيه، من جهة السلطان الذي يبلغها إلى السفارات الغربية، مصحوبة بالمذكّرة التالية: «إن القوانين المقدسة، على لسان مفسّريها قد أقرت أن معاقبة ناكر الجميل إبراهيم باشا أصبح شيئاً لا بد منه: ولقد صدرت الفتوى، وترى الإمبراطورية نفسها مرغمة بحكم الدين أن تنفذ ما يقره الدين». ثم إن مطاولات رجل كافالا، تبدي بوضوح، أنه لا يعرف جيداً كيف يُحدّد موقفه من أوروبا التي يحاول، يائساً، أن يراعيها.

وخلال ذلك فإن تركيا التي أعادت تنظيم قواتها تكلّف محمد رشيد باشا، أي ذلك الذي فَشل أمام موسولونغي، بقيادة حملة جديدة ضد إبراهيم. وهكذا فإن حلفاء الأمس أصبحوا الخصوم اليوم.

ويجتاز إبراهيم أضنة ويصل إلى طرسوس على طريق نمرود التي تركها الأتراك بدون حماية، ويفتح قونية دون أن يطلق أية رصاصة. ويكتشف على الحصون المتواضعة، للمدينة، كتابة تعود إلى ثمانية قرون سابقة، كتبها واحد من الأمراء

السلاجقة، وهي تقول: «إن هذه الجدران حصن قوي ضد ثورة الأمواج، ورعونة الأحصنة، ولكنها لا تحمي من سوء الحظ والتعاسة، اللذين يهاجماننا في ليلة عاصفة».

وفي القاهرة، كان محمد علي، الغارق في شكوكه، يحاول مغازلة وزارة سان جيمس، مع الأمل غير المعقول بأن لندن ستقدم له العون. وهذا أمل فيه من العبث بمقدار ما فيه من السخف، الناشئين باستمرار عن، الخوف من إنجلترا» . .

ويغضب إبراهيم أكبر الغضب. ويشهد على ذلك هذه الرسالة التي تتبع كلامنا هذا، وهي تعبر بصورة واضحة جداً عما بين الأب والابن من اختلاف في الرأي، في هذه الفترة من تاريخهما المشترك:

«إن على السياسة السليمة أن تقوم، قبل كل شيء، على دراسة الموقف، وحساب كل النتائج ، والسير بعزم في طريق العمل، من غير أن يتأثر الإنسان بزيد أو بعمرو. ومهما تكن فائدة التحول الحالي من ناحيتنا، فإنه لا يجب أن ننسى أن جيشاً كبيراً كجيشنا، لا يمكنه أن يتحمل سياسة التردد والتلمس، التي لا تعرف كيف تستفيد من سير الأحداث، كما أنه لا يستطيع أن يبقى طويلاً، دون عمل. ولقد سرنا إلى قونية، بحكم أوامركم نفسها: فكيف نستطيع أن نعكس خطانا، عندما يتقدم الوزير الأول، على رأس جيش جيد التنظيم، قوي العدة، ومجهز بمدافع كثيرة. «أفيكون مفيداً لنا، على ما تظن، أن نقف في قونية، أو أن نعود عنها؟ وعندما ينتهي الوضع إلى هزيمة نلحقها بجيشه، دون أن نتبعه، أليس هناك خوف من أن ينظم نفسه من جديد ويعود إلى مهاجمتنا؟ وهل نجرؤ على الأمل أن أهالي الأناضول سيتخلون عن قضية الأتراك الذين يحكمونهم منذ ستة قرون، لكي يلتحقوا بنا، إذا نحن مشينا بخطا مترددة؟ أو لا يكون تراجعنا خطأً عسكرياً ضخماً؟

«ولقد كنت أمرتنا بالوقوف في حلب، وسمحت لنا بعد ذلك بالتقدم إلى كولك بوغاز، ثم إلى قونية. لابأس! فاسمحوا لنا الآن بأن نمزق جيش الوزير

الأكبر، واعرفوا جيداً أن الأرض والمناخ في هذه البلاد لا يشبهان مطلقاً تلك التي نعرفها في مصر، وليسا بملائمين، في كل حين، للحركات العسكرية. أضف إلى ذلك أن ما صحّ على مصر، لا يمكنه أن ينطبق على واقع الحال هنا. وليس من المقبول أن نصغي إلى ما يقوله Briggs أو ملاحظات ضابط روسي. وعلى كل حال، فإن من المؤسف جداً أن يكون تنفيذ خطتي ومشاريعي، معلقاً أيضاً، بانتظار جوابكم»(١٣).

وعن هذا يجيب محمد علي: «إنك تكتب إليّ، يا بني، أنه يجب أن نضرب الحديد وهو ساخن. وربما تمنيت أن تُعلن بكل وضوح أننا ضد الباب العالي، وأن المصلّين في صلاة الجمعة، يذكرون اسم محمد علي، مكان اسم محمود الثاني. فاعلم يا بنّي أننا لم نحتل المكان الذي نشغله الآن إلا بالمرونة والأناة والاعتدال. ويكفيني أن أُسمّى محمد علي، خالياً من كل لقب، أو صفة فخمة. إن هذا الاسم هو أكبر في عينيّ من ألقاب السلطان أو الملك. فكيف تريد أن نتخلى عنه باسم آخر، مهما يكن نوعه. أما أنت يا بني العزيز، فاحتفظ أيضاً باسمك: إبراهيم. إن هذا يكفي(١٤).

وتبرهن هذه الرسالة، مرة أخرى، على أن عدداً من الديبلوماسيين على غرار البارون دوفارين يضلّلون الناس عندما يقولون: «إن الناس هنا، يفكرون، بصورة عامة، تقريباً، هنا في الآستانة، أن محمد علي، لن يكتفي أو لم يعد يكتفي بحكم سورية. وأن لديه أهدافاً أوسع بكثير، وأنه يريد أن يأتي إلى استانبول».

وعلى ذلك، فإن على إبراهيم أن ينتظر في كونيه (قونية) مجيء جيش الوزير الأول، لإزاحته عنها. وفعلاً فقد وصل يوم ٢١ كانون الأول ١٨٣٢. وهو فيما يبدو، عظيم. إنه يشتمل على أربعة عشر لواءاً من المشاة، و ٢٨ سرية من الخيّالة. ولديه ما يقرب من مائة مدفع؛ لنقل إذن إن فيه ٦٠،٠٠٠ جندي. وعلى رأسه محمد رشيد باشا شخصياً.

ولئن أخفق أمام ميسولونغي، «فأغلب الظن أن ذلك الإخفاق هو الوحيد في حياته. وله سمعة الرجل الكثير المواهب بين الألوية. ولقد خاض معارك رائعة، أثناء الحرب مع روسيا، وبرهن فيها على شجاعة لا يُمارى فيها. وكان قد ولد في جورجيا، عبداً في طفولته. وكان يحب الثياب الألبانية. أي المعطف الضيق، والبنطال الواسع، والعمّة المعقودة حول جمجمته. أما قامته فإنها متوسطة، وله هيئة أو سمة طلقة فيها حيوية، ونظرة عيونه الزرقاء الحادة تحتفظ عادة بالكثير من الهدوء والرصانة في ساحات القتال. وكان الرجل يطمع دوماً بإحياء تقاليد المجد والقوة التي كانت معمولاً بها في الباب العالي. ولقد ظل دوماً يمضي إلى الأمكنة التي تسود فيها الفوضى، وتُهدّد بالخطر استقرار دولته. وعندما علم أن قوات محمد علي تتجه إلى سورية، صرخ في داخل نفسه قائلاً: «لقد انتهز الثعلب الهرم اللحظة المناسبة. ولكن حتى ولو كان ذلك سيثير حرباً جديدة. فسأجيب: علينا أن نعيد مصر إلى الهدوء».

وخلال الأسابيع التي كان يفرض فيها على إبراهيم أن لا يفعل شيئاً، كان لديه الوقت الضروري لدراسة الأرض. على ضوء نصائح سيف Seve الذي لايفارقه. ووجد أن قونيه (أو قونيا) قائمة في سهل يرتفع ألف متر عن سطح البحر. وتروي الأساطير أنها كانت المنطقة الأولى التي ظهرت بعد الطوفان. وفي القرن الثالث عشر كان هنالك شاعر صوفي، أصله من بلخ Balkh، اسمه جلال الدين المولوي، أسس نظام المولوية المعروفة باسم «الدراويش الدوّارين». أما التحصينات التي تحيط بالمدينة فإنها تافهة، وهي محصورة داخل سور مدعوم الجوانب ببعض الأبراج الصغيرة وسرعان ما خلص إبراهيم وسيف إلى أن المدينة ليست أبداً بالمدينة الحصينة. وفكّر كلاهما بهدوء، بالمكان الذي ينبغي أن تتم فيه المعركة. ووقع اختيارهما على هضبة في الشمال الغربي للمدينة.

وقد نُظّم الجيش المصري (٢٥٠٠٠ رجل تقريباً) بصورة تُقدّم فيها للعدو، مركزاً رخواً في الحين الذي يكون فيها الجيش، في معظمه بالمرصاد في جناحيه.

وكان رشيد قد طلب من السلطان -ولكن عبثاً- أنْ يوضع تحت تصرفه، ذلك الاحتياطي المؤلف من ٢٥٠٠٠ رجل، وكان هذا الاحتياطي نخبة الجيش الذي قُسّم ونُثر حول استانبول، لكي يُستخدم كغطاء له في حالة الهجوم. وكان رشيد يرى أن هذا الترتيب، ترتيب عابث. وكان أيضاً يقدّر، وبرجاحة، أنه إذا خسر معركة قونيا، فإن الاحتياطي الذي يضعف معنوياً لا يمكن أن يحسب له حساب لاضد اندفاع الظافرين، ولا ضد الثورة العامة التي ستفتح لهم الطريق، على حين أنه إذا بقي موصولاً بتحركات الجيش الإمبراطوري، فإنه سيكون من السهل عليه (على الاحتياطي) الوقوف أمام أي تقدم ممكن لإبراهيم، بالنظر إلى حسن انتقائه، كعناصر، لأنه سيدخل المعركة متأخراً. ولكن السلطان المتأثر، من جهة أولى، بخسرو باشا الذي كان يتمنى، لأسباب شخصية أن يخسر رشيد المعركة، كما كان متأثراً باللواء Mourawiev(١٥) الذي اندفع إلى استانبول لكي يقدم للباب العالي دعم روسيا، لم ينظر إلى ملاحظات رشيد نظرة جديّة.

وفي ٢١ كانون الأول، كان السحاب الكثيف الذي يغطي السهل، يرغم الجيشين على اتخاذ تدابيرهما، حتى من دون أن ينظر كل منهما إلى الآخر. لكن هذه الشروط المناخية، كانت تقدم عوناً قوياً للقوات المصرية. وحقاً، وعلى طول أيام الانتظار، كان لهذه القوات أن تُدرّب بانتظام، حتى إن الأرض أصبحت مألوفة لديهم. ومن المرجح أن يكونوا قد دُرِّبوا على المعركة عشرين مرة.

وكان المصريون يقفون ووراءهم قونيا. وأمامهم وعلى اليمين، تلك المستنقعات التي تجاور المدينة: وعلى اليسار إلى الخلف Sileh ومرتفعاتها البعيدة بمسافة ميل. وكانت أمامهم تلك الجبال التي تحدّ السهل في الشمال. حيث كانت تقف قوات جيش رشيد الذي كان يمكن أن يُحزرَ مكانهُ في قلب الضباب. وفي هذا الجو السحري تتم المجابهة. وكانت أقسى من كل المعارك التي خاضها إبراهيم بن محمد علي.

وبعد ساعتين من بدء المعركة، أسر رشيد باشا، وجيء به إلى معسكر إبراهيم. فاستقبله هذا الأخير استقبالاً يليق بمنصبه. ولعل هذا الأسر السريع لعب دوراً كبيراً في «معنويات الجيش التركي وأفراده، إذ انتهت المعركة بعد ثماني ساعات من قتال عنيف، لصالح إبراهيم باشا.

ويُلخِّص اللواء ويغان بشكل لابأس به، مختلف الأحكام التي قالها خبراء الحروب في ذلك الحين. «كانت هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها إبراهيم بمعركة دفاعية. ولقد قادها بصورة رائعة إلى أبعد الحدود. وبرهن على أن الدفاع لا يمكن أن يحالفه النصر إلا إذا كان يقوم على العمل والحركة. فلو أنه بقي مجمّداً تحت أسوار «قونيا»، فإن من المؤكد أن الجيش التركي كان سيضعه في أسوأ حال. وعندما بادر هو إلى المناورة، وجعل خصمه يقف حيث أراد هو أن يقف، ضربه الضربة القاضية. وهكذا انتصر على عددٍ كان أكبر منه بثلاث مرات».

وإنها لنظرة غريبة إلى القدر (أو المصير): ذلك أن الابن استمد من نابليون بونابرت، معبود أبيه، جزءاً من عبقريته. واعتباراً من هذه اللحظة يمكن القول: إنه ما من شيء يمكنه أن يوقف إبراهيم، حتى البوسفور التي تبعد عنه بمسافة قدرها ٤٠٠ كم. وفي هذه الساعات المشؤومة كان السلطان محمود يفرغ للتأمل، في قصره بالقول المأثور: «قد يحدث أحياناً أن يكون قدر السيد مكتوباً على جبين عبده».

-٢٤-

أوروبا في مواجهة الإعصار

(١٨٣٢-١٩٣٣)

وهبت رياح الخوف على استانبول، ترى هل سيمضي اللواء المصري حتى إلى العاصمة؟ ذلك أن الطريق مفتوحة. فالرأي يدعمه، والشعوب تنتظره، وما من جيش يستطيع أن يوقفه، والهلع يستولي على البلاط. ترى هل يستطيع «الهرم الأعمى» المطرود من قبل محمود الثاني، أن يقف على عتبة باب السلطان وهو يعلم أنه تكفيه خطوة واحدة لكي يقبض عليه من رقبته ليرمي به خارج بيته. وأخذ الناس يفكرون بروما المذهولة باقتراب هانيبال (هاني بعل)؛ وإلى رعب شيوخها، عندما سمعوا أن أكبر جيش لهم قد هُزم، على مسافة (٥٠) ميلاً من عاصمتهم، على يد الجيش القرطاجي. إنها المسألة الشرقية التي تطرح نفسها على أوروبا في كل ما لها من خطورة.

ولكن أوروبا ليست إلا كلمة. وعلى ما لاحظنا سابقاً فإن لكل واحد من القوى العظمى، سياستها الخاصة. فكيف نتدبر أمرنا مع هذه العقدة من الخيوط التي تظل تعقد وتحل من قبل الديبلوماسية؟ إن فرنسا، عندما استعيد النظام الملكي، كثيراً ما كانت هي وروسيا تتعاونان على قضايا الشرق. ولكن منذ أن جاءت الحكومة الملكية، حكومة تموز، كانت كل من فرنسا وروسيا تدير ظهرها للأخرى. وكما ينصح تاليران، فإن عيون فرنسا والديبلوماسية الفرنسية تتجهان إلى إنجلترا. ذلك أن سياسة باريس الشرقية وسياسة لندن، سياسة معادية للروس، وحريصة على بقاء

الإمبراطورية العثمانية. بيد أنه كان لفرنسا بعض التعاطف مع محمد علي، وكان هذا الباشا يُحبّ أن يقول: إنه تلميذ هذه الفرنسا التي كانت ترى فيه المتمّم أو المستكمل للعمل الذي بدأ على يد المنتصر على الأهرامات. وكانت مصالح فرنسا في مصر لا تتطابق أبداً مع مصالح الاهتمامات البريطانية. ولهذا فإنها حاولت الملاءمة بين هذين الاهتمامين: أي الإبقاء على سلامة الإمبراطورية العثمانية، وصيانة المكانة المشروعة التي اكتسبت، في الأرض، على يد محمد علي. وعلينا أن نقول: إن هذه المهمة لجديرة بإنسان كالبهلوان.

وكان البارون De Varenne القائم بالأعمال الفرنسية في استانبول (ولم يكن في تلك الأيام من سفير هناك)، يُسخّر نفسه لحمل السلطان على قبول شروط نائب الملك (آخر كانون الأول، عام ١٨٣٢). فقابل مباشرة محمد علي، واتصل بإبراهيم، وحاول تسريع التوافق بين تركيا ومصر. ولكن على الرغم من معركة قونية، كان السلطان عنيداً، ولا يساوم، ذلك أنه لم يعد وحده: فمع وجود مورافيف Mourawiev في استامبول، قامت روسيا بوضع قوتها في الميزان، وكان إلى جانب روسيا رجل ذو تأثير سيئ وضار، يريد القضاء على مخططات محمد علي: وهو عدوه القديم، أي خسرو باشا، العامل الأساسي (إن كان هناك من عامل، للسياسة القديمة لتركيا، الكثيرة الحيل الدقيقة)، وهو شخصية بغيضة، ساخرة، مضحكة، فيما يصفه به Cadalvene. وقد عمل بكل قوة للقضاء على أحلام ذلك الذي أبعده عن مصر منذ سبع وعشرين سنة، أي أحلام باشوية القاهرة.

وعندما كان محمود الثاني، في أوج غضبه، على محمد علي وابنه إبراهيم، استسلم لشعوره بالمخاوف، وقرّر أن يرمي بنفسه في أحضان عدوّه التقليدي، وقال لمورافييف Mourawiev إنه يقبل عون القيصر نيقولا الأول. وكان هذا التقارب التركي - الروسي، المخالف للطبيعة، يصبح هوساً حقيقياً بالنسبة إلى الدول الأوروبية. وهكذا نجد أنها تضاعف الجهود، لإحلال السلام، دون أي تأخير، بين التابع والمتبوع.

ومن جـهـة أخـرى فـإن إبراهيم باشـا يظلُّ ثابتاً في مـوقـعـه المتـشـدِّد، الذي لايتخلى عنه: إنه عازم أكثر من أي وقت آخر - على تحقيق مـخطّطه بسرعـة، لكي يضع أوروبا أمام الواقع القـائم من دون أن يترك لها المدة الكافيـة للتشـاور. بل إنه يحاول أن يكسب إلى جانبه سجينه العظيم رشيد باشا، ويطلب منه السير المتكاتف إلى العاصمة العثمانية. وهو «سير» يدعمه الفقهاء، والرأي العام المسلم كله وإليكم الآن نصّ حديث جرى بين الرجلين: وهو موجز محادثة اكتشفها السيد صبري، في الوثائق المصرية. وفيها أن إبراهيم عرض الضرورة القاضية بقلب محمود الثاني، وإحلال عبد المجيد، الذي ما يزال فتى في أول شبابه، محل أبيه.

- «ولكن الأمير عبد المجيد ما يزال طفلاً صغيراً (لم يزد عمره بعد عن تسع سنوات). أفتظن، في هذه الحال، أنه يكون قادراً على اعتلاء العرش، وتوجيه أعمال الدولة؟

- ولكن السلطان محمد الفاتح، اعتلى العرش وهو في السابعة. وعبد المجيد هو الآن أكبر منه. ومهما يكن من أمر، فإن فتوة الأمير لن تكون إلا مزية، ذلك أن الأمراء الوارثين لهذه الإمبراطورية لا يُربوّن كما يُربّى أمراء الأمم الأخرى: فهم يُربّون في أحضان الحريم. ويكبرون وهم لا يعرفون شيئاً عن قضايا الدولة. وعلى ذلك، فإنه إذا اعتلى العرش عبد المجيد، فإنه سيستطيع بسهولة، عن طريق المتنوّرين ممن حوله، أن يعرف بسهولة قضايا هذا العالم، وأن يصبح رجلاً يعرف حقوق السلطان وواجباته، وكذلك حقوق الأمة وواجباتها.

- إن هذا صحيح جداً. غير أن السلطان، الذي يحاط علماً بما يجري، يمكنه أن يأمر بقتل الأمراء الآخرين.

- إن الهدف الوحيد الذي نتابعه، هو حَلُّ قضايا الوطن، طبقاً لأماني الأمة؛ ولما كان على كل أمة أن يكون لها سلطان، كي يحكمها، فنحن سننتخبه لها طبقاً لإجماع الناخبين، ونضع حداً لهذه العشوائية، وللرغبات العابرة للاستبداد، الذي لا يتردّد في القول: «إن إرادتنا العليا تأمر بقتل هذا أو ذاك». وفي هذه الشروط

-وفي حال قتل الأمراء- فإن السلطان وحده يتحمل كل المسؤولية، ولن يبقى لنا إلا أن نُنَفّذ إرادة الأمة، وأن نستغني نهائياً عن السلطان.

- إني أقبل محاكمتك. ولكن هل الشعب المسلم مستعد لقبول هذا التغيير؟

- يجب أن نتوقع أنه ستكون هنالك معارضة، في البداية على الأقل، ولكنها ستنتهي مع مرور الزمن. وستُعرفُ فوائد الأوضاع الجديدة. ويدرك مدى تأثيرها. وعندئذ سيطلبون هم أنفسهم إقامة الحكم على أسس متينة».

والخلاصة، فإن إبراهيم يهدف إلى إحداث ثورة في القصر. وفعلاً، فإنه يكتب إلى أبيه يوم ٢٨/ ١٢/ ١٨٣٢، ما يلي:

«إننا نستطيع التقدم حتى الآستانة، وخلع السلطان بسرعة ومن دون عناء. ولكننا نريد أن نعرف بأسرع ما يمكن، ما إذا كنت فعلاً تريد وضع هذا المخطط موضع التنفيذ. كي نتخذ، من الآن، كل التدابير الضرورية. ذلك أن التسوية الحقيقية لقضايانا، لن تتم إلا في استانبول، وهناك يكون علينا أن نمضي إلى فرض إرادتنا.

بيد أننا - وسأعيد هذا الكلام بكل صراحة- نعرف أن الدعاية وحدها لن تؤدّي بنا إلى تحقيق غاياتنا. ولكن إذا كنت تطمع -بالضجيج الذي تشيعه- بهدف سياسي يصل بنا إلى تهديد الآستانة، وإرغامها على قبول شروطنا، فإنه لن يفيدنا أن نبقى في قونية Konya، من دون متابعة السير إلى الأمام. وقونية هذه بعيدة بدرجة مناسبة، ولن يكون رجال استامبول مستعدّين لإبرام الصلح معنا، إلا إذا دخلنا استامبول نفسها. هذا ما فعله الروس، إذ لم يقبل منهم الصلح، إلا عندما دخلوا إلى قلب تشيكميدجيه، التي تعد من ضواحي العاصمة.

ولهذا ينبغي أن نتابع مسيرتنا حتى بروسّه، على الأقل، ونُتمّ احتلال المدن الواقعة على شاطئ مرمرة، ونجعل منها موانئ لتموين قواتنا. عندئذ نستطيع نشر الإشاعات التي يمكن أن تؤدّي إلى سقوط السلطان. فإذا لم ننجح في عزل السلطان، فإننا سنقيم صلحاً بأفضل الشروط المناسبة لنا.

ولو لا أننا تلقينا أمريك الأخيرين اللذين يُحرِّمان علينا أيّ تقدم، لكنت اليوم على أبواب استانبول. وأنا أتساءل ما هو السبب في منعنا عن التقدم؟ أهو الخوف من أوروبا أم هو شيء آخر؟ فأرجوك أن توضح لي هذه القضية، قبل أن تُفوِّتَ عليَّ الفرصة، وإعلامي بقراراتك النهائية في هذا المجال[1].

ومن الواضح أنه كان للرجلين، إبراهيم وأبيه، آراء متضادة حول هذه القضية. فأحدهما يريد العالم كله، والآخر يكتفي بإمبراطورية تنشأ من فتوحاته. أما إبراهيم فإنه عزم على ألا يضيع الفرصة. ذلك أن جيشه يتلهى حول قونية. وخلافاً لأبيه الذي لا يريد أن يسمع يوماً، ما قيل لهاني بعل: «أنت تعرف كيف تنتصر، ولكنك لا تعرف كيف تستغل هذا الانتصار».

ولكنه عندما سمع أن الباب العالي ندب خليل رفعت باشا للمفاوضة حول الصلح مع أبيه، فإنه لم يساوره أيُّ شك حول هذه المهمة، من حيث هي سلام معقود ضمن هذه الشروط. وهو مقتنع بأن هذا السلام، إذا هو تم في شروطه هذه، فإنه لن يكون إلا هدنة. ذلك أن هناك هوة كبيرة تفصل بين الجانبين، وتلك الدولة المغلوبة على أمرها، ستحاول قريباً أو بعيداً أن تنتقم من الغالب، أي من التابع.

وهكذا فإنه يمكن أن نعبر عن موقف محمد علي بكلمات قليلة: إنه يعيش في رعب كبير، خوفاً من أن يكون الاستيلاء على استانبول، مناسبة لتدخل أوروبا، بغية تحقيق حلمها القديم في تقاسم الإمبراطورية العثمانية. وهذه فرصة مناسبة لكي تستولي إنجلترا على مصر.

ولكن ها إن إبراهيم يعلن لأبيه يوم ٢٠/ ١/ ١٨٣٣، -تاركاً وراء ظهره النصائح الموصية بالاعتدال- إنه سيمضي بجيشه إلى الأمام.

وبدأ الجيش يتحرك، باتجاه كونيا (قونية). وكانت الوحدات تتقدم على صورة جماعات صغيرة بسبب شدة البرد، ولقلة أعداد الجمال الضرورية للنقل.

وينشأ من أقوال المخبرين الذين يصلون من استانبول أنه لا يوجد في طريقنا أية قوة محشودة لمقاومتنا. وحتى في الآستانة نفسها، ما من شيءٍ وما من إشارة تدل على وجود نشاط عسكري ضدنّا: وهذا ما يبرهن بوضوح أنهم يرون أملهم الأمثل في السلام، وأنهم لهذا السبب يرسلون إلينا رفعت باشا، من أجل التفاوض. وإنه لفي مجال الإمكان الوصول إلى سلْمٍ مشرّف، بواسطة رفعت، ولكني أحسب، بقدر ما يتسنى لعقلي الصغير أن يحكم في الأمور، أنه ما دام السلطان محمود، هذا الشيطان الخبيث، أقول ما دام هذا الشيطان باقياً على عرشه، فإنه لن يكون هناك من سلام حقيقي، ولا من تسوية نهائية لهذا الخلاف. ذلك أنه سيبقى يتصيد فرصة ما، لفتح باب الشر. وسيتابع، كما كان الأمر في الماضي، ارتكاب مايستطيع من العنف ضدّ هذا الشعب المسلم البائس. وهكذا فإن حرصنا على هذه الأمة، وحماستنا الدينية، تفرضان علينا أن نعمل لخدمة مصالحنا، التي هي مصالح الأمة كلها.

لا بُدَّ إذن من الرجوع إلى قرارنا الأول في خلْع هذا الرجل المشؤوم، وإحلال الأمير الوارث محله، بغية أن تكون أعمالٌ بمثلِ هذه الخطورة، نوعاً من المحرك القوي لإيقاظ هذا الشعب من خدره. وإذا وجد من يعترض علينا، ويقول إن أوروبا لن توافق على ما نعمل، فسأقول: إننا لن نترك لها الفرصة للتدخل، وسنتجنب بهذه الصورة كل خطر من هذه الناحية. ذلك أن مشروعنا نحن يكون قد نُفّذ. من دون أن يعرف الغرب ذلك مباشرة، ولن تجد القوى العظمى مجالاً للتدخل، عندما تجد نفسها أمام الأمر الواقع.

ولئن كانت أوروبا، مع ذلك، تحاول أن تستفيد من الظرف القائم لتحقيق مطامعها في تقسيم الإمبراطورية العثمانية، فبم نكون نحن مسؤولين عن هذا؟ وهل في وسعنا أن نحول دون تحقيق حلم قديم تُكنّه في نفسها منذ أربع وثمانين سنة؟ وليحمنا الله من شرها هذا. وفي كل الأحوال أجد أنَ من الأفضل أن مايجب أن يحدث لنا هذا اليوم أو في يوم آخر، أقول إن من الأفضل أن يحدث، نهائياً لننتهي من هذا الذي يشغل بالنا الآن.

وهكذا، ومسلماً أمري لله، سأتوجه على كل حال بشجاعة إلى بروسة ومودانيا Modania بحيث لا يكون هناك متسع لتلقي رسالة منكم أو من الآستانة، تحول بيني وبين أن أتقدّم. وعندما أبقى حيث أنا الآن، أجد صعوبة كبرى في تموين جيشنا، بسبب الفقر السائد في هذه البلاد. ولم يبق لي بعد هذا، أي إنقاذ ممكن إلا في التقدم إلى بروسه Brousse. ومن هناك سأرسل إليك مندوباً فوق العادة بغية وضع القرارات التي نكون قد قرّرناها، بحسب الظروف[٢].

وحقاً فإن نظرية «الأمر الواقع» لدى إبراهيم، كانت مما يستخدمه إبراهيم نفسه مع أبيه. وهكذا فإنه اجتاز مرحلة جديدة تُقرّبه من شواطئ البوسفور. ذلك أنه خرج من قونيا في ٢٠/ ١/ ١٨٣٣ وقطع في ١٣ يوماً ٢٢٤كم، كانت تفصله عن كوتاهيه، وهو على بعد أقل من ٢٠٠ كم من استانبول.

وكوتاهيه هذه، المبنية على جانب الجبل، مدينة هامة نسبياً، يسكنها ٥٠,٠٠٠ إنسان. هنا يجد إبراهيم كل مواد التموين التي يحتاج إليها. للقيام بأمور جيشه.

وخلال ذلك كان مورافييف قد زار محمد علي (١٣/ ١) ولم يستخدم لغة التهديد، التي كانت منتظرة. وكذلك الباشا، فإنه بدأ يتحدث بلغة المصالحة، معرباً بشكل ما أنه مستعد لوقف الأعمال الحربية.

وفي ٢١، وصل مفاوض من مرتبة عالية، اسمه خليل رفعت باشا، إلى الإسكندرية، وقد استُقبل بكثير من التكريم والتبجيل من قبل محمد علي، وأخبر هذا الأخير في مقدمة كلامه أنه هو وابنه إبراهيم رفُع عنهما ما كان أعلنه السلطان، من تجريد من الوظيفة. وبدأ الرجلان يتحدثان عن التفاوض، وبدا كلُّ طرف فيهما غاية في حسن النية، كما وصل مفاوض آخر للحديث مع إبراهيم، ورجاه بأن يوقف جيشه حيث هو، وانتظار نهاية المفاوضات.

ولئن كان نائب الملك مُمَزَّقًا بين الخيار الأساسي الذي يوحي به إليه إبراهيم، وبين المصالحة، فإن إبراهيم يجد نفسه مقسماً بين رغبته في إقالة السلطان، وبين انقياده إلى أبيه، بحكم العاطفة والطاعة تجاه الأب. وأخيراً فازت هذه الرغبة الأخيرة، وأوقف إبراهيم أعماله القتالية أو جمّدها، على أكبر الأسف منه، قبل أن يصل إلى بروسه، هدفه، والغاية الأخيرة لمغادرته قونية. وفي ذلك الحين وصلت رسالة من البارون دوفارين. بتاريخ ٢٩ك٢.

إلى السيد الفاضل العظيم...

أظن أن من واجبي أن أعلمكم أن الباب العالي - الراغب في وضع حَدٍّ للحرب، دفعاً للأذى الذي يصيب الجماهير، التي كُلِّف، جلالته، بأمر من الله، بأن يرعاها ويقيها من الشر... - قد أرسل إلى الإسكندرية القبطان باشا السابق، خليل مصحوباً بالأمتشي Ametchi رشيد بك الذي زُوِّد بكل الصلاحيات الضرورية لعقد الاتفاق مع صاحب السمو محمد علي باشا.

إن هذا العزم، الذي هو نتيجة للاقتراحات التي كلفت بنقلها من سموّ والدكم، جعلني أقف أمام ضرورة إعلامكم به. وإن صفتي كمُمثل للدولة التي لم تتوقف لحظة عن تمنياتها لازدهار الإمبراطورية العثمانية، تسمح لي بالتفاوض مع سعادتكم.

وسأكتفي بنقل الأوضاع القائمة إلى سموّه. بأمل أن يفهم أن كل عمل عدائي قد أصبح غير ذي موضوع، وأن اللوم والمسؤولية في هذا يقعان على فاعله، وأن أعمالاً من هذا النوع تعرقل التفاوض الذي يتم بيننا. وسيرى، سموكم، أن يوقف مسيرته، ويُكلِّف مختلف رؤساء قواتكم بتعليق تحركاتها.

ولئن حق لي أن آمل بأن سموكم تبنى هذا التدبير، فإني مقتنع، تبعاً للإعلام الذي سيبلغه سموكم إلى القوات لدى الباب العالي، إنهم سيسرعون طبقاً للأوامر

التي تكون قد وجهت إليهم، بالبقاء ساكنة. وسيتلقى سموكم هذه الرسالة في بريد يعاد إليّ مع الجواب الذي يطيب لكم أن تتكرموا به علي.

أغتنم هذه الفرصة الأولى، أيها السيد الفاضل العظيم، لأقدّم لسموكم أكبر عواطف الاحترام والتقدير (٤).

ويجيب إبراهيم في ٣/ ٢، كما يلي:

المحترم، اللماح، الطيب والكريم السيد البارون دوفارين.

تلقيت الرسالة التي وجهتموها إليّ بتاريخ ٢٩ يناير (كانون الثاني) عام ١٨٣٣. وأحطت علماً بمضمونها الودّي.

ولقد شرحت بالتفصيل، بكل أناة، وبالواسطة، للباب العالي بأن تركي قونيه، وعزمي على المضي مباشرة إلى بروسّه Brousse لم يكن لهما من غرض غير ندرة حاجات التموين، ونقص الخشب في قلب الشتاء، وأن هذه الحركة من جهتي، كانت ناشئة عن الصعوبة التي كنت أشعر بها في الحصول على حاجات قواتي.

وعلى ذلك فإن تقدُّمي إلى الأمام سبّبته الضرورة. وها نحن الآن في كوتاهيه، حيث توجد حاجات الحياة بسهولة أكبر. إنني طبقاً لإرادة والدي، ونياته الطيبة، باقٍ هنا حتى أتلقى أمراً آخر من والدي.

وإني سأبلغ الباب العالي بهذا كله. وآمل أيضاً أني أقوم بتلبية رغبتك الطيبة، يا صاحب السعادة، وأنتهز هذه الفرصة لأسأل عن صحتكم الغالية.

ولكن الأتراك رجوا الروس في الوقت نفسه إرسال قوة تتيح لهم الوقوف في وجه تقدم إبراهيم.

البارون روسان، ومصائب ديلوماسي:

وفعلاً، فإن الأميرال البارون روسًان، Roussin السفير الفرنسي الجديد في الآستانة، تلقى يوم ١٨ شباط، من الباب العالي، مذكرة تحمل على توقع وصول الأسطول الروسي، سريعاً، ما لم تنسحب القوات المصرية، قبل وصوله. وفي اليوم التالي التقى وزير الخارجية التركي، وأفهمه أن وصول الروس، سيعني محو تركيا من خريطة أوروبا، وطلب إبلاغه شروط الصلح من الباب العالي، وألحّ على إصدار أمر جديد يوقف الأسطول الروسي. وهنا أصمّ السلطان أذنيه، وفي ٢٠ شباط وصلت خمسة بوارج وسبع فرقاطات، وُضعت بإمرة الأميرال لازاريف(٥)، ورست في مرفأ بويوكديري Buyukdere. ولم يَدُر دم روسان إلا دورة واحدة، ذلك أن ظهور الأسطول الروسي، تحت جدران قصر السلطان، جعله كثور لُوِّح أمامه منديل أحمر. ففقد دمه البارد وأرسل، بمبادرة شخصية منه، إنذاراً إلى الباب العالي، جاء فيه قوله: إنه إذا لم يعقد الصلح (مع القاهرة طبعاً) فإنه سيترك البلاد، ويدعها لمصيرها.

وفجأة، يصاب السلطان بما أصيب به روسان ويعتريه الخوف، لا من غير سبب، ذلك أنه منذ وصول الجنرال مورافييف، إلى استانبول، ارتكب خطأً كبيراً، بجعل الأتراك يفهمون، بأكثر مما يجب، أثقال وجوده. ولقد تجوّل في الثكنات، وتعامل مع الجنود كما لو أنه يُمثّل القيادة. وكان هذا نوعاً من النفخ في الرماد. ولكن الرماد كثيراً ما يكون حاراً جداً.. وحدث أن الرعايا شعرت بشجاعة أكبر من شجاعة السلطان. وهكذا فقد علا الاضطراب، في العاصمة؛ وأخذ الناس يتهامسون أن باشا مصر لن يذل عظمة الهلال (الهلال هنا يعني علم تركيا يومئذ) إلى هذه الدرجة. وفجأة وبين يوم وآخر، أصبح لمحمد علي في الديوان أكثر من نصير واحد، مختبئ بثيابه.

وكردَّ على هذا الوضع، يصرِّح محمود الثاني لروسان أنه يلتزم، بلا تحفظ، بالعدول عن المساعدة الروسية، إذا كانت فرنسا تضمن له الوصول إلى السلم

بالشروط التي حملها إلى الإسكندرية خليل باشا. ولنذكر هنا أن هذه الشروط، تمنح، محمد علي «باشوية عكا، طرابلس، القدس، ونابلس. ولكن روسان، الذي يعرف مع ذلك أنها شروط غير كافية بنظر الباشا، يقبل ضمان فرنسا، إقامة السلم على هذه الأسس، شريطة أن يطلب من روسيا سحب أسطولها من البوسفور بأسرع فرصة. ويعلن الباب العالي التزامه بهذه الشروط، ولكنه يجهل أن الأميرال روسان جعل من نفسه رئيساً يتّصف بكونه حكماً وضامناً لقبول محمد علي الذي لا يعرف من ذلك شيئاً.

ولما كان روسّان قد أُعمي بضرورة استبعاد الأسطول الروسي، فإنه يمكن التساؤل عما إذا كان قد أحَلَّ تصوره الشخصّي، مَحَلَّ تصورُّ حكومته. وهذا أمر يمكن الشك فيه، طبقاً للنظرية التي دافع عنها السيد صبري. ويرى هذا الرجل أنه إذا كان روسان قد تجاوزَ بعض الشيء، جملة سلطاته فإن هذا لا يعني أنه لم يعبّر عن أماني فرنسا، من دون أن يدعم مطالب محمد علي، تاركاً حدود هذا تقتصر على الباشويات المشار إليها سابقاً، من دون سورية. والحقيقة أن فرنسا، المحبة لتركيا في استانبول، والمحبة لمصر في الإسكندرية، مقتنعة بأن إعطاء محمد علي، باشوية عكا التي كُبّرت حتى جُعلت تشمل سورية، يمكن أن يؤدّي إلى نشوء دولة جديدة ليست خطرة فحسب، بل هي خطرة على حساب الباب العالي. نحن إذن دوماً نظل نبحث عن التوازن المستحيل.

ومن جهة أخرى، نجد أن هذا التصور يُؤكد الحديث الذي تم بين Clot كلوت بك يوم ٢٥/ ٣/ ١٩٣٣، وبين لوي فيليب(٦).

«حسناً! يا كلوت بك، إنك ستعود إلى مصر؛ فهل أنت سعيد برحلتك هذه؟

- بلى، يا صاحب الجلالة، إني سعيد جداً بالاستقبال الذي تـمّ لي، سواء أكنت في فرنسا، أم في إنجلترا. إن هذه الشهادات ذات العلاقة بالمصالح، وما أُحطتُ به من الاحترام... في كل المدن التي زرتها، هي بالنسبة إليّ مكافأة على أعمالي، وتشجيع على بذل جهود جديدة. ولكن عليّ يا صاحب الجلالة أن أقول

إني أسافر وأنا غير سعيد بملاحظة أن الحكومة باردة جداً، فيما يتعلق بالقضية المصرية التي هي أيضاً قضية فرنسا. إنه يبدو لي أنني أسمع صوت نائب الملك يقول لي، عند وصولي: أهكذا إذن تعاملني فرنسا التي أُحبها جداً، والتي كان يسعدني أن أشركها في بعث مصر الجديدة بإعطائي لمؤسساتها، ورجالها، تفضيلاً خاصاً، كان يجلب لي، في الكثير من الأحيان، لوم الشعوب؟ أو كان يجب علي أن أنتظر أن تكون فرنسا هي التي تعلن أنها الأكثر عداوة لي؟».

- إنك تخطئ، إن فرنسا لا تعلن أنها ضدّ محمد علي. ذلك أن الأمر فعلاً هو بالعكس، أي أنها مستعدة تماماً لمساعدته!

- يا صاحب الجلالة، إن المادة الخامسة من معاهدة الأميرال روسان، ليست ببرهان حسن على هذه الاستعدادات الحسنة أو الوديّة. إن هذه المعاهدة جارحة لمحمد علي ومهينةٌ له، وهو لن يقبلها أبداً.

- وماذا تريد؟ إن الروس هناك، ومن المهم أن نجعلهم يرحلون. ومن جهة أخرى فإن هذه المعاهدة ليست بجارحة بقدر ما تظن. إن محمد علي سيحتفظ بباشوية عكا وملحقاتها، وأنا لا أشك أن هذا سيؤدي إلى الاستقلال».

ولئن نقل هذا الحديث بأمانة، وهذه هي الحال على الأرجح، فإننا نرى جيداً أن ملك الفرنسيين يقول نفس الكلام الذي يقوله سفيره. وبالمقابل، فإن روسان يبدو أخرق، خاصة عندما لا يحسب أي حساب لردّ فعل صاحب العلاقة محمد علي.

وفي ٢٢/ شباط، قام، زيادة على ذلك، بحمل رسالة إلى محمد علي بواسطة مساعده العسكري، الكابتين (الملازم الأول) أوليفييه. وهي رسالة أقل ما يقال فيها إنها عرجاء وإليكم نص هذه الرسالة.

إلى السيد الرائع:

إن حكومة جلالته التي أخافها، بحق، تقدُّم ابنك إبراهيم، وموقفه الملتبس، قد قبلت، آخر الأمر، تلك المساعدة المادية التي كانت روسيا قد قدمتها. ومنذ ذلك الحين، وبعد أن أطمأن إلى المقترحات المهادنة لسموك -كان من المرغوب فيه أن تعدل عن طلب هذه المساعدة؛ ولكن الذي حدث، بحكم هذه الحتميات المشؤومة التي حدثت أكثر من مرة، هو أن قضايا من هذا النوع كثيراً ما تنقلب إلى كوارث سياسية، إذ أن العمارة البحرية الروسية وصلت، وألقت مراسيها في البوسفور. ومثل هذا الوضع يفسد، إلى حد خطير، هدوء أوروبا، ويحمل الإمبراطورية العثمانية على مجابهة خطر عظيم تنعكس نتائجه على سموكم. ولهذا فإني أتقدّم، بالاتفاق مع الباب العالي، وباسم حكومة الملك، بحثّكم على قبول مقترحات خليل باشا، بشرط أن تعلن فوراً وتبلغ إلى المبعوث الروسي، ليعرف أن مصالحتكم قد تمّت، وأن العمارة الروسية ليس لها بعد الآن من غرض.

ولذلك فإني جئت أرجوكم، يا صاحب السموّ، لا من أجل مصلحتكم الخاصة فقط، بل من أجل أمنكم، بأن تستعيدوا جيشكم بلا تأخير، في حدود الأرض التي سلمتّ إليكم إدارتها، وأن تعودوا إلى العلاقات الطبيعية مع الباب العالي، حيث تلقيتم أنتم وابنكم إبراهيم «التكليف بالباشوية على عكا، والقدس، وطرابلس ونابلس. إن الاعتدال قد أصبح، بالنسبة إلى سموكم ضرورة مُلحّة. أما الاستمرار في المطامع التي أثرتموها، فهذا يعني تعرضكم لنتائج كارثية؛ لا أشك أنها تثير مشاعر الخوف لديكم. وسوف تكون فرنسا وفية للالتزام الذي تعاقدنا عليه؛ ولها القدرة على ذلك، وأنا أضمن إرادتها. ولم يعد لدي إلا الأمل بأنكم لن ترغمونا على الضرورة الغاشمة التي تقسرنا على مهاجمة دولة تعتبر جزئياً، من أعمالنا، وتسويد مجدٍ، أنا أول المعجبين النزيهين به.

هذا وإن مساعدي الأول هو الذي سيحظى بشرف تسليمها إلى سموكم. واسمحوا لي بتوصيتكم بإحاطته بعنايتكم وأقرن برسالتي نسخة إلى ابنكم إبراهيم باشا.

وإني لأغتنم هذه الفرصة، أيها السيد الرائع، لكي أقدم عظيم تقديري(٧).

وبعد شهرين من هذا التاريخ، أي في ٥/ ٥، وأثناء حديث مع البارون بوالوكونت، سيذكر بوغوص بك هذه الرسالة بهذه الكلمات: «إنه ليس في مسلسل علاقاتنا (مع فرنسا) إلا لحظة واحدة، كانت مؤلمة لنا، ولكن هذه جرحت سموه في القلب، ولقد رأيته يتحمّل ألواناً مختلفة من المصاعب، ويتلقاها بروح واحدة، وباشة في آن واحد. أما في هذه المرة، فقد جعلت سموه يضطرب أكثر الاضطراب، لدى تلقيه مثل هذه الرسالة، من جانب فرنسا»(٨).

وفي وسع الإنسان أن يتصور ما شعر به الباشا من مرارة شديدة، وصلت إلى الحدّ الذي جعله يُصرّح فيه لقنصل إسبانيا «أنه وهو يشعر بالخطر على حياته، لا ولن يمحو حتى مقدار إبرة، من المقترحات التي كان قد قدّمها، وعند ذلك كان يستدعي آلهة مصر القديمة، ويضع كل شيء على مسؤولية السلاح.

وهكذا فقد ردَّ على روسان بهذا التعليق يوم ٨ آذار فقال:

السيد السفير:

تلقيت رسالتكم المؤرخة في ٢٢ شباط (فبراير) التي سلّمت إلي من يد مساعدكم.

وفي هذه الرسالة، تبدون لي «أنه ليس لي الحق في المطالبة بأراض أخرى غير عكا والقدس ونابلس وطرابلس، في سورية، وبالتالي فإن علي أن أسحب قواتي فوراً» وإنك لتصرح لي أيضاً أنه في حال عدم الاستجابة، يجب أن أتوقّع نتائج وخيمة أشد، إذ لقد قال لي مساعدكم أثناء استفساري عما قلتموه له، إنه إذا أبقيتُ مطامحي كما هي، فإن أسطولاً مختلطاً، فرنسياً وإنجليزياً، سيظهر على السواحل المصرية».

فالرجاء، يا سيدي السفير أن تقولوا لي: بأي حق تطلب مني مثل هذه التضحية؟

إن معي أمتي كلها؟ وإثارة الأناضول لن تتعلق إلا بي. وعندما يساعدني شعبي، فإنني سأستطيع أن أفعل الأكثر. فأنا سيد على الكثير من المناطق، ومنتصر في كل النقاط، وعندما كان الرأي العام يعدني بالاستيلاء على سورية، كنت أؤخر سير جنودي، دفعاً لهدر الدم، دونما فائدة، وأصبر الشهر بعد الشهر، لكي أستشير السياسة الأوروبية؛ والآن، وكثمن لهذا الاعتدال والكثير من التضحيات التي قدَّمها شعبي الذي كان دعمه الكريم يجعلني أنتصر الانتصارات المشار إليها، يُطلب مني أن أتخلى عن الكثير من المناطق التي أحتلها الآن، كما يطلب مني أن أسحب جنودي إلى منطقة صغيرة تسمونها باشوية! أو ليس هذا بحكم بالموت السياسي عليَّ؟

ومع ذلك فإني أظل واثقاً أن فرنسا وإنجلترا لا تأبيان علي العدالة، وعلى الاعتراف بحقوقي: إن شرفهما مقيد بهذا. ولكن لئن خُدعت لسوء الحظ، بمثل هذا الأمل، عندئذ سأسلم أمري إلى الله، مفضلاً الموت المشرّف على الخزي والعار، وسأخلص بكل فرح، لقضية أمتي، وأنا سعيد بأن أخدمها حتى آخر نفس من أنفاسي. ذلك هو عزمي المقرَّر جيداً. ويعرف التاريخ أكثر من مثل واحد على مثل هذا الإخلاص.

ومهما يحدث، فإني آمل أن سعادتكم ستعترف بعدالة حقوقي، وتتقبل مقترحاتي الأخيرة التي قدمتها لخليل باشا، عن طريق سعادته.

وفي مثل هذا الأمل، يا سيدي السفير، أكتب إليكم هذا الكتاب الوديّ، وأقدمها إلى من حمل رسالتكم إلي(٩).

وقد كتب روسان من استانبول إلى ميمو Mimaut يرجوه بذل جهده لثني محمد علي عن مقترحاته، على الرغم من أن هذا كان يدعم باستمرار آراء الباشا، من دون أي نجاح. ولما كان روسان كبير الصبر والملاحقة، فقد كتب إلى إبراهيم،

ليطلب منه التراجع بجيشه إلى الحدود التي يعيّنها الباب العالي لمحمد علي. لكن إبراهيم يرفض ذلك رفضاً تاماً.

أما في باريس، وقبل إعلان خيبة الأمل، فقد قدّر الدوق دوبروغلي أن الأميرال روسان تجاوز تعليماته، وتجاوز الحدّ والتوازن السليم. بحمله شروط الباب العالي حملاً شخصياً، وبوعده بضمان فرنسا لها. فإذا هو لم يعلن أو لم يتنكر لما ضمنه، فستوجه إليه واحدة من هذه الرسائل الجميلة التي تعفي الوزير من المسؤولية، أكثر مما تفتح عيون السفير. ومن حسن الحظ أن السلطان ردَّ إلى الأميرال روسان تلك الخدمة اللامقصودة، أي مجرّد القول دون العمل. ذلك أن السلطان لم يفعل شيئاً لجعل الروس يتركون مراسيهم في بيوكديري Buyukdere، بل إنهم قدموا له خمسة آلاف جندي كمدد. ودعي محمود إلى استعراض القوات الروسية، برفقة السفير مورافييف Mourawiev وعبّر عن مسرّته وعن المتعة التي يشعر بها تجاه «التدابير» الصداقية والنزيهة التي اتخذها إمبراطور روسيا. وفجأة أطلق على الآستانة لقب المحروسة، من قبل الشعب التركي. ومن الواضح أن هذا اللقب، ذو معنى ملتبس.

ولما كان السلطان قد نقض التزامه، فإن الأميرال روسان Roussin يعكس موقفه، ويلح على السلطان بأن يقبل شروط محمد علي.

البارون دو بو الكونت Le baron de Boislecomte:

وفجأة، وفي نهاية شهر آذار -مارس أخبرت إنجلترا فرنسا بأنها قرَّرت أن ترسل عمارة بحرية لترسو أمام الإسكندرية. وكانت هذه الإنجلترا قد وقفت وقفة شبه حيادية منفعلة أمام هذه الأزمة. وأضافت بأنها أمرت قنصلها العام Camp-bel، بغية الضغط على محمد علي. ووصلت العمارة إلى مصر في ٢٧ آذار. وفي اليوم التالي، قابل Campbel، بوغوص بك، وصرّح له بأن إنجلترا حريصة جداً على بقاء الإمبراطورية العثمانية وسلامتها، وأنها تعتبر هذه كعنصر أساسي للتوازن في الوضع العام لأوروبا.

وفي شهر نيسان، جاء دور النمسا لكي تتدخل. Prokesch (أي مبعوث مترنيخ) أخبر محمد علي «أن النمسا لن تتسامح أبداً في المبادئ الحيوية لوجود الدول». وأضاف: أنها صديقة الباب العالي، ومن حيث هي كذلك، فإنها تقف ضد أي تدبير أو ترتيب يمكنه تقطيع أوصال هذه الإمبراطورية.

وعندئذ عادت فرنسا إلى التدخل، وقام الدوق دو بروغلي - (يعني وزير الخارجية) مباشرة، بعد ما عرف الأثر السيء جداً تجاه ما فعله روسان، وإساءته إلى محمد علي، بإرسال مبعوث إلى الاسكندرية هو البارون بوالوكونت، وسلَّم هذا، يوم ٧ نيسان ١٨٣٣، تعليمات تقوم على أن واقع الإبقاء على العمارة الروسية في البوسفور، قد أعفى تمام الإعفاء، فرنسا، من الضمان الذي قُدِّم على يد روسان. وكذلك أمرته بأن يطلب من محمد علي سحب جنوده من تركيا، كيلا تعرّض انتصاراته مرة أخرى، المصالح العامة لأوروبا

وخلال ذلك، أكدَ محمد علي للباب العالي، رفضه لأي مهادنة، وأوضح له أنه إذا لم يُقبل بشروطه خلال خمسة أيام، فإن إبراهيم سيتلقى الأمر بالمسيرة إلى استامبول. وعندما تلقى السلطان محمود هذا الإنذار، فهم أنه أصبح من الضروري وضع حدٍّ لتردداته وتأجيلاته، والانتهاء إلى قرارما. أما في أعماق نفسه، فإن مصر تخيفه، لأنها تضع رقبته تحت رحمة روسيا. وأخيراً فإن محمودنا هذا أعلم فارينVarene، بأنه يوافق على منح رجل كافالا، تلك الباشويات الأربع السورية المرغوبة بقوة، وما يتعلق بها، ولكنه لن يقبل بالتنازل عن منطقة أضنة، بأي حال من الأحوال. وقد أحدث هذا الخبر ضجة كبيرة، واعتبر محمود الثاني أن المفاوضات قد انتهت.

وعندئذ بدأ محمد علي يتخابث، فيقيم احتفالاً كبيراً بمناسبة إحلال السلام، ويملؤه بالمتع العامة، ويجعل المدافع تدوي في القلعة. أما في قرارة نفسه، فإنه كان لا يريد أن يتخلى عن أضنه. إن هذه المنطقة كانت ضرورية لأنها مغطاة بالغابات. ولأن مرفأها طرسوس، كان يسمح بنقل سريع للخشب الذي يحتاج إليه لترميم قطعه البحرية، ولإنشاء المزيد منها.

ووصل البارون بوالكونت في ٢٩ نيسان، إلى الإسكندرية في هذه الأجواء، وفَهِمَ مباشرة أنه ما من شيء قد تم.

«إن أول خبر استقبلني كان ذلك المتعلّق بعقد الصلح؛ وكانوا قد أعلنوا عنه بضرب المدافع، وبملاء عامة، كانت قد هيئت للاحتفال به. وكما يحدث في هذا النوع من المناسبات، فإن الحادث الأساسي طغى على كل الظروف الجانبية، وبدا للناس أن كل شيء قد انتهى. بيد أنه حدث في ذات اليوم، أن ميمو الذي أراد أن يخبرني بكل ما حدث، وبكثير من التفاصيل، وكثير من الدقة، جعلني ألاحظ أن المبعوث المفوض التركي، لم يكن يملك من الصلاحيات، إلا ما تعلق بسورية، أما الاستيلاء على أضنة فإنه سيدعم الطلب لدى الباب العالي.

[...] وفي اليوم التالي، أي في ١ مايو ١٨٣٣، مضيت للقاء الباشا محمد علي. ورأيته في آخر صالة واسعة، محاطاً برجال البلاط الكثيرين واللامعين: إنه رجل ذو قامة متوسطة، عمره سبعون سنة [٦٣ في الواقع] ولكنه ممتلئ بالحيوية؛ ثم إن نظرته النافذة والغامضة، ولحيته الطويلة البيضاء، تضيف شيئاً ما إلى تعابير وجه كثير الحركة بشكل خاص، وترتسم عليه بقوة وتتابع بسرعة جملةُ الانطباعات المتضاربة.

[...] وعندما جئت أذكّره بضرورة استدعاء قواته من آسيا الصغرى، أجاب باسماً «حسناً، إلا أن لدى فرنسا وإنجلترا وسيلة بسيطة جداً لإعادة هذه القوات، وهي أن تنصحا الباب العالي بإعطائي منطقة أضنة. وسوف يستجيب الباب العالي، وينتهي كل شيء».

ولكن بوالوكونت يُحذّره ويقول له: «اكتف بسورية، فهذه قسمة جميلة بدرجة مناسبة» وقد اكتفى ملوك أقوياء بمثل هذا قبلك، أولاً تظن أن هناك في الإمبراطوريات، بعض الحدود متى تجاوزناها تصبح سبباً للضعف. وهذا ما سيحدث لك إذا ما تجاوزت حدود سورية. ذلك أن هذا القسم الآخر الذي تطلبه يصبح موضوع قلق وسوء نية، لدى الباب العالي، وستصبح أنت أيضاً موضوع قلق (أو إقلاق)، من جميع الدول الأوروبية.

ولا يسع أي إنسان أن يُلخِّص الوضع بأفضل من هذه الكلمات. ولكن محمد علي يُصر على مطالبه، ويقول: «نحن متفقون على هذه الغاية. ولكني أريد أضنة، لأهب مملكتي وضعاً ثابتاً ونهائياً، ولا يكون بعد ذلك أي موضوع للخلاف بيننا وبين الباب العالي [...] وأخيراً نحن نحتاج في الأسطول إلى الخشب. خشب البناء، ولا ينبغي بعد ذلك أن يتعلق بإرادة أي باشا لتجديد الإساءات التي حمّلتها أو حملوني على الشعور بها، عندما جئت أبحث عن خشبي في هذه المناطق نفسها(١٠).

وكان البارون بوالوكونت، في داخل نفسه، يعطيه الحق. وأحسن من ذلك، أنه فكّر بأن الباشا، متى أصبح سيداً على هذه المناطق، فإنه يكون في وسعه أن يصبح حليفاً هائلاً لفرنسا. ويكتب الرجل فيقول: «لئن حدثت حرب عامة ذات يوم، فربما استطاعت حكومة الملك أن تحمل حليفاً لها، لديه موارد ليست مما لا يؤبه له، على العمل معها بفائدة جيدة، وعلى إشغال قوى معادية كثيرة، ربما أعلنت الحرب على فرنسا(١١).

أما من جهة إبراهيم، الذي قام أو بدأ يقوم بحركة تراجع لقواته، فإنه جمّد مواقعه. وطلب من السلطان أن يقرِّر نهائياً مشكلة أضنة. ويضيف قائلاً: لن أتحرك بعد اليوم من المكان الذي أنا فيه إلا إذا تلقيت أمر أبي. ومن هنا نعرف أننا ما نزال أمام حجر عثرة.

وعندما فقد الأميرال Roussin أمله، كلّف Varenne بالمضيّ إلى إبراهيم، كي يحاول إقناعه. وأطاع الرجل الأمر من دون اقتناع. وعاد يقرأ التعليمات، كيفما اتفق، كي يرى فيها كيف يتابع عمله، على كونه قرّر ألا يتلقى نصيحة إلا من نفسه. وكان يعاونه في مهمته الـ Ametchi رشيد بك.

وبعد رحلة مرهقة، قبل هؤلاء أمام بطل كونيا (أوقونية) الذي يستقبلهم في بيت كبير من الخشب. وعلى الرغم من البرد القارس، فإنه غير مُدَفأ. وهكذا فإن

لواء الألوية يشترك مع رجاله بتحمل الحياة القاسية . وبالمقابل، ومن أجل تكريم ضيوفه، نراه يأمر بعزف النشيد الوطني الفرنسي La Marseillaise . وسرعان ما نصل بعد ذلك إلى تصريح يتّسم بالمودة لفرنسا، ولكنه يظل حازماً فيما يتصل بمتطلباته، ومتطلبات أبيه، أي الحصول على سورية، وباشوية ديار بكر، ومناطق إيتشيلا وآلايا وأضنة Itchyla و alaya وأضنة، أي ما هو موطئ قدم في آسيا الصغرى. ويناضل فارين Varenne بأفضل ما عنده، ضد هذه المطامع، وأخيراً يقف إبراهيم عند أتشيلا وآلايا Alaya، ويعدل عن وضع الترتيبات اللاحقة لباشوية ديار بكر. أما ما يتصل بأضنة، فإنه يظل في مثل إصرار أبيه.

جائزة روسيا معاهدة SKELESSI-UNKIAR :

أما في الإسكندرية، فإن بوالوكونت يثابر على عمله. فيشير إلى الخطر الذي يُمثله وصول العمارة الإنجليزية، ويصرّح لبوغوص بك قائلاً: «ليس لديكم من وسيلة، لاتقاء خطر العمارة الإنجليزية، والذل الذي ستعانونه أمام قبول الإنذار الذي سيوجهه إليكم السيد Campbell، أي ما أعلمني به رسمياً أن تصرّحوا لي رسمياً بأن محمد علي، الشاعر بعناء الطريقة التي اتبعها معه الملك، والحريص على نصائح صديق له، وجّه أمراً بإعادة اجتياز جبال طوروس فوراً، من غير انتظار نتيجة المفاوضات الخاصة التي افتتحت من أجل أضنة».

وفي اليوم التالي، حمل بوغوص جواب نائب الملك. وخلافاً لكل توقع، فإن فكرة الخطر الذي يهدده، زادته حماسة، بدلاً من أن تضعفه. وهو يقول: «إن الأشياء قد تجاوزت الحدود إلى الدرجة التي لم يعد يخاف منها شيئاً من قدوم العمارة البريطانية التي لا تستطيع شيئاً آخر غير محاصرة الإسكندرية، أو قل إنه لم يعد بحاجة إلى إرسال المزيد من المؤن والذخائر إلى ابنه».

وعندما كان يحدث هذا كله، كان قد وصل إلى استامبول، سفير جديد لإنجلترا، هو اللورد بونسونبي Lord Ponsonby، وهمس هذا في أذن زميله السفير الفرنسي، ليقول له: إن قضية أضنة ليست بالأمر المهم، وإن الشيء الأساسي هو استبعاد الروس عن استانبول. ولهذا يجب على الباب العالي أن يقبل بتسليم أضنة. ولم يكن لدى الأميرال Roussin شيء آخر غير الاتفاق في الرأي مع زميله بونسونبي. لكن السلطان، المتزايد القلق من آثار الوجود الروسي في البوسفور أمام الشعب المسلم، يعرب عن موقفه، ويصدر أمراً يكلّف فيه إبراهيم بإدارة منطقة أضنة. وأخيراً فقد وقع على ما يسمى وثيقة السلام التي يطلق عليها اسم صلح كوتاهيا. وعندئذ يجد الأسطول الروسي، أنه لم يعد لوجوده معنى، فينسحب من البوسفور.

بيد أن روسيا لا تقف عند هذا الحد، إذ أنها حظيت بالتقدم حتى أبواب الآستانة «باسم الودّ القائم بينها وبين الإمبراطورية العثمانية، وبحكم أنها تفدي السلطان بالروح والدم». والحقيقة أنها لم تكن ترى في ذلك إلا مرحلة أولى على طريق تحقيق مشاريعها. أو قل إن ما فعلته ليس إلا خطوة أولى، ألبست ثوب الإخلاص والمودة الفائقة، والاعتدال وحب الخير للجار. أما الآن فإن عليها أن تتقاضى الثمن. كمكافأة عادلة للدعم العسكري، الذي قُدم للسيد الأعظم، مولانا أمير المؤمنين.

وفي ٨ تموز (يوليو) ١٨٣٣، شاع خبر دار بين السفارات الأوروبية، ووقع كالصاعقة على رؤوس الناس، فقد عقدت معاهدة بين الباب العالي وروسيا، أطلق عليها اسم Unkiar Skelessi(١٢). وكان الباب العالي يوضع تحت الوصاية الروسية، وبالتالي فإن المضايق ستكون لروسيا أيضاً، تحت شعار ضمان تقديم العون لتركيا. وكانت هذه المعاهدة تدوم ثماني سنوات، وتعقد بين روسيا وتركيا تحالفاً دفاعياً، وتحرّم بموجبه، الدخول من مضايق الدردنيل على أية دولة أخرى. فإذا انفجرت الحرب بين الباب وروسيا، فإن روسيا هذه، يحق لها أن تُدخل

عماراتها البحرية في البوسفور. ويا لسخرية القدر: إن محمد علي، التابع، صار أكثر استقلالاً من سيّده. على حين أن هذا السيّد صار تابعاً لدولة أجنبية.

وعندما انسحبت روسيا، أرادت أن تترك في نفس المكان الذي كانت تقام فيه خيام قواتها، آبدة تشهد على حرصها على الإمبراطورية العثمانية، وقد نقش على هذه الآبدة التي نُصبت في انكيار - سكيليسي، وباللغة التركية. ما يلي: «إن هذا السهل استضاف القوات الروسية لمدة قصيرة ولتكن هذه الآبدة ذكرى دائمة للتحالف بين بلاطين. ونتمنى على اللّه أن يدوم هذا التحالف قوياً وثابتاً. ولتخلّد هذه الذكرى في حوليات الصداقة».

وفي هذه القضية التي وَجَدَ فيها كلٌّ من الطرفين أنه في وضع غير سليم، كانت روسيا هي التي تنتصر أخيراً بجعلها تركيا رهينة. وكانت المعاهدة تضعُ الدول الغربية، والعالم السلافي وجهاً لوجه. ولئن كان سلام كوتاهيا يجعل وضع الشرق قلقاً. فإن معاهدة أنكيار - سكيليسّي تجعل الغرب في وضع خطر.

أما محمد علي، فإن في وسعه أن يكون مسروراً: فهو قد أصبح سيّد فلسطين، وسوريا كلها، وجبال طوروس التي تحميه ضدّ كل عدوان تركي، وتسمح له حتى بالقيام بهجوم ضد الآستانة، لأنها مفتاح تركيا. وهذا يعني أنه يتمدّد تمدّداً أرضياً واسعاً، وأن يتعاظم نفوذه السياسي. أما من الوجهة الحربية، فإن انتصاراته كشفت عن تفوقه في السلاح، على الإمبراطورية العثمانية، التي هو تابع لها وواحد من رعيتها. ويبقى حتى من طرف اللسان، مجرَّد تابع.

ولكنه، وهو يتمدّد بهذا الشكل، جعل سلطته تتجاوز أراضي أخرى أقل وحدة جغرافية، وفيها عناصر أكثر تبايناً مما هي الحال في مصر، وبالتالي فإنها ستكون أعسر على الحاكم والحكم.

ومن هذه اللحظة، بدأ محمد علي، كحبيبه نابوليون، يصبح أول ضحية لتوسعه هذا.

-٢٥-

إبراهيم القائد العام والإداري الكبير (١٨٣٣-١٨٣٨)

وأخيراً أصبح إبراهيم سيداً على سورية التي طالما اشتاق إليها أبوه. ولكن كيف كانت هذه البلاد تعيش حتى ذلك الحين؟ وفي أي الشروط؟ إن هذا ما سنرسمه في خطوطه الكبرى.

فمنذ عام ١٥١٧ (والحقيقة منذ عام ١٥١٦)، أي بدءاً من الفتح العثماني، لم يزد الباشوات شيئاً، على أنهم حكموها، جامعين في الوقت نفسه، وبقدر الإمكان، مصالح الباب العالي، ومصالحهم معاً. لكن الباب العالي الذي استبقى تقسيم السلطات، وشجع صور الحكم المحلية، كان يأمل باستمرار سلطانه، ولو أدّى ذلك إلى نفاد الموارد في البلاد التي افترستها الفوضى. وكانت النتيجة المباشرة لهذه السياسة، أنها خلقت جواً ينتشر فيه التمرّد، ويصبح شبه مستوطن.

ففي دمشق اضطر داوود باشا إلى الاستسلام عام ١٨٣١ أمام التمرد. أما خلفه سليم، فقد انقلب عليه، بتمرّد مماثل. وقتل في سجنه؛ وكانت رعاياه تحاصره في نفس الوقت الذي كان فيه إبراهيم يدخل إلى سورية. وفي السنة نفسها اغتصبت مدينة حمص بالقوة، من قبل أحد المغامرين، وهو سليم آغا بشير الذي كان قبل ثلاث سنوات قد اغتصب حكمها. أما المنطقة القائمة بين غزة والقدس، وهي أرض

واسعة تكوّنت مِنْ مناطق جبلية من السامرية وفلسطين، فإنها دومـاً تخشى ظهور أحد الأشقياء المشاهير، مثل، «أبو غوش» الذي كان يسن القوانين، أو قل هو القانون. إنه دومـاً يحدّد عشوائياً ما يُفرض على كل البضائع، وكل الأشخاص الذين يجتازون البلاد، مضياً إلى الأرض المقدسة.

ثم إن سورية الجنوبية تخضع بحكم الواقع إلى بدوي اسمه الشيخ حسين، الذي أنشأ لنفسه دولة حقيقية. ولما كان سيداً مستقلاً، فقد نجح في فرض سلطانه على كل جبل نابلس. وأما الباب العالي، العاجز، فإنه انتهى إلى قبول الأمر الواقع.

وكذلك فإن سلطة الباشا السابق لعكا، أي عبد الله (الذي تقدم ذكره) لم يُعترف بها وراء جدران عكا التي كان يسكنها هو.

وقل مثل ذلك في حلب. ذلك أنها كانت دومـاً مسرح أو مجال صراع مزمن بين ميليشيات الانكشارية، وبين طبقة الأشراف. ثم إن ممثّل السلطان يظل مضطراً إلى الاستناد مرة إلى هنا، ومرة إلى هناك، لكي يبقى في مكانه. ولكن المذابح وصور النهب المتكررة جعلت اللا أمن قاعدة، كما ردّت سلطة باشا حلب، إلى ما يشبه العدم.

وفي دمشق، ومنذ موت سليم باشا، وجد فيها شيخ استولى على السلطة. وكان المسيحيون واليهود يعانون منه كل أنواع العنف والظلم، على يد فئات من أنذال الشعب المتعصبين واللا خاضعين لأي قانون.

وكان البدو في جنوب سورية، والأكراد والتركمان في شمالها. يقطعون الطريق على القبائل، وينهبونها، دون أن يخشوا أي عقاب.

وفي لبنان، كانت الدولة الدرزية -المارونية، برئاسة الأمير بشير، تحتفظ بوجودها بصورة أو بأخرى، متحملة دومـاً شرور الاضطرابات التي تجتاح المنطقة

المجاورة. ويجب الحديث عن جانب إيجابي: هو أن الأمير لا يجد مجالاً لأن يخشى من جيرانه شيئاً، لأنه هؤلاء مشغولون دوماً بالتناحر فيما بينهم.

وحيثما مضيت في البعد، تجد الزراعة مهملة، متعبة، والتجارة خائفة قلقة، إن لم نقل إنها تعاني النزع. ثم إن المرافئ تمتلئ بالرمل، وما كان موجوداً من التحصينات يضعف ويُخرّب. وكان الفساد يسود كل شيء، وكأنه مسموح به، أو مشجّع من الآستانة، حيث تعطى الوظائف لمن يدفع أكثر من غيره. وكان كل باشا، أو كل باشوية سورية، تكلف، تبعاً لتقرير قنصلي فينيسي (فينيسيا = البندقية) ما بين ٨٠ أو مئة ألف دوكا Ducats: أما وظيفة الدفتردار فإنها تكلف ما بين ٤٠ أو ٥٠ ألف دوكا.

وبدءاً من عام ١٨٣٣، وحتى ١٨٤٠، جاء إبراهيم وأحل النظام في مستودع من صور الفوضى.

وقد حذر، منذ البداية، من قبول مساعدة شخصيات من نوع أبو غوش، الذي أدخله السجن، وفرض عليه الأشغال الشاقة، ورفض دعم رؤساء العصابات. وبالمقابل، كان الرجل من المهارة بحيث ترك جزءاً من السلطة للرؤساء المحليين الذين ساعدوه على فتح البلاد، فثبّت الشيخ حسين في حكم منطقته الفلسطينية، وسلّم حكومة القدس، ونابلس، ويافا، لأقرباء هذا الشيخ. وكذلك فعل مع الأمير بشير، الذي تلقى أقرباؤه والمقربون منه، حكومة صيدا وبيروت ومدناً أخرى من المنطقة اللبنانية. وثبّت مصطفى بربر، في موقعه في طرابلس. أما في حلب، فإن الحاكم اختير من بين رؤساء الانكشارية. وكذلك سلّمت مقاليد الحكم في انطاكية، والمناطق الداخلية، إلى رجال من أهل البلاد، ومن ذوي النفوذ. وأقيمت في عكا حكومة عسكرية مصرية. أما باشويات دمشق، وعكا، وصيدا، وطرابلس، القديمة، فقد حُذفت. وهكذا فإن سورية وفلسطين لم تشكلا

عندئذ، إلا وحدة إدارية، عاصمتها دمشق. وفي هذه الأخيرة سلّم الحكم إلى لواء مصري هو شريف بك الذي برهن على كفاءته في مصر العليا.

وقد ضمن إبراهيم، بهذه التعيينات، مساعدة الرؤساء المحليين المحترمين، أصلاً. وإذا لم يكن هذا التنظيم قد أفلح في وضع حدّ للتمردات المحلّية، فإنه ضمن، بصورة، ما، لمجموع سورية، شروط أمن، كانت قد فقدتها منذ ما يقرب من قرن. «وأصبح في إمكان الإنسان أن يتنقل بين مختلف أرجاء البلاد، دون أن تحيط به جماعة تدافع عنه، ودون خوف». على ما يقول Mimaut، عام ١٨٣٦.

ومن الفرامانات الأولى التي نشرها إبراهيم، فرمان يتعلق بمدينة القدس: فالقدس مدينة المعابد والأديرة والأوابد، يأتي الناس، من كل الشعوب، لزيارتها، مسيحيين كانوا أم يهوداً ومن مختلف المذاهب، ويتحمّلون أعباء الرحلة، ولو كانت المسافات بعيدة. ولكن كان لدى هؤلاء ما يشكون منه من ضريبة الدخول إلى المدينة. فأراد إبراهيم أن يضع حداً لهذا كله. وقال: إننا نأمر الحكام في صيدا ومناطق القدس ونابلس، بإلغاء كل أنواع الضرائب، التي كانت مترتِّبة على الغرباء.

«ولما كانت الأديرة والكنائس في القدس تقوم بواجب إيواء المتدينين والرهبان الذين يقرؤون فيها الإنجيل ويمارسون شعائرهم وواجباتهم الدينية، فإن من العدل أن نعفيهم من كل الضرائب التي كان ظلم حكام الماضي، يفرضونها عليهم. وهكذا فإننا نريد حذف كل ما كان مفروضاً على المعابد والأديرة، التابعة لكل الشعوب المسيحية الموجودة في القدس [...].

وكل من يتجاوز قرارنا هذا أو يفرض على من ذكرنا، درهماً واحداً، سيعاقب بقسوة. ولهذه الأهداف وجّهنا هذه التعليمات إلى ديوان القيادة العامة»(١).

ويجب أن نلاحظ أن فرنسا، الدولة الحامية للكاثوليكية، في الشرق، والأماكن المقدسة للديانة المسيحية، لم تستطع في الماضي، قط، أن تنشئ قنصلية عامة لها.

ويعلن إبراهيم تساوي العبادات والأديان. وكان هو نفسه. وألويته، وجنوده، يُقدّمون المثل في التسامح، لشعبٍ سوري، ما زال مشرّباً بالمستبقات القرأوسطية. وكذلك فإن محمد علي نفسه، يستقبل في الإسكندرية المحترم جداً، الأب كوستود Custode في الأرض المقدّسة، مصحوباً بوفد يرافقه.. ويستقبله استقبالاً متميّزاً، ويحدثّه بلغة تجعله يقول: «يا إخواني: لقد تحدّث إلينا كما لو أنه أسقف».

وكان الوكلاء الفرنسيون يجدون باستمرار، من محمد علي، أو من ابنه إبراهيم، أحسن التقبل، لكل ما يتصل بالديانة المسيحية أو بحاجات الأديرة، والعناية بالأبنية الدينية. وقام قنصل فرنسا بتقديم المفوض الرسولي في سورية، عام ١٨٣٥ إلى محمد علي. ويعلن هذا المفوّض «أنه لا يشكو أي شيء من طريقة التعامل مع مسيحيي سورية، بل إنه مسرور جداً من روح التسامح التي يُعمل بها، تجاههم». ويؤكّد له محمد علي أنه لا يجبر المسيحيين أبداً على الخدمة العسكرية.

وكان إبراهيم، النصير المتحمس مثل أبيه، لقضايا الزراعة، يُعنى أكبر العناية بإحياء الحقول السورية. وما إن استقر في سورية، حتى قام بتجربة زراعات جديدة، وتنمية تلك التي كانت تُمارس من قبل، ويُقلّل الضرائب المفروضة على القرى التي تتقبَّل توجيهاته. فغرست البذور في الأراضي اللا مزروعة، في الحين الذي كان فيه إبراهيم يعيد الحياة إلى سهول أنطاكية المهملة منذ قرون، وقرون، لحسابه هو. ويؤسس ما يشبه المصرف الزراعي، الذي يعتبر كواحدة من المؤسسات المناسبة لعادات البلد وروحها. ثم إن زراعة البن التي لم تنجح في مصر، جربّت في سورية

في أمكنة مختلفة. ثم زيد غرس أشجار التوت وتكاثر. ففي عام ١٨٣٦ أحصي منها ما يقرب من ٢٤٧,٠٠٠ شجرة، وأكثر من ٥٠ ألف شجرة زيتون، على مشارف مدينة عكا. ولما كان إبراهيم محباً للخمر، فقد زرع ٢٦٠,٠٠٠ كرمة، كان بينها ١٤ ألف كرمة مستوردة من بورودو[٢]. وكان الخروع ينمو بغزارة.

وفي عام ١٨٣٧، كان في وسع محمد علي أن يقول لفرديناند دوليسّيبس: إن سورية هي التي تغذي جيشي، الذي أرسل إليه السيوف والبنادق والمدافع فقط»[٣]. وخلال هذه السنة نفسها، كان محصول القطن قد تضاعف ثلاث مرات. بالنسبة إلى الأعوام السابقة.

وكذلك فإن الصناعة، هي نفسها، عرفت ازدهاراً حقيقياً. فدمشق تقدّم وحدها ٤٠٠٠٠٠ قطعة من الحرير، ممزوجة بالقطن، بل إن الخليل تبيع في سورية كلّها، وحتى في مصر أساورها المصنوعة من الزجاج الأزرق، ومصابيحها.

ومضى الناس إلى البحث عن مناطق الحجارة، وعن المناجم. ويلاحظ أن المهندسين الفرنسيين هم الذين ينقبّون عن البورفير والرخام (والبورفير هو الرخام السمّاقي). وهناك في شمال بيروت، مجموعة إنجليزية تستخرج الفحم الحجري.

وكما حدث في مصر فإن أعمالاً عامة تمّت، وأعمالاً أخرى قيد الدراسة، كتحسين مرفأ صيدا، ومشروع لمرفأ في الإسكندرونة، وأعمال لتجفيف المستنقعات، وتنظيف وحفر الساقية التي تنبع من عتتاب، إلى حلب. وأعمال لمعرفة قدرة نهري طرسوس على إمرار القوارب، والمراكب. وبناء طرق، ومحاولات للكشف عن وجود الفحم والحديد.

وهكذا فإن العلاقات التجارية مع أوروبا، تعود فتستأنف من جديد، ثم إن حصيلة الجمارك في مرفأ بيروت كانت في حدود ٨٠٠ بورصة، أيام الحاكم عبد الله، فارتفع إلى ٣٠٠٠، أيام حكم المصريين.

أمـا تركيـز السلطة، تحت لواء سلطة قـوية ووحيـدة، فـإنه يكشف عن مـزاياه بسـرعـة. إذ أن الضـرائب زيدت، ولكنهـا تُسـتـوفى بانتظام. ثم إن الرعـايا لـم تعـد معرّضة لنزوات الباشوات وعمالهم.

ولم تعد هنالك من حاجة، كما هي الحال في مصر، للتسلح من أجل التنقل بحرية، بين مختلف النواحي والأطراف.

وهناك عـرب سـوريون دُعـو لشـغل وظائف عليـا، في الإدارة المدنيـة، وفي الجيش. وبطبيعة الحال فقد عُـمّم النموذج المصري، وجعل نظام سورية نسخة عن نظام مصر. ومنذ أول عام ١٨٣٣، اكتمل الجهاز الإداري السوري. وأعطيت وظيفة رئيس الشـؤون الماليـة إلى رجل سوري مـسيـحي، اسمـه حنا بحري، ورُفّـع على يد محمد علي إلى رتبة بيك (بك).

واحترامـاً للأمير بشير، حليف مصر، فقد ترك له كامل استقلاله، وقد أصبح عـمره الآن ٧٢ سنة، وما يزال رجـلاً قـوياً. فلحيتـه الطويلة البـيضـاء والمتـموجـة، وقـوامـه الفـارع، ونبـالـة سـمـاتـه، وحيـوية نظرته، كل هذا يجـعله صـاحب سلطة طبيـعية، يفرض الاحتـرام على الناس. ويجب أن نذكر أن لبنان الذي لـم يكن دولة بالمعنى الكامل كـان في كل الأزمنة جـبلاً ملجـأ، وهذا مـا يجـعله خليطـاً من الأديان والمذاهب، ويجعل فيـه ثقـافات متنوعـة. وحـتى عـام ١٩٢٠، سـتظل المنطقـة مثل «بيـمونت سورية Piemont de la Syrie» * أمـا في زمـان إبراهيم فـإن ثلاث فـئـات دينيـة كانت قـائمـة في جبل لبنان، وهي المسيـحيون والمارونيـون، وهـم الأكـثـر عـدداً والذين يحتـمـون بملوك فـرنسـا، دومـاً، والدروز الذين يدينون بالإسـلام أو بإسـلام غـريب نوعـاً مـا عن عـامة المسلمين (٤)، والمتـاولة الذين يعـود دينهـم إلى دين الفـرس الأقدمين. وهكذا فإن الأرض تجمع بينهم، والأديان والمصالح تفصلهم عن بعضهم فحياتهم لاتقوم إلا على معارك وتمزقات.

أما في عهد إبراهيم، فإن المحاكم (الدينية) هي كما هي في مصر، قد ضوعفت، فيما يتصل بالقضايا الدنيوية بالمجالس المؤلفة من أعيان مسلمسن أو مسيحيين لافرق بينهم.

ويشهد على كل هذه الوقائع مراسلات القناصل الفرنسيين أو حتى الإنجليز: فالعقيد Damis الذي جاب سورية عام ١٨٣٣ يلخص الوضع، لدى قيام حكومة محمد علي، وأثاره في المصالح التجارية الإنجليزية، بما يلي: «إنه يعود لحكمة محمد علي وحكومته، أن الإنجليز خاصة، ربحوا مرابح كبيرة من تجارتهم الضخمة، في الداخل السوري، وبيروت، والإسكندرون وحلب. وكانت التجارة قبل محمد علي معدومة في هذا البلد قبل وصول المصريين. ولكن الباشا عرف كيف يُخضع لسلطته، جماعات البدو. وظهرت النتائج كأفضل ما يمكن. فقد عادت التجارة إلى سيرتها الأولى. وهي تنمو أكثر فأكثر كل سنة. والإنجليز هم أولئك الذين يربحون منها أكثر العوائد دون الأجانب الآخرين».

وإذا تركنا تنامي التجارة جانبًا، قلنا إن الأوروبيين رأوا- في الأراضي المحكومة بنائب الملك- حقوقًا في الاستيراد والتصدير معفاة من التغيرات العشوائية. وكانت النسبة القديمة ٣٪ ثم أصبحت، تحت حكم الباشاوات تتراوح بين ١٦- ٣٠ بالمئة. وعادت فاستقرت كما كانت (أي ٣٪)

وقد أصبحت سوق دمشق مفتوحةً للتجارة الخارجية، أي للأجانب من غير المسلمين. أما الإشارات التي كانت تُميزُ المسيحيين، في ثيابهم، فقد زالت. وكان إبراهيم يسهر شخصيًا على تنفيذ هذه التدابير. وعلى تغيير العادات والتقاليد.

وكما هي الحال في مصر، أخيرًا، فإن البدو والأكراد والتركمان، أعيدوا جميعًا لحكم العقل. فإبراهيم يرغمهم على الخضوع والإقامة الدائمة. أما الذين يرفضون هذه التدابير، فإنهم يبُعدون إلى الصحراء.

---

* البيمونت مملكة في شمال إيطاليا، عاصمتها تورينو، كانت مزدهرة جدًا.

وكانت القيادة العامة تكرّس جهودها لتنمية التعليم العام. وهذا أمر صعب جداً في بلد كان فيه الطلب على الكتب قليلاً جداً، حتى لم تكن توجد أية مكتبة ولكن المدارس التي أنشأها محمد علي، كما سبق له أن أنشأها في مصر، ذات اتجاه عسكري بالدرجة الأولى.

سيدة القصر La chatelaine du Liban

وإذا لم يكن هناك أي شك في أن حكومة محمد علي قد حسّنت الشروط العامة للحياة الشعبية والخاصة في سورية، فإن محمد علي لم يعرف، على نحو ما عرف في مصر، كيف يحذر من فرضِ تدابيرَ كانت بالتدريج تثير عليه سكان البلد. وهناك ثلاثة أسباب تشرح سوء التفاهم الذي كان عليه أن ينمو أكثر فأكثر، ويوماً بعد يوم، بين الفتح والفاتح:

١- إن سورية ليست مصر، بل هي خليط معقد من الشعوب والمناطق، ولهاخصائص متنوعة.

٢- إن السوري أكثر تمرداً من الفلاح. ولئن كان هذا الأخير يتحمل استبداد سيّده، فإنه يبقى أن فلاح سورية غير الفلاح المصري.

٣- ولما كان محمد علي يحتاج كما احتاج دائماً- إلى المال لدعم قواته العسكرية وتعزيزها، فإنه بحكم ذلك، فرض ضرائب مثل تلك التي فرضها في مصر. ولما كان السوريون قد تعوّدوا حياة كلها فوضى، فإنهم بدؤوا يتأذون من النظام القائم الذي يضغط عليهم، بصورة منتظمة. وكانت الضرائب تبدو لهم غير محتملة، بحكم جدّتها، وانتظام مواعيد أدائها، بالإضافة إلى قسوة الجباة.

٤- وكل صورة من صور الحصر (أي التأميم لحساب الدولة) كان يعتبر عدواناً على حرية التجارة المحاذية للروح السورية نفسها.

٥- ثم إن حدود محمد علي، بعد أن امتدت امتداداً كبيراً، كانت تقتضي، لحمايتها، وسائل أكبر من التي كانت بين يديه. ومن هنا نشأت الحاجة إلى زيادة

القوات العسكرية، لاسيما وأن الأستانة أعادت تسليح قواتها؛ وكان على مصر أن تفعل الشيء نفسه. ولكن مامن مرة تجرأت حكومات هذا البلد، على فرض الخدمة العسكرية العامة، على اختلاف الحكومات التي تعاقبت على البلد.. وكانت الجنود تتألف من متطوعين. وما من مرة زادت فيها كمية هؤلاء على الفوج Regi-ment. ولهذا فإن ممارسة الخدمة الإجبارية سينظر إليها نظرة سيئة، من قبل الناس، حتى ولو كانوا أعنف من الآخرين في طباعهم الحربية. ولقد وصل الأمر في هذا، إلى الحدّ الذي وصلت فيه مقاومة هذا النظام، إلى التمرّد، والهرب والفوضى.

٦- وكذلك كُره نظام السخرة، لدى الشعب. ثم انضاف إلى كل هذه العوامل، سببان آخران للتمرد أو الهروب من الخدمة.

١- المؤامرات التي يحيكها الباب العالي الذي لم يرضه يومًا أن يفقد الباشويات السورية. وحقًا فإنه ما من يوم يمضي دون أن نرى عناصر تعمل لحساب استانبول، وتجهد بكل الوسائل للقيام بأعمال التخريب في المنطقة وإثارة الناس ضد حكومة نائب الملك. وهي تستغل استياء الأتراك، الذين كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة، واستياء البدو الذين وجدوا أنهم يفقدون مصادر ثروة ضخمة، كانت تأتيهم مما تفرضه القبائل على القرى الحدودية، وعلى الحجاج المسيحيين واليهود. وكانت هذه المؤامرات قد ظهرت منذ عام ١٨٣٣. في اليوم التالي لاحتلال كوتاهيا.

٢- موقف القناصل والعملاء الأجانب.

وكان أمثال هؤلاء، في سورية، ينشئون دولة داخل الدولة، وينشرون بين الناس، وعلى كامل الأرض، روح بيع الذمم والمحسوبية، والفوضى المالية واحتقار السلطة. وبدلاً من أن يقدّم هؤلاء عونهم للحكومة المصرية، كانوا، على العكس، يحاولون إقامة عوائق تؤدّي لتعقيد الإصلاحات، تعقيداً مركباً. فبعضهم يحمي الكاثوليك. والآخرون يحمون الأرثوذكس. وتحتفظ إنجلترا بالتعامل مع الدروز والبروتستانت.

وتولى إبراهيم إقامة تحقيق مخيف ضدَّهم، يؤكده Campbell على كونه عميلاً إنجليزيًا: «أما الاتهام الذي وجهه إبراهيم باشا ضد القناصل، فإني أستطيع أن أشهد بصحته، وبتأكيد أن الحكومة استخدمت معهم أكبر الاعتدال، وامتنعت مدة طويلة عن الشكوى منهم».

وقام إبراهيم، بسرعة كبيرة، بإفهام مجموعة القناصل، أن عهد التدخلات المستمرة، قد انتهى، وأنه ليس عليهم أن يعتبروا أنفسهم، كما لو أنهم مراقبون يهتمون بما تقوم به الإدارة العامة أو أنهم حماة لهذا الفريق أو ذاك، من السوريين، ولكن عليهم أن يهتموا، حصراً، بمصالح رعاياهم، وأن يلتزموا، فيما عدا ذلك، بقوانين الدولة.

وهكذا، فإن إدارة محمد علي ستصبح يوماً بعد يوم، موضع شكوى، من قبل الممثلّين الأجانب الذين لم يهتموا قط بأوضاع الشعب (ماعدا الفرنسيين منهم)، في زمن الأتراك. وفجأة، بين ليلة وضحاها، ينكشف أنهم يبدون اهتماماً كبيراً بها منذ جاء المصريون إلى سورية.

وبدأ التمرّد سريعًا من القدس إلى حوران، إلى جبال الجليل، ثم إلى جبال لبنان. وبدا للناس أن البلاد كلها تلتهب. وأول من أعلن التمرد هم الفلسطينيون.

وأول تمرّد ظهر للناس كان ذاك الذي وقع في شهر مايس ١٨٤٣. وكان سببه استدعاء المواطنين إلى الخدمة العسكرية، وهو استدعاء أمر به إبراهيم، الذي تلقى الأمر من أبيه بجمع ١٢٠,٠٠٠ جندي في أسرع مدة ممكنة. غير أن وجهاء القدس ونابلس رأوا أن يشكلوا وفداً للقاء إبراهيم باشا، ومطالبته بإلغاء قانون التجنيد. وقالوا له: «أطلب منا ماتشاء من المال، أو مانستطيع أداءه منه. ولكن لاتأخذ منا رجالنا، وأترك لنا أبناءنا.» ولكن إبراهيم أصمّ أذنيه عن سماع ما قالوه. وعندئذ وقفت فلسطين وقفة رجل واحد من شواطئ البحر الميت إلى جبال الجليل. وخلال بضعة أيام سقط مركز البلد سقوطًا كاملاً بين أيدي العصاة المتمردين، وعلى رأسهم الشيخ قاسم. وكان على إبراهيم إذا أراد استبقاء نفوذه، أن يضرب بقوة وبسرعة.

فهاجم المتمردين الذين يحاولون أن يَسدوا عليه طريق القدس، ودخلها يوم ٧ حزيران ١٨٣٤، وحرّر الثكنات، ودفع أعداءه إلى ما وراء بيت لحم. وعندما كان يستعد لمتابعة تقدمه، جاءه الخبر بأن النصيرية في أنطاكية واللاذقية أقدموا على العصيان. وبدا له أن الحركة على وشك أن تمتد إلى المنطقة كلها، ولاسيما منطقة الأمانوس وطوروس. حيث كان الجيش التركي يخيّم هناك. وفي وسعه، إذا رغب في ذلك، أن يساعد العصاة. وعندما أُعلم محمد علي بما وقع من أحداث، قرّر أن يتدخل هو فيها شخصياً.

وفي ٦/٢٨، سافر من الاسكندرية على ظهر «صيادة، اسمها التمساح» مصحوباً بقسم هام من العمارة المصرية. وها هو الآن من جديد، ذلك الرجل الذي يقترب عمره من الرابعة والستين، يحارب كما لو كان في أجمل أيام شبابه.

وفي شهر واحد. خنقت حركة التمرد يوم ٢٩ تموز. فيعود إلى الإسكندرية، في الوقت الذي كانت قواته تُجرّد الناس من السلاح.

وما هذا إلا هدوء ظاهر ...

وها هو الآن أمام خصم مخيف يقف ضدّ إبراهيم، وهو امرأة؛ هي الليدي هسترستانهوب Lady Hester Lucy Stanhop ، بنت أخت ويليام بيت Pitt الثاني، وحفيدة اللورد Chatham. وبعد أن طافت هذه المرأة التي سمّاها لامارتين سيدة لبنان «أو لقبها بلقب الشاتلين في لبنان» (سيدة لبنان)، والتي ستلهم بيير بنوا Pierre Benoit رواية عنها- جاءت واستقرت فيَ وسط المنطقة الدرزية. إنها امرأة متفوّقة، جريئة، زُوِّدت ممن خلقها بطاقة ضخمة. وكانت قد أغريت بالطبيعة الوحشية للبلد، وأرادت أن تلعب فيه دوراً سياسياً لحساب بلدها. وقد اختارت كمنزل لها، عش نسور، يشرف على جنوب لبنان، وما هي إلا مدة يسيرة حتى أصبح كل رؤساء الدروز ضيوفها ومحميها. وما من شيء أبيَ عليهم. ومع أن عددهم لايزيد عن ٨٠,٠٠٠، فإنهم يُعدون بين المحاربين الأكثر شجاعة والأعظم زهواً، لافي سورية وحدها أو في لبنان مع سورية فقط، بل في الشرق كله، على

الأرجح. وقد قُدّم لهؤلاء كل شيء، ولم يحرموا شيئًا: فالسلاح والذخائر وكل ما يمكن أن ينفعهم، ضد الموارنة المتحالفين مع الجيش المصري، كان بين أيديهم. وكانت مهمة الأمير بشير الدائمة، أن لاينقلب العداء التاريخي القائم بين الموارنة والدروز، إلى صراع. ومنذ وصول المصريين، زادت مهمته تعقيداً. ذلك أن الموارنة سرعان ما تحالفوا مع النظام الجديد. في حين أن الدروز كانوا يتبنّون موقفًا مضاداً تمامًا. ومثل هذا النوع من الاختلافات، كان يُسعد عملاء الأتراك.

وفي نهاية شهر تشرين الأول من عام ١٨٣٦ أخذت تنشأ أحداث جديدة. ومرة أخرى كانت الخدمة العسكرية، هي السبب. أما إبراهيم الذي أعلم بالاضطرابات التي أخذت تنتشر، فإنه أسرع بإرسال لواءين إلى لبنان، يتوليان، كما كان الأمر مع الفلسطينيين، نزع السلاح، نزعًا كاملاً. أما في الفترة الأولى، فإن العملية نجحت تمامًا. وأمكن الوصول إلى فرض سلطة المصريين على الجبل. لكن هذا النجاح الذي كان نتيجة لدعم الأمير بشير دعمًا كليًا، لم يدم إلا قليلاً. وسرعان ما عاد الاضطراب. وكتب الوكيل القنصلي للنمسا، أنطوان كاتافاكو، يقول: إن عمليات نزع السلاح، ومحاولة فرض التجنيد على اللبنانيين، خلقت في تلك اللحظة، أزمة من أكبر الأزمات في لبنان. ذلك أن الموارنة، والدروز جميعًا، وقفوا ضد هذه التدابير، فإذا لم يغير إبراهيم باشا مقاصده، وإذا كان يصر على استخدام القوة ليحرم اللبنانيين بندقياتهم، وليرسل أبناءهم إلى معسكر التجنيد، فإن التمرد سينفجر، ونشهد عندئذ أحداثًا محزنة.»

وحقًا فإن جزءاً من هذه التنبؤات، لم يتأخر عن الظهور. ولكن خلافًا لتأكيدات الوكيل القنصلي، ظل أكثر الموارنة خارج النزاع. غير أن الاضطرابات الأكثر خطورة، نشأت في جنوب لبنان. ومرة أخرى أيضًا، وبثمن باهظ من القمع الذي لارحمة فيه، نجح إبراهيم بإعادة الهدوء. وما كادت تمضي سنتان أخريان، حتى عادت حوران إلى الالتهاب. وظهر فجأة رئيس جديد لدى الدروز، اسمه شبلي العريان. وفي صباح يوم من أيام كانون الثاني عام ١٨٣٨، وبعد أن ساعدته

الليدي ستانهوب مساعدة كبيرة، هتف لرفاقه ودعاهم إلى بدء أعمال التمرد، مرغماً إبراهيم على مواجهة مرحلة من أدق مراحل أيامه في سورية. وحدث أن كل الوحدات التي أرسلها لمجابهته مزُقت شر تمزيق. فطلب من القاهرة المدد، وحتى Seve (الذي كان استدعي إلى مصر لتفتيش معسكرات التجنيد) أجبر على العودة إلى سوريا. بل إن حاكم كريد مصطفى باشا، تلقى الأمر بأن يلقى إبراهيم في بيروت. وحوالي ١٥ نيسان عام ١٨٣٨، كان قد تجمع مايقرب من ثلاثين ألف رجل للمجابهة. ومع ذلك فإن هذا لم يكف لخنق التمرد. ولم تستطع القيادة العامة أن تنجح في ضبط الأمور إلا في منتصف شهر آب. واحتاج الأمر إلى جيش من خمسين ألف رجل، جاءت عناصره تعاون إبراهيم، من الأناضول والسودان وكريد ومن الجزيرة العربية. وكانت النتيجة آلافاً من القتلى، والجرحى الخطيري الإصابات. وإنفاق كميات ضخمة من الذخائر، وصرف مبالغ هائلة. وما من مرة، لا في بايلان ولافي قونية، ولافي مواجهة جيوش الدولة العثمانية، اضطر فيها المصريون إلى تحمل مثل هذه الخسائر.

-٢٦-

استقلال فرعون
أو الحلم المستحيل
(١٨٣٨- ١٨٣٩)

وعندما كان ابن محمد علي يخوض معاركه، كان الأتراك، من جهتهم. يروحون ويجيئون، من الجهة الأخرى من طوروس. وأكثر من مرة كادت قوات رشيد باشا التي أعيد تنظيمها، أن تنهض لمعونة المتمردين. والذي حال بين محمود الثاني، الذي كان مريضاً، وشديد الضعف، وبين إصدار الأمر بالانقضاض على عدوه، هو فقط معارضة الدول الأوروبية.

أما في القاهرة، فإن محمد علي، يجد نفسه مرة أخرى، على مفرق الطرق. وخلال ذلك، وفي شبه الجزيرة العربية، وبقيادة حفيديه أحمد وإبراهيم، كانت القوات المصرية تفتح اليمن (١٨٣٤). وخلال كل هذه السنوات، كانت الحرب مع عرب الجزيرة لا تعرف أية راحة، مرغمةً الباشا على القيام بحروب لانهاية لها، مع كل نتائجها الطبيعية، أي التضحية بالرجال والمال، تضحيةً تتجدّد في كل مرة. وفي ٩/ ٣/ ١٨٣١، كان لافيزون Lavison يكتب إلى البارون روكمان Ruckma: «إن آخر الرسائل الواردة من القاهرة، تعلن أن محمد علي أُرغم على إرسال لواء جديد من المشاة إلى اليمن، لإعادة الهدوء إلى بلدٍ، كانت قبيلة قوية من جماعة الوهابيين، أوقعته في الاضطراب، عندماانقضّت على جزء من الجزيرة، بنيّة نقل شرورها إلى موكا [...] وهكذا عُمِد إلى تجنيدات عسكرية، في كل

الأراضي المصرية بأمر من محمد علي؛ ويقال إن الباشا يريد أن يصل بجيشه البري إلى حدود المئة ألف»[1].

وعندما تحدَّث إليه قنصل فرنسا، وحاول أن يقنعه بأن هذه القضية قد أصبحت «حربه الإسبانية»، بل وأسوأ منها أي «معركته مع روسيا.» يجيب محمد علي بتشبيه قال فيه:

«إن جنديًا تركيًا جعل أحد الروس سجينًا عنده» فقال له الضابط «جئني بهذا السجين» فأجاب إنه لايستطيع المجيء. فقال له تعال إذن وحدك! فأجاب: لا أستطيع، لأنه لايتركني. «وأنا ذلك الرجل، إن الحجاز هو سجيني الروسي.»

ومن جهة أخرى، فإن الزيارة القصيرة التي قام بها الباشا لابنه في سورية، أتاحت له أن يعي، في مكانه ذاك، جملة المؤامرات العثمانية التي تحاك له. وعندما عاد إلى القاهرة واطلع على رسائل رجاله من استانبول، وأضنة، وحلب أو من دمشق، وجدها تؤكد له ذلك الانطباع الذي تركته فيه زيارته لدمشق: فالسلطان محمود مثلاً، يتلهف لاستعادة سورية. وعندما بلغ منه القلق والإثارة، مبلغًا كبيراً، مما يتوقعه من المستقبل، تحدَّث الباشا مع ابنه، عن أنه يريد أن يُذيع ويُشيع ازدواجية العثمانيين، بين القوى الأوروبية الشرقية والغربية. ويبرهن لها أن الباب العالي يتهيأ لاستئناف القتال. وانتهى أخيراً إلى القول: إن أملي كبير، في أن ننجح في فك خناق التبعية الذي يحيط برقبتنا».

ويجيب إبراهيم، ولكنه هذه المرة أكثر رصانه مما كان عليه في كوتاهيا، فيقول: كتبت لي أن علينا أن نحطم القيد الذي نحمله في عنقنا. لكي نجعله خناقًا لرجال استانبول. فيا أبي، هل تتذكر أنني عندما اقترحت عليك بأن نتحرّر من عبوديتنا، أجبتني أنت أنك تكتفي باسم محمد علي وحده؟ والآن أراك تعود إلى فكرتي نفسها. ولكن الشروط والظروف لم تعد هي نفسها. إن تحقيق مشاريعك سيصطدم بعقبات كثيرة، إذ أن للأتراك اليوم جنوداً يشبهون جنودنا، وإذا هاجمونا بأسطولهم على الشواطئ المصرية، فإنهم سيسببون لك من المتاعب أكثر مما

سيسببونه لي. ويجب ألا تنسى أن هناك اليوم معاهدة بين تركيا وروسيا. فإذا نحن هاجمنا الأتراك، فإن الروس سيعاونونهم على حماية استانبول، وربما ذهبوا إلى أبعد من ذلك. . وعلينا الآن، قبل أن تقرّر شيئًا ما أو تخطو خطوة، أن تحسب كل النتائج التي تترتب على قرارنا هذا. ولقد ارتكبنا أخطاء في الماضي. ويجب أن لا نعود فنخطئ مرة أخرى في المستقبل (٢).

غير أن هذه التحذيرات لم تثن محمد علي عن الرغبة التي تملك عليه نفسه: أي استقلال مصر، والاستقلال بأي ثمن. وكيفما كان الأمر فإن هذه الفكرة كانت تستولي عليه في كل لحظة من حياته؛ لقد كان من المستحيل ألا تصبح هذه الفكرة حقيقية مؤكدة، يومًا ما.

والواقع، أنه منذ توقيع معاهدة أنكيار- سكيليسّي، أصبح من المستحيل على الباشا أن يقبل بالوضع الراهن الذي فرضته أوروبا وروسيا، لأنه سيؤذي «ماليّة» مصر ويتركه، هو، محمد علي، في الحيرة المطلقة فيما يتصل بمستقبل أسرته، ومصير البلد الذي يحكمه هو. وقد بدأ باختبار الوضع، لدى الحكومة الفرنسية، طالبًا دعمها. ولكن فرنسا التي تخاف صور التعقيد التي يمكن أن تسبّب لها ولجاراتها في أوروبا، وتخشى إعادة النظر في الأمر الواقع، أبت عليه ما يطلبه منها. ومع ذلك فإن محمد علي يستمرّ في البحث عن مخرج، على كونه يعي كل الوعي، ما يمكن أن تؤدّي إليه حرب جديدة، لا في الأرض التي هو فيها فقط، بل هناك، في الغرب. غير أن النتائج التي تمّ الحصول عليها، والامتيازات المكتسبة، والمصاعب التي صادفها، أو اعترضت مسيرته، كل هذا يحمله على التمسك بالرغبة في الاستقلال. ويساهم في جعله أقل فأقل صبرًا على وضعه ومصير أسرته. فإذا هو حصل على الاستقلال، فإنه يكون ضمن، وهو مايزال على قيد الحياة، مصيره ومصير أسرته، وتوّج العمل الذي قام به. وعلى كل حال، فإنه قد شرح وضعه هذا لقنصل فرنسا بصراحة كاملة، عندما قال له: «إني لم أضحِّ بحياتي كلها لمصر ولم أقم بكل ما قمت به من المنجزات التي ربما بدا للإنسان أنها

مستحيلة، بالنسبة للآخرين، لكي يتمتع بها باشا تركي بعدي». وهذا يعني أنه يتلهف للاستقلال، أو لضمان الوراثة لمصلحة الإرث نفسه. وليس هذا نتيجة لحساباته في شأن أسرته بالدرجة الأولى، بقدر ما هو ناشئ عن نظرته كرجل دولة. ثم أليست الرغبة في الاستقلال مطلبًا مشروعًا؟.

ويقوم بوكلر موسكو Puckler muskau بتحليلٍ لابأس بصحته للموقف، حتى ولو بدا أنه يهمل بعض جوانبه، عندما يقول: «ألم تكن اليونان من ممتلكات السلطان، مثلها مثل مصر؟ ولكن هل الملك أوتون Othon تابع أو مجرد تابع للباب العالي؟ وحتى هذا السلطان، ألم يكن له على الجزائر نفس الحقوق التي له على مصر. وهل يعترف لويس فيليب بسيادة من أي نوع للباب العالي، في احتلاله للجزائر؟ أوليس لمحمد علي تلك السلطة القوية المستقرة؟ إنه حتى الآن ملك أكثر حرية، وأكثر احترامًا في البلاد التي يحكمها من الملك أوتون في اليونان، أو من الفرنسيين في الجزائر، أو من السلطان نفسه في إمبراطوريته.» ولكن عندما يضيف الرجل قوله أيضًا: «لو أنه استفاد من اللحظة المناسبة، وعاد بعد أن ربح المعركة، فوضع بيده القوية، تاج الملك على رأسه، فإن من المرجح أنه لاالسيف، ولا الديبلوماسية، يسعها انتزاع التاج منه، بل ولو حاولا ذلك. أما البحث، في المفاوضات، عما أهمل أن يفعله بالجرأة، فإنه كان محزنًا، يجعل كل نجاح مستحيلاً، حتى ولو ملك بين يديه كل حجج الأرض». ويخلص بوكلر موسكو إلي القول الذي يوجهه إلى محمد علي: «إن ما أبيت أن تقبله في اللحظة المناسبة، لن يردّه لك الزمن بطوله وعرضه، مهما تمدَّد، لن يَردَّه إليك أبدا.

ويبدو أن الأمير نسي أن الباشا لم يكن ينوي قط أن يتجاوز خط الفصل القائم بين أحلامه وبين العمل القائم على خلع السلطان محمود من عرشه. وأكثر من ذلك أن إبراهيم ما إن كان على مسافة خمسين ميلاً من البوسفور، حتى بدؤوا في أوروبا يَسنُّون أسلحتهم.

الإخفاق

لئن كان محمد علي قد حاول، مدة طويلة، أن يؤجل أو يوقف الاندفاع الذي لايقاوم، والذي يدفعه باتجاه قصر السلطان، فذلك، في أرجح الظن، لأنه كان مقتنعاً أن الأمم الغربية، ستنتهي إلى وعي اللامعقولية القائمة على استبقاء الحياة لتلك الإمبراطورية العثمانية المريضة، عندما كانت سلامتها مجرد وهم، وأنه متى وثقت من هذه البداهة، فإنها ستتجه إليه. ومن جهة أخرى، فإنه إن لم يُثر مشكلة استقلاله، منذ أعلنت معاهدة أنكيار- سكيلسي Unkiar Skelessi فذلك لأنه، في دخيلة نفسه، كان مقتنعاً بأن حرباً ما ضد روسيا، من قبل فرنسا وإنجلترا كانت أمراً لابُدّ منه: وبهذا كان يسبق الأحداث بأكثر من عشرين سنة.

ومنذ عام ١٨٣٣، يُوَجّه إلى باريس ولندن، مذكّرة مدهشة بدرجة كافية يُعدِّد فيه كل الوسائل التي يملكها بين يديه، هو، كنائب ملك، ليدافع عن الإمبراطورية العثمانية، ويعيد إليها روحها. ثم يعرض عليها مشروع وحدة بينه وبين إيران (فارس يومئذ) ضدّ روسيا. لكن الدوق دوبروغلي يضعها في حساب خيال شرقي جداً، أو عالي الشرقية. وأجابته الدولتان بأنه مخطئ عندما يفترض حرباً ممكنة بينهما وبين روسيا، كما أنه سيضل إن هو استمر في مثل هذه التخيلات. والحقيقة أنه إن وضع هذه الفرضية، فذلك لأنه سلفاً لاحظ المناسبة الملائمة، للاعتراف له بالاستقلال. ولنعترف الآن أن مشروعه هذا لم يكن ليبدو بمثل هذه الغرابة، لو جاء بعد عشرين سنة، أي عندما كانت أوروبا سترمي بنفسها، بدون تفكير، في حرب شبه جزيرة القرم (١٨٥٤- ١٨٥٥).

إن على محمد علي اليوم أن يغيّر موقفه لأنه لم يعد يمكن الاعتماد على حكمة الدول الكبرى. أما أحد الأسباب التي كانت تدفعه إلى ذلك فهو بسيط: فالزمن يضغط ويوجب، ففي عام ١٨٣٨ كان عمره قد وصل إلى الثامنة والستين. ولم يعد إلا إنساناً يحسب أيام الحياة الباقية له، ويعرف منذ الآن، أن كل ساعة من

ساعات حياته شيء هام بالنسبة إليه، وبأمر منه سلم بوغوص بك وزير خارجيته، هذه المذكرة التالية، إلى القنصل العام للنمسا، وهو عميد الهيئة القنصلية:

« يغلب علي الظن أنكم أحطتم علماً بالتدابير العدائية التي اتضحت، من خلال سلوك الباب العالي. وهو منذ عدة أشهر، وبدون أي سبب ظاهر، يحشد قوة كبيرة في Sivas [٣] (سيواس)، تحت قيادة رشيد باشا، على الرغم من أن سموّه (الباشا) كان قد أرسل إلى استانبول، مندوباً عنه لكي يُحدّد المفاوضات المتصلة بالضريبة التي يجب على مصر أن تدفعها، وكذلك قضية الجلاء عن أورفه التي احتلّت مؤقتاً من قبل إبراهيم باشا، دفعاً لهجمات بعض القبائل المتمردة. ثم إن الباب العالي وزّع عن طريق باشوات سابقين ممن حكموا بعض مناطق سورية، مثل نابلس والحرمون والقدس، أسلحة وذخائر وأموالاً، لدفع من يلوذ بهم إلى التمرّد. وقد تمّ فعلاً هذا التمرد. واحتجنا إلى أسابيع كثيرة للقضاء عليه. وعندما أخبرنا بهذه التصرفات العدائية التي يقوم بها الباب العالي، كتب نائب الملك مذكرة يُعلم فيها ممثلي الدول الأوروبية، أنه مضطر لإعلان استقلاله، لأن الباب العالي لايهدف إلا لنسف سلطانه، وسلطته السياسية. وهكذا فإن الانفصال النهائي بين الدولتين التركية والعربية، هو وحده الذي يُجنّب أو يوفر على عواصمهم تلك النتائج المشؤومة، لحرب أهلية ولهجوم أو غزو أجنبي.

«وفي الحال التي يتم فيها الاعتراف بهذا الاستقلال، فإن سموّه سيتخذ التدابير الضرورية لإعادة تنظيم ماليته، وضمان حشد جيش يصل عدده إلى ١٥٠٠٠٠ ألف جندي نظامي. ومدرّب، وإلى دفع حصته من المهام التي توجب إنقاذ تركيا وكفّ التدخل الروسي. » [٤]

ولنلاحظ أن الضريبة المشار إليها في الرسالة السابقة، لم يدفعها محمد علي حتى الآن. وهو ملتزم بدفعها خلال السنة الجارية، وتبعاً لـ Cochelet قنصل فرنسا، الجديد جداً، في الإسكندرية، فإنه يتصوّر تقديم ٦٠٠ ألف بورصة للسنة القادمة، وهذا مبلغ ضخم، على أن يقبل السلطان الاعتراف باستقلاله. أما إذا رفض هذا عليه، فسيُقدِّر أنه حرٌّ من كل تبعية.

ويبقى مع ذلك، أن الرسالة التي أمليت على بوغوص بك جاءت لتثير المشكلة من جديد، وربما جعلت التدخل الروسي ممكنًا.

وقبل أربع سنوات، أي في ١٢ كانون الثاني ١٨٣٤، جاء العقيد Duhamel، مساعد القيصر، وأوضح للباشا موقف بلاده. «إن الصراحة التي وعدت أن أحافظ عليها في كل علاقاتي مع سموّك، ترغمني أيضًا على أن أقول لك، بلا لفٍ ودوران إنه إذا كان هنالك من طمع يزعج، أو من نصائح سيئة تحملك على قلقلة السلام في الشرق، بالهجوم مرة أخرى على أسيا الصغرى، فإن سموّه سيلقى من جانب روسيا، نفس المعارضة لأفكاره التي لقيها حتى الآن.» [٥]

وفي تشرين الثاني عام ١٨٣٧، وقبل أن يترك دوهاميل مصر، عاد وكرّر على سموّه نفس التحذير: «لاتتوقعوا أي تشجيع من جانب الدول، التي تُجمع إجماعًا تامًا على رأي واحد هو البقاء أو الإبقاء على الوضع القائم. أما ملكي المعظم، فإنه لن يشجع أعمال التمرد التي تُهددنا بها. وإذا أنتم أعلنتم استقلالكم، وهذا ما يوازي إعلانًا للحرب، فإن عون روسيا لن يتأخر عن السلطان من أجل الإجهاز عليكم.» [٦]

ويلُخص الكونت ميديم [٧] Medem، خليفة دوهاميل [٨] ل Nesselrode (لنيسيلرود)، مقابلته لنائب الملك، يوم ٢٠/ ٣/ ١٨٣٨، بما سيرد جوهره فيمايلي:

محمد علي: إني أقسم لك بشرفي وبدياناتي أنه في اليوم الذي يردُني فيه الضمان بألا أهاجم من قبل الباب العالي، فإنني سأستدعي ٨٠٠٠٠ رجل من سورية، ولن أبقي هناك إلا ثكنات؛ أما قواتي فإنها ستكون مسلحة بمجارف ومرار (جمع المَر)، بدلاً من البنادق، وستستخدم في أعمال مدّ القنوات.. إن جاءتني الدول البحرية بالموافقة على منحي الاستقلال أو على الأقل، توريث أسرتي.. إذا هي اعتبرت ذلك ضمانة على مستقبل يسوده السلام، أفيوافق جلالة الإمبراطور على مثل هذا الترتيب؟

ميديم: إن هذا سؤال يخرج عن الموضوع الذي جئت من أجله . .

محمد علي: حسنًا . ألست أنا تابعًا مطيعًا؟ قلّ إذن لماذا لاتعترف القوى التي وافقت على فصل أمريكا عن إنجلترا، واليونان عن الدولة العلية، والبلجيك، أخيرًا، عن هولندا، لاتعترف بفصل مصر؟ وأرني، بحياتك، في التاريخ تابعًا بمثل قوتي أنا، اكتفى بدور الفرد العادي، ولم يهز أغلال العبودية؟ وعلى ذلك فإن من الظلم أن أبقي نفسي كما أنا، مجرد تابع (٩) .

ونحن نعترف بغض النظر عن المنطق الذي يبرهن عليه نائب الملك، أن سؤاله: «ألست تابعًا مطيعًا»* ، جدير بتراجيديات كوميدية (أي برواية يختلط فيها هذان الأمران)

وعلى كل حال فإن وفاءه لمنطقه، يحمله على التصريح لـ Cochelet . بقوله: «إنني لم أنفق أموالاً ضخمة في إقامة مؤسسات، وإنشاء قوى بحرية واسعة، وفتح أقنية، وعمل الكثير من الأشياء الأخرى، لكي أبقي أهلي في الفقر . ذلك أنه كان من الأفضل لي، أن أغنيهم، لو أني اعتقدت أنهم لن يرثوني . إني أريد أن أكون متأكدًا أن الدولة التي أنشأتها، ستكون لهم من بعدي . (١٠)

وفي بداية شهر نيسان ١٨٣٨ تقدَّمت القوات التركية بضعة كيلو مترات نحو جبال طوروس، فقام سفير فرنسا بتوجيه احتجاج إلى الديوان السلطاني، بلهجة أكثر اعتدالاً، اشتركت فيه إنجلترا . أما روسيا فإنها غضّت النظر .

وفي هذا الجو الخارجي، قامت حركة داخليه: فخلال هذه السنة ١٨٣٨ ، قام العلماء الذين كانوا، في العادة يزدرون قرارات محمد علي، برجائه بأن يُعلن

* - يعني محمد علي أنه قدَّم جيشه لحرب الوهابيين، بتكليف من الملك، مرات عديدة طلب منه السلطان تقديم عونه في حرب اليونان،

استقلاله، ويقسمون له أنه يستطيع الاعتماد على ثقتهم العمياء. ** وبهذه الحركة ومن دون أن يدروا، كانوا مشعل بدايات الحركة الوطنية المصرية.

أما في أوروبا فإن القلق بدأ يتصاعد. ففي حزيران ١٨٣٨، قام الكونت Mole خليفة Broglie في وزارة الخارجية، بتوجيه تعليمات إلى قنصل فرنسا Cochelet، لايمكن أن تكون أكثر وضوحًا، في هذا الموضوع:

«نرجو أن تقولوا لنائب الملك، إنه يقع في خطأ كبير، عندما يفترض أن الوسائل التي يريد بها أن تقف الدول، عقبةً أمام أهدافه وأطماعه، ليس لها من نجع أو تأثير. ونحن مقتنعون أن هذه الوسائل التي لاتتردد فرنسا وإنجلترا في استخدامها، ستكون، علي العكس، ناجعة جداً، وجديرة جداً بأن تجعله يندم على السير في طريقٍ ليس له أن يجد فيها إلا هلاكًا، وسببًا في الدمار. (١١)»

بالمرستون، الرجل الحديدي

أما إنجلترا فإن لها سلفًا سياسة مرسومة. وهذا الذي يهيمن منذ ثماني سنوات على وزارة الخارجية، هو واحد من أكبر رجال الدولة البريطانيين في القرن التاسع عشر. ونحن نتكلم هنا على رجل اسمه Henry John Temple (هنري جون تامبل). الفيكونت الثالث أو ثالث فيكونتات بالمرستون، أي عن الشخصية الحقيقية، إن لم نقل الوحيدة في السياسة الأجنبية الإنجليزية ما بين ١٨٣٠-١٨٦٥. ولايعنيه في سياسته أو في اختياراته السياسية إلا عظمة بلاده. ووطنيته هي التي ألهمته عام ١٨٥٠، تلك الجملة التي غدت شهيرة «فكما أن الروماني قديمًا كان يستطيع أن يقول Civis Romanus Sum أي إني روماني مدني، فإن البريطاني، حيثما كان، يستطيع أن يعتمد على القوة الإنجليزية لحمايته.

**- جرت العادة أيضًا أن رجال الدين كثيراً مايكونون موظفين في الدولة، يوافقون مباشرة على ماتوافق عليه أو ما تطلبه منهم.

وتعتمد رؤيته السياسية على الزهو البريطاني، وعلى ثلاثة مبادئ سيُطبّقها بحزم دون نقص طوال مدة حكمه:

١- رفض كل سيطرة على القارة الأوروبية. ومن هنا جاء الحذر المتواصل تجاه فرنسا، حتى في عصر الاتفاق الودي.

٢- احترام النظم القائمة

٣- توازن قوى الدول (الأوروبية). ولهذا فإن على إنجلترا أن ترفض كل التزام دائم، وكل تحالف في زمن السلم

ففي رسالة وجهها في ٥ حزيران إلى الكونت Granville سفيرة في باريس، نجد بالمرستون يشير إلى الإستراتيجية التي يتبناها في المسألة الشرقية.

عزيزي غرانفيل

إن رسالتك المتعلقة بمصر رسالة هامة وهي تتفق أو تنسجم مع الأخبار التي نتلقاها من الجهات الأخرى [...] أما رأيي الشخصي الذي تكون لديّ منذ وقت طويل، فهو أن علينا أن نستند إلى السلطان، بنزاهة وبقوة، مع فرنسا إذا أرادت فرنسا أن تعمل معنا؛ وبدونها إذا هي رفضت. (١٢)

وفي يوم ٨حزيران يرسل إلى سفيره رسالة أوضح أيضًا: وهذا نصها:

«عزيزي غرانفيل

ليس لديَّ من الوقت إلا مايكفي لكتابة هذه الأسطر القليلة، فيما يتصل بمحمد علي في مصر. فالبارحة قرَّر مجلس الوزراء أنه لاينبغي أن ندع محمد علي، يُعلن استقلاله، ويفصل مصر وسورية عن الدولة العثمانية، إن نتيجة تصريح مماثل من جهته، يؤدّي إما فوراً أو بعد فترة قليلة، إلى نزاع يقوم بينه وبين السلطان، سيكون فيه هذا الأخير مهزومًا، على الأرجح، وأن الروس عندئذ سيسرعون إلى مساعدة السلطان، وهم يأتون بجنودهم لاحتلال الآستانة والدردانيل. ولكن متي احتل الروس هذين الموقعين، فلن يتركوهما أبداً. وعلى

ذلك فإننا مستعدون لتقديم مساعدة بحرية إلى السلطان ضدّ محمد علي، إذا كان ذلك ضرورياً. ونحن ماضون الآن مباشرة إلى إرسال أسطولنا، إلى الإسكندرية، لكي نقدم إشارة مرئية وملموسة إلى القرار الذي اتخذناه، ونحن راغبون في أن يرافقنا الأسطول الفرنسي في الوقت نفسه، إذا كان الفرنسيون يريدون إرساله.

والشيء الذي أريده، وأظن أن مجلس الوزراء سيقرّره، ويتبناه، سيكون اتفاقاً مكتوباً في بضع كلمات، بين إنجلترا وفرنسا، من جهة، وبين تركيا من الجهة الأخرى، تلتزم فيه الدولتان لفترة محدودة، بتقديم عون بحري، في الحال التي تطلب فيه تركيا هذا العون، لحماية أراضيها من أي هجمة ممكنة، ويكون النص فيه مكتوباً بصورة تجعلنا نفهم حالة روسيا، وحالة محمد علي.

[...] ولايجب أن ننسى أن هناك خطراً كبيراً على أوروبا، من إمكانية التفاهم بين فرنسا وروسيا. ومهما يكن هذا التفاهم صعباً في هذا الحين، بحكم عواطف الإمبراطور نيقولا، فإنه قد لايصبح مستحيلاً دوماً؛ وسيكون من الخير أن نراقب السياسة الفرنسية والإبقاء عليها، كما هي فيما يتصل بشؤون الشرق، مادام ذلك في استطاعتنا. (١٣)

وإلى الآن، على مانلاحظ، نجد آراء فرنسا غير بعيدة عن آراء إنجلترا، على حين أن كل شيء يوجب أن تكونا منفصلتين.

وفي آخر شهر تموز ١٨٣٨، أرسل Mole من باريس إلى كوشوليه Cochelet مذكرة أخرى إلى بوغوص بك. وفي هذه المرة كانت اللهجة أكثر حدة؛ «إن حكومتنا مصرّة كل الإصرار، عندما، يريد نائب الملك أن يتابع مشروعه، لاعلى عدم الأخذ بعين الاعتبار موقفه الجديد فحسب، بل على التصريح علنًا، أنه يُنظر إلى هذا العمل كما لو أنه لم، يكن، ونضع أمامه عقبات، بكل الوسائل التي نملكها، بدءاً من إرسالنا عمارة في مواجهة الإسكندرية والشواطئ السورية.» وتنتهي الرسالة بطلب جواب صريح، من شأنه أن يقطع دابر كل شك.

وقد سبّبت هذه المذكرة لمحمد علي، خيبة أمل كبيرة، وسيكتب كوشوليه حولها: «أنه في المؤسسة [وكان الرجلان قد اجتمعا في الترسانة التي خطط لها سيريزي] التي أقامها فرنسي والشاهدة خاصة على قوة محمد عليّ، كان علي أن أبين له كم أن هذه القوة ضعيفة بالمقارنة مع معارضة فرنسا وإنجلترا، معارضةً تحول دون تطبيق مشاريعه. وقد استقبلني في جناح صغير مبني من الخشب على شاطئ البحر محاط بجميع الأبنية العسكرية التي هي قيد البناء. وعندما قرأت له ترجمة رسالة الوزير Mole ، رأيت وجهه يتغضن، وضغطت يده، بصورة عصبية، على مقبض سيفه، ولكنه لم يقل أية كلمة تعرب عن استيائه. (١٤)

وقد قُدِّمت لبوغوص مذكرة اللورد بالمرستون التي «تقول» إذا كان محمد علي يضع عزمه قيد التنفيذ، وإذا نشبت معارك جديدة بينه وبين السلطان، فإن إنجلترا ستنحاز إلى جانب السلطان، من حيث أنها مُصمّمة على منع تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية. إن بالمرستون يطبق هنا السياسة التي صرح بها لغرانفيل.

وخلال الشهر السابق. كان مترنيخ قد أشار لبالمرستون بعملٍ متفق عليه بين الدول الكبرى- من ضمنها النمسا- عملٍ قد يحملها على إرسال القوى البحرية إلى الإسكندرية. وكذلك فإنه كان قد أطلق فكرة مؤتمر ينعقد في لندن ويجمع الدول المشار إليها، حول طاولة واحدة.

وكان بالمرستون قد قبل المشروع، لأنه يشير إليه وكأنه أمنيته الشخصية، في رسالة وُجّهت يوم ٧ تموز إلى سفيره في فرنسا، جاء فيها قوله: «إننا نرغب أنا وسيباستياني في أن يجتمع ممثلو الدول العظمى في لندن؛ وهناك نضع المسألة ونقترح نظاماً مؤتمناً للعمل، يشار فيه إلى أنه إذا احتاج الباب العالي إلى المساعدة براً وبحراً، فإن الدول البحرية تقدم العون البحري، كما تقدّم النمسا عونها العسكري(١٥)».

وفي ٥ آب ١٩٣٨ ، يكلف الرجل قنصله بتهديد الباشا من العون الذي ستقدمه أوروبا للسلطان، لدى قيام الصراع».

وفي مذكّرة أرسلها نائب الملك إلى القناصل العامين، يقول فيها هذه المرة، إنه يكتفي بحق الوراثة. ويلخص لنا نيسيلرود محتواها على هذه الصورة»: إن الباشا يعتمد دوماً على المقاصد الطيبة للدول الأربع الكبرى، تجاهه. وهو يأسف أن يراها الآن معارضة لآرائه. إلا أنه ينتظر بثقة عودتها إلى عواطف أفضل تجاهه. ويأمل، من جهة أخرى، أن تُحل مشكلة الوراثة حلاً مرضياً؛ وسيكتفي، إن تم الحصول عليها، بالرضى المتبادل، عن طريق التفاوض. ولكنه إن لم يستطع النجاح في ذلك، وإن أرغم على اللجوء إلى السلاح، عندئذ سيعلن استقلال مصر. وهو عازم بقوة على أن لايترك ليُسلَّم إلى الباب العالي، عن طريق الدول الأوروبية. إنه متقدم في السن، وربما لم يكن لديه ما هو أفضل من الموت بشرف في هذا النضال- بدلاً من أن يترك، قيد المصادفة والأحداث الطارئة- أسرته وخدمَهُ وكل هذا الشعب الذي قام بالكثير من أجله. ولقد كان خلال حياته مضطراً إلى إراقة الكثير من الدماء لكي يعمل ما عمل، ولكي يحصلَ على ما يملك؛ وهو لايريد أن تكون إراقة الدماد قد ذهبت عبثًا.

«وهو يعرف جيداً أنه إذا اتفقت الدول على سحقه، فسيسحق. إن ٩٦٪ من القوى تقف ضده. ولايبقى له إلا ٥٪ !ولكن ماذا يهم هنا ! ففي الحرب تكون الحظوظ دوماً غير مؤكدة، وإذا أرادت المصادفة أن يربح هو، فإنه سيدع للدول العظمى أن تحكم على نتائج نصرٍ لايكون فيه من حق لأحدٍ، أن يعتدل فيه (١٦) . »

وفي اليوم نفسه، قام اللورد بونسونبي Ponsonby (الذي يكنّ عداوة لاتتزحزح لنائب الملك) بعقد معاهدة تجارية مع تركيا، يلتزم فيها الباب العالي بإلغاء الحصور، مقابل زيادة الرسوم الجمركية (١٧). وعندما نعرف أن كل الاستراتيجية التجارية لدى محمد علي لاتقوم إلا على هذا النظام (نظام الحصر، أو حق الإستيراد ... إلخ) فإن الإنسان يمكنه أن يتخيل النتائج التي تترتب على إلغائها، عند الباشا. وهذا التاجر الكبير الذي يُمثله محمد علي، يجب أن يتخلى عن هذه الامتيازات الموافقة له، في تجارتي مصر وسورية.

وعندما سئل الباب العالي عن الدواعي التي دفعته إلى عقد هذه المعاهدة دون أي مشاركة من الدول العظمى الأخرى أجاب بأنه أراد بذلك توحيد مصالح بريطانيا مع مصالحه، ضد باشا مصر. فالبارحة كان السلطان يرتمي بين ذراعي سان بطرسبورغ. أما اليوم فإنه يحتمي بذراعي لندن. والواقع هو أن كل الوسائل المقدمة إليه، حسنة، مادامت تنال شيئًا من قوة تابعه. ويجب القول، إن محمود الثاني المحطم بالمرض يقف اليوم بانتظار الموت، إلا أنه يعانده بنوع من اليأس، بانتظار الأمل برؤية تابعه يرتمي على قدميه، ولو للحظة واحدة.

والشيء الوحيد الذي يمكنه أن يجعل السلطان الأعظم، يغيّر موقفه، هو استعادة سورية من محمد علي. وعندما يشير القناصل إلى هذه الفرضية، أمام محمد علي، فإن هذا يردّ بجواب واحد: «هناك طفل، تهاجمه حية، وساعده الحظ على سحق ذنبها. فقامت أمه- وقد خافت غضب الحية- بعملية مصالحة. فتقول الحية: بلى، ولكن على أن يَرُدَّ ذنبي إلي، وسنكون بعد ذلك أصدقاء. أما في رأي محمد علي فإن ردّ سورية، شيء لايمكن تصوُّره، وفوق ذلك فإن وضع مصر، من الوجهة الاقتصادية، يمضي من الأسوأ إلى الأسوأ.

ويكتب كوشوليه تقريراً يتحدّث فيه طويلاً عن الشروط التي تسود الحياة في وادي النيل. فالمالية مستنفدة. والعوائد لاتكفي لسدّ الحاجات. والموظفون لايتقاضون رواتبهم منذ مدة طويلة. والجيش منذ سنة كاملة أو أكثر لاتُدفع رواتبُه. وفي الجزيرة العربية، مضى على مثل ذلك سنتان. أما المحصول الأكثر غزارة، أي محصول القطن الذي كان يكفي لسد حاجات مصر، فقد ضعفت أسعاره ضعفًا كبيراً. وتعاني التجارة من الضيق والعراقيل والعذاب، مما لايمكن أن يكون الإنسان عنه فكرة واضحة. وكل ما هو موارد، في الرجال، والأموال، يُخصّصُ للجيش والبحرية. وبالجملة فإن هذا الصراع بين الباب العالي ومصر، يرهق موارد الازدهار والتجارة.»

وحوالي منتصف أيلول ١٨٣٨، قام قنصل إنجلترا وقنصل فرنسا بمسعى مشترك لدى الباشا، فيجيبهما، إنه يأسف على أن البلدين يبدوان معارضين لإرادته في الاستقلال. ويضيف قائلاً: إنه يأمل أن تحل مشكلة الوراثة بالنسبة لأبنائه، ويخلص إلى أنه «سيجد منذ الآن، أمله ورغبته، في هذه القضية».

يتيم فرنسا:

وتستمر البلاطات الأوروبية مصرة على موقفها، لاتغادره. وعندئذ يقررً الباشا أن ينطلق إلى التحضيرات العسكرية: «فمحمد علي يُخزّن أسلحة ضخمة، على مايقول Cochelet» ويتابع هذا كلامه فيقول: «إني أتوعَدَه وأخاطبهُ بأعنف العبارات الممكنة. وهو يلاحظ بوضوح، أن الوضع القائم عندنا فكرة ثابتة، وأن سياستنا الشرقية لم تخط أية خطوة إلى الأمام منذ صلح كوتاهيا» (١٨)

وفي ٩/١٣ يلح بالمرستون الذي يعرف -أن أول من يبدأ بالأعمال العسكرية، سيكون موضع سوء ظن- يلح على سفيره في استانبول بغية وقف السلطان عن العدوان. ويرسل إليه هذه الرسالة.

عزيزي بونسوني:

كان لي، البارحة، حديث طويل مع فتحي باشا- (السفير التركي في لندن). وأعطيته أفضل النصائح التي استطعتها تجاه حكومته وبلده. ولقد حاولت وبحرارة، أن أبرهن له كم هو مرغوب من السلطان، الاستغناء عن مهاجمة محمد علي، لأن جيش الباشا كان، في أكبر الظن، في الساعة التي نحن فيها، أفضل أو على الأقل، كجيشه جودة. وقلت له إنه كان على السلطان أن يهتم بتنظيم جيشه وبحريته، وبتحسين دخله، بغية أن يُخضع محمد علي، بقواه ذاتها.

وفي وسع الإنسان أن يتخيل ماشعر به رجل كافالا من تمزق داخلي، ومرارة، وشعور بالعزلة، ففرنسا تتخلى عنه، وإنجلترا تخضعه لابتزاز حقيقي، والنمسا تلاحظ، وروسيا تنتظر خطف حصتها،

وكـانت الأمـور كلهـا في هـذا الوضع، ولـم يكن لأحـد أن يتنبـأ بأي شيء، عندما حدثت مفاجأة في مسرح الأحداث، إذ لقد قرّر محمد علي أن يترك مصر، للذهاب إلى السودان، ومن المراقبين من سمّى هذا الافتتان باسم «المهزلة»، واعتقد آخرون أن ذلك حصل بسبب العناء الشديد، وآخرون عزوا هذا الأمر إلى الفضول الذي لايرتوي، لدى الباشا. وهو فضول يدفعه إلى اكتشاف منابع النيل الأبيض. وكانت آخر نظرية هي أن الباشا أراد فقط أن يقوِّم نتائج الاحتلال المصري. ولكن من يدري ماذا كانت الحقيقة. ؟

ومـهـمـا يـكن من أمر، فإنه ركب النهـر في ١٥ تشرين الأول، مع قنصل كلٍّ من اليونان توسيزا Tossiza و de Lambert و Le Febvre و Boreani ، وأحمد أفندي وبعض المهندسين المصـريين. وسـتـدوم زيارته حـتى ١٤/ ٣/ ١٨٣٩ (١٩)
ويكتب كوشوليه Cochelet : فيقول: «إنه كان لسفر الباشا مظهر احتفالي وموجب للتعاطف. وعندما يرى الإنسان أن هذا الرجل الهرم يسافر، ويحضر وداعه ابنه سعيد بك وكل خدمه المجتمعين على ضفة النهر والذين يقبلون باحترام يده وثيابه وحتى رجليه. كان من الصعب أن يمتنع الإنسان عن الإعجاب بما يملكه من قوة نفسية، وصلابة طبعٍ، يبدو واضحًا أنه يعرب عنها، في لحظة افتراق، سيطول، أو ربما كان أبديًا. ويغض النظر عن الروعة التي تتسّم بها بعثة إلى قلب أفريقيا، يقودها رجل في السبعين من عمره، كان قد ملأ العالم بصيته، ورفع مصر إلى درجة عليا من العظمة، فإن هذه الرحلة تتميز، خاصة، بالنتائج التجارية التي يمكن الحصول عليها، وبالتأثير، الحضاري، الذي سيمارسه، في مدينة داخل أفريقيا.»(٢٠)

ولئن كـانت الرحلة إلى السـودان لاتقـدّم أيًا من هذه النتـائج الاقـتـصـادية و«الثقافية» المقدَّرة أعلاه، فإنها، بالمقابل، ربما قـامت بـالتخـفيف عن الباشا مما يعانيه، ولاسيما من فرنسا. وفعلاً، فإنه حدث، أثناء غياب نائب الملك، نوع من التغيير، لايعرف سرَّه إلا رجال السياسة، داخل حكومة لوي فيليب، التي

شعرت فجأة بصحة وصدق المطالب المصرية، وبالضغوط التي تتابع إنجلترا ممارستها، لمصلحتها وحدها، في استانبول.

وهكذا فإن الكونت Mole يقرِّر فجأة، لاأن يقف فقط ضد أي تدخل بحري لأوروبا ضد محمد علي (خطة ميترنيخ) فقط بل يُقر أيضاً أن يشير على وزراء سان جيمس بأن تقوم الدول الأوروبية بمسعى يفهم منه نائب الملك أنها تُقدّم وساطتها لكي يفوز محمد علي، بحق توريث أبنائه منصبه، وكل ما عنده. ويخلص من ذلك بالقول إن إضعاف محمد علي ليس بالأمر المتمنى، لأن الباشا يُمثّل بصورة ما عقبةً أمام طمع روسيا.

ويعارض بالمرستون اقتراحات فرنسا، عن طريق وكيله السيد Aston، ويقول: إنه ليس هناك من حاجة ماسة لا لإنجلترا ولالفرنسا، إلى تجديد المفاوضات التي قمنا بها قبل فترة قليلة، بمناسبة القضية السورية. وفي رأيه أن الأمر هنا يظل داخليًا، ولايجوز للقوى الأجنبية أن تتدخل فيه، ما لم تُدع إلى ذلك من جانب الأستانة. ولما كان وفيًا لمبادئه دومًا، فإنه، مع ذلك، عازم على الاستغناء عن مباركة فرنسا، ويقول: «إن اتصالاتي الأخيرة بكم، كما سيكتب لهنري بولوير H.Bulwer مندوبه في الأستانة، في ١/ سبتمبر/ ١٨٣٩، «ينبغي أن تمضي بالفرنسيين إلى قرارٍ ما بهذا الشأن. وسيرون من خلال هذه الاتصالات، أنه على الرغم من الرغبة في متابعة المسيرة معًا، فإننا لسنا أبدًا مستعدين للبقاء مجمّدين معهم».

ومن غير أن يلوم لويس فيليب على ضعفه وعجزه عن اتخاذ قرار، فإنه يؤكد في الرسالة نفسها، قوله: «إنني لاأستطيع التصديق بأن لوي فيليب قادر على اتخاذ قرار أخير، يقوم على وضع العقبات أمامنا.

«بيد أن كوشوليه، في رسالته يوم ١٢ نيسان ١٨٣٩، يضغط على حكومة لوي فيليب كي تسرع (باتخاذ القرار)، لانتزاع مصر من الدمار الكامل، والوقوف ضد اليأس الذي قد يرغمها على الارتماء في أحضان قوة أجنبية (ويعني هنا إنجلترا)

تجعل منها أجمل، الأقطار وأغناها»[٢١]. إن أوروبا تستفيد من التخلص من القلق حول هذه القضايا الشرقية، ذلك القلق الذي يمكنه، بنهايته اللامتوقعة، أن يحمل الاضطراب إلى أوروبا، ويؤذي علاقاتها السياسية».

وكان هذا كلُّه عناءً مضنيًا، ذلك أن وزارة التويلوي تُصرُّ على جعل التحالف مع الإنجليز، محوراً لسياستها. ذلك أن الاتفاق بين الدولتين البحريتين، في رأيها، يجب أن يهيمن على أوروبا وضمان توازنها. ولكن على حين أن فرنسا تعمل جاهدة، للتقرب من إنجلترا فإن بالمرستون الذي يعرف ما يفصل بين الأمتين، يعمل مع ميترنيخ لعزل السياسة الفرنسية المنحازة لمصر.

وعلى ذلك، فإن إنجلترا، تستمر في لعبتها، بصورة تجعلها عما قريب، حاسمة بالنسبة إلى تتابع الأحداث. ففجأة وحول نهاية شهر نيسان ١٩٣٩، جاءت قطعة عسكرية صغيرة لتقف ثم تنزل في مرفأ عدن. وكان نائب الملك يرفض، أول الأمر، أن يعتبر هذه العملية شيئًا آخر غير إنشاء مخزن أو مستودع بسيط للفحم، ويدفع بعطفه إلى الحدّ الذي جعله يأمر أمير المكان هناك بقبول الطلب الإنجليزي. وما كاد الضابط البريطاني المكلّف بالمفاوضة أن يحظى بالمرفأ، والهضاب المحيطة به، حتى كتب أوكلاند Auckland حاكم الهند رسالة إلى الباشا، يشكره فيها على تدخله. عندئذ يفهم نائب الملك، ولكن بصورة متأخرة جدًا، أنه لُعب بعقله؛ فهذا الاحتلال المفاجئ لعدن، ليس أبدًا بقضية بريئة؛ ذلك أن العمليات الحربية التي قام بها محمد علي في غرب شبه الجزيرة، انتهت إلى إغضاب إنجلترا(*). فبغداد، والمضيق الإستراتيجي في باب المندب، المهددين ببونابرت مسلم، كل هذا يبعث الريبة في وزارة الخارجية؛ وأكثر من ذلك أن لعدن أهمية جيوبوليتيكية هامة جداً، لأنها تحتل موقعًا إستراتيجيًا رائعًا، لإطلالها على البحر الأحمر والمحيط الهندي.

(*) وأغلب الظن أنها تابعت عملها السابق في تحريك الوهابيين ضدّ البلاد العربية أو بعضها على الأقل.

واحتج محمد علي، وخاطب القنصل الإنجليزي بذلك، وهدّد باستعادة عدن عن طريق القوات العسكرية. لكن محدثه بقي صامتاً كالرخام، ولايدع له أي وهم في نتائج مثل هذا العمل: فعدن إذن ومجالها الأرضي ستبقى إنجليزية حتى عام ١٩٦٧.

وحقاً فإن المقبض يزداد ضغطاً على نائب الملك.

أما في استانبول، فإن السلطان، المقتنع الآن بأنه يستطيع الاعتماد على مساندة إنجلترا إذا وقعت هزيمة أخرى، فإنه يقرر أن الساعة حانت للانتقام لنفسه. وهكذا تكوّن جيش إمبراطوري أعيد تنظيمه. وتحرك باتجاه سورية.

-٢٧-

عندما يصبح التألق انحداراً

١٨٣٩ -١٨٤٠

وفي منتصف شهر أيار (مايو) من عام ١٨٣٩ ، كان الجيش العثماني، الذي جُمِّع ببطء تحت قيادة حافظ باشا في منطقة مالاطيا، يجتاز الفرات إلى بيريدجيك Biredjik ويتقدم باتجاه حلب. ويكتب إبراهيم لأبيه:

أرسل إليك هنا كل التقارير التي تلقيتها فيما يتّصل بالجيش التركي. وكان بين هذه التقارير رسالة من كافطان بك، يُعلمني فيها عن أن خيالة الجيش التركي اتخذت لها مكاناً من أرضنا، في قرية أوروط Ourout في منطقة عينتاب Aintab. وأساءت، معاملة شيخ القرية، وقد انسحبت خيالتنا باتجاه عنتاب. ومن المؤكد أن الأتراك غدا سيتقدمون أكثر، وسيسيئون معاملة شيوخ القرى التي سنضطر إلى إخلائها، ويمكن أن يؤدّي هذا النظام إلى ثورة كبيرة في المناطق التي تقع تحت سيطرتنا. وفكرت أن أرسل ضابطاً من عندي للقاء حافظ باشا، لكي يستفسر منه عن مهمته. ولكني لست مفوضاً في مثل هذا الأمر. وليس الأتراك الآن ببعيدين عن عنتاب إلا بمقدار خمس ساعات. ولكن حالة من هذا النوع لايمكن أن تطول. وأتوقع أنه قبل أن تبلغك رسالتي، ستشتعل نيران الحرب. ومنعاً لكل اتهام، وخوفاً من أن يقال إننا بدأنا نحن الأعمال العسكرية، فإني لن أفعل شيئاً قبل أن يصل إليَّ جوابك.

ملاحظة: وكذلك فإني مرسل إليك الرسائل التي وصلتني الآن من أضنة. فإذا قرأتها عرفت أن المؤامرات التركية تسببّت في الكثير من الأحداث. وفي وسعي

أن أردّ كيدهم إلى نحرهم، كما فعلت في عنتاب وكوردوكس بإرسال بعض العناصر. ولكن إذا تحرك الأتراك إلى الأمام، فسنجدهم على بعد ثلاث ساعات من عنتاب. ولم يبق أمامنا إلا شيئان، فإما أن نتراجع، وإما أن نحارب. (1)

وعندما قام السلطان بمهاجمة سورية، فإنه بلا أدنى ريب قد تحمل مسؤولية العدوان.

وحتى بالمرستون نفسه يرى كما نرى. ذلك أن الأمر أوضح من واضح، بحيث لايمكن، حتى في لندن، أن يجهلوه كليًا. ويعتمد محمد علي، على هذا، لكي يحصل على دعم الدول الكبرى. فهو غير بعيد عن التفكير بأن الظروف تساعده، وأن ساعة الاستقلال بالنسبة إليه على وشك أن تدق. وفي ٩ حزيران يجيب الباشا ابنه:

إن عدوان خصومنا قد تجاوز كل الحدود. فإذا نحن برهنا على درجة أكبر من الصبر، فإننا لن نستطيع بعد ذلك أن نوقفهم، ذلك أنهم، تدريجيًا، يبذرون الفتن والاضطرابات. وبقدر ما كنا صابرين وحذرين، حتى لانقوم بأمر ضد إرادة الدول الكبرى، يرى خصومنا أن يتشجعوا وأن يدفعوا الأمور إلى حيث هي الآن. لم يعد بعد الآن من علاج. وإذا نحن أجّلنا العمل أكثر، فسنضيع الوقت عبثًا، وهذا ما لايناسب وضعنا. ولم يعد أمامنا من حلّ إلا السير إلى العدو ومهاجمته. وكما أن العدوان قد جاء منه، بكل وضوح فإن القوى الكبرى ستعذرنا وتعطينا الحق. والخلاصة، متى وصلتك هذه الرسالة، سنقوم بمهاجمة الجيوش التي دخلت أرضنا. وبعد أن نطردها، فإن عليك أن تتبع جيش خصومنا، الأكبر، وتدخل المعركة. فإذا حالفنا الحظ، بإرادة الله، فعليك، من دون أن تخترق مضيق كوليك بوغاز Kulek Boghaz ، أن تمضي مباشرة إلى الأمام، وتهاجم ما لاطيا، وكاربون Karpont . وأورفه وديار بكر.

وتُمثل هذه المواقع الأربعة المذكورة آنفًا أهمية إستراتيجية، مثل ما لها من الأهمية الاقتصادية

وعندما وصل خبر الهجوم التركي الذي يصل إلى باريس، في نهاية شهر أيار، كان الماريشال Soult، الوزير الجديد للشؤون الخارجية ورئيس الوزراء معاً، لايخفيان أن مسؤولية النزاع الآن الذي حاولت فرنسا الحيلولة دونه، إنما تقعُ على السلطان. وهو يلاحظ ذلك، لامن دون بعض التحفظ، في هذه الأسطر التي يوجهها إلى قنصل فرنسا في الإسكندرية ويقول فيها: «إنه سيكون ظلماً بالتأكيد ألا نعترف بأنه، منذ السنة الفائتة، كانت الإثارات والتحريضات تصدر عن الأستانة، وأن محمد علي، على عكس هذه، وفى بالوعود التي قدّمها لنا عن عدم إثارة الأعمال الحربية.

وعلى ذلك، فإنه يرسل، في الوقت نفسه، إلى الإسكندرية واستانبول ضابطي خدمة، هما Cailie وفولتز Foltz كي ينبه المتحاربين بالحرص على السلام، الذي ترغب فرنسا في استمراره.

وقد استقبل Caillie لدى نائب الملك يومي ١٥- ١٦ حزيران، كي ينقل رغبات Soult (رئيس الوزراء الفرنسي). وهي الرجاء بتعليق الحرب إذا كانت قد انفجرت، وردّ جيوشه إلى حدود كوتاهيه، إذا هي كانت تجاوزتها، بعد إعادة وضع القوات إلى موقف دفاعي حصراً. وقد أوضح Soult مايريد، عندما قال: إني أعرف أن هذه المطالب ستبدو قاسية على قلب نائب الملك. إنها قد تثيره في البداية، وأنه سيضع نفسه كضحية لاحترامه نصائحي وتوصياتي السابقة. ولكن تفوقه العقلي المألوف، سيعيده بسرعة إلى الاعتراف بأن مصلحته تقوم على احترام مايسميه بالضرورة الأوروبية، لا على تجاوزها. وهذه الضرورة محسومة بقوة، بحيث أنه (سيثني على نفسه) عندما يرى أن الدول العظمى المتفقة حول الغاية، تفترق على الوسائل. ولن يمضي شهر إلا وتكون هذه الوسائل قد اتفق عليها، لدى الجميع».

أما ردّ فعل نائب الملك، فهو في الواقع نموذج للاعتدال. فيأمر مباشرة بالكتابة إلى ابنه، بألا يمضي إلى المجابهة، عندما لاتكون هذه قد بدأت، ويرجو

Caillie بالمضي إلى سورية لإعلام إبراهيم في أسرع مدة ممكنة. ولكن هذا وصل متأخراً جداً.

ويكتب Cochelet -الذي حضر المقابلة- يكتب إلى الماريشال Soult، تقريراً، تكفي خلاصته للكشف عن خطورة المداخلة الفرنسية: «وفي الوقت الذي كان فيه محمد علي يأمر بتقديم برهان جديد على احترام نصائحنا في ظروف خطيرة جداً، يستطيع فيها بسهولة أن يفني الجيش التركي، نراه، يا سيدي الماريشال، إذ يرينا عزمه الأخلاقي والتزامه بتوصياتكم، يرجو أن نقدم له دعمنا الأكثر نزاهة له، إذا عادت المفاوضات لإقرار السلام في الشرق، على أسس أكثر عدالة وأقوى استقراراً. إن هذه لتبدو، بالنسبة إلينا قضية سلامة ضمير أو نقاء ذمة»

وهو تماماً على حق: فهذا التزام تأخذه فرنسا على عاتقها، ويفسِّره محمد علي كذلك.

أوسترليتز إبراهيم:

ولئن كانت مهمة المبعوث الفرنسي إلى الباشا قد كللّت بالنجاح، فإن مهمة فولتز لم تلق شيئاً من ذلك. إذ أن السلطان يرفض أن يرخص للمبعوث الفرنسي بالفرمانات الضرورية لسفره إلى معسكر حافظ. وعلى حين أن المفاوضات تراوح مكانها، فإن الجيش الإمبراطوري التركي يتابع تقدمه، وكذلك جيش إبراهيم.

ففي ٢٤ حزيران ١٨٣٩، كان الجيشان يقفان وجهاً لوجه، في سهل نصيب. وما من شيء يحول دون المجابهة. وستكون فظيعة.

وقد قام عدد كبير من المؤرخين بوصف هذه المعركة. بل إن بعض النقاد العسكريين اعتبروها كأوسترليتز نابليون المصري. «وربما كانت المقارنة مبالغاً بها. فهناك كان كل شيء قد تم بعد يوم واحد من المعركة. إذ أنه كان للنتائج التي لاتحصى، سواء أكان ذلك على مستوى مصير مصر والإمبراطورية العثمانية، أم على مستوى الغرب.

وكانت القوى النظامية لدى المعسكرين متساوية. ولكن حافظ باشا، الذي يساعده أركان حرب بروسية (ألمانية)، كان يتصرّف بآلاف من الجنود غير النظاميين. وعلى ذلك فإنه كان للترك مزايا كثرة العدد.

ولما طلع النهار، قام الوفي سليمان باشا (أي Seve سابقًا)، يُصرّح، على ما قيل، لرؤساء الألوية، قائلاً: «أيها السادة، خلال ثلاث ساعات سنكون كلنا تحت خيمة حافظ باشا، وسنشرب قهوتنا هناك! واتضح بعد ذلك أن تنبؤه دقيق تقريبًا! إذ لم يحتج الأمر إلى ثلاث ساعات، بل إلى ساعتين فقط، للالتقاء في المكان المحدّد (تحت خيمة حافظ باشا)

وفي نهاية المعركة، ترك الجيش التركي على ساحة المعركة أكثر من مئة مدفع، وتجهيزاته، وذخائره، مع كنز حرب خرافي.

أما على مستوى الخسائر البشرية، فإن الأرقام تختلف. أما التقدير المتوسط، فإنه يدور حول العدد ٤٥٠٠ جندي عثماني قتلوا ومعه ٨٥٠٠ سجين (أسرى). وأما الجانب المصري، فإن القنصل السارديني في حلب يتحدث عن حول ٣٥٠ قتيل و٨٠٠ جريح. على حين أن الملازم الأول Petit، -وهو ضابط فرنسي ألحق بهيئة أركان حافظ باشا، - يتحدث عن العدد ٣٠٠٠.

وعلى بعد مئات من الأميال من ساحة المعركة، أي في يوم ٢٤ حزيران، كانت واحدة من ألد أعداء إبراهيم باشا، تعطينا عمرها، في Djihoun، وهي الليدي Stanhope. صاحبة قصر لبنان، وملكة تدمر. ويقال إنها ماتت بسبب السل، لاهثة، يائسة من دون الإطلاع على نتائج المعركة.

واحتفل الجيش المصري بنصره، بالحماسة التي يتخيّلها ابن آدم. وكتب Vingtrinier يقول: لقد كان ذلك اليوم حاراً، لكن الجنود المصريين لم يفكروا في تعبهم، لأن النصر والمجد كانا لهم. وهذه مزية كانوا يتذوقون حلاوتها أكثر بكثير من أدخنة المجد العابثة: إذ لقد ترك إبراهيم لمحاربيه (لجنوده) كل ثروات العثمانيين. وكان معسكر حافظ باشا لم يُمَسّ، كما لو أنه تُرِك لحضور استعراض،

فالثياب، والبسط والأسلحة، والأشياء الثمينة كلها كانت في مكانها. وتركت للمنتصرين، أما الخيام فإنها تُركت للحكومة، وشغلها المصريون المعتادون على النوم على الأرض اليابسة. وما من مرة كانوا يسكنون في مثل هذه الفخفخة. كانت الخيمة واسعة كالقصر، مزينة كبهو إمبراطور. وكانت خيمة حافظ، ترتفع بعظمة وجلال، في وسط المعسكر. وكان يعلوها العلم الإمبراطوري، وشارات القيادة. وكان قماشها المصنوع من النسيج الناعم، ذات لون أخضر فاتح، وكان مزيّنًا بأدوات زينة حمراء، مقطعة ومطرزة. وكان حافظ يملك ثروة ضخمة، فزيّن هذه الخيمة بكل عناية، وأضاف إليها كل ما هنالك من أناقة وحسن تذوق في الحضارة الشرقية. وفي الساعة المحدّدة، التي عيّنها سليمان باشا، تقدم الألوية المصريون، البالغو التأثير، بثياب لم تنتظم، ولكن بوجوه متألقة: وهؤلاء كانوا هم أبطال المعركة، أي أولئك الذين خلّد التاريخ أسماءهم: مثل وزير الحربية أحمدمينيكلي، الذي كانت مهماته الشجاعة موضع إعجاب الجميع، وسليم باشا، اللواء في القوى البريّة الذي يعمل في الحرس، وأحمد باشا، وهو لواء أيضًا؛ وأحمد بك اللواء في المدفعية، وعمران بك، ووالي بك، ومصطفى بك وهما لواءان في القوات البرية (المشاة): وعلي بك وخليل بك وهما لواءان في سلاح الفرسان، وعلى مسافة أربع خطوات إلى الأمام، كان يُرى سليمان باشا. فيستقبلهم إبراهيم، مُصرّحًا لألويته: أيها السادة: إني أستقبلكم في خيمة سليمان، ثم ألقى بنفسه على عنق صديقه، فضمّه إلى قلبه، وقبّله على الجبين والفم وهمس في أذنه، والدموع تترقرق بين عينيه قائلاً: اليوم أقبل جنديًا».

وفي المساء نفسه وعندما كانوا يجلسون أمام الطاولة التي كانت تستخدم كمكتب للمهزوم، كتب إبراهيم إلى أبيه قائلاً: «أخبرك بأنني هاجمت العدو في نصيب. وفي أقل من ساعتين، استوليت من العدو على مدفعيته وذخائر حربه. أما الجيش التركي فقد أُخضع كلُّه، ولن أقف إلا في قونية. أما عندك يا أبي، فأرجو أن تحتفل سبعة أيام، وأن توصل الخبر إلى الشعب كله».

وبعد ثمان وأربعين ساعة من المعركة الأولى، تركت القيادة العامة مكان انتصارها، على رأس ثلاثة ألوية، ومضت في طريقها إلى بيريدجيك وكان معها بطاريتا مدفعية، وسرية من الخيالة وعندما ظهرت القوات المصرية تخلّى الأتراك عن مكانهم، وانسحبوا تاركين وراءهم خمساً وثلاثين قطعة من القياس الكبير.

وفي ٢٨ من شهرنا هذا، احتلّت عنتاب. وعسكر إبراهيم في ايندا- سويو. ويتهيأ يوم ٣٠ للسير على الطريق. عندئذ أخبر بوصول حامل رسالة، هو الملازم Caillie. وبعد أن اطلع إبراهيم على رسالة أبيه، أجاب حامل الرسالة بقوله: «أيها السيد، هل قرأت كتب التاريخ. ؟ حسناً أين قرأت أن لواءاً منتصراً وقف عن سيره. ؟» ولم يجد Caillie، مايجيبه به.

أما هناك، فوق البوسفور، فإن السلطان محمود لم يُطلع أبداً على أخبار هزيمته. وعندما كان مدفع «نصب» يهز سلطة «العصملي» فوق أسسها القديمة، كانت الصلاة العامة قد أقيمت في مساجد العاصمة على روح السلطان الذي دخل في طور النزع. وفي ١٤ حزيران نقلوه إلى تشاميلدجا. وفي أول تموز ١٨٣٩، جاءه الموت، تاركاً العرش لفتى في السابعة عشرة من عمره اسمه عبد المجيد، الإمبراطورية التي تغرق؛ وستكون أوروبا كلها وصيّة عليه. وتنقل الأسطورة عن السلطان محمود، أنه مات وهو يقول: محمد علي ... محمد علي ...

الحالات النفسية لفرنسا:

وفي ٢٤ حزيران، أي في يوم المعركة نفسه، التأم، مجلس النواب. وكان من حقهم الاطلاع على تقرير السيد جوفروا Jouffroy، حول ضرورة الترخيص للوزراء، بعشرة ملايين فرنك، لكي تزيد حجم القوات الفرنسية في الشرق. وفي أول تموز، بدأت المناقشة.

وكان أول المتحدثين هو الدوق دو فالمي Duc de Valmy الذي يقوم بتحقيق في سلوك الحكومة. وهو يقدّر أن فرنسا وضعت نفسها منذ البداية في وضع خاطئ مرتبك في الشرق؛ وأنها أحيت، باتفاق كوتاهيا «ميتاً مؤقتاً» وأنها إذ دلّعت محمد

علي، جرّت على نفسها عداوة الأستانة، من غير أن تربح مودة القاهرة. وهكذا نراه يقترح التضحية بباشا مصر، لعيون السلطان.

وكان هناك نواب، منهم سيد اسمه M.de.Carne، يُحيون، بالمقابل، في الباشا الذي أحيا عرقًا كانوا يظنون أن جذوة حياته انطفأت. ويرى كارنيه أن «القومية العربية» ستزدهر بعناية محمد علي نائب الملك. والمهم إذن «أن لانراهن بشيء بين مصيره ومصير الآستانة». ولما كانت تركيا في حالة النزع، ولم تعد تحول بنجع بين أوروبا الغربية، وبين الروس، فيجب أن نسأل إذن، لماذا لانبحث عن إحلال دولة أخرى محلها؟ إنهم يريدون سلامة الإمبراطورية العثمانية، ولم تعد هذه السلامة ممكنة، إذا نحن اكتفينا بالأتراك وسلطانهم؟ وعلى ذلك فإنه يجب أن نجعلها (نجعل السلامة) ممكنة، بالاعتماد على العرب وبالتالي على محمد علي. إن على عرش استانبول، شبحًا؛ يجب أن نضع مكانه رجلاً مسلحًا. أو ليس محمد علي بصديق لفرنسا؟ ثم إن مصر الخاضعة للنفوذ الفرنسي تجعل الإنسان يتساءل، ألا يمكن أن تجعل هذه من البحر الأبيض المتوسط، ما كانت قد تخيّلته عبقرية نابليون: أي بحيرة فرنسية؟

أما لامارتين، فإنه يعلن، بالتتابع، أنه ضد نظام تركيا كما هو ضد النظام العربي. إن سلامة الإمبراطورية العثمانية تبدو له مستحيلة مع باشا مصر، بقدر ما هي مستحيلة مع السلطان: «فإذا كانت تركيا تهمكم، كما تقولون، فامضوا لا إلى إنقاذ التمرد القائم في سورية، بل إلى المشروعية الإمبراطورية في استامبول. فقدموا إذن توصياتكم ونصائحكم، ومهندسيكم وضباطكم، وأساطيلكم إلى جهود السلطان محمود البطولية، لكي يُمدِّن شعبه؛ وساعدوه على سحق إبراهيم، وعلى إعادة نفوذه على مصر وعلى كل الأجزاء الأخرى لإمبراطوريته، التي تريد الانفصال عنها. وبدلاً من ذلك ماذا يقولون؟ يقولون: سلّحوا من أجل الإبقاء على الوضع القائم، ووحّدوا جهودكم مع الإنجليز لمنع السلطان، من استعادة أفضل أراضيه.. على حساب الباشا المتمرد. أفتعرفون ماذا يعني كلامكم هذا؟ إنه يعني أن نقول: أنفقوا ذهب فرنسا ودمها ووقتها للإبقاء على تركية وأوروبا واستانبول اللتين تقعان بين يدي روسيا: وعلى تركية آسيا الخاضعة لسيف إبراهيم واغتصاب محمد!»

وتتدافع المناقشات:

ومن غير أن يعرض توكفيل آراء خاصة ومحدَّدة بدقة، يعرب عن تمنياته بأن «تصعد فرنسا على المسرح الهام الذي نراه يتفتح، في موقف كريم وقوي، بصورة يمكن القول معها: إنها، وهي تحت ملكية جديدة، لم تُضع حسَّها بالقضايا الكبرى.»

ويعجب Berryer من أن أحدنا لايعرف أن ينحاز تمامًا لا إلى السلطان ولا إلى الباشا.

ولما كان/ أوديلون بارو Odilon Barrot شديد الاهتمام بقرب تدخل روسيا في استانبول، فإنه يدعو الحكومة لدفع هذا الخطر، بطريق استمرار جهودها وحزمها ورباطة جأشها.

وأخيراً فإن غيزو Guisot يلخص بهذه الكلمات سياسة «الواقع القائم» وكأنه يتبناها، فقال: «إن استبقاء الإمبراطورية العثمانية يعني استبقاء التوازن الأوروبي، وعندما يحدث، بقوة الأشياء، وبالمسيرة الطبيعية للحوادث، انفصال ما، أو انسلاخ منطقة ما، فإن محاباة انقلاب هذه المنطقة، وجعلها دولة مستقلة تأخذ مكانها بين تحالف الدول، وتعمل، ذات يوم، في صورتها الجديدة لحفظ التوازن الأوروبي. فتلك هي السياسة التي تناسب فرنسا التي اقتيدت إليها بصورة طبيعية والتي اتبعناها».

وأخيراً فإن البرنامج الشرقي يُلخَّص بشيء من التناقض، فيضاف إلى غيره؛ أي يجب أن نحافظ على سلامة الإمبراطورية العثمانية، مع الإبقاء على الواقع القائم، أي استبقاء محمد علي في سورية.

ولكن هذا البرنامج -وهو لايدهش أحدًا- أمر مناقض تمامًا لبرنامج إنجلترا، التي تصرُّ على كامل الإمبراطورية العثمانية؛ بإعادة سورية إليها. ومن جهة أخرى، إذا نحن حكمنا على الأمور، بمقياس الرسالة التي وجهها بالمرستون، يوم ١٨٣٨/٨/٢٢، إلى هنري بولوير Henri Bulwer ، في استانبول، وجدنا أن

صاحب الرسالة، أي وزير الخارجية، لم يفترض قط إمكان تجزئة الإمبراطورية التركية. ولاتصورّ وقوع هذا الأمر: «إن الناس يتحدثون باستمرار عن الانحطاط الذي لامجال لتجنبه في الإمبراطورية العثمانية التي تتفتت إلى أشلاء شتى، وأنا أجيب أولاً، إنه ليس من المرجح أن تتفتت إمبراطورية ما إلى أجزاء متزايدة، إذا هي تركت لحالها، من غير أن يوجد أي جار كريم النفس لجمعها. ثم إني أشك كل الشك في أن يكون هنالك تزايد في انحطاط الإمبراطورية التركية؛ وإني لمحمول على اتهام أولئك الذي يقولون، إن هذه الإمبراطورية تنحدر من السيء إلى الأسوأ، إذ ينبغي أن يقولوا: إن دول أوروبا الأخرى تصبح من سنة إلى سنة، أكثر علماً بالنقائص الكثيرة والبارزة للتنظيم التركي».

وكانت وجهة النظر هذه، هي التي أوضحها الشخص نفسه في ١/ ٨/ ١٨٣٩. ولكن الشيء الغريب أنه يستخدم الصورة التي استخدمها مترنيخ، بعده بثلاثة أشهر، لكي يبرهن تماماً على العكس: «إن نصف النتائج التي يصل إليها الناس، إنما تنشأ عن أنهم يستخدمون تشابهاً غامضاً أو خيالياً، ويعتبرون أنه هو الحقيقة. وهكذا فإنهم يقارنون ملكية قديمة، ببناء قديم، أو يتخذون مثلهم من شجرة قديمة أو من رجل معمّر. ولما كانت طبيعة الأشياء تقضي بأن تموت الشجرة، أو أن ينهار المعمّر، ويهلك، فإنهم يتخيّلون أن الأمر كذلك في قضية الدولة، وأن القوانين التي تنطبق على المادة الجامدة أو الحياة الحيوانية النباتية، قوانين قابلة للتطبيق على الأمم والدول. ولكنه لايمكن أن يوجد خطأ أكبر من هذا، وأقل منطقاً؛ ذلك أنه، من غير أن نحصي النقاط الأخرى من الاختلاف، يجب أن تكون الأجزاء الداخلة في بنية البناء، أو الشجرة، أو الإنسان، هي هي، وهي تتحلل بحكم أسباب خارجية، أو متغيرة، في تنظيمها الداخلي، بحكم تقدم الحياة، وتصبح مع تقدم الزمن غير قادرة على أداء وظائفها الأصلية؛ على حين أن الأجزاء الداخلة في تركيب جماعة ما، على العكس، تجد يومياً عملية تجديد

فيزيائي، وارتقاء معنوي. وهكذا فإن كل ما نسمعه يقال كل يوم حول تفسخ المملكة التركية: وأنها لم تعد إلا جسداً ميتاً، وجذعاً بلانسغ، إلخ ... ليس أكثر من مجرَّد سخف لاأكثر».

ويمكن القول إن مترينخ يجيب عن هذا بقوله: «إن الإمبراطورية العثمانية جرى عليها ما يجري عادة على جميع الدول ذات التاريخ العريق. إن الدول، كالأفراد، تمر من الفتوة إلى النضج، ثم إلى الكهولة، وإن الأجسام تبقى هي هي، ولكن متى وصلت إلى اكتمال تكوينها، تميل بالتدرج إلى الانحلال؛ فإذا صحّ حديثنا، قلنا إنها تنطوي على ذاتها [...]»(٢)

ولكن أي واحد من هذين الرجلين كان يرى رؤية سليمة. ؟ وعلى كل حال، وبعد عدد كثير من السنين، سيبرهن التاريخ، أن المناورة البريطانية كانت مدروسة بشكل يدعو إلى الإعجاب: فمصر وسورية وفلسطين والسودان- أي كل إمبراطورية محمد علي- ستسقط كالثمر الناضج في سلتها.

وخلال ذلك، حدث حادث ضخم، ولعله الوحيد في التاريخ؛ وهو أن أحمد فوزي باشا الأميرال التركي الكبير، جاء في ٩ تموز ١٨٣٩، ليسلّم الأسطول العثماني لمحمد علي، وكان يتألف من ثماني بوارج و١٢ فرقاطة، وقلعتين. وكان هذا الأميرال يأمل بهذه الحركة أن يحصل على إقالة الصدر الأعظم خسرو Khos-rew باشا، المتهم لديه بأنه عميل لروسيا. إنه يوم لامثيل له بالتأكيد، بالنسبة لرجل كافالا، إلا ذلك الذي وُجد فيه، تحت أنظار الناس جميعاً، أسطول الدولة العلية، يختلط في ميناء الإسكندرية بالأسطول المصري. وفي أقل من شهر واحد فقدت تركيا سلطانها، وجيشها وأسطولها معاً. وللمرة الثانية، كانت أبواب الأستانة مفتوحة تماماً: وليس على إبراهيم وأبيه إلا أن يتجاوزا عتبتها.

وعلى الرغم من ذلك، فإنه ما من دولة أوروبية عظمى- ماعدا فرنسا، وبأي تلكؤ! بدت مستعدة لتقبل رغبات محمد علي في الاستقلال. ومع ذلك يتساءل الإنسان؛ ما الذي يلام عليه محمد علي؟ وهل زاد شيئاً على أنه سلّ سيفه للدفاع

عن نفسه، ضد عدوان اعترف به جميع الناس؟ ولقد كان منتصراً، ومع ذلك فإنه أمر ابنه أن يتحلى بالاعتدال. أو لم تستحق جيوش محمد علي، ما استحقته قوات اليونان؛ في الحين الذي لم يطلب فيه هو معونة الغرب التي طلبها الشعب اليوناني لنفسه، والتي حسمت هي وحدها نتائج حرب اليونان؟ وهذا الذي له الحق في أن يتمنّاه، ليس بأكثر مما تمنته فرنسا واقترحته، مع مزيد من الاعتدال، أي احترام صلح كوتاهيا. وهو تسوية ضمنتها كل الدول الغربية بلا استثناء.

وبدلاً من ذلك، فإن الذي يبغيه بالمرستون، ليس بأكثر من **إلغاء تام** للاتفاقات التي ضمنتها أوروبا كلها. أما الماريشال Soult فإنه قام بخدمة الإنجليز خدمة كبرى، من غير أن يعي ذلك: «إن سولت لؤلؤة. وما من شيء أدعى إلى السرور من سلوكه معنا!» وهذا هو الذي كتبه الوزير الإنكليزي إلى غرانفيل يوم ١٩ تموز عام ١٨٣٩.

وفي كل الأحوال، لايمكن لبالمرستون أن يكون إلا عدواً للخطة الفرنسية، التي يرى أنها تنشئ وضعًا لايمكن قبوله: أي تشكيل إمبراطورية مصرية، مستقلة وراسخة الجذور، كنتيجة للهيمنة المباشرة لمصر، وبصورة غير مباشرة لهيمنة فرنسا في آسيا وأفريقيا، أي لاأقل من نهاية للحكم الاستعماري البريطاني.

بالمرستون ومترنيخ:

لانريد هنا أن نفصل في الجدل والمناقشات الديبلوماسية، التي أثارتها معركة نصيب، ومع ذلك فإن بعض المراحل الأساسية، ينبغي أن نحرص عليها.

ففي ٥/ ٧/ ١٨٣٩، أرسل الصدر الأعظم إلى مصر واحداً من رجاله، اسمه عاكف أفندي، يحمل رسالة يمنح فيها نائب الملك، باسم السلطان عبد المجيد، حق توريث أبنائه في القيام بأمر السلطة. ولكن ما من شيء يشير إلى سورية. ويجيب محمد علي بلهجة ديبلوماسية، ولكنها صارمة:

كان لي الشرف بتلقي الرسالة التي يخبرني سموك فيها أن جلالته، ... السلطان عبد المجيد قد تسلّم العرش الإمبراطوري، الذي فرغ بحكم القدر الإلهي؛ وبأن عظمته كان منحني عفوه، ووساماً شبيهاً بوسام الوزراء الآخرين، كما أولاني نعمته بجعل ذريتي وريثة للولاية على مصر؛ وأن سعادته سيراسكييه Seraskier (*) الشرق، حافظ باشا، كان قد تلقى الأمر بإيقاف مسيرة الجيش العثماني، وأن حقي أفندي، سكرتير مجلس الوزراء قد أرسل إليّ ليشرح لي كم أن دقة وضع الباب العالي، تجعل من الضروري توحيد الشعب المسلم، وكيف يمكن أن يستقر الأمن الذي ينبغي أن يستند إليه التوافق بين الجبهتين.

إن واجبي الأول هو أن أوجِّه تمنياتي إلى الله لكي يصل سيدنا ... إلى تحقيق غاية رغباته، ويَمُدَّ ظلّه الحامي. ثم إني كتبت إلى ابني إبراهيم بأن ينكفئ مباشرة على عقبه، إذا هو تجاوز الفرات بعد المعركة التي حدثت في سهل نصيب، مع سعادته، سيراسكي الشرق. (وزير الحربية اللواء الأول).

إن سموك يعرف، كما يعرف كل الناس أيضاً، أنني أريد من كل قلبي ذلك التوحيد السعيد الذي يدور كل البحث حوله، وإعطاء الباب العالي كل البراهين على إخلاصي. ولكن جلالته يتذكر أيضاً أنه في أيام المرحوم الملك السابق، كان البيليتشي صارم أفندي الذي أرسل إليّ بمهمة، أخبرني بأن السلطان يمنحني إلى الأبد باشوية مصر وصيدا وطرابلس؛ ورفضتها بكل تواضع، كما أني رجوت جلالته أن يتفضل فيمنحني إلى الأبد، لي ولورثتي من بعدي، كل المناطق المسلمة أو الواقعة تحت إدارتي.

وإني أجرؤ أن آمل- وأنا موجّه، لافقط بحكم الصلة القديمة الموجودة بيننا، بل كذلك، بحكم الحكمة وبعد النظر اللذين يميزان جلالتكم- وبالنظر إلى دقة

(*) -كلمة Serakier ، هذه كانت تعني القائد العام للجيش التركي.

موقف الباب العالي، وولاء خادمه المخلص، بعد التفكير في الوسائل التي تضمن راحة الشعب المسلم، رجوت أن تعاملوني بصورة مطابقة لمقتضيات الزمن والقدر.

ولما كانت رسالة سموكم لاتشير إلا إلى مصر، وكان عاكف أفندي صرَّح لي بأنه لايملك أية تعليمات أو ترخيص في قضية الباشويات الأخرى، وأعني هنا الترخيص الأبدي بحكم كل المناطق الأخرى- أقول إن مثل هذا الاقتراح لا يمكن أن يُقبل. ولهذا فإن هذا الموظف آثر العودة، بدلاً من البقاء قيد التراسل والمعالجة «وسيعبر شفهيًا لسموك، عما أردت أن أطلبه منك بهذه الرسالة»(٣).

وقد فرحت الأوساط الرسمية في بطرسبورغ عندما علمت بمبادرة الباب العالي هذه. إذ قال الكونت نيسيلرود Nesserlrlode للبارون دوبارانت، سفير فرنسا في بطرسبورغ: إننا نقدم موافقتنا كلها على كل تسوية تقوم بين تركيا ومصر.

وفيما بين الواحد والعشرين والسابع والعشرين من شهر تموز، اجتمعت ثلاثة دواوين في العاصمة التركية، للبحث في الموقف واتخاذ التدابير الضرورية. وفي الاجتماع الثالث، قررت أخيراً قبول تمنيات محمد علي، واختير رسولان، سعيد أفندي وتوفيق أفندي ليكون عليهما أن يسافرا في الغد صباحًا إلى الإسكندرية، لإبلاغ محمد علي بالنتائج. وبدا أن النهاية قد اقتربت.

وفي اليوم نفسه، أرسل محمد علي مذكرة إلى كل القناصل العامين، يشرح فيها أسباب رفضه لمقترحات خسرو. ولنذكر أقواله كما وردت:

١- لأن المرحوم السلطان محمود الثاني أبلغه في الماضي، عن طريق صارم أفندي، مقترحات أكرم من هذه التي جاءته عن طريق الصدر الأعظم، ذلك أن القضية يومئذ، كانت تتعلق بحق الوراثة جمله، ومعها ولايات صيدا والسنجق وكريد.

٢- وأنه في الظروف القائمة حاليًا، يطلب وراثة سورية وكريد.

٣- وإنه بهذا الشرط -إذا هم أرادوا العمل معه؛ بحسن النية، سيكون أوفى خادم لصاحب الجلالة وتابع لمولاه، وأنه سيدافع عنه في أي حين، وضد من يشاء.

وفي الوقت نفسه يُرسل بيانًا يدين فيه خسرو، المسؤول الوحيد عن كل الشرور التي أصابت الإمبراطورية [...] وأنه إنسان خطر، كله سمّ. ويوضح أنه لن يعيد الأسطول لرجل يمكن أن يفسد في يوم مابنيناه في أعوام.

ويخلص من ذلك إلى أنه إذا شئنا إنقاذ مصالح الإمبراطورية، فإن من الضروري، بل لابد من إقصاء الصدر الأعظم عن مناصبه(٤).

وكان الوضع على هذه الصورة عندما طلع مترنيخ بمفاجأته. ذلك أنه أخبر بالمفاوضات الجارية، وخاف من سلام يحابي مصر محاباة كبيرة، وأنه قرّر التدخل مع الآستانة ،باسم أوروبا، بغية منع كل تسوية مباشرة لاتنال موافقة الدول الأوروبية. وفي ٢٧/ ٧ يفوّض المستشار سفيره، بالاتصال مباشرة بزملائه، ليقدّموا للسلطان مذكرة تقول: «إنه ما من مبادرة يؤخذ بها إلا بعد أن تستشار الدول الكبرى بشأنها».

وفي ٢٨، وصلت المذكرة إلى السلطان الذي كان يناقش مع أعضاء اللجنة، آخر الشروط التي يجب أن تقدّم إلى محمد علي: وقد جاء فيها مايلي: «إن السفراء الموقعين أدناه، وطبقًا للتعليمات الواردة إليهم من بلاطاتهم، يهنئون إنفسهم، على أنهم تلقوا تعليمات عليهم أن يبلغوها للباب العالي. بانتظار نتائج المفاوضات القائمة، راجين ألا يقرَّر أي شيء في أية مسألة، بصورة نهائية، من غير إشرافهم»(٥).

وينتصر بالمرستون. ذلك أن مذكرة مترنيخ تردّ إليه فريسته. أما خسرو، فإنه كان سعيداً جداً، في أن يري التدخل الأجنبي يتيح له أن يؤجّل كل تسوية مع

خصمه، وتجديد المؤامرات عليه. وعلى ذلك فإنه ينحني أمام إنذار القوى العظمى. ويكتب لمحمد علي إحدى روائع المكر التالية: «كان مبعوثنا سعيد أفندي على وَشك أن يبحر على سفينة بخارية (إلى الإسكندرية) عندما جاء سفراء الدول العظمى الخمس، وسلّموا إلى الباب العالي، مذكرة موقعة منهم، ترى ترجمتها في رسالتنا هذه [...] وبعد أن قُدّمت هذه المذكرة، عقد كبار المسؤولين في الباب العالي، من جديد اجتماعًا- رأوا فيه أن تَدَخُّل الأجانب في قضيةٍ تتعلق بتابع ومتبوع، شيء يجافي المألوف؛ ولكن عند النظر إلى أن القوى العظمى الخمس، قد تدخلت معًا في الماضي، فإن رفض وساطتها يكون شيئًا مزعجًا لها، وربما جلب لنا مشكلات واضطرابات تسيء إلى الأمة الإسلامية [...]. لكن كبار المسؤولين الذين تمنّوا ألا يكون لنا أبداً. أن نعتمد على الأجانب، أو نُوَسّطهم في أمورنا، لم يروا في الظروف الحالية، أن من المناسب ردّ الطلب اللامتوقع للسفراء الخمسة، وقبلوا هذا منهم». ومنذ ذلك اليوم، فإن جهود الباشا بغية الوصول إلى اتفاق مباشر مع الباب العالي، ذهبت عبثًا.

وعندما نجح مترنيخ في مبادرته، يوم ٢٧ تموز، وجد أن عليه أن يسرع، منذ ٧ آب، بإرسال رسالة إلى البعثات النمسوية في باريس، ولندن، وبطرسبرغ وبرلين، جاء فيها أنه يتمنى أن يُقصر الاعتراف بحق الوراثة لمحمد علي، على باشويته على مصر. وفي الوقت نفسه، أخذ يبذل الجهد لجمع مؤتمر في لندن أو فيينا، من أجل تسوية مشكلة الشرق، بالاتفاق بين الجميع.

وصفّق بالمرستون لهذه المبادرة النمسوية. ولم تعارضه روسيا: وأصلاً ما الذي تخسره فيه. ؟

ولكن ها إن مذكرة ٢٧ / ٧ توقظ فرنسا. وقرّر لويس فيليب، بضغط من الرأي (العام) أن يغيِّر سياسته. ولما كان ملتزمًا تجاه مصر، ويائسًا من لندن، فإن الحكومة الفرنسية بدأت تشعر أن في هذا مساسًا بكرامة فرنسا. وعلى ذلك قررت أن تلغي تحالفها مع الإنجليز وتقف وقفة واحدة مع محمد علي. وتدريجيًا تركز في روح الوزراء الفرنسيين، ذلك الاقتناع بأن دعم نائب الملك، هو دعم فيه من العدل بقدر ما فيه من النبل، بل هو أيضًا فرصة حياة لبلد يريد الآخرون أن يضعوا عليها سمات الموت. وهكذا تجتمع كل العناصر اللازمة لتصعيد عواطف الكبرياء والمثالية الفرنسية.

ومن سوء الحظ أن انقلاب لوي فيليب لم يتم إلا بصورة متأخرة. وكان بالمرستون، منذ مدة طويلة، قد نجح في الحصول على عناصر تأييد قوية، من جانب الوزارات الأوروبية.

وبدءًا من أيلول ١٨٣٩، كانت لندن هي التي تصبح مركز النشاط الأوروبي. وخلافًا لفرنسا، كانت إنجلترا تستمدُّ القوة لسياستها من وحدة وجهات النظر والعمل. وكان بالمرستون، يومًا بعد يوم، يفعل كل ما يمكن، وبصبر، من أجل إزاحة الحكومة الفرنسية من ساحة العمل. وفي منتصف أيلول نراه يقترح عليها أن تطلب من محمد علي ردّ الأسطول التركي إلى أصحابه، فإذا أبى ذلك. كان العقاب في أسر الأسطول المصري، لكن الوزراء الفرنسيين يرفضون بقوة هذا الاقتراح.

ولكن بالمرستون لايفقد شجاعته، ويلح على ضرورة اتخاذ تدابير قمعية قادرة على تحطيم مقاومة الباشا، عند الحاجة. ثم إنه يضع تفاصيل اقتراحه،

ومنها: منع المواصلات عن طريق البحر بين سورية ومصر، ومحاصرة المرافىء، والاستيلاء على كل السفن المواخر تحت علم مصري.

وخلال ذلك، حاولت روسيا، التي توقعت قيام القطيعة بين فرنسا وإنجلترا، أن تقترب من وزارة سان جيمس، مقترحة دعم وجهات نظر بالمرستون. وبهذه الروح -وعن طريق البارون دو برونو De Brunow -وضعت لهذا الأخير خطة، أقل ما يقال فيها أنها ماكيافيلية: ففي الحال التي يعود فيها إبراهيم إلى متابعة سيره إلى الآستانة، كانت روسيا تأخذ على عاتقها حماية السلطان المهدّد. وقد فهم من أراد الفهم المعنى الخبيء لهذا المسعى: أي أنها تقول للحلفاء: سلّموني الآستانة، وأنا أسلمكم الإسكندرية. ومهما تكن هذه المساومة شيطانية، فإن الوزير الإنجليزي يقبل هذا الاقتراح. إلا أن فرنسا احتجت بأعنف ما يمكن عليه، عندما علمت به: وقد كتب المارشال سولت soult لسفيره في لندن يوم ٢٠ أيلول «لامجال مطلقًا لظهور عمارة حربية أجنبية، أمام الآستانة، من دون أن نظهر مباشرة عمارتنا إلى جنبها» [٦] أما زملاء بالمرستون، الأقل حماسة منه على الأرجح، فإنهم يأبون بدورهم، أن يُجرّوا إلى المشروع الروسي. ويظل صحيحًا أن بوادر التقارب بين إنجلترا وروسيا بدأت تظهر.

وعيّن يومئذ سفير لفرنسا في الآستانة كبديل عن الأميرال Roussin هو السيد de Pontois إذ أن السفير السابق كان كبير الحقد على نائب الملك بصورة واضحة وفاضحة: وفي يوم ٢١ كانون الأول ١٨٣٩، قدّمت فرنسا إلى المجموعة الأوروبية خطتها في: «حق الوراثة لمحمد علي في مصر وسورية وجزيرة العرب، وجزيرة كريد، على مدى حياته». ومرّة أخرى، كان الاقتراح متأخرًا جدًا.

ويضع بالمرستون اقتراحًا مضادًا: فمصر تبقى وراثية وباشوية عكا من دون مدينة عكا نفسها، تكون للباشا، طيلة عمره. وترفض الوزارة الفرنسية هذا

الاقتراح، معتبرة أن الفرق كبير بين مقتضيات الباشا وبين المقترحات الإنجليزية. وهذا خطأ في المحاكمة، ستكون له نتائج مشؤومة. ونظراً لصعوبة الموقف، والغلبة البريطانية، فإنه كان يجب أن نصطاد السمكة مباشرة. لأن اتفاق الدول كان سيتم في الحال، وكان الباشا سيحصل على أكثر بكثير، مما استطاع الاحتفاظ به. وعندما رفضت فرنسا، أجاب بالمرستون ببرودة: «لقد سحبنا الترخيص».

ويجب أن نوضح هنا أن الوزير الإنجليزي لايشعر إلا بالاحتقار تجاه لوى فيليب. وكلما سنحت الفرصة لذكره، يروقه أن يُصرّح بأن ملك الفرنسيين لايتخذ قراراً، أبداً، في قضية ذات شأن، وأنه مادام مثل هذا الملك يدير شؤون بلده، فما من شيء يمكن ألا نجرؤ عليه.

غير أن التقارب الإنكليزي، الروسي لايفتأ أن يتقدم. أما الخطة التي اقترحها البارون دوبرونو، فقد أعيد النظر فيها وصحّحت. فقد قرَّر نيقولا الأول ونسيلّرود أن يقربّا وجهات نظرهما، من وجهة نظر الحكومة البريطانية، أي بتقرير مصير محمد علي وإقرار تدابير قمعية لعرضها عليه. ويقترح برونو أن يتعاهد الطرفان على ذلك، في معاهدة يُوقعها الطرفان. ولايرفض بالمرستون ولايقبل هذا الاقتراح، ولكنه لايوفّق بينه وبين الاقتراح الجديد. والأرجح أنه لايرضى بسهولة متابعة الروس على طريق، يعرف أن الفرنسيين لايتبعونه فيه. ولكنه يبقى أن انحياز روسيا إلى إنجلترا في اقتراحاتها الأخيرة، أصبح شيئاً واضحاً.

أما محمد علي، فإنه هناك في وادي النيل، وخلال أشهر وأشهر، فرض على نفسه موقفاً حازماً تجاه الدول العظمى، غيرَ أنه مرن ومستعد للمصالحة، مع الباب العالي.

وأخيراً، وبعد أن فهمَ أن لاجدوى مطلقًا لجهوده السلمية كلها، عاد فجأة إلى إقامة حصون، وتجنيد عساكر جدد، كما لو أنه كان يتنبأ بأن عليه أن يحارب مرة أخرى.

وفي الوقت نفسه، كان الباب العالي يتسلّح أكثر فأكثر. وكانت جيوشه في ملاطيا، تتلقى نجدات كبيرة: فهناك ألوية كثيرة. ومئة مدفع من عيار ٢٤، وصناديق الخراطيش بعدد كبير. وفي استانبول نفسها، كان عدد الجنود يصل إلى ٢٦ ألف جندي.

وفي يوم ١٦/ ١/ ١٨٤٠، وصل العقيد Hodges، الذي يحاول القيام بمسعى رسمي عند الباشا. وقد استقبل استقبالاً عنيفًا بعض العنف: «إنهم يتحدونني كل التحدي؟ حسنًا، إني أقبل التحدّي. أيريدون الحرب؟ وإذن فسأخوضها بأقوى ما أستطيع. ولعلّهم يندمون على أنهم جعلوني أصل إلى هذا الحدّ من التطرف الخطير!». وعندما عاد الفرنسي (كوشيليه) في اليوم التالي ليقوم بالمسعى نفسه، لم يكن عزم الباشا قد تغيّر نقطة واحدة: «إنهم يرغمونني على ضرب المدفع؟» ليكن إذن هذا المدفع هو الذي يقرر. ولن أتخلى عن نخلة واحدة في سورية!»

وفي اليوم الخامس من شباط (فبراير) عام ١٨٤٠ كان اللواء سيباستياني الذي لايقل معارضة عن الأميرال روسان، تجاه مطالب محمد علي، قد أحلّ محله غيزو Guizot. ومن المؤسف أن روسيا، خلال ذلك، قد وضعت أساسًا تامًا للإتفاق مع إنجلترا، وصارت عزلة فرنسا كاملة. ومنذ الآن فصاعدًا، صارت بروسيا، والنمسا، وروسيا، وانجلترا تؤلف كتلة متجانسة، لاتمكن المداورة عليها. وكانت وحدتهُم تتيح لهم حرية التصرف، بدون فرنسا، وفرض الصلح بشروط بالمرستون، أي بالسلاح.

ولاشك أن محمد علي شعر بأنه يقدم على المجابهة. ففي ٢٣ شباط، كتب إلى خسرو باشا، رسالة تدل بمضمونها على درجة عالية من الصفاء العقلي، ليحذِّره من مغبة مقاصد الدول العظمى: «إني أعرف أنهم يقنعون الديوان، باللجوء إلى الدول الأجنبية بطردي من سورية. ولكن كيف لاترون أن هذه الدول نفسها تعمل على تجزئة الإمبراطورية العثمانية وتقطيعها إلى أجزاء منفصلة، وأنها تريد أن

تقتل فيَّ فيض العزم والقوة؟ فيا صاحب السموّ، سأكلمك بكل وضوح وصراحة وصدق، وإخلاص؛ أني أناهز السبعين من عمري ولم يعد لي من طموح لنفسي. ولكن لديّ أسرة، ومن واجبي أن أضمن لها مستقبلها. فليتفضل سلطاني أن يترك لي الجزيرة العربية. وعندئذ سأتابع العمل لديني وبلدي، وأقدم لها نفس الخدمات، التي كنت سعيداً بأن أظل أقدمها لها؛ وإلا فإنني سأقاوم. ولن أعطي الحق لأعداء الإمبراطورية الذين يريدون إضعافها، لكي يتقاسموا أشلاءها. ولو أنهم كانوا لايُكنونّ في قلوبهم مشاريع عدائية ضدّي، فلم إذن يريدون اقتلاعي من معابر جبال طوروس التي هي الحدود الطبيعية لحكومتي. يا صاحب السموّ، إن حكمتكم العالية، وطيب قلبكم اللذين أردتم دوماً، وفي كل الظروف، أن تحيطوني بهما، يجعلاني آمل أن تتقبلوا طلبي أحسن التقبل. وعندئذ سأحتمي بأحضانهما كما لو أني في ملجأ مقدس: ويكون سموّه قد ضمن سيادته في الدنيا وفي الآخرة.

إن هذا هو الذي يؤكّد بما فيه الكفاية، بأن نائب الملك، لم يكن لديه أدنى وهم حول مساعدة الدول الكبرى، وأقل من ذلك، حول مساعدة فرنسا. «وكان أمام كل السياسيين الذين جاؤوا ينصحون بعدم استباق الأحداث، لايخفي خيبة أمله: «لقد ظننت دوماً أن أوروبا تريد لي الخير. وقد أخطأت في ذلك. أما الآن فإني لم أعد أصغي لأحد، وأعود لأصبح تركياً، وسأعمل في إطار السياسة التركية، وسأموت كتركي، ولن أبقى حياً بعد خراب بلدي، الذي يريدون تقطيعه إرباً، بدعوى كاذبة. وإني لن أتحمل أبداً أن تصبح مصر إنكليزية ولاتركيا روسية. وكنت أريد أن أكون أقوى داعم للسلطان؛ فلم يفهموني، وأنا أدع للشعوب الإسلامية أن تحكم بيننا. وسأقوم بالحرب المقدّسة. وأعرف أنني لن أستطيع مقاومة الدول العظمى الأوروبية التي ستهاجمني، وسأقتل مع أهلي في النضال، ولكني سأموت بشرف (٧)».

-٢٨-

لعثمات تيير

(١٨٤٠)

وفي آخر شباط من عام ١٨٤٠، لم تجد حكومة الأميرال سولت دعمًا من الأكثرية في الجمعية الوطنية (البرلمان) حول قضيةٍ لاعلاقة لها مطلقًا مع الوضع الخارجي، مما اضطر الأميرال إلى تقديم استقالته للوي فيليب. وفي أول آذار، وقع الاختيار على تيير لخلافته، في الحين الذي عيّن فيه «غيزو» سفيراً في لندن، وهذه وظيفة كانت عسيرة وحسّاسة جداً في ذلك الحين. ومنذ ذلك الوقت، كان على ثنائيتها أن ترسم مصير محمد علي، ومستقبل المسألة الشرقية.

ومنذ ٧ آذار، كتب مدير الشؤون السياسية دوساج إلى كوشليه Cochelet، قنصل فرنسا في الإسكندرية، رسالة فيها مايلي: «إن الوزارة الجديدة التي شُكلّت منذ فترة هي من القصر بحيث لم نجد أننا قادرون فيها على الكتابة رسميًا إليكم، عن طريق الباخرة التي ستسافر قريبًا. وعلى ذلك فإنكم ستبقون معطّلين عن كل عمل، حتى إشعار آخر. وفضلاً عن ذلك، فإن كل شيء لايزال معلقًا في لندن. أما هنا. فإن مجلس الوزراء لم يضع قضايا الشرق موضع البحث، حتى الآن. وأرى أنا، أن الأمور بين باريس ولندن آخذة بالتطاول. ويبدو لي أن الوزارة البريطانية، في الحقيقة، أقل حدة الآن، من ذي قبل. ولكن عندما نقبل رأي بعض الأشخاص، الذين يظنون أنها مستعدة للتراجع، فإنه يجب أن تلتمس لها الوسائل، بشكل مشرِّف. وربما عرفتم بلاعناء، أن رئيسنا الجديد (يعني تيير) لايكره نائب الملك. ومع ذلك لاينبغي أن يؤخذ كل ما قاله، وهو معارض، كقاعدة

لاتتحول لسلوكه كرئيس وزراء. و إذن فاعتبروا الآن أنه من مصلحة الباشا، أن نُبقي على بعض خطوط الودّ مع انجلترا، ونحن لانريد التسرّع معها، وإنه بالتالي، لابُدّ من انتظار بعض الوقت، وإطالة وجود الوضع القائم، ما لم يحصل الباشا- وهذا ما يلائمني تمامًا- على حَلّ مناسب، مع الباب العالي[1]».

أما في الواقع، فإن سياسة تيير هذا، ستقوم على اللعب على الحبلين: فمن جهة أولى، سيثابرُ على التفاوض، لتهدئة الدول الكبرى، ومن جهة ثانية سيدفع السلطان إلى تقديم بعض التنازلات لمحمد علي. لكن سياسته هذه لم تحسب حساب التصميم الإنجليزي. إذ أن هذا لم يكن يخفي نفسه، لدى المحادثات التي تمَّت بين غيزو، الذي كان لايزال سفيراً لفرنسا في لندن، وبين اللورد بالمرستون:

سيدي، لمَ نضع سلام المشرق، وأمن الباب العالي وأوروبا تحت رحمة كل هذه المصادفات. أي رفض الوراثة على شيخ في الواحدة والسبعين من عمره؟ وماعساها أن تكون إذن، تلك الوراثة في الشرق؟ سيدي، في هذا المجتمع العنيف والمعرَّض لمختلف الطوارئ، وفي هذه الأسرة الكثيرة الأفراد والمفككة الروابط؟ إن قصة محمد علي ليست بالحادث الجديد في الإمبراطورية العثمانية، فكثير من الباشوات قبله ثاروا، وفتحوا مدنًا، وأصبحوا أقوياء وشبه مستقلين. فماذا فعل الباب العالي؟ لقد انتظر مرور الزمن. ومات الباشوات، وانقسم أبناؤه. واستعادت استانبول أراضيها وسلطتها. وهذا بالنسبة إليها أحسن السبل، والسلوك الأكثر أناة.

- إن هناك شيئًا من الصحة فيما تقول. والوراثة قد لايكون لها كل هذه القيمة. بيد أن إبراهيم باشا رئيس (قائد) ماهر، محبوب لدى جنوده. وهو أفضل، إداريًا، من أبيه، على ما يقال، ولديه ضباط أكفاء، وفرنسيون. نحن نقول كلَّ شيء، بصراحة أليس كذلك؟ أفلاتكون فرنسا مرتاحة إذا هي رأت دولة جديدة ومستقلة كانت كلها تقريبًا من صنع فرنسا، وستكون بالضرورة حليفتها؟ إن لديكم الولاية على الجزائر، فماذا يبقى بينكم وبين حليفكم في مصر؟ لاشيء تقريبًا سوى

هذه الدويلات الفقيرة، تونس وليبيا. فكل الشاطئ الأفريقي، وجزء من شواطئ آسيا الصغرى المطلة على المتوسط، بدءاً من المغرب حتى خليج الإسكندرية. ستكون تحت سلطتكم، ونفوذكم. وهذا لايمكن أن نتفق عليه(٢).

إن أهمية هذا الاعتراف لم تخف على غيزو، لأنه استعاده حرفيًا في تقريره إلى الوزير. ولم يُدهش «تيير» منه لأنه يذكر أحاديث بالمرستون (من دون تسميته) من على منبر الجمعية الوطنية. وعلى ذلك فإننا نتساءل كيف أن الأول والثاني لايخلصان إلى مثل هذه البداهة، أو مايشبه البداهة، في القول: إن وزيراً من نوع بالمرستون لايسعه أبداً أن يقدّم أي تنازل، حتى ولو على حساب إنقاذ التحالف الفرنسي- البريطاني؟

وخلال شهر آذار ١٨٤٠ حدث تعديل وزاري في استانبول. فسلِّمت وزارة الخارجية إلى رشيد باشا، المشهور بولائه للإنجليز. وكيف لايكون كذلك، على حين أن السياسة المقترحة من إنجلترا، تخدم مصالح دولته أكثر مما تخدمها المقترحات الفرنسية؟ وفعلاً يتساءل المرء: ألا تبدو السياسة الإنجليزية وكأنها تحرِّر الآستانة من الحماية الروسية، التي اضطُر إليها السلطان المرحوم، كحلٍّ مؤقت، وكنوع من اليأس؟ أو لاتحاولُ هذه السياسة، بالإضافة إلى ماذكر، وضع حاجز بين الباب العالي وتابعه العاصي، هو تحكيم أوروبي تحاول إنجلترا دومًا أن تجعله أفضل مايمكن لإنقاذ تركيا؟ ولنلخّص هنا آراء السياسة الإنجليزية.

١- إن بالمرستون. وهذا معروف، ليس بمعارض لحصول محمد علي على كرسي الحكم في مصر، وعلى حق توريثه ما لديه. ولكن لا عن ضعف، بل فقط لأن تراخي العلاقة القانونية، بين هذا البلد وتركيا، ليس من شأنه إلا أن يُسرَّ، في المستقبل، تدخلاً إنجليزيًا في وادي النيل.

٢- ولكن لماذا يحرص بالمرستون على إبقاء سورية أو الاحتفاظ بها للسلطان؟ والجواب لأن إنجلترا- وهذا ما قاله بلا لف ولادوران- لايسعها أن تتقبل بقاء سورية بين أيدي محميي فرنسا.

وإذن بمَ تسلّم تركيا، إن لم يكن بمسألة الوراثة، شريطة أن تستعيد منطقتها السورية؟ وعندئذ، كيف يمكن أن نشك بأن صوت مجلس وزراء سان جيمس، مسموع في استامبول أقوى من صوت باريس؟

ثم إن الخطأ الثاني الذي ارتكبه تيير، هو استمرار الاعتقاد بأن الاتفاق المباشر بين الباب وبين محمد علي ممكن، في حين أن مذكرة ٢٧ تموز، جعلته مستحيلاً، لأن بالمرستون ومترنيخ يعارضانه.

أضف إلى ذلك أن خسرو باشا لايعنيه أن يفتح أذنيه لمطالب ندّه القديم. وأية فائدة سيحصل عليها، إذا هو فتح أذنيه؟ ليس هناك أية فائدة، على نحو ما يكتبه لمحمد علي، يوم ٢٨/ ٣/ ١٨٤٠، «إن موقفنا إزاء الدول العظمى الأوروبية، يتُيح لنا انتظار الأحداث بكل راحة وهدوء».

وبعد ستة أسابيع من القيام بأمر الدولة، فطن تيير -وما أسرعه- إلى أخذ القلم يو م ١٨ نيسان، لكي يستطيع أن يُوَجِّه رسالة خاصة إلى كوشليه. ونحن نسمح لأنفسنا أن ننقل هذه الرسالة في كليتّها تقريبًا، لأنها تظهر لنا على جانب كبير من الأهميّة لفهم مايتبع، وكذلك لأنها تكشف لنا شخصية ذاك الذي وصفه «هوغو» بقوله: «إنه بوّاب كاتب وَجد بوّابين قراءًا».

«إني بالتأكيد أهتمَّ اهتمامًا كبيراً بقضية نائب الملك. ولاأعبّر هنا إلا عن عاطفة شائعة جدًا في فرنسا. ولكن لاينبغي، مع ذلك، أن يُخدع نائب الملك بوضعه، ويحسب أنه أفضل مما هو في الواقع. وتستطيع فرنسا -بحكم مصالحها- أن تكون مفيدة له بالتأكيد؛ وهذه المصالح تُوَفّر عليه مقتضيات قاسية جداً من جهة الدول الأوروبية، وتهيىء له بضعة أشهر من الراحة، عن طريق مفاوضات تُوَجّه توجيهًا متباين الإتقان: ولكن قريبًا أو بعيداً، ربما أمكن للدول الأربع بأن تتحالف، ضدّه، كي تنتزع منه التنازلات التي لايريد اليوم أن يقدِّمها.

إن إنجلترا تظهر عناداً جديداً تجاه نائب الملك: وروسيا لاتأبى شيئًا على إنجلترا، لكي تيسّرَ قبول مقترحات برونو Brunow؛ ثم إن النمسا وبروسيا تتبعان

روسيا وإنجلترا وستتردّد هذه الحكومات زمنًا طويلاً في التوقيع على اتفاق لم ترضَ عنه فرنسا. ولكن ربما انتهى الأمر إلى التوقيع عليه، بدونها ومتى التزم الإنسان بشيء، لايستطيع أحد أن يَعرف إلى أين يمكن أن يُقاد.

وأنا أعرف جيداً أن نائب الملك، الضعيف جداً عندما يتجاوز حدود طوروس، ليدخل إلى آسيا الصغرى، يكون قويًا جداً عندما يبقي في مصر وسورية، وأن الصعوبات والمتاعب ستدور ضدّ أولئك الذين يريدون اجتياز الطوروس ضدّه، ولكنني أخشى عليه من بعض الظروف. وأضرب مثلاً على ذلك تصريحًا من الدول الأربع، . . عرُف ودُعم بالأسطول الإنجليزي. أفلا يمكن أن يثير أحداً من سورية ضدّ المصريين؟. وهنا إذن نجد نتيجة ممكنة، وربما كانت مرجّحة. وسيقوم الباشا بجهود كبيرة لاحتواء سورية. ولكن أتراه ينجح؟ وعلى فرض أنه ينجح أول الأمر، فإن الدول الأربع، إن هي لاقت خيبة، لابُدَّ وأن تغتاظ من عجزها، وتتخذ تدابير عنيفة ضد مصر؟ إني لاأخشى على الباشا من جيش إنجليزي، ذلك أن إنجلترا لاتملك جنديًا واحداً جاهزاً: ولكني أخاف أكثر بقليل، ولكن لاأكثر بكثير، جيشًا غسويًا، تحمله سفن إنجليزية. ولكني، في بعض الحالات، أخشى أكثر بكثير، من جيش روسي، يجتاز جبال طوروس، وينتزع من سلطة المصريين، منطقة، سهلة الإثارة.

ولم أكن في البداية أخشى من حربٍ تُشن على نائب الملك «وتؤدّي إلى هذه النتيجة: كلا، ففي البداية يصدرون تصريحات، ويكتفون بعرض العلم الإنجليزي، ولكن بعد فترة انتظار، أخشى حب الذات المثار، لدى الدول الكبرى، ونفاد موارد نائب الملك الذي لايستطيع تحمّل النفقات التي يستطيعها اليوم. وكثيراً ما يقال في فيينا وبرلين ولندن، إنه يجب النظر في الأمر مدّة طويلة قبل التوقيع على أية تسوية . ولكن متى وقُعت، فإنه يجب أن ننفذها مهما كلّف الأمر، حرصًا على أن لاتبدو الدولة القوية، دولة لاقوية.

وعلى ذلك، فإن على محمد علي ألا يعيش في الأوهام، أو يتخيّل أن مقاومة فرنسا يمكنها أن توفّر عليه تحالف الدول الأربع. وفي وسع فرنسا أن تؤخر هذا التحالف، ولكنها لاتضمن أبداً أن تنجح في منعه. وعندما يكون هذا التحالف قد كُوِّن، فإن حب الذات القائم، للدول الأربع، يمكنه أن يُؤدّي إلى قرارات متطرفة. وفرنسا، مستعدة للنهوض كلها لمصلحة ما، في الرين، أو في جبال الألب، ولكنها لن تبدي الحماسة نفسها، من أجل أحداث تقع على شواطئ النيل؛ ويجب أن لايعتقد الباشا أن قضيته يجب أن تؤدّي إلى حرب عامة. وأنا لاأتفق مع أي شخص، فيما أقوله هنا، وما أبعدني عن ذلك. ولكن أقول إن الباشا لايمكن أن يُغلب؛ وأنا أتحدث بصوت عال عال، من هذا المنبر، عن العون الذي تريد فرنسا أن تقدِّمه له: ولكن هذا كله إنما أقوله لأوروبا؛ وأنا في أعماق نفسي، أخشى أن يكون الباشا ضعيفاً في سورية: ولا أعتقد أن الديبلوماسية الفرنسية تنجح دوماً في الحيلولة دون أن يقوم أو أن يتم الاتفاق بين روسيا وإنجلترا والنمسا وبروسيا. يجب أن لايؤمن الباشا بالاتصالات التي يقيمها مع باريس، وأن يرى الأشياء كما هي على حقيقتها. وهو لا يستطيع دفع الأخطار المحيطة بوضعه إلا بالتحلي بكثير من الحكمة والاعتدال. وأرى الآن أنه يعدل عن المطالبة بأضنة، وكانت هذه على وشك أن تُقبل. إنه مخطئ؛ إنه يجعل كل تسوية وديّة مستحيلة. وأنا أشك في أن يمنح حق الإرث في مصر وسورية. وسيكون هذا نجاحاً كبيراً له إن حصل، ولكننا لن نحصل عليه، في كل الأحوال، إلا بشروط التخلي عن Candie (كاندي) وأضنه، والأراضي المقدسة. وهناك تسوية أخرى ممكنة أو ربما كانت ممكنة. وهي أن يمنح نائب الملك حق توريث أسرته، في مصر وحدها، وعلى امتلاك حق التصرف بسورية وأضنة وكاندي، طول حياته، وكذلك في الأراضي العربية. وأنا أفضل هذا الحلّ الأخير؛ ولكني ضعيف الأمل فيه. أما الأمر الواقع- وأعني به البقاء على ما كانت عليه الحال بعد معركة نصيب- فإنه يبدو لي أمراً ممكناً. ولكنه لايمكن أن يتمّ إلا بعد عناء كبير يبذله المتفاوضون الأوروبيون: بيد أنهم، في بطرسبورغ، اتخذوا حذرهم ضدّ الإرهاق؛ وأرادوا أن يتمهلوا في العمل. . ولهذا

سمّوا Brunow وزيراً في لندن. وعلى كل حال، فإن الوضع خطير. والشيء الذي أنصحُ به الباشا هو أن يتهيأ لتضحيات معقولة، وأن يُسلم أمره إلينا.

فإن كان يُعطى مصر وسورية وحق توريثهما- باستثناء كاندي وأضنة والأراضي المقدسة، التي يحتفظ بها، مدة حياته، فإن عليه أن يستسلم (أي يقبل هذا الحل). أما نحن، فنظن أننا فعلنا من أجله، في الحالة الأولى والثانية، كل ما يشتمل الموقف عليه. ويجب أن يَفهم أنه إذا أراد المقاومة، مقاومة الحل الداعي إلى تقديم تنازلات معقولة، فإننا لن نستطيع دعمه في هذا؛ ولن نغامر بتحالفنا مع الإنجليز، لمجرّد دعمه في أطماع تزيد عن الحدّ. وإذن فأنا لاأعرف ماذا سيقع في كل هذا الأمر الكبير، إلى هذه الدرجة... والذي أسيء التعامل معه بهذه القوة. ولكن يجب أن نقضي على الأوهام التي كان الباشا يأخذ نفسه بها، يجب أن نكرّر له القول: «إنه في الوضع الحاضر يجب أن يكون متسامحاً سهلاً، لامتعصباً صلباً، وأن عليه أن يثق بنا؛ إنه يستطيع إذن أن ينظر إلينا نظرة كأصدقاء موثوقين ولاأطماع لنا. ونحن لن نتخلى عنه أبداً، إذا هو فهم وضعه، وعرف كيف يلائم بين سلوكه ووضعه.

[...] ولأقل: لاتقدّموا أي اقتراح للباشا: بل اكتفوا بتهيئة عقله للاعتدال. وعليكم أن تقضوا على الأوهام الكبيرة التي يمكن أن يتصوّرها هو، من غير أن تفقدوه ثقته بنا، ومن دون تثبيط همته. ذلك أنه قد يحتاج إلى الكثير من الشجاعة والقوة(٣).

إن تيير إذن لايخفي خطورة الموقف، وتلخص سياسته بـ.. بتحبيذ الاعتدال. ولكنه خُدع في تقدير التضحيات التي سيفرضها بالمرستون على محمد علي. ومهما تكن الصورة التي يعرض بها التعديلات، فإن أيّاً منها لن تحظى بقبول وزارة سان جيمس.

ولكن محمد علي، وهو يواجه كل الضغوط التي تريد أوروبا كلها، أن تخضعه لها، لايرّد إلا بمضاعفة النشاط العسكري: في التحصينات في

الإسكندرية والشواطئ المصرية، وإنشاء حرس وطني في المدن الكبرى . وغايته واضحة، وهي المقاومة الأشد ما يمكن، في حالة الهجمات الأجنبية . ومن هنا جاء تعليق جديد لتيير يقول فيه : « سيكون عبثًا أن يهنئ الباشا نفسه، بما يفرضه على أوروبا، بزيادة تحضيراته العسكرية، وأن نخفي نحن عنه مشكلة وضعه الفعلي. وهذه الأوضاع المقلقة، أصبح الجميع يدركها اليوم. فما من إنسان يجهل أن سورية، التي تشعر باستياء عميق، لامجال لاحتوائها إلا بوجود قوى مصرية؛ ومع ذلك فإنه يمكن أن يقوم تمرّد بين يوم وآخر: ثم إن وضوح هذه الحال، يشجع القوى أو الدول الأوروبية، التي أصبحت تُكنّ للباشا أكبر العداء. وفي الحال التي يُصرّ فيها على رفض الشروط الوحيده الملائمة أو المتلائمة مع الإبقاء على السلام العام، أكاد أعتقد أو أخشى ألا يكون في وسعنا منعها عن اتخاذ التدابير -بدون مشاركتنا طبعًا- تدابير، ليس من شك أنها ستنجح قريبًا أو بعيدًا».

«إنه (يعني محمد علي) لايفكر، بالتأكيد، أننا سنقطع علاقتنا بإنجلترا، عندما تصل الأمور إلى مثل مانرى، ولغاية واحدة ووحيدة، هي مساعدته على دعم نظام سياسي، ربما كنا قد أدناه سلفًا»(٤).

أماني بالمرستون السورية:

إن التمرُّد المشار إليه سابقًا، أمر يتمنّاه بالمرستون من كل قلبه. فآه! إذا كان الحظ يواتيه في ذلك. ولكن ليس من إنسان يكتفي بالأمل في أن يكون محظوظًا، بل إنه، كرجل، سيعمل بقوة على تحقيقه. وخلال كل هذه الأشهر من المفاوضات، كان السيد Wood ، وهو مستشرق فخم ملحق كمترجم في السفارة البريطانية في استانبول، يبذل جهده لإثارة الاضطراب الذي يريده وزيره، ويتوق كل التوق إليه. وكانت رحلاته إلى سورية لاتحصى، أو لم تعد تحصى. ولكنه ليس الوحيد الذي يحيك المؤامرات هناك: بل إن له شركاء في التآمر، هم قناصل النمسا، وساردينيا، وحتى البطريرك الإغريقي ورجال الدين في دمشق.

ومنذ أول شهر آذار ١٨٤٠، ظهرت بوادر حركة تمرّد، في سورية، وألّفت في لبنان جمعية «للدفاع عن الجبل». فالمسيحيون والدروز واليهود كلهم اجتمعوا، ليحتفظ كلٌّ منهم بحقه أو حظه مما سيأتي بعد التمرد. وكان الاتفاق الذي وُقّع بهذه المناسبة، يشتمل على أربعة شروط أساسية.

١- لن نردّ للحكومة المصرية الستة عشر ألفًا من البنادق التي وزعتها على المسيحيين عام ١٨٣٨، عند قيام التمرّد الدرزي.

٢- لن نقدّم لمصر جنوداً، سواء أكانوا موارنة أم دروزاً أم يهوداً:

٣- ولن نردَّ أي إنسان لاجئ في جبل لبنان، إلى السلطة المصرية، وحتى ولو كان الرجل هارباً من الجيش المصري.

٤- وسينشأ صندوق يكون على كل لبناني أن يساهم فيه سنويًا بدفع ما بين ٢٠ بارة حتى الثلاثة قروش، من أجل الدفاع عن استقلال لبنان.

وفي٥/ ٥/ ١٨٤٠، كان أعضاء هذا المجلس يقرّرون القيام بحركة واسعة من التمرّد، وكتبوا عريضة قدّموها إلى الأمير بشير يطالبونه فيها بدعم مطالبهم، وفيها يقولون بالحرف الواحد: «كمكافأة لتضحياتنا، أثقل علينا بالإساءات والمذلّة. ومع ذلك، فقد عملنا كل ما نستطيع لدعم السلطات المصرية. ولقد اشتركنا في قمع حركات التمرد. ومقابل ذلك كنا نأمل أن يكون لنا الحق في أن نعامل بقسوة أقل. ثم إن الظلامات وصور العنف تكاثرت. فهي تصادر كل منتجاتنا. وهم يحرموننا أطفالنا الذين يوضعون في ثكنات عسكرية، بعيدة عن بلادهم. فإذا حصل سموّكم على وقف هذا النظام، فإن أمانينا ستكون قد تحققت، وإلا، فنحن سنتمرّد».

وعندما جوبه إبراهيم بهذا الجو الثائر، فإنه أمر حكامه بتجريد الناس من السلاح.

وفي بداية حزيران، انفجر التمرّد اللبناني، وتحققت أماني بالمرستون.

وفي ٧ حزيران عام ١٨٤٠ ، حدث حادث ملأ قلبه سعادة: ذلك ان وزارة خسرو باشا انسحبت. وكان يبدو أن ميل الصدر الأعظم خسرو إلى روسيا، ميلاً مفرطًا، سبَّب غضب السلطان عليه، وسواء أكان ذلك صحيحًا أم خطأ، فإن بالمرستون (أصيب) بالفرح الشديد إذ أن المجال أصبح فسيحًا أمام رجله الحبيب، رشيد باشا.

وكان هناك رجل آخر تفرحهُ مصيبةُ خسرو باشا، هو محمد علي، ولكن لأسباب أخرى. وما إن علم بهذا الخبر، حتى ظن أنه سيصيب هدفه عما قريب. وصار يتخيّل لشدة فرحه، أنه أخيرًا، يستطيع أن يتصالح مباشرة مع السلطان. ومن غير أن ينتظر أي انتظار، يتسرَّع، فيرسل إلى الآستانه، سامي بك، سكرتيره الأول، المكلّف بحمل هدايا إلى السلطان الأعظم، وللسلطانة الأم. وبعض الوزراء الكبيري النفوذ. ومن المؤسف، أن رشيد باشا، احتج بالتوسط بين القوى العظمى، ليأبى بكلٍ وضوح أن يتصورَّ أية تسوية مباشرة، ويبقى مع ذلك أن هذا الوسيط يقلق فترةً مترنيخ وبالمرستون. وعندما انتهي الحذر، ضاعف الاثنان نشاطهما، لإنهاء القضية القائمة إنهاءًا تامًا. وكان الوضع لايتسع أبدًا في العاصمة التركية، لأيّ استمرار لاسيما وأن الناس يعربون عن فقدان صبرهم.

فرنسا الجريحة:

وفي ١٥/ ٧/ ١٨٤٠ ، وبناءًا على اقتراح البارون ستورمر Sturmer ورشيد باشا. عُرض على الدول الأربع الكبرى: إنجلترا، وروسيا، والنمسا، وبروسيا[٥] مشروع تسوية. وها نحن نعرض هنا مواده الأكثر حسمًا.

«**المادة الأولى**: يعدُ جلالة السلطان أن يُرخِّص لمحمد علي بباشوية مصر له ولورثته المباشرين، ويعدُ جلالته أيضًا بلقب باشا، لقيادة حصن عكا والقيام بإدارة القسم الجنوبي من سورية، طيلة حياته فقط على أن تُعيَّن حدود هذه الإدارة بالخط الفاصل الثاني[٦] (...)».

بيد أن السلطان الذي يقدّم هذه الوعود، يشترط على محمد علي أن يقبلها خلال عشرة أيام. بعد أن يتم الاتصال به في الإسكندرية، عن طريق أحد رجال السلطان، وأن يعلن محمد علي في الوقت نفسه، أنه سيصدر الأوامر والتعليمات المناسبة، للانسحاب من الأراضي العربية والمدن المقدسة الموجودة فيها، ومن جزيرة Candie، ومنطقة أضنة ومن كل الأجزاء التابعة أصلاً للإمبراطورية العثمانية، وغير الموجودة ضمن حدود مصر، وحدود باشوية عكا، على نحو ما أشير إليه أعلاه.

المادة الثانية: إذا كان محمد علي لايقبل بالتسوية المذكورة أعلاه، خلال عشرة أيام، فإن السلطان يسحب عرضه المتصل بباشوية عكا، طول حياته. ولكنه يظل موافقًا على باشوية مصر وتوريثها لأخلافه المباشرين، شريطة أن يُقبل هذا العرض خلال عشرة أيام، أي مهلة عشرين يومًا اعتباراً من يوم التبليغ».

المادة الثالثة: هذا، وإن من المتفق عليه، في العرضين الأول والثاني. أن يكون محمد علي (قبل انتهاء الموعد المحدّد بعشرة أيام أو عشرين) قد ردّ الأسطول التركي، مع كل بحّارته وأسلحته، ووضعها جميعًا بين يدي الموفد التركي، الذي يكلّف باستقباله».

وعلى هذا فإن الاتفاق ينصُّ أيضًا على أنه «إذا رفض الباشا قبول هذه التسوية التي يُخبر بها، عن طريق السلطان، مع إشراف أصحاب الجلاله، ملك إنجلترا وإيرلندا، وإمبراطور النمسا، وملك هنغاريا وبوهيميا، وملك كل أرجاء روسيا وملك بروسيا أخيراً، فإن هذه الدول تتشاور فيما بينها لاتخاذ التدابير الضرورية لتنفيذ هذا الاتفاق.

ويفرك بالمرستون يديه. ففرنسا لم تستشر، ولم تخبر بما جرى إلا بعد ١٢ يومًا، أي في ٢٧ تموز. وعلى الرغم من جهل فرنسا ما حدث بصورة رسمية، فإن غيزو (سفير فرنسا في إنجلترا) وجد، من الإشاعات، ما يكفي لإشعاره بأن شيئًا ما يُهيأ، من دون أن يملك القناعة. فأخبر بذلك تيير، من دون أي إيضاح دقيق.

وقد قال أحد الأخلاقيين: «إنهم يعرفون أنهم سيموتون، ولكنهم لا يصدقون هذا الخبر». وهذه الفكرة الواردة هنا، تجد تطبيقًا لها في السياسة. ذلك أن تيير، عبثًا ما علم أن الدول الأربع، ستنتهي إلى الاتفاق فيما بينها، بدونه. ولاريب أنه فضّل دومًا أن لايُصدّق. أما مترنيخ، فإنه ظلّ يُصدّقُ. ولهذا فإنه كتب في ٤ آب إلى مبعوثه في باريس، الكونت Apponyi (أبوني)، يقول: «إن وزارة التويلري صرّحت أن من المستحيل عليها أن تشترك في عمل مادي، مهما يكن شأنه، ضد باشا مصر. أما البلاطات الأربعة الأخرى، فإنها تشعر أنه إذا تُرك السلطان لضعف تاجه، فإن الإمبراطورية ستلاقي الهلاك. . ولهذا فإنها اتفقت على أساس القيام بعمل مشترك». تلك هي قضية مفاوضات لندن، وما يجب أن يُستخلص منها، هو أنه كان بين فرنسا من جهة، والدول الأربع من جهة أخرى، اختلاف واضح فيما يتصل بإمكانية عمل ما؟ وبحكم هذا الواقع، فإنه لن يُخلص إلى شتيمةٍ ما لأحد. وقد ينشأ عن ذلك انزعاج سياسي. ولكن أي عمل من الأعمال البشرية لايكون فيه مثل ذلك؟ [...] إن محمد علي وخلفاءه بالوراثة. ربما صاروا السادة في أكثر من نصف ممتلكات العثمانيين، ويتحكمون بمواردَ، متى اجتمعت في يد واحدة، تفوق بدرجة غير قابلة للحصر، تلك التي كانت يمكن أن تكون في يد السلطان».

وعندما تلقى سفير فرنسا، مذكرة بالمرستون في الموضوع الخلافي، بدا كمن انكبَّ على وجهه. وبعث به غيزو فوراً إلى باريس، حيث أحدثت هذه الوثيقة ردود فعل متشابهة. فالملك فيليب جُنَّ جنونه، وتيير مجروح بعمق، ومستاء من الأذى الذي لحق بفرنسا. «أما الرأي العام فقد رأى في هذا، انفجاراً حقيقيًا للعاطفة الوطنية». ولابُدّ عندئذ من ردٍّ فوري. فإذا استثنينا أنصار الشرعية، فإن الفرنسيين كلّهم يجتمعون حول العلم المثلث الألوان، مع كلمة واحدة، هي: «الحرب الحرب ضد الخدّاعة Albion». (أي انجلترا).

أما ردّ تيير الأول على معاهدة ١٥ تموز ، فليس بالموفق، بل ما أبعده عن ذلك. وفي جوابه عن مذكرة بالمرستون، نراه ينقد، تدابير لاتتفق مع وسائل التطبيق». وهذا اعتراض سخيف، ولاقيمة له لدى بالمرستون الذي يعرف بشكل أصحّ من تيير القوة العسكرية الفعلية للباشا. وحقًا فإن تيير يَظل مقتنعًا بأن القوة العسكرية المصرية، لم تُمَسّ. وهو في هذا يخدع نفسه. ولما كانت قوات محمد علي متناثرة بين كريد، والجزيرة العربية، والسودان، وسورية، فإنها لايمكن أن تكون قادرة على تحمل سقطة أخرى. فكيف يمكن إذن، في هذه الحال، أن يراهن تيير على عجز الدول الكبرى، عن كبح باشا مصر، بالقوة؟.

وفي ٦ آب، بلّغ كوشليه نص المعاهدة الجديدة لمحمد علي. وكان الباشا هادئًا إلى درجة مستغربة. وإذا صدقنا ما يقوله قنصل فرنسا، فإنه لايلاحظ عليه أنه منكسر الخاطر. وكانت كلمته الأولى هي أنه سيأمر ابنه بالسير إلى آسيا الصغرى. وقد بذل كوشليه كل جهده ليثنيه عن عزمه هذا. وكما نرى، فإن فرنسا تبقى كما كانت قبل معاهدة لندن، مستمرة في ثني عزم نائب الملك عن تجاوز طوروس، مفتاح الشرق. والسبب واضح: إنهم يخشون أن ينجرّوا وراءه.

وأعطيت الأوامر إلى جيش الحجاز بالعودة إلى مصر. وبقي القسم الأعظم من جيش سورية، على حدود جبال طوروس. أما القوات التي استُخدمت لقمع التمرد اللبناني، فقد دُرِّجت على الشاطئ السوري. فكأن الباشا يريد أن يكون متفائلاً. وهو يقدّر، مثل تيير، بلا ريب، أنه لاشيء قد انتهى، على حين أن كل شيء قد فُقِد وضاع.

-٢٩-

محمد علي وابن نابليون

(١٨٤٠)

في اليوم السابع والعشرين من تموز، عام ١٨٤٠ مساءً، يرجو تيير من الكونت Walewski ، أن يمرّ بسرعة، بوزارة الخارجية. وهذا الكونت البولوني الأصل، والمتجنس بالجنسية الفرنسية، والابن الطبيعي لنابليون والكونتيسة ماري فاليفسكا Marie Valeweska ، هوآخر ورقة بيد الحكومة الفرنسية. وتقوم المهمة التي طلبها تيير من هذا الكونت، على الحصول من محمد علي، على تفويض فرنسا، لتخليصه من ورطته، وترك المفاوضة مع السلطان، لها. ولكن يجب، قبل كل شيء، إقناع محمد علي بأن يكف عن عزمه بتجاوز جنوده، جبال طوروس وتهيئة الإسكندرية لوضع دفاعي، وعدم تحريك أسطوله منها، وإنهاء التمرّد الذي يتخمّر في سورية، ومنع اشتعاله مرة أخرى، عن طريق منح بعض الامتيازات للسكان بضمان فرنسا.

وفي وسعنا من خلال مثل هذه اللقاءات، أن نلاحظ غرابة السياسة الفرنسية التي يعمل بوحيها رئيس الوزراء. ويمكن التساؤل عما إذا كان قد قرأ الرسائل التي يشرح فيها كوشليه، للماريشال Soult . ذلك أن الفرصة الوحيدة المتاحة لمحمد علي، في حمل الباب العالي، على قبول مطامعه، كانت، تماماً، تتطلب غزو آسيا الصغرى، وأنه، بالمقابل، عاجز عن مقاومة هجوم تركي -أوروبي في سورية أو مصر.

وفي رسالة بتاريخ ٦ آب، كتب كوشليه تقريراً عن محادثة تمّت بينه وبين الباشا، حول تحالف الدول الأربع، يؤكد فيها ضآلة ثقته بقدرات محمد علي على المقاومة. وفي منتصف الشهر، ينقل إليه نسخة رسالةٍ من الآستانة إلى إبراهيم باشا. تؤكد أن الهجوم هو أفضل وسيلة لسلامة المصريين: وفيها «أن محمد علي يمكنه أن يستفيد من الظروف لكي ينجح في مشاريعه ولايتعلق إلاّ به قلب الوزارة، وحمل السلطان على تغيير سياسة الدولة العثمانية. ولكني أقول بكل صراحة، إنه ليس في تركه جيشه، والسلاح في يده دون عمل آخر، ولافي إرسال مبعوثين أو رسائل إلى الوزراء الأتراك، ما يجعله يبلغ غايته. إن زحف إبراهيم باشا، باتجاه العاصمة، ضرورة قصوى. إنك لن تجد تركياً واحداً في الآستانة ليس من أنصار نائب الملك، وكذلك هي الحال في سائر أجزاء الإمبراطورية العثمانية.» والخلاصة فإن الآراء كلها تتطابق: إن القوات المصرية لن تكون قادرة على مقاومة هجمة أوروبية، والأمر كذلك غير مختلف، لا في مصر ولافي سورية؛ والوسيلة الوحيدة للدفاع عن هذه الأراضي، أو لحمايتها هي أن تحمل الحرب إلى قلب آسيا الصغرى.

وعلى ذلك فإن النظام الذي تخيّله تيير، غير منسجم الأجزاء، ومخالف للوقائع التي تُرسل إليه، من كل مكان: إنه يمنعُ محمد علي من القيام بالإستراتيجية الوحيدة الناجعة، بالنظر إلى الوضع العام، ويوصيه بسياسة دفاعية محكومٍ عليها بالإخفاق، مما يؤدي إلى ضعف معنويات الجيش، الذي لا يزل مجمداً منذ سنة كاملة. وهو يميل إلى ترك الزمن يمضي، دون أن يستخدمه أثناء الصيف، المناسب لاختراقه جبال طوروس، ويستبعد الوسيلة الوحيدة للتفاوض مع الباب العالي الذي لن يكون أكثر استعداداً له مع فرنسا منه مع محمد علي شخصياً، ما لم ترغمه عليه الظروف، وخلافاً لما اتفق عليه الحلفاء الأربعة يوم ١٥ تموز (يوليو). ومن جهة أخرى، هل يكون من المعقول أن نطلب من محمد علي أن يطلب، رسمياً، حماية فرنسا؟ أوليس في هذا مايكون مطعناً للسياسة الفرنسية؟ لكن تيير الملتزم بنظامه، لم يعد قادراً على الإفلات منه؛ وسيستمر كذلك ما لم يأته البرهان على خطئه.

وفي ٢٨ تموز (يوليو) يبدأ فاليفسكي مسيرته. وفي اليوم السابع من أغسطس (آب) يبحر من نيس إلى مصر، ، على ظهر سفينة تجارية هي Tartare . وفي اليوم الرابع عشر يصل إلى مرفأ الإسكندرية وهناك، وأمام عينيه تتقاطع أربعون سفينة حربية وأربعون سفينة ضخمة، عالية الجوانب، تحمل غابة من الصواري والهوائيات Antennes ، والحبال». وهذا الذي يصفه الرجل هنا هو مجموع الأسطولين المصري والتركي، مجتمعين.

وعندما اختار تيير فاليفسكي، لهذه المهمة. فإنه كان أو ربما كان يعتمد، ضمنيًا، على إعجاب محمد علي بنابليون وحبّه له. . أما الاعتقاد بأن الباشا يَسُرّه أن يسمع الابن الطبيعي لقاهر الأهرامات، يقدم له نصائح وزير من وزراء لوي-فيليب، فإن فيه بعض الدهاء، والواقع أن «سحر الرجل» سيكشف عن نجع نسبي.

وكان الباشا، قبل لقائه فاليفسكي (١٦ آب). قد سمع ما حمله إليه مبعوث الباب العالي، رفعة بك، بحضور القناصل العامين للدول الأربع، أي أنه سمع نصّ شروط معاهدة لندن، ورفضها بغير قليل من التسامي. وكانت أيام المهلة الأولى (الأيام العشرة) التي تتضمن باشوية عكا، طيلة عمره، بدأت تعدو وتتضاءل. .

وقام فاليفسكي مابين ١٦ و ٣٠ آب بجهود كبيرة مع الباشا. وهو يُحبّذ الأسلوب الذي تخيله تيير وحصل به على رُخص جديدة: أي على باشوية مصر الوراثية وسورية، وأضنة وكاندي، طيلة عمره. علمًا بأن فرنسا ستستطيع من خلال المفاوضات، أن تقنع الباب العالي، بمنح أضنة وكاندي.

أما ما يتعلق بتشجيع محمد علي على المقاومة، فإن فاليفسكي سرعان ما أدرك أن هذا طوبائي. فيَعجّل بإبلاغ حكومته أنه لايرضى الباشا الذي لايمكن الأخذ به، ويعبّر عن شكوكه حول إمكانية التدابير الدفاعية الناجعة، ويلُح بصورة خاصة على إرسال إمدادات مباشرة، إما عسكرية، وإما مالية على الأقل، لنائب الملك دون جدوى، لأن تيير يدعُ للباشا أن يتدبّر أمره. أما في باريس فإن الملك لوي

فيليب ووزارته، ينهمكان في مظاهرات صاخبة، لا تستند، لسوء الحظ، إلى أيّ معطى محسوس. وحقًا فإنه قال لسفراء الدول الأربع، «إنكم تنكرون الجميل!» وذلك عند أول مقابلة له معهم بعد توقيع المعاهدة، وبعد أن ذكّرهم بكل ما فعله وضحّى به من أجل استبقاء السلم، أضاف الملك بعد ذلك قوله: «أمّا في هذه المرة، فلاتظنوا أنني أستطيع الانفصال عن شعبي، وعن بلدي! أفتريدون الحرب، فستأتيكم، وإذا احتاج الأمر، فإني سأحطّم للنمر خطمه. إنه يعرفني وأنا أعرف كيف ألعب معه. سنرى إذا كان سيحترمكم مثلي!»

غير أن مترنيخ وبالمرستون لايجيبان عن هذه الحركات الطفلية، وعمّا يشبه صرخات الحرب، إلا بحسابات باردة: «ويكتب مترنيخ لأبونيي Apponyi في اليوم الرابع من شهر آب، ويقول له: تحلّوا بأكبر الهدوء والسكينة، أمام تيير». ثم نراه يكتب إلى فريدريك الرابع، ملك بروسيا، يوم ٩ تشرين الأول، ليسخر ويقول: إنه سيأتي ذلك اليوم الذي يجب أن نسأل فيه هذا المعلّم الكبير (تيير)، مع من يريد الحرب؟ فإذا كانت لألمانيا، فإن عليه أن يقول: «لماذا يريد أن يحارب: ذلك أنه لاتكفينا السعادة بأن يكون الإنسان جاراً لفرنسا، كي يدير لها ظهره، ويتلقى الضربات التي تريد هي أن تتفضّل بها عليه، أو أن نفتح لها جيوبنا، وندفع المساهمات التي ستتواضع، بطلبها. فإذا لم يرد الاعتراف بذلك، فإنه يجب تأويل سكوته، بالمعنى السيء. ذلك أن جسداً سياسيًا ضخمًا، لا يستطيع أن يردَّ على ما يكره بالصمت والهدوء.

ولم يكن بالمرستون بأقل وقاحة مع غرانفيل، يوم ١١/ ٣ السابق، عندما قال له «ليقولوا مايشاؤون. إذ أن فرنسا والفرنسيين لايستطيعون القيام بحربٍ ضد الدول الأربع، لدعم محمد علي. فإذا أرادوا الحرب البحرية لمثل هذا الغرض، فأين سيجدون بوارج قادرة على الدخول في حرب مع الإنجليز؟ وهذا إن لم نتحدّث عن الأسطول الروسي الذي سينضم إلينا في مثل هذه الحال».

وفي الثلاثين من شهر آب عام ١٨٤٠، وبنيّة تسريع الأمور، يسافر فاليفسكي إلى الآستانة. وخلال ذلك كانت انتهت المهلة الأولى (٢٦ آب) ذات العشرة الأيام، الممنوحة لمحمد علي. وعاد مبعوث الباب العالي، مصحوبًا دومًا بالقناصل الأربعة، ليحمل جوابه (جواب محمد علي)، الذي قال فيه. إن نائب الملك قد أجاب، لابدون مهارة من جانبه، أنه كان يستند، فيما يتصل بالرخص الأخرى، إلى كرم السلطان. وما من شك أن هذا الجواب الذي وُضع بالتعاون مع فاليفسكي، سيكون مقبولاً لدى السلطان، ويؤدي إلى إنهاء المشكلة، لو لا أن الديبلوماسيين رفضوا على رفعة بك، أن يعتبروه قبولاً. وهكذا انتهت المهلة الأولى، وبدأت أيام المهلة الثانية تعدو عدواً سريعًا.

وعندما كان الصيف قد اقترب من نهايته، فإن الدول الكبرى لم تترك لمحمد علي إلا هذه الأيام القليلة، للمحافظة على باشوية مصر الوراثية. فإذا انقضت هذه المهلة، فإنه سيغامر بانتزاع الباشوية الوراثية منه والمخرج الوحيد الممكن، كالعادة، لايكون إلا في اتفاق مباشر مع تركيا. ومن سوء الحظ أن مسعى فاليفسكي لم ينته إلى شيء: ذلك أن الأتراك الواقعين تحت وصاية الدول الأربع، يُصّرونّ على التطبيق الدقيق لمعاهدة لندن.

الحلم المحطّم:

ولقد حاول نائب الملك عندئذ، ومرّة أخرى، أن يعيد التفاوض مع السلطان، ففي اليوم الخامس من أيلول، يكتب إلى الصدر الأعظم، أحمد فتحي، بلهجة الخضوع، معربًا عن قبول شروط معاهدة لندن، ويكتفي بالتعبير عن أمله، بدرجة أكبر من العطف من جانب جلالته «متوسلاً إلى الدول الكبرى، بإضافة الإنصاف إلى العدالة، التي تميّزها وأن تحسب، طبقًا لذلك، حساب الخدمات المقدّمة سابقًا، والحقوق المكتسبة».

وكان على هذا الاتزان كلّه أن يتيح المجال، بلا أدنى شك، لاتفاق معقول. ويقوم تيير بإبلاغ ذلك يوم ١٨/ ٩/ لبلووير Bluwer ، القائم بأعمال السفارة

البريطانية في باريس، ويخلص إلى القول: «لئن كانت هذه الرخص، التي حُصل عليها بتأثير النفوذ الفرنسي في نائب الملك، لم تقبل، إذن لكان على فرنسا أن تقدّم له دعمها.» ونقلت هذه الرسالة إلى بالمرستون. بيد أن الناس شهدوا، يوم ٢٣ العمارة الحليفة على الشواطئ السورية.

واجتمع مجلس وزراء بريطانية ثلاث مرات: يوم ٢٩ أيلول ويوم ١ و٢ تشرين الأول، لمناقشة التراخيص الصادرة لمصلحة الباشا. أما أنصار السياسة السلمية، فيصرّحون بأنها قابلة للأخذ والردّ ويطلبون أن تقوم الحكومة ببعض الانفتاح على فرنسا. ولكن بالمرستون الذي لايتكلم مرتين في الموضوع نفسه لايقبل أبداً، ويقول: إن المعاهدة تنفّذ وستنفذ بسهولة؛ فكيف نعيد النظر فيها من غير أن نُذل إنجلترا وأوروبا (١)»

والواقع أنه يعلم أنه ربح، أما بقية العالم فما تزال تجهل ذلك وكان يجب أن تنتظر اليوم الثالث من تشرين الأول، حتى يُعلن الباب العالي عزل نائب الملك، وإحلال المدعو عزت باشا مكانه، وأبلغت أوروبا هذا الخبر.

ودخلت البواخر الحليفة الشواطئ السورية، وقذفت بيروت بالقنابل. وبعد يومين، أي يوم ٥ تشرين الأول رست بواخر نقلٍ فيها ١٥٠٠ بحار انجليزي، وما بين السبعة أو الثمانية آلاف تركي، احتلوا نقطتين من الشاطئ، وأقاموا معسكرين في جونيه ونهر الكلب على بعد ٢٠ كم شمال بيروت.

وقام الكومودور Napier والأميرال Stopford ، قائد العمارة البريطانية، بإنذار عباس باشا (حفيد محمد علي) بردّ القوات التركية التي انتقلت إلى صفوف العلم المصري والبنادق المأخوذة من اللبنانيين، إلى أصحابها، وصرّحوا له أن سورية عادت فأصبحت ملكًا للسلطان، وأن وجوده فيها لم يعد له من مبرّر في المقاطعة.

وخلال ذلك قام المستشرق، وود Wood مترجم القنصلية الإنجليزية، بالاتصال بالأمير بشير، وتقدَّم له باسم الحكومة البريطانية، بضمانات تتعلق

بامتيازات خاصة بالطائفتين المارونية والدرزية. وفي اليوم الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر) يصل الأمير بشير إلى صيدا، ومن هناك أخذ إلى بيروت، وخيرِّ بين ملجأين: فإما إنجلترا أو مالطة. واختار هو هذه الأخيرة. وهكذا انتهت الحياة السياسية لذاك الرجل الذي كان، بين أمراء الجبل اللبناني، أول من فكر في الوحدة والإصلاح.

وكان إبراهيم قد عهد إلى Seve (سليمان باشا) بالدفاع عن الشاطئ، واحتفظ هو بتعهد النقاط الحساسة، بالمعونة. وكان المخطّط المشترك للرجلين، يقضي بالوقوف في وجه الأعداء، حتى موسم الشتاء. وعندئذ تكون البواخر الإنجليزية مضطرة إلى الانسحاب من الشاطئ. وهكذا يكون الاثنان قادرين على إزعاج القوات التي احتلت الشاطئ. ولكن الحظ كان قد تخلى، حقًا، عن المعسكر المصري، فما من مرّة سمحت لهم القوات المتحالفة بالراحة الضرورية لتحقيق مخططهم.

وفي ١٠ تشرين الأول احتلَّت بيروت، التي تخلّى عنها رجالها المصريون مساء البارحة. وفي نفس اليوم كان الكومودور نابييه Napier قد أخذ على نفسه أن يدخل في معركة مع إبراهيم، قبل أن يكون الوقت قد سنح له بتجميع قوى أكثر أهمية. وقد قوبلت قواته بمقاومة عنيفة حول قلعة الميدان لكن النصر أخيراً كان للإنجليز.

وقد كتب البارون ستورمر Sturmer (ممثل البابا في النمسا)، يقول: يوم ٢١ أكتوبر: «كنا قريبين جداً بعضنا من بعض. وكان من السهل على كل الناس أن يُميّزوا وجه إبراهيم باشا، المتميز بطول قامته، والذي كان يحيط به الجنود، كلما ظهر في الصفوف. أما علمه الذي استُولي عليه في آخر المعركة، فإنه موجود لدى اللورد بونسونبي. وهو مصنوع من قماش التفتا البيضاء، ويرى الإنسان في وسطه حروفًا ذهبية، تؤلف خطين يقول أولهما: «علي، أسد الله. والثاني يكتب شعار الإسلام «لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله».

وهكذا تنتهي المجابهة الوحيدة التي قام بها المنتصر في معركة نصيب، ضد الحلفاء.

وفي ١٩/ ١٠/ سقطت طرابلس، وفي ٢٠ منه سقطت اللاذقية. قبل نهاية الشهر. وفي ٢نوفمبر (تشرين الثاني) سقطت حصون عكا المشهورة. وقبل نهاية الشهر، كانت سورية قد خُسرت أو كأنها. «ويقول الأميرال روسان: «إن القوة العسكرية المصرية تمزّقت كما لو أن ذلك تمّ بالسحر. وكانت المدن تسقط كحبّات المسبحة.»

وقد أثارت هذه الهزيمة الكثير من التفكير، ودفعت عدداً من جماعات الإستراتيجية العسكرية والمؤرخين إلي كتابة التعليقات. تُرى أعن نقص في الانسجام، أو فقدان روح المبادرة، أم عن تناثر القوى في أراض واسعة، أم عن العجز عن الوقوف في وجه جيوش أوروبية؟ وتساءل موريز Moriez : كيف حدث أن المدفعية التي حسمت المعركة في نصيب، قد فقدت فجأة صوتها. وما من لقاءٍ مع العدو، شهدنا فيه المدافع تطلق قنابلها».

ويمكننا أن نتحدث مطولاً في هذا الموضوع. إلا أن شيئًا ما، يبدو شبه بديهي: هو النسبة المتزايدة للفارين من الصفوف، وموجة من التراخي الخلقي، وأكثر من سنة من اللاعمل؟ وكل هذه قد ساعدت على هذا الانهيار. وعلينا أيضًا أن نُوضحَ أن الجنود المصريين، لم يكونوا قد تلقّوا أي راتب، منذ زمن طويل. وكان يجب أن يدفع إلى الألوية الآتية من الحجاز، أكثر مما يعادل ثمانية وأربعين شهراً من رواتبهم، وثمانية عشر شهراً لألوية الفرسان وألوية المدفعية التي كانت في سورية.

وقد كتب فاليفسكي Vvalewski الذي يذكر هذه الأرقام، في يوم ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) كتب إلى تيير ليخبره بأن وضع إبراهيم لايمكن أن يكون أشد قلقًا منه الآن. وعندئذ نراه يقدّر أن الحلّ الوحيد كان في متابعة قوات إبراهيم سيرها، في آسيا الصغرى. وهكذا فإن تقديم بعض الأموال، أو ضمانة استدانةٍ من

طرف ما، أصبحا ضروريين. فإذا لم يصل محمد علي، من الآن حتى بضعة أسابيع إلى الحصول على بعض الموارد المالية، فأنا لاأظن أني أبالغ إذا قلت إن وجوده السياسي، قد اشتد ضعفاً. والخلاصة يا سيدي رئيس الوزراء، أهب نفسي الحرية باسترعاء انتباهكم إلى ضرورة العزم السريع (على حل ما) للعمليات العسكرية في سورية (٢)». وظلت رسالته حبراً على ورق. ولنقبل أيضاً صعوبة التدخل عسكرياً إلى جانب مصر. لكن فقدان كلِّ دعم مالي، شيء لانفهمه، من قبل رجلٍ كان يقول قبل فترة يسيرة «إنه مجروح من الإساءة الموَجَّهة إلى فرنسا». فهل يجب أن نشير إلى الفونس كار Alphonse Karr الذي يقول: «إن السيد تيير، يا له من شهم! إنه يلعب بمصير فرنسا لعبة الطرة والنقش، على أن قطعة النقد ماتزال في الهواء.» أما لوي فيليب، الملك، فيبدو على الأرجح أنه يخاف على عرشه.

وعندما سقطت عكا دقّت أجراس الإنذار. وقرَّر إبراهيم، العمل بأوامر أبيه، بسبب من ضرورات الموقف، أي بدأ الانسحاب إلى مصر وقد جرت بصورة مأسوية.

إنهاالبيريزينا «تحت أشعة شمس الشرق». (*)

وعملاً بتعليمات تيير المؤرخة في ١٧ أيلول، كان كوشليه في ٢ تشرين الأول، لايحاول إقناع محمد علي بإخراج أسطوله من مرفأ الإسكندرية فقط، بل أيضاً بحمل قواته على اجتياز طوروس، على حين أن سورية كلها لم تعد تعير أذنها إلاّ للمدافع البريطانية حيث إبراهيم ينزف دمه. ولهذا فإن موريز Mouriez لاينسى أن يلاحظ: «أن نقول لإبراهيم، أن لاتتجاوز قواته جبال طوروس، في هذا الوقت الذي كانت فيه هذه فريسة لكل المصائب، يعني أن نقول له، أن لايمضي إلى بطرسبورغ!»

(*) البيريزينا نهر من أنهار روسيا حوصرت قربه البقيةُ الباقية من جنود نابليون، عندما أحاطت بهم ثلاثة جيوش روسية، فأضطر نابوليون إلى بناء جسر، عبرت عليه القوات الباقية في أقل من ٤٨ ساعة.

وأصلاً، فإن محمد علي لم يعد بعد كلّ ما عاناه، من خيانات الغرب، ومن فرنسا بشكل خاص، إلا إنساناً مهيض الجناحين غير قادر على بذل النشاط واتخاذ القرارات.

وعلى كل حال، فإن العيّ المتكرر لدى رئيس الوزراء، أثار ملك الفرنسيين، لأنه فرض يوم ٢٠ تشرين الأول، على رئيس الوزراء أن يستقيل، وعيّن بدلاً عنه المارشال Soult، وأسند وزارة الخارجية إلى غيزو Guizot

وعندما يذكر مترنيخ يوم ٢٣ أكتوبر، هذه الفوضى العجيبة، أمام Apponyi فإنه لايجد إلا كلمات جارحة: «إن أوروبا لم تقدّم قط، مثل هذا المشهد! ففي مركزها، دولة كبيرة تعلن أنها في خطر. ولكن من أين تأتي هذه الأخطار؟ وأين هم الأعداء المستعدون للهجوم؟ إنه ما من جندي، خارج حدود هذه الدولة- حتى ولو كان ذلك في أبعد الاتجاهات- يمشي على قدميه؛ وما من ترسانة تعمل، وما من فكرة حربٍ استولت على العقول! أين هو العدو إذن؟ إنه البلد الذي يصرخ صراخ الحرب، والذي يغطّي نفسه بجنود، والذي يستثير الأفكار الحربية، ويحتج في الوقت نفسه، بمقاصده السلمية! إن هذا البلد يقول إنه شُتم. ولكن من قبل مَنْ، وبأي الطرق وصلت إليه هذه الشتيمة؟ [...] إن أوروبا أيها السيد السفير، لاتفهم من ذلك شيئاً، وأنا في ذلك مثل أوروبا. ! وهذا الذي أتهم به السيد تيير، هو جرأة أسيء تقديرها، وسلطة وهمية، لاقيمة لها. وهذا الاستعداد لتقبل الوهم، وهم السلطة أو وهم القدرة، ألا نراه ملخصاً في البديهية «التي تقول: إن الملك يسود، ولكنه لايحكم؟ إن هذه بديهية ينفيها الحسّ السليم، وتحتوي داخلها وحدها، أسباب القلق الذي تشعر به فرنسا، كذلك الذي ينصبُّ على أوروبا كلّها [...] إن السيد تيير أراد أن يحدث ضجيجاً، فأحدث ما هو أكثر، وأراد أن يبرهن على قوته، فإذا به لايجد نفسه إلا أمام ضعفه. إن فيه شيئاً من الخفة، ويظن أن له وزناً. إنه آخر الأمر، هذه النتيجة: القليل القليل من الأشياء لفعل الخير، وقوة حقيقية على أرض الشر».

وبشكل متناقض، ويوم ٩ تشرين الأول السابق، لم يكن أكثر لطفًا في حديثه مع ملك بروسيا، عندما أدان عناد بالمرستون تجاه محمد علي المغلوب: « إننا رُددنا إلى وضع ، من نوع خاص، وربما أُغريتُ بالقول: إنه وضع غير معقول. وإن خصومنا خصوم غير معقولين. وهناك شخصيتان متميزتان هنا: السيّد تيير (ما أتفهه!) واللورد بالمرستون (ما أوقحه!). أما الأول، الظاهر البطولة، في أرضه، حيث كان - في عصر آخر، المرحوم الأسقف Pradt- يرفعُ النقاب عن جوبيتر - سكابان آخر، مختلف جداً؛ أما الثاني الذي اعترف مرة، في عمله في جماعة الويغ Whig، بالحق الصحيح، فإنه يريد الانتصار له، على طريقة اللاعبين الذين يدّعون بأنهم سيفجرون المصرف».

وفي ١٤ تشرين الثاني، رجا بالمرستون ستوبفوردStopford، إرسال ضابط إنجليزي لإعلام محمد علي، بأن الدول الأربع، قررّت نصح الباب العالي بترك مصر لمحمد علي، إذا هو ردَّ فوراً أسطول الأتراك لهم، وأخلى كل الأراضي الداخلة الآن في حوزته. وعلى محمد علي أن يجيب برسالة مكشوفة، يحملها إلى استانبول، ضابط إنجليزي. وفي نفس اليوم أُعلِم الباب العالي بالمسعى المشار إليه الذي يقوم به الأميرال، وكذلك أُعلم Guizot أيضاً، الذي أخبرَ بدوره كوشليه بالأمر، منذ اليوم التالي أو منذ ١٩ تشرين الثاني، كما كتب له، بعد عشرة أيام، أن يضغط على محمد علي ليقبل العرض مباشرة. ولكن قبل أن يقوم -Stop fordبتنفيذ هذه التعليمات، أخذ نابييه Napier على عاتقه أن يسبقه. وحقًا فإن الكومودور كان قد قام بمراسلات مُلحة، بالتعاون مع بوغوص بك، لكي يُفرّغ سورية، ويجلو عنها، فوافق محمد علي، أخيراً على الجلاء عن سورية، وإعادة الأسطول التركي والاكتفاء بمصر وراثية. وقد قبل نائب الملك، بهذه المناسبة، اتباع نصائح أصدقائه ومن حوله، كالقناصل والتجار والأجانب أو الترك أو العرب. وقد دُفع إلى ذلك بخوفه من أن تقصف الإسكندرية بالمدافع. أو أن يتمرّد الجيش والشعب. وهكذا ودّع سورية، وصرّح للمقربين منه، أنه منذ الآن فصاعداً،

مصممّ على أن ينهي كل مشكلة، بصورة وديّة، ذلك أنه في كل الأحوال - كما أضاف هو إلى كلامه - لا يترك أحدٌ هذا العالم، ويحمل معه شيئًا منه.

ومن هنا جاء الاتفاق التالي الذي تمّ الوصول إليه مع نابييه Napier، يوم ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) في الإسكندرية :

بين الكومودور Napier، قائد القوات البحرية لجلالة ملك بريطانيا، أمام الإسكندرية من جهة، وبين سعادته بوغوص بك يوسوفيان، وزير الشؤون الخارجية، لدى سموّه، نائب الملك في مصر[...].

المادة الأولى: إن الكومودور نابييه، بصفته المذكورة سابقًا، وباعتباره قد حمل إلى سموّ محمد علي رغبات الحلف الرباعي، التي أوصت الباب العالي، بإعادته إلى حكم مصر، وراثيًا، وبعد أن رأى سموّه فيما حملتهُ إليه، فرصة مناسبة لوضع حَدٍّ للحرب، أعلن التزامه بإبلاغ ابنه إبراهيم باشا، بضرورة الانسحاب الفوري من سورية. وكذلك فإن سموّه أعلن التزامه بالإضافة إلى ذلك بإعادة قطع الأسطول العثماني، متى تلقى النص الرسمي الذي يمنحه الحكم الوراثي، في مصر، علمًا بأن هذا التفويض مضمون وسيظل مضمونًا من قبل دول الحلف الرباعي.

المادة الثانية: إن الكومودور نابييه، سيضع تحت تصرُّف الحكومة المصرية سفينة « تجارية» لكي تحمل إلى سورية، ذلك الضابط الذي يعيّنه سموّه، لكي يُسلّم إلى اللواء القائد للقوات المصرية، أمره بالجلاء عن سورية. ثم إن قائد القوات البريطانية StoPford« ستوبفورد» يسمّي من جهته، ضابطًا يسهر على تطبيق هذا التدبير.

المادة الثالثة: وبالنظر إلى ما تقدّم، فإن الكومودور نابييه يلتزم بإيقاف القوات البريطانية للأعمال الحربية ضدّ الإسكندرية، أو ضدّ أيّ قسم من الأراضي المصرية. وسيرُخّص في الوقت نفسه للعمارة المخصّصة لنقل الجرحى، والمرضى،

وأية قطعة أخرى من القوات المصرية، بحرية المخر لكل سفينة ترغب في العودة عن طريق البحر.

المادة الرابعة: ومن المتفق عليه أن يكون على الجيش المصري أن ينسحبَ من سورية، مع ما لديه من مدافع، وأسلحة، وأحصنة مما هو جزء من حاجات الجيش.

نسخ هذا الاتفاق على ورقتين أصليتين. شارل نابييه وبوغوص يوسف بك.

وما إن علم ستوبفورد بهذا الاتفاق، حتى رفض التصديق عليه، وأنكر نابييه. بيد أن المواد الوارد ذكرها أعلاه، تكرّس في كل النقاط، تنفيذ معاهدة لندن. وكتب ستابفورد مباشرة إلى محمد علي لكي يعلمه معارضته «هذه الرسالة».

على ظهر سفينة الأميرة شارلوت، في خليج سان جورج، بيروت ٢ / ١٢ / ١٨٤٠.

أجدني مضطراً لعدم الاعتراف بالاتفاق الذي وصل إليه مع سموّكم، الكومودور نابييه، والمتعلق بالجلاء عن سورية، من قبل القوات المصرية.

إنه لم يكن قط مفوضاً بإقامة مثل هذا الاتفاق، الذي كان ينبغي على كل حال، أن أوقع عليه أنا [...] وآمل أن لا يسبب هذا الاتفاق الذي وُضع بسرعة وبدون تفويض أية مشكلة لسموكم. ولا شك أبداً في أنه وضع، بحكم المودة، على الرغم من أن الكومودور لم يكن على علم بقضايا سورية. ولكن هذا لن يقلّل في أي شيء من تلك الرغبة الحارة التي في نفسي، لتبنّي تدابير تهدف إلى تجديد هذه الصداقة، وهذه العواطف الطيبة التي آمل أن تعود فتستقر بين إنجلترا وبين سموّكم.

وعندما عرف بالمرستون ما جرى، عاد فصادق على ما فعله ستوبفورد، واقترح بدوره، ذلك الاتفاق. ومن الممكن ألا يكون قد ظهرت فيه صفة الإرغام

والضـغط، أو لعله غيـر كاف للإذلال. وعلى ذلك فإن الإجراء المحـدّد من قبل بالمرستـون، وبرأيه فقط، يوم ١٤ نـوفمبر (تشـرين الثاني)، هو الـذي يَحُلُّ محل الاتفاق الملغى، أي اتفاق نابييه Napier. وهذا الإجراء هو، هذه المرّة، معرَّف تماماً في الرسالة التي بعث بها ستوبفورد بعد أربعة أيام.

من على ظهر الباخرة، الأميرة شارلوت، أمام قبرص، في ٦ كانون الأول

يشرفني أن أنقل إلى سموكم، عن طريق الملازم Flanshaw(فلينشو) قبطان سفينتي، الإذن الرسمي من قبل الحكومة البريطانية، وموافقة الدول الأربع، على احتفاظ سموكم بباشوية مصر، بشرط أن يُوافق سموكم، خلال ثلاثة أيام، بعد رسالتنا هذه، التي ينقلها فلينشو- على ردّ أسطول السلطان إليه، والانسحاب النهائي من سورية. وليسمح لي سموّكم بأن تأخذوا مأخذ الجد، هذه الشروط.

وإني أُصلّي لله، القادر على كل شيء بأن يجعل سموّكم يُقدِّم هذه الخدمة لبلده التعيس، بقبولكم قرار الدول الأربع.

أفتكون مدة الثلاثة أيام، والانسحاب النهائي من سورية، والبلد التعيس... نـقول: أبهذه اللوينات الكلامية، يستطيع بالمرستون أن يروي ظمأه إلى الانتقام من الباشا؟

وفي ١٠ كانون الأول، انقاد محمد علي إلى كل الشروط التي أمليت عليه، وسلّم لفلينشو رسالة مفتوحة يُؤكد فيها للوزير العظيم، انصياعه لما فُرض عليه.

وهـكـذا يكون الحلم قد انتهى. واعتباراً من هذه الساعة، يمكن أن نقول: إن إمبـراطـوريـة آخـر فـرعـون قد انحلّت. ولم يبق له إلا مصـر، وغـدت مـصر كنبتة محطمة.

- ٣٠ -

أسرة مالكة أنقذت من الرمال

١٨٤١ - ١٨٤٦

وفي ١٣ / ٢ / ١٨٤١، يقرِّر السلطان كتابة «خطي شريف» يمنح فيه الوراثة للمغلوب. أما طريقة كتابة هذه الرسالة، فإنها تحمل بالتأكيد طابع اللورد بونسونبي Ponsonby وبالمرستون. إذ أن كلاً من الاثنين يجد شيئًا لا محيد عنه، في تضييق هذه الوراثة، بشروط من نوع خاص، تضع مصرِ في أضيق الحدود من الاستقلال الداخلي والخارجي. وبالجملة فإن القضية ليست لا أكثر ولا أقل من حبل على قياس عنق محمد علي.

١ - عندما يفرغ عرش مصر، فإن الذي يتسلّمه هو أحد الأبناء الذكور، الذي يُفضّله ويختاره السلطان، تبعًا لمبدأ قابل للتطبيق بصورة أبدية، على الخلافة. فإذا لم يعد هنالك ذكر بين الأحفاد، فإن الباب العالي يُسلّم حكومة مصر إلى من يشاء من عباد الله.

٢ - إن ميزة الوراثة الممنوحة لحاكم مصر، لا تهبه أي حق أكثر من حقوق الباشاوات الآخرين. أما المعاهدات، وقوانين الإمبراطورية، فإنها تنطبق على مصر كما تنطبق على أية باشوية أخرى. فالشكل، واللقب، وقيمة النقد واحدة للجميع، كما هي في تركيا.

٣ - ومنذ الآن، فإن ربع الدخل الخام لمصر، يعود الحق فيه إلى السلطان، من أجل الحاجات العامة للإمبراطورية[١]. ثم إن ثلاثة أرباع الباقي تستخدم لتغطية نفقات التحصيل، والإدارة، وكذلك لدفع قيمة القمح الذي ترسله مصر إلى المدن

المقدّسة كل عام ، مثل مكة والمدينة . وستجبى الضرائب باسم السلطان، كيلا يتعوّد سكان البلد اختلاس شيء منها، أو كيلا يتمّ الدفع بصورة غير نظامية .

٤ - ليس لمصر الحق في بناء سفن حربية إلا بإذن من السلطان . أما جيشها فلا ينبغي أن يزيد على عشرين ألف رجل . ألفان منها يقيمون في الآستانة . وكذلك فإن اللباس والشارات مطابقة لما يماثلها في بقية الإمبراطورية . ثم إن تعيين ضباط البر والبحر، حتى درجة الميجر (المقدَّم)، يعود إلى حكومة مصر؛ أما بقية الدرجات العالية، فإنها من حق السلطان .

ثم إن حق الوراثة في حكومة مصر، ما دام خاضعًا للشروط المنصوص عليها أعلاه، فإن عدم التقيد بأي شرط، من شروطها يُبطل الجميع، ويؤدّي إلى استعادة المنحة .

وفي ٢٠ شباط (فبراير) . جاء مبعوث من الباب العالي إلى القاهرة اسمه سعيد مهيب أفندي، وهو مكلّف بحمل « خطي شريف» إلى باشا مصر . ولكن نائب الملك يرفض مباشرة الانصياع له، ويقول : « إن ابني إبراهيم يملك حقوقًا ذات أساس في طبيعة الأشياء، وفي الاستحقاق، وفي النصر، وحتى إذا أرادوا إنكاره، فإنه مع ذلك ما يزال يقود جيشًا ضخمًا . وهو رجل لا ينسى المطالبة بحقوقه، والسلاح بين يديه . ومن جهة أخرى فإنه مهما تكن تربية أبنائي الآخرين لامعة، فإنهم لن يوافقوا أبدًا على تقديم طاعتهم لغيره . وسعيد رجل بحرية ممتاز، وهو يتكلم عدة لغات؛ ولكن ما من أخٍ له يرضى بالخضوع لأخ آخر، على حساب إبراهيم . كلا ، إنه يجب أن يُوضع نظام لوراثة العهد يُرجّح فيه الأكبر عمرًا، ثم الذي بعده . والذي بعد الثاني أيضًا، وبدون ذلك لا تكون الوراثة ممكنة . أما حق اختيار ضباط جيشي الذي يريد الباب العالي حجبه عنّي ، فإنه لم يوضع على صورته هذه إلا بغاية إذلالي . وكذلك فإن اختيار شكل البزة الرسمية ولونها، شيء مضحك؛ فإذا أنا خضعت له، فسأكون محتقرًا من أفراد أسرتي . وتحديد عشرين ألفًا كعددٍ لأفراد الجيش يحملني على التساؤل كيف يمكن حكم مصر، مع جيش

بـهذه القلـة؟ ومن رضى اللـّه علـيّ، لـم يـعـد فـي مــصر أيّ نوع من الفوضى أو الاضطرابات؛ ولـنقف عند عـدد أفراد الجيش. وقـد وجد ولا شـك من يرى أنه كاف للدفـاع عن البلد! حسنًا، ولكن بلدنا هذا هو مفـتاح أفريقيـا، بل ربما كـان مفتاح الآستانة. ثم إن سحب ربع العوائد، عوائد مصر، يعني أن تنتزع منهـا كل الوسـائل الأسـاسيـة، للقيـام بحـاجاتهـا، وإدارتهـا المدنية والعسكرية: بل هو انتزاع لوجودها نفسه(٢)!

وهذه الشـروط التي وضـعـهـا السلطـان، تحت تأثيـر البـريطانيين، شـروط ضـاغطة مـفرطة، حتى إن الكومـودور Napier نفسه، يـجدها غير مقبولة. وفي لندن، ستثار، المشكلة في مجلس العموم. وسيعرب أعضـاء المجلس عن تسفيههم لموقف بالمرستون.

وعلى كل حال فإن الأمر احتاج إلى أربعة أشهر على الأقل لتيسير المصاعب التي أثارها بونسونبي، ونُشر «خطي شريف جديد». وعندما قُرِّر في أول حزيران، بدأ التصحيح لبعض النقاط.

١ - إن الوراثة تُعطى تبعًا لقـانون الابن الأكبر. وهـو يعني أن العـرش يعود إلى أكبر الأبناء الذكور، لأسرة محمد علي.

٢ - ومنح نائب الملك حـق تسمية الضـبـاط، وتـرفيـعهـم إلى درجة العقيد حصراً.

٣ - أما الضريبة فإنها بدلاً من أن تحسب بنسبة عوائد مصر سيُعاد النظر فيها، وستثبّت بمبلغ دائم هو ٤٠ مليون قرش.

أما في حـقيقـة الأشيـاء وعلى الرغم من التـصحيح الذي أدخل على النص الأول، فإن الوثيقة تبقي دومًا مصر في حال التبعية الضخمة، للباب العالي. وهي تفرض على كل نائب ملك جديد، أن يزور الآستانة، لكي يتلقى هو بذاته مرسوم الولاية، وينحني لولّي نعمته. وبقي عدد أفراد الجيش ١٨ ألف عسكري، فيما عدا

حالة الحرب، ويجب أن يُرخِّص السلطان بكل زيادة بإذن رسمي منه. وكذلك فإنه يحرَّم على مصر أن تقوم بصناعة أي عمارة عسكرية بحرية. والخلاصة، إن محمد علي يعتبر كأي باشا في الإمبراطورية العثمانية، ويبقى وادي النيل جزءاً من هذه الإمبراطورية. والميزة الوحيدة - ولكنها لا يستهان بها- هي أنه، اعتباراً من هذا اليوم، قامت أسرة مالكة في مصر، وأعيد طرح مشكلة الاستقلال.

وعندما قبل محمد علي هذه الشروط النهائية، وضع حداً لواحدة من المراحل الأكثر تعقيداً، والأكثر مأساوية، فيما يُسمى بالمشكلة الشرقية. ولكن هذه تعود من جديد، في ظروف مآسٍ جديدة.

ومنذ الآن، يكون على مصر أن تنطوي على نفسها، ويظل محمد علي حزينًا على أحلامه في العظمة: وأصبحت من جديد، وبعد كل ما جرى، ما لم تكنه إلا في حال واحدة، هي الفتح العثماني. ولن يكون لها بعد الآن من سياسة داخلية إلا تلك التي تعرَّف أو تحدَّدُ بالضغوط التركية. أما سياستها الخارجية فقد كمَّ فوها (أو سدَّ بوزها).

وفي ربيع عام ١٨٤١، لم يكن قد بقي من عمره إلا ثماني سنوات. فالسنوات تمضي. دون ما هوى، ولا حماسة، وكأنها لا طعم لها. وفعلاً، فإن المصالح الإنجليزية - الفرنسية تستمر في التجابه. ولئن لبست خصوماتهاأردية أخرى، فإنها تبقى كما هي، بصورة لا رحمة فيها! أي الرقابة المفروضة على الاتصالات مع آسيا، وطريق الهند.

وبسرعة، عاد السلام، ومنذ عاد السلام، كان هنالك مشروعان ينامان في الأعماق. فعادا إلى السطح، أولهما فرنسي، وهو يتعلق بالحلم القديم بالوصل بين البحرين: أي قناة السويس الآتية في المستقبل. والثاني إنجليزي، يفكر في إنشاء خط حديدي يصل القاهرة بالسويس، ومن القاهرة إلى الإسكندرية. وبطبيعة الحال، فإن كلاً منهما يحاول القضاء على المشروع الخصم.

وفي عام ١٨٤٤، وبدفع من توماس واغهورن Waghorn [٣] الضابط السابق في جيش الهند، تقدمت الحكومة الإنجليزية بعرض، عن طريق المهندس Galloway، مخططها لطريق حديدية. وستنشأ هذه تحت إدارة السيدين ستيفنسون وبرونل.

ويشرح واغهورن مشروعه، قائلاً: «إن الزمن قد حان، لكي تقوم الحكومة الإنجليزية بشق أقرب الطرق إلى الشرق: وهذه الطريق، إنما تمر بهذا البلد. ذلك أن مصر مركز وطريق كبيرة بين الصين في الشرق، وأمريكا في الغرب».

ويقترح الإنجليز، لتمويل هذا المشروع، على محمد علي، نائب الملك، خدمات أكبر الممولين الأوروبيين: شركة روتشيلد. ويرفض محمد علي هذا الاقتراح رفضاً باتاً. وأغلب الظن أنه يشعر أن الدين المالي يمكن أن ينقلب في رمشة عين، إلى دين سياسي. وهذا ما لا يريده، مهما يكن الثمن.

وتبقى قناة السويس. فإذا بفردينان دوليسبس de Lesseps، الذي كان يومئذ قنصلاً لفرنسا في الإسكندرية. يرمي بنفسه فيه، جسداً وروحاً، محاولاً بكل ما يستطيع من قوة، أن يقنع الباشا بفائدة مثل هذا المشروع. وهنا أيضاً، يُرفض المشروع. فهذه القناة كما يقال شيء يحرص عليه جداً، ولكن بشروطه هو. وبدأ له بحسّه شبه الرؤيوي، أن فرنسا، متى حققته، أصبحت إنكلترا هي الرابحة أكبر الربح. ويعزى إليه الكلمة التالية الجديرة برجل واسع الرؤى؛ «فإذا حدث ذات يوم أن فرنسا ومصر حفرتا مهد قناة السويس فإن إنكلترا هي التي ستنام فيه». وقد نقل هذا عنه للسيبس كحديث. وسواء كان هذا الحديث صحيحاً أم مزيفاً على لسان الباشا، فإن هذه الكلمات تعرب، على كل حال عن حديث جرى مع ليسّيبس Lesseps خلاصته أنه يخشى، متى فتحت هذه القناة، أن تصبح رغبة إنجلترا حارة جداً في الاستيلاء على مصر. وهي رغبة، متى جاء حينها، لن يكون هو قادراً على صدّها عسكرياً. وهكذا فإنه قال، بلا لف أو دوران، للقنصل

ليّسيبس، إنه يحتاج، قبل الإذن بشق القناة، إلى ضمانات تقف دون أي عدوان على مصر، من جهة أجنبية. وبمعنى ما، فإن حياد القناة، هو الشيء الذي يطلبه. وكان يرى أن فتح باب اتصال، من هذا النوع، بين البحرين، لا يمكن أن يوضع موضع بحث، إلا بشرط أن تتعهدَّ الدول الكبرى، بضمان استخدامه، بعمل جمعي، معلن على جميع الناس. ولكي نوفِّر على مصر تلك الأخطار التي لا يمكن إلا أن تحدث في حال فتح القناة، لابُدَّ له من تعهد دولي. وإذا استعرنا جملةَ حديث لحفيد من أحفادنا، هو إسماعيل، قلنا إن ما كان يريده « هو أن تكون القناة لمصر، لا مصر للقناة». والخلاصة إنه يفكر، وبحق، أن إنجاز هذا المشروع، سيثير اهتمام إنجلترا بالسيطرة عليه، أشد الإثارة. إذ أن إنجلترا ستقتنص الفرصة، لدى أية أزمة تحدث، لكي تسيطر عليها، تمامًا كما سيحدث فعلاً.

وأما محمد علي الذي يكاد أن يبلغ الثمانين، فإنه على الرغم من كل التقلبات التي حدثت، والمرض الذي بدأ يَهزُّ أركانه، قد ظلّ يبرهن دومًا على صفاء عقلي كبير، فيما يتّصل بالأخطار التي تحيق ببلده الذي نجح قرابة نصف قرن، بالمحافظة عليه.

وفي عام ١٨٤٤، حدث حادث أصابه في أعماق نفسه، بأكبر عنف، وهو موت خادمه الأكثر وفاءًا: أي بوغوص يوسفيان بك، وإذا صدَّقنا أقوال كل الشهود، فإن هذه الفجيعة أصابته بحزن عميق. وعندما علم أن ما وُجد في البيت كله من ثروة، هو تسع عشرة قطعة من ذات الخمسة قروش، صرخ قائلاً: إن هذا مستحيل، ولابُدَّ أنه سرِقَ، إذ كان يجب أن يجدوا لديه قطعة من الماس تزن سبعة عشر قيراطًا، سلّمتها إليه. فإذا لم توجد هذه الماسة، فهذا يعني أنهم سرقوها منه، كما سرقوا الثروة التي كان يجب أن يتركها بوغوص!».

وفي اليوم التالي مساءً، وبأمر من القاهرة، قام حاكم الإسكندرية زكي أفندي، ورئيس الجمارك، راتب بك، بعملية تفتيش تحت سمعهما وبصرهما،

للبيت الذي كان يسكنه الوزير الذي مات. ويقول نوبار باشا، إبن أخي أو أخت بوغوص، في مذكراته « لو أنهم لم يجدوا الماسة، فأية شبهة كانت ستحوم حول جماعة البيت؟». وكان الوحيدون الذين يمكنهم أن يدخلوا إلى غرفة المريض، أمين سرّ الشركسي، سليمان أفندي، وأنا، وخادم خالي، وفجأة رأيت سليمان أفندي وكأنه يكاد يغشى عليه، عندما مدّ إليّ ظرفًا كان يعضُّ عليه بين أصابعه: كان ذلك هو قطعة الماس التي أشار إليها نائب الملك. وعلى ذلك فإنه لم يكن هنالك سرقة. وقد اكتشفنا في الأوراق الشخصية لخالي (أو عمي) زيادة على ذلك، ست أوراق موقّعة على بياض، بتوقيع نائب الملك، بخط يده، وكان أعطاها لبوغوص عندما بدأ رحلته إلى السودان، لكي يستخدمها إذا مسّت الحاجة. وقد سُلّمت أوراق التوقيع، وقطعة الماس إلى زكي أفندي. وهكذا لوحظ، برأي العين، أن بوغوص بك، بعد أن شغل موقعًا استثنائيًا في حكومة مصر، على مدى أربعين عامًا، مات فقيراً، وترك بعض الديون عليه».

وصرّح نائب الملك عندما اطلع على ما حدث بقوله: لو أني علمت أن بوغوص لم يستطع أن يبقي شيئًا بعده، إذن لكنت خبأت له تحت سريره ١٠٠ ألف تالاري، حتى لا يقال أن محمد علي يهمل من يخدمه.

وتابع نوبار حديثه فقال: وفي يوم الدفن، وعندما حان الوقت لحمل الجسد، انتظر الناس عبثًا وجود العسكريين. ولم يكن هناك من صحبَ الميت إلى المقبرة، إلا أهل الإسكندرية والأوروبيون. وبعد ثلاثة أيام، صدرَ أمر من نائب الملك، وُجِّه إلى اللواء، قائد الألوية هناك. (وأنا أنقله بنصّه الكامل هنا): « إلى السيد الكبير الحظ، اللواء عثمان باشا: إنك حمار، إنك حيوان. إذ كيف أن الرجل الذي اشتراك وربّاك، يموت، وأنت ورجالك لا ترافقونه إلى المقبرة. وعندما يصلك كتابي، ستمضي إلى الكنيسة الأرمنية، مصحوبًا بضباط اللواء في الإسكندرية، فتنبش من القبر، وتقدّم له وداعكم العسكري، واحذر أن تخالف أمري!».

وعنـدمـا تم النـبش الـذي أمر بـه، أقـيـمت لـه حـفـلة وداع، بـحـضـور عـناصر الجيش.

وبدأ الباشـا بعـد ذلك، يشـيـر بسلوكـه إلى خلل عـقلي. وفي السـادس والعشرين من تموز ١٨٤٤، أشار قنصل اليونان في الإسكندرية، إلى بعض صور السلوك الغريبة: ففي هذا الصباح استيقظ الباشا غاضباً، ومضى إلى حديقة محرَّم بك الذي يسكن غير بعـيد عن المدينة(٤). وكان هذا الانتقـال غيـر المنتظر، يتـبع الإعـلان عن سفـره إلى القـاهرة: وهي رحلة لم يُشـر إليـها قط في اليوم السـابق. وعندما عاد من الحديقة، حبس نفسه في غرف بيته، ورفض أن يستقبل أي إنسان، كائناً من كان. وقد استغرب هذا السلوك حاشيتُه، وأهل بيته، ووزراؤه. وظن أنه ربّما نشأ، فيما يبدو، كنتيجة لاستياءٍ ما، حدث لسموّه..»

وفي اليوم التالي، كتب الدبلوماسي نفسه هذه الكلمات «إن سموّه أعلن أنه سيسافر إلى مكة. وما من أهله أحد، حضر الركوب في السفينة التي نقلته، لأن سموّه أمر بأن لا يراه أحد ولا أن يسمع به أحد.. ولم يأخذ معه إلا صيدليه وفئة من خدمه».

والواقع، أن محمد علي لا يقوم بهذه الرحلة، أو لم يقم بها قط. وصرّح لإبراهيم أنه بدلاً من السفر إلى مكة، يريد الآن السفر إلى القاهرة.

وفي ٢٨ تموز عـام ١٨٤٤، استـقـبل القناصل في قـصـر القلعـة، وطمـأنهم جميعًا على أنه أصيب «بأزمة عارضة». إلا أنه الآن استعاد سيادته على نفسه، وما من شيء غير ذلك.

إبراهيم في الأنفاليد

وبعـد سنة من هذا الحـادث، رغب محـمـد علي في استـئناف صـلاته مع الغـرب. فقرّر أن يرسل ابنه إبراهيم إلى أوروبا. ولكن إبراهيم مـريض. ذلك أن حياته العسكرية أضنته. وكـانت صحته، منذ العودة من موريه، تبدو قلقة. وفي

شهر آب ١٨٤٥ ، أُنهك بالإسهال الذي كان قد أصيب به في السودان [٥] وطلب منه أطباؤه إقامة لمدّة ما، في حمامات سان غيتانو San Guitano، على مقربة من بيزا. وهي حمامات رائعة، كما يقال ، « ضد أمراض الأحشاء». فقبل إبراهيم هذه الرحلة الأوروبية التي فرضها أبوه عليه لعلّها تتيح له، في الوقت نفسه، علاج أمراضه.

وأقام الرجل خلال شهري أيلول وتشرين الأول، حيث أسكنه الدوق الأكبر، في جناح من قصره. غير أن العلاج الذي اتبع في سان جيتانو، بَدا وكأنه غيرُ مثمر، فقرّر عندئذ أن يسافر إلى فرنسا، وأن يغتنم فرصة زيارته، لاستشارة القمم الطبية أو أشهر الأطباء في ذلك البلد. وسافر إلى طولون حوالي بداية شهر نوفمبر، ومنها إلى فيرنيه ليبان Vernet - les Bains في جبال البيرينيه، حيث يجد المياه التي تشفيه من مرضه، تبعًا لما قاله له أطباء بيزا. وفي فيرنيه هذه، استقبله قوُس نصر أقيم على شرفه، وكُتب عليه « إلى القائد الظافر في قونيه ونصيب» . وكانت حزم من الأعلام المصرية والفرنسية تزيّن ممشيين واسعين، من شجر البهشية (Houx)، تمضي به إلى قوسٍ آخر يحمل هذه الكلمات: « إلى الابن الكفء ابن محمد علي وإلى «ممدِّن الشرق، وإلى صديق فرنسا والفرنسيين ، وإلى البطل المصري».

واستطال تطبيب إبراهيم حتى نيسان ١٨٤٦ ولم يكن إلى جانبه إلا سليمان باشا. وفي منتصف شهر نيسان، صرّح الدكتور لالمان Lallemand ، أن الأمير قد شفي، وأن في وسعه أن يقوم برحلته إلى باريس، بلا حرج.

وفي ٢٢ نيسان، وبعد توَقّف في بوردو، وتور ، يصل إبراهيم إلى باريس. وقد استقبل فيها بحماسة وألق يتجاوزان كل ما عرفه حتى ذلك الحين. وقد استغرق موكبه أكثر من ساعتين حتى يجتاز المسافة الفاصلة بين المحطة والايليزيه- بوربون. وكانوا قد هيؤوا له جناحًا في الطابق الأول من الشقق التي كان نابليون

يَشغلها، وهكذا، وبرمشة عين (أو رفة عين)، نام بطل معركة نصيب، تلك الليلة في سرير بطل أوسترليتز. ولكن الإرهاق عاوده وزاره الطبيب، وفرض عليه البقاء مرتاحًا عدة أيام.

وعلى ذلك فإنه لم يستقبل في قصر التويلري إلا في ٢٨ / ٤ . وكان لوي فيليب والملكة محاطين بدوقة أورليان، وبالأميرة آديلائيد، وبالدوق والدوقة، دونيمور. وبالأمير والأميرة دوجوانفيل، وبالدوقة أومال ودوق مونبنسييه. وكان soult و Guizot حاضرين أيضًا .

وفي اليوم التالي يزور الأنفاليد (كنيسة حُوِّلت إلى مقبرة لنابليون وابنه الذي مات في الواحدة والعشرين من عمره) محاطًا بالدوق مونبانسييه Montpensier، وسليمان باشا ومساعديه . وبعد أن انحنى أمام قبر الإمبراطور، استُقبل من قبل الحاكم العسكري وحيِّي (أو حيّاه) ٢٠٠٠ من قدماء الحروب النابوليونية، اجتمعوا كلهم في الباحة الأساسية.

وفي ٣٠ ، أقيم استقبال على شرفه في اللوكسمبورغ. ورأى في بهو القصر اللوحة الشهيرة، لوحة Horace vernet التي تمثل مذبحة المماليك . وأخذ إبراهيم يتأمل، طويلاً هذه اللوحة، ليقول هامسًا: «كلاّ ليس هذا وجه أبي ، إنه وجه آخر».

أما الأيام الأخرى التي قضاها في العاصمة، فإنها لم تكن إلا تتابعًا لاحتفالات، وحفلات رسمية موسيقية. أما التبجيل الأعظم فقد جرى في ساحة الشان دو مارس Champ. de Mars ـ يوم ٢٥ أيار. وقال أحد الشهود اسمه Edouard Gouin إدوار غوان : «إنه ما من مرّة، بعد نابوليون، استُخدمت فيها هذه الساحة لشيء أكثر ألقًا عظمة . . حضرها ثمانية أمراء وست أميرات ومعهم رجال من القادة العسكريين ذوي الرتب العالية ورجال الأركان الذين يحصى عددهم بالستين ضابطًا. بل إن الشمس نفسها كانت تبدو وكأنها لبَست ثيابها الاحتفالية،

لتحية بطل نصيب، أحد أبنائها. وفي ٢٥ / ٥ كان أجمل يوم في أجمل شهر، وأجمل فصل من عام ١٨٤٦ ».

أما بعد فرنسا، فقد تلقفته إنجلترا، ومضى إبراهيم إليها بدعوة من الملكة فيكتوريا، حيث استقبلته الملكة في قصر بوكينغهام Buckingham، ثم الكومودور Napier، وأقام بالمرستون على شرفه (شرف الأمير إبراهيم)، حفلة عشاءٍ فخمة جداً. وعندما حانت ساعة التحية (وشرب النخب) مضى إليه كل وزير بتحيته وتمنياته وخطابه. وكان بالمرستون آخر من تحدَّث، ليختم كلامه بهذه الكلمات . «إن على مصر أن تفهم أنه ليس لها من صديق أكثر إخلاصًا لها من بريطانيا العظمى»... ولسنا هنا بحاجة إلى تعليق.

وفي اليوم التالي ركب إبراهيم الفرقاطة البخارية الأفانجر L.Avengor. وفي ٢٣ تموز كان في ليشبونة. وفي اليوم الثالث من شهر آب عاد إلى الإسكندرية.

وخلال مدة الرحلة، كرّس محمد علي وقته لإعادة التوازن إلى خزينته، التي ساءت بسبب كل هذه السنين من الحرب. وعلى الرغم من أن المحاصيل المصرية، كانت قد فقدت الكثير من قيمتها التجارية (فالقطن مثلاً، الذي كان يُقدّم على اختلاف السنوات بين الحسنة والسيئة ٣٠٠ مليون فرنك، لم يعد يقدم إلا ثلث هذا المبلغ، غير أن نائب الملك لم ينظر إلى المستقبل إلا ببعض التفاؤل. فأنشأ مصرفًا للدولة، مكلفًا بالدرجة الأولى بوضع حدٍّ للتلاعب اللامشروع بقيمة العملة المحلية والأجنبية، أو البضائع، وكذلك ليتيسر دفع رواتب الموظفين. ويبدو أن هذه المؤسّسة أدّت إلى بعض النتائج الحسنة.

وفي عام ١٨٤٦، وهو آخر عام نملك عنه بعض المعطيات المتصلة بالخزينة وهي معطيات يمكن الثقة بها. كان الوضع الاقتصادي يُبشرُ ببعض الخير. إذ بلغت العوائد ما قيمته ١٦٠، ٨٤٠ بورصة، كما بلغت النفقات ٤٠٩,٠٠٠ .

وفي عام ١٨٤٦ أيضاً قرّر الباشا المعمّر أن يستجيب لدعوة ملكه، والذهاب لزيارة الآستانة، حيث وصل في ١٠ تموز أي قبل شهر تقريباً من عودة إبراهيم. وكانت تنقلاته محاطة بكل الفخفخة الشرقية، بغية إغلاق صفحة الصراعات السابقة ومحو كل الخصومات القديمة التي ظلت تعمل على إفسادِ العلاقات بين البلدين.

واستقبل عبد المجيد تابعه باحترام وفخفخة . ولكنه عندما رأى هذا الرجل المكتهل الهزيل الجسم والمنحني الظهر بحكم العمر، زهد به بسرعة كبيرة. وعبثًا يطيل محمد علي إقامته في البوسفور. وكان محزنًا وباعثًا على خيبة الأمل أن يطلّ، عن طريق البحر، على مرفأ طفولته، أي كافالا، في مكدونيا Macedoine.

وما من شاهد نقل إلينا كيف كانت هذه الرحلة. . ولكن يمكننا بسهولة أن نتخيّلها. كان بائعًا صغيراً للتبغ مجهول الاسم، أميًّا. إلا أنه استطاع أن يجعل الآستانة تحت رحمته، وفتح بلاداً كثيرة شكل منها إمبراطوريته» وجعل وادي النيل يصحو بعد نوم، ويخطف الأبصار، ويحمل أوروبا كلها على انتظار أخباره. وعندما وقف في كافالا، على قبر أبيه، كان يدعو اللّه أن يرحمه وبمثل هذا كان ينبغي أن يفكر محمد علي ...

- ٣١ -

المعركة النهائية

١٨٤٦ - ١٨٤٩

ومنذ أن عاد إلى مصرفي ٢٤ آب (أغسطس) عام ١٨٤٦ ، بدأت صحته تنهار شيئًا فشيئًا، واضطرته إلى التزام السرير. وفيما يرى Clot، فإن مرضه في تلك الفترة يبرز بعض أعراض التيفوئيد.

وبهذه المناسبة، في أغلب الظن، بدأت الصراعات الجدّية بين الباشا وابنه. وكان من الواضح أن إبراهيم يتَلَهّف على تاج أبيه. وهو لا يفهمُ لماذا لا يريد أبوه أن يترك له مكانه، على كونه أصبح ضعيفًا جداً. ومن جهة أخرى، فإن الأمير كان يحرص أكبر الحرص على القيام بإصلاحات هامة في الميدان الزراعي، وهي إصلاحات كان محمد علي عدواً لها، وعدواً عنيداً. وكان التوتر الذي لا يَكُفُّ عن التزايد بينهما لم يعرف إلا القليل من الهدوء في يوم ٩ نيسان ١٨٤٧، وهو تاريخ وضع الحجر الأساسي في مشروع مجموعة من السدود أطلق عليها اسم القناطر الخيرية.

وفي شهر أيلول بدأت صحة إبراهيم تنهار وبدأ المرض يشتدّ. وكان الحديثُ يدور حول زحار من نوعٍ ما. وكانت زيارات الأطباء تتتابع. ومرة أخرى يُنصَحُ الأمير بالسفر إلى مالطة، ثم إلى إيطاليا.

وفي ٩ تشرين الأول، كان الرجل الذي تهتز له أرجاء رأس التين، يجب أن يُحملَ، لشدّة ضعفه، إلى السفينة التجارية «القاهرة». ومن أعجب الأشياء أنه ما إن وصل إلى مالطة، حتى استعاد كل نشاطه، حتى لقد تحدّث، مع أطبائه عن

عبث متابعة الرحلة. ولكن إلحاحهم الكبير عليه، يحمله على متابعة الاشتشفاء في إيطاليا. فيصل إلى بيزا في ٢٠ تشرين الأول، ويبقى فيها حتى نهاية كانون الثاني ١٨٤٨.

وعلى ما يقول أمين سرّه نوبار باشا، لا غيره، كان إبراهيم مضطربًا وقلقًا وتواقًا جدًا إلى معرفة أخبار الإسكندرية: «ولعله بدأ يجد الوقت طويلاً، كما يجد أن أباه أسرف في التأخر عن بيعة ابنه. وكان يعتقد أنه تخلّص من النبوءة الشائعة التي تقول: إن محمد علي سيعيش أكثر من ابنه إبراهيم، ذلك أن ابن عمَه الذي يسمّى إبراهيم أيضًا، قد مات قبل محمد علي، فكأن التنبؤ قد صحّ: فإبراهيم ما، كان قد مات قبل محمد علي».

وعادت إليه صحته تمامًا، أو في الظاهر على الأقل. فمضى في شباط ١٨٤٨ إلى نابولي، حيث يجب أن يلقى أباه الذي نُصح، هو أيضًا، بالسفر إلى أوروبا. وفي ١١ / ٢ / ينزل محمد علي إلى النيل، من شوبرا إلى الإسكندرية حيث يقيم فقط ٤٨ ساعة، ثم يتخذ مكانًا في السفينة البخارية التي أطلق عليها اسم الإسكندر، وكانت قد وضُعت تحت تصرّفه على يد قنصل فرنسا بارّو Barrot.

ولما كانت صحة نائب الملك لم تتحسن، حتى بعد خمسة أيام من الإبحار، فقد وجدت حاشيته أن من الأفضل أن يتوقف في مالطة. وكان من المقدَّر أن يبقى فيها محجوزاً اثني عشر يومًا، كتدبير وقائي لأهالي البلد. ولكن مناخ الجزيرة وُجد غير ملائم، أو هكذا قدّرت حاشيته، فمضى إلى نابولي[1]. وعلى ما يقول الدكتور Clot الموجود عضواً في الرحلة: فإن كل ما كان يتميّز به الباشا من بشاشة وحسن العشرة، والترحيب بالجميع، والتعاطف معهم، لم يتغيّر قط، إلى الدرجة التي جعلته رغم تعبه الكبير، يتذكر وعده بتسعة دكاكين تعطى لطبيبه، ويطلب منه بأن يلاحق الوزير سامي باشا الملتزم ببنائها.

وفي اليوم السادس من شهر آذار، وبعد ست ساعات من التوقف في سيراكوزة، وصل إلى نابولي، حيث استقُبل محمد علي من قَبِل الأمير «أكيلا»

Aquila ، أخي ملك الصقليتين، كما استقبله ابنه إبراهيم. ويذكر نوبار باشا ما رآه، فيقول : ترُى « بأي قلق كان الابن ينظر إلى أبيه. ولا يمكن القول: إن الملك كان قد جُنّ. ذلك أنه من حين لآخر، كان يعي تمامًا حالته. وكان يراقب نفسه عندئذ. وعندما كان يشعر بأن عقله، أو أن ذاكراته تخونه، كان ينطوي على نفسه في صمت كامل. ويبذل جهده لكي يعود فيجد التسلسل الضروري لأفكاره. وسواء أوصل إلى هذا أم لم يصل ، فإن وجههُ وصورة حياته، بقيتا هما هما . وكان قد احتفظ بحسن المظهر. أي بهذه النظافة المقصودة والتي تبلغ درجة الأناقة، وكانت نظراته حادة ، ملأى بالحيوية؛ فإذا جلس، كان فخذاه ينطويان نصف طيّة وسيفهُ على مقربة منه. وما أكبرَ التضاد بين الأب والابن، الواقف على قدميه أمامه، مغطى بسترة شعبية، والرأس منحن واليدان متصالبتان، على صدره بمعنى الاحترام أو إشارة إليه، منتظرًا أمرًا أو كلمة. وكان يُكثر من تأمل أبيه متسائلاً عما إذا كان المرض مصطنعًا أو حقيقيًا».

وفي نابولي فقط، علم محمد علي بأحداث فرنسا وما تلاها من أحداث أخرى كثورة شباط، وإعلان الجمهورية. غير أن تنازل لوى فيليب سبَّب له أعمق الحزن. ولما كان، فيما يبدو حريصًا من كل قلبه وروحه على الملك الذي أنزل عن عرشه، فإن الاضطراب الذي شعر به زاد سرعة عطبه، وأثار الفوضى والخلط في دماغه. وكان يُسمع وهو يتفجر غضبًا « ضدَّ الأشقياء الذين اجترؤوا على شخص الملك الكبير، وعلى عرشه». ومن هنا وصل إلى التهديد: لابُدَّ إذن من الرجوع إلى مصر، وتعبئة جيش، والنزول على الشواطئ الفرنسية، لإعادة الملكية. . ! ومنذ ذلك الحين، أخذت قدراته العقلية تضعف وتتراجع بصورة مأسوية، وبعد ثلاثة أيام، وصف كلوت حالته، بأنها « خرف».

واستدعي الأطباء المشاهير إلى سرير الرجل العجوز المعمّر. وكانت نتائج فحوصهم حاسمة: إن فرعون الذي أحكم سلطته على الشرق لم يعد أكثر من طفل . والحل الوحيد هو إرجاعه إلى مصر. وقُرِّر أن يعود مباشرة . وفي يوم ٣٠

آذار ١٨٤٨، بدأ يمخر باتجاه الإسكندرية. وعاد إبراهيم في فرقاطة إنجليزية، وسبق أباه في الوصول، بمقدار خمس ساعات إلى الشاطئ المصري.

الوصاية الوهمية:

وبعد بضعة أيام، كانت فكرة إنشاء مجلس للوصاية يرأسه إبراهيم، قد أُعرب عنها من قبل وزراء نائب الملك. لكن إبراهيم رفضها مباشرة. فإذا صدّقنا ما قاله نوبار، فإن إبراهيم يرغب في الحصول على السلطة الحقيقية، ولكن الخوف من أن يبرأ أبوه من المرض. « وأن يُعرِّض حياته للخطر بسبب هذا العمل، باعتباره اغتصابًا»، يُرهبه رهبة شديدة. وزيادة على ذلك، فإن إنشاء مجلس وصاية، يحتاج إلى قبول الباب العالي. فهل يوافق الباب على ذلك؟ وحتى إذا وافق عليه، أفلا يُخضعه لشروط تقلّل من سلطة الوصي؟.

ومهما يكن الأمر، فإن تردد إبراهيم لم يطل كثيراً، لأن مجلس الوصاية بدأ يمارس سلطته منذ ١٥ نيسان، فالأوامر والقرارات إنما تصدر باسم محمد علي. ولكن إبراهيم هو الذي بدأ يحكم منذ الآن.

وفي ٢٠ تموز (يوليو) جاء مبعوث فوق العادة من السلطان، يحمل إلى الإسكندرية « الفرمان » الذي يعترف بأن ابن محمد علي نائب جديد للملك. ولم يبق على إبراهيم إلا أن يسافر إلى استانبول لكي يتلقى التعيين الرسمي. ولما كان يخشى أكبر الخشية أن يعاقبه أبوه، إذا هو شك، في الأسباب الحقيقية لسفره، فقد آثر أن ينتظر أكثر من شهر، قبل أن يمضي إلى البوسفور، كي يتلقى فرمانه بيده. وجاء انتشار وباء الهواء الأصفر (الهيضة أو الكوليرا)، لكي يقدّم له المبرر الضروري: ومع ذلك، فإنه أشاع أن سفره ينشأ عن الهرب من هذا الوباء، وأنه يصحب ابنه مصطفى، وأخاه الأصغر، محمد علي، على ظهر مركب حراسة تلقى الأمر بأن يتلهى بين رودوس والإسكندرية، حتى يعود هو من استانبول. ثم يهيئ

السفينة الحربية الوحيدة الباقية من الأسطول الذي أنشأه نائب الملك، (ويغادر بدوره الإسكندرية. وهكذا تكون المظاهر سليمة).

وفي ٢٥ آب ١٨٤٨، دخل المرفأ العثماني، وفي اليوم التالي، مُضي به إلى القصر، وقُرئ له الفرمان القاضي بتعيينه واليًا، وطالت إقامته حتى يوم ٢٩ / ٨. وفي اليوم الثلاثين، مرّ بأزمتي مرض نفث الدم، مما أرغمه على التزام السرير، في وضع من أكثر الأوضاع قلقا. ثم ترك استانبول، وأبحر عائداً إلى الإسكندرية. ويقول نوبار في هذا الشأن: « حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر، كنت وحدي على ظهر الباخرة. وجاءني واحد من مماليك إبراهيم ليقول: لقد فقد الرشد، وهو يسأل عن كالوست Caloust [رجل أعماله في استانبول] ويقول: إنه خدعه في قضية تتعلق بالفرو. فأجيب بأن كالوست بقي في العاصمة التركية، بأمره هو. فيأبى أن يُصدّق ذلك، ويدّعي أنه مختبئ في إحدى زوايا السفينة. وهو يريد الآن أن نبحث عنه، ونلقيه في البحر. » هكذا قال لي المملوك، ثم رحل. ولكن هذا الخبر أقلقني. وكان مؤكداً أن إبراهيم أصيب بنوبة حمّى ساخنة جداً. وكان هذا أمراً خطيراً بالنسبة إلى رجل مثله، بل كان خطراً جداً. ولو كان هادئًا، فلربما استطاع أن يقوم بجريمة خفية ولما لم يكن عقله معه، فإنه إذن قادر على أن يأتي أو يقوم بعمل أي شيء. وكنت أعرف تماماً وضعه العقلي. كان يخاف على حياته. وكان عنده كهف رئوي وكان يأتيه الدم من فمه(٢) أما في الآستانة فإنه كان يَمرُ بلحظات في منتهى القلق. ومن حسن الحظ أنه خرج من « وكر زنابيره». ولئن نجا من هذا الخطر، فليجد أمامه خطراً آخر، يرتسم في الأفق؛ ويكون هذا أخطر أيضاً من الأول. وكان يعتريه منذ طفولته: وهو الخوف من أبيه. ولو أننا وجدنا الأب قد شفي تمامًا، عند عودتنا من الإسكندرية، إذن لكان قد قضي عليه. ولم يكن يتوهّم أي وهم حول عواطف الخوف والبغضاء التي كان يوحي بها، وكان يعرف أنه، في مثل هذه الحال، كان يتحتم عليه أن يموت. أما تعيينه واليًا، والفرمان، معه، فلم يكونا ليزنا شيئًا بالنسبة إليه. وسواء أكانت هذه المخاوف مفرطة أولا، كنت أنا

أشعر أنها كانت موجودة في عقل إبراهيم، وأنها كانت تمثل في ذهنه الذي ضَعُفَ وأرهق « لا كأحلام، بل كوقائع».

وعندما وصل إلى القاهرة، مضى إبراهيم ليقيم في القلعة، في بيوت الحريم، ولكنه سرعان ما وجد أنه مرغم على الانسحاب إلى شقة النساء. وهناك قرَّر أن يكتب للدكتور Lallemand. غير أنه موسوس دومًا، على نحو ما رأينا، فيما يتصل بقضية مكافأة الطبيب، ويكتفي بأن يذكِّره وعده بالمجيء لزيارة القاهرة.

وفي اليوم العاشر من نوفمير (تشرين الثاني)، وحوالي منتصف الليل، كانت خطورة المرض قد وصلت إلى حدّ اللا عودة. وكان لديه ستة أشخاص يسهرون على رعايته: ابنه مصطفى، وأخو نوبار باشا، ونوبار نفسه، والكابيتان بك، والأطباء. ومرة واحدة ألقى إبراهيم نظرة على الحاضرين عنده. وعندما وجد بينهم ابنه، أغلق جفنيه، كما لو أن هذه النظرة كانت تجرحه، ثم وجَه نظراته إلى الكابيتان بك، وإلى نوبار(٣). ولكن كلاً من هؤلاء انسحب، تاركًا بطل نصيب «Nezib» لعناية أخته ونساء الحريم، بناء على توصية من الأطباء. وحوالي الساعة الثانية صباحًا، سُمعت ولولة نساء الحريم ترتفع بقوة. وكان ذلك بشير إلى النهاية. وبينما كانت مصر كلها تترقب موت محمد علي، كان الذي حدث، هو موت إبراهيم.

ويقول نوبار إنه في الساعة الثامنة صباحًا، كانت قاعة القصر تعج بالناس، ثم يضيف هذه الجملة المرعبة: « أي مسرةً كانت تظهر على الوجوه، وأي الأحاديث كانت تدور، بصوت عال، كما لو كانوا يتحدثون في ساحة عامة.

وفي اليوم نفسه، وتبعًا للقاعدة المفروضة في الـ « خطي - شريف، المؤرخ في ١ حزيران ١٨٤١ » التي تنقل الولاية إلى الحفيد المباشر الأكبر عمراً، لنائب الملك، انتقلت الولاية إلى يدي ابن أخيه، الذي هو حفيد محمد علي: أي عبّاس، ابن طوسون.

ولن يقول لنا التاريخ أي واحدة من هذه المصائب كانت الأكثر مأسوية لمصر وفي مصر: أتراها كانت الموت قبل الأوان، وغير المتوقع لإبراهيم، أو كانت انتقال الولاية إلى ابن أخي إبراهيم، حفيد محمد علي: أي عباس. وكان هذا يدع للمستقبل صورة الأمير المحدود عقلاً، والكسول، والمتعطش لكل ما هو لذات أو كمالي جداً. ولما كان الرجل معادياً للغرب وللحضارة الغربية، ويحتقر التقدم والتطوير، فإنه لم يحمل إلى وادي النيل إلا السخف واللا جدوي. وما كاد يستلم السلطة، إلا وكان أمره الأول، هو إعادة كل الأوروبيين إلى بلادهم، «أي إعادة المسيحيين الذين يكرههم». ثم أنه أمر بإغلاق مستشفى القاهرة، والمؤسسات الملحقة به، كمدرسة الطب، والأمومة ومدرسة التمريض التي تخرّج القابلات، ومراكز التطبيب، قاضياً بذلك، دفعة واحدة، على كل العناء الذي تكبده Clot. أما على مستوى التعليم العام، فإنه لا يعيره أي اهتمام. وعلى الرغم من أن مدارس كثيرة كانت قد حُذفت، فإننا نراه يُقلّل من عددها يومًا بعد يوم، كأنما خلق ليكون الصورة المعكوسة لجده، والقاضي على كل منجزاته.

وعندما كان الحفيد يقضي على تراث محمد علي، كان هذا يموت في قصره رأس التين. وكان وضعه قد وصل إلى حدود «اللا محتمل» بحكم التقرحات التي أصيب بها، وكان لا ينام إلا ساعة أو ساعتين. وعندما أخبر بموت إبراهيم، أجاب كما يقال: «كنت أعرف ذلك. لقد حبسني. وكان قاسياً عليَّ كما كان قاسياً على جميع الناس. وقد عاقبه الله، فأخذ روحه. غير أني أبوه، وعليَّ أن أصلّي وأتوسل إلى الله العليّ القدير أن يرحمه».

وفي ٢٨ تشرين الثاني ١٨٤٨، عندما جاءه حفيده عباس، ليقبّل يده، قبل أن يسافر إلى استانبول لتثبيت ولايته رسمياً من قبل السلطان، قال له جدُّه لقد لعنتُ إبراهيم لأنه حبسني، فأماته الله. فلا تفعل مثله معي، إذا شئت أن لا ألعنك، أنت أيضاً..» فهدأه عباس وقال له: كنت وستظل سيّدنا».

لكن هذا الصفاء العقلي الجزئي، يتضاءل يومًا بعد يوم. وجاء أحد المماليك الذين يتولون حراسته في غرفته ليؤكّد لنوبار باشا، أن نائب الملك فريسة أوهام يرى فيها نفسه على رأس جنده أحيانًا، مرغمًا جنود القيصر على التراجع تحت جدران استانبول، وأحيانًا يعيد لوي فيليب إلى عرشه.

وبعد تسعة أشهر، أي في ٢ آب ١٨٤٩، ظهراً، جاء الموت يقرع الباب على الفرعون الأخير.

وعندئذ نُقلت جثته إلى القاهرة، على ظهر مركب بخاري استخدم قناة المحمودية التي شُقت بأمر منه، قبل ما يناهز الثلاثين سنة، ثم سارت في النيل.

وفي ٤ آب. وضع نعش محمد علي، في مسجد القلعة حيث أراد هو أن يعيّن مكان قبره.

وقد تمّ الدفن، بلا موكب ولا مرافقة عسكرية: وهذا ما أمر به عباس.

الخاتمة

وفي ٢٨ آب من عـام ١٨٨٢ ، جـاء فـريق من الجنود الإنجليـز ، واحـتلوا السويس ، دون أن تطلق أية رصاصة .

وفي آخر أيلول ١٨٨٤ ، احتلّت مصر كلها . ولم يترك آخر جندي إنجليزي ، هذا القطر إلا يوم ١٨ حزيران من عام ١٩٥٦

وفي عام ١٨٨٥ ، احتلّت السودان ، بدورها ، ولم يعد إليها الاستقلال إلا يوم ١ كانون الثاني ، عام ١٩٥٦ .

وفي ٩ تشرين الثاني ١٩١٧ ، دخلت قوات الجنرال (اللواء) اللّنبي مدينة القدس ، ولم تغادرها إلا يوم ١٥ أيار عام ١٩٤٨ .

هوامش

الفصل الأول:

١ - مملوك ، كلمة تعني ما هو ملك فلان أو فلان. وتطلق عادة على أسرى الحرب ، فيشكلون عندئذ طبقة الموالي. وإن كن نساء، كن إماء. وهؤلاء الأخيرات، يحق لمالكهن أن يضاجعهن، فضلاً عن استيلادهن أبناءاً.

٢ - وقد أصبح المملوك، بعدئد، إنسانًا يُشترى، أو يخطف أو يُغرى به إلخ. وهذه الطبقة هي التي استطاعت، بعد انقضاء عهد الملك الصالح آخر الأيوبيين أن تحكم بهم مصر وسورية ، (سورية ومصر، زهاء ٣٠٠ سنة)، وظلّت تحكم حتى جاءها العثمانيون عام ١٥١٦ ثم ١٥١٧ فاختطفوا الحكم من أيديها وجعلوه لهم. وكان هذا الحكم يشمل البلاد العربية كلها، ما عدا المغرب، لفترة طويلة. إلا أن مصائر كل هذه البلاد انتهت إلى تحكم الإنجليز والفرنسيين، في كل المناطق، التي كانت تحكمها تركيا.

٣ - إن كلمة المماليك البحرية نشأت عن أن أول لواء مملوكي - كانت أكثريته تركية، وكانت تسكن على شواطئ النيل الذي يطلق عليه اسم بحر، لسعته وضخامته أما القسم الآخر المسمّى «المماليك البرجية»، فإن جماعته كانت تسكن القلعة (البرج) أو القصر.

٤ - بعد أن استولى العثمانيون على القسطنطينية عام ١٤٥٣ امتد حكمهم حتى إلى شمال البحر الأسود، ثم إلى الغرب حتى حدود فيينا والأدرياتيك، وحتى ما هو أمام مالطة، كما امتدت إلى الدول البربرية، حتى أصبحت شواطئ المتوسط، في أكثرها، تخضع لحكم الأتراك، وطبعًا باسم الإسلام.

٥ - إن هذا النوع من المرتزقة، الذي أسس في عهد مراد الأول (١٣٥٩ - ١٣٨٩)، كان يتألف من أطفال مسيحيين، انتُزعوا من أسرهم، وربّوا على الديانة الإسلامية. وكانوا يؤلفون جنود المشاة العتاة، الجيدي التنظيم. وبفضل هؤلاء امتد حكم الأتراك حتى حصون فيينا. وعندما جاء محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) قرّر تحديث جيشه، فثار عليه الانكشارية هؤلاء، فلم يترددِ السلطان في عقابهم عقوبة خشنة، وتابع إلغاء هذه المؤسسة.

٦ - ولُد شارل ما غالّون في مرسيليا عام ١٧٤١ وكان ممثلاً لشركة Bardon. استقر في القاهرة عام ١٧٧٥. وكانت زوجته فرانسواز المشتركة معه، تبيع في مصر شارات وشرائط، وأقمشة نادرة، أنتجت في المعامل الليونية (من ليون). وكانت ماهرة في إرواء حاجات الزينة لزبوناتها، ومن انفتحت لها أبواب العالم النسوي في القاهرة. وحصلت على مركز فريد فيه، وحتى لدى نساء العظماء. وبفضل ذلك أعفته السلطات الفرنسية من التحريم المترتب على التاجر أن يحمل معه زوجاته أو أبناءه إلى مكان عمله.

٧ - كان Rosetti متزوجًا من امرأة أرملة مات عنها زوجها يوسف البيطار «من طائفة الروم الكاثوليك. وكان في ديوان الجمارك في دمياط. وهو الذي هيأ لرجوع علي بك إلى مصر. وبحكم زواجه كان قريبًا جدًا من الطائفة الصاعدة أي الروم الكاثوليك. وقد لقبت هذه الطائفة أيضًا بمسيحيي السوريين اللبنانيين أو الملكيين، وسيكون أحد الأجانب المناهضين للوجود الفرنسي في مصر.

٨ - ولد في هامبورغ بتاريخ ٤/ ٣/ ١٧٧٤. ولم يكن عمره يتجاوز السابعة عشرة عندما حصل على قبول لويس السادس عشر لكي يكون أمين سر للمفوضية

لدى السيد Durocher الذي أرسله الملك إلى المغرب، وفي عام ١٧٩٩ كان بالتتابعُ موثق عقود في Sale وطنجة، ثم صار موثق عقود وترجمانًا، ونُقل في السنة التالية إلى قادس Cadix بدرجة نائب مفوّض للعلاقات التجارية. وصدر قرار من القنصل الأول (٧/ ٣/ ١٨٠٣) يسمّيه بنفس الوظيفة في دمياط. في مصر، ويُبحر في ١١ / ٥ في نفس الوقت مع دروفيتي الذي سُمِّي لمنصب الإسكندرية على المركب الذي يسمى Alcyon ووصل الرجلان إلى مصر في الأيام الأولى من شهر حزيران ١٨٠٣ - أنظر Douin، ماتيودوليسيبس المندوب العام في القاهرة (١٨٠٣ - ١٨٠٤).

٩ - وكان الأكثر أهمية، هم التجار جوزيف دوكلو J.Duclos وفيليكس منجين، كافيّه (Caffe. Felix Mengin) وكلود روايية Ctaude Royer. وكان هذا الأخير يمارس وظيفة طبيب في الإسكندرية.

١٠ - كانت كلمة Avanies تطبق على ابتزاز الأموال.

١١ - وقِّعت الامتيازات عام ١٥٣٦، من قبل السلطان سليمان القانوني وفرانسوا الأول. وكان هذا الاتفاق يمنح المواطنين الفرنسيين، (وكذلك أبناء الأمم الموضوعة تحت حماية فرنسا)، حق السفر بحرية في الإمبراطورية التركية العثمانية، والمتاجرة فيها، دون أي عائق. وكانت هذه الامتيازات تشتمل على أشياء أخرى. مثل القضاء القنصلي، بدلاً من القضاء العثماني. وكذلك تشتمل على الإعفاء من كل ضريبة. ثم شملت هذه الامتيازات، سائر الدول الأوروبية. وكانت تهب الأوروبيين، جملة، حصانة ضخمة إلى الدرجة التي جعلت أبناء الدول الأجنبية ينسون الفرق بين ما هو حق، وما هو غير حق.

١٢ - وكان اللقاء قد تمّ مرّةً أخرى بعد أشهر من التاريخ الأول، أي حوالي كانون الثاني عام ١٧٩٨. وقد استلهم الوزير الشيء الكثير من مذكرة Magallon، التي مضت حتى إلى نقله إياها إلى «التقرير المقدَّم إلى حكومة الإدارة Directoire

التنفيذية حول فتح مصر»، وأطلع عليها حكومته في ١٤ / ٢ / ١٧٩٨/ بطلب من بونابرت. وكان تاليران هو المشير الأساسي، بلا أدنى شك، في السياسة الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط.

١٣ - كان الفيلسوف الألماني ليبنز (١٦٤٧ - ١٧١٦) قدّم، أثناء وجوده في باريس، مشروعًا لاحتلال مصر، إلى لويس الرابع عشر، أملاً بجعله يتناسى حروبه مع هولندا وألمانيا. وإذا صدّقنا شهادة تاليران و Lauzun» فإن Choiseul ارتأى الشيء نفسه أيام لويس الخامس عشر، من غير أن يبدأ بتنفيذه.

١٤ - باللغة التركية: بائع، أو تاجر، باعة أو تجار.

١٥ - وفي ١٩ آب ١٧٩٩، أي قبل أربعة أيام من الإبحار إلى فرنسا، كتب بونابرت إلى كليبر الذي كان موجودًا يومئذ في دمياط، ليقول له: «ستتلقى رسالة يوم ٣ - ٤ فروكيتدور (٢٠ - ١٢ آب) سافر، أرجوك، سافر مباشرة لكي تزور شخصيًا مدينة الرشيد، إن عليّ أن أبحث معك قضايا هامة جدًا ...» والواقع أن بونابرت لم يكن ينوي قط أن يحترم موعده. وفي «٢١» مضى إلى الرحمانية، ويوم ٢٢ إلى بئر الغطاس» القريبة من الإسكندرية وفي ٢٣ منه، ركب البحر في الصباح.

١٦ - منقول من قبل Desgenettes، في C.la Jonquiere الحملة المصرية. خمسة أجزاء، ١٨٩٩ - ١٩٠٧ وهنري لورنس، كليبر وبونابرت IFAo، القاهرة ٣ أجزاء ١٩٨٨.

١٧ Laurens- ، ١٩٨٨ . ذكر سابقًا.

١٨ - قاعة مزينّة بمساند، كان يجتمع فيها مجلس السلطان، في أيام الإمبراطورية العثمانية، أو لنقل الحكومة التركية.

١٩ - Cabriel Honotaux. تاريخ الشعب المصري ٧ أجزاء. باريس ١٩٣٦.

٢٠ - نفس المصدر.

٢١ - Amiral، فريق.

الفصل الثاني:

١ - كان هذا الاسم ، بصورة عامة، قد أطلقه العثمانيون على جملة المناطق الأوروبية ، حتى منتصف القرن السادس عشر. لكن مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، أنشأ منطقة الروملي الشرقية، التي اتحدت عام ١٨٨٥ مع بلغاريا.

٢ - ملاحظة حول اسم محمد علي وكيف يجب أن يكتب بالحروف الأجنبية والعادة أن كل اسم ينتهي باللفظ I ، يُنقل إلى اللغات الأوروبية بالحرف Y. ولكن اسم محمد علي كتب دومًا ، في أيامه وبعدها، بحرف I فقط.

٣ - بول شي أوشيكس Paul chaix. رسائل من شاطئ النيل ، جنيف ١٩٠٨.

٤ - كلوت بك: عدة مذكرات، آخر الذكريات في الأكاديميات والمجتمع الطبي، مرسيليا، ١٨٦٤.

٥ - تاريخ محمد علي، محمد علي، نائب الملك ، مرسيليا ١٨٦٢

٦ - يجب أن نعرف أن السنة عند المسلمين تتألف من ١٢ شهراً كل منها بالتتالي ٢٩ يومًا أو ٣٠ ، وأن ٣٣ سنة غريغورية تقابل ٣٤ سنة هجرية.

٧ - تلقى الكونت دوبارديو من سليمان باشا نموذجًا من المدالية التي ضربت بمناسبة هذا التدشين. وكانت قد كتب عليها : محمد علي ولد في كافالا عام ١١٤٨ هـ. وحكم مصر. وقد أنشأ خدمة لمصلحة شعبه في العام الثالث والأربعين من حكمه، هذا السدّ. وكان هو الذي وضع حجر الأساس، يوم الجمعة ٢٣ ربيع الثاني في السنة نفسها. وأكثر من ذلك، وفي عام ١٩٤٩ ، نوى الملك فاروق إحياء الذكرى المئوية لموت جده الأول. ولما لم يتفق أحد على التاريخ الحقيقي لسنة ميلاده، فقد اصطلح على وضعه عام ١٧٧٠ ، وهو التاريخ الأكثر قبولاً. انظر. رحلات في الشرق من ١٨٤٠ و ١٨٥٠ باريس ، ١٨٥١ . وقد أكدّ هذا التاريخ أي ١٧٧٠ الأستاذ Massotالذي أنشأ أفضل كتاب حول محمد علي.

٨ - بول موريز . وثائق تاريخية . انظر : تاريخ محمد علي، القاهرة . ١٨٥٥ - ١٨٥٨ .

٩ - ترجمان مشتقة من العربية ، ترجمة .

١٠ - انظر كتاب Rene cattaui . حكم محمد علي . تقارير قنصلية القاهرة ١٩٣١ .

١١ - الملاحظة تدور حول معنى كلمة آغا . وجمعها أغوات . ومعناها غامض بعض الشيء، ويمكن أن تعني حسب الظروف كلمة السيد، والقائد العسكري وحتى رئيس الخصيان، والمعنى الأول هو السائد .

١٢ - اسم أطلقه البيزنيطون على آسيا الصغرى . وبدأ من عام ١٩٢٣ ، كان هذا الاسم يعني بصورة خاصة تركية آسيا (التي تشمل أرمينيا وكردستان) .

١٣ - عفاف لطفي، السيد مارسو Marsot : في كتابه مصر في عهد محمد علي . جامعة كمبريدج ١٩٨٤ .

١٤ - كلمة باشا تعني حكام مصر ، وأغلب الأحوال حكام كل المناطق الأخرى . وليس هذا اللقب بالذي يتُوارث . ويمكن أن نضيف ألـ التعريف لمخاطبة من يحمل هذا اللقب .

١٥ - يعود هذا التعبير إلى بداية القرن السادس عشر . وبالتعميم صار يستعمل للولاية على تركيا نفسها .

١٦ - غابرييل أنكيري : إبراهيم باشا (١٧٨٩ - ١٨٤٨) القاهرة عام ١٩٤٨

١٧ - هو صهر لينان بيلفون . وكان كوينغ قد وصل بحراً إلى مصر عام ١٨٢٢ ، لكي يتقن اللغة العربية . وهو مؤلف، ترجم ترجمات أهلته لكي يكون مشهوراً . يعرفه نائب الملك وقد عيّنه محمد علي معلماً لابنه سعيد .

١٨ - بريس وهامون : مصر أيام محمد علي ، جزءان ، ١٨٤٣ .

١٩ - رسّام وعالم الآثار. ولقد تابع دروس الرسام دافيد، وخدم بعض الوقت في الجيش، أيام حكم القناصل. وفي عام ١٨٠٩ مضى إلى روما، حيث كرس كل جهوده للفن. وعندما عاد إلى فرنسا، عيّن مديراً عاماً للمتاحف أثناء عهد رجوع الملكية. ونحن ندين له بتكبير متحف اللوفر، وبإنشاء متحف اللوكسمبورغ. وقد سافر بعدئذٍ إلى مصر عام ١٨١٨ حيث استقبله محمد علي عدة مرات. بل إنه حصل على إذن برسم صورة للباشا نقشت على المعدن فيما بعد، على يد هوراس فيرنيه. ثم إن الآنسة هارتليبن Hartleben، أخرجتها عندما نشرت كتاب ورسائل شامبوليون: انظر المكتبة المصرية، عام ١٩٠٩. وفي عام ١٨١٩ نشر قصة مغامراته في كتابه عن رحلته إلى الشرق، ١٨١٧ - ١٨١٨، باريس عام ١٨١٩.

٢٠ - السير شارل موري: مذكرة صغيرة عن حياة محمد علي ١٨٩٨ لندن.

٢١ - بول ميرويو P.Merruau. مصر المعاصرة، من محمد علي إلى سعيد باشا (١٨٤٠ - ١٨٥٧) باريس ١٨٥٨.

٢٢- لاتور رحلة صاحب الجلالة الملكية مونسينيور الدوق مونتبانسييه إلى تونس ثم إلى مصر، فتركيا واليونان باريس: ١٨٤٧.

٢٣ - رحلات ومغامرات في مصر، مع عدة قصص عن محمد علي، ٣ أجزاء. لندن ١٨٥٤.

٢٤ - جون بورنيغ، تقرير عن مصر وكانديا، مَوجّه إلى اللورد فيسكونت بالمرستون، لندن ١٨٤٠.

٢٥ - إن لقب بيك، بصورة عامة، كان يملكه كل المماليك التابعين للسلطان أو بعض كبار الموظفين.

٢٦ - إن الراقصات الشرقيات يصحبن دوماً ببعض الموسيقيين.

٢٧ - انظر مصدر BoWring مصدر ذكر سابقًا.

٢٨ - أي ٢٥٠٠ بارة. انظر في آخر الكتاب جدولاً بالعملات التي كانت قائمة يومذاك، والنسب التقريبية جداً التي كانت تقوم بينها.

٢٩ - انظر هنري ديهيران: السودان المصري أيام محمد علي. أطروحة للدكتوراه، قدّمت إلى كلية الآداب في جامعة باريس ١٨٩٨.

٣٠ - Linan de Bellefonds (لينان دوبيلفوند) بك. مذكرات عن الأعمال الأساسية ذات المنفعة العامة التي أنجزت في مصر. باريس ١٨٧٢ - ١٨٧٣.

٣١ - غير أنه مع توالي الأيام، أصبح المكان قصراً حقيقياً، مع حديقة النوفرة البيضاء. كان الأمر يتعلق بساحة مربعة مفتوحة على حوض، وكان بإمكان الزوار أن يدخلوا إليها من أربعة أبواب. ويطلق عليها اسم «Kiosque de la Fontaine» وكان حول الحوض أعمدة من الرخام، وبهو، على حين أنه كان يوجد في الزوايا أسود من المرمر ومن داخل النوفرة، كان يوجد أربعة أبهاء. وكان لكل منها طابعه الخاص. وعندما مات محمد علي، أهمل قصر الشوبرا. وفي عام ١٨٧٥ جف الحوض. وبقي على حاله، حتى الآن.

٣٢ - Bellfonds. مصدر ذكر سابقاً.

٣٣ - Forni. انظر كتابه الإيطالي اللغة، بعنوان رحلة إلى مصر وإلى أعالي النوبة ميلان: ١٨٥٩

٣٤ - ذكر لدى Goupil Fesquet، في تاريخه لرحلة أوراس فيرنيه، باريس.

٣٥ - فيليكس مانجان في تاريخ مصر أيام محمد علي بين عامي ١٨٢٨ - ١٨٣٨ باريس ١٨٣٩. ويقدم هذا الرجل شجرة عائلية، تخيلها هو، ويُسمي زوجة الباشا باسم «زلفا كلفا حنان». ويؤكد أنه يأخذ هذه المعلومات من أحد السواح، هو البارون Ruppel.

٣٦ - وبهذه المناسبة، نقول إنه انتشرت إشاعة تجعل إبراهيم ابنًا جاء من الزواج الأول لأمينة. وهذه الإشاعة، التي استعادها مؤلفون من نوع جول بلانا، مما كان يقال عام ١٨٤٦ في حلقات من مريدي عباس، ابن أخي إبراهيم، والأول بين خلفاء العرش، بقصد إيذاء إبراهيم، وحجب مشروعية خلافة إبراهيم. لكن هذه الإشاعة غير صحيحة. ذلك أن محمد علي كتب عدة مرات إلى السلطان، يؤكد فيها أن إبراهيم هو ابنه الأكبر. ثم إن الشبه الكبير بين الأب وأبيه، يدحض نهائيًا هذه الفرضية.

٣٧ -أنظر مارسو Marsot. مصدر سبق ذكره.

٣٨ - رسالة من Saint Marcel، نائب قنصل فرنسا في الإسكندرية إلى الدوق Bassano، وزير الشؤون الخارجية، بتاريخ ٣٠ أيار ١٨١٢، في وثائق الشؤون الخارجية، قسم الرسائل السياسية، مصر ١٨٠٣ -١٨٤١.

٣٩ - زوجة محرَّم بك، ماتت عام ١٨٣٠، عن عمر يناهز الثالثة والثلاثين.

٤٠ - زوجة لمحمد بك الدفتر دار، وماتت بعد عشر سنوات تقريبًا من موت محمد علي عام ١٨٦٠، وكان عمرها ٦١ سنة.

٤١ - الرابعة من بناته التي تحمل نفس الاسم (أما الثلاث الأخريات فمتن وهنّ صغار). وهذه ماتت في التاسعة والخمسين من عمرها. وكانت قد زوّجت للوزير الأعظم، يوسف كمال. وقد فارقته نهائيًا عندما فاجأته بالجرم المشهود مع إحدى الإماء.

٤٢ - R.R.Madden مادين. في: رحلات إلى تركيا، ومصر، والنوبة، وفلسطين. في جزئين لندن عام ١٨٢٩

٤٣ - وكان كادالفين واحدًا من رجال الأعمال. وقليل جدًا ما نعرفه عنه. وقد جاء إلى مصر عام ١٨٢٩ بصحبة صديقه J.de Breuvery. وبعد أن مضى إلى

أعالي النيل، استقر على مايبدو، في القاهرة ، لعدة سنوات كمراسل لمصرف فرنسي . وهو سائح ذو ضمير وقد أرّخ لرحلاته وإقامته في مصر في كتاب تعاون فيه مع بروفيري نشر بعنوان : مصر وبلاد النوبة . جزءان ، باريس ١٨٤١ . وقام كادلفين بالتعاون هذه المرة مع واحد من جماعة سان سيمون اسمه E.Barrault ، بكتابة : تاريخ حرب محمد علي ضدّ الباب العالي وصف فيه المراحل الأساسية للصراع التركي المصري (١٨٣١ - ١٨٣٣) باريس ١٩٣٧ .

٤٤ - كادالفين وبارّو . مصدر سابق .

٤٥ - نفس المصدر .

٤٦ - هذا رجل أرمني ، ولُد في إزميـر عـام ١٨٢٥ ، وربي في فرنسا وسويسرا . وكان اسمه نوباريان باشا ، ودعاه خاله بوغوص يوسفيان (أو هو عمه على الأرجح) إلى مصر وكان وزيراً لمحمد علي ، وترجمان إبراهيم وأمين سرّه الخاص ثم لعباس . وأصبح فيما بعد مديراً للخدمات (في السكك الحديدية) . وكثيراً ما كان يُمثل إسماعيل في أوروبا . وتدين مصر له ، بإنشائه محاكم مختلطة (عام ١٨٧٥) . وقد نشرت مذكراته مع مقدمة وملاحظات على يد ميّرى بطرس غالي .

٤٧ - نشوء إمبراطورية محمد علي من الجزيرة العربية إلى السودان (١٨١٤ - ١٨٢٣) الجمعية الوطنية لجغرافية مصر . رسالة من بيلفون إلى أمين سر الدولة للشؤون الخارجية . ١٧ / ١ / ١٨٢٠ . ذكرت من قبل E.Driault .

٤٨ - Marsot مصدر سبق ذكره .

٤٩ - G.Douin . الحرب الأولى لسورية ، صلح كوتاهيا ، مراسلات قناصل فرنسا . القاهرة ١٩٣١ .

٥٠ - Enkiri مصدر سبق ذكره .

٥١ - وفيما يرى الأستاذ مارسو، في المصدر المذكور، فإن أحد أصدقائه الأرمن اسمه Aghiazar هو الذي أقرضه المال الضروري لسفره. ولكن محمد علي هو الذي دفع له قيمة هذا القرض كنوع من عرفان الجميل عندما سمّي الأرمني كموظف رسمي في الآستانة.

٥٢ - هو واحد من أوائل رسامي محمد علي، عاش في مصر ثلاث سنوات وعرف البلد بطولها وعرضها، وتمكن من الحصول على بعض الشهادات من النوع الذي لا يمكن إهماله. وعلى الرغم من أن المؤسسات كانت في ذلك الحين شديدة التخلف، فإن تحليلاته، مهما يكن رأي النقاد، تحليلات تتحيّز بعض الشيء لنائب الملك. انظر كتاب: تاريخ محمد علي، خمسة مجلدات. باريس. ١٨٥٥ - ١٨٥٨. ثم إن المجلد الخامس يشتمل على الوثائق التاريخية. مصدر سابق.

٥٣ - كان الحاكم يُمنح لقب باشا، وهو يُسمّى لوظيفته لمدة سنة قابلة للتجديد

الفصل الثالث:

١ - عندما علم Menou أن الأسطول البريطاني - العثماني، كان يُرى من الشواطئ المصرية، لم يجد ما هو أفضل من التصريح بما يلي: ليس لنا أن نخاف من شيء. وهذا آخر جهد يبذله الإنجليز. والحقيقة هي أن الله هو الذي يقود الجيوش، ويكتب النصر لمن يشاء. وسيسبق سيف ملاكه المتألق جماعة الفرنسيين دوماً، ويقضي على أعدائهم. أنظر الجبرتي ٢٠ شوال ١٢١٥ هـ (٥ آذار ١٨٠١) عبد الرحمن الجبرتي في كتابه: عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٩) أجزاء القاهرة ١٨٨٦ - ١٨٩٦

٢ - هنري لورانس. حملة مصر، ١٧٩٨ - ١٨٠١ باريس ١٩٨٩.

٣ - يقابل رتبة الميجر. أما المعنى الحرفي فهو قائد ألف جندي.

٤ - ولأسباب لا نفهمها، كان هذا الرجل، المسؤول الأول، عن هزيمة جيش الشرق. وضياع مصر، يحتفظ حتى موته، برضى بونابرت، الذي كان يعهد إليه

بمهام إدارية في إيطاليا، ويحذر ، لصفاء عقله، أن يُسلِّمه أدنى المسؤوليات العسكرية شأنًا.

٥ - إن اللقب غير واضح. ربما كان نوعاً من السوبر ماجور.

٦ - كادالفين وبارو . مصدر ذكر سابقًا.

٧ - كان الحكام ، في مصر، منذ العهد التركي، حيثما كانوا، يحملون لقب بيلر بك. ولكن عندما جاء محمد علي، لم يعد الأمر كما كان. وكان لقب الميرميران، الذي يعادل بيلر بك سابقًا، قد فقد اعتباره وأهميته، وقُصر على حكام المناطق المحدودة، كالإسكندرية مثلاً. أما في عهد محمد علي، فإن قواده (الألوية) يحملون هذا اللقب، إلا أنه كان يُقصر على الابن الأول لنائب الملك، وشخصيات أخرى. أما لقب نائب الملك، فإنه لم يفرض نفسه نهائيًا إلا في عام ١٨٦٧ وهو تاريخ الفرمان الذي كان الباب العالي يعترف فيه، بلقب الخديوي لإسماعيل باشا. ثم عرفت الألقاب بعد ذلك نوعًا من التقلب في البروتوكول المصري . انظر Jean Deny : القاهرة ١٩٣٠ . خلاصة الوثائق التركية.

٨ - Mouriez مصدر سبق ذكره.

٩ - وُلد البرديسي في سير كاسيا. وكان رجلا مدهشًا، قصير القامة ، لكنه ذو بأس شديد. . لقد كان فارسًا خبيراً بشؤون الحرب، وقام بأعاجيب في معركة الأهرامات. وتبع مراد بك في الصعيد، وشاركه في مصائبه، واستُخدم في كل المفاوضات التي كانت تقتضي روحًا جازمة، وقلبًا مخلصاً.

١٠ - جيء به إلى القاهرة عام ١١٨٩ هـ. (١٧٧٦ - ١٧٧٧) على يد أحد التجار، وباعه ، في أول الأمر، لرجل اسمه أحمد شاويش وعرف بلقبه «المجنون». وبعد فترة قصيرة بيع إلى سليم آغا الغزوي، وبعد قليل من الأشهر باعه هذا إلى مراد بك، مقابل ألف أردب من الحبوب. ومن هنا جاءه لقب « الألفي».

١١ - وعند وصول الجيوش الفرنسية إلى مصر. كان يحكم مصر مع مراد بك. وعلى حين أن مراد بك، الأكثر جرأة، كان يتابع المعركة بعناد وجلد، ضد الفرنسيين، كان إبراهيم يهرب إلى سورية، منذ الأيام الأولى التي دارت فيها الدائرة على المماليك (إمبابة٢١ / ٧ / ١٧٩٨). وعندما عاد إلى القاهرة بعد رحيل الفرنسيين، لم يستطع رغم كل الجهود التي بذلها، استعادة السلطة التي خطفها منه محمد علي. وعندما خاب أمله واشتد حذره من هذا الأخير. انسحبَ إلى بلاد النوبة، وأنشأ هناك معسكراً، على مقربة من دنقلا، وصار يزرع الذرة، ويتغذى بها، ويلبس ثياب الباعة المحليين. ومات عام ١٨١٦.

١٢ - جورج دوان ومدام Jones- Fawtier، في كتابهما إنكلترا ومصر وسياسة المماليك ((١٨٠١ - ١٨٠٣) IFAo، القاهرة ١٩٢٩.

١٣ - الكونت هوراس دوسيباستياني (١٧٧١ - ١٨٥١). وسيكون سفيراً في استانبول، وماريشال فرنسا ووزُير الشؤون الخارجية، أيام لوي فيليب.

١٤ - رسالة حول أوضاع مصر، في Cattaui ١٩٣١ ونحن نسميه هنا قطاوي مصدر سابق.

١٥ - نفس المصدر.

١٦ - إن هذا العنوان يعطي الحق بشيء من الاحترام، من طبيعة دينية، وليست أرستقراطية. كان له تأثير كبير في الشعب العادي.

١٧ - مراقب عام للمالية.

١٨ - الجبرتي. عالم ومؤرخ للأحداث التي كانت تجري في عهده. وكان قد ولد عام ١٧٥٣. ولا يعرف أي شيء واضح عن حياته الشخصية. وقد لجأ، على مثال عدد من الوجهاء إلى الريف، عندما جاءت الحملة الفرنسية ثم عاد من الريف بعد فترة قصيرة، بالاستناد إلى وعود بونابرت بأن يحسن استقبالهم. ولا يبدو أن

نابليون أو كليبر، قد عرفاه. وبالمقابل فإن مينو يختاره كي يكون واحداً من تسعة أعضاء في الديوان الثالث الذي أنشأه الفرنسيون. وكان واضحاً أن الجبرتي لا يعنيه، في العمر (٤٥ سنة) الذي هو فيه، أن يتعاون مع المحتل وبقي، بعد رحيل الفرنسيين، شديد التحفظ تجاه محمد علي، الذي يبدو بوضوح أنه لا يشعر تجاهه بأي ودّ. غير أن السنين الأخيرة من حياته كانت محزنة، بسبب ما أصيب به من العاهات: كان مريضاً، وأعمى. ووقف عن كتابه التاريخ عام ١٨٢١. وفي السنة التالية جاءته مصيبة كبرى، وهي أن ابنه خليل وُجَد مخنوقاً لا يعرف أحد من اقترف الجرم. وكان ذلك يوم ١٩ / ٦ / ١٨٢٢، في مخرج قصر محمد علي. ولم يستطع الجبرتي أن يتحمل طويلاً هذه المصيبة، فمات إما عام ١٨٢٥ أو ١٨٢٦.

١٩ - أمين الصندوق.

٢٠ - انظر Edouard Gouin، (إدوار غوان) في كتابه: مصر في القرن التاسع عشر، باريس، ١٨٤٧.

٢١ - ويكتب الجبرتي بدقة كبيرة ما يلي: «إن كل هذه الأحداث لم تكن إلا مؤامرت شيطانية من قبل محمد علي، ضد خسرو باشا، وقضت، على سلطته فيما بعد، بعونٍ من طاهر باشا والأرناؤوط. وقد انقلب فيما بعد على هذا الطاهر، وقضى عليه بدوره، بمعونة الأتراك».

٢٢ - إلى وزير العلاقات الخارجية، الرسالة ٢٧/ ٥/ ١٨٠٣ في كتاب القطاوي عن «العلاقات القنصلية.

٢٣ - قائم مقام العقيد، أي وكيل الوالي.

الفصل الرابع:

١ - غابرييل غيمار G.Guemard. الإصلاحات في مصر. في عهدي علي بك الكبير، ومحمد علي. القاهرة. ١٩٣٦.

٢ - من اللغة التركية، حيث تعني كلمة da'i (العم أو الخال). وهو لقب للتشريف لحاكم (والي) الولايات البربرية.

٣ - وتعني هذه الكلمة « جزءاً من المجال الملكي، يمنح للأمير تعويضاً عن إبعاده عن العرش. ولكن في هذه الحالة الخاصة، كانت تعني شراء ولاء البيك بإعطائه دخلاً معيناً.

٤- Gouin (غوان)، ١٨٤٧، في المصدر الذي ذكر سابقًا، يذكر أن الجزائري تلقى الضربة الأخيرة لليتاغان أي السيف دون التلفظ بأية لعنة ». وقدَّم لقاتليه إزار الموت (الكفن) الذي كان يحمله معه طوال حياته، ورجاهم أن يَمنّوا عليه بالقبر. الياتاغان، كلمة تركية، معناها: السيف الحاد).

٥ - الجبرتي. عام ١٢١٨ هـ. (١٨٠٤ م).

٦ - إن هذا الرقم أخذ من إحصاء جرى عام ١٨٤٦. وهو دون ذاك الذي يجده الإنسان في كتاب: « وصف مصر (٢٦٣٠٠٠) ويُعلّل هذا الهبوط الديمغرافي، بالأوبئة التي لا حصر لها، كالطاعون. وكان طاعون ١٨٣٥ قد سبب الموت لـ ٥٠٠٠٠٠ شخص. والكوليرا أي الهواء الأصفر قضى على ١٨٠٠٠٠ عام ١٨٣١ ويضاف إلى هذا من يُستدعى للتجنيد الإجباري، والسخرة، والعمل الإجباري. كل هذه كانت تؤدي إلى خسائر بشرية ضخمة. انظر كتاب أندريه ريموند، عن: القاهرة/ باريس ١٩٩٣.

٧ - انظر حول هذا الموضوع كتاب أندريه ريموند الرائع، بعنوان: التجار والصناع في القاهرة، في القرن الثامن عشر من جزئين، المعهد الفرنسي دمشق ١٩٧٣.

٨ - ملاحظة بلا قيمة حول كلمة العلماء كجمع للعالم.

٩ - إن الشيخ شمس الدين محمد أبو أنور بن السادات، كان من أبرز الشخصيات في ذلك العصر. ولما كان رئيسًا لبني الوفاء، منذ عام ١٧٦٨ كان يعامل الآخرين بكبرياء واحتقار. ويقدّم الجبرتي وصفًا له، لا يحب الرجلُ الموصوف أن يقرأه. « إنه قاسٍ، فظيع، على الآخرين، يحيك المؤامرات، ويغرم بالثروات والتكريم». ومات عام ١٨١٣.

١٠ - عفاف لطفي السيد مارسو. انظر الكتاب: دور العلماء في مصر في أوائل القرن التاسع عشر. القاهرة ١٩٦٩. الكتاب لغته إنجليزية.

١١ - المحروقي. نقيب الباعة في مصر. وكان قد سمّي من قبل بونابارت كعضو في الديوان. وعندما ثارت القاهرة ثورتها الكبيرة، انحاز الرجل إلى العثمانيين، ولم يخف عداءه السافر للفرنسيين. وقد اشترك بقوة في السياسة المحلية، فيما بعد، وأصبح مع القبطي الجوهري، كمدير لشؤون العاصمة، في حكومة محمد علي. وقد مات فجأة يوم ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٠٤. واحتُفل بجنازته احتفالاً ضخماً. انظر الجبرتي.

١٢ - في ٢٠ حزيران ١٨٠٣، في القطاوي ١٩٣١. سبق لنا ذكر المؤلف.

١٣ - الجبرتي، كتابه نفسه.

١٤ - كان كممثل للحكومة في المقاطعات. وهو يشبه المفوّض المحلّي.

١٥ - ذكره الجنرال ويغان في كتابه: التاريخ العسكري لمحمد علي، وأبنائه. مجلّدان، باريس، ١٩٣٦.

١٦ - كان الثمن المتوسط للأردب، ٢٤ بارة. لكن هذا الثمن لا ينقطع عن التغير، وقد يصل أحياناً إلى ٥٠٠ بارة. وكان هذا الارتفاع الدوري في الأسعار يُعزى إما إلى مستوى فيضان النيل، وإما للمصاعب المالية، لدى الدولة. انظر Andre Raymond عام ١٩٧٣. وقد ذكر هذا المصدر سابقاً. ولكي نقابل أو نقارن بين الأوزان والمقاييس، يجب أن نقرأ ما ورد هنا في آخر الكتاب.

١٧ - «إن الخوف الذي تملك نفوسهم أو قلوبهم، زال، وباركوا عثمان بك البرديسي».

١٨ - من ليسّيبس إلى تاليران، لدى القطاوي. مصدر سابق. ١٩٣١.

١٩ - الجبرتي. نفس المصدر

٢٠ - مراكب كبيرة للشحن على سطح النيل

٢١ - ولُد دروفيتي، في باربانيا في منطقة تورينو، يوم ٧/ ١/ ١٧٧٦. وبعد أن درس دراساته الكلاسيكية، في عاصمة البييمونت، حصل على إجازة في الحقوق وعمره ١٨ عاماً. ولكنه أهمل ممارسة هذه المهنة، لكي ينخرط في الجيش في عمر العشرين. في الميليشيا المدنية لتورينو، أول الأمر، ثم في الجيش الفرنسي. وقد شارك في الحملة على إيطاليا. وبعد أن تميّز في جملة من الأعمال العسكرية، وَجَد من يعينّه ملازماً ثانياً يفرزَ ُلأركان القوات الآلية. وبعد معركة مارانجو، حيث جرح جرحاً بليغاً في يده اليسرى، رفّع إلى مرتبة ضابط للحرب في حكومة بييمونت، ثم إلى مرتبة رئيس سريّة. وفي ٢٢/ ٥/ ١٨٠٦ صدر أمر إمبراطوري، يسميّه، نائب قنصل عام في الإسكندرية وقد قام بدور حاسم، لدى محمد علي، وترجم له جاك فيختر، بدراسة واسعة. في كتابه: حصاد الآلهة. باريس ١٩٩٤.

٢٢ - Douin. ١٩٢٦، سبق ذكره.

٢٣ - قوارب شراعية لحمل السياح فوق النيل.

٢٤ - الجبرتي، مصدر مذكور.

٢٥ - بتاريخ ١٠/ ١٢/ ١٨٠٤، يلاحظ في كتاب القطاوي ١٩٣١.

٢٦ - فرمان وجّه إلى محمد علي، وجملة من القادة العسكريين في ٢٦/ آذار ١٨٠٥، انظر Rene و G.cattaui، باريس ١٩٥٠.

٢٧ - وكان سلاحهم سيفاً، ومسدّسين، وبندقية قصيرة وكانت رؤوسهم تغطى بشبه أسطوانة من الفوتر (اللبّد) الأسود، بطول ١٠ أباهم، بلا أطراف، وتربط بالرأس برباط من القماش الأسود الملفوف حول رؤوسهم.

٢٨ - إلى تاليران. لدى Douin، ١٩٢٦. مصدر سابق.

٢٩ - نفس المصدر.

٣٠ - نفس المصدر.

٣١ - نفس المصدر .

٣٢ - ضريبة عقارية .

٣٣ - دووين Douin، ١٩٢٦ . م . س .

٢٤ - يشير الجبرتي إلى أن محمد علي، رفض الذهاب إلى القلعة لإعلان تسميته واليًا ولا شك أنه حذر من ذلك .

٣٥ - دوان ١٩٢٦ . م . س

٣٦ - دوان . ١٩٢٦ . م . س

٣٧ - حول التاريخ الذي سمّي فيه محمد علي، انظر جان ديني Deny، وهو مصدر سابق . وعنده أن تاريخ ١٨ حزيران المقدَّم من قبل الجبرتي، كان في الحقيقة تاريخ الفرمان المرسل من الآستانة . ويخلص ديني إلى أن تعيينه من قبل العلماء، حدث على أرجح الظن بين ١٢ - ١٣ أيار، أو يوم ١٧ أيار على أبعد تقدير .

٣٨ - الجبرتي . م . س .

٣٩ - كان ممثلاً في القاهرة ، للقنصلية العامة، أي في بداية الإمبراطورية، ثم أيام عودة الملكية بعد نابليون، أثناء وزارة شاتوبريان . ونحن لا نملك إلا القليل من الأوراق الموقَّعة باسم Mengin . لكن أكثر الأخبار المرسلةمن دروفيني، حول أحداث القاهرة . حتى القضاء على المماليك، كانت من صنع هذا الموظف الثانوي .

٤٠ - الجبرتي . نفس المصدر .

٤١ - وفيما بعد، رُفّع إلى باشوية حلب، وسيطرد منها من قبل السكان ويقطع رأسه .

٤٢ - Mouriez . نفس المصدر .

الفصل الخامس

١ - مجموعة فرمانات الإمبراطورية العثمانية الموجهة إلى الولاة أو الخديويين في مصر ١٥٩٧ - ١٩٠٤ . إنما جمعت بأمر من الملك فؤاد الأول، ملك مصر (إدارة الأملاك الخاصة والقصور الملكية).

٢ - نفس المصدر.

٣ - كان ذلك أيضاً فكرة السفير البريطاني في استانبول، عندما كتب إلى وزيره، شارل جيمس فوكس، بتاريخ ٦ حزيران ١٨٠٦ ، من آربوتنو إلى فوكس ، في روني والقطاوي.

٤ - دوان ١٩٢٦ .

٥ - علي بك والعباسي : رحلات في أفريقيا وآسيا خلال الأعوام ١٨٠٣ - ١٨٠٤ - ١٨٠٥ - ١٨٠٦ - ١٨٠٧ . ثلاثة أجزاء باريس. المطبعة الملكية . ١٨١٤ .

٦ - كان يومئذ مفوّضاً عاماً للعلاقات التجارية في حلب.

٧ - قطاوي ١٩٣١ . نفس المصدر.

٨ - جون مورّي Narrativ of a journey in Egypt and the country beyond the cataracts. London, 1816 حديث سياحة في مصر وإلى ما وراء الشلالات لندن ١٨١٦ .

٩ - انظر الكتاب الثمين الذي ألفه Amaury Faivre d'Arcier. بعنوان رجال نابوليون في مصر. (١٨٠١ - ١٨١٥). مركز الدراسات النابوليونية. ١٩٩٠

١٠ - Gouin ١٨٤٧ . م . س

١١ -رسالة مرسلة من الإسكندرية ، ٢ / شباط ١٨٠٧ Douin، م . س

١٢ - الجبرتي. م . س

١٣ - الجبرتي . م . س .

١٤ - آربوتنو Arbuthnot a. Fox . انظر Rene et G.cattaui . م . س .

١٥ - الجبرتي . م . س .

١٦ - نفس المصدر

١٧ - C.Douin et Mme Fawtier Jomes م . س

١٨ - نفس المصدر

١٩ - نفس المصدر

٢٠ - نفس المصدر

٢١ - الجبرتي ، م . س

٢٢ - دوان والسيدة فوتييه - جونس . م . س

٢٣ - نفس المصدر

٢٤ - Douin ١٩٢٦ . م . س

٢٥ - كان الأميرال Lewis قد مات قبل بضعة أيام . بسبب حمى خبيثة . ونقل جثمانه إلى إنجلترا طبعًا لرغبته ، في برميل من مشروب الروم .

٢٦ - يوميات « السير جون مور » ، نشر على يد لواء J.F.Maurice، ثلاثة مجلدات لندن .

٢٧ - دوان ١٩٢٦ . م . س .

٢٨ - المصدر نفسه .

٢٩ - المصدر نفسه .

الفصل السادس

١ - مقياس المساحة الزراعية ٤٢٠٠ متر مربع تقريباً .

٢ - الزراعة الريفية

٣ - اسمه الحقيقي جان اسحاق لويس جول . من مواليد جنيف . وقد سافر إلى مصر ، بدعوة من محمد علي ١٨٣٩ . انظر الكتيب الذي أنشأه أنور لوقا : رؤية أوروبية لمصر الزراعية في القرن التاسع عشر ، لجون نينيه ١٨١٥ -١٨٩٥ .

٤ - Mouriez . مصدر سابق

٥ -Guemard . م . س

٦ - إدوار دريـــو Driaulr . مـصـر وأوروبا ، ١٨٣٩ - ١٨٤١ . ٥ أجـزاء I.F.A.O، القاهرة ١٩٣١

٧ - المقصود هنا بلاد أفريقيا الشمالية - الجزائر - تونس ، التي كانت تحت السيطرة العثمانية . وبعد عام ١٥٨٧ ، رُدّت الجزائر إلى مستوى الولاية ، يديرها باشا بسيط ، لمدة ثلاث سنوات . ومنذ عام ١٦٧١ صار الولاة يختارون من الأوجاق . وكانوا في البداية يختارون من قراصنة البحر . ثم بدؤوا يُختارون من قادة الجيش . وكان السلطان يكتفي بالموافقة على اختيار الداي كرئيس لمحمية الجزائر . وكان هؤلاء يملكون ، ضمنياً ، كل السلطات . وكانوا أكثر استقلالاً من الحكام أو الولاة المعيّنين لمصر .

٨ - إن الأرقام غير دقيقة . ويحصي الجبرتي ٤٠ اسماً . ولكنه يلاحظ فوراً بأن القائمة ليست مكتملة .

٩ - Fiechter م . س . وهذا يقدم لنا صورة أخرى : « فأمين بك كان قد ترك القاعة ، قاعة الاستقبال ، بعد أن انقلب فنجان القهوة على لباسه لعدم الانتباه . وقد اعتقد أن حادث فنجان القهوة يشير إلى سوء الطالع ، وقرّر ترك الاجتماع . . »

١٠ - السنة الثانية . رقم ٢٦ .

١١ - موسكو MusKau . م . س . أما فيختر (م . س) فقد كتب يقول : سليمان آغا الحذر ، ترك الموكب في ساحة الروملي ، لكي يختبئ في قبر السلطان حسن . وقد عفا عنه محمد علي . وأصبح أمين سرّه .

١٢ - ولكي ينتهي السلطان من هذا الجيش الذي كان يتميّز بوقاحته الغريبة ، وعدم تقيده بالنظام . أمر بإعدامهم : وقد قطعت رؤوس أكثر من ٦٠٠٠ رجل بحدّ السيف في بضع ساعات .

١٣ - وبعد عشرين سنة ، خلال محادثة دارت بين نابليون ، و O,Meara (طبيبه) حول حصار يافا ، قال نابليون : « أمرت بقتل عدد يتراوح بين ألف وألف ومئتين من السجناء ، قبض عليهم في العريش ، وكانوا استسلموا ، ثم عدنا فوجدناهم في يافا وسلاحهم بين أيديهم . وعفونا عن الباقين ، الذين كان عددهم كبيراً جداً . وهذا شرح لا أساس له . فقد وجد فعلاً في ثكنات يافا بعض المدافعين عن العريش ، الذين لم يلتزموا بتعهداتهم . ولكن عددهم كان يتراوح بين الـ ٣٠٠ والـ ٤٠٠ رجل .

الفصل السابع

١ - مات عبد الوهاب عام ١٧٤٠ ، وخلفه ابنه محمد .

٢ - القطاوي . محمد علي وأوروبا . باريس ١٩٥٠ .

٣ - انظر صبري : الإمبراطورية المصرية أيام محمد علي ، والمسألة الشرقية (١٨١١ - ١٨٤٩) ، باريس ، ١٩٣٠ .

٤ - نفس المصدر .

٥ - ١١٢٣ كغ .

٦ - دوران فييل Durand viel . الحملات البحرية لمحمد علي . باريس ١٩٣٥ .

٧ - نفس المصدر .

٨ - غوان Gouin . مصدر سابق .

٩ - صبري ، م . س .

١٠ - نفس المصدر .

١١ - Mouriez . مصدر سبق ذكره .

١٢ - انظر الكتاب : سنة من الرحلات في الجزيرة العربية الوسطى (١٨٦٢ - ١٨٦٣) . ترجم عن الإنجليزية بيد E.Jouveaux، في جزأين . باريس ١٨٦٦ .

١٣ - أو كيايا Kiaya . وهذه وظيفة تشبه في فرنسا وظيفة ضابط يشرف على منطقة ما ويقوم بوظيفة القضاء ، باسم الملك .

١٤ - إلى الدرجة التي كثيراً ما حملت الناس على فهم ، أنه هو شخصياً ، أشار إلى محمد علي ، بفكرة المذبحة يوم ١ / ٣ / ١٨١١

١٥ - الجبرتي .

١٦ - تاريخ انبعاث مصر ، باريس ١٨٣٠

الفصل الثامن

١ - E.Driault، ١٩٢٧ . مصدر سابق

٢ - وإنه لأكثر من مرجح أنه أدعى بأنه ضابط سابق في الجيش الفرنسي . ويقال إنه مات عام ١٨٦١ في الخرطوم ، انظر غيمار ، . س .

٣ - يذكر روسيل بعض مقتطفات من رسائله الموجهة إلى الدوق دوريشليو المرسلة بتاريخ ٢٥ / ٤ / ١٨١٧ و ٢٩ كانون الأول عام ١٨١٨ من الجزيرة العربية عن طريق ، Vaissiere، E Driault١٩٢٧ وهذا مصدر ذكر سابقاً .

٤ - مصر ، مجموعة من العالم الرائع . وقد وُجدَ من يعزو أبوّة هذا الكتاب إلى J.J. Marcel المستشرق . بيد أن الأمر يتعلق في الواقع ، بكتاب ذي حجم

ضخم، كُتب بالتعاون مع الآخرين: أما القسم الأول المتصل بالعهدين العربي والتركي، فإنه يعود إلى هذا المؤلف. أما القسم الثاني، المتصّل بالحملة الفرنسية، فهو من صنع A.Ryme. وأما القسم الثالث المتصل بحكم محمد علي، فإنه يخصُّ H. Priss d' Avenne، وHamont، بمساعدة Aline Raffeneau- Delile.

٥ - جول بيانا Pianat في كتابه عن تاريخ بعث مصر. باريس: ١٨٣٠.

٦ - تاريخ مصر في عهد محمد علي. جزآن، باريس ١٨٣٠ - ١٨٣٦.

٧ - يعني الحق بأن يُحمل أمامه، لا اثنتان، بل ثلاث خصل من شعر رقبة الحصان.

٨ - صبري. مصدر ذُكر سابقًا.

٩ - E.Driault. نشوء إمبراطورية محمد علي، من الجزيرة العربية إلى السودان. القاهرة ١٩٢٧

١٠ - نفس المصدر.

١١ - صبري.

١٢ - نفس المصدر.

١٣ - E.Driaulr، تاريخ ١٩٢٧.

١٤ - إن هذا الاتفاق، يقررّ - بين أشياء أخرى، أن لكل بريطاني يقوم بالتجارة في موكا Moka، الحق بحماية العلم الإنجليزي وأن الرسوم المفروضة على التصدير والاستيراد الإنجليزيين تكون ٢٥, ٢٪ بدلاً من ٥, ٣٪. الوثائق الإنجليزيةFo78.Vol.103، رسالة من السيد Bruce إلى السيد Henri salt يوم ١٠ كانون الثاني (يناير)، ١٨٢١.

١٥ - Viel. مصدر ذكر من قبل.

الفصل التاسع

١ - سويسري الأصل. وقد اعتنق الدين الإسلامي وسمّي باسم إبراهيم بن عبد الله. ولما كان يملك الثقافة الإسلامية، فإنه يتماهى كل التماهي مع المصريين.

٢ - Guemard (غيمار) . مصدر ذكر سابقًا.

٣ - يتغيّر عددهم بين ما يقرب من ٨٠٠٠ في نهاية القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر. ليبلغ ١٢٠٠٠ خلال حكم سليمان القانوني، و ٢٦٠٠٠ في نهاية القرن السادس عشر، و ٥٥ ألف عام ١٦٥٣، ثم يهبط إلى ٣٠ ألف في السنين التالية، ليصعد من جديد إلى ٧٠٠٠٠ عام ١٧٠٠، ثم ما بين ٣٥ حتى ٦٥ ألف في بداية القرن التاسع عشر.

٤ - انظر : Deherain. مصدر سابق.

٥ - ويرى Vaulabelle، أن الجيش المصري كان مؤلفًا من كتائب مدفعية، فيها ٣٥٠٠ رجل من المشاة والفرسان، منهم ٨٠٠ من العرب، من قبائل مختلفة: «التاريخ العلمي والعسكري للحملة الفرنسية على مصر» الجزء ١٠.

٦ - نفس المصدر. ومعه ويغان. مصدرسبق ذكره.

٧ - إن هذه المنطقة تستمد اسمها من عاصمة دولة الفونج السابقة، التي أعيدت تسميتها باسم سنار Sennar.

٨ - الوثائق المصرية، في كتاب صبري.

٩ - ما بين ١٨٠٢ - ١٨٠٦، كان قد صحب الفيكونت جورج فالانسيا، بصفته رسامًا، قادته خطاه إلى سيلان ثم مصر، ثم الحبشة. أما الحديث عن هذه الرحلة، المنشور عام ١٨١٤. فقد حصل على نجاح عظيم وأدّى ذلك إلى تعيينه قنصلاً لإنكلترا بدلاً من ميسيّ Misset. انظر كتاب فختر. م. س.

١٠ - منذ القرن الرابع كان شاب سوري، كاد أن يغرق، اسمه Fru - mence، واستقبله النجاشي، وربّاه في بلاطة، وحمله على اعتناق المسيحية،

وأصبح الأسقف الأول للبلد . ومنذ القرن الخامس ، كان يأتي رهبان من أنطاكية إلى الحبشة ، وانتهى بهم المطاف إلى أن يجعلوهم مسيحيين ، شعبًا وملوكًا .

١١ - صبري . م . س .

١٢ - أما أصل الفونج فهو موضوع نقاش . ومن الناس من يربطهم بالشيلوك Shilluk . ومنهم من يقول بأنهم جاؤوا من دار فور والحبشة . وقد نشأت مملكة الفونج في التاريخ في بداية القرن السادس عشر ، أي بعد قرنين من سقوط الممالك المسيحية في بلاد النوبة . ولكن إذا تركنا الإسم جانبًا ، قلنا إنه ما من أحد يعرف من هم أوائل الملوك الفونج . وفي بداية القرن السابع عشر قام أحد ملوكهم « بديع Badi» الثاني ببناء قصر وجامع في عاصمته ، سنّار .

١٣ - A.de vaulabelle ، في كتابه : التاريخ العسكري لمحمد علي وأبنائه . ثم الجنرال ويغان بكتابه المشار إليه سابقًا .

١٤ - كان قد وصل إلى مصر حوالي عام ١٨١٥ ، وعمره يناهز الثامنة والعشرين . وبفضل دروفيتي ، دخل في خدمة محمد علي ، بمهمة ، هي البحث عن المعادن الثمينة . وتفضل دروفيتي فلقبه « باختصاصي في المعادن ، بأمر الباشا» . انظر فيختر . المصدر المذكور آنفًا . ولقد ترك الرجل ذكريات ممتعة عن رحلته في كتاب بعنوان : رحلة إلى Meroe ، والنهر الأبيض بعيداً عن فازوغل ، في وسط مملكة سنار ، في Syouah (سيوه) وخمس واحات أخرى . أربع مجلدات ، باريس ١٨٢٣ - ١٨٢٧ . وسيكون محافظ متحف التاريخ الطبيعي لمدينة نانت ، حتى مات عام ١٨٦٩ أي بعمر الثانية والثمانين .

١٥ - ذكره Enkiri ، في كتابه المذكور سابقًا .

١٦ - ويغان . ذكر هذا سابقًا .

١٧ - «صور السلوك والعادات في مصر المعاصرة ، لندن ١٩٠٨» . ويصفه بول شيكس Paul chaix الذي قابل إدوار لين Lane في مصر ، بهذه الصورة :

«إن هنا إنجليزي يسمّى Lane، له طريقة في الحياة تظهر لنا غريبة. وقد وصل إلى القاهرة ، منذ عدد من السنين لا بأس بها، يعرف العربية، على ما أعتقد، بصورة تجعله يتحدث بيسر مع الناس. وقد تخلّى عن أعراف الناس في بلده، ونذر نفسه لملاحظة أخلاق الناس هناوعاداتهم، وحتى صور المظاهر الخارجية لطقوسهم وعباداتهم. وهذا السيدLane ، يتجنب إلى أبعد مدى زيارة الأوروبيين، ويكتفي بعاشرة المصريين، ودراسة الأدب العربي، والدخول إلى المساجد للصلاة فيها، كما يحضر الاحتفالات الدينية وفي الأماكن المقدّسة، ويتصرّف تصرُّف من يلاحظه الناس في حب التقوى.

١٨ - وعندما يزور الفرنسي الكشاف غيپوم لوجان منطقة كردفان عام ١٨٦٠أي بعد أربعين سنة، من فتح السودان نراه يجمع شهادات كثيرة حول صهر محمد علي. وهؤلاء السودانيون ينظرون إليه أسوأ النظرات. انظر ويغان، في كتابه المذكور سابقًا.

١٩ - إنهم يُسمّون بهذا الأسم تتابع الأحداث التاريخية التي تبدأ لديهم بالتوقيع على معاهدة كوشوك - كيناردجي، عام ١٧٧٤، وتنتهي بمعاهدة لوزان عام ١٩٢٣. وهي كلها تدور بالدرجة الأولى، حول تجزئة الإمبراطورية العثمانية. وصراع الدول الكبرى، من أجل إحكام سيطرتها ونفوذها في أوروبا البلقانية، والبلاد الواقعة شرق المتوسط.

الفصل العاشر

١ -مذكرات نوبار باشا . م . س

٢ - نفس المصدر.

٣ - أما في التقرير الذي قدّمه . Asselin de cherville آسيلين دوشيرفيل، إلى السيد تيدينات دوفان Thedenat - Duventفإنه يوصف بأنه رجل يعمل لحساب الإنجليز انظر في هذا الشأن Driault ١٩٢٧ . مصدر سبق ذكره.

٤ - مقدّم.

الفصل الحادي عشر

١ - هي تلك التي ترك عليها بونابرت مصر في آب ١٧٩٩ .

٢ - مذكرات فنان . ملاحظات وذكريات رحلة . مرسيليا . ١٨٧٨ .

٣ - وحقًا فإن محمد علي فوّت على نفسه فرصة طيبة . وفي نيسان ١٨١٩ أبحر D'Armandy من السويس إلى مسقط ، وأصبح رئيسًا لأسطول الإمام ، في هذه المدينة ، ثم انتقل إلى بلاد فارس ، حيث نظّم مجموعة مدافع لحساب الأمير محمد علي ميرزا ، ابن الشاه . وهكذا فإنه جمع ثروة طائلة . ومن المؤسف أنه عندما مضى إلى الهند عن طريق البحر ، سطا عليه القراصنة . وسلبوه ثروته كلها أما بقية حياته ، فإنها تستحق أن تكتب كرواية . انظر Guemard Gabriel . مصدر سبق ذكره .

٤ - Driault ، ١٩٢٧ م . س

٥ - بوليتس A.G.politis : الهيلينية ومصر الحديثة ، جزءان . القاهرة ١٩٢٨ .

٦ - دريّو ١٩٢٧ م . س

٧ - غيمار م . س

٨ - ويغان م . س

٩ - جوزيف حجار . أوروبا ومصائر الشرق الأدنى . خمسة مجلدات دمشق ١٩٨٨ .

١٠ - مشتق من الكلمة العربية « كرباج » وبالتركية كيرباك .

١١ - بريس وهامونت Prisse et Hamont . م . س

١٢ - خبز بشكل الكرة ، يقدَّم للجنود .

١٣ - كان الأوروبيون يسمّون هذا اللباس : بدلة النظام

١٣ - كان الأوروبيون يسمّون هذا اللباس : بدلة النظام

١٤ - سيف قصير ومنحن، للمشاة

١٥ - كل واحدة من هذه الحلقات المعدنية التي تصل المدفع بخشب سلاح ناري.

١٦ - غيمار م . س .

١٧ - جولات في الشرق . جزءان ، باريس : ١٨٤٠ .

١٨ - رحلة إلى الشرق . جزءان . باريس ١٨٦٩ .

١٩ - بلانا Planat، باريس م . س

٢٠ - قطعة من الأسلحة القديمة النارية، يحملها الجندي ، يتم عليها إطلاقها.

٢١ - انفجرت عام ١٨٢٤ ، وأدّت إلى أربعة آلاف قتيل . وهذا يعود بلا ريب إلى سوء النية.

٢٢ - كان هذا صيدلانيًا، أصله من برغولا Pergola، وهو مستخدم قديم في مالية إيطاليا.

٢٣ - كوست م . س

٢٤ - أما إذا شئنا المعنى الحرفي، فإننا نقول : « منهل العاشقين» ويعود اسم الحي إلى المكان الذي وجد فيه قبر Hapmen، الموجود حاليًا في المتحف البريطاني British Museum

٢٥ - وكان الأمركذلك، بعد قليل، في المأدبة التي أقيمت في شروط مماثلة، على شرف أعضاء بعثة تايلور الذين جاؤوا يفاوضون من أجل التنازل عن المسلة إلى فرنسا.

الفصل الثاني عشر

١ - باريس ، ١٩٧٠ . وحتى هذا اليوم، فإن هذا الكتاب هو الأكمل حول هذا الموضوع.

٢ - رسالة بتاريخ ٧/ ١/ ١٨٢٦، نُشرت على يد مارو Marro في كتابه شخصية برناردينو دروفيتي La personnalita di Bernardino drovettiواستعيد من قبل لوقا م . س

٣ - وتحت عنوان ذهب الإبريز في تعريف باريس. الطهطاوي في كتابه الذي يتحدّث فيه عن وقائع رحلته (١٨٢٦ - ١٨٣١)، نشر أنور لوقا الترجمة الفرنسية باريس ١٩٨٨.

٤ - Lapierre - Bovier . النهضة العقلية في الشرق، باريس ١٩٣٣.

٥ - انظر في الملاحق ما خصصناه له.

٦ - ميشو (M) وبوجولا (M). مراسلات من الشرق. سبعة أجزاء، باريس ١٨٤١.

٧ - غيمار Guemard. م . س .

٨- رحالة وكتاب فرنسيون في مصرIFAo القاهرة ١٩٥٦

٩ - الآثار المصرية (جزء أو مجلد فيه خمسون لوحة). صنع كتكملة لكتاب الآثار، آثار مصر وبلاد النوبة لشامبوليون، ثم كتاب تاريخ الفن المصري. بالاعتماد على الآثار منذ أقدم الأزمنة، حتى قيام الحكم الروماني. (أطلس فيه ١٦٠ لوحة، يتألف من جزأين).

١٠ - كان ذلك راتبًا لمعلم رئيسي أوروبي للنظام، بحسب Planatم . س

١١ - كلوت بك . لمحة عن أعمال مدرسة الطب في أبو زعبل (١٨٢٥ - ١٨٣٢) في كتابة : ذكريات متنوعة. وآخر الذكريات في الأكاديميات والجمعيات الطبية. مرسيليا: ١٨٦٤.

١٢ - نفس المصدر .

١٣ - غيمار م . س .

١٤ - هامون م. س

١٥ - غيمار م . س

١٦ - مصر في عام ١٨٤٥ - ١٨٤٦ للمؤلف : Schoelcher - باريس ١٨٤٦ .

١٧ - سيستدعى من قبل سعيد عام ١٨٥٥ .

١٨ - BoWring م . س .

١٩ - غيمار م . س

٢٠ - جومار Jomard في كتابه : نظرة حيادية حول الوضع الحالي في مصر، بالمقارنة مع وضعها السابق ، باريس ١٨٣٦ .

الفصل الثالث عشر

١ - دريّو ١٩٢٧ م . س .

٢ - كدالفين وبروفري م . س .

٣ - ذكره Scipion Marin في كتابه : حوادث ومغامرات في مصر . مجلدان ، باريس : ١٨٤٠

٤ - وتبعًا لآخرين ، يقال إن Jumel هو الذي جاء بالحبوب من برنامبوك غيمار . م . س .

٥ - نفس المصدر .

٦ - انظر أنور لوقا ، John Ninet م . س

٧ - Herbacee عشبة ، كثيرة الحيوية ، سنوية اسمها العلمي Artemisia ، لها رائحة عطرية ، ولها أنواع كثيرة ، تملك خصائص مثيرة .

٨ - رسائل حول مصر ، ٣ مجلدات ، باريس ١٧٩٨ .

الفصل الرابع عشر

١ - دريّو ، ١٩٢٧ س .

الفصل الخامس عشر

١ - حملات مصر وسورية (أمليت على برتراند) . مجلدان باريس . ١٨٤٧ .

٢ - وُلد في ١٧ تشرين الثاني ، ١٨٠٨ في محافظة الفوج ، في بلدة شاتيل - سور - موزيل . كانت مواهبه الرياضية ضخمة ، فوجّهه أساتذته إلى دراسة الهندسة . دخل مدرسة البوليتيكنيك polytechnique ، ثم مدرسة الجسور والطرق . وما كادت دراساته تنتهي حتى تميّز في أعمال مرفأ فيكامب Fecamp .

٣ - مجمع علمي إنجليزي ، أعان جملة باحثين في القارة السوداء ، مثل منغوبارك . وهورنومان وبروكهاردت .

٤ - بيلفون م . س .

٥ - المصدر نفسه .

٦ - سمّي هكذا تكريمًا للسلطان .

٧ - دريو ١٩٢٧ م . س

٨ - كوست . س .

٩ - الاسم القديم للبيلوبونيز ، منذ القرون الوسطى (موروس شجرة التوت) .

١٠ - ترجمته ، بين أشياء أخرى. والهندسة المعمارية العربية أو آثار القاهرة ١٨٣٧ .

١١ - كدالفين وبروفيرى. م . س . مارسيلوس، في ذكريات من الشرق، مجلدان. باريس ١٨٣٩ . والكتاب يقدّر بالعدد ٧٠٠٠ فلاح ماتوا. ولكن سواحًا آخرين يقدّمون أرقامًا أعلى. فجوزيف ميشو يقدر العدد بـ ١٢٠٠٠ وشولشير بـ ١٨٠٠٠ و J.JAmpere في كتابه رحلة إلى مصر وبلاد النوبة، باريس ١٨٦٨ ، يقدّر بالعدد ٣٠,٠٠٠

١٢ - إن هذا الوضع كان قد لفت انتباه بونابرت الذي أغلق القناة، بعد استقصاء قام به مهندسو الجسور والطرقات.

١٣ - كاريّه م . س .

١٤ - تؤكد رسائل أنفانتان، أنه كان هنالك حقًا، تساؤل في هذا التاريخ حول أن يستخدم لبناء السدّ، لا حجر الهرم الأكبر، بل أي هرم لا على التعيين. ولم يتردد لوبير Le pere في استحسان الفكرة. وباعتباره مجددًا اجتماعيًا، لم يكن ليقف أمام مشكلة البقايا الثمينة. انظر Fonds Saint simonien، من مكتبة الـ Arsenal

١٥ - دعامة تغطي أرض القناة، وتكون أساسًا لها وتحميها ضد التسربات الجوفية.

١٦ - عندما أثيرت قضية تجديد السدّ عام ١٨٨٢ ، استدعي العقيد Scott Montcref، الذي كان يومئذ وكيل وزارة، استدعي من جديد Mougel الذي كان ابنه يعمل كأستاذ في مصر، وكان قد عاد إلى البلاد. وعلى الرغم من كبره في العمر (يومئذ ٧٥ سنة)- فإنه قبل الاقتراح الإنجليزي وسمّي مهندسًا مستشاراً للسدّ. أما أعمال التجديد والترميم فقد كانت تتقدم بنشاط. ومنذ عام ١٨٩٠ ، كانت قد انتهت تقريبًا. وكان في وسع موجل أن يطفيء شمعة حياته في نفس السنة، وهو مسرور من أن واجبه قد تم أداؤه أخيراً.

١٧ - Chaix، شيكس م . س

١٨ - نفس المصدر

١٩ - كان لدينا، حول أصل الكلمة، فرضيتان. الأولى تدع الإنسان يفكر أن المكان مدين باسمه إلى الثكنات التي يقال إنها سُكنت بجنود من الأوزبك. وأما الفرضية الثانية، وهي الأقرب إلى الصحة، فإنها تعرض علينا اسم لواء عربي اسمه أزبك، وكان قد أمر في منتصف القرن الخامس عشر، بحفر قناة صغيرة، على ارتفاع جسر الليمون، لكي يأتي بالماء إلى المنخفض الذي كان يمتد من باب الحديد حتى ساحة إبراهيم باشا، ومن فندق فيكتوريا إلى ساحة العتبة الخضراء. ويقال إن أزبك هذا كان اشترى جزءاً من أرض كان يمتد فوقها الحي الذي يحمل الآن اسمه.

٢٠ - فالانسيا. رحلات وسياحات في الهند. سيلان، والبحر الأحمر، والحبشة، ومصر. ٣ أجزاء. لندن ١٨٠٩.

٢١ - زيارات للأديرة في الشرق. لندن ١٨٤٩.

٢٢ - Wiet فييت، محمد علي والفنون الجميلة. القاهرة.

٢٣ - نفس المصدر.

٢٤ - نداء لباعة الأشياء الأثرية، حول تهديم الأوابد في مصر. لندن: ١٨٤١.

٢٥ - الأمريكي في مصر. نيويورك، ١٨٤٢، نشر Wiet Gaston

٢٦ - رسائل من تركيا. والأراضي المقدّسة، ثلاثة أجزاء. باريس ١٨٤٣، لندن ١٨٤٥. انظر كتاب غاستون فييت.

٢٧ - رسالة من القاهرة، بتاريخ ١٩ أيلول، ١٨٤٦، نشرت في Sema - phore de Marseilleيوم ٢٩، تذكر ما يلي: إن السيد بارو (قنصل فرنسا) قدّم لسموّه ساعة كبيرة رائعة. أهديت له من الحكومة الفرنسية: قيمتها ١٠٠٠٠٠

فـرنك. ويُوضح قنصل إنجلترا « أنهـا قطعـة جـميلة جـداً، وهي تمثل آبدة مـا بالفن العربي، وتحمل كتابات شعرية، باللغات الفارسية والعربية والتركية».

٢٨ - البـوزولان، نـوع مـن الأحـجار الـكريمـة، مـن أصـل بركـاني، يتـألف من الحـمـم البـركـانيـة إذا هـي خلطـت بـالـكلس، أمـكـن إدخـالهـا في تـركـيـب بعـض الإسمنتيات.

٢٩ - إن شركة الغاز التي أنشئت لهذه المناسبة مازالت موجودة في بولاق حتى تفضل القائد الملهم عبد الناصر، فأممها لحساب الشعب عام ١٩٥٨.

الفصل السادس عشر

١ - غيمار Guemard م. س.

٢ - دوان. مهمة عسكرية فرنسية، لدى محمد علي، القاهرة، ١٩٢٣.

٣ - Douin دوان: فرقاطات محمد علي الأولى (١٨٢٤ - ١٨٢٧)IFAo القاهرة ١٩٢٦.

٤ - وسيموت غريقاً في الإسكندرية عام ١٨٣١

٥ - أصله من أنغـوليم Angouleme. ولـد في ٢٨ أيلـول ١٧٥٦. وهو ابن جان بيسّون الفندقي. من زوجته جان غالوا ..Bey,besso R.carreau.. نائب أميرال ولواء في مصر. مقدّمة كتبها شارل رو. مجمع المنشورات الجغرافية والبحرية والاستعمارية: ١٩٤٩.

٦ - مارمون. رحلة إلى فلسطين ومصر. خمسة أجزاء. باريس ١٩٣٧ - ١٩٣٨.

٧ - planat م. س.

٨ - كان بين المصريين حتى عام ١٩٥٠، من يَعُدُّ أو يحسب بالـ Talaris

٩ - صـاحب مـهنـة مـكـلف بسـد الخـروق حـيثـمـا كـانت، ولا سـيّمـا في السفن البحرية.

١٠ - قطاوي ، ١٩٣١ ، م . س .

١١ - مدافع قصيرة المدى ، إعادتها إلى الخلف خفيفة .

١٢ عملية إصلاح البنية الأساسية لسفينة ما .

الفصل السابع عشر

١ - ولد في باريس في ١ / ٦ / ١٨٠٢ . أصله من أورليان . وفي عام ١٨٢٤ سافر إلى إيطاليا . وفي نابولي تم التعارف بينه وبين البنت التي تبنتها مدام ريكامييه (أميلي سوفوغ)، وتزوجها في ١ شباط ١٨٢٦ . وفي هذه الفترة عيّن ملحقًا، كمفتش للفنون الجميلة في منزل الملك، عن طريق الدوق دولار شفوكولد - دودوفيل . وفي آب من عام ١٨٢٨ نراه يبحر مع شامبوليون إلى مصر . إلا أنه كان يراسل زوجته باستمرار، وستصبح مجموعة هذه الرسائل موضوع كتاب بعنوان : فنون جميلة ورحلات ، باريس ١٨٦١ . ستنشر جريدة Globe هي أيضًا خلاصات أو منتخبات من هذا التبادل في الرسائل .

٢- مُلخص تاريخي للمسلات المصرية . باريس ، ١٨٣٦ . رسائل كتبت من مصر بين عامي ١٨٣٨ و ١٨٣٩ ، باريس ١٨٤٠ .

٣ - رسائل كتبت من مصر وبلاد النوبة في العامين ١٨٢٨ - ١٨٢٩ باريس ١٨٣٣ .

٤ - كان عمر الباشا ثماني وخمسين سنة تمامًا . ولكن يجب ألا ننسى أن متوسط العمر في ذلك العهد كان أقل منه الآن طبعًا . وكذلك هو الأمر في الأمل بالحياة . لكن الشكل الخارجي للباشا (انظر وصف شامبوليون له) ولحيته البيضاء الهابطة، كانت تحمل الإنسان على الخطأ في التقدير .

٥ - فييت م . س .

٦ - دوان . مهمة البارون دوبو الوكونت . القاهرة ١٩٢٧

٧ - دريو . ١٩٢٧ م . س .

٨ - نفس المصدر .

٩ - شامبوليون م . س . رسالة دروفيتي بتاريخ ٣/ ٥/ ١٨٢٨ .

١٠ - جان فرانسوا شامبوليون . حياته وأعماله، ١٧٩٠ -١٨٣٢ بيغماليون/ جيرار واتليت ، باريس ١٩٩٠ .

١١ - م . س .

١٢ - سيموت في ٩/ ٣/ ١٨٥٢ في تورينو وعمره ٧٦ سنة، وكان مصاباً بتصلب شرايين الدماغ .

١٣ - Wietم . س .

١٤ - كارّي م . س

١٥ - وهو مدين بهذا الاسم إلى سعيد بن محمد علي .

١٦ - ذكره جان لاكوتور : شامبوليون . حياة من النور باريس . ١٩٨٨ .

١٧ - أي هذا الذي نسميّه هاتشبسوت Hatshepsout في معبد آمون . طوله ٣٠ متراً ويزن حوالي ٣٢٠ طن .

١٨ - وكان هذا هبة من الخديوي إسماعيل ، لمدينة نيويورك .

١٩ - جاء من معبد الشرق في الكرنك . وقد أنشئ في عهد تحوتمس الثالث . ثم رفع في عهد كونستانس II عام ٣٥٧ طن .

الفصل الثامن عشر

١ - ذكريات من اليونان أثناء معركة ١٩٢٥ ، باريس ١٨٢٦

٢ - وفيما يرى كادالفين وبارّو لم يكن عائد الجزيرة يتجاوز الأكثر من أربعة ملايين قرش، على حين أن النفقات كانت تتجاوز الأحد عشر مليونًا . وكان ينقصها سبعة ملايين قرش، كل سنة .

٣ - وفي هذا المرفأ نفسه تعرَّف Seve على امرأة شابة اسمها ماريا فأخذها معه و تزوجها في مصر . فولدت له ثلاثة أبناء، هدية من رب العالمين . انظر Generalissime des armees Egypt (Vingtrinier Emile ، سليمان باشا iennes. باريس : ١٨٧٧

٤- Scott Rochfort, Rambles in Egypte and candia حزيران . لندن ، ١٨٣٧ .

٥ - ماركوس بوتزاريس، ولُدّ في Souli d'Epire، جماعة محاربة من أصل ألباني ودينها المسيحية الأرثوذكسية . وكان ينتسب إلى واحدة من القبائل الأكثر نفوذاً في وطنه وهي Botzaris (بوتزاريس) . وبرز فيها أفراد كثيرون بين رؤساءSouli العسكريين ، في ثورة ١٨٢١ . أما شخصيته وحياته فهما من أحب المواضيع في الآداب والفنون المستوحاة من الثورة الإغريقية .

٦ - وأعيدت جثته إلى إنجلترا . وعندما أبوا عليه أن يُدفن في الويست مينيستر آبّي Westminster ، دفن عندئذ في الكهف العائلي في كنيسة صغيرة قرب نوتنجهام .

الفصل التاسع عشر

١ - إن الفلاشيا ومو الدافيا يؤلفان، تاريخياً، واحدة من المديريات الرومانية . وقد ظلتا خاضعتين للسلطة التركية حتى منتصف القرن التاسع عشر .

٢ - نسيلرود، رجل من أصل وستفالي، ولُدعام ١٧٨٠ في لشبونة، حيث كان أبوه يمثل القيصرة كاترين الثانية . وقد بدأ حياته في الجيش، ثم انتقل إلى الديبلوماسية الروسية في برلين، عام ١٨٠٢ ، وفي لاهاي، عام ١٨٠٤ وفي باريس ١٨٠٧ وفي العاصمة الفرنسية، وتحت ستار التحالف الفرنسي - الروسي نظّم خدمة جاسوسية . وكان يستخدم فيها ما يقدمه تاليران من عطاءات كريمة . وتكريماً له، استدعاه الكسندر الأول عام ١٨١٢ ، وسمّاه سكرتير دولة، ثم وزيراً للخارجية في ٩ آب، ١٨١٦ بعد رحيل Cap d' Istria وجعله ممثلاً له في كل مؤتمرات عام

١٨١٤ - ١٨٢٢ . واستخدمه نيقولا الأول كنائب مستشار عام ١٨٢٩ . ثم كمستشار لرئيس الوزراء عام ١٨٤٤ . وسيكون في أو ل العاملين على عقد معاهداتي آندرينوبل، وانكيار سكيليسي، اللتين أبرزتا النفوذ الروسي في تركيا . وبعد أن شارك في مؤتمر باريس، عام ١٩٥٦ ، انسحب من حياة الوظائف ومات في سان بطرسبورغ عام ١٨٦٢ .

٣ - انظر مذكراته حول المشكلة الشرقية تحت عنوان مذكرات من وراء القبر .

٤ - نشأ في أسرة من طبقة النبلاء الصغيرة، في تولوزان واستقبَل بفرح عودة الملكية إلى فرنسا، بعد نابليون . وفي تموز من عام ١٨١٥ ، سمّي رئيساً لبلدية طولوز، ثم انتخب نائباً في الجمعية التي استعصت على الوجود . وهناك أثبت وجوده ، كتكتيكي سياسي فظيع كما اثبته كرجل أعمال يقظ، ويجعل من نفسه رئيساً شديد الحرص على الملكية، ويقف ضد وزارتي ريشليو و Decazes . عيّن وزيراً بلا وزارة في الوزارة الثانية لريشيليو في (ديسمبر - كانون الأول) عام ١٨٢٠ ويترك الوزارة في تموز عام ١٨٢١ ، ثم يعود كوزير للمالية، بدعم من الكونت دارتوا ثم رفُع إلى رئاسة الوزارة يوم (٤ أيلول - سبتمبر ، عام ١٨٢٢ . فنظم الشؤون المالية، وضمن هيمنة حزبه، في كل الإدارات . غير أنه جلب لنفسه غضب الرأي العام بسبب سياسته الداخلية المسيئة للناس، باستخدامه الحيلة والفساد ، وبسياسة خارجية خجولة وخاضعة . ثم إن الحزب الملكي أنقسم إلى قسمين، بعد انفصاله عن الحزب الأم، بتأثير شاتوبريان الذي جعله عدواً له، بترحيله من وزارة الشؤون الخارجية في حزيران عام ١٨٢٤ . وفي أواخر عام ١٨٢٧ ، حاول أن يُعززّ حزبه، بالاعتماد على انتخابات سبقت مواعيدها الطبيعية : وأدت هزيمة الحزب فيها إلى تخلص شارل العاشر منه ومن Villele وعندما رفُّع كعضو في المجلس انسحب عندئذ نهائياً من عالم السياسة .

٥ - صبري . م . س .

٦ - نفس المرجع .

٧ - انظر الكتاب : سورية ومصر أثناء حكم السلاطين الخمسة الأتراك الأخيرين . في جزأين . لندن ١٨٧٦ .

٨ - وثائق مصرية . انظر فيها في كتاب G.Douin الفرقاطة الأولى .

٩ - وثائق الخارجية الفرنسية، المراسلات القنصلية، كارتون، الإسكندرية . لدى صبري، نفس المرجع .

١٠ - من بوكتي Bockty إلى بيزوني Pezzoni، القطاوي تاريخ ٤ / ١٠ . عهد محمد علي، من خلال الوثائق الروسية في مصر (١٨٠٥ - ١٨٤٤) ٤ أجزاء، القاهرة ١٩٣١ - ١٩٣٦ .

الفصل العشرون

١ - دوان Douin. الفرقاطات الأولى . م . س .

٢ - دوان أيضاً . رسالة من ميمو إلى سيباستياني، الإسكندرية ١ / ٨/ ١٨٣١ .

٣ - فييل Viel . م . س .

٤ - نفس المصدر

٥ - قطاوي . الوثائق الروسية في مصر ... م س .

٦ - صبري م . س

٧ - صبري م . س .

٨ - صبري م . س

٩ - وعندما وصل شارل لونورمان (مصدر ذكر سابقًا) إلى الإسكندرية رأى الرجل ١٥٨ عبداً من هؤلاء، يسافرون إلى اليونان .

١٠ - بروتوكول ٥ / ٢ / ١٨٣٠ ، يقرر إنشاء دولة اليونان كدولة مستقلة .

الفصل الواحد والعشرون

١ - صبري . م . س .

٢ - R.G قطاوي . م . س .

٣ - إن هذه العبارة تعني بصورة عامة، جزءاً من الأراضي الملكية، التي تخصّص لأمير من الأسرة (وبصورة خاصة للصبي الأصغر في الأسرة المالكة) كتعويض عن الاستبعاد عن العرش.

٤ - Planat، (م . س) مرجع سابق.

٥ - بعض المؤلفين، ولا سيما . ج . أنكيري (مرجع سابق). يذكرون رقم ١٨٠٠٠ فلاح.

٦ - رعمسيس الثاني . التاريخ الحقيقي أو قصته الحقيقية . باريس ١٩٩٦ .

٧ - أنكيري . م . س.

الفصل الثاني والعشرون

١ - نفس المصدر

٢ - نفس المصدر

٣ - نفس المصدر

٤ - صبري . مصدر مذكور سابقًا (أو م . س)

٥ - نفس المصدر

٦ - أنكيري . م . س

٧ - كادالفين وبارّو . مرجع مذكور سابقًا

الفصل الثالث والعشرون

١ - دوان (م . س) من سيباستياني إلى ميمو ، الإسكندرية ، ٢٣ / ٦ / ١٨٣٢ .

٢ - نفس المصدر ، الملحق السادس من نشرة الجيش في سورية ، ١١ / ٧ / ١٨٣٢ .

٣ - من ميمو إلى سيباستياني ٢٠ / ٧ / ١٨٣٢ .

٤ - كان الأمر يتعلق بمحمد باشا ، حاكم حلب ، عثمان باشا ، حاكم ما آدان Maadan ، وعثمان باشا حاكم القيصرية ، وعلي باشا ، حاكم دمشق السابق ، ومحمد باشا ، ونجيب باشا ، ومحمد باشا وديلاور باشا . انظر : كادالفين وبارّو (م . س) . (الحاكم هنا يعني الوالي) .

٥ - يسمى الآن تل النبي مند جنوب حمص . وقد شهدت هذه القرية انتصار رعمسيس الثاني على الحثيّن . انظر Desroches Noblecourt ، مرجع سابق .

٦ - آنكيري . مرجع سابق .

٧ - ظاهرياً ، لم يصل إلى غايته أبداً . وبعد أن ساح طوال الليل ، يقال إنه وصل إلى قرية مسكينة اسمها بيتيني Bithynie على البحر الأسود ، وهناك مات ، مجهولاً بين المجاهيل أنكيري م . س .

٨ - وثائق فرنسية ، الخارجية ، لدى صبري . م . س

٩ - دوان (مرجع سابق) . الإسكندرية ١٠ / ٨ / ١٨٣١ .

١٠ - سيشرح اللورد بونسونبي Ponsonby ، السفير القادم الإنكليزي في استانبول ، سرّ عدم قيام حكومته بأي عمل ، في ذلك الحين ، ويقول إن السبب كان تعثر السياسة الداخلية . انظر السيد «دوبيدور» في كتابه : التاريخ الديبلوماسي

لأوروبا (١٨١٥ - ١٨٤٨). باريس : ١٨٩١، وانظر صبري في كتابه المتكرر الذكر. عن الوثائق الفرنسية (م . س).

١١ - مصطلح ديني يمكن ترجمته بكلمة Anatheme (أو اللعنة)

١٢ - وثائق مصرية، لدى صبري السابق الذكر.

١٣ - نفس المصدر.

١٤ - Enkiri (أنكيري). م . س .

١٥ - نيقولا مورافييف Mourawiev. قائم مقام لواء، ومساعد الإمبراطور الروسي. وكان ينحدر من أسرة محترمة في الإمبراطورية، على الرغم من أنها لا تُعدّ من طبقة النبلاء العليا. وكما كان يملك طبعًا قوي الشكيمة، وذكاءً عاليًا، ومعلومات علمية واسعة المدى، وشارك في الحرب مشاركة متميزة. فقد افتتح في موسكو، لصالح الفتيان المنحدرين من طبقة النبلاء، مدرسة للأركان نجحت نجاحًا كبيرًا.

الفصل الرابع والعشرون

١ - صبري (م . س).

٢ - وهو نفسه هنا أيضًا.

٣ - Ametchi، وتعني هذه الكلمة موظفًا في وزارة الخارجية وكان رشيد بك يملك معلومات فيها من الاتساع بقدر ما فيها من التنوع، وذكاءً حادًا وسليمًا، وطبعًا مميزًا. وكان يقال إنه الديبلوماسي الأول للإمبراطورية العثمانية. وكان سفيرًا مرة في فرنسا ومرة في إنجلترا.

٤ - Mouriez. س .

٥ - هو الكونتراميرال (أو العميد البحري) والمرافق للإمبراطور، وكان قد نشئ في إنجلترا، وثقف في البحرية الملكية البريطانية.

٦ - كلوت بك ، ١٨٦٤ . م . س .

٧ - موريز Mouriez . مصدر سابق .

٨ - دوان ١٩٢٧ . م . س .

٩ - موريز ، م . س .

١٠ - دوان ١٩٢٧ . م . س .

١١ - نفس المصدر

١٢ - إن الكلمتين اللتين تؤلفان اسم المحلّة (أولاهما تشتق من الفارسية (خونكيار)، تعنيان، حرفياً « السلّم المغني عن الدم». وكانت هذه واحدة من الألقاب التي تطلق على السلطان . ويمكن مراجعة الملاحق، من أجل فهم أكبر للمعاهدة .

الفصل الخامس والعشرين

١ - آنكيري . م . سابق .

٢ - نفس المصدر .

٣ - صبري . م . س .

٤ - وكانت هذه في الأصل كلمة مشتقة من الحركة الإسماعيلية، التي أنشئت في نهاية القرن العاشر على يد داعيين . محمد بن إسماعيل الدرازي (ومن هنا جاءت كلمة « الدرزي) ، وحمزة بن علي بن أحمد . وقد استخدم هذان أو استعارا كثيراً من مبادئ عقيدتها من المسحية والعرفانية Gnosticisme ، والأفلاطونية الحديثة . وأقام هذان في مصر منذ عام ٩٩٧م من القرن العاشر من تاريخنا ، وأكدا أن الخليفة الفاطمي الحاكم ، كان فيما يعتقدان آخر تجسّد إلهي . ولما كان هذا الحاكم شخصية وهبها الله سلطة كاريزماتية استثنائية ، فإنه أسرع هو إلى إعلان نفسه ، تجسّداً « لله»

على الأرض أي أنه هو الله. وفيما بين العامين ١٠١٧ - ١٠١٨، اضطهد رجال هذه الملة من قبل المسلمين الأصليين. وعندئذ استقروا في سورية. وعندما مات إمامهم الأخير «المقتنع» انتهت كل الحركات الانفصالية، بل إن الدروز لم يعودوا يقبلون أي عقيدة أخرى، وأصبحوا، جماعة مغلقة، ذات عقيدة سريّة، تحرّم على جماعتها الزواج الخارجي. وبعد ذلك كوّنوا شعبًا متجانسًا، يخضع رجاله لنوع من أنواع الأرستقراطية الحاكمة أو المشرفة على أحوال جماعتها.

الفصل السادس والعشرون

١ - قطاوي. ١٩٣١. م. س

٢ -آنكيري. م. س.

٣ - إن سيباستيا أو ميغالوبوليس، تقع في وسط تركيا، على ارتفاع قدره ١٢٧٥ م. وبرهنت الحفريات الحديثة على وجود آثار من أصل حثي.

٤ - آنكيري. م. س

٥ - رونيه قطاوي، أهمية الوثائق الروسية لمعرفة عهد محمد علي. وقد ورد هذا في ورقة قدمت إلى المؤسسة أو المعهد المصري، في جلسة تمت يوم ٦/ ٤/ ١٩٣٦.

٦ - نفس المصدر.

٧ - كان Medem قد شرُف باحترام وتقدير محمد علي. واستطاع أن يفوز بصداقة إبراهيم. وكان من أشد أنصار نائب الملك وهذا لم يكن مما يتطابق دومًا مع سياسة بطرسبورغ.

٨ - وكان العقيد دوهاميل عميلاً لروسيا من عام ١٨٣٤ إلى عام ١٨٣٧. وحلّ محلّه Medem بين عامي ١٨٣٧ و ١٨٤١.

٩ - صبري . م . س .

١٠ - صبري . م . س .

١١ - صبري . م . س .

١٢ - اللورد بالمرستون. الرسائل السرية . لندن

١٣ - نفس المصدر.

١٤ - هانوتو Hanotaux. م . س .

١٥ - بالمرستون ، مرجع ذكر سابقًا.

١٦ - صبري ، م . س .

١٧ - من ٣ حتى ١٢٪ . ولم تطبق في مصر إلا جزئيًا بعد عام ١٨٤١ .

١٨ - صبري . مصدر سابق

١٩ - إن مؤلفين كثيرين من رووا لنا سيرة هذه الرحلة. لكن الوثيقة الأجدر بالثقة، هي التي نشرت باللغة التركية في Lofficiel Egyptien (الجريدة المصرية الرسمية)، بتاريخ ٦ صفر ١٢٥٥ هـ. (أو ٢١ / ٤ / ١٨٣٩). انظر صبري في كتابه السابق الذكر. إذ أنه أورد بعض المقاطع.

٢٠ - Hanotaux (هانوتو) . مصدر سابق .

٢١ - صبري . مرجع سابق.

الفصل السابع والعشرون

١ - آنكيزي . م . س .

٢ - مذكرات مترنيخ - التي نشرها ابنه الأمير ريشار ميترنيخ.

٣ - تاريخ محمد علي . مصدر سابق القاهرة ١٩١٩ .

٤ - نفس المصدر .

٥ - وليكن بونسونبي، لإنجلترا، روسّان لفرنسا، وستورمر للنمسا وكونيغسمارغ لبروسياوبوتينيف لروسيا.

٦ - برقية من المارشال Soult إلى سيباستياني ٢٠ / أيلول ١٨٣٩ . ذكرت في كتاب شارل رو (فرانسوا). تيير ومحمد علي (باريس ١٩٥١) .

٧ - آنكيري . مرجع ذكر سابقًا .

الفصل الثامن والعشرون

١ - شارل رو . م . س

٢ - غيزو . مذكرات تصلح لتاريخ زماننا . باريس ١٨٦١ .

٣ - شارل رو . م . س

٤ - صبري . م . س .

٥ - أنظر في الملاحق : النص الكامل للمعاهدة .

٦ - أي هو خط يمضي من رأس الناقورة على شاطئ المتوسط، ويمتد حتى فتحة نهر السيسبان، أي الطرف الشمالي من بحيرة طبريا، على طول الشاطئ الغربي من البحر الميت، ويصل آخر الأمر إلى خليج العقبة، ويتبع الشاطئ الغربي للخليج وجانبه الشرقي حتى السويس .

الفصل التاسع والعشرون

١ - غيزو م . س .

٢ - فرانسوا شارل رو . م . سابق .

١ -ويكتب اللورد بونسوبي حول هذه النقطة في أول فبراير (شباط) ما يلي : « لئن ترك جمع العائدات لمحمد علي، فإن جلالتكم سترى من دراسة الخزينة المصرية، كم هي عظيمة تلك الأموال التي يملك أمر التصرف بها محمد علي وحده. وما من إنسان يجهل أن السلاح الأمضى من كل سلاح، ضدّ السلطان، هو المال. (ورد هذا في كتاب صبري الذي تكرَّر ذكره كثيراً).

٢ - صبري، مرّة أخرى.

٣ - ولما كان Waghorn مقتنعاً دوماً بأنه يمكن إنشاء طريق جديدة تصل إلى بومباي وكلكوتا، وأن هذه، ستكون بالتأكيد أقصر من الطريق البحرية، فإنه بذل أعظم الجهد لإقناع البريطانيين، بسلامة وجهة نظره. ولكن عبثاً. ولما كان هذا الرجل يملك الهوى الذي يُميّز المغامرين من أصحابه العباقرة، فإنه مضى هو شخصياً إلى مقر شركة الهند، في لندن، وحصل على نسخة من البريد الذي كانوا يرسلونه عادياً، بالطريق البحرية، التي تمر بالكاب (رأس الرجاء). ثم إنه بعد أن أحاط رجال الأعمال الذين لهم مصالح تجارية مع القارة الهندية، علماً بما هو عازم عليه، أبحر من مرفأ فارموت على ظهر سفينة بخارية كانت تؤمن الاتصال بمالطا. ومن هناك تابع طريقه حتى الإسكندرية. وعندما وصل إلى المرفأ المصري عاد فتقدم باتجاه السويس، واجتاز البحر الأحمر. وبعد أربعين يوماً وصل إلى بومباي. أي إن أربعين يوماً تقابل ما بين ستة أو سبعة أشهر. وبهذا برهن على سلامة مشروعه.

٤ - وبمناسبة هذا المسكن، كان شامبوليون قد كتب بتاريخ ١٤ سبتمبر، عام ١٨٢٩، مايلي. « إن العالم المحيط بنا يثير أكبر التعاسة. ثم إن النقطة التي بني فيها بيت محرَّم بك، الريفي، صهر الباشا، ليس فوق ما أقوله بشيء، على الرغم من زرع بعض أشجار النخيل، التي يسمّونها حديقة.

٥ - يشير كلوت بك أيضاً إلى أذى يلحق بالبروستات، يعالجه الدكتور Prunier وCastagnoni

الفصل الواحد والثلاثون

١ - ويرى نوبار، أن أطباء نائب الملك اعتمدوا على دواء أساسه نترات الفضة. والأمر مقبول، لأن ملح الفضة يحمل مزايا تطهيرية ومسرّعة لالتئام الجروح. وبالمقابل فإن نوبار يعزو إليه الاضطرابات العقلية التي أصيب بها محمد علي، وهذا لا يبدو مقبولاً، بمقدار ما يقال، عن أن العلامات الأولى للاضطراب العقلي، كانت سابقة للمعالجة التي أشرنا إليها (تموز - يوليو - ١٨٤٤). وعلى كل حال فإن من الممكن أن تكون النترات، قد عززّت أو سرّعت الضعف الدماغي للمريض. ذلك أنه إذا حدث أن المعايير المناسبة تجاوزت حدودها، فلربما أدّت إلى آثار أخرى غير تلك الآثار المنتظرة، مثل الإسهال، والتقيؤ، وإيذاء الأغشية المخاطية والوهط القلبي والوعائي.

٢ - والشيء المؤكد أن إبراهيم باشا كان مصاباً بالسل.

٣ - نوبار باشا، في مذكراته التي أشرنا إليها سابقاً.

ملحقات

أسرة محمد علي وخلفاؤه

١ - **عباس حلمي الأول** (نوفمبر ١٨٤٨ - تموز ١٨٥٤) وهو ابن طوسون

كان حكمه يبعث على اليأس، لأن عقليته رجعية، بلا معنى، قتله أحد عبيده، في ١٣ تموز.

٢ - محمد سعيد (تموز - يوليو - ١٨٥٤ - حتى كانون الثاني ١٨٦٣) وهو ابن محمد علي.

كانت ثقافته غربية، بمقدار ما كان كريمًا، يحب الحرية. ولقد رخص ، لمربيه فرديناند دوليسيّبس، بفتح قناة السويس، وهذا ما كان قد رفضه محمد علي.

وهناك ثلاثة أنواع من التطوير تعزى إليه : إلغاء العبودية في مصر والسودان، ثم الترخيص للمصريين بالوصول إلى الدرجات العليا في الجيش. وفي عام ١٨٥٨ حررً نظام الالتزام، الذي أدخل مفهوم الملكية الفردية.

وعندما قضى نحبه (رحمة اللّه عليه - وكم هو بحاجة إلى مثل هذا الدعاء) كانت ديون مصر تبلغ ٢٥٠ مليون فرنك، من دون أن يقوم بأي حرب، أو ينشيء أي جيش ، أو يكلف بأية مهمة غير مسلحة.

٣ - إسماعيل (كانون الثاني - يناير ١٨٧٩ - حزيران ١٨٧٩). وهو ابن إبراهيم .

وقد زاد ما كانت تدفعه مصر للسلطان زيادة كبيرة. وهذا ما جعله يحصل منه على حق التوريث، توريث السلطنة لأبنائه أو أبناء أبنائه بالتسلسل المباشر. كما حصل على اللقب الفارسي الأصل، والذي هو «الخديوي» الذي يقابل كلمة «السلطان» (وبطبيعة الحال غطى هذا اللقب على فكرة الخضوع الموجودة في أصل كلمة نائب الملك). وكان الرَجل بخيلاً في الأشياء الصغيرة وشديد الكرم ومبالغًا به في الأشياء الكبيرة. وهو الذي تم في عهده تدشين القناة يوم ١٧ نوفمبر - تشرين الثاني عام ١٨٦٩، بإنفاق يُذكِّر تمامًا بأجواء ألف ليلة وليلة.

وقد عقد صفقات من الديون، في أسوأ الشروط الممكنة، وبفوائد مفرطة. وتجنبًا للإفلاس المالي، باع أسهمه في القناة، عام ١٨٧٤، لدزرايبلي، الوزير البريطاني الأول، تلك الأسهم المصرية التي تخصّه في قناة السويس: وقد أرغمته الدول الأوروبية الكبرى، بعد سنتين على قبول جهاز إداري - مالي، في القاهرة، أطلق عليه اسم صندوق الدين العام أو الكوندومينوم، وكلّف هذا الجهاز مراقبة موارد البلد واقتطاع ما ينبغي منها لوفاء ديون «حضرة الأخ الخديوي»، مما يعني أن الدولة فقدت السلطة على جمع ضرائبها، أو التصرف بها. وهذا برهان جديد على عظمة «خديوينا (المبجلين).

وما لبث البلد أن شهدت تطوراً آخر، خلاصة تدخل البلاد الأجنبية، بدءاً من عام ١٨٧٧، لا في الأمور المالية، هذه المرة، بل تدخلاً في إدارة الشؤون العامة، من خلال لجنة فيها وزير مصري، وآخر فرنسي، وثالث بريطاني. ومن هنا قام انفجار وطني، تحوّل في العالم التالي إلى انفجار عسكري قادهُ العقيد عرابي. أحد أوائل كبار الضباط المصريين الذين رفُعوا إلى المراكز العالية، بعد إصلاحات الأخ سعيد. وعندما شعر الخديوي بالضغط الشعبي ألغى اللجنة الثلاثية لشؤون الإدارة واستعاد سلطته الإدارية، بدعم من الرأي العام. لكن الباب العالي، بعد التدخلات الخارجية، وخاصة تدخل بريطانيا، أرغم الخديوي إسماعيل على التنازل عن عرشه، يوم ٢٥/ ٦/ ١٨٧٩.

- **محمد توفيق** (حـــزيران ١٨٧٩ كـــانون الثـــاني - ١٨٩٢) . وهو ابن إسماعيل بارك الله فيه .

وفي عام ١٨٨١ ، حصل العقيد عرابي على نجاح كبير في الانتخابات العامة . فحولّ الرجل نصره هذا لحساب الحزب الوطني . وعندما أصبح وزيراً للحربية ، أخذ يطالب بإلغاء الكوندومنيوم الإفرنسي - والإنجليزي . ورداً على ذلك ، ويوم ٢/ ٨/ ١٨٨٢ ، احتل الإنكليز مصر بكل بساطة . وبعد سنة واحدة أنهت إنجلترا وجود الكوندومنيوم ، وانفردت وحدها بالتحكم في السياسة المصرية . وبهذا أصبحت القوات البريطانية السلطة الوحيدة التي تقوم بشؤون الأمن والإدارة والمال ، والقنصل الإنجليزي وحده يدير البلاد .

ومات محمد توفيق في ٧/ ١/ ١٨٩٢ . فخلفهُ ابنه عباس حلمي الثاني .

عباس حلمي الثاني (أول عام ١٨٩٢ - حتى ديسمبر كانون الأول ١٩١٤ . ابن محمد توفيق .

وحل الرجل مَحلّ أبيه في السلطة ، أو على العرش فقط وهو في عمر السابعة عشرة . وفي ١٨ ديسمبر ١٩١٤ وجد الإنجليز في هذا فرصة للاستغناء عن الباب العالي ، لأن الدولة العثمانية دخلت في الحرب ، مع أعدائها . فقطعت صلة مصر بتركيا ، وانفردت هي بالسلطة والسلطان وأعلنت فرض الحماية على مصر ، مباشرة . وفي اليوم الثاني أُقصي صاحب السلطة عن السلطة ، لأنه كان وثيق الصلات مع المعارضة الوطنية . وأُحل محلّه عمه حسين كامل ، واستبقى عرش أجداده .

- **حسين كامل الأول** (أول عام ١٩١٤ حتى أكتوبر عام ١٩١٧) وهو عم عباس حلمي :

وقد اتخذ لنفسه لقب السلطان ، كنوع من الإعفاء الرسمي للسلطة العثمانية . وعندما مات عام ١٩١٧ قام فؤاد ، أخوه مقامه ، بكل ما كان يجب من التضحية .

وعندئذ قام مفوَّض سام في بريطانيا بشؤون السلطة الفعلية وقرّر هذا إحلال العملة البريطانية مكان العملة العثمانية.

- **فؤاد الأول** أكتوبر ١٩١٧ - نيسان - وهو أخو حسين كامل تشرين ١٩١٧ - نيسان ١٩٣٦ .

منذ عام ١٩١٩ كان الوطنيون قد اجمعوا على تشكيل وفد برئاسة سعد زغلول (رئيس الوفد)، لمفاوضة لندن على شروط الاستقلال. وأبت الحكومة البريطانية استقبال هذا الوفد وأوقفت سعد زغلول ، ونفته إلى جزيرة سيشيل. ولكن ردّ الفعل لم يتأخر عن الظهور، واندلعت اضطرابات هنا وهناك في كل أنحاء مصر. وعندئذ قررت الحكومة البريطانية العدول عن نظام الحماية، على احتفاظها بأربع أولويات»: هي حق تأمين مواصلاتها مع الإمبراطورية، والدفاع العسكري عن مصر، وحماية الأجانب والأقليات في مصر والسودان. أما في الواقع فقد بقي كل شيء على حاله. ذلك أن الاحتلال العسكري قائم والمفوّض السامي البريطاني يظل صاحب السلطة.

وفي عام ١٩٢٢ ، نرى « فؤاد»، يتخلّى عن لقب السلطان، ويرضى بمجرَّد لقب « ملك». وأعلن عن دستور جديد عام ١٩٣٠ سرعان ما استخدمه الوفديون لتعزيز معارضتهم. فعدل « الملك» عن دستور عام ١٩٣٠ ، بعد أن حلّ البرلمان، وأقام حكم النظام العرفي. ثم إنه في عام ١٩٣٥ اضطر ، بضغط أنصار الوفد وسعد زغلول إلى العودة إلى الدستور. ويمكن القول إن حكمه كله هو تاريخ نضال الوفد ضدّه. ويأتي ابنه فاروق ليحل محله. بعد موته في نيسان ١٩٣٦ .

- فاروق الأول (نيسان ١٩٣٦ - تموز ١٩٥٢) وهو ابن فؤاد.

وعندما جلس على العرش، كان عمره قد بلغ فقط السادسة عشرة.

وكان قد تمّ الاتفاق، أو على الأصح، تَمتْ اتفاقات إضافية ٨ / ٥ / ١٩٣٧ وقّع عليها البريطانيون، وضعت حداً لنظام الامتيازات لصالح الغرباء. وكانت

القوات البريطانية لا تزال موجودة في منطقة قناة السويس. إلا أن هذا لا يمنع البريطانيين من إعادة الاحتلال إذا لزم الأمر، أي في حالة وجود أزمة عالمية.

وفي ١٥ / ٦ / ١٩٤٨، دخلت بعض القوات المصرية مع (شقيقاتها العربيات)، أراضي فلسطين للوقوف ضد إنشاء دولة إسرائيل. وعندما تمت هزيمة هذه القوات، لم تعتبر لدى رجالها، إذا لالاً، بل خيانة من رجال السلطة في القاهرة.

واعتبر الملك، المتهم في صورة حياته المكلفة وكأنه هو المسؤول عن الهزيمة. ففقد الناس صبرهم، واشتعلت حرائق القاهرة في ٢٦ / ١ / ١٩٥٢. وفي ٢٣ / ٧، قامت مجموعة من الضباط سميّت باسم الضباط الأحرار، وكان تنظيمها يعود إلى جمال عبد الناصر، أنور السادات، فاستولت على السلطة وأرغمت (فاروق)على التنازل (وسيموت الرجل في روما يوم ١٨ / ٣/ ١٩٦٥.

وهذه الثورة هي التي فرضت النظام الجمهوري وأنهت سلطان أسرة الفرعون الأخير.

-٢-

السان سيموينون ومصر

كلود - هنري دوروفروا، إنسان وُلد في باريس، عام ١٧٦٠، وهو كذلك الكونت دوسان سيمون. ابن عم بعيد لكاتب المذكرات التاريخية Louis de Rouvroy، الدوق سان سيمون، ويبدو هذا الرجل وكأنه أول اشتراكي فرنسي في العصر الصناعي. بل هو صناعي كذلك، وعلى الأقل بالمعنى السان سيموني للكلمة، أي أنه رجل ينطلق دومًا إلى الحياة النشيطة. وهو يتعهد أعمالاً. يفقد فيها ماله، ثم يغنى مرة أخرى» ويعود فيفتقر من جديد، ويعيش أخيراً لدى رجل كان خادمًا، رعاه بقدر ما يستطيع. وهو، في الوقت نفسه، موسوعي المعارف وعالم اقتصاد، ورجل ذو نزوع إنساني وهو كذلك نبي العهد الصناعي الذي بدأ بالظهور.

« إن الإنسان ما زال حتى الآن، يستغل الإنسان الآخر» فهناك سادة، وهناك عبيد، وهناك أسر نبيلة كما هنالك أسر شعبية؛ عظماء وأقنان؛ ملاكون ومزارعون؛ عاطلون عن العمل، (وشغيلون). لكن المشاركة العالمية في كل شيء... ذاك هو مستقبلنا[...] فالإنسان لم يعد من حقه أن يستغل الإنسان ولكن الإنسان، المشارك للإنسان الآخر، يستغل العالم، الموضوع تحت تصرّفه؛[...] ولكل منظرينا السياسيين عيون تتجه إلى الماضي [...] ويقولون لنا دومًا: إن الابن، قد ورث دومًا عن أبيه [...]. ولكن الإنسانية شاعت ورفَع صوتها مع يسوع المسيح. ولم يعد

هنالك من عبيد. وعند السان سيمون: لكل إنسان حسب كفاءته ولكل كفاءة بقدر ما تعمل، ولم يعد هنالك من إرث [1]».

وعندما مات الكونت سان سيمون عام ١٨٢٥، لم تكن نظريته قد عُرفت إلا من قبل عدد صغير من الأنصار، كثيراً ما كانوا يهودا(مثل Olinde Rodrigues و Leon Halevy) لكنها بين عامي ١٨٢٥ و ١٨٣٠ كسبت بعض الأنصار من النخبة، وخاصة من طلاب المدرسة المتعددة الفنون. والأكثر بروزاً من بين هؤلاء هم Prosper Enfantin وهو عقل واسع المدى، تخدمه أو تساعده مغناطيسية حقيقية. ومنهم أوغست كونت فيلسوف المذهب الوضعي وآرمان كاريل Saint Armand carrel و Amant Bazard. وهو أقل موهبة، ولكنه أوثق شخصية، و Charles Duveyrier، المهندس المتميّز في مناجم فورنيل H.Fournel وبيير لورو Pierre Leroux. وأدوار شارتون Edouard charton و J.Terson و، وإيميل بارو Barrault. والأخوة Talabot، والموسيقى Felicien David. وبارو هو واحد من السان سيمونيين النادرين البارزين في الآداب Gustave d' Eichthal غوستاف ديشتال، وكثيرون من هؤلاء كانوا ليبراليين؛ مثل Bazard الذي كان واحداً من مؤسسي صناعة الفحم الفرنسية.

وهكذا فإنه نشأ مع السان سيمونيين، في فرنسا، نوع من «الحركة الاشتراكية» قبل ثورة عام ١٨٣٠. وفي هذا الجو الذي خلقته أيام الثورة، بدأ التبشير السان سيموني يتسّع ويتنوع في باريس، كما في المحافظات.

وما هو إلا زمن يسير، حتى تجاوزت اتجاهات المعلم الروحية، لكي تنشأ «ديانة جديدة» تثير الخيال الشعبي من غير أن تخدم الهدف. وهكذا فإن دير السان - سيمونيين في Menilmontant، يثير السخرية أو الفضيحة، قبل أن يتناثر عام ١٨٣٢، كنتيجة للإدانات القضائية.

---

(١) هنري دالماني D,Allemagne، السان سيمونيون، باريس ١٩٣٠ .

لكن الحركة تكسب أناساً ، أكثرهم من أصحاب المهن الحرة، حتى لقد وصل شيء منها إلى الجيش، وشيء إلى الأوساط العمالية، ولكنها قلما مسّت الجماهير، على الرغم من كثرة الذين أعاروها سمعهم أو استطاعت هي جذبهم. وكانت صحيفة Le Globe (العالم) اليومية تنحاز إلى السان سيمونية، وكانت في الأصل ليبرالية النزوع. وبدأت طائفة السيمونيين تنشر أدباً دعائياً، كثيفاً أحياناً، تشغل فيه الأغنية مكاناً واسعاً. ومع ذلك فإن هذه الحركة لم تصبح قط شعبية، ولم تجمع إلا أعداداً قليلة من الناس سرعان ما تذوب.

وشيئاً فشيئاً نراها تنقلب إلى كنيسة يتراتب أعضاؤها. وفي عيد رأس السنة من عام ١٨٢٩ ، اختارت مجموعة القدماء أنفانتان Enfantin وبازار Bazard كرئيسين لكنيستهما، أي آباءاً (بالمعنى الكنسي) للأسرة: وفي عام ١٨٣١ ، أصبحت هذه الكنيسة تضم ما يقرب من ثمانين عضواً، بغض النظر عن المنتسبين الجدد، وكان فيهم بعض النساء، مثل (suzanne voilquin, Eugenie Niboyet , Sophie Lambert).

وكانت الحكومة لاتحب خلخلة النظام القائم، وتطلب من لوي فيليب التخلي عن عرشه. وكان ما في ثياب رجال هذه الحركة الكثير من التحديات في الملبس، مما يثير أحياناً ردود فعل معادية من جانب الطبقات الشعبية. لكن أسوأ المصاعب تنشأ داخل صفوف هذه الحركة لا خارجها. وككل دين آخر، لابُدَّ أن يحدث بين رجاله تطرف ومبالغات وانقسامات. وكان بازار يضيق صدراً من مبالغات أنفانتان، ولا يقبل سلوكه الجنسي، ولا إدانته للزواج. ثم إن العقول السليمة تأبى أن تظن أن « المسيح» يعود فيحيا في أنفانتان». أو أن هذا هو مسيح الأم». وهكذا فإن انفصالية بازار، تُتبع بانفصالية رودريغ. أما الصعوبات المادية فإنها تبرز بعنف في نفس الوقت: وهكذا فإن على قاعة طريق Taitbout أن تغلق؛ وتنقص موارد جريدة الـ Globe فتنقطع عن الظهور، بسبب نقص الموارد. أضف

إلى هذا أن Enfantin ، وشوفاليه ، Chevalier و Duveyrier قد حكم عليهم بسنة من السجن وبمئة فرنك كغرامة، كما حكم على رودريغ وبارّو بخمسين فرنكًا.

وفي اليوم التالي لصدور الحكم، بدأ السان سيمونيون يعيشون القلق والاضطراب. ومنهم من تعهد البحث عن «المرأة المسيح». وينشئ بارو في كانون الثاني ١٨٣٣ مؤسسة دعاها باسم «رفاق المرأة». إذ يجب أن نمضي إلى المرأة، كما نمضي من النهر إلى البحر، ومن النسر إلى النور. وهذه المرأة «المخلصة» يحاول بعضهم أن يجدها في القاهرة، وبعضهم الآخر في الآستانة.

ويسمع الأب أنفانتان، من أعماق سجنه، «أصوات الشرق الذي يستنجد بالغرب النائم». وخلال الأشهر الستة التي قضاها في السجن، كان في الوقت متسع للتفكير بمصر، طويلاً. وفي قناة تصل بين البحرين: ويخلص من ذلك إلى ضرورة قيام اتحاد، يكون البحر المتوسط مركزه: عندئذ سيعطيك الغرب فنه أو تقانته، ويعطيك الشرق مخزون إيمانه. ووصلت أول مجموعة إلى مصر عام ١٨٣٣، لكي تطبق فيها الأفكار السان سيمونية، وخاصة بغية تحقيق الحلم الأكبر: أي الوصل بين البحرين، بهذه القناة التي ستصبح «المركز الأول لحياتهم العملية المنهكة». وأصلاً وفي عام ١٧٨٣ فإن Claude Henri de Rouvroy(أي سان سيمون نفسه، كان قد أشار على نائب الملك في المكسيك، أن يفتح قناة بناما). وفي عام ١٧٨٧، كان قد اقترح على إسبانيا بأن تصل مدريد بالأطلسي، عن طريق إشبيلية Seville، وباستخدام الوادي الكبير Guadalquivir. وفيما يرى أنفانتان، فإن فتح قناة السويس، لن يكون مجرّد إنجاز تقني، بل هو يقابل ضرورة دينية. ذلك أن رسم هذا الخط الأزرق، على خريطة العالم، سيكون إشارة سلم وسلام ومصالحة وحب، بين القارتين.

وعلى ذلك، فإنه ليس من المستغرب أن يفكر السان سيمونيون بمصر. ذلك أنها تستهويهم بالقصص الرائعة لماضيها، وبما تعده للمستقبل المتجسّد في شخصية

محمد علي. وكان هؤلاء بصورة ما، يرون أن سياسة نائب الملك ليست ببعيدة أبداً عن العقيدة السان سيمونية. وكما يقول Philippe Regnier» فإنه يبدو أن الباشا يحقق، بأعجوبة، نظرياتهم: أي تركيز ملكية الأرض، والملكية العقارية والصناعية بين الأيدي الأكثر كفاءة وقدرة على تحسين استثمارها (قد يكون الملك نفسه) وتجنيد الشعب كله للقيام بأعمال ضخمة ذات الفائدة التي تعود على المجتمع كله، وتنشئة مهندسي الدولة، أي الأيدي العاملة المتخصصة طبعاً[٢] إلخ..

وترى هؤلاء يحملون أيضاً، بلغتهم الجريئة، بتخصيب الجنس الأسود، أي العرق النسوي والعاطفي، بفضائل الذكور البيض وفكرهم العلمي[٣].

وحوالي ١٤ / ٥ / ١٨٣٣، يفد على ظهر الباخرة، clorinde أوائل الواصلين من السان سيمونيين، ويستقرون في الإسكندرية. وكان البعض قد سبقوهم، منذ ٣٠/ ٤. وكان بين هؤلاء جميعاً، و Cayol وBarrault و Alric Felicien Davidو Descharmes و Granal و Rigaud و Urbain.

وحاولوا لقاء الباشا محمد علي مرتين، بفضل دعم (سيريزي)، ولكن عبثاً. ففي المرة الأولى كان محمد علي نائماً، وفي الثانية كان التراجمة غائبين.

وفي ٢٤ / ١٠ / جاء دور Prosper Enfantin في الوصول إلى الإسكندرية.

واستقبل هؤلاء، لدى قنصل فرنسا ميمو، من قبل فرديناند دوليسّيبس de Lesseps نائب قنصل فرنسا، وتحدّثوا لهم عن مطامحهم في مصر، مثل إقامة سكة حديدية بين القاهرة والسويس، وكانوا يُركّزون خاصة حديثهم على قناة السويس التي كانوا قد رسموا مخططاً لها. وقد قابلوا فيمن قابلوه، لينان دوبيلفوند

---

(٢) - فيليب رينيه وأمين عبد النور: السان سيمونيون في مصر، القاهرة ١٩٨٩.

(٢) - كان أنفانتان المهووس بالمرأة يأمل أن يجدها في مصر، وهي التي اختارها الله لتكون «الأم». وكان الغربي يشبه الأب أما الشرق فعليه أن يأتي بالأم.

Linant de Bellefonds ، فيغريه فيهم ما يقولون، وما لديهم من فلسفة. إلا أنه لم يصبح قط واحداً من مدرستهم.

وأخيراً استطاع Fournel وحده مقابلة الباشا، في يوم من أيام كانون الثاني ١٨٣٤ . وكان موعد هذه المقابلة يوم ١٣ ، في التاسعة مساءً. وجرى الحديث عن مناجم سورية وسكة الحديد، ولكن لم تقل أي كلمة عن السان سيمونية، حتى ولو بطريقة غير مباشرة. وكذلك لم تُقل أية كلمة عن القناة، حتى ولا مجرَّد تبادل وجهات النظر، فكأن الباشا أراد إنهاء المقابلة(٤) . ويلاحظ بعد فترة من الزمن أن محمد علي رخَص للإنجليزي Galloway، دون أن يُتبع ذلك بأي عمل. وربما كان هذا الترخيص قد أعطي لهذا الرجل لأسباب سياسية. وبالمقابل فإن المجموعة السان سيمونية ستشارك، فعلياً في بناء السدّ، في الدلتا وبهذه المناسبة، فإن أنفانتان يقدم بعض المقترحات للحكومة المصرية. ومنها منع استخدام عمال زادت أعمارهم عن الأربعين سنة، واستخدام أولئك الذين يكونوا قد شوهوا أجسادهم(٥) .

وعملاً ببعض المبادئ العسكرية، قدّم هؤلاء اقتراحًا يقضي بتنظيم مجموعات من العمال في ١٨ كتيبة Bataillon تقسم إلى عشر سرايا، وهذه تقسم بدورها إلى خمس زمر Escouades ثم يكلف ستة عمال كمعلمين بأجر قدره ٢٥ قرشاً في الشهر. ويقترح الرجل أن يكون من حق كلّ عامل مهما يكن نوعه، أن يُعطى وجبة طعام موحدّة لكل العمال دون تمييز في الرتُب، وأن يُعطى فوق ذلك غطاء لنومه، ونوع واحد من الثياب، يتألف كل واحد منها من قمباز من الصوف، وحزام، وطربوش (أو قبعة) يحميه من ضربات الشمس، ويقبل من العمال أن يُحضروا معهم نساءهم وأبناءهم. ويمكن أن يعطى هؤلاء - إذا عملوا - من الأجر،

(٤) - Regnier (مصدر سابق)

(٥) - وكان يحسب أن إرغام الفلاحين على العمل، في عمل ورشة ما، ينتهي بهم إلى تثبيط الهمم، ويعدلون عن تشويه أجسامهم لكيلا يُجنّدوا.

مـا يتناسب مع صـورة عـملهم. ومن العـبث أن نقـول : إن أي واحـد من هذه الاقتراحات لم يلق قبولاً لدى الباشا. ذلك أننا ذكرنا خلال الحديث عن بناء السد، أنه ما من شيء أُعدّ لإسكان العمال أو لإطعامهم.

ورفض فورنيل أن يقبل العمل في بناء السد. وسافر إلى سورية، مقدرًا أنه ما من شيء يستحق العناء غير مشروع القناة.

ولنذكر أن النزاعات الناشئة عن التدخل الشخصي لرئيس السان سيمونيين، في إدارة الورشـة، وفـوضى أخـلاق جـمـاعـتـه، والمشـاكل المالية والعـسكرية لنائب الملك، سرعـان ما احتاجت إلى إيقاف العمل. أضف إلى ذلك، أن وبـاء الطاعون (كانون الثاني - ١٨٣٥) أضعف عدد العمال في الورشة. وهذا ما أدّى إلى انسحاب السان سيمونيين من مصر. وكان Lambert عنصراً نادراً من العناصر التي واصلت العمل في السد. وهو الذي كُلّف بإنشاء المدرسة المتعدّدة الفنون (وبالمناسبة نقول إن هذا الرجل كان من تلاميذ مدرسة البوليتيكنيك الفرنسية. وقد فتحت هذه المدرسة بعنايته في بولاق.

ولكن عودة أنفانتان إلى باريس، لـم تمنعه من متابعة الحديث عن فتح القناة. وفي الشهر الحادي عشر من عام ١٨٤٧، تكوّنت شركة، الدراسات لقناة السويس الدولية» وهي شركة دولية يتألف رأس مالها من ١٥٠ ألف فرنك. وسيتألف مجلس الإدارة من عضـو نمسوي، هو لـويس نغـريللي Louis Negrelli(مستشـار مترنيخ) وعضوين إنجليزيين، همـا روبير ستيفنسون، ابن المهندس جورج ستفنسون الذي اخترع تسيير الحركة بالبخار، والمهندس الثاني هـو إدوار ستاربروك، ومن بروسيين (ألمان) همـا Feronce و Sellier، ومن فرنسيين همـا إدمون وليون تالابو، وآرليس دوفور... و أنفانتان، أخيراً. وكان دفتر المهام يقتضي مايلي.

١ - جعل القناة محايدة، مما يعني أن لا حصة للباب العالي فيها. كما أنه لا يملك أي حق في السيادة أو الملكية، بالإضافة إلى التصريح الواضح بأن القناة لا تكون ملكًا لأي دولة.

٢ - ولنائب الملك حق النظر، مع الشركة، في الشروط التي يراها مناسبة، لكي تستطيع الشركة تملك الأرض التي ستحفر عليها القناة.

٣ - التحريم المطلق لأي مرور بالقناة على أية سفينة حربية، أو أية قوة عسكرية، تحت أي عزر من أي نوع، بشكل ظاهر، أو خفي. وكنتيجة لهذا التحريم، تمنح الشركة حق التحقق من حمولة أي مركب تشك في إخفائه ذخائر حربية أو جنود.

وكانت هذه الشروط تستجيب لآمال محمد علي. ولكن ما من دولة غربية قبلت هذه الشروط، وذهبت جهود أنفتان عبثًا.

وأخيراً، ، فإن الترخيص بشق القناة أعطي لفردينان دوليسيبس، وهو معلم قديم لأصغر أبناء محمد علي: أي سعيد. وهذا السعيد الذي تولى العرش ذات يوم ١٤ / ٧ / ١٨٥٤ هو الذي أعطى معلمه الترخيص. ومن تلك اللحظة، بدأت المشاكل بين دوليسيّبس وبين السان سيمونيين، وانتهت أخيراً إلى القطيعة النهائية.

وفي ١٧ / ١١ / ١٨٦٩، دُشنت القناة التي تصل بين البحرين، في إطار حفلة كبيرة تذكر حتى اليوم لكنها كلفت مصر تكاليف هائلة.

-٣-

وثائق ديلوماسية

معاهدة أنكيار سكيلّسى

إن جلالته الإمبراطورية، الشديدة السمّو، والعظيمة القوة، إمبراطور روسيا كلها، والحاكم بأمره، وجلالته العظيمة السمّو، والشديدة القوة، إمبراطور العثمانيين، عملاً بالرغبة النزيهة، بالمحافظة على السلام والانسجام القائم بين الإمبراطوريتين، لحسن الحظ، قد قرّرا تعزيز الصداقة القائمة بينهما والثقة القائمة بين الطرفين، بعقد معاهدة تحالف دفاعي.

وعلى ذلك، فإن جلالتيهما، اختارا رسميًا المفوضين المطلقي الصلاحية.

١ - إمبراطور كل الروسيات:

- الكونت الكسي أورلوف السفير لدى الباب العالي والسيد أبولينيربوتينييف، مبعوث إمبراطور كل الروسيات، المطلق الصلاحية، لتمثيله لدى الباب العالي.

٢ - وصاحب العظمة سلطان البرين والبحرين، سلطان العثمانيين:

صاحب الشرف والسعادة أقدم وزرائه، خسرو محمد باشا، وفوزي أحمد باشا، قائد حرس صاحب الجلالة والحاج محمد عاكف أفندي.

بعد أن قام هؤلاء بتعريف أنفسهم، وبالتحقق من وثائقهم قرروا المواد التالية:

المادة الأولى

سيسود السلام والصداقة والتحالف بين جلالة إمبراطور كل الروسيات، وجلالته إمبراطور العثمانيين وسياداتهما على إمبراطوريتهما ورعاياهما، سواء أكان ذلك على الأرض أم في البحر. وليس لهذا التحالف إلا موضوع واحد هو موضوع الدفاع المشترك بين دولتيهما ضدّ كل تجاوز. ويعد جلالتاهما بالاتفاق دون تحفظ على كل المواضيع التي تتعلق بهدوء بلديهما وأمنهما، وتعهدتا بأن يقدِّم كل منهما للآخر مساعدات مادية وعونًا ناجعًا.

المادة الثانية

إن معاهدة السلام المعقودة في أدرنويل يوم ٢ / ٨ / ١٨٢٩ وكذلك سائر المعاهدات الأخرى المنضوية فيها وكذلك الاتفاق الموقع في سان بطرسبورغ يوم ١٤ / ٤ / ١٨٣٠، والتسوية المعقودة في الآستانة يوم ٩ / ٢١ تموز ١٩٣٣، المتعلقة باليونان، تظل قائمة في كل ما اشتملت عليه في معاهدة التحالف الدفاعي، هذه كما لو أن المعاهدات المذكورة قد أدخلت فيها كلمة كلمة.

المادة الثالثة

ونتيجة لمبدأ المحافظة والدفاع المشتركين والمتبادلين، الذي يعتبر كأساس لمعاهدة التحالف هذه، وتبعًا للرغبة المخلصة بضمان بقائها، والمحافظة على الاستقلال الكامل للباب العالي، فإن جلالة إمبراطور كل الروسيات، في الحال التي يمكن أن تدعو الباب العالي لطلب المساعدة المعنوية والعسكرية، من روسيا، على الرغم من أن هذه الحال غير متوقعة أبداً، بإذن الله - فإن روسيا تتعهد بتقديم العون براً وبحراً، في صورة قوات عسكرية بالدرجة التي يتفق فيها الطرفان، على أنها ضرورية. وعلى ذلك فإن من المتفق عليه في هذه الحال التي يطلب فيها الباب العالي العون والمساعدة، أن تكون هذه القوات تحت تصرفه.

المادة الرابعة

وتبعًا لما قيل أعلاه، فإنه في الحال التي تكون فيه إحدى الدولتين أو الاثنتان معًا قد طلبتا إحداهما أو كلاهما مساعدة من الطرف الآخر، فإن النفقات الضرورية لإعاشة القوات البرية أو البحرية، وحدها، تكون على عاتق الدولة التي طلبت العون.

المادة الخامسة

ومع أن الدولتين المتعاقدتين تنويان بقاء هذه المعاهدة سارية إلى الأبد، فإنه يمكن أن تأتي ظروف تقتضي إدخال بعض التعديلات على هذه المعاهدة، ولهذا تم الاتفاق على تعيين مدة ثماني سنوات، لإعادة النظر ثانية، اعتباراً أو بدءاً من هذا اليوم الذي يتمّ فيه تبادل التصديق على المعاهدة الإمبراطورية. وعلى الطرفين، قبل انتهاء هذه المدة، أن يتشاوروا تبعاً للأوضاع التي ستقوم يومئذ حول تجديد هذه المعاهدة.

المادة السادسة

إن معاهدة التحالف هذه، سيصادق عليها من قبل الطرفين المتعاقدين، كما أن تبادل التصديق سيتم في الآستانة، خلال شهرين أو أقل، إذا أمكن.

إن هذه الأداة المشتملة على ست مواد والتي سيُنظرُ فيها للتصحيح إذا احتاج الأمر إلى ذلك، باعتبارها قد قرّرت من الطرفين، هي التي وقع عليها الطرفان ووضع كل منهما خاتمه الرسمي عليها، بحكم تفويضنا الكامل، وسيكون لكل من الطرفين نسخة عنها لدى المفوضين المطلقي الصلاحية التابعين للباب العالي.

حرِّر في القسطنطينية يوم ٢٦ حزيران، عام ١٨٣٣

الكونت ألكسي أورلوف

وبوتنييف Orlof

A.Boutenieff

مادة منفصلة وسرية
في معاهدة التحالف السابقة

إن الطرفين المتعاقدين، بحكم أحد بنود المادة الأولى. لمعاهدة التحالف العثماني بين الباب العالي، وبين البلاط الإمبراطوري الروسي، يتعهدان بتبادل تقديم المساعدات المادية والعون الأكثر ما يكون نجعًا. للحفاظ على أمنهما المتقابل. ومع ذلك، فإن جلالة إمبراطور كل الروسيات، إذ يريد أن يُوفر على الباب العالي جملة التكاليف، والأعباء التي تنشأ عن حاجته إلى عون مادي : يقرر ألا يطلب مقابل تقديم المساعدة التي ينبغي عليه أن يقدمها، طبعًا لمبدأ التبادل، أن يقصرّ عمله، خدمة للبلاط الروسي، على إغلاق مضيق الدردانيل، أي أن لا يسمح لأية عمارة حربية غريبة أن تدخل منه، مهما يكن المبرّر.

وسيكون لهذه المادة، المنفصلة والسرية نفس القوة والقيمة التي تملكها أية مادة من مواد هذه المعاهدة.

كتب هذا في القسطنطينية يوم ٢٦ / ٦ / ١٨٣٣

الكونت ألكسي أورلوف

بوتيتييف

معاهدة لندن

عقدت في ١٥ / ٧ ، بين ملوك بريطانيا العظمى، وبروسيا وروسيا، وبين الباب العالي العثماني، بغية إحلال السلام في الشرق . وتم توقيعها في لندن في ١٥ / ٧ / ١٨٤٠ .

باسم الله الرحمن الرحيم

لما كان جلالة السلطان قد استعان بجلالاتهم، ملكة الولايات المتحدة لبريطانيا العظمى، وإيرلندا ، وإمبراطور النمسا، ملك هنغاريا والبوهيم، وملك بروسيا وإمبراطور كل الروسيات، بغية الحصول على دعمهم وتقديم مساعدتهم، لإنهاء المصاعب التي تُعاني منها دولته، بسبب السلوك المعادي الذي سلكه محمد علي، باشا مصر، وهي مصاعب بالغة الخطورة على سلامة السلطنة العثمانية، وعلى استقلال العرش السلطاني، فقد اجتمع جلالاتهم بحكم عواطف الصداقة التي تقوم بينهم وبين السلطان، وحباً بالسهر على حفظ السلطنة من كل خطر، والدفاع عنها ضد كل شر، وحرصاً على السلام وتأكيده في أوروبا . ولما كانت دولنا هذه وفيّة للتعهدات التي عقُدت بواسطة المذكرة التي قدّمت إلى الباب العالي، عن طريق ممثليهم في الآستانة يوم ٢٧ / ٧ / ١٨٣٩ ، وكانت أيضاً ترغب في حقن الدماء التي سيسبّبها استمرار الأعمال العسكرية التي تمت حديثاً في سورية، بين سلطات الباشا، ورعايا جلالة السلطان، فقد قرّرت الدولة المستعينة، والدولة أو الدول المستعان بها، فيما بينها على عمل مشترك، وسمّت كل دولة ممثليها لهذا الغرض، أي:

جلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى، ويُمثلها هنري جان فيكونت بالمرستون، والبارون تامبل، عضو مجلس اللوردات في إيرلندا، ومستشار جلالتها

في مجلسها الخاص، والفارس، حامل الصليب الأكبر، المشرف جداً لنظام البان Bain وعضو البرلمان، وسكرتير الدولة الأول، الذي يقوم على شؤون الدولة الخارجية.

وجلالة إمبراطور النمسا، ملك هنغاريا وبوهيميا. ويمثله السيد فيليب، بارون نيومان، وكوماندور أنظمة البرج والسيف، البرتغالي وحامل صليب جنوب البرازيل، وفارس الصليب الأكبر لنظام القديس ستانيسلاس، من الدرجة الثانية لروسيا، والمستشار المفوض لجلالته؛

وجلالة ملك بروسيا، يُمثّله السيور (السيد) هنري غيوم، بارون بولو Bulow، وفارس نظام النسر الأحمر، من الدرجة الأولى لروسيا والصليب الكبير لنظام ليوبولد النمسا وغيلف هانوفر، والصليب الأكبر لأنظمة سان - ستانيسلاس، من الدرجة الثانية والقديس فلاديمير من المرتبة الرابعة لروسيان وكوماندور، نظام صقر ساكس ويمار، ومعاونه، المستشار الشخصي الحالي، والمبعوث الخارق للعادة، والوزير المطلق الصلاحية الشخصي لدى جلالته:

وجلالة إمبراطور الروسيات، يمثله السيور فيليب، بارون برونو، وفارس أنظمة سانت آن، من الدرجة الأولى، وسان فلاديمير من الدرجة الثالثة وكوماندور نظام سانت اتيين لهنغاريا، وفارس نظام النسر الأحمر ونظام سان جان للقدس، ومستشاره الخاص، والمبعوث الخارق للعادة والوزير المفوّض لجلالته.

وجلالته، صاحب العظمة ... السلطان عبد المجيد، إمبراطور العثمانيين، عيّن شكيب أفندي. الحامل وسام «نيشان الافتخار من الدرجة الأولى والمستشار الفخري في الشؤون الخارجية والسفير الخارق للعادة لدى جلالته.

بعد أن قام هؤلاء بتعريف أنفسهم، بعضهم لبعض، وبالتحقق من وثائقهم، قرّروا ووقعوا على المواد التالية.

المادة الأولى

يتابع هؤلاء جميعا حمل محمد علي على قبول شروط هذا الاتفاق والتعاون الموقع والموافق عليه فيما بينهم بالوسائل التي يملكها كل منهم، علماً بأن عناصر الاتفاق كتبت على ورقة على حدة، ووافق عليها جميع أصحاب الجلالة المشتركين في هذه المعاهدة.

المادةالثانية

إذا رفض باشا مصر اتفاق هذه الدول، بعد إبلاغه نصه عن طريق السلطات، فإن كلاً منها سيصدر الأوامر لقواته البحرية لجعل هذا الاتفاق نافذاً. وبعد أصحاب الجلالة، إضافة إلى ذلك بحمل أساطيلهم، كلّ بحسب وسائله وقدرته، بحكم التحالف، على دعم بنود هذا الاتفاق، ومساعدة رعايا السلطان الذين يبدون وفاءهم لسلطانهم، وطاعتهم له.

المادة الثالثة

وإذا قام محمد علي، بعد رفضه لهذا الاتفاق، بتوجيه قواه البرية والبحرية، إلى الآستانة، فإن الدول المتآزرة، تحشد كل ما لديها من قوة لحماية الآستانة، ومضيقي البوسفور والداردانيل من عدوان قوات محمد علي، وتظل في مواقعها التي تُخصّص لها لدفع كل عدوان. وعندما يرى السلطان أن الغاية تحققت، فإن القوى المتحالفة، تنسحب في آن واحد، إما إلى البحر الأسود، وإما إلى المتوسط.

المادةالرابعة

إن من المتفق عليه أن التعاون المشار إليه في المادة السابقة، والمُعدّ لوضع المضائق (البوسفور والداردانيل) تحت تصرّف الحلفاء مؤقتاً، هي والعاصمة العثمانية، يقوم على حرص الجهات المتعاقدة، على دفع أي عدوان من محمد علي.

ولا يمكن اعتباره إلا كتدبير تُبنّي استثنائيًا، بناء على طلب صريح من السلطان، ومن أجل الدفاع عنه، في الحال الوحيدة المشار إليها أعلاه. ولكن من المتفق عليه أيضًا ألا تخترق في أي شيء القاعدة القديمة للسلطة العثمانية، التي تعتبر دومًا أن من الممنوع على السفن الحربية للدول الأجنبية أن تدخل إلى هذه المضايق، أي الداردانيل والبوسفور؛ وأن السلطان، من جهة أخرى، يُصرّح في إطار هذه المعاهدة، أن هذا التحريم دائم ومتواصل، باستثناء هذه الإمكانية المشار إليها أعلاه (أي الدفاع الآن عن السلطان ضدّ محمد علي). ومن جهة أخرى، فإن أصحاب الجلالة، ملكة المملكة المتحدَّة، وإيرلندا، وإمبراطور النمسا ... وملك بروسيا ... وإمبراطور كل الروسيات، تلتزم باحترام هذا العزم من جانب السلطان، والانقياد للمبدأ المشار إليه أعلاه.

المادة الخامسة

إن هذا الاتفاق سيُوقَّع عليه من كل الجهات المعنيّة. أما التصديقات عليه فستبادل خلال شهرين في لندن، أو بما هو أسرع إن أمكن.

وتبعًا لهذا، فإن المبعوثين المطلقي الصلاحية لمختلف الدول المشاركة في هذه المعاهدة، قد وقّعوا عليها وختموها بخاتم جيوشهم.

كتب في لندن، يوم ١٥ / ٧/ ١٨٤٠

بالمرستون، نيومان

بولو، برونو، شكيب

عقد

هذا عقد ملحق بالاتفاق الذي تم في لندن يوم ١٥ / ٧/ بين بلاطات بريطانيا والنمسا وبروسيا، وجميع الروسيات من جهة أولى، وبين الباب العالي العثماني من جهة أخرى.

المادة الأولى

إن السلطان العثماني يعد محمد علي، هو شخصيًا، وأخلافه المباشرين بباشوية مصر؛ ويعد جلالته، بالإضافة إلى ذلك أن يهب محمد علي، طول حياته، لقب الباشا على عكا، بالإضافة إلى قيادة حصن عكا، وإدارة القسم الجنوبي من سورية، بعد أن توضع حدوده في الخط الفاصل، الذي يمضي من رأس الناقورة على شواطئ المتوسط، ويمتد هناك مباشرة حتى فوهة نهر السيسبان أي الطرف الشمالي من بحيرة طبريا، ويوازي الشاطئ الغربي للبحر الميت، متصلاً به، ثم يستطيل من هناك إلى اليمين حتى البحر الأحمر: ليصل إلى النقطة الشمالية من خليج العقبة، ويتبع الشاطئ الغربي لخليج العقبة، والشاطئ الغربي لخليج السويس وحتى السويس.

ومع ذلك، فإن السلطان عندما يقدِّم هذا كله، نراه يربطه بموافقة محمد علي، خلال عشرة أيام، بعد أن يصل العرض إلى الإسكندرية، على يد أحد رجال عظمته، وأن يضع محمد علي بين يدي هذا الرجل جملة التعليمات الضرورية التي يُرسلها إلى قادة قواته البرية والبحرية، لكي تنسحب مباشرة من الجزيرة العربية، وكل المدن المقدّسة الموجودة فيها، بدءاً من جزيرة كاندي Candi، من منطقة أضنة، ومن كل أجزاء الإمبراطورية العثمانية غير الواقعة ضمن حدود مصر، أو في حدود باشوية عكا، على نحو ما أشير إليه أعلاه.

المادة الثانية

وإذا حدث أن محمد علي لم يقبل الترتيبات التي يشار بها إليه، أعلاه، في مهلة الأيام العشرة، فإن السلطان عندئذ سيسحب ما قدَّمه من جعل الباشا يدير منطقة عكا، طول حياته هو، وأبنائه المباشرين، ولكن جلالة السلطان يظل موافقًا على باشوية محمد علي لمصر، شريطة أن يُقبل هذا. خلال العشرة الأيام التالية، أي في مهلة عشرين يومًا، تبدأ منذ أن يكون محمد علي قد أحيط علمًا بهذا كله، شريطة

أن يضع في يد مفوَّض السلطان كل التعليمات الضرورية التي سينفذها قواده في البر والبحر. وسينسحبون فوراً ليصلوا إلى حدود باشوية مصر.

المادة الثالثة

إن الحصة السنوية التي سيدفعها محمد علي للسلطان، ستكون متناسبة مع الأراضي التي تبقى في حوزة إدارته تبعاً لقبوله الاقتراح الأول أو الثاني.

المادة الرابعة

ومن المتفق عليه، فوق ذلك، وسواء أقبل ما اقترح عليه في المرة الأولى أم الثانية، فإن محمد علي (وقبل انتهاء المدة المحدَّدة بعشرين يوماً) مرغم على إعادة الأسطول التركي، مع كل بحّارته وأسلحته، إلى يد المفوّض التركي، الذي سيكلّف بوضع اليد عليه أو استلامه: وسيكون قادة الأساطيل البحرية المتحالفة حاضرين لدى هذا الاستلام.

المادة الخامسة

وليكن معلوماً أن كل المعاهدات، وكل قوانين الإمبراطورية العثمانية، ستطبّق على مصر، وعلى باشوية عكا، كما تطبق على أية منطقة أخرى، من السلطنة العثمانية؛ غير أن السلطان يوافق، بشرط دفع الضريبة المشار إليها أعلاه، على أن يكون محمد علي وبنوه هم الذين يجمعون إدارتها المدنية في أيديهم؛ ومن المتفق عليه، إضافة إلى ذلك، أن محمد علي وخلفاءه من بعده سيؤمنون كل النفقات الضرورية للإدارة المدنية والعسكرية في المناطق التي تكون بين أيديهم، معتمدين في ذلك على ما يجبونه من المكلّفين.

المادة السادسة

إن القوات البرية والبحرية التي يقوم باشا مصر وعكا بالانفاق عليها، والتي تؤلف جزءاً من قوى الإمبراطورية العثمانية، تعتبر قوات قائمة لخدمة الدولة.

المادة السابعة

إن لهذا العقد المنفصل هنا قوةً وقيمةً مثل قوة المعاهدة المبرمة، وكأنها كُتبت فيها كلمة فكلمة. وسيصادق عليها، وتُتبادل نسخها في لندن في نفس الوقت الذي يتم فيه تبادل نسخ المعاهدة.

لندن ١٥ / ٧ / ١٨٤٠

بالمرستون ، نيومان

بُولو ، برونوب ، شكيب

البروتوكول رقم ١

الموقع في لندن، من قبل المبعوثين المفوضين من أصحاب الجلالة - إلخ، يوم ١٥ / ٧ / ١٨٤٠.

وعندما وضع خاتم أو توقيع الاتفاق المبرم هذا اليوم، من قبل المبعوث المطلق الصلاحية، للسلطة العثمانية، صرّح هذا المبعوث بما يلي:

إن المادة الرابعة، من هذا الاتفاق، تستعيد القاعدة المعمول بها في الإمبراطورية العثمانية، أي التحريم الدائم على السفن الحربية الأجنبية، باجتياز مضائق البوسفور والداردانيل. ومع ذلك فإن الباب العالي، يحتفظ، كما في الماضي، بحق إصدار فرمانات، للسفن الحربية الخفيفة الأجنبية التي تستخدم للمراسلات العائدة لمفوضيات الدول الصديقة. وقد أحيط، مفوضو بلاطات بريطانيا العظمى ... علماً بمضمون هذا التصريح، لنقله إلى البلاط.

بالمرستون ، نيومان

بُولو ، برونو

البروتوكول رقم ٢

قرَّر مندوبو البلاطات الأربعة، المطلقوا الصلاحية ووقعوا، في هذا اليوم، اتفاقًا، بالنيابة عن ملوكهم، حول إحلال السلام في الشرق هذا نصه.

بالنظر إلى البعد الذي يفصل عواصم بلادهم، فإنه لابدَّ من فترة زمنية يجب أن تنقضي قبل تبادل نصّ الاتفاق المشار إليه، وما يمكن أن يصدر من أوامر، يجب أن توضع موضع التطبيق، ولما كان هؤلاء المندوبون مقتنعين في أعماقهم، بأن الأوضاع الحالية في سورية وما تقتضيه من حاجات إنسانية، بالإضافة إلى الاعتبارات الخطيرة المتعلقة بالسياسة الأوروبية، التي تؤلف موضوع البواعث المشتركة للدول الموقعة على هذا الاتفاق، فإنه يجب منذ اليوم، تجنب كل تأخير في إنجاز عملية إحلال السلام التي أعد الاتفاق من أجلها، فقد اتفق المندوبون المطلقوا الصلاحية، على حقهم في اتخاذ القرارات الضرورية، لتنفيذ التدابير اللازمة، المشار إليها في المادة الثانية من الاتفاق المذكور، دون ما رجوع إلى ملوكهم.

وقد اتفق، بالإضافة إلى ذلك، على أن جلالة السلطان، يقوم مباشرة بتوجيه رسالة إلى محمد علي، تتضمن العروض المتفق عليها والملحقة باتفاق هذا اليوم.

وقد اتفق، فوق ذلك، على أن يقوم قناصل الدول الأربع المتحالفة (بريطانيا، روسيا، وبروسيا، والنمسا) بإبلاغ محمد علي العروض المذكورة أعلاه بواسطة المندوب الذي سيرسله السلطان إليه. ويساعدونه في مهمته، بكل ما يستطيعون، كما يقومون هم أنفسهم، بكل مالديهم من نفوذ لدى محمد علي، لحمله على قبول الاتفاق الذي سيعرض عليه، بأمر من سلطانه.

وسيتلقى أمير الات العمارات البحرية في البحر المتوسط كل التعليمات الضرورية ليكونوا على اتصال فيما بينهم والعمل المشترك بينهم وبين قناصل دولتهم.

بالمرستون، نيومان

بولو، برونو

مـذكـرة

مُوجهة إلى الفيكونتِ بالمرستون من قبل السيد غيزو ، يوم ٢٤ / ٧

كـانت فرنسـا ترغب دومًا، فيمـا يتعلق بالقـضيـة الشرقية، أن تمضي في كل الأمور، في خط متفق مع بريطانيا العظمى، والنمسا، وبروسيا، وروسيا. وما من يوم كـانت في سلوكـهـا، تتـحرك يمنة أو يسعرة إلا لمصلحـة السـلام. ولـم تر قط، أن تحكم على المقترحات التي عرضت عليها، إلا من وجهة نظر عامة، لا من وجهة نظر مصـالحهـا الخاصة: ذلك أنه ما من دولة هي أكثر منها إخلاصًا للمسـألة الشرقـية. وعندمـا نظرت بهـذه الصـورة، قدرّت أن كل المشـاريع التي كـان هدفـهـا أن تنتـزع من محمد علي، بقـوة السـلاح، بعض مناطق الإمبـراطورية التركـية التي يسـيطر عليـهـا الآن، كانت غير موفقة.

ولا تعـتقـد فرنسـا أن ما تمّ أمـر حسن بالنسبـة للسلطان ذلك أنه كـان (أو ربّمـا كان) يعطيه ما لا قدرة له، على الاحتفاظ به، أو على إدارته. وكذلك فهي لا ترى أنه كـان حسنًا بالنسبة لتركيا بصورة عامة، وللمحـافظة على التوازن الأوروبي من جهة أخـرى. ذلك أننا نضـعف، من دون جـدوى للسلطان، تـابعًا من أتبـاعـه يسـتطيع أن يساعده بقـوة على الـدفاع المشترك عن الإمبـراطورية، وبطبيعة الحال، فليس هناك إلا قضية نوع من التفكير، يمكن أن تبرز فيه أو حوله آراء مختلفة. ولكن فرنسـا لم تقبل أية مشاريع يمكن أن تحتاج لاستخدام القوة من قبل الدول الخمس. وكانت هذه الوسائل تبدو لها غير كافية أو هي على الأصحّ مشؤومة وأكثر بؤسًا من الوضع الذي كنا نبحث له عن علاج.

وهذا الذي كانت فرنسا تفكر به في هذا الموضوع، مازال هو ما تفكر به الآن: ولديها بواعث تحملها على الاعتقاد بأن هذا الرأي ليس رأيها وحده، أو وحده حصراً.

ولنقل إن أحداً لم يتقدّم إليها، في الظروف الأخيرة، بأي اقتراحٍ كان عليها أن تشرح رأيها فيه. وعلى ذلك فإنه لا ينبغي أن يقال إنها رفضت ما ليس لها به من علم ، ولم تحزر من خلاله، ذلك العزم الذي وجدناه لدى إنجلترا، في أن تفعل شيئًا باسم الدول الأربع، على الأرجح.

وأكثر من ذلك ، وبدون الإلحاح على قضيّة يمكن أن تنشأ عن مثل هذه الطريقة في التفكير تجاهها، فإن فرنسا تعلن من جديد أنها ترى ما حدث، أمر لم يُفكر به تفكيراً جيداً، وكان يعوزه الأناة، إذ كيف يجوز أن تتخذ قرارات، ولا وسيلة لدينا لتنفيذها. أو يمكن تنفيذها بوسائل غير كافية وخطرة.

إن تمرّد بعض سكان لبنان هو بلا ريب تلك الفرصة التي ظُن أنهم قادرون على التعلق بها، لكي يجدوا وسائل التنفيذ التي لم تكن قد ظهرت بعد. أفيكون هذا وسيلة يمكن الاعتراف بها، أو قل شيئًا مفيداً للإمبراطورية التركية، أن تسلك هذا السلوك تجاه نائب الملك؟.. إنهم يريدون إعادة شيء من الأمن والخضوع.، في كل أجزاء الإمبراطورية، ويريدون كذلك العمل لإثارة هذا التمرد أو ذاك! إنهم يضيفون صوراً أخرى من الاضطرابات إلى الاضطراب الذي أصبح عامًا، والذي تأسف له كل الدول، لمصلحة السلام وهذه الشعوب ، أيمكن أن نخضعها للباب العالي، بعد أن أثرناها ضد الباشا؟ إن هذه القضايا لم تجد من يحلها بعد. ولكن إذا تم القضاء على هذا التمرد ، وأصبح نائب الملك مالكًا مضمونًا لسورية من جديد، وإذا لم يزدد إلا غضبًا من هذا التمرد، وأصبح عصيًا على الإقناع، وردّ على الإنذارات

التي توجّه إليه بصور إيجابية للرفض، أفلا يجب التساؤل ما هي وسائل الدول الأربع؟ ومن المؤكد، أننا بعد أن قضينا سنة كاملة للبحث عنها، سنجدها ولم نكتشفها حديثًا، وسنكون عندئذ قد خلقنا خطراً جديداً، ربما كان أخطر الأخطار جميعًا: وهو أن نجعل نائب الملك، الذي أثارته الوسائل المستخدمة ضدهً: والذي ساهمت فرنسا في ضبطه سابقًا، يمكن أن يجتاز جبال طوروس ويُهدد من جديد مدينة الآستانة.

ونتساءل: ماذا ستفعله الدول الأربع في هذه الحال؟ وبأية صورة تتسلّل إلى داخل الإمبراطورية، لكي تقدم العون للسلطان؟ إن فرنسا تحسب أنه هيئ هناك، لصالح استقلال الإمبراطورية العثمانية، وصالح السلم العام، خطر أخطر من ذاك الذي كان يُمثله نائب الملك ومطامعه. ولئن لم تكن هذه الاحتمالات، التي هي نتائج السلوك الذي نريد أن نتبعه، لم تتبيّن، عندئذ تكون القوى الأربع قد انتهت إلى سلوك غامض جداً، وكثير الأخطار. فإذا قلنا إنها وضعته موضع تفكير، وهيأت له وسائله تهيئة جدّية، عندئذ يكون على الدول الأربع أن تحيط أوروبا علماً بذلك، وفرنسا خاصة، التي شاركت دوماً في تعيين الهدف المشترك، فرنسا التي يطالبونها بتقديم العون المعنوي، باعتبارها ذات نفوذ في الإسكندرية.

إن مساهمة فرنسا المعنوية في سلوك مشترك، كان، من ناحيتها، واجبًا؛ لكنه لم يعد كذلك في الوضع الجديد الذي يبدو أن الدول مقدمة عليه. ولا تستطيع فرنسا أن تتحرك، منذ الآن، إلا بحكم واجبها في إحلال السلام، وهذا أيضاً واجبها تجاه نفسها. إن صورة السلوك التي ستتخذها في الظروف الخطيرة التي أقامتها الدول الأربع ووضعت أوروبا تجاهها، سيتعلق بنوع الحل الذي سيقدّم للقضايا التي أشارت إليها.

إنها ستضع أمامها دوماً، حفظ السلام، والإبقاء على التوازن الحالي، بين دول أوروبا. وإن وسائلها كلها ستكرّس لهذه الغاية.

نـوطـة

مُوجهة من اللورد بالمرستون إلى السيد غيزو

في يوم ١٧ تموز كـان للمـوقع أدناه، الشرف بإعلام سعادته السيدّ غيزو، أن هناك اتفاقًا يتعلق بقضايا تركيا، وقّعت عليه يوم ١٥ من الشهر نفسه جملة الممثلين الديبلوماسيين لحكومات النمسا، وبريطانيا، وبروسيا وروسيا من جهة أولى، كما وّقع عليه الوزير المفوض للباب العالي، من جهة أخرى. وكذلك فإنه عندما تبادل الموقعون نسخ الاتفاق المصادق عليها، تشرف الموقع أدناه بإرسال نسخةعن هذا الاتفاق إلى السيد صاحب السعادة، غيزو، بغية أن يطلع الحكومة الفرنسية عليه. لكن الموقَّع على هذه الرسالة لا يسعه إلا أن يعبرّ من جديد عن أسفه وأسف صاحبة الجلالة وحكومتها، عن عدم اشتراك فرنسا في التوقيع على هذه الاتفاق، وبالتالي عن عدم مشاركتها في التدابير المتصلة بتنفيذ هذه المعاهدة، غير أن حكومة جلالتها مقتنعة، بأن مجلس التويلري، سيرى في مواد هذا الاتفاق براهين لا يمكن ردّها.

١ - إن الدول الأربع، عندما فرضت على نفسها جملة الواجبات التي تشتمل عليها المعاهدة، كانت تستوحيها من الرغبة المخلصة في حفظ مبادئ سياساتنا تجاه تركيا، تلك المبادئ التي أعلنت فرنسا في أكثر من مناسبة واحدة، أنها مبادئها هي أيضًا.

٢ - وأنها لا تحاول، من خلال الترتيبات التي اتفق عليها، أن تحصل على أية فائدة خاصة لأي من الدول الأربع، وأن الموضوع الذي نريده، هو الإبقاء على التوازن السياسي في أوروبا، واستبعاد الأحداث التي قد توقع الاضطراب في السلام العام.

وزارة الخارجية ١٦ / ٩ / ١٨٤٠

بالمرستون

مـذكـرة

من السيد تيير Thiers، رئيس الوزراء إلى السيد غيزو، سفيرنا في لندن

إن المشكلة الخطيرة التي تثير الانتباه العام في هذه اللحظة، قد اتخذت وجهاً جديداً، منذ أن وصل جواب الباب، عن الرخص التي قدِّمت منه لنائب الملك.

وأجاب محمد علي عن الإنذار الذي وجّهه إليه السلطان بقوله: إنه يخضع لسلطانه. ويقبل اقتراحه بتوريث الباشوية، وأنه يخضع في بقية الأراضي التي يحتلها، خضوعاً تاماً لجلالة السلطان. وقد أوضحنا للوزارة الإنجليزية، ذلك التأويل الذي يجب أن يعطى لهذه التعابير. وعلى الرغم من أن محمد علي لم يقبل أن يوضح مباشرة مدى التنازلات التي اضطر إلى قبولها، بتأثير الضغوط والتوصيات الفرنسية، فقد أخذنا على عاتقنا أن نوضحها. وقد أعلمنا من يعنيه الأمر أن نائب الملك يقبل توارث حكمه في مصر، وامتلاك ناصية الأمر في سورية، طيلة حياته، كما يقبل التخلي مباشرة عن جزيرة كاندي، وعن أضنة، وعن المدن المقدسة. وسنضيف القول: إنه إذا قبل الباب العالي هذا الترتيب، فسنكون نحن الضامنين لتنفيذه بالاتفاق مع الدول التي تعمل الآن على تحديد وضع الإمبراطورية العثمانية.

وما من رجل مثقف إلا ودهش من سلامة الموقف الفرنسي. وعلى الرغم من أننا أرغمنا على العمل، بطريقة منفصلة، فإننا لم نتوقف لحظة واحدة عن ممارسة نفوذنا بغية الوصول إلى حلٍّ سلمي ومعتدل للقضية الشرقية. ولن يسع كبار العقول في أوروبا إلا أن يقدّروا مثلنا رجاحة عقل نائب الملك، في إصغائه إلى نصائحنا بوجوب الأناة والاعتدال. وجواباً أورداً على هذه التنازلات، فإن الباب، الذي كان يعمل بصورة عفوية، أو الذي كان يصغ السمع لنصائح غير معقولة وغير متأنيّة، أجاب في نفس الوقت، ونفس المكان، أقول وأكرّر - وقبل أن يعود في الأمر

إلى الدول المتحالفة - أجاب عن ذلك التصريح بالخضوع، بإعلان عزله . وهذا التدبير، اللا متوقع بقدر ما هو مؤذٍ - يمضي بعكس اتجاه معاهدة ١٥ / ٧، بل إنه يتجاوز النتائج العجيبة الغريبة التي يمكن توقعها . وهذه المعاهدة التي لم يكن في وسع فرنسا أن تشير إليها، لأنها لم تكن قد وافقت عليها، ولم تعترف بها، لكنها تشير اليوم إليها، للبرهان على السرعة التي اقتيدت الدول فيها إلى نتائج أكبر خطراً - إذا لم يستجب نائب الملك إلى كل الشروط أو بعضها - وذلك يعطى الحق للباب العالي بالتصرف بالصورة التي تعود بالجدوى لمصالحة السلطان وتجعله قادراً على سحب عروضه الأولى، طبقًا لنصائح الدول المحالفة . ولنلاحظ أن في هذه المعاهدة، خيارين مزدوجين : الرفض القاطع والمطلق من جانب نائب الملك، لكل النقاط التي وردت في المعاهدة، ومن الجهة الأخرى العودة إلى الدول المتحالفة لطلب نصائحها .

وما من شيء من هذا النوع قد تم . ذلك أن نائب الملك لم يرفض ما قرِّر بشأنه رفضًا مطلقًا، وأن السلطان لم ينتظر قط أن يطلب نصائح الدول المتحالفة، وأجاب بعزل نائب الملك مقابل تنازلات غير مأمولة .

ولم يكن في وسع الدول المتحالفة أن توافق على مثل هذا السلوك . ونحن نعلم فعلاً أن بين هذه الدول من استاء من هذا التصرف المستعجل . ذلك أن اللورد بالمرستون أطلع وزارتنا على رسالة تُصرح بأن عملاً من هذا النوع يعتبر تهديداً، ولكن من دون نتائج ولا مدى فعلي . وقد صرّح لي الكونت Apponyi ، في لقاء تم بيننا حول هذا الموضوع، أن حكومته تشارك في هذا الرأي، حول عزل نائب الملك . ولقد أحطنا علماً بهذا الرأي الحصيف وانتهزنا الفرصة للإعراب عن نيات فرنسا، في هذا الموضوع وقد آن الأوان لتشرح فرنسا بوضوح معنى إعلانها هذا، وعلى كل حال فإن فرنسا أعلنت أنها ستبذل كل مافي استطاعتها من جهد، للإبقاء على السلام وعلى التوازن الأوروبي .

ومن المعروف ، منذ عام ١٨١٥ ، أن الوضع القائم في أوروبا ، لا يمكن أن يتغير لا لمصلحة أية دولة ولا على حساب أية دولة . وهكذا فإن الشعب التركي . بسبب من مزاياه القومية ، استحق ، لهذا السبب ، أن يحترم استقلال دولته ، ولهذا السبب وحده .

وبغض النظر عن هذا الاعتبار . فإن أغلى المصالح الأوروبية ، تتعلق بالمحافظة على وجود تركيا . وهذه الدولة الغارقة في التخلف ، لم تكن تستطيع إلا أن تُستخدم لتكبير الدول المجاورة ، على حساب التوازن العام . فإذا هي هلكت ، فإن هلاكها سيؤدي ، في النسب المرجوة للدول الكبيرة الآن ، إلى تغيير في وجه العالم كله . ولقد فهمت فرنسا والدول معها هذه النتيجة الممكنة ، فكان من ذلك أنها وحلفاءها عملوا على الاحتفاظ بالدولة العثمانية . ولكن هذه الدولة تمتد من شواطئ البحر الأسود ، إلى شواطئ البحر الأحمر . ومن الضروري أن تُضمن استقلال مصر وسورية ، كما تضمن الدردانيل والبوسفور . غير أن أحد الولاة التابعين للسلطان استطاع أن ينشئ دولة قوية في المنطقتين اللتين لم يستطع السلاطين أن يضمنوا سيطرتهم عليها .

وسيأتي باشاوات آخرون ، يعصون أسيادهم ، ويخضعون لكل التدخلات الأجنبية : وبكلمة واحدة نقول بأن جزءاً ما من الإمبراطورية التركية ، سيكون قلقًا . وفي الوقت نفسه ، سيختل التوازن العام . وعلى ما ترى فرنسا ، فإن وجود نائب الملك في المحافظات التي يشرف عليها وفي البحار التي يُبرز فيها سلطته ، شيء أساسي لضمان المواقع ، على النحو الذي استقرت عليه الآن في مختلف المناطق المعمورة . وفي مثل هذه القناعة فإن فرنسا ، المعنية ، هي أيضًا ، في المسألة الشرقية ، مع الدول الأربع التي وقعت بروتوكول ١٧ سبتمبر (أيلول) ، تعتقد أنها مضطرة للإعلان عن أن إقالة نائب الملك ، إذا هي قُبلت ، ستكون ، في رأيها ، ضربة للتوازن العام .

أما قضية الحدود التي يجب أن تقام في سورية، لفصل ممتلكات السلطان عن ممتلكات نائب الملك المصري، فيمكن، دونما خطر، أن تترك لظروف الحرب القائمة الآن. بيد أن فرنسا لا تستطيع أن تتخلى عن محمد علي، كأمير تابع للإمبراطورية، وتجعله في مهب الخطر.

ولئن لم يستطع هذا الأمير التابع، أن يُدخل بلده أو البلد الذي يحكمه، في صورة الإنسانية التي تميّز الحضارة الأوروبية الآن، والتي قد لا تتلاءم مع أعراف بلده وعاداته، فإنه، على كل حال، قد أدخل الشيء الكثير من النظام والانتظام، مما لا نجد له مثلاً في المناطق الأخرى للإمبراطورية العثمانية.

ولئن غُلّب نائب الملك على أمره، فإن الإمبراطورية، لن تجد بعده تلك الوسائل التي كانت في الماضي تنقصها، فلا تتيح للسلطان أن يحسن الحكم في مصر وسورية، وسيفقد الباب العالي تابعًا، هو الآن أحد كبار حصونها.

أما الحدود الجغرافية، التي يمكنها أن تفصل القوتين إحداهما عن الأخرى، بحكم ظروف الحرب، فلن يسع فرنسا أن تقبل حذف أي منها، وهي مستعدة للمشاركة في أي ترتيب مقبول، يستند إلى ضمان وجود السلطان، ونائب الملك وهي تكتفي الآن بالإعلان عن أنها لا تستطيع الموافقة على تنفيذ القرار الصادر عن السلطان بخلع نائب الملك. ومن نواح أخرى، فإن الدول التي وقّعت على اتفاق ١٥/ ٧، تبرهن على أن وجهات نظرها ووجهات نظرنا لا تختلف بعضها عن بعض، فيما يتصل بموازين القوى في أوروبا. ونحن نأسف على الاختلاف الذي قام بيننا والذي لم ندركه بعد. ولكننا لن نستطيع أن ننحرف عن هذه الصورة من الفهم، ولا عن طريقة أخرى للإبقاء على هذا التوازن.

ولا تزال فرنسا تأمل بأن ترى أوروبا الأسباب التي جعلتها تلتزم الصمت، التي ظلت تحتفظ به حتى الآن.

ويمكن أن يُعتمد هنا على حبها للسلام، إذ أن هذه العاطفة كانت دومًا

تسـاورها، على الرغم من الممـارسات التي هي مـدعـاة للشكوى من جـانبـهـا . وفي وسعنا الاعتـمـاد أيضاً على إخـلاصـهـا، إذ أن من المستـحيل أن نتهـمـهـا بالطمع في مكاسب أرضية، بل نحسب أن اهتمامها الأول هو خير العالم الذي يجب أن يكون موضوع أمجادها وطموحها .

باريس / ٨ / ١١ / ١٨٤٠

برقية

من اللورد بالمرستون، وزير الشؤون الخارجية إلى اللورد بونسونبي، سفيره في الآستانة.

سيدي . إن حكومة صاحبة الجلالة، بعد أن نظرت بعين الاعتبار إلى عزل محمد علي عن باشوية مصر، وإلى الأثر الذي أحدثه هذا العمل، بانعكاسه على القضايا المعلقة، وإلى الطريقة التي يكون من المفيد أن نتبعها بهذه المناسبة، قد دعت سفراء النمسا، وبروسيا، وروسيا، إلى بلاط سان - جيمس، لحملهم على إبلاغ كلّ منهم حكومته، أنه مما لا جدال فيه أن هناك شيئًا كثيراً من القوة، في الدواعي التي حملت السلطان على القيام بعمله هذا. وأنه إذا كان من الممكن، من إحدى النواحي ، ألا يكون هنالك ما يمنع السلطان من العدول عن قراره في هذا الشأن إذا هو (أي محمد علي) أسرع إلى الخضوع لسيده، فإن هذا القرار نفسه يمكن من جهة أخرى، أن يحدث تأثيراً معنويًا كبيراً في نفس محمد علي ، بجعله يفهم أنه إذا كان الصراع بينه وبين سيده سيتطاول، وأن هذا التطاول نفسه سيكون مؤذيًا له، سيفقده كل شيء، إذا هو تمادى في مقاومته.

ولهذه الغاية، ومن حيث أن هذا التدبير الذي اعتقد السلطان أنه يسرِّع به حل المشكلة الشرقية، فإن حكومة جلالته ترى أنه يكون من المناسب لسفراء الدول الأربع، في الآستانة، أن يزوروا الوزير التركي، والتصريح له بأن حكوماتهم ترى، تطبيقًا للمادة (٧) من العقد الملحق بمعاهدة ١٥ / ٧ أن توصي ، بقوة ، جلالة السلطان بإعادة الباشا إلى منصبه إذا هو أسرع بالخضوع، وسلّم الأسطول إلى أصحابه، وأتم الانسحاب من سورية وأضنة وكاندي والبلاد المقدسة، وكذلك

بجعل باشويته وراثية، طبقًا للشروط الواردة في معاهدة ١٥ / ٧ مع تهديده بأن هذا كله سيلغى إذا كان هو وورثته لا يلتزمون بهذه الشروط .

ولحكومة جلالتها أسباب وجيهة للثقة بأن هذه الفكرة ستحصل على تأييد حكومات روسيا وبروسيا والنمسا . وعلى ذلك فإن سعادتكم سيقوم بما ينبغي أن يفعل، من تلقي السفراء الآخرون توصيات حكوماتهم . وإذا رأى ، جلالته، أن من المناسب، العمل طبقًا لما اتفقت عليه الدول الحليفة له، أن يُعلمَ محمد علي بتدابير فورية لإعلامه بنيات السلطان الحسنة نحوه . وفي هذه الحال، فإن سعادتكم والسيد روبرت ستوبفورد، يقدمان للحكومة التركية، كل التسهيلات التي يمكن أن يطلبها لهذه الغاية .

لندن ١٥ أكتوبر ١٨٤٠

- ٤ -

مصطلحات الكلمات العربية والتركية

الأشراف، جمع شريف . وفي العهد التركي كان هذا اللقب يطلق على من يكون من أحفاد النبي (ص) .

الآغا ، رئيس ميليشيات الإنكشارية .

عالم : وجمعها علماء ويطلق هذا الاسم على الرجال الذين يحسنون معرفة الأحكام الدينية

بيرم : اسم العيدين الإسلاميين

بيلربك : الحاكم

بنباشي : رئيس كتيبة

كابتين بك : قائد سفينة

كابتين باشا : أميرال

القواص : الحارس

دفتر : السجل

دفتر دار : مراقب المالية

ديريك : سيد الوادي، صاحب أراض واسعة

جرم : مركب لتحميل البضاعة

دروغمان : الترجمان

الذمي: الرجل الذي يعتنق ديانة أخرى غير الإسلام ويكون محميًا من قبل رجال السلطة.

كوتشك - إيمبروكور ، حامل سلاح ثاني ، معلم الفروسية

أوجاك - ميليشيا

عهدة : المزارع الذي يعهد إليه برعاية أرض زراعي

عشوري : أراض خاضعة لضريبة العشر

سيليكدار : حامل سلاح معلم فروسية

سبراسكبيه : وزير الحربية

الجفتلك : زراعة تملكها الدولة

النيلي : زراعة طبيعية

ملاحظة: تستخدم هذه الكلمات التي لم نورد إلا بعضها، في اللغة التركية. ولم نذكرها كلها، لأن العربي يفهمها مباشرة. ومع ذلك فإننا نورد الكلمات الأخرى على سبيل البرهان. فمن هذه الكلمات الباب والبحر(أي النيل) والبلدي ، والبيت، والبيك، والذمي، والخليج، والوالي والوقف والديوان، والذرة الصفراء والأفندي، والأمير والفرمان . . إلخ.

- ٥ -

مصطلحات الملاحة البحرية للفترة ما بين ١٨٠٠ - ١٨٥٣

هنا يذكر المؤلف أسماء السفن البحرية، بأنواعها المختلفة.

Brick بريك Brick، للحرب أو للتجارة، سفينة يتراوح طولها بين ١٠ - ٢٢ م. وعرضها بين ٧ - ٥,٩م. وكان فيها، في الغالب ستة مدافع. ولها ساريتان وسارية مائلة في مقدمة السفينة.

Corvette. مركب متوسط بين الفرقاطة والبريك. وفيه ٢٦ مدفعًا من العيار المتوسط.

Cutter: سفينة صغيرة بصارٍ واحد، وآخر شديد الميل إلى الخلف أو مسلحة بست أو ثماني قطع مدفعية ضعيفة، طولها ٢٠ م تقريبًا وعرضها ٦ أمتار.

Fregate: فرقاطة. أبعاد جسمها ومدافعها تختلف جدًا. وهي سفينة ذات ثلاث صواري ومتوسطة بين الكورفيت، وسفينة الجبهة، طولها بين ٤٠ - ٥ مترًا، و ١٠ - ١٢ كعرض، تُسلّح بثلاثين أو ستين مدفعًا، سهلة التحريك وسريعة: ١٠ - ١٢ عقدة.

Coelette: سفينة خفيفة ذات ساريتين، وأشرعة مثلثة الشكلة.

Vaisseau de Ligne سفينة تتميز بكثرة مدافعها- (٧٠ - ١٢٠) يتغير طولها بين ٥٤ و ٦٤ مترًا عرضها يتراوح بين (١٤ - ١٦) مترًا تقريبًا. ومسحوبُ مائها من ٦ إلى ٨ أمتار وكانت حمولتها تتراوح بين ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ طن. فيها

ثلاثة جسور و (ثلاث سرايا مدفعية مغطاة، وجسران (سريتان معًا خافيتان) . سرعتها بين ٧ - ٨ عقد (١٥ كم في الساعة) وتصل تحشيتها أحيانًا إلى ٦٠ سم كشخانة. أحسنها ما له جسران ، تجمع بين القوة والسرعة تتراوح مدافعها بين الثمانين والتسعين مدفعًا، وسهلة الحركة في كل الظروف.

مدافع البوارج Arilleries de vaisseau، ٣٦ في البطارية المنخفضة ثم ما بين ٢٤ - ١٨ في الجهات الأخرى (الوزن بالليبرات للقنبلة المدفعية المقذوفة) أصبحت كلها من نوع (٣٠) بعد عام ١٨٢٤ .

السدنة : يحسب لكل مدفع ١٠ رجال، مع إضافة للخدمات العامة. وكل بارجة من ثلاثة جسور، تحتاج إلى أكثر من ١٣٠٠ رجل. وكانت الفرقاطات تحتاج إلى ٣٥٠ - ٥٠٠ رجل.

أما البريك والكورفيت ، فرجالها ١٥٠ أو ٢٥٠ وما بينهما .

تعريف مبسط للعملات والأوزان والمقاييس

العملات

يعود الفضل إلى بونابارت في إقامة تعرفة نقدية مصرية . ففي ٥ / ٧ / ١٧٩٨ ، قرّر التعادل بين العملات الفرنسية والأجنبية والمصرية .

العملات الذهبية	البارات
الليرة الذهبية المضاعفة	١٣٤٤
الليرة العادية	٦٧٢
السيكان البندقي	٣٤٠
السيكان الهنغاري	٣٠٠
السيكان زر محبوب	١٨٠
سيكان الآستانة	٢٠٠
العملة الفضية	**البارات**
الإيكو ذو الست ليرات الفرنسية	١٦٨
الإيكو ذو الخمس ليرات و ٣ , ١ اسول فرنسي	١٤٢
الإيكو ذو الثلاث ليرات	٨٤
قطعة الثلاثين سولا	٤٢
قطعة الأربعة والعشرين سولا الفرنسية	٣٣
القرش الإسباني مقابل ٥ ليرات و ٧ سول فرنسي	١٥٠
التالاري مقابل ٥ ليرات و ٧ سول فرنسي	١٥٠

ويجب أن نلاحظ أن الحكومة المصرية لم تتخذ كأساس لعملتها أية عملة لا على التعيين ، مثل البارة، والقرش التركي أو سيكان استامبول أو القاهرة . إن هذه العملات قد تغيرت قيمتها أكثر مما يجب، سواء أكان ذلك في حقيقتها الفعلية أو الاسمية. ولشد ما ضعفت قيمتها بحيث لم يكن اتخاذها كأساس لتعرفة نقدية. وعلى ذلك فقد اختبر thaler التالير الجرماني. الذي كان يُقَيَّم تقييماً عالياً في البلاد الإسلامية، كأساس للعملة المصرية.

البورص : ٢٥٠٠٠ باره

الفندقي : ٨٠ باره

الفلس الجديد . . قطع نحاسية

الفندقلي : بين ١٣٤ - ١٤٦ بارة عام ١٧٣٦

الليرة ١٠٠ قرش

البارة : استخدمت البارة أثناء العهد العثماني كله . أما البارة الفضية المصرية فإنها كانت تعود إلى عهد المماليك، وكانت تسمى، المؤيدي لنصف الدرهم. وفي السنوات الأولى لحكم سليمان الأول (١٥٢٠ - ١٥٦٦)، كانت البارة تزن ١,٢٨٩ (أي خمسي الدرهم) وبعدأكثر من قرنين كانت البارة لا تزن أكثر من ٢٢٥، غرام

وهكذا فإن الباتاك = ٩٠ بارة

القرش ما بين ٣٠ - ٤٠ بارة

والريال = ما بين ٣٦ - ٤٥ بارة

والتالاري = ٢٠ قرشاً أو خمس الليرة

وكان الأساس في النشاط التجاري، يقوم على العملات الأجنبية. أما المعاملات المحلية فكانت تقوم على العملات المحلية التي عانت من تخفيض ضخم، سيء النتائج إلى أبعد الحدود خلال القرنين الأخيرين من الحكم العثماني [1].

الأوزان والمقاييس

الأردب : يستخدم لوزن الحبوب. أما ما يتعلق بالقمح فإن أدوار لان Lane يقدره بما يوازي الخمس بوشيلز Buschels، أي ما يقرب من ١٨٢ ليتراً.

أما الذراع ، فإنه يتغير حسب المنتجات، أي ما حول ٥٧, ٥٧ سم إلى ٣, ٦٧ سم

والفدان مقياس للمساحات الزراعية أي ما يعادل ٤٢٠٠ م٢

والقنطار يعادل ٤٤, ٣٣كغ. وهو مقسّم إلى ٣٦ أوقية و ١٠٠ رطل. والرطل يوازي (٤٤٣، . كغ).

(١) - أنظر Andre Raymond ، ١٩٧٣ . دمشق .

بسم الله الرحمن الرحيم

تتشرف الأسرة المالكة لمحمد علي بإعلامكم بزواج سمو الأمير فؤاد الثاني المصري من الآنسة فضيلة فرانس ريكار.

تم الاحتفال بصورة صميمية جداً يوم ٥ تشرين الأول ١٩١٧، في قصر أصحاب السمو أمراء الأسرة الحاكمة في إمارة موناكو . وقام سعادة السي حمزة بوبكر، عميد المؤسسة الإسلامية لجامع باريز والعضو المراسل للمجلس الأعلى للقضايا الإسلامية في القاهرة بمراسم الزواج

٨٢ - شارع فوش باريس ١٦

وجُهّت بطاقة هذه الدعوة من قبل الأمير فؤاد إلى السيدة دورروش نوبلكور ونحن نشكرها على تفضلها بإيصالها لنا.

تاريخ الوقائع

التاريخ	الواقعة الغربية	الواقعة المصرية
١٧٩٨	١ - أول تموز (يوليو) الحملة الفرنسية على مصر جورج الثالث ملك إنجلترا منذ عام ١٧٦٠	
١٨٠١		٨ / ٣ / نزول إنجليزي عثماني في أبو قير . وكان محمد علي جزءا من القوات . ورفُع إلى رتبة بنباشي ٢٢ - حزيران : استسلام مينو ٩ / ٨ رحيل آخر فرنسي عن مصر : خسرو باشا، نائب الملك في مصر : خورشيد باشا ، يُعيّن حاكماً للإسكندرية ٢٢ / ١٠/ مذبحة بكوات المماليك .

١٨٠٣		١١ / ٣ الإنجليز يتركون مصر ١٢ / ٤ / إقالة خسرو الذي يخلعه طاهر باشا ٢٧/ ٥/ مقتل طاهر باشا. ٨/ ٧/ الجزائري يصل إلى الإسكندرية بديلاً عن خسرو. تموز مقتل الجزائري. والبرديسي حاكم متوقع لمصر الشهر الثاني. عودة ألفي بك إلى مصر
١٨٠٤	مايس: بونابرت إمبراطور فرنسا كانون الأول تتويج نابليون الأول	منتصف الشهر الثاني: هرب الألفي إلى أعالي مصر
١٨٠٥	٢ / ك ١ أوسترلتز	شباط: إعادة خسرو لحكم مصر، بواسطة محمد علي منتصف شباط: خسرو المعزول، يبحر إلى الآستانة آخر شباط: خورشيد باشا يُعين نائبًا للملك. أوائل أيار: تسمية محمد علي كباشا لجدة ليلة ١٢ / ١٣ يجمع العلماء على تعيين محمد علي. ١٨ / حزيران: يوافق الباب العالي على تعيين محمد علي. آخر آب وصول إبراهيم وطوسون إلى مصر.

١٨٠٥		٢٨ / ١٠ رحيل خورشيد إلى الآستانة
١٨٠٦		تموز : محاولة عزل محمد علي من قبل الباب العالي، مقابل باشوية سالونيك تشرين الأول : موت البرديسي
١٨٠٧	معاهدة تلسيت	كانون الثاني موت الإلفي ١٧ آذار : وصول الإنجليز بحراً ٢١ آذار : هزيمة الإنجليز في الرشيد. ٢٥ أيلول : رحيل الحملة الإنجليزية.
١٨٠٨	حرب إسبانيا	كانون الثاني : محمد علي يضع يده على الأوقاف أيار : انقلاب في الآستانة سليم الثالث يُعزل ويوضع مكانه محمود الثاني تأميم كل الأراضي الزراعية بأمر محمد علي

١٨٠٩	تموز : معركة فاغرام	أيار : وصول زوجة محمد علي وبقية أفراد الأسرة
١٨١٠	نيسان ، نابوليون يتزوج ماري لويز النمساوية	
١٨١١		أول آذار : مذبحة المماليك في القلعة تشرين الأول : بداية حملة طوسون في الجزيرة العربية
١٨١٢	معركة روسيا	تشرين الثاني: الاستيلاء على المدينة .
١٨١٣	هزيمة ليبزيغ	كانون الثاني : الاستيلاء على مكة . أيلول : حملة محمد علي إلى الجزيرة العربية
١٨١٤	معركة فرنسا	٢٠ / ١ انتصارBiseL
١٨١٥	المئة يوم ١٨ حزيران : واترلو صعود لويس الثامن عشر إلى العرش	

١٨١٦	حل الجمعية المنحازة للملكية الدوق دوريشليو رئيساً للحكومة	٢٣ أيلول : بداية معركة الجزيرة العربية لإبراهيم.
١٨١٨	ريشليو يستبعد ويحل محلهDeCazes ديكاز	١٥ أيلول : الاستيلاء على الدرعية
١٨١٩		تموز : وصول جوزيف الملقب بأنسلم سيف Seveالذي سيكون سليمان باشا في المستقبل
١٨٢٠	نجاح انتخابي للمتطرفين جورج الرابع يحل محل أبيه جورج الثالث الذي أصيب بالجنون	حزيران : بداية حملة السودان قطن جومبل
١٨٢١	٥/ ٥/ موت نابليون (في المنفى) (سانت هيلين) ريشليو ينسحب من الحكومة ويأتي بدلاً منه فيليل ميترنيخ . مستشار النمسا	شباط : تدشين المحمودية ٢٥ / آذار : ثورة الأغاريق على الأتراك ٢٧ أيار : وصول إسماعيل إلى أم درمان (الخرطوم فيما بعد) أيلول : إبراهيم في السودان
١٨٢٢		تشرين الأول : اغتيال اسماعيل في شندي وتأسيس الخرطوم

١٨٢٣		نيسان : محمد علي يقضي على تمرد كريد
١٨٢٤	١٦ أيلول : موت لويس الثامن عشر الذي يخلفه أخوه شارل العاشر	تموز : بداية معركة موريه
١٨٢٥	٢٩ أيار : تتويج شارل العاشر في رانس Reims	٢ آذار : إبراهيم في مودون ١٨ مايس : الاستيلاء على نافارين
١٨٢٥		كانون الأول : وصول الدكتور كلوت إلى مصر
١٨٢٦		أول بعثة للطلاب المصريين في باريس ٢٣ نيسان : الاستيلاء على ميسولونغي . محمود الثاني يقضي على الانكشارية
١٨٢٧		٢٠ تشرين : هزيمة نافارين
١٨٢٨	فيلليل يحلّ محله مارتينياك (من الأحرار)	٢٦ نيسان : روسيا تعلن الحرب على تركيا . الجلاء عن الموريه ، بقيادة إبراهيم ١٨ آب : يستقبل شامبوليون ، من قبل دروفيتي في الإسكندرية ٢٤ آب : شامبوليون يقابل محمد علي

١٨٢٩	٨ أب : مارتينياك يخلفه بولينياك (متطرف)	١٤ أيلول : سلام اندرينوبل
١٨٣٠	حلول بالمرستون في خارجية بريطانيا - غيوم الرابع ، ملك إنجلترا ٥ تموز : الاستيلاء على الجزائر ٢٧ - ٢٩ تموز : ثورة تموز « الأيام الثلاثة المجيدة» ٣١ تموز : استقاله شارل العاشر .	
	٧ آب : تسمية لوي فيليب كملك للفرنسيين	٧ آب : الباب العالي يمنح محمد علي باشوية كاندي
١٨٣١	١٣ / ٣ : وزارة كازيمير بيريه ١٥ / ٤ الأقصر تتحرك باتجاه مصر تشرين الأول : بداية الحملة على سورية	٢٦ / ١ : شامبوليون يغادر مصر ١٥ / ٤ الأقصر تبحر إلى القاهرة
١٨٣٢	آذار : موت كازيمير بيريه ٤ / آذار : موت شامبوليون سولت ، رئيس وزراء	٢٧ مايس : الاستيلاء على عكا ٨تموز : هزيمة الباشوات ١٤ آب : الاستيلاء على حلب

١٨٣٢		٢١ كانون ١ : نصر قونيه ٦ كانون الثاني : فردينان دولسيبس نائب قنصل فرنسا في الإسكندرية
١٨٣٣		٢٠/ ٢ : العبارة الروسية ترسو في البوسفور ٢٥ / ٣ : حديث لوي فيليب مع الدكتور كلوت نيسان : مهمة بوالوكونت ٨ تموز : معاهدة انكيار سيكيليسي . محمد علي على رأس باشويات
	١٤ / ٥ وصول أوائل السان سيمونيين إلى مصر	
١٨٣٣	٢٣/ ١٢/ مسلة الأقصر نصبت في الكونكورد	القدس ، عكا ، نابلس ، طرابلس ، دمشق حلب ، أضنة .
١٨٣٤	تيير ، وزير الشؤون الخارجية	أيار : أول تمرد في فلسطين ٢٨ / ٦ : محمد علي يترك مصر باتجاه سورية ٢٩ / ٧ عودة محمد علي إلى القاهرة .
١٨٣٦	أيلول : استقالة تيير . ومولية رئيس الوزارة والشؤون الخارجية ٦ / ١١ موت شارل العاشر	
١٨٣٧	فيكتوريا ، ملكة بريطانيا	

١٨٣٨		محاولات من أجل الاستقلال (محمد علي) معارضة القوى العظمى ١٥ / تشرين ١ : سفر محمد علي المفاجئ إلى السودان
١٨٣٩		١٤ / ٣/ عودة محمد علي إلى القاهرة ٢٤ / ٦ نصر نصيب ١ / ٧ موت محمود الثاني عبد المجيد يخلفه ٩ / ٧ أسطول العثمانيين تسلّم قطعه إلى محمد علي
١٨٤٠	شباط : سقوط M ole عودة تيير إلى رئاسة الوزارة. ٢٩ . تشرين الأول : وزارة سولت غيزو	آذار : تمرد سوري جديد ٧ حزيران : خلع خسرو ١٥ تموز : معاهدة لندن تموز : مهمة فاليفسكي
١٨٤٠		١٦ / ٨ : إبلاغ محمد علي شروط معاهدة لندن أيلول : العمارات البحرية المتحالفة تتجه إلى الشواطئ السورية تشرين الأول : قذف بيروت بالقنابل
١٨٤٠	اكتوبر : تيير يضطر إلى الاستقالة برغبة من الملك	١٩ / ١٠ : استيلاء الحلفاء على طرابلس ٢٧ / ١١ اتفاق نابييه

١٨٤١		١٣ / ٢ / فـرمـان يهب حق الـوراثة إلى محمد علي في حكم مصر
١٨٤٤		موت بوغوض يوسفيان تموز : أول عــلامـــات الاضطراب العقلي لدى محمد علي
١٨٤٥		إبراهيم في سان جيتانو
١٨٤٦		كانون الثاني : إبراهيم في فيرنيه ليبان Vernet Les Bains ٢٢/ ٤ وصول إبراهيم إلى باريز
١٨٤٦		٢٨ / ٤ استقبال في التويلوري ٢٥ / ٥ / في استقبال واحتفال الشان دومارس ١٠ / ٧ مـحـمـد علي يقابل السلطان عبد المجيد في استنبول ١٣ / ٧ / إبراهيم يحـضـر في لندن المأدبة التي أقامها على شرفه اللورد بالمرستون . ٣ / ٨ عودة محمد علي إلى مصر . ٢٤/ ٨ عـودة مـحـمـد علي إلى الإسكندرية
١٨٤٧	غيزو رئيس الوزراء	٩ / ٤ وضع حـجـر الأسـاس لسـد القناطر الخيرية

		٢٠ / ١٠ إبراهيم يمضي إلى بيـزا من جـديد ويلاحظ أن صـحـتـه تتـدهور , بسرعة .
١٨٤٨	٢٤ / ٢ سقوط لويس فيليب ٢٥ / ٢ اعلان الجمهورية	١١ / ٢ الحالة الجسدية والعقلية تزداد خطورة عند محمد علي ، وبناء على نصـائح الدكـتور كلوت ، يسافـر إلى أوروبا . ٦ / ٣ إبراهيم يستقبل محمد علي في نابولي . ٣٠ / ٣ عـودة إبراهيم ومحمـد علي إلى مصر
١٨٤٨		١٥ / ٤ إبراهيم هو نائب الملك الجديد في مصر ضمنيًا ٢٥ / ٨ تنصيب إبراهيم في استنبول ٣ / ٩ عـودة إبراهيم إلى القـاهرة ، وهو أسوأ حالاً ١٠ / ١١ موت إبراهيم . عباس الأول نائب مالك مصر .
	١٠ / ١٢ لويس نابوليـــون ينتخب كرئيس للجمهورية	
١٨٤٩		٢ / ٨ موت محمد علي

الفهرس

الصفحة

الصفحة

ولد جيلبير سينوي في القاهرة عام ١٩٤٧ وحاز على جائزة باعة الكتب ١٩٦٦ على « كتاب الياقوت الأزرق»، ثم نشر منذ عام ١٩٨٧ كتاب « الأرجوان وشجرة الزيتون »، وفي عام ١٩٨٩ ، « ابن سينا أو طريق أصفهان»، كما نشر عام ١٩٩١ كتاب « المصرية» ثم عام ١٩٩٣ كتاب « بنت النيل» .

١٨٠١ - رجل ، كان قد ولد في مرفأ من مرافئ مكدونيا، تويجراً في التبغ، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، يبحر في وادي النيل .

وعلت به الأيام، فأصبح رئيساً لحكومة مصر، وخلال أربع سنوات، وبعد ما يقرب من ثلاثين قرناً بعد رعمسيس الثاني، يصبح الفرعون الأخير . ولما كان الحاكم المطلق، فإنه حقق المستحيل، وانتزع البلد من الظلمات، وأنشأ إمبراطورية تمتدّ من الخليج العربي إلى صحراء ليبيا، ومن السودان إلى المتوسط، أي ما يعادل مساحة فرنسا عشر مرات، ونصف مساحة أوروبا، مقترباً بذلك من الأعالي التي يسكنها معبوده، نابوليون بونابرت .

ويستمد من أرض لا غابات فيها، بحرية كبيرة، ويؤسس مدارس، ومشافي وصناعات وترسانة، وجيشاً هو أكبر من كل جيوش الشرق، ويستورد أوائل المكنات البخارية ، ويهب مصر ، فوق ذلك ما طوله ١٦٠ كم من الأقنية، يدخل البرق الهوائي، ويقوم بزراعة أكثر من مئة ألف شجرة زيتون، وعشرة ملايين شجرة توت على حدود الصحراء. وهذا كله ينجزه مع فرانسا، وبفضل عناصر فرنسية . فيمكن القول إذن إن مصر محمد علي ليست بعيدة أن تكون محافظة فرنسية .

وفي قمة حكم دام ما يقرب من خمسين سنة، يكون قد أنشأ الخرطوم ووصل إلى أبواب استنبول، وهزّ السلطة العثمانية في أسسها ووقفت أوروبا كلها تنظر إلى ما يفعل.

إن هذا الفرعون الأخير - الذي أهدى فرنسا مسلّة الكونكورد - هو الذي جعله جيلبير سينوي يعيش من جديد تحت أبصارنا، وفعل ذلك بكل مالدى المؤرخ من دقة، بالإضافة إلى موهبة الراوي الكبيرة التي نعرفها له.

«... وحقًا فلأنّ سينويه قد انفتحت عيناه على هذا البلد، ولأنه يفهم بعمق مانسميّه بالشرق الأدنى، استطاع أن ينفذ بدقّة عظيمة إلى عقلية بطله، وأن يُحلّلَ ردودَ فعله، ويفهم الدوافع التي تحركه. أضف إلى ذلك، أنّه كان مُسلّحًا بمعرفة دقيقة جداً، لا تشكو من أية ثغرة: وهذا ما جعله يتابع حتى الموت تلك المغامرة اللامعقولة، لرجل كفالا ...»

كريستيان درروش نوبلكور

الطبعة الأولى / ٢٠٠٥

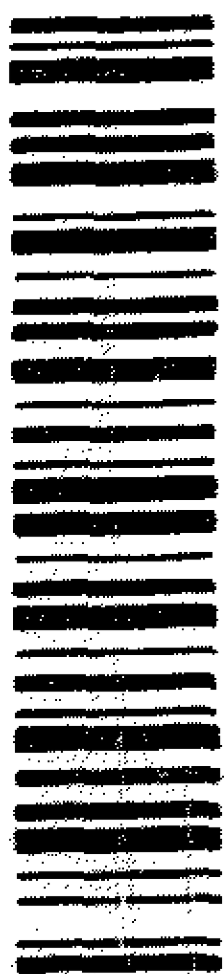
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

كانت محاولة محمد علي للإصلاح والنهضة أول محاولة حديثة في المنطقة العربية للإصلاح، وكانت سابقة للإصلاح والنهضة في اليابان "عصر الميجي" وبتأثيرها أعلنت " الإصلاحات العثمانية " أواسط القرن التاسع عشر.

ما قصة محمد علي؟! ما قصة مشروع الإصلاح ومصيره؟!

هذا الكتاب محاولة لدراسة هذا الموضوع.

- كتاب هام وجدير بالقراءة ويلقي الأضواء على أسس حركة تاريخية ما تزال مستمرة في المنطقة العربية.







سعر النسخة داخل القطر ٣١٥ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ٦٣٠ ل.س

٢٠٠٥